مكتبة الأسرة
١٩٩٦ 1996
مهرجان القراءة للجميع

معجم الحضارة المصرية القديمة

الطبعة الثانية





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

معجم الحضارة المصرية القديمة



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

معجم
الحضارة المصرية
القديمة

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب
والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

معجم الحضارة المصرية القديمة

جورج بوزنر

سيرج سونرون جان يويوت

أ.أ.س. ادواردز ف.ل. ليونيه

جان دوريس

ترجمة : أمين سلامة

مراجعة : د. سيد توفيق

على سبيل التقديم...

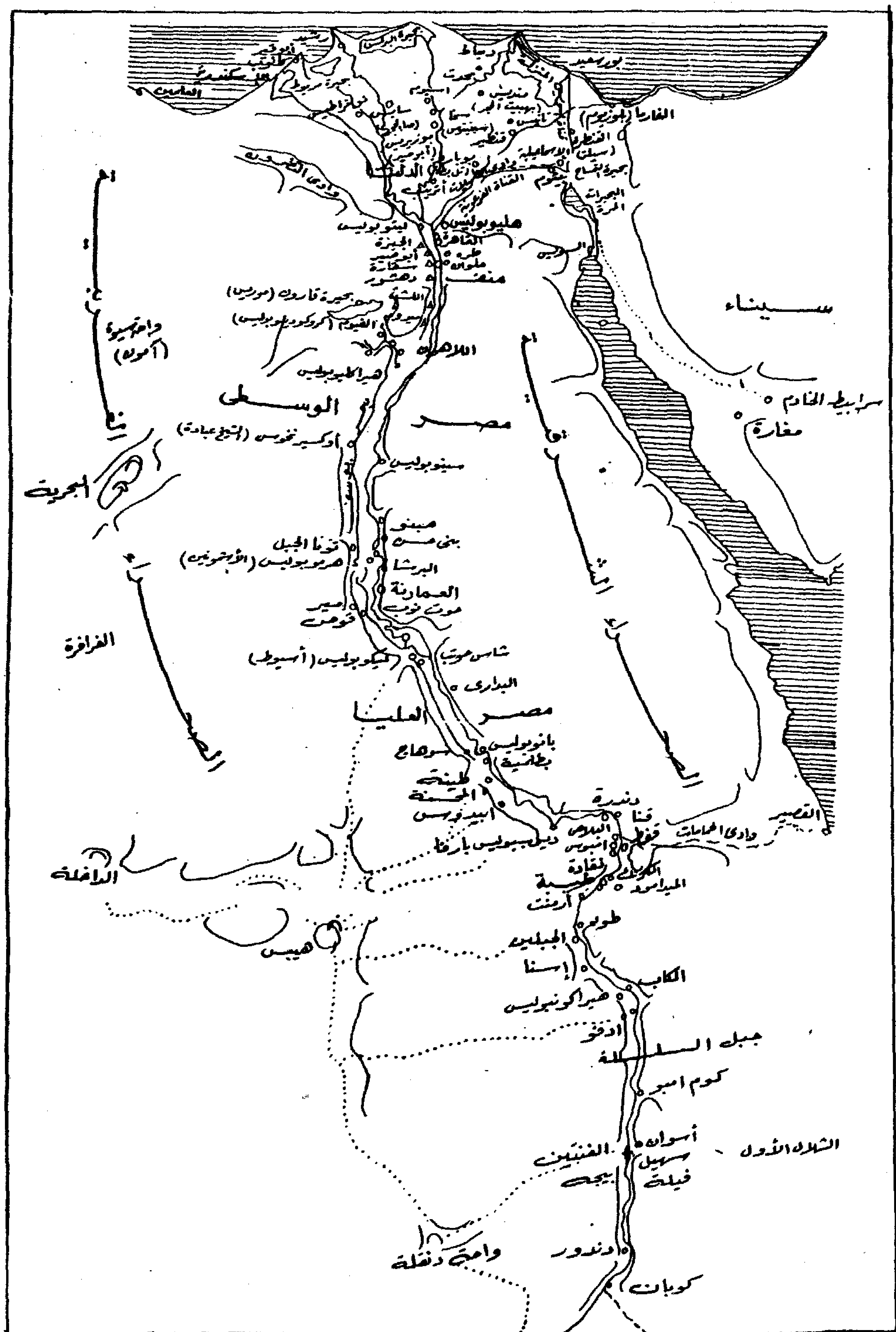
لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

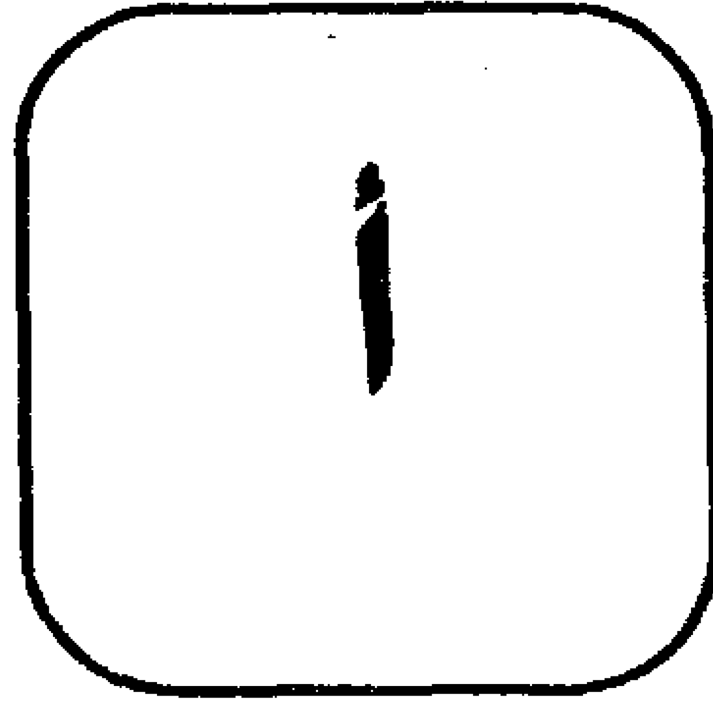
هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان



سيناء
سرابيط الخادم
مغارة
مصر الوسطى
مصر
مصر العليا
هليوبوليس
القاهرة
الجيزة
منف
سقارة
دهشور
اللاهون
البحرية
الفرافرة
الداخلة
هيبس
واحة دنقلة
سينوبوليس
بني حسن
تونا الجبل
البرشا
العمارنة
البداري
سوهاج
أبيدوس
دندرة
قنا
قفط
القصير
وادي الحمامات
نقادة
طيبة
أرمنت
طود
الجبلين
إسنا
الكاب
هيراكونبوليس
ادفو
جبل السلسلة
كوم امبو
أسوان
الفنتين
سهيل
فيلة
بيجه
الشلال الأول
دندور
كوبان



ابن آوى Jackal :كثيراً ما يذكر « ابن آوى » أنوبيس ، فى النصوص المصرية . كان الإله الجنائزى المتجسد فى صورة حيوان من الفصيلة الكلبية أسود . وكان لويس كيمر Louis Keimer ، العالم الطبيعى وعالم الآثار المصرية الشهير ، على حق عندما أنتقد زملاءه حينما استعملوا هذا المصطلح فى وصف ذلك الحيوان المقدس ، أو عندما قالوا إنهم رأوا ابن آوى فى جبال طيبة . فابن آوى الحقيقى لا يوجد فى مصر ، غير أن علماء الحيوان أطلقوا ، تحت تأثير ضغط « الخطأ المشهور » ، اسم « ابن آوى المصرى » على « الكلاب الجائلة » ، وهى حيوانات تشبه الذئب ، لها آذان كبيرة مدببة ، وخطم طويلة ، وأجسام نحيفة لينة ، وذيول طويلة منفوشة الشعر . هذه الكلاب ، التى هى نوع من الحيوان المعروف علمياً باسم Canis Lupaster (أى الكلاب الذئبية) كانت موجودة بكثرة منذ زمن طويل . وتثنى النصوص على سرعة البرق التى يتصف بها « الكلب البرىّ ، الذى يجرى بسرعة عندما يبحث عن فريسة ، والذى يستطيع أن يجرى حول العالم فى دقيقة » . كانت هذه السلالة ، الأريستوقراطية رغم كونها منبوذة ، هى الصورة الأرضية لإله أسيوط ، ويواووت Wepwawet ، « فاتح الطرق » . ولما كان أخوة هذا الحيوان البري يجولون فى أطراف الهضبة الجافة وفى وادى النيل ، فقد اعتقد أنه التمثيل الحقيقى لأنوبيس ، محنط الموتى ومرشدهم . وعلاوة على ذلك ، كانت هذه الحيوانات هى الصورة الأولى للكلاب التى تجر سفينة الإله رع ، فى مناظر معينة للشمس الغاربة . ألبس الفنان ، « ابن آوى » أنوبيس ، والكلاب الجنائزية الأخرى ، أثواباً سوداء مثل الراتنج الأسود المستعمل فى التحنيط ، ولذا كان لونَ البعث (وليس لون الحِداد) ، وذلك فى صور ذلك الحيوان . ولكيلا يُتوَّج فى المعابد سوى حيوانات أنوبيس المقدسة ، حددت الطقوس شكل ولون البقع التى تميز تلك الحيوانات الجديرة بأن تمثل هذه الأرباب النابحة . أما البسطاء فقد دفعتهم عواطفهم الدينية إلى البكاء عند وفاة أحد الكلاب التى نجد مومياواتها فى جبانات أسيوط وكينوبوليس Cynopolis وغيرهما من البلدان الأخرى .

أبو سمبل : موقع فى النوبة السفلى ، به معبدان منحوتان فى الصخر فى الحجر الرملى للجبل الغربى ، ويشرفان على النيل

فى موضع كانت به احدى المستعمرات المصرية وقد شيدهما رمسيس الثانى .

المعبد الكبير : وتزين واجهته أربعة تماثيل ضخمة جالسه للملك ، وقد خصص لعبادة إله الشمس « رع حور آختى » ، وبهو أعمدة هذا المعبد يتميز بمناظره الرائعة سواء الدينية أو الحربية ولعل أشهرها ما يصور معركة « قادش » . أما المعبد الصغير : فتزين واجهته ستة تماثيل ضخمة واقفة ، وهو مخصص لعبادة كل من الربة حتحور والملكة « نفرتارى » زوجة رمسيس الثانى . تم نقل المعبدان لحمايتها من الغرق إلى بقعة تبتعد عن المكان الأصلى نحو ٢٠٠ متر وترتفع عنه حوالى ٧٠ متراً .

أبوفيس Apopis : ثعبان جنى عملاق الحجم ، كان يهدد نظام الكون بأن يهاجم سفينة الشمس كل صباح ومساء ، ويُهزَم باستمرار ، كما يولد باستمرار . ولذا صار غير قابل للفناء ، فكوَّنَ عنصراً ثابتاً فى نظام الكون . كان هذا الثعبان هو الخطر الذى أجبر قوى التوازن على أن تعيد تثبيت نفسها يومياً .

وتحتوى كافة مجموعات النصوص الدينية على فقرات تتضمن هجوم أبوفيس وهزيمته . وقد انتفعت التعاويذ السحرية المصاغة للمعابد ، بالسحر التعاطفى واللعنات ، وبفضل ذلك استطاع الكهنة أن يشلوا هجوم ذلك الوحش فى اللحظة الحرجة عندما تلهث سفينة الشمس . وأدى استمرار إدماج عدة أنظمة لاهوتية إلى القول أخيراً بأن أبوفيس هو الإله ست الذى كان ألدّ أعدائه فيما مضى ، والذى صار بعد ذلك رمز القوى العدائية والتمردات ضد الآلهة .

أبو منجل Ibis : يجب ألا نخلط بين أبى منجل ، ذلك الطائر الذى قدسه قدماء المصريين ، وبين أبى حُـدَيج White heron ، الطائر الصغير الذى يطير فى الحقول فوق قطعان الماشية ومجارى المياه ، ويلتقط الحشرات من على ظهور الجاموس والأبقار . ولا شك أن الأقدمين كانوا يعرفون طائر الماشية ذاك ، « الذى يطلق عليه أحياناً « أبو شوشة » » ، وغيره من الطيور صديقة الفلاح . بيد أننا نرى أبا منجل الحقيقى على قبور قدماء المصريين ، الذى كانت منه هناك ثلاثة أنواع تسكن مستنقعات النيل ، وهى : أبو منجل الكاذب ، وهو طائر مهاجر بنىّ الرّيش ، لايزال يزور تلك المنطقة سنوياً ، وتبعاً للقصة الخرافية ، يحمى الدولة من غزو الحيات المجنحة ؛ وأبو منجل ذو العرف ، البرونزى الريش ، الذى لا يوجد فى مصر حالياً وانما نراه فى النقوش الحجرية حيث كان الرمز الهيروغليفى 𓄿 لكلمة « يضىء » ومشتقاتها . وأخيراً ، هناك أبو منجل الجميل المقدس ذو الجسم الأبيض والرأس والذيل الأسودين ، الذى تجسد فيه الإله تحوت . ولايزال اسمه الشائع القديم « هيب Hib » ، مستعملاً فى اللغات الحديثة . غير أن أبا منجل المقدس لا يُرَى لأن على ضفاف النيل ، إلا فى مستنقعات السودان العليا أو فى متحف القاهرة ، أو فى هرموبوليس ، مدينة تحوت حيث تُرَى مومياء طيور أبى قردان المقدسة .

أبو الهول Sphinx : كثيراً ما ينسب «أبو الهول الغامض» إلى مصر القديمة، وبذا تتعارض أسطورتان مختلفتان. احداهما خاصة بأبي الهول الإغريقي القاسي، وهو لبؤة مجنحة لها رأس امرأة، وتتكلم بالألغاز بطبيعتها كما يتضح من قصة أوديب؛ أما الأسطورة الثانية فخاصة بالأسود الإلهية المصرية الذائعة الصيت، التي أطلق عليها الإغريق أنفسهم كلمة سفنكس Sphinx (أبو الهول)، ولكنها كانت، في الحقيقة، أسوداً لها رأس فرعون، وهي دكور (كما قال هيرودوت نفسه — Androsphinx). وهي مسألة كانت موضع خلاف؛ وهناك تشابه بين الكلمة الإغريقية سفنكس Sphinx والتعبير شسب عنخ Shespankh = «تمثال حي»، الذي استعمل في اللغة المصرية عند الكلام على الأسود ذوات رءوس الإنسان. وبسبب هذا الشبه ظن بعض العلماء أن الاسم الاغريقي والصورة الاغريقية مأخوذان من مصر القديمة عن طريق سوريا. ولو كانت هذه النظرية صحيحة حقاً، فلابد أنه انقلب كائنا شريراً عندما وصل إلى الأرض الاغريقية. وحتى على ضفاف النيل، وحتى في الحالات النادرة التي كان فيها أبو الهول أنثى (ممثلا للملكات)، وحتى عندما اتخذ صورة فهد ذي أجنحة صقر ينقض على الرؤساء الأجانب، لم يكن أبو الهول وحشاً شريراً. لقد كان دائماً قوة ملكية صارمة حيال المتمردين، وتحمى الأخيار. وبفضل وجهه الملتحى، كان يمثل إما الملك أو إله الشمس، وكانت له نفس صفات الأسود. وإذ كان من فصيلة الأسود، فإن مقاومته في القتال متعذرة. ولقد مثّل فرعون نفسه بعدة أسود لكي يحمى معبده حماية أفضل؛ ونرى هذا في الصف المزدوج للتماثيل التي تمثل احدى صور أبي الهول على جانبي الطرق المؤدية إلى المعابد. وهكذا شَبَّه فرعون نفسَه بأبي الهول التوأم أو بالأسدين التوأمين، حارسي «الأفقين». وأحياناً كان أبو الهول هو الإله نفسه متجسداً في صورة أسد كي يدافع عن بيته. وهذا هو السبب في حراسة مدخل معبد الكرنك «بتماثيل لأبي الهول لها رءوس كباش»، أي بأسود ذات رءوس كباش تقترن باسم أمون.

لأبي الهول الموجود بالجيزة شهرة خاصة، فهو أضخم تماثيل أبي الهول جميعاً ومن أقدمها. أمر خفرع بأن يُنحت تل من الحجر الجيرى طوله أكثر من ٧٠ م، ليصير بصورة أسد ضخم، يحرس الممرات الغربية التي تختفى فيها الشمس والأموات. صار أبو الهول، في الدولة الحديثة، الإله حورماخيس («حورس في الأفق»). وإذا ما ذهب الملوك للصيد بقرب أبي الهول هذا، زاروه وكرسوا له لوحات حجرية. وعندما قامت مستعمرة كنعانية بجواره، اعتقدت أنه الإله الفلسطيني حورون. كثيراً ما غرق أبو الهول (وخصوصاً في عهد تحوتمس الرابع) في الرمل الذى تذروه الريح على جسمه. ومن ير عينيه وفمه الشهير يعتقد أن وجهه كان سيحتفظ بجماله الإلهى لو لم يرغب أحد أمراء العصور الوسطى في

تحطيم ابتسامته الوثنية ، بنيران المدافع .

أبيس Apis : للثيران المقدسة التى عثر عليها « ماريت » فى قبور السيرابيوم تحت الأرضية ، بمدينة سقارة ، تاريخ أطول من تاريخ الحضارة المصرية نفسها ، ولم ينته ذلك التاريخ إلا بانتصار المسيحية . وبمرور القرون ، اتخذت الفكرة الأصلية لذلك الحيوان المُخصِب ، الذى اعتبر رمز الإخصاب ، عدة مظاهر أخرى . عُبد أبيس فى منف حيث كان إله هذه المدينة هو بتاح . وسرعان ما اقترن أبيس بذلك الإله وصار رمزه و « روحه المباركة » . ثم استعار ذلك الثور قرص الشمس من رع وحمله بين قرنيه . وبعد ذلك اندمج أبيس فى أوزيريس فتكوّن منهما إله جنائزى . ومنذ ذلك الوقت اتخذ موت العجل أبيس أهمية بالغة ، فيدُفن بجنازة رسمية وسط جمع من العُبّاد المؤمنين ، الذين كانوا يحضرون له الهدايا من كافة أرجاء المملكة . وبمجرد أن يموت أبيس ، يعود فيولد من جديد ، فيبحث الكهنة فى الحقول ، ويفحصون القطعان للعثور على ذلك الإله الذى يمكن التعرف عليه بعلامات خاصة فوق جلده الأبيض : عبارة عن بقعة سوداء فى الجبهة ، وعلى الرقبة ، وعلى الظهر ، وغير ذلك . وعندما يعثرون عليه ، يحل الفرح محل الحزن ، ويُتوّج العجل الإلهى فى الحظيرة المقدسة بمنف ، حيث يعيش مع أمه ، يحيط به حريم من الأبقار .

أبيدوس : مدينة بمصر العليا (الصعيد) ، تقع بين أسيوط وطيبة . بها كثير من المعابد ومقابر الملوك والقبور الأخرى . يرجع عهدها إلى أقدم العصور ، ومع ذلك فلا تزال تجذب إليها كثيراً من الزائرين نظراً للنقوش البارزة بالمعبدين العظيمين ، معبد سيتى الأول ، ومعبد رمسيس الثانى ، اللذين تتجلى فيهما عجائب النحت والألوان . وترجع أهمية « أبيدوس » إلى أوائل التاريخ : فقد أقام فيها ملوك العصر الثنى (أو الطينى) جباناتهم على الجبل الصخرى الضخم الممتد أمام الضفة الغربية الصخرية الجميلة ، وكانت هيبة هذه المدينة عظيمة دائماً . وإن مجرد النطق بهذا الاسم ليعيد إلى الأذهان فكرة الإله أوزيريس حارس الحياة الأبدية ، وإن كانت عبادته ــ عبادة أوزيريس ــ لم تظهر إلا فى فترة متأخرة نسبياً . وإبان الأسرة الخامسة اتخذ صفات الإله المحلى خنتى أمنتيو ، وزادت شهرته ببطء ، ولكن باضطراد ، لدرجة أنه ، فى الألف سنة الثانية ، محا ذكر سلفه الغامض . صارت هذه المدينة احدى مقابر أوزيريس الكثيرة ؛ وتقول الأسطورة : إن رأس ذلك الإله ، المقطع الأوصال ، قد دفن بها . وكان الحج إلى أبيدوس جزءاً هامًا من الحياة الدينية . وتمجد الأنشودة العظمى ذلك الحج وتخلد ذكراه على أنه أحد الأعياد العظمى لتلك الدولة ، وفى أثناء القيام بطقوس الأسرار الدينية التى يشرف عليها ممثل للملك ، كان كهنة أوزيريس يحملون تمثاله على أكتافهم بعد تزيينه بالحلى الثمينة ، ويذهبون به إلى القبر ، كما كانوا يمثلون قصة انتصار أوزيريس على الشر ، وينشدون التراتيل

الجنائزية ، بينما يدفنون تمثالاً بشكل المومياء تبعاً لطقس سرى . وهكذا كانت أبيدوس ملتقى جمع غفير من الناس ، أحياءً وأمواتاً ؛ ما بين الحجاج القادمين ليكوا سيدهم المتألم وليدافعوا عنه ، وأرواح الموتى التى كانت تأتى بقوة السحر فى قوارب أعطيت لها لهذا الغرض ؛ والملوك ، أمثال سيتى أو رمسيس ، الذين أقاموا معابد جميلة فى أبيدوس لعبادة أوزيريس ؛ والنبلاء الذين بنوا قبورهم أو معابدهم الصغيرة قرب المعبد الأكبر ؛ وعامة الشعب الذين أرقدوا فى حفرة على حافة الصحراء ، والأسرات العديدة ، التى رُسمت صور أفرادها على لوحات حجرية صغيرة والحقيقة ، أن كل أولئك الذين جاءوا إلى سُلَّم ذلك الإله العظيم ، استطاعوا أن يفيدوا من تلك الطقوس الدينية التى كانت تقام إكراماً لأوزيريس ، إله الغرب العظيم .

أتون Aton : إذا ما أراد قدماء المصريين التعبير بالألفاظ عن القوة الحيوية العظيمة للشمس سموها « رع » ، واستعملوا شتى أسماء إله هليوبوليس ، وصلوا لأمون رع والآلهة الأخرى التى تجسد فيها سيد الضوء متخذاً صورة بشرية وصفات شخصية كى يصير من السهل أن تصل إليه صلوات البشر . غير أنهم استعملوا كلمة أتون عندما أرادو التعبير عن قرصْ الشمس . وقد اعتقد بعض علماء اللاهوت بمدينة هليوبوليس أن روح ذلك الكائن المقدس موجودة فى هذا الجسم المرئىّ وليس فى الآلهة التقليدية التى كانت تؤلف عنصراً واحداً يفوق الوصف ، وتتجسد فى التماثيل المقدسة فى ذات الوقت . وهكذا وُلد الاله أتون فى حوالى سنة ١٤٥٠ ق . م . ، وأغدق عليه امنحوتب الثالث أمجاداً خاصة . وفجأة أنكر ابن ذلك الملك سيادة أمون رع ، ملك الآلهة وسيد الامبراطورية وأبى البيت الملكى ، ويمكننا أن نضيف إلى هذه الألقاب ؛ أغنى أغنياء المملكة . وإذا عبّرنا بمصطلحات عملية ، فإن أمنحوتب الرابع رفض الإذعان لوجود هيئة كهنة وقحة ، كما فعل آباؤه ، أو حتى يخدم فى معبد أمون ، الذى كان المظهر الرئيسى المعروف لذلك « الكائن غير المعروف » . وكان يستاء من اسمه هو نفسه ، إذ أن المعنى الحرفى لكلمة أمنحوتب ، هو « أمون راض » . فسمى نفسه أخناتون ، ومعناه النافع أو المفيد الشمس » . وقرر أن يجعل العمارنة مقر ديانته الشخصية . وهى ثورة دينية لم يسبق لها مثيل فى قوتها ومعارضتها لروح الوثنية المصرية الحقيقية . فأهملت المعابد المبنية منذ غابر الأزمنة ، والتى كانت تدور حولها الحياة الروحية لجميع الناس . ومحا كل ذكر لأمون ، ولم يفكر ابن أتون الجميل ، وزوجته نفرتيتى إلا فى جمع ثمار الأرض ؛ وزيادة التقدمات تكريماً للشمس المرئية ، واهبة كل رخاء . فبنيت المذابح فى كل مكان فى أفنية واسعة مكشوفة ، يغمرها الضوء وتتشعع قوة الشمس معطية الحياة من أذرعها الممتدة التى لا يحصيها عدّ . وكان ذلك الملك يتغنى بإيمانه وليد الإعجاب ، فى « نشيده العظيم » ، الذى نعرف من ترجماته المتعددة أنه كان مصدر

إلهام لأحد « المزامير » بطريقة غير مباشرة . وتوحي بعض اللمحات الوثنية بأن الحركة « الأتونية » الشهيرة ، ليست سوى صورة من مذاهب هليوبوليس بعد تطهيرها تطهيراً دقيقاً . والحقيقة أنه أطلق على ذلك الإله الواحد اسم رع حور آختى الذى يبتهج فى الأفق باسمه الضوء الموجود فى قرص الشمس . وكانوا يعبدونه فى «معبد البن بن » ، وتنازل بأن اتخذ صورة جسم الثور منيفيس . هذا ، ولا يمكن التأكيد بصفة قوية بأن مذهب اخناتون لم يكن أكثر توحيداً من بعض آراء الفلاسفة السابقين ، ولم يكن الابتهاج بآلاف الهبات التى يمنحها « سيد العالم » شيئاً جديداً ؛ فلم يتضمن الدين الجديد أى إنكار صريح لسياسة الغزو والفتوحات ، ولم يدع لبرنامج سياسى ديموقراطى . غير أن هذه العقيدة لم تدم طويلاً بعد مؤسسها . ومع ذلك ، فقد استعارت التراتيل الموجهة إلى أمون نفسه ، فى عصور لاحقة ، من مذهب أتون ، النغمة الشخصية التى كان يستعملها ذلك الملك المتمرد عندما يخاطب إلهه . ونرى طرافة مذهب أتون فى أناشيده العاطفية ، وفى العلاقة الدينية الحميمة بين الملك وإلهه التى تتجلى فيها دائماً شخصية أخناتون الغامضة والبعيدة الغور . كان نظام الحياة

دائماً على اتصال وثيق بشخص فرعون (انظر ماعت) . وكانت ماعت مندمجة فى الخدمة الدينية اليومية التى يقدمها ذلك الملك للشمس . وصار أعضاء حاشيته من عباد أتون المتحمسين . وقد أنشد القائد آى ، الذى قُدر له أن يلعب دوراً فى تصفية ذلك المذهب الجديد ، تراتيله إلى الرب بحماس عاطفىّ : « مرحى لك ، يا قرص الشمس الحى ، المضىء فى السماء ، الذى يغمر جميع القلوب ويُفرح كل الأرض بنوره المبهج . . . . . . » ، وإلى كهنته : « يبتهج أتون من أجل ابنه ويعانقه بأشعته ، ويعطيه حياة أبدية ، لأن الملك سيد قرص الشمس » . وأخيراً ، إلى ديانته : « إننى أحد عظماء النبلاء وأصدقاء الملك . وأول المؤمنين بجلالته ، الذى أعطانى معرفة الحقيقة . أمقت الشر لأننى أعرف أن الكائن الفريد ، فى عينى الشمس ، يجد رضى فى الحقيقة ، ذلك السيد العالم بكل شىء ، والذى يشبه قرص الشمس » .

الأثـــاث : (انـــظر البيوت) .

الأجناس : لم يكن المصريون من الجنس الحامىّ كما يُذكر كثيراً . والمصطلح « حــامى » يشبه المصــطلح « هندو أوروبى » ، وهو صفة لمجموعة من اللغات يتكلمها اناس من أجناس شتى ، وتدل كلمة « جنس » على نمط جسمانى ولقد تعرَّف علماء الأنثروبولوچيا ، من بين الهياكل العظيمة المستخرجة من مقابر عصر ما قبل الأسرات ، عــلى نماذج من الجنس « الكرومانيون Cro - magnon » (لايزال بعض آثار منه فى أجزاء من البحر المتوسط) ، والجنس الزنجى والأوروبى اللذين تتألف منهما الأرومة الأساسية لشعوب المغرب (عدا بعضاً منهم ينتمون إلى الجنــس المســـمــى الأرمــيــنى Armenoids المعروف تماماً فى الجزء القريب

من آسيا) . وفى العصور القديمة ، كما فى الوقت الحاضر ، اختلطت الأجناس الأوروبية السائدة فى الشمال ، بالأجناس الزنجية السائدة فى الجنوب ، ولاسيما فى منطقة طيبة . ومن السهل إدراك عدم صواب الرأى الذى يميل إلى أن ينسب ماضى مصر إلى شعوب البحر المتوسط البيضاء أو إلى شعوب أفريقيا الزنجية . اختلطت هذه الشعوب اختلاطاً جيداً على ضفاف النيل قبل أن تخلق الحضارة الفرعونية .

تميزت فترات من الضعف ، فى العصور الفرعونية بتسرب الليبيين والنوبيين والآسيويين ، وفى أثناء فترات القوة ، جيء بمستعمرات حربية وعبيد أجانب . بيد أن هؤلاء المهاجرين — ذوى أوجه الشبه الأنثروبولوجى بالسكان الأصليين — لم يحدثوا أى أثر ملحوظ على الغالبية المولودة من نفس تلك الأرض . أما أثر الغزوات اللاحقة والتسربات التى حدثت فيما بعد (المستعمرات الاغريقو مقدونية ، والفاتحون من العرب والبدو الوافدون من الغرب وسكان الصحراء الكبرى) ، على الأجناس ، فأقل من أثرها على السياسة والثقافة . أما مصر الآن ، التى تضم ٩٨٪ من المتكلمين بالعربية ، ٩٠٪ من المسلمين ، فبها على الأكثر ٧٪ من الأصل العربى . وليس التمييز بين « الجنس القبطى » و « الجنس المسلم » ، وهو ما ينكره علماء الأجناس ، سوى تعصب سخيف . يكفى أن تنظر إلى شخص مصرى من العصر الحديث ، لكى تعرف منظر بشرة قدماء المصريين . وما تمثال كا عبر الذى شبهه أهالى سقارة بشيخ بلدهم ، إلا مثل واحد لذلك . وبوسع أى فرد ملم بالصور الحقيقية للدولة القديمة ، أن يتعرف ، فى المدن وفى الأرياف ، على نفس الأنماط التشريحية وعلى نفس التكوين البدنى المصور فى العصور القديمة سواء فى النقوش البارزة المستديرة أو الجانبية .

ومما أدهش الإغريق ويجذب انتباه أى زائر ، بمجرد مجيئه ، هو أن هذه الأمة ، التى اختلط فيها البيض الذين تميل بشرتهم إلى السمار بالجنس ذى البشرة الداكنة ، هى « الأشد سُمرةً » فى الشرق الأدنى كله . فيتدرج لون بشرتهم من الأسود المُحْمَرّ الخاص بأهالى النوبة ، إلى اللون الأصفر الذى استخدمه قدامى الفنانين للسيدات ؛ وبشرة سكان مصر العليا قريبة من لون التبغ ، قد لفحتها حرارة الشمس القاسية فجعلتها أشد سمرة . (فى بعض نماذج مقابر طيبة ، لونت بشرة موظفى المصالح باللون الأصفر وبشرة العمال الآخرين باللون البنى) . أما الشعر فأسود ، وأجعد عموماً ، كما هى الحال فى جميع سكان شمال أفريقيا ، وأحياناً يكون شبيهاً بالصوف . ومعظم العيون سوداء لامعة ، كما نرى فى نظرة الكاتب المتربع الجاحظة (ذى العيون الشبيهة بالخرز) . ومن آن إلى آخر نرى عيوناً زرقاء وشعراً أشقر ، وهذان ، بغير شك ، نتيجة الوراثة عن الأسلاف الليبيين الذين وفدوا إلى مصر فى عهد الملوك الرعامسة (كثيراً ما يقال إن هؤلاء الأشخاص ذوى العيون الزرقاء والشعر الأشقر من سلالة جنود نابليون بونابارت ،

أو من سلالة فرسان حملة لويس التاسع !) . والمصريون متوسطو الطول ذوو أجسام نحيفة - عضلية ، تميل إلى الاستدارة بين الموظفين وبعض الفلاحين المسنين . وتختلف أشكال الوجوه اختلافاً كبيراً . فصورة الوجه الجانبية مستقيمة ، والفك بارز ، وعظام الوجنات عالية أحياناً ، كما فى سنوسرت الثالث ، والشفاه مكتنزة مقوسة إلى الخلف غالباً . والأنف فى بعض الأحيان معقوف (كما فى أنوف حميونو ، وبيبى الأول ، وجمال عبد الناصر) . وعادة ما يكون الأنف مستقيماً وكبيراً ، مثل أنف خفرع ، ولاسيما فى الجنوب حيث نرى أناساً ذوى أنوف عريضة وشفاه أغلظ . وتقول أسطورة غامضة الأصل ، إن الآسيويين السُّمْر البشرة ، والنوبيين الشديدى السواد والليبيين البيض البشرة ، تميزوا عن « الرجال » (أى المصريين العاديين) نتيجة خِبَل غريبة بواسطة عين رع أثناء الخليقة . إلا أن العُرف يشير إلى أن هذه الأجناس الجديدة كلها بأن « تخدم » فى البلاط ، ستمجَّد جميعاً فى العالم الآخر .

الأحجار استعمل قدماء المصريين كلمتين للأحجار احديها للأحجار الكريمة التى تحفظ فى أكياس صغيرة . وكانت هذه تأتى من المناجم الشرقية (مثل الفيروز والملخيت والزمرد) ومن النوبة (مثل العقيق الأحمر والامتست وحجر الدم) ومن آسيا (مثل اللازورد من أفغانستان) . استعملت هذه الأحجار شبه الكريمة فى صنع التمائم وتطعيم الخشب أو الذهب ويقوم بذلك عمال فى غاية المهارة . ومع ذلك ، فعندما نتكلم عن الأحجار ، فإنما نفكر فى الكتل الصلبة التى استعملها نحاتو الفراعنة والبناءون .

توافرت الأحجار فى مصر القديمة ولاسيما الحجر الجيرى واستغلت الأحجار الخشنة فى بناء الجدران الداخلية ونوايا الأبنية . واستخدم المصريون « الأحجار الجميلة » لزخرفة الحوائط الرئيسية أو فى تشييد المعابد الفخمة ، وهذه تقطع بعناية خاصة من محاجر مغينة . وجلبوا الحجر الرملى الأصفر من جبل السلسلة ، والحجر الجيرى الأبيض من طرة ، والجرانيت الرمادي أو الأحمر من أسوان ، والكوارتزيت الأحمر من الجبل الأحمر ، والمرمر من مصر الوسطى . وتضم معبد رمسيس الثانى كل هذه الأنواع ، وهو خير معرض لشتى الأحجار الجديرة بأن يراها الزائرون من المعجبين بالفن المصرى . واستعملوا البازلت كثيراً فى رصف الطرق وفى بناء المداميك السفلى . وصنعوا التماثيل والأوانى من الأحجار التى سبق ذكرها ، ومن الديوريت والرخام وحجر الحية والسماق والديوريت المتحول ، الذى صنع منه تمثال خفرع الشهير ، و « الشست الرمادى » من وادى الحمامات ، ومنه نوع جميل أخضر . وصنعت الجعارين الكثيرة وبعض التحف من الاستياتيت الرخو .

وإذ كان لدى قدماء المصريين أزاميل قوية من النحاس الأحمر أو من البرونز ، فلم ينحتوا الحجر الجيرى بسهولة فحسب ، بل وشكَّلوا أصلب الأحجار ونقشوا عليها

الحروف الهيروغليفية الجميله . وقبل ذلك ، فى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م. صنع أسلافهم من العصر الحجرى الحديث آنيات جميلة من تلك الأحجار ، نحتوها بأيديهم بأدوات بسيطة . لم يكن لدى المصريين فولاذ ، وصنعوا تلك الأعمال قبل العصر الحديدى . ولن يحاول أى خبير ، فى عصرنا الحديث ، أن يقوم بمثل تلك الأعمال بدون سبائك خاصة ومثاقيب دوارة بالغة السرعة . بيد أن عالم الأجناس يفسر ذلك بقوله إنه كانت هناك طرق أخرى للقيام بهذا العمل ، طرق أبطأ وأشق ، ولكنها لا تقل فى مفعولها عن طرقنا . وقد استنتج الخبراء (بدراسة آثار الأدوات ، وتمثيل النحاتين وهم يعملون ، والمعدات الباقية عندنا) أن طريقة العمل كانت هكذا : يشَكَّلُ الرسم الإجمالى بالمطرقة المصنوعة على هيئة كرة من حجر أشد صلابة ، ويقطع بمنشار ، ويصقل بالرمل ، وينحت بأدوات مدببة الطرف ، ويثقب بآلة غريبه ، يوازَن شقابها بكيس من الحصى يعمل على تثبيت وإدارة أسطوانة صغيرة . أما الأداة القاطعة فمن النحاس المطروق المشحوذ بمادة أكَّالة (أى تعمل عمل الصنفرة) . ورغم هذا فإذا واجهتنا قطعة ضخمة من الجرانيت بها شق عميق كأنما قد شُقَّ بمبراة ، تحتم علينا أن نعترف بأن المسألة كلها لم تُفَسَّر بعد إذن نرانا مضطرين إلى أن نمضى فى وجهة مغايرة ، فنقول إن المدنية المصرية الراقية تدين بروائعها المدهشة إلى تراث من العصر الحجرى . حاول فنان باريسى شاب أن يستخدم النحاس المطروق فى محاكاة تلك الأعمال ، فباءت محاولته بالفشل ، ولكنه استطاع أخيراً أن يحصل بشق الأنفس على أدق الأعمال المقلدة باستخدام أدوات من حجر الصوان (الفلنت) لنحت الجرانيت . هذه نقطة بداية ، وسنتمكن يوماً ما ، بعد التجارب ، من تعديل نظرياتنا لكي نحصل على صورة أدق لعملية النحت ، ونُحيي الطرق الفنية لأبناء شعب الجرانيت هذا الذين أظهروا لسكان شرق البحر المتوسط وللإغريق كيف يكون النحت وفنه .

الأحلام : سَجَّلَت لنا التوراة وبعض الألواح المصرية تقاريرَ عن بعض أحلام الملوك وقد دُوِّن بعضها فى صورة غامضة ، كالحلم الذى نجح يوسف ، عليه السلام ، فى تفسيره لفرعون ، ويصف نص آخَرُ حُلماً للملك تا ــ نوت ــ أمون Tanutamun ، ملك السودان ، إذ رأى فيما يراه النائم ثعبانين ، رسولين لاعتلاء عرش الأرضين (مصر) فى المستقبل . ومن أشهر الأحلام الأخرى ، الحلم الذى راه تحوتمس الرابع ، والمنقوش على لوحة بالقرب من قاعدة أبى الهول . ففى صباح أحد الأيام ، كان الأمير تحوتمس الصغير يصطاد فى الصحراء ، فذهب لينام فى ظل أبى الهول بالجيزة ، وكان نصفه لايزال مدفوناً فى الرمال . فظهر له الرب حورماخيس فى حلم ، وشكا إليه إهمال ذلك التمثال المقدس . فلما تبوأ تحوتمس العرش ، لم ينسَ تلك الرؤية الإلهية ، فأزال الرمال عن ذلك التمثال حتى قاعدته . ولم تقتصر الآلهة على الظهور فى احلام الملوك دون سواهم . ففى عصور متأخرة من التاريخ المصرى ، انتشرت عادة

قضاء ليلة فى أحد المعابد لرؤية حلم تنبوئى . ويقول أحد « كتب الحكمة » :
« يخلق الرب الأحلام ليوضح الطريق أمام البشر عندما لا يستطيعون رؤية المستقبل » .

نعرف أن الكتبة المقدسين ، الذين يطلق عليهم « الكهنة المرتلون » ، ومفسرى النصوص المسمارية الـ Kharthibi ، ومفسرى الأحلام لدى الإغريق Onirocrites ، قد حظوا بشهرة فائقة فى تفسير الأحلام .

كثيراً ما يخلو الحلم من أى غموض . فإما أن يوضح المستقبل بجلاء ، أو يُبيِّنه فى صورة رمزية يمكن فهمها بعد قليل من التفكير . وفى بعض الأحيان ، كانت الصورة التى تظهر فى الحلم ، تفتقر إلى تفسير إذ يتعذر فهمها على الحالم . فاستعملوا فى مثل هذه الأحوال مفتاحاً مفصلاً يضم جميع أنواع الأحلام الممكنة . وهاك بعضاً من تلك التفاسير : إذا رأى شخص نفسه ، فى الحلم ، يطل من النافذة ، فهو حلم حسن ، لأنه يدل على أن الرب قد سمع صلاته . وإذا رأى قطاً سميناً ، فالحلم يدل على الخير ــ إذ سيجنى محصولاً وفيراً . وإذا رأى أنه جلس تحت شجرة ، فهو حسن أيضاً ، لأنه يعنى زوال كل همومه ومشاكله . وإذا رأى القمر ينير ، فهو حلم طيب ، لأن الرب سيغفر له ذنوبه . وإذا رأى نفسه فى الحلم ينظر إلى قزم ، فالحلم ينطوى على نحس ، إذ سيؤخذ نصف حياته (أى أنه سيموت فى منتصف العمر العادى) وإذا رأى يطل على بئر عميقة ، فالحلم شرّ ، إذ يدل على أنه سيُلقَى فى السجن .

(أحمس الثانى) Amasis (٥٧٠ ـــ ٥٢٦ ق . م .) : أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين الصاوية . وصل إلى العرش نتيجة ثورة ليبية قومية ضد أبريس Apries وجنوده الإغريق المرتزقة . لما صار القائد أحمس (أمازيس) ملكا ، مال إلى الإغريق أكثر من سلفه . وما كان لأية حكومة مصرية ، فى ذلك الوقت ، أن تكون غير ذلك . وإن النصوص الكلاسيكية والمصادر الديموطيقية لتُقدِّم صورة حية لشخصية ذلك المغتصب القوية . كان رفيقاً مرحاً رغم كونه مبتذلاً . وكان منهمكاً باستمرار فى احتساء المشروبات القوية ، وهذه خلة كانت ضَعفاً ملكياً ذُكر فى عدة قصص . فيقال مثلاً : إنه كان يترك شئون الدولة من أجل أن يحضر مجلس شراب و عندما تحدَّى ملكُ إثيوبيا زميله المصرى هذا ، فى أن يشرب البحر طلب منه (عملاً بنصيحة الحكيم بياس) أن يوقف الأنهار أولاً . وكان بالغ الدهاء ، فأرسل ابنة أبريس لتكون زوجة ملك فارس العظيم ، بدلاً من أن يرسل احدى قريباته . ولكن مهما بلغ دهاء ذلك الفرعون ، فإنه لم يستطع صد تقدم الإمبراطورية الفارسية المندفعة كالسيل الجارف . وبعد موته بستة شهور ، احتل قمبيز مصر . وتبعا لهيرودوت ، لم تعرف البلاد سعادة كالتى عرفتها فى عهد مازيس . ولكن هذا الرأى متحيز جداً ، ذ لا شك أنه هو الذى جعل إعلان قيمة

الدخل إجبارياً . ومع ذلك ، برهن على أن ذكرى الملوك الوطنيين ظلت حية فى الأذهان تحت حكم الفرس .

الأخشاب : لما كان المصريون بارعين فى قطع الأحجار ، فمن الجلى أنهم كانوا مزودين جيداً بالمعدات التى يشتغلون بها فى الأخشاب (الفئوس والمناشير والقواديم والأزاميل والمثاقيب) . بيد أن الطبيعة لم تزود قدامى النجارين بالمادة الخام الجيدة ، كما لم تزود بها بناة السفن (انظر الحيوانات والنباتات) . ولهذا السبب ، فمنذ العصور الثينية ، اضطرت الحكومة الى أن ترسل فى طلب خشب الأرز الصلب من لبنان لتصنع منه أمتن السفن وأثمن التوابيت وساريات أبراج المعابد وأبوابها الضخمة . أما الأخشاب المصرية فاستعملت فى صناعة الأعمال الأقل أهمية من تلك . فشقوا جذوع النخل نصفين واستعملوها عوارض ودعامات ، أما جذوع أشجار الجميز فاستعملوها فى صنع النعوش العادية والتماثيل البسيطة . واستعمل المصريون والنوبيون أخشاب السنط فى صناعة قوارب حمل البضائع (الصنادل) المتينة . وصنعوا عدداً كبيراً من الأدوات العادية ، مثل : الصناديق والأثاث والأسلحة واللوحات الصغيرة ، من هذه الأخشاب ومن غيرها كالصفصاف والأشجار الشوكية الكبيرة . ومنذ عصر الأهرام ، عرف النجارون فن تعشيق الأخشاب والوصلات ذات اللسان . كذلك عرفوا تطعيم الأخشاب بالأحجار وبالزجاج وبالمعادن . ويرجع تاريخ التطعيم بالأبنوس إلى العصور الفرعونية ؛ والحقيقة أن المصريين احتاجوا إلى السودانيين كى يمدوهم بالخشب الأسود الشهير المعروف باسم « هيبين Heben » ولأن الأشجار قليلة وأخشاب الوقود نادرة قامت الإدارة بصناعة الفحم النباتى ، واستعملت البيوت مخلفات الحيوانات المجففة (الجلة) وقوداً ، كما هو الحال الآن .

الأخلاق Morality : « موضع المحبة الرقيقة فى قلب الملك ، وتلميذ الملك ، المنفذ لأوامره ، الوفى لسيده ، المتزن تماماً فى كلامه والمجيب برد العالم ، الذى يكرمه إله مدينته ، ويحبه أبوه ، وتدلله أمه ، اللطيف مع أقاربه والعطوف عليهم ...... الرقيق الطباع فى معاملته للناس ، المستقيم السلوك والقويم الأخلاق ، الذى يحب ماعت ، ويمقت الشر ، رجل اختاره الإله لأن قلبه يفكر فيما يسره ، ويتخذ عمله اليومىّ ما يُقَدِّره الرب » .

وللسير حسب هذا النموذج ، يجب على الكاهن وعلى الموظف الحكومى وعلى كل فرد فى المجتمع ، أن يحترم جميع مواد القانون الخُلُقى : « لا تدخل المعبد وأنت آثم ، ولا تذهب إليه وأنت غير طاهر الجسم ، ولا تتهم أحداً فيه زوراً ، أو تغتابه هناك . لا تسعَ إلى الربح ولا تفسدنك الرشوة ، ولا تقف ضد الضعفاء محاباة للعظماء . لا تطفف الكيل ولا الميزان ولا تنقصهما ..... لا تفش أسرار الطقوس الدينية التى تشترك فيها ، تلك الأسرار الخاصة بالمعبد . لا تنضم إلى الفاسقين ولا تخالط السفلة ، لا تُقَدِّم شيئاً مُحَرَّماً ، ولا تستخدم العنف ضد أى إنسان ، فى الريف أو

فى المدينة لأنه مولود مَن « العينين » (أى عينى الشمس) وآت منها ، فيغلق قلبه (ربها) بفعل الإثم ...... لا ترفع صوتك بسبب كلام غيرك ، .... ولا تنطق بالكذب ضد « ماعت » .

بُنى معظم الأدب المصرى ، سواء أكان مقدساً أم دنيوياً ، على الأخلاق وتعليم الأخلاق . غير أن كتب الحكمة الشهيرة ، قد وَضعت ، فى الوقت نفسه ، دروساً فى الأخلاق الحميدة ، وأمرت بالإحسان إلى الفقراء ، وإنها لنصيحة خالصة فى علم النفس العملى ، ومشورة تتطلب التفكير . كذلك ، يذكر كُتاب السير المثاليون صفات الميت الأجل من هذه ، وجرأته الرياضية . فيثنون على مهنته الإدارية الجيدة وعنايته الأبوية بمن فى عهدته . وتوصى النصائح المنقوشة على أبواب المعابد و « إقرارات البراءة » المزدوجة المنسوخة فى « كتب الموتى » بتجنب المحرمات واحترام الحرمات والجار .

وهكذا لم يفرِّق علم الأخلاق الشعبى المصرى بين الصفات الأخلاقية والذهنية ؛ أو يعطيهما قيما مختلفة . فلم يفرق ، مثلاً ، بين السلوك الصحيح والفضيلة ، وبين الاحتشام والاستقامه الروحية ، وبين الأعمال السحرية والتقوى ، وبين الطاعة العمياء لفرعون والخضوع للمشيئة الإلهية . وفيما عدا بعض الأحوال النادرة (انظر التشاؤم) ، سن القانونُ الأخلاقى ، كمبدأ ، أن الفضيلة نافعة . فإن سلكتَ سلوكاً وديًا نحو ربك وملكك وأترابك ومن هم أقل منك ، نلتَ « عوضاً عن ذلك » الصحة والحياة الطويلة والشرف ، على الأرض هنا . وبعد الموت ، عند « وزن قلبك » يعاملك الرب تبعاً لأعمالك . وزيادة على ذلك ، فإن الزائر لقبرك ، وقد علم عنك من « تاريخ حياتك » ، سيقرأ لك بصوت عال ، الرقى معطية الحياة ، وهو على يقين من أنه سيكافأ بدوره عن عمل الإحسان هذا ، من الملك والآلهة .

تعرَّض نظام الدنيا الكامل ، الذى قرره رب العالم وقت الخليقة ، والذى كان فى نفس الوقت طبيعيًّا وأخلاقيًّا ، للخطر من جراء تصارع الآلهة ، وتمرد البشر ، اللذين رغم كونهم خَلقوا متساوين ، فقد أوجدوا عدم المساواة . يجب على الفرعون المثالى أن يحاول إعادة العصر الذهبى ، بجميع أعماله (المعابد والحروب والقرابين والقوانين) ، وخصوصاً بالأخلاق التى يعظ الناس وينصحهم باتباعها ، ذلك العصر الذهبى ، الذى هو « عصر رع ، وقت أن كانت ماعت تحكم على الأرض » . يجب على موظفى الملك الذين اختارهم بعلمه الكامل عن كفاءتهم وصفاتهم ، أن « يحاربوا من أجل الملك » وأن « يحاربوا من أجل الشعب » ، ولكل من هذين الفرضين نفس الإلزام . ويجب على القاضى أن « يحمى الضعيف من ظلم الظالم » . كما يجب على النبيل أن « يعطى الخبز للجياع » . وفى الوقت ذاته ، قُدِّر لهذه النظم الأخلاقية الفرعونية ، المقيدة بارتباطاتها مع العصر القديم ، وباستنكارها المقدس «لعدم النظام وعدم الطاعة » ، أن تظل تأملات استبداد مستنير ، وفلسفة

أخلاقية للموظفين المثقفين الخبرين : « راقب يدك ، واكبح جماح قلبك ، وصم شفتيك » . كانت هذه المُثل الرسمية ، التى سجلتها النقوش المصرية فنقلتها إلينا ، متمشية مع الهدف الدينى للنظام والاهتمام الحق بالسلام العام .

لم يمنع مثل هذا المَثل الأعلى نشأة نظرية السعى الفردى المشوب بروح التصوف . فمنذ الدولة القديمة فصاعداً — عبر الزمن — من خيتى Khety الثانى (انظر أدب الحكمة) إلى پيتوسيريس Petosiris (انظر هرموپوليس) — عرف المصرى كيف يفهم ويفسر خير طريقة لرفع الماعت . والتمسك بالنظام الطيب فى الأمور الإلهية والملكية ، وأن يكتشف ويتبع مشيئة الإله الرحيم العالم بكل شىء .

كذلك نشأ علم يتناول وظيفة القلب باعتباره العضو المهيمن على سائر الأعضاء (مركز الإدارة والذكاء): « يهذب القلب الأخلاق . إنه السيد القوى للخلق الفاضل ». ونشأ نوع من نظرية العناية الإلهية ، تقول : « يقَوِّم الرب الخطأ كسيد رحيم » . وكان هناك أناس متواضعون على وشك اكتشاف التعبير عن الندم الحقيقى ، وأرادوا أن يفعلوا الخير عن طريق محبتهم الشخصية لربهم الرحيم .

أخناتون Akhnaton : هو الاسم الذى اتخذه لنفسه أمنحوتب الرابع (١٣٧٢ — ١٣٥٤ ق . م .) ابن أمنحوتب الثالث ، وزوج « نفرتيتى » . كان يؤيد عقيدة دينية قديمة تقول بوجود إله واحد . ولكى تعلم المزيد عن عقيدته هذه ، انظر « أتون Aton » . ولكى تعرف الفن الذى أوحى به ، انظر « العمارنة » عاصمة ذلك الفن ، لأننا هنا بصدد هذا الملك وحده .

اشتهر ككاهن ، أما كملك فكان نكبة على البلاد . فعندما رجع المصريون إلى معتقداتهم وعاداتهم القديمة ، أطلقوا على أخناتون الذى بات غريباً على شعبه بسبب هرطقته ، اسم « مهزوم العمارنة » (مثلما أُطلق على ملك قادش فى سوريا اسم « مهزوم قادش ») . ترك إمبراطوريته تتحطم ومملكته تتفكك ، كما لو كان شخصاً تائهاً فى حلم . كان الاعتقاد السائد وقتذاك ، أن نور أتون يفيد جميع الأجناس البشرية . ولكن أتباع أخناتون فى آسيا ، توسلوا إليه عبثاً من أجل أن ينجدهم . فقد اجتاح البدو البلاد ، وخانه ممثلوه ، واستولى الحيثيون على سوريا . وكان المفروض أن يكون قرص الشمس مصدر كل رخاء ، غير أنه صدر فى نهاية حكمه قرار رسمى ينهى موظفى الخزانة عن الاستمرار فى سوء معاملة دافعى الضرائب . وكان من المقدر أن تستولى على قلوبهم عقيدة جديدة . والحقيقة أنه كان بالعمارنة من يؤمن بهذه العقيدة ، ومن يعارضها . ولكن ، كيف ينكر الفلاح إله بلده ، وينفصل جميع الشعب جسماً وروحاً عن جميع الآلهة الذين توارث عبادتهم عن الأجداد ، فأعيدت كافة العادات القديمة فى

حكم خلفه « توت عنخ أمون » ، ولم يتعرض لها بعد ذلك أحد قط . ولما صار القائد آى ملكاً ، كان أشد المؤمنين بأمون ، رغم أنه كان من قبل من أهم أتباع أتون . ومحى كل أثر لأخناتون عندما صار القائد حور محب ملكاً . فأرّخ مدة حكمه ابتداء من موت أمنحوتب الثالث ، لأنه لم يعترف بشرعية كل مؤيدى عقيدة الهرطقة تلك ، حتى من ندم منهم . بعد ذلك بدأ القائد رمسيس الأسرة التاسعة عشرة .

الإدارة : كانت الملفات المكدسة فى مكاتب الدولة ، وفى قسم محفوظات المعبد ، عظيمة الكمية ومتنوعة المواضيع وتتألف من : تقارير المصالح ومذكراتها ، وقوائم السكان وكشوف مساحة الأراضى ، وحصيلة الضرائب ، وكشوف صرف الأجور والمرتبات بالحبوب أو بسلال مليئة بأنصبة من الثمار ، وتقارير كميات الأحجار الواجب صرفها للبنائين ، والأخشاب اللازمة لدور صناعة السفن ، وتفاصيل وصُوَر الخطابات الواردة من الجماهير وشكاواهم ، وملاحظات الرؤساء وأوراق فرض الجزاءات التأديبية ، وغير ذلك .

كل هذه المواضيع المحيرة الشاقة الدالة على سعة الدراية والعلم ، دونت على أوراق البردى أو على اوستراكا بالخط الهيراطيقى (ثم بالديموطيقى بعد ذلك) . ورُتبت الأرقام فى خانات رأسية أو أعمدة ، وكتبت الملاحظات بالمداد الأحمر برموز مختصرة وعلامات « شرحه » لمنع التكرار . وكلمة Paper أتت من كلمة بردى . وإذا أعجبت بمنظر مصور بالألوان فى قبر ، ويمثل العمل فى الحقول أو فى مصنع ، فابحث عن الكاتب ، فلابد أن يكون هناك .

تبدو الإدارة الفرعونية فى كل صفحة تقريباً من صفحات هذا المعجم . فتشرف الإدارة على كل موضوع ، وتسيطر على الحياة فى البلاط ، وتنظم الاقتصاد كله باسم الفرعون ، وهو الحاكم الأعلى .

إذن ، كانت الإدارة واسعة ذات مجموعة منظمة من الموظفين الكهنة للإشراف على مختلف الأقسام : الحقول والقطعان ، ومخازن الحبوب ، وبناء المعابد والآثار ، والسفن ، والجيش ، والحدود ، والعلاقات الخارجية ، والبعثات التجارية ، والعدالة ، والسجون ، والصحة .

كانت المكاتب الإدارية التابعة للملك تستند فى عملها فى كل منطقة إدارية على مجموعة متدرجة من الموظفين المحليين ، أو البيروقراطية المحلية يرأسها محافظ . أما المعابد وأصحاب الأملاك الأغنياء فكانت لهم إداراتهم الخاصة التى كانت السلطات الملكية تديرها فى بعض الأحيان ، والتى كانت قد تتعارض مع تلك السلطات فى أحيان أخرى . وتتجلى مشقة دراسة هذه الألقاب وتنوعها فى النقوش التى تزين قبور الموظفين . لا يتجلى هذا بوضوح أكثر مما فى قراءة ألقاب موظف مذكورة فى عبارة تبين اسمه . والحقيقة أنه ما من مهنة أو وظيفة فى ذلك المجتمع غير مذكورة ، إما فى الإدارة الملكية ، أو فى إدارة المعابد . فكان لديهم مشرف للبساتين الملكية ، وأمين لإوز ضيعة أمون . ومنذ العصر الثنى حتى

البطالة ، ما كان لرجل ذى وظيفة أو منصب ، أن يكتب اسمه دون أن يذكر ألقابه ، فسجَّل السادة العظام على آثارهم قوائم بالمناصب التى شغلوها ، والبعثات الخاصة التى أوفدوا فيها ، وكذلك ألقابهم الشرفية (وهى الوظائف التاريخية أو الألقاب الإدارية القديمة التى منحها الفراعنة لكثيرين ، إما بموجب خطة موضوعة ، أو أن الفراعنة أجبروا على منحها ، حتى فقدت هذه الألقاب أهميتها) . وإن دراسة أصحاب الألقاب العديدة دراسة عامة ، ودراسة كل لقب بالتفصيل ، تحتاج إلى أجيال من علماء الآثار المصرية ، ولكنها ستعطينا صورة كاملة بالرتب الإدارية ، حقبة حقبة . أما الآن ، فلا نعرف إلا تغيرات ذلك النظام . وقد اتبعت الحكومة القديمة نظام المركزية ، ويبدو أن المصريين لم يفرقوا تفرقة واضحة بين خدمة الملك المؤلهة الشخصية فى قصره ، وبين خدمة الدولة . أما فى الدولة الوسطى ، فكان نظام المركزية أقل كمالاً ، فنشأت الإدارة الجديدة من تنظيمات أمراء العصر الوسيط الأول . وأما فى الدولة الحديثة فقد نشأ عن غزوات الاستعمار ، والجيش الدائم ، وممتلكات المعابد ، نظام أكثر تعقيداً ، يتضمن كثيراً من التحسينات الإدارية . ومما يزيد صعوبة فهم الطرق الإدارية بوضوح ، أن الملوك من آن إلى آخر ، كانوا يوفدون فى المسائل الهامة ، ليس الموظف العادى المختص ، وإنما أحد الخدم الموثوق بهم ، مع منحه تفويضاً مطلقا فى السلطة .

كان الوزير (ثاتى) هو المبعوث الملكى ، الذى يرأس الإدارة . وعندما كان الفرعون يقلده ذلك المنصب ، كان يقول له : « خذ منصب الوزير هذا ، وراقب كل شىء يتعلق به » . ومهما فكَّر الإنسان فإن اختراع الإدارة أحد الأسباب التى جعلت مصر تتمتع بمثل تلك المدنية الراقية والرخاء العظيم ، فى عصر مبكر جداً مثل ذلك العصر . كانت البيروقراطية والعظمة الفرعونية إلفين لا يفترقان . فلما ضعفت قبضة الإدارة الملكية على الشعب وعلى ممتلكاتهم ، صارت مصر ضحية لحرب أهلية ومجاعة وغزو أجنبى . وعندما كانت تلك الإدارة قوية ، بنيت الأهرام وامتلأت مخازن الغلال وازدهرت الإمبراطورية .

إدارة الخزانة Treasury : فى مصر ، التى هى مهد الحضارة ، كانت الحكومة تقوم كل سنتين بتعداد للحقول والذهب منذ سنة ٢٨٠٠ ق.م. تقريباً ، ومنذ حوالى سنة ٢٦٠٠ ق.م. كانت تقوم بإحصاء للماشية . كانت الضرائب فى تلك الدولة باهظة وتخضع لتنظيم بيروقراطى راقٍ . غزت إدارة الخزانة كل مجال من مجالات الحياة ، وتعودت استخدام مصطلحات معقدة واستعملت نظام محاسبة معقداً حتى إن علماء الآثار المصرية ليجدون صعوبة وأى صعوبة فى فهم المستندات والوثائق الضرائبية . كان الفرعون فى حاجة إلى الذهب الذى كان كبار موظفيه يحضرونه فى موكب إلى الوزير (انظر قبر رخميرع) ،

كى يقوم بسياسته الخارجية ويكافىء وزراءه . وكان يحمى احتكاره التجارى بفرض رسوم جمركية عند الحدود . وكان مندوبوه المسئولون عن الرى والبناء والنقل يسخرون العمال والدواب والسفن التى يملكها الأفراد والتى تملكها المعابد (ولو أن هذه الأخيرة كانت تحصل أحياناً على أمر بالإعفاء) . بيد أن أول همٍّ للحكومة هو تزويد موظفيها العديدين بحاجياتهم وتخزين كميات من الطعام للسنين « العجاف » أى زمن القحط . وقد بُنِى أساس الاقتصاد على المقايضة ، وعلى ذلك كانت الضرائب عينية . نرى على جدران المقابر صوراً حية لإحصاء الدواجن والماشية وبعض الفلاحين يُجلدون فى طرف المنظر . كانت هذه المسرحية تتكرر كل سنة . ففى الفصل الأول منها يذهب مندوب لمسح الأرض الزراعية ، ويرسم قائمة بالمُلاّك والمستأجرين (فى المؤسسات والأفراد) ، ويُقَدِّر المحصول المنتظر ، ومقدار الضريبة المحتملة . وفى الفصل الثانى ، عندما يبدأ القمح أو الشعير فى النمو ، يذهب خبراء آخرون لتحديد مقدار الضريبة ، بنفس العظمة المصرية النموذجية ، ونفس الموكب (كاتب قضائى ، وكاتبان مسجِّلان ونائب يمثل المشرف ، و «ممسك الحبل» و « أمين الحبل ») . وأحياناً يضطر المزارع إلى أن يحلف اليمين أمام هؤلاء ، فيقول : « أقسم بإله السماء العظيم ، بأن حجر الحدود هذا فى موضعه الصحيح » . ولمعرفة شىء عن الفصل الثالث يجب على القارىء أن يرجع إلى موضوع « الفلاح » ، وموضوع « الشرطة » .

الأدب : جرت العادة أن يُضَمَّنَ الأدب الشرقى القديم جميع الوثائق المكتوبة مهما كان شكلها أو محتوياتها . ويستطيع عالم الآثار المصرية القديمة أن يتغاضى عن اتساع معنى هذه الكلمة الذى يُخفِى وراءه نقصاً فى المادة ، ويتعامل مع الكلمة بمعناها الأصلى الحقيقى ؛ إذ كان لقدماء المصريين أدب حقيقى . ويوجد الجزء الأكبر منه مكتوباً بالمداد بخط دارج (بالخط الهيراطيقى ثم بالخط الديموطيقى) ، على ورق البردى وقطع الأوستراكا . والمخطوطات التى وُجدتْ هشة ولم يبق فيها إلا القليل من النصوص . وهكذا كانت معلوماتنا غير كاملة . والمؤلفات المتنوعة المعروفة لنا هامة ، إذ تعطينا لمحة عن غزارة الإنتاج الأدبى الحقيقية . ومن خير ما صيغ : أدب الحكمة ، والخيال القصصى ، وقصائد الغرام والموضوعات البلاغية (انظر سنوهى) ، والنقد والرسائل وغير ذلك (انظر كذلك ، التشاؤم ، وأنشودة عازف القيثارة) ؛ ولكى تحصل على فكرة أكثر كمالاً عن هذا الموضوع ، انظر التراتيل ، والتراجم ، والنصوص الجنائزية وكتاب الموتى ، ومع ذلك فلايزال هذا الموضوع غير مستوفٍ) .

تصبح قصة الحرب قصيدة بطولة (مثل) موقعة قادش التى خاضها رمسيس الثانى ، (كما يحدث فى كل مكان وفى جميع العصور) . أما فى مصر ، فيمكن أن يكون

أساس معبد موضوع قصة ، كما يمكن صياغة كتب التعاويذ السحرية فى لغة زخرفية رشيقة . وتمخضت أفكار الكهنة عن قصة مؤثرة كى يؤكدوا قوة الإله (أميرة باكختان) . وقد نشر أمنمحات الأول ، مغتصب العرش ، قصة تنبؤية ، لكى يبرهن على حقه فى العرش . ولما عاد ون أمون Wenamun من رحلة عمل فى سوريا ، روى قصة مغامراتنا بأسلوب أوديسيوس . وقد وصل دوق المصريين للأدب إلى كل مكان حتى المجتمعات غير المنتظرة .

ولكل نوع من الأدب تقاليده وصورته وفكرته وأسلوبه . ويعطى هذا التنوع فكرة طيبة عن المجموع . ويلوح أن القصص فى الأدب المصرى القديم أكثر عدداً من الأساطير ، وأن الأخلاق الاجتماعية أعظم أهميةً من اللاهوت . فهؤلاء القوم ، الذين كثيرا ما نتصورهم غارقين فى التأملات الدينية ، وعائشين فى ظلال المومياوات ، خَلقوا أدباً يتناول الحياة البشرية والمسائل الجارية فى كل عصر . فإذا ما قرأ المرء قصصهم وأغانيهم وأمثالهم ، اختفت الأشباح المظلمة المستمدة من ديانتهم واكتشف مكانها شعب حى ملىء بالأفراح والأتراح والآمال والمخاوف ، ويبدو المصرى كشخص حقيقى مرح ، يهوى الحياة ، ويطرب للنكتة والفصاحة ، كما يبدو اجتماعياً ذا إحساس بالعدالة ، ودعاية للأخلاق ، وكثير المراوغة .

أدب الحكمة Wisdom Literature : اعتبرت نصوص الحكمة أسمى وأقدم أنواع الأدب فى مصر . وهى قديمة قِدم الأهرام وظلت مزدهرة حتى العصر الرومانى . فكان التلاميذ يدرسون فى المدارس كتب الحكمة ، وكان يعرفها كثير من الشعب . فيقول عازف القيثارة منشداً : « سمعت حِكَمَ إمحوتب وحِكَمَ جدف ــ حور Djedefhor اللذين ألفاظهما على شفاه كل إنسان » . وقد بالغ الناس فى احترام مؤلفى هذه النصوص إلى حد التأليه . ولم تكن المؤلفات التهذيبية هامة أو غزيرة فى أية مدينة كما كانت فى مصر .

دائماً ما تُقدَّمُ هذه الحكَم فى صورة نصائح من الأب لابنه . وقد بُنيت هذه التعاليم على التجربة وانتقلت بالتقاليد . فتتناول « طريقة الحياة » التى يجب أن يسلكها المرء لكى يكون سعيداً ، وتتناول شتى المواضيع من آداب اللياقة إلى صلاح الروح . ومن أثمن الفضائل التى يتضمنها هذا الأدب : الإنسانية ، والتواضع والحزم والحذر (انظر الأخلاق) . وكانوا يطلقون على الحكيم فى مصر « الرجل الصامتُ » .

لم يحفظ الدهر لنا أدب الحكمة الذى كتبه إمحوتب فى حوالى سنة ٢٧٧٠ ق.م. ولكن لدينا مؤلفات الوزير بتاح حوتب كاملة ، التى كتبها فى عصر الدولة القديمة وتتضمن نصائح أخلاقية تولى جل اهتمامها لاحترام العادات والتقاليد وسلطة الكهنة أكثر من اهتمامها بمشيئة الألهة . وقد جاءت من الحقبة المتوسطة الأولى تعاليم ملكية رائعة تثقف الأمير فى فن الحكم ليحفظ اسمه ويحظى بنعيم الآخرة « تُقبَل فضيلة

الرجل العادل أكثر من ثور الأثم » (تعليمات للأمير مريكارع Merikare) . وفى الدولة الوسطى ، استعملت صيغة التعاليم كتبرير لأعمال الحاكم (أمنمحات الأول) أو لابراز أهمية مهنة الكتابة (انتقاد الحرف) . وحتى ذلك العصر كان أدب الحكمة يُعبر عن آراء الطبقات الحاكمة . وفى الدولة الحديثة ، صارت طائفةُ الكتبة المتعلمين القليلة العدد ، هيئةً من الحكماء الناصحين . والمشهور من مؤلفاتهم ، حِكَم آنى Ani ذى الآراء التى تتسم بشىء من ضيق الأفق . وقد اشتدت الصفة الدينية للحكَم فى عصر التدهور حتى بداية الألف سنة الأولى ق . م . إذ ارتقت تعاليم « أمون — ام — أوبت » إلى مستوى فكرى رفيع — « الإنسان طين وقش ، والإله بانيه » . وإن سفر الأمثال (فى التوراة) ليستعير عدة عبارات من هذا المؤلف ، ولا يدهشنا هذا ، إذ أن القوانين الأخلاقية التى نشأت على ضفاف النيل انتشرت فى جميع بلاد الشرق الأدنى . وفى القرن الحادى عشر ق . م . قال أمير من المدينة الفينيقية بيبلوس (إذا صدقنا ون أمون Wnamun) : « أتت الحكمة من مصر لتصل إلى هذه المملكة حيث أعيش » .

إدفو : كانت إدفو مدينة هامة فى مصر العليا ، وتقع على الضفة اليسرى للنيل على مسافة مائة كم تقريباً جنوبى الأقصر . كانت عاصمة الإقليم الثانى بالصعيد ، وكانت عظيمة الرخاء إبان الدولة القديمة . وقد اكتُشفت بقايا أقدم جباناتها تحت كوم بقرب المعبد الكبير .

حظى إيزى Isi أحد أمراء إدفو بميزة خاصة ، إذ أُلِّه وعُبد كإله لعدة قرون . ومع ذلك فلا تدين إدفو بشهرتها إلى أحد أبنائها المبرزين ، بطريقة مباشرة ، بل إلى المعبد الفسيح الذى بُنى على ممتلكاته فى عصر البطالمة . ويجب اعتبار ذلك المعبد ، الذى اكتشفه ماريت ، ورممته مصلحة الآثار عدة مرات ، من أهم الآثار الدينية فى مصر .

يبلغ طول معبد إدفو ١٣٧ متر ، وعرضه ٧٩ متراً ، وارتفاعه ٣٦ متراً (ارتفاع الصرح) . ويعجب الزائر أشد العجب بكمال الحالة التى عليها من الحفظ والصون . فصرحه وقاعات أعمدته وسلالمه وسقوفه كلها سليمة ، ولا نحتاج إلى تفكير طويل كى نتخيل منظره إبان ذروة مجده . فنقوشه الغائرة ملونة بالألوان الزاهية اللامعة ، وترفرف البيارق فوق ساريته السامقة بطول الصرح . وأمام المدخل مسلتان قائمتان ، كما توجد به تماثيل النذور التى يكتظ بها الفناء ، أما قاعة الأعمدة ، فيخال من يزورها أنه سيرى الكهنة فى أثوابهم الناصعة وهم يتجولون أمام بهو الأعمدة .

بدأ بطلميوس الثالث بناء هذا المعبد فى عام ٢٣٧ ق . م . ، وتم بناؤه بعد ذلك بحوالى ١٨٠ سنة ، فى عام ٥٧ ق . م . بعد أن توقف العمل فيه بسبب الفتن والقلاقل التى قامت فى منطقة طيبة . وكبقية المبانى الدينية الأخرى التى شُيدت فى العصر المتأخر ، كان يحيط به عدد من المبانى

الثانوية التابعة له لم يكشف الحفر غير واحد منها ، هو معبد الولادة Mammisi ، أما الباقى ، ويشمل البحيرة المقدسة ، بنوع خاص ، فلايزال مختفياً تحت القرية الحديثة . والعدد الضخم من النقوش التى تغطي حوائطه ، والتى نُشرتْ فى ١٥ مجلداً ، بواسطة العالم الفرنسى شاسينا Chassinat وحده دون مساعدة أى أحد على الإطلاق ، يدلنا على أن ذلك المعبد كُرِّس لعبادة رب السماء العظيم ، الصقر حورس إله مدينة بحدت . كما يدلنا أيضاً على كيفية العمل فى هذا المعبد العظيم فنتتبع من تلك النقوش الخدمة اليومية للطقوس الدينية ، التى تزود ذلك الإله بالطعام ، وتضمن استمرار وجوده على الأرض فى الأربعة أعياد السنوية العظمى . وإن الصور الطقسية والنذور وقوائم المناطق وغيرها ، لتجعل إدفو عالماً مصغراً للمدينة المصرية كلها . وتشمل الأوصاف الشهيرة لمعارك رع وحورس (أسطورة حورس) ضد ست ، نصوص دراما عظيمة ، وهى نموذج لبقايا الدراما الطقسية التى عرفتها مصر القديمة عن قيام حورس بهجوم عنيف برمحه فى مغامرة بطولية ضد خصمه ست الذى تقمص صورة فرس النهر .

كذلك وُجد عدد من النصوص الممتعة فى معبد إدفو . من أهمها نصان أحدهما عبارة عن قائمة بكتب طقوس الخدمة الدينية ، وهى منقوشة فى كوة بمحراب صغيرٍ داخل قاعة الأعمدة والثانى يوضح تراكيب للعطور والزيوت الطقسية . وقد وُصفت قوانين تركيبها وتحضيرها فى النقوش التى على حوائط الحجرة المظلمة التى ذكرتها النصوص باسم « المعمل » .

أساطير الخليقة : سجل هيرودوت أسطورة تقول إن منطقة الدلتا فى عصره كانت فيما مضى بحراً ، ثم امتلأ تدريجياً بالرواسب التى يجلبها النيل . ولهذه النظرية أساس فى الحقيقة الجيولوجية . بيد أنه ليس من المعقول أن يكون المصريون أنفسهم قد رأوا تلك المراحل الأولى من الرواسب الغرينية . والمؤكد تماماً ، أن بعض الجزر الطينية برزت من مياه النيل هدية من الطبيعة إلى أوائل السكان عندما استقروا فوق المرتفعات على كل من جانبى النهر . وربما لم يدركوا منذ البداية أن هذه المساحات الطينية سرعان ما ستمتلىء بأعواد الغاب المتموجة وبالحياة الحيوانية ، وأنها ستكون يوماً ما بلدهم . غير أن هناك فكرة رسخت فى أذهانهم وهى أن الأرض نفسها وما عليها من الكائنات الحية قد خرجت من جوف الماء . وجدت هذه الفكرة البالغة القدم تأكيداً سنوياً ، فى العصور اللاحقة ، عند مجىء مياه الفيضان فى كل عام ، التى كانت تغمر المملكة كلها وتحوِّل القرى إلى جزائر . وعندما ينحسر ماء الفيضان ، تظهر الأرض فى صورة مرتفعات طينية .

وهذا التل الطينى البارز من المياه هو صورة الخليقة الموجودة غالباً فى الأساطير المصرية . وقد أطلق المصريون على هذا

السطح المائى المتسع ، الذى انعدمت فيه الحياة فى ذلك الوقت اسم نون ورغم هذا فإنه كان يحتوى على جميع عناصر الخليقة التى ستأتى بعد ذلك : استيقظ الرب ، خالق المستقبل ، ذات يوم فى جوف هذه المياه ليدرك نفسه ، وأضفى شكلاً جسدياً على فكرة نفسه التى تكونت فى روحه .

وبذا خلق نفسه دون أية مساعدة خارجية غير نفسه ، وبنفسه وحدها . ثم وجّه اهتمامه إلى العمل الضخم لخلق العالم ، وأطلق على هذا الإله الأول اسم تاتنن ، أى « الأرض التى تبرز » ، أو نيت ، وشبه نطقها كلمة تدل على مسطح مائى . تتألف أول مرحلة لتكوين العالم من تل يظهر من وسط الماء ليستقر فوقه رب الخليقة وخليقته . فإذا كانت هذه الفكرة قد ترددت كثيراً فى نظرية خلق العالم المصرية ، فإن تفاصيل مولد العالم تتغير من بلد لآخر .

حسب معتقدات أهل هرموبوليس (الأشمونين) ، برز التل من بين الأمواج ، وتسلّم أولى نفحاته من الرب الخالق (وهو تحوت فى هذه القصة) ، وكانت بيضة غريبة غامضة ، هى أول بيضة رؤيت فى العالم . وذات يوم ، انكسرت قشرة هذه البيضة ، وخرج منها إله الشمس الصغير ، الذى بدأ فى الحال يرتفع فى السماء . جاءت هذه الفترة بعد فترة ركود ، توصف أحياناً بالخواء أو العدم ، ولكنها كانت تحتوى على أرواح جنينية ، عبارة عن قوى معقدة منفصلة ، تشمل الظلام والمياه واللا نهائية والخواء ومجموعة غريبة مضحكة الشكل من المخلوقات ، لها رءوس الضفادع أو رءوس الثعابين ، يذكّرنا ظهورها بحشد الزواحف والحيوانات التى تعمر المستنقعات .

وهناك أسطورة أخرى منشؤها هرموبوليس (الأشمونين) أيضاً ، تقدم نشأة الشمس بطريقة تختلف عن هذه . كان هناك برعم زهرة لوتس طاف فوق السطح المظلم للجة الأزلية ، يحبس الليل القديم داخل وريقاته التويجية المقفلة . فانفجر نور قوى داخل البرعم ، أجبره على التفتح . وبذا خرج الشمس الطفل . وفى الحال نشر أشعته على الكون . وعندما خبا النور فى المساء ، اقفلت زهرة اللوتس وريقاتها ثانية حول ذلك النجم المضىء ، واحتفظت به لتطلقه ثانية فى الصباح .

وتبعاً لأسطورة عين شمس حدثت الخليقة بطريقة مختلفة عن هاتين تمام الاختلاف ، أساسها النظام وتعتمد على الصور الأخلاقية وليس على الخيال الشعرى ، إذ تعتمد على المنطق الحسابى : لم يولد أتوم Atum من شىء ، بل خلق نفسه بنفسه ، وصنع الخليقة كلها من نفسه . وكانت يده تعمل شريكة له « فصار الواحد ثلاثة » بمولد الزوج الأول ــ الجو شو والرطوبة تفنوت Tefnut . ثم أنجب هذان الإلهان بدورهما زوجاً جديداً آخر ــ جب الأرض ، ونوت السماء ــ اللذين فصل بينهما أبوهما شو بواسطة الجو . وهكذا وصفت خليقة معقولة يتقدم فيها كل عنصر

عنصراً آخر ، وبذا وُضعت المظاهر الطبيعية للعالم الأرضى فى مواضعها الصحيحة . كانت هذه فكرة عقلية بحتة عن الخليقة .

وهناك أسطورة أخرى معقولة أكثر من هذه وتبذها متعة ، وهى أسطورة منف ، فتقول إن الإله بتاح الذى ضم مبادىء الخلق فى شخصه ، صنع العالم المنظم بفعل قلبه هو نفسه ، الذى استوعب فكرة الشيء الذى يخلقه ، وبفعل لسانه الذى نطق بهذه الفكرة ، أقام بدايات الخليقة بكلمته . اذن ، فهذا خلق بواسطة « الكلمة التى خلقت كل قوى الحياة وكل ما يؤكل وكل ما يحبه أو يكرهه الانسان »

هذه النظريات الأساسية هى أكثر النظريات بقاء وانتشاراً . ولكن يجب ألاّ يغيب عن بالنا أن كل طائفة بدائية سجت حول إلهها أسطورة خلق خاصة به ؛ وأن نظريات الخلق هذه بقيت فى علم اللاهوت الخاص بمناطقها فى العصور التاريخية . وقد تغلبت هذه النظريات التى ذكرناها على كثير من النظريات الأخرى التى ذكرت فى مواضع مختلفة ، كأسطورة الخلق الصعيدية مثلاً ، التى عرفناها عن طريق نص من اسنا ، وتقول إن الإلهة نيت أخذت حق الخلق بالكلام عن بتاح ، الذى كان هو مبتكره .

وهناك نظريات أخرى واضحة الاختلاف عن هذه . فمثلاً : النظرية التى تصف الإله الكبش خنوم بأنه فخارى صنع على عجلته كل صور الخليقة ، من كائنات حية وحياة نباتية ومظاهر جغرافية بحتة فى هذا العالم . كما كانت هناك نظرية خلق فى ادفو تقول إن حزمة من أعواد الغاب طفت فوق سطح المحيط الأصلى فى فجر الخليقة .

استعملت النظريات المتفرعة من نظرية الخلق بالكلام ، الجناس البديعى ، مثل : وُلد الناس (رمت) من دموع (رميت) الإله الأول ، ومن لعاب فمه نتت Netit جاء الآلهة (نترو) neteru .

طرحت هذه النظريات المختلفة بعض النقط الهامة التى كانت ضرورية لتعريف نظرية نشأة الكون المصرية . فأينما ظهرت الخليقة ، كانت على مراحل ، فقد أوجد الخالق النباتات والكائنات الحية ، خطوة خطوة ، وفى ترتيب متغير . غير أن عناصر هذه الخليقة لم تكن مرتبة بحسب أهميتها .

فكل ما خرج من يد الخالق أو من روحه ، كان على قدم المساواة مع غيره ، لأن فكرة العالم هذه لم تعرف نظرية النشوء والتطور . ولم يتمتع الإنسان بمكانة ممتازة ، بل كانت حدوده ووظيفته كحدود وظيفة الآلهة والحيوانات . فكان لكل واحد نصيبه وحقه . كانت جميع المخلوقات ضرورية ولكن ، ما من أحد كان أكثر أهمية من الآخر ؛ ولم يُعتبر البشر مركز العالم إلا بعد قيام مدنية الدولة القديمة ، وبعد أن خطرت تدريجياً أفكار إنسانية ببال بعض مفكرى العصر المتوسط الأول ، واعتبر غرض الخليقة والعالم هو الإنسان . كان البشر قطيع الاله ، ولذا حباهم بحظ ممتاز .

فصنع لهم الأرض والسماء ، وطرد عنهم المياه المهدِّدة ، وصنع الرياح لتعطيهم هواء تتنفسه أنوفهم ، لأنهم على صورته ، ومصنوعون من لحمه ، وهو يضيء فى السماء من أجلهم ، وبنفس هذه الطريقة صنع لهم النباتات والحيوانات والأسماك ، لتكون طعامهم » .

الأسد : اختفى الأسد تماماً الآن من مصر ، وكان أكثر عدداً فى عصور ما قبل التاريخ مما كان بها فى عصور الفراعنة . وكانت الأسود هى الحيوانات الملكية . ظهرت الأسود فى عالم الأساطير بعدة أشكال ، واشتقت منها صورة أبى الهول . ويبدو أحياناً أن المصريين نجحوا فى استئناس هذه الحيوانات المتوحشة .

فاستخدمها الملوك الرعامسة كرفقاء فى الحرب . غير أن الأسد يظهر عادة فى موطنه الطبيعى ، عند حدود الصحارى والأراضى الزراعية . وتهوى الأسود سكنى فتحات الوادى حيث تخرج لتشرب وتصيد أية فريسة من قطعان الماشية التى ترعى فى المستنقعات المنخفضة عند سفح الهضبة الجافة . كانت أقدم المعابد عند « أفواه الوادى » هذه ، فى كل من الشمال والجنوب ، وكُرست إلى الربة اللبؤة التى عبدوها بأسماء شتى : « باستت » فى تل بسطة ، و « پاخت » فى بنى حسن ، و « حتحور » فى الجبلين ، و « سخمت » فى منف وفى معظم المعابد المكرسة للربة اللبؤة .

لا شك أن رحلات الصيد العظيمة ، بقيادة الملك ، ضد أقوى الوحوش جميعاً ، من بقايا الأعمال التقليدية للرئيس الأفريقى ، أكثر منها رياضة قاسية . وقد شابهت النصوص بين الفرعون المحارب والأسد الذى كان يقاتله وجهاً لوجه .

« رمسيس الثانى أسد قوى ، مخالب ممتدة وزئير مخيف ، يرعد فى الوادى حيث يوجد وحش الصحراء » . وفضلاً عن الصيغ الكلامية الجوفاء هذه ، يدل الدور والأهمية اللذان ينسبهما علماء اللاهوت إلى الأسد ، على الإلمام منذ مدة طويلة بطبائع هذا الحيوان ، واستُعملت هذه المعرفة فى العوالم الكونية ، فى أساطير معقدة منمقة .

تدرك الأسود ، فى لمحة ، نوايا الصياد ، « تلك الأسود المخيفة المنظر » ، ويُعتقد أنها كانت تستطيع أن تبصر فى الليل كما تبصر بالنهار . وكانت تجول إلى حدود الصحراء الواسعة حيث تولد الشمس وتموت . وقد صُوِّر أسدان كحارسين ضاريين للأفقين .

وشُبِّه هذان الأسدان بالجبلين اللذين يحددان الحدود الشرقية والغربية ويرمزان إلى الأمس والغد . وبما أن رحلة الشمس أسفل الأرض تنقلها من فكى أسد الغرب إلى فكى أسد الشرق حيث تولد فى الصباح من جديد ، صار الأسد ذا أهمية أساسية فى تجديد شباب الشمس . ولكى ينتفع الناس أنفسهم من ذلك الموت المؤقت ، وهو النوم ، ويستيقظوا مثل الشمس ، زينوا فراشهم ومساند رءوسهم بصور الأُسود .

يكاد العنصر الأسدى أن يكون قديماً قدم الدنيا نفسها . وتبعاً لأسطورة الخليقة

التى نشأت بمدينة هليوبوليس ، كان أول إلهين أتيا من عمل الشمس ، فى صورة شبلين ، إذ وضع الإله أتوم « شو » و « تيفنوت » فى هليوبوليس ؛ فبما كان واحداً صار ثلاثة . وهكذا أضاء الخالق ، الذى كان فى وقت واحد « الأسد والأسدَيْن » ، وتألق بنوره ليبعث الحياة فى الزوج الأسدى . وقد نشأت فكرة الأسد كحيوان ضار مدمر كاللهب وحارق كعين الشمس ، وأنه ملك الوحوش ؛ من طبيعة الشمس النارية .

يتعذر تعداد جميع الصور الرمزية والأسطورية للأسد واللبؤة . فكانت هذه الأخيرة حيواناً مدمراً ، تجسدت فيها عين رع لكى تقمع أعداءه من البشر الذين تمردوا عليه . أما الأسد الذكر ، ذلك الحامى القابع على سقوف المعابد ، فكان يلتهم أتباع ست ، وأعداء الآلهة الآخرين ، الذين يطرقون سقوف مساكنهم فى صورة عواصف ممطرة . هذه هى نشأة الميازيب التى على صورة أسود ، التى يتساقط منها ماء المطر من سقوف المعابد المصرية .

إسرائيل **Israel** : وردت كلمة « مصر » ٦٨٠ مرة فى التوراة . أما كلمة « إسرائيل » فلا توجد فى النصوص المصرية إلا مرة واحدة ليس غير ، على لوحة تذكارية لانتصار مرنبتاح ، خليفة رمسيس الثانى (حوالى سنة ١٢٣٠ ق.م.) ، فى السنة الخامسة من حكمه . وتقع هذه الكلمة فى السطر السابع والعشرين : « دُمِّرَت إسرائيل ولم يعد لبذرتها وجود » . (انظر الخروج) .

الأسرة : لا يدهش الأوروبى اليوم للأسرة المصرية القديمة ، إذ تتفق آراؤها تماماً مع آرائنا . فلا شىء فيها من افريقيا البدائية ، وتختلف عاداتها عن العادات الشرقية . كانت الوحدة الاجتماعية العادية هى الأسرة الصغيرة المستقلة ، وتتكون من . زوج وزوجة يتمتعان بقسط وافر من الحرية الشخصية والمالية ، ومن أطفال تحت رعاية الوالدين . ويتفق مع ضيق دائرة هذه الأسرة ، عدد قليل قلة غير عادية من الألفاظ تعبر عن درجات القرابة . فهناك ثمانى كلمات ليس غير (أى نصف العدد الموجود فى مجموعة الألفاظ الهندوأوروبية القديمة) . فإذا أردنا أن نعبّر عن ابن العم وجب علينا أن نقول ابن أخى الوالد ، أو إذا أريد التعبير بأدب قلنا « الأخ » (وهذا لا يُرضى عالم الآثار المصرية المهتم بسلاسل الأنساب) . فإذا ما عُقد العقد ، صار الشاب رأس الأسرة . لقد أسس أسرته واتخذ لنفسه زوجة تلد له الأطفال . وإذ ارتقت زوجته إلى درجة « ربة الدار » ، فإنها تقاسمه مسكنه وقبره . وتبقى أملاكهما مقسمة بينهما وتُقَسّم بين الأطفال فى الوصية . ويستقل كل جيل بنفسه بَدَنيًّا وماديًّا . لذا لم يكن هناك اسم أسرة ، بل مركز مدنى موجز . وتضيف السلطات المدنية ذكر الأب إلى الاسم الشخصى (س ابن ص) ، بينما تذكر النصوص الجنائزية اسم أحد الوالدين أو الآخر ، تبعاً للعادة السائدة ، وكثيراً ما يضاف اسما الوالدين

كليهما ، فيقال : س ابن ص ولدته ربة الدار ع . وفى حقبة متأخرة ، أخذ وجهاء القوم يمددون أنسابهم وجدودهم النبلاء والكهنة فى قوائم هيروغليفية طويلة . ولم تكن هناك عبادة حقيقية للأسلاف . وإنما كان الابن الأكبر يشعر بأنه ملزم بدفن أبيه ، وكان يعتبر مما يشرفه أن يقيم له تمثالاً فى معبد مدينته . فيأتى أقرباؤه للاحتفال عند قبره بين آونة وأخرى . أما استمرار الطقوس الجنائزية فكانوا يعهدون به إلى أحد الكهنة أو عطف أحد المارة . ولا شك أن أفراد الأسرة كانوا يرحبون ، من آن إلى آخر بجلة مترملة أو بأخت ليس لها زوج . وكان الود الاجتماعى أو الاهتمام الخاص مما يعمل على اتساع أفق الصلات المنزلية . فبوسع خالك أن يساعدك فى حياتك . وقد تأسست كهانة طيبة على شبكة كاملة تتألف من الأحلاف . فقد تضم القبور أو اللوحات الحجرية جماعة كاملة من الآباء والأمهات والأصدقاء والأقارب ، والأتباع والرفقاء .

لا شك أنه كانت هناك مشاجرات من أجل المواريث ، كما كانت هناك قلوب خائنة . غير أنه ، على العموم ، يمكن الاستنتاج من تواريخ الحياة ، ومن أدب الحكمة ، والخطابات الموجهة إلى الموتى ، وجماعات الأسرة فى الجبانات ، وتماثيل الزوجين جنباً إلى جنب وأولادهما عند أقدامهما ، أن المصرى العادى كان مخلصاً لبيته ، الذى كان دائرة ضيقة ، وهادئاً ومحترما ، وحظيرة آمنة . وكانت الخصائص العادية ، هى : احترام الأمهات ، وتبجيل الأم فى الأسرة الكبيرة ، وحب الأطفال إلى درجة العبادة والاهتمام بمستقبل الابن ، والاهتمام باحتياجات النساء واحترام حكمة الحكماء . « احب زوجتك فى إخلاصك لبيتك ، كما هو واجب عليك . أطعمها واكسُها . واسع إلى ما يُدخل السرور على نفسها طالما أنت على قيد الحياة » .

الإسكندر الأكبر : وصل الإسكندر الأكبر إلى مصر فى خريف عام ٣٣٢ ق . م . الذى شهد تداعى الإمبراطورية الفارسية وسقوطها اقليما بعد آخر أمام جنود ذلك القائد المقدونى . ولم تمض شهور قلائل إلا وقد احتل هذا القائد المملكة حتى الشلال الأول ، وفرض على الحكومة الإدارية المصرية ، التى احتفظ بالجزء الأكبر منها ، رقابة إغريقية صارمة ، عسكرية ومالية . وإبان ذلك الغزو ، وقع حادثان متساويان فى الأهمية . أحدهما تشييد الاسكندرية على أحد أماكن شاطىء البحر حيث تسمح طبيعة التربة الجيرية ببناء مدينة . فبنى فى ذلك المكان عاصمة جديدة لمصر وثغراً جديداً على البحر المتوسط ، للاستفادة به بعد سقوط ميناء صور . أما الحدث الآخر فهو ذهاب الإسكندر إلى واحة أمون . وقد علمنا الأحداث التى وقعت هناك عن طريق أسطورة غامضة . ففى ظل معبد سيوة الموجود فى مكان منعزل على تل أجورمى ، أصغى ذلك الفاتح لنبوءات وحى الإله أمون الشهير ، الذى اعترف به ابناً له ، ووعده بحكم العالم أجمع ــ وهذه هى الصيغة المعتادة التى تخاطب بها الآلهةُ فرعونَ مصر . أما فى تلك المناسبة فتتضمن هذه الصيغة الاعتراف

الإلهي بشرعية الإسكندر وخلفائه . وبعد ذلك بفترة قصيرة تُوِّج الإسكندر رسمياً ملكاً على مصر فى معبد « بتاح » ، بمدينة « منف » . وفى ربيع عام ٣٣١ ق . م . ، رحل ذلك الفاتح إلى الشرق . فلم يرَ مصر بعدها إطلاقاً . غير أن جثته أُحضرت إلى العاصمة التى أسسها . ولم تستغرق زيارته هذه سوى ستة شهور ، بيد أن مصر لم تسترد استقلالها إلاَّ بعد ألفى سنة .

الإسكندرية : ثغر على البحر المتوسط بناه الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق . م . وكان قصبة الحكومة منذ عهد « بطلميوس الأول » . وقد ازدهرت هذه المدينة ونمت طوال العصر الإغريقى الرومانى . وما إن جاء عصر « بطلميوس الثانى والثالث » حتى صارت الإسكندرية مدينة تجارية غنية ، ومركز ثقافة بالغة الشهرة . ثم تدهورت هذه المدينة بعد الفتح العربى عندما احتلت رشيدُ مكانتها ، ولم تعد إليها الحياة كمدينة كبرى ، إلا فى حكم « محمد على » . وهى الآن ثانى مدن مصر . وتقع على برزخ صخرى ضيق بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط . والمدينة القديمة مدفونة تحت المدينة الحديثة ، ولا ترى النور إلا عند القيام بعمليات البناء .

وقد اختفى جزء كبير من المدينة « الهيلينستية » ، إذ يتآكل الشاطىء تدريجياً بفعل البحر . ولم يعد لفنارها ولا لمتحفها أو لمكتبتها وجود الآن . ومع ذلك ، فبوسع الزائر لها أن يذهب إلى « السيرابيوم » ويرى عمود بومبى (أو عمود السوارى) ، والممرات السفلية فى « كاتاكوم » كوم الشقافة ، وعدداً من المبانى المبعثرة خلال المدينة الحديثة . وإذا ذهبنا إلى متحف الآثار بالإسكندرية ، أمكننا رؤية الآثار المصرية الصميمة والأوانى الهيلينيستية وتماثيل التنجرا ، كما نستطيع أن نتتبع محاولات الفنانين للتوفيق بين الأنماط والأفكار الدينية لكل من الشرق والغرب ، فحالفهم التوفيق أحياناً وجانبهم أحياناً أخرى . كما نرى به آثار المجتمع اليهودى الذى كان دائماً بالغ الأهمية ، وبقايا بعض الآثار المسيحية .

الأسلحة Weapons : كانت الأسلحة المصرية ، منذ العصر العتيق إلى نهاية الدولة الوسطى ، هى من الناحية العملية نفس أسلحة جيرانهم من شعوب أفريقيا وفلسطين ، الذين كانت فنونهم السلمية وتنظيماتهم السياسية أقل تقدماً من مثيلاتها فى الدولة الفرعونية . أما فى عصر الدولة الحديثة وما بعده ، فتغيرت المعدات الحربية ، بعض التغير ، بيد أن هذه المبتكرات الجديدة جاءت من آسيا ، ونُقلت فى الحال إلى الليبيين . وعلى ذلك لم تتفوق مصر قط فى الأسلحة على جيرانها . وعلى العموم ، فإن المصريين ، الذين كانوا بنائين بالأحجار ومزارعين ، كانوا أبطأ من الأمم الأخرى المتنفعة من التقدم فى الصناعات المعدنية .

شُهِرَ السلاح القديم لعصر ما قبل التاريخ ، وهو « العصا المقذوفة » (المسماة خطأ بالبومرانج Boomerang) ، فى

الرقصات الحربية ، ولكنها لم تستعمل فى الأغراض العملية إلا فى صيد الطيور . وقد استعمل الجنود ، فى المعارك البعيدة المدى ، إبان الدولة القديمة والدولة الوسطى ، المقلاع أو القوس ، وكانت لديهم منها أنواع كثيرة (للقوس المصرية منحنى واحد ، أما القوس النوبية فذات منحنيين) ظلت القوس رمز الأمة عند الحرب ، وتُذكِّرنا العبارة التقليدية « القسيّ التسع » ، بالأمم التسع التى تغلَّبَ عليها قدامى الملوك بقوتهم الحربية ، وترمز إلى الشعوب المعادية .

استخدم جندى العصور المبكرة ، فى القتال وجهاً لوجه ، أسلحة من النحاس المطروق أو من الحجر بمقابض خشبية ، وتشمل الرماح والخناجر والهراوات الكمثرية الشكل والفئوس واستخدم قدماء المصريين ، فى عصور ما قبل الأسرات ، للدفاع تروساً طبيعية من درقات سلحفاة البحر ، وفى أغلب الأحوال كانوا يستعملون تروساً كبيرة مصنوعة من الخشب أو من الجلد مستطيلة الشكل تقريباً ومقوسة من أعلاها .

ولو أن البرونز بدأ يحل محل النحاس فى حوالى عصر الأسرة الثانية عشرة ، فلم تتغير الأسلحة ، على العموم ، إلا تغيراً طفيفاً حتى فى معارك طرد الهكسوس الذين استخدموا الخيول والعربات . غيرت هذه المبتكرات الجديدة الخطط الحربية والتنظيم العسكرى للأسرات اللاحقة . وتغير شكل الأسلحة التقليدية . فظهر السيف المقوس الأسيوى الشبيه « بالحربة » (كان هذا السيف هو « الخبيش Khepesh » الذى أعطته الآلهة للملك كعربون سحرى للنصر) . وتطورت معدات الدفاع ، فاستخدم الجنود لوقاية الجزء الأسفل من أجسامهم ميدعة من الجلد تُلبس فوق وزراتهم القصيرة . وفى عصر الرعامسة كانوا يلبسون قميصاً من الجلد مغطى بزرد من المعدن ــ وهذه حلة حربية بدائية منشؤها فلسطين . ويبدو أنهم قلما استعملوا الخوذات قبل الحقبة المتأخرة . أما لباس الرأس الأزرق المسمى « خبرش Khepresh » ، الذى يوصف عادة بأنه خوذة الفرعون الحربية ، فكان فى الحقيقة تاجاً خاصاً يرمز إلى النصر . والجنود الشردينيون Sherdenian وحدهم هم الذين كانوا يلبسون خوذات حقيقية ويحملون تروساً مستديرة ــ كمعدات تقليدية لهؤلاء القراصنة المرتزقة . وقد سمح المصريون للجنود القادمين من البلاد الأجنبية بأن يستعملوا أسلحتهم . وهكذا ضوعفت وسائل القتل . وكان رمسيس يمتطى عربته فى ساحة القتال ويقود فرقة العربات : فكانوا يمزقون العدو أولاً بالسهام ، ثم يقتلونه بالسيوف ؛ فكان المصريون الوطنيون يستخدمون الفئوس ، بينما يستخدم الشردنيون السيوف الطويلة أما المقاتلون الزنوج فكانوا يفعلون العجائب بهراواتهم المصنوعة من الخشب الصلب .

وإذ تنقصنا الوثائق التفسيرية فلا نعرف عن معدات الجيوش بعد الدولة الحديثة . غير أنه لا شك فى أن الأسلحة لم تتغير تغيراً شاملاً ، ولاسيما أن مصر ظلت تستعمل

البرونز فى منتصف العصر الحديدى . لابد أن يحدث توفيق بين الأسلحة التقليدية التى ثبتت كفاءتها والمعدات المعدنية الثقيلة التى استعملها الأغارقة الذين ثبتت سيادتهم الحربية وتفوقهم العسكرى فى الشرق .

الاسم : سواء أكان الاسم الشخصى خاصاً بإله أو بملك أو بإنسان أو بحيوان فهو أكثر من وسيلة للتعرف . كان جزءاً أساسياً من الشخص . وكان قدماء المصريين يعتقدون بالقوة الخلاقة والجبرية للكلمة . كان الاسم كائناً حياً . فقد يعنى اسم الطفل شكراً لإله ، أو تعويذة سعيدة تتلى عند العزلة ، أو صلاة من أجل الطفل الحديث الولادة ، أو تعويذة تقال ضد أعداء مصر ، وهكذا يمكن ترجمة كل اسم ، إلى جملة تزخر بالأهمية (ولم يعد الاسم هكذا معنا) . فخوفو معناه « عسى أن يحمينى » ، واسم رمسيس معناه « خلقه رع » وهكذا . وبطبيعة الحال ، إذا ما كُتب اسم شخص ونُطق به ، أعطى الحياة والبقاء . ولكن ، فى الوقت نفسه ، كان يكفى معرفة اسم شخص ما لتكون لنا السيطرة عليه ما على المسافر فى العالم الآخر إلا أن يقول : « أعرفك ، أعرف اسمك » ، للسيطرة على أرواح العالم السفلى . قد تُلْقَى على المرء تعويذة أو يُقتل بواسطة شخص ما ، يعرف اسمه . وما من طريقة أنجع أثراً ، فى السياسة ، للأخذ بالثأر من الأعداء بعد موتهم من تشويه أسمائهم على آثارهم ، وبذا نتأكد من أن الأشخاص ، أمثال حتشبسوت وأخناتون أموات حقيقيةً . ولا يُنتظر قيام أية معارضة من زعيم ماعاد له وجود . وحتى بعض الآلهة ، أمثال أمون فى عهد أخناتون ، وست ، (رمز الشر) أبيدت بمحو أسمائها . وكعقاب جزئى ، يتحول اسم « هدية أوزيريس » إلى مجرد « هدية » ، أو يضاف إليه الاسم التهكمى « رع يكرهه » ، أو يُحكم على المرء بإلغاء اسمه ، الآن وبعد المهات . فالمتمرد « ما عاد يعيش . . . . لن يكون اسمه ، بعد الآن ، بين الأحياء » .

الأسماك : « الأسماك هناك أكثر وأغزر من الرمال على الشواطىء » . يمكن تطبيق هذه الحقيقة التى قيلت فى وصف برك الأسماك فى بيت أريستوقراطىّ يطل على النيل والترع والمستنقعات والبحيرات الساحلية وبحر الفيوم . يمكن أن نتعرف فى الصور ، التى رسمها خبير ماهر على القبور القديمة موضحاً صيد الأسماك ، على « الأسماك المصرية التى لازالت فى مياه النيل » ، وهى : ثعبان السمك ، وسمك البورى والبلطى ، وأنواع عائلة أسماك الشبوط والأروص النيلى الضخم (أو اللاطس) ، وعدة أنواع من السمك « أبى بوز » ، ومنها أبو منقار ، وشتى صنوف سمك البياض (وقد تسلّى أحدها بالطفو على سطح الماء) ، والسمك الذى يدعونه الفلاحون بـ « كلب النيل » (Phagre) الشرير بأسنانه الضخمة وسمكة الفهكسة Globe-Fish (Tetrodon) التى تملأ بطنها بالهواء فتعوم وبطنها إلى أعلى كأنها قربة من الجلد . وفيما عدا النوع الأخير ، سمك مصر لذيذ الطعم وصالح للأكل . غير أن هناك تحريماً دينياً يُحَرِّم على جميع الأشخاص

المتصلين بالدين كالملوك والكهنة والموتى المباركين ، أن يأكلوا الأسماك . أما غير رجال الدين هؤلاء فلم يُحَرَّم عليهم أكلها . وقد عينت كل مؤسسة هامة ، حتى المعابد ، فرقاً من صيادى الأسماك ليزودوا صغار الموظفين بالطعام . فكانوا يسلّمون صيدهم إلى رئيس عمال المزارع ، فى سلة معلقة بطرف ساق خشبية ، بينما يسجل الكتبة ويراجعون التسليم . وهناك حوار منقوش على مقبرة وزير مات فى حوالى سنة ٢٤٠٠ ق . م . يقول : « وبهذا يصير العدد مائة ، وهو ما اعتدتَ تسليمه ! — تعال بسرعة ، دعنا نأخذ راتبنا . . . . . » ومازال يُسمع مثله فى حكم الملوك الرعامسة . وهناك عدد لا يحصى من الأوستراكا فى دير المدينة تسجل هذه الأحداث ، جُمعت من أكوام القمامة ، كما جُمع عدد من القوائم تبين أوزان الجرايات التى كان يأخذها العمال الذين يخدمون فى الجبانة الملكية . كان السمك ، هو اللحم الذي يأكله الشعب ، سواء أكان طازجاً أو مجففاً أو مملحاً . وقد عرفت البطارخ منذ عصر الأهرام . وكان « كاڤيار » الفقراء هذا ، يصنع من بيض سمك البورى ، فيضغط هذا البيض ويجفف .

يجب علينا أن نلزم الحيطة ، ففى أزمنة لاحقة ، على الأقل ، لم يكن بوسع المرء أن يأكل السمك فى كل وقت . ففى أحد الأعياد ، كان جميع الشعب ، فى وقت واحد ، يأكل السمك المقلى أمام أبواب بيوتهم ، باستثناء الكهنة الذين يحرمون بعض القرابين من أجلهم . غير أنه فى يوم آخر لم يسمح بأكل السمك إطلاقاً إذ اعتقد أن آلهة بوسيريس حوّلت أنفسها إلى سمك البلطى . وحُرِّم نوع معين من السمك فى أحد الاقاليم . بينما أعفى نوع آخر فى الاقليم المجاور لتلك ، فكان الصيادون يتركونه أو يحنِّط بتبجيل دينى . ونعلم أن للسمك المسمى « أبى بوز » المعقوف الأنف بلده الخاص ، أوكسيرنخوس Oxyrhynchus (البهنسا) ، وأن هذه المدينة اشتبكت ذات يوم فى حرب مع سكان المدينة المقابلة لمدينتهم لأنهم تجاسروا وأكلوا إلههم .

كان كل هذا مسألة اعتقادات محلية ، فمعظم الأسماك كانت مقدسة بطريقةٍ ما . فكان الأروص مكرساً للإلهة نيت ، وثعبان السمك لإله هليوبوليس . ويمكننا أيضاً أن نذكر الربة التى كانت « رئيسة الأسماك جميعاً » لأن سكان منديس أطلقوا هذا اللقب على أنثى الدلفين التى اعتبروها حاميتهم . أما « أولئك الذين يعيشون فى الماء » ، تلك المخلوقات الصامتة الغريبة ، المختفية ولكنها تتألق تحت النيل الأخضر ، كانت تقوم بدور فى الدراما الوحشية . فكل يوم ، فى الخليج الواقع عند نهاية الدنيا ، تخفر سمكة بلطى ذات زعانف بحافات حمراء ، وسمكة « أبجو » زرقاء بلون الفيروز ، شكليهما بطريقة غريبة وتعملان مرشدتين لسفينة رع ، فتعلنان عن مجىء العملاق المتوحش « أبوبيس » .

وهكذا كثيراً ما كانت تعمل تمائم من الخزف بشكل سمك البلطى لتجلب الحظ الحسن . وقبل ذلك بوقتٍ ما ، اقتسم سمك البربوص وكلب النيل وأبو منقار ،

فيما بينهم ، عضو الرجولة من أوزيريس بعد تمزيقه إرباً . واعتبَر عابدو التمساح الأسماكَ متمردة وهدفاً للموت . وهكذا ، باستثناء بعض الاختلافات المحلية ، كان صيد السمك صناعة مربحة وعملاً دينياً من أعمال الصلاح ، يمكن اعتباره ، مثل صيد الحيوان ، كبحاً للشر بطريقة سحرية .

إسنا Esna : إسنا مدينة فى مصر العليا على الضفة اليسرى لنهر النيل وعلى بعد ٥٥ كم جنوبى الأقصر . وهى مدينة زراعية خصبة يبلغ عدد سكانها حوالى ٢٠,٠٠٠ نفس وتعتمد إسنا اليوم فى بعض رخائها على النقل بالإبل . وهى ملتقى خطوط القوافل الصحراوية التى تربط الوادى بالسودان . وقد أخذ العرب الاسم القبطى سنى المشتق مباشرة من الاسم المصرى القديم « تا ــ سنى » .

لا تذكر لنا النصوص سوى النزر اليسير عن إسنا فى أيام الفراعنة : فكانت مركزاً هاما للزراعة فى الدولة الحديثة ، وقد أتى ذكر هذه المدينة وآلهتها أحياناً ، وهم : خنوم ، الإله الكبش ، خالق الحياة ، وزوجتاه نيبوت Nebut « سيدة الريف » ومنحيت Menhyt ، الربة ذات رأس اللبؤة . وكذلك تذكر النصوص المتأخرة ابنا اسمه حقا Heqa والربة الشمالية العظمى نيت Neith ، التى خلقت الكون . وقد بنى ملوك الأسرة الثامنة عشرة معبداً هناك ، أعاد ملوك سايس بناء جزء منه ثم أكمل بناءه بطلميوس السادس . وفى أثناء حكم الامبراطورين الرومانيين كلاوديوس وفيسبازيان ، بنيت صالة ذات ٢٤ عموداً كواجهة لمعبد المدينة ، بينما بُنى معبدان هامان فى الضاحية الشمالية . وهذه الصالة الرومانية العظمى هى الأثر الوحيد الباقى من المبانى القديمة ، وتقع فى قلب المدينة الحديثة فى فجوة ضخمة عمقها ٩ أمتار .

تكاد هذه الصالة أن تكون أجمل صالة ذات أعمدة فى مصر لتماثل نسبها ، وبقائها محفوظة فى حالة تكاد تكون تامة وطرافة تيجان أعمدتها ، ومما يؤسف له أن يجد السائحون الوصول إليها شاقاً .

لم تدرس النقوش المنحوتة على الحوائط وعلى الأعمدة دراسة تامة إلا حديثاً . وتتكون من مؤلفات دينية صارت علة فقرات منها من « الأداب المصرية الكلاسيكية » عندما عمَّ انتشارها . وفضلاً عن هذه النصوص الدينية ، هناك ، كما فى المعابد الأخرى ، نصوص عن خلق العالم ، وأصل الحياة ، وانتقالها ، ورسالة تشرح الأسس الدينية للامتيازات الملكية ، وتضرعات خاصة وتراتيل ذات عاطفة روحية عظيمة ممثلة فى صورة شعرية لاتزال واضحة يمكن إدراكها .

نُقشت أهم هذه النصوص فى عصر تراجان وهادريان (القرن الثانى الميلادى) وآخرها فى عصر ديكيوس Decius (فى حوالى سنة ٢٥٠ م) ، وهى من أحدث النقوش الهيروغليفية لمصر القديمة .

أسوان : (انظر فيلة)

آسيا : تقع أرض الفراعنة بقرب الجسر الموصل بين آسيا وأفريقيا . ويمر خط

المواصلات بين هاتين القارتين وسط مصر . ولم تكن العقبة التى وضعتها الطبيعة بين وادى النيل والهلال الخصيب — وهى الصحراء العربية وصحراء شبه جزيرة سيناء ، والبحر الأحمر — كافية لمنع الاتصال ، وإن جعلته عسيراً ، إذ كان الضغط فى كلا الاتجاهين قوياً ، وكان لابد من التبادل المشترك . فكان لدى آسيا أخشاب البناء والنحاس والفضة والحديد والأحجار شبه الكريمة ، التى تفتقر إليها

مصر ؛ بينما تحتكر مصر المنتجات الأفريقية - ولاسيا الذهب - التى يرغب فيها الشرق ، وظروف الحياة التى تجذب إليها البدو . وانتقلت الأفكار والمعارف الفنية مع الناس والمنتجات . كانت الحركة مستمرة ، ولكنها كانت تختلف من وقت إلى آخر . فكانت تزداد فى فترات معينة نتيجة للحرب والغزو والفتوحات . والتاريخ المصرى كله عبارة عن قصة متتالية الحلقات ، للعلاقات المتبادلة بين آسيا وأفريقيا . وجاءت أولى الموجات من الشرق ، قبل العصور التاريخية بزمن طويل ، وأضفت على اللغة المصرية طابعها السامىّ . وفى نهاية الألف سنة الرابعة ، وبداية الثالثة ، نشأت حضارة الأسرات من اندماج النفوذ الشرقى بالثقافة الوطنية . وما إن تكونت الدولة الفرعونية تحت حكم الحكام الثنيين ، حتى أرسلت بعثات إلى مناجم سيناء ، وبدأت تستورد من بيبلوس خشب الأرز اللبنانى . وزاد هذا النشاط فى الدولة القديمة ، وأدى إلى قيام حملات غزو ناجحة ، فى البر والبحر ، ضد فلسطين . وقد وضعت الثورة حدًّا للسيادة المصرية ،

وفى خلال عصر الاضطراب الأول ، غزا البدو الرحل الدلتا ، وطردهم حكام الدولة الوسطى ، الذين وطدوا سلطتهم على جزء من فلسطين وسوريا (من سنة ٢٠٥٠ — ١٧٧٨ ق . م .) . وساعد التدهور الذى تبع حكمهم ، الهكسوس الذين وفدوا من اسيا ، على غزو مصر ، وطردهم ملوك الدولة الحديثة (سنة ١٥٨٠ — ١١٠٠ ق . م .) ، الذين قهروا الشرق الأدنى حتى نهر الفرات ، فتدفقت الغنائم والأسرى والجزى على ضفاف النيل ، ومعها المعتقدات والعادات والألفاظ الأسيوية . كان هذا عصراً عالمياً خرجت منه مصر مستضعفة . وإن ظلت لها سياستها الخارجية إبان حكم شاشانق الأول ، والملوك الكوشيين (من القرن الثامن إلى القرن السابع) . وتغير مركز القوة إذ كان استعمال الأسلحة الحديدية ميزة للشرقيين . فغزا الاشوريون مصر ، وبعدهم جاءت نهضة العصر الصاوى (سنة ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .) ، الذى استطاع الفراعنة خلاله أن يتدخلوا فى آسيا ، ثم جاء الفرس ، فوضعوا نهاية لاستقلال مصر فى سنة ٥٢٥ ق . م . ولم تستعد مصر استقلالها إلا لفترة وجيزة تحت حكم الأسرات الوطنية الأخيرة (سنة ٤٠٩ — ٣٤٣ ق . م .) .

كان التباين الحاد بين خصب الوادى وجفاف الصحراء ضد مصر على المدى الطويل فلم يهاجر الفلاح قط ، وكانت أرضه دائماً محط أنظار من كانت أراضيهم أقل حظًّا من أرضه . فإذا كان المصريون

شنوا الحملات لا لشيء سوى الحصول على الغنائم ، فالآسيويون هاجموا مصر بقصد الاستقرار فيها . وإذا نظرنا إلى النزاع نظرة قارِّية ، وجدنا أن أفريقيا المستقرة لم تقاوم القوة الآسيوية المتحركة . فإلى أى قسم من هذين تنتمى مصر ؟ لقد اهتمت العلوم الكلاسيكية القديمة بدروس التاريخ أكثر من اهتمامها بالحدود الجغرافية ، فجعلت النيل الحد الفاصل بين القارتين ، وبذا لم تكن مصر كلها تابعة لآسيا فى عرفها .

الإضاءة : أنشد المصريون ترنيمة لأتون ، تقول : « يعيشون إذ يرونك ، وينامون إذ تنام . . ويترك كل عمل عندما تغرب فى الغرب » .

اعتمد المصريون على ضوء الشمس فى حياتهم إذا استثنينا العامل المشتغل بقطع أحجار المقبرة الملكية ، وعامل المناجم المشتغل فى الأنفاق تحت الأرض ، والكاهن الذى كان ينزل إلى حجرات العبادة المشيدة أسفل المعابد ، والأستاذ والتلميذ اللذين كانا يسهران إلى وقت متأخر من الليل على مخطوطات البردى (« ينقضى الليل كله فى إعطائك دروساً ») ، والآلهة الذين طلبوا الضوء ، والموتى فى وحدتهم فى عالم الظلام .ولكن كانت الحاجة ماسة إلى ضوء صناعى ، وينسب كلمنت السكندرى إلى المصريين فضل اختراع المصباح ، وقد عُرف المصباح منذ الدولة القديمة وكان على صورة قدح من الحجر أو الفخار يُملأ بالزيت ويوضع فيه فتيل من الخرق . وقد ظل مبدأ عمله على ما هو عليه فى عهد الفراعنة ، حتى ولو تغيرت أشكاله مع الزمن . وكذلك استُعملت المشاعل ، وكتل من الشحم معينة الشكل توضع فوق عصا . لقد رسم الفنانون الصور على جدران المقابر ، على ضوء الشموع ، غير أن الزائر لجبانة طيبة لا يرى أىَّ أثر للدخان . وإنه لمن الممتع حقاً أن نعرف كيف دبروا أمر ذلك الدخان حتى انعدم تماماً .

الإضراب : كانت قرية دير المدينة الصغيرة ، والمعابد الجنائزية الواقعة على الضفة اليسرى للنيل عند طيبة ، فى آخر سنوات حكم رمسيس الثالث (فى حوالى سنة ١١٦٥ ق.م.) ، مسرحاً لاضطرابات اجتماعية ، فى كثير من المناسبات . فأضرب العمال القائمون بالعمل فى المقابر الملكية بوادى الملوك . ولقد قامت معظم هذه الإضرابات نتيجة لاستياء العمال من بطء الإدارة فى صرف أجورهم . « مرَّت طائفة العمال ، اليوم ، بجانب حوائط المقبرة الملكية وهم يقولون : نحن جائعون ، لقد مرَّ ثمانية عشر يوماً من هذا الشهر . . . . . جلسوا خلف المعبد الجنائزى لتحوتمس الثالث » . وحاول مختلف الموظفين ورؤساء العمال أن يعيدوهم إلى العمل ، وأقسموا لهم أن يرجعوا إلى العمل فقد تسلموا رسالة من فرعون . ولكن العمال ظلوا فى أماكنهم طوال اليوم » . وبعد بضعة أيام ، وكان الإضراب مازال مستمراً ، جاء كاتب مع الكهنة « ليسمعوا أقوال العمال ، فقال هؤلاء لهم : ساقنا إلى هنا الجوع والظمأ . ليس لدينا ثياب ولا دهن ولا سمك ولا خضروات (كانت أجورهم نوعية دائماً) . اكتبوا هذا لفرعون ، سيدنا الطيب ، اكتبوا للوزير ، رئيسنا ، حتى تنال الوسيلة التى نعيش

بها » . كما كانت الإضرابات تحدث لأسباب أخرى : « لم يكن الجوع هو الذى ساقنا إلى المرور بجانب الأسوار ، ولكن لدينا شكاوى خطيرة نريد تقديمها : حدثت أمور فاضحة جداً فى مكان فرعون هذا » . ثم انتهى الإضراب عندما تسلَّمَ العمال جراياتهم . وإذا ما خلت مخازن الحبوب ، الأمر الذى حدث كثيراً فى عصور الرعامسة ، وزع الوزير كل ما أمكنه العثور عليه سلفةً « حتى يعيش الشعب وهم ينتظرون توزيع الجرايات من عند فرعون . لدينا هنا ، حقاً ، أول مثال على احتجاج العمال احتجاجاً جماعيًّا ، الأمر الذى قُدِّرَ أن يكون له مستقبل هام . ومع ذلك ، فيجب أن نؤكد أن هذه الاضطرابات كانت قاصرة ، فى مصر ، على العمال المشتغلين فى المقابر الملكية . وإن اهمية مركزهم الخاص ، وعملهم الهام ليفسران سلوكهم الاستثنائى ، ونجاحه النسبى .

الأعمدة : استعمل قدماء المصريين الأعمدة الدائرية والمتعددة السطوح وذات الحزوز الدائرية ، كمجرد دعامات دون أية اهمية رمزية . وكانت هذه الاعمدة المصرية ، فى معظم الأحوال ، نماذج حجرية للدعامات المصنوعة من النباتات — إما جذوعها وإما أعوادها — التى استعملت قديماً كدعامات للسقوف الخشبية أو المبانى الطينية . وفى العصور المبكرة ، غالباً ما كانت الأعمدة قطعة واحدة من الجرانيت ، حتى ولو كانت للمبانى الشاهقة الارتفاعات . ومع ذلك ، فقد صنعت الأعمدة ، عموماً ، من قطاعات ، كما هى الحال فى الحوائط . فيعلو ساق العمود تاج فوق خمسة أحزمة أفقية تربط ، نظرياً ، حزمة الأعواد التى يتكون منها العمود . وفوق هذا التاج طَبْلِيَّة العمود (abacus) التى تحمل الكمرة architrave التى تعلوه .

سميت طرز الأعمدة بحسب النبات المختار نموذجاً للعمود ، ويعطى ساقه صفته الخاصة ، وتاجه شكله المحدد . فهناك أسماء لعدة طرز مختلفة ، منها : النخيلىّ الشكل (وهو عبارة عن ساق مستديرة ذات تاج بشكل سعف النخل) ، واللوتسىّ الشكل (عبارة عن ساق مضلعة تتكون من أعواد مستديرة ، فوقها تاج بشكل برعم اللوتس ، إما مقفلاً أو متفتحاً) ، والبردىّ الشكل (وهو أكثر ضيقاً عند نقطة اتصاله بالقاعدة ، وبدنه المستدير ينقسم إلى تضليعات بارزة ، أما تاجه فمقفول) .

يتفرع من هذا الطراز الأخير طرازان آخران ، أحدهما ذو تاج بشكل زهرة متفتحة (ناقوسية الشكل) ، وانعدمت فيه ضلوع البدن وحافاتها . وأما الطراز الثانى فهو البردىّ الوحيد النمط ، وتنعدم فيه الضلوع من البدن ومن التاج .

أما الطراز المركب ، الذى عمَّ استعماله فى العصرين البطلمى والرومانى ، فربما اشتق من الطراز الناقوسى الشكل ، مع حذف الكأس المحيطة بالقاعدة ، وحذف كل أثر للأصل النباتى من التاج الذى يعلو الساق . ويتكون هذا التاج من مجموعة كاملة من الزخارف الزهرية المستعارة من عدة نباتات أو المبتكرة أحياناً . وهناك أنواع كثيرة من هذا الطراز المركب ، يمكن أن نسمى منها ٢٧ نوعاً . وهناك طرز أخرى

من الأعمدة ــ ما هو فى صورة المصلصلة Sistra (الشخشيخة) كما في دندرة تكريماً لحتحور ــ ويتضمن تاجاً وطُبْليّة العمود ، تعلوها مصلصلة (كما فى فيلة) منحوتة ، أو الإله بس (كما فى دندرة) ، أو أجراس مقلوبة (كما فى قاعة احتفالات تحوتمس الثالث ، بالكرنك) .

لم يخش المصريون استعمال الأعمدة بكثرة بالغة فهناك أكثر من ١٠٠ عمود فى صالات الأعمدة بمعبد فيلة . وفى بهو الأعمدة ، بالكرنك ، وحده ما لا يقل عن ١٣٤ عموداً (منها ما يبلغ ارتفاعه ٢٤ متراً) .

ويجب ألا يفوتنا أن هذه الأعمدة والتيجان طليت بألوان زاهية : الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر .

الأعياد Festivals : كانت السنة المصرية القديمة تحتوى على عدد من أيام الأعياد ترتبط بالتقويم (يوم رأس السنة وأعياد كل شهرين وبدايات الفصول) ، وكذلك الأحداث الريفية (البذر والحصاد والفيضان) ، والمناسبات الملكية (التتويج واليوبيل) ، وفوق كل شىء ، الاحتفالات الدينية .

كانت أعياد الموتى ، التى تذهب فيها العائلات إلى الجبانات لتأخذ الطعام إلى موتاها ، شائعة فى جميع أنحاء الدولة ، غير أنها ، بطبيعة الحال ، كانت ذات صفة خاصة ؛ فلم تتضمن احتفالات على نطاق قومى . وزيادة على ذلك ، كانت هناك الاحتفالات السنوية لتكريم الآلهة العظام ، التى يمكن أن تستمر لعدة أسابيع فتوقف نشاط البلاد ، وتسبب حركة تدفق كبيرة بين الحجاج والعرافين ، ورخاء مؤقتا للنقل بالسفن وللتجارة وللفنادق . ويخبرنا هيرودوت عن أعياد بوباسطة التى كانت تجذب إليها ٧٠٠٠٠٠ حاج من الرجال والنساء ، وكلهم على استعداد للضحك واحتساء الخمر بكثرة والتمتع بالملذات . ونعرف بعض هذه الأعياد . فمثلاً ، فى طيبة ، كان عيد أوبت Opet وعيد الوادى ، يشغلان السكان . فيستغرق الأول حوالى شهر فى الأسرة العشرين ؛ وكان يتألف من زيارة أمون الكرنك « لحريمه فى الجنوب » (الأقصر) . أما الثانى فكان عيداً فى جبانة طيبة . وهناك عيد شهير آخر ، عندما كانت حتحور ربة دندرة تذهب أثناءه ، فى كل عام ، لتقضى أسبوعين فى إدفو مع زوجها حورس . فكان بقاؤها هناك فرح طويل الأمد ، كما كانت رحلتها بالسفينة من معبدها البعيد ، سببَ احتفالات فى كل مدينة تقف عندها على طول ذلك الطريق .

وزيادة على هذه الأعياد الإقليمية ، كان لكل مدينة هامة تقويمها الاحتفالى الخاص المكون من مواكب ، وظهور للإله ، وأسرار دينية . فمثلاً ، كانت سايس وأبيدوس تحتفلان فى كل عام بأهم مظاهر أسطورة أوزيريس ، وهى : نضال ذلك الإله ، وموته ، ثم بعثه حيًّا ؛ بمواكب عديدة ومناظر تمثيلية ، وأناشيد . كذلك كانت تقام أمثال هذه الاحتفالات فى بوتو Buto

وبابريميس Papremis ، وتتضمن ، أحياناً ، بعض المعارك التمثيلية والطقوس العربيدية

كانت المملكة كلها تترقب بعث أوزيريس فى شهر كيهك ، وهو الشهر الرابع من التقويم المصرى القديم (التقويم القبطى) . فتقام أهم الطقوس الدينية سرًّا داخل أبهاء المعبد المقفلة ، غير أنه من المؤكد أن إعلان ميلاد ذلك الرب من جديد ، كان فرصة لإقامة أفراح عامة عظيمة .

الأغانى : تتضمن الموسيقى المصرية تراتيل طقسية وترانيم الأسرار الدينية ، وأناشيد جماعية تنشدها السيدات النبيلات المشتركات فى المواكب ، وأصوات القيثارات وأغانى الغرام (انظر قصائد الغرام) ، والقصائد الدينية والدنيوية المصاحبة لحركات الرقص (مثل « أغنية الرياح الأربع ») والمراثى الجنائزية (مثل « رجل الراعى الطيب ») . وهكذا كانت هنالك أغان لا تحصى يصحبها التصفيق بالأيدى وعزف الموسيقى ، والرقص غالباً ، والحركات الصامتة أو الحركات الطقسية قلما فرّق قدماء المصريين بين فنون الموسيقى وفنون الغناء — تكريماً للآلهة أو متعة للأحياء أو حداداً على الموتى . أنشدت الأغانى فى المعابد بواسطة أعضاء الكوروس أو الموظفين المكونين لكورس فرعون أو المغنين فى القصور ، ويمكن رؤية كل هؤلاء مصوّرين على حوائط المقابر ، متربعين أمام الفرقة الموسيقية المحافظة على وحدة الإيقاع بحركات أيديهم . وكذلك كانت الطبقة المتواضعة من الشعب تعشق الأغانى . فكان عمال الحصاد يبدون ملاحظتهم : « إنه لجميل » عندما يسمعون أحد زملائهم ينشد أغنية قديمة بمصاحبة الناى الريفى ؛ وفى موسم البذر عندما تساق الأغنام فوق الأرض الرطبة المزروعة حديثاً ، يترنم كل شخص بنغمة على وقع قرقعة السياط تردد أصداء أسطورة شعبية قديمة : « الراعى فى الماء — فى رفقة الأسماك . يتحدث مع السمك البياض — ويُحيِّى أسماك أبى منقار . أيها الغرب ! أين الراعى ؟ الراعى ذاهب إلى الغرب ! » .

الإغريق Greeks : عاش الإغريق بمصر قبل أن يغزوها الإسكندر (سنة ٣٣٢ ق . م .) بزمن طويل . وتروى الأساطير القديمة قصة رحلة مينيلاوس . بيد أن الواقع أن الإغريق بدءوا يفدون إلى مصر فى جماعات ، منذ القرن السابع (ق . م . عصور سايس) ، ولعبوا دوراً هامًّا فى حياة هذه المملكة . فجاءوا أولاً كجنود مرتزقة ، ثم كتجار (انظر نوقراطيس) ، ثم كسائحين (انظر هيرودوت) ، وكانوا إبان عهد آخر الملوك الوطنيين ، مستشارين ملكيين (خبرياش Chabrias) ، ورؤساء للجيش . وبعد الفترة الثانية للغزو الفارسى ، استقروا فى المدن الجديدة — الإسكندرية وبطلمية — أو فى الريف ، ولاسيما فى الفيوم حيث زاولوا الأعمال الزراعية على نطاق واسع .

نشأ عن هذا الاتصال بين الاغريق والمصريين ، مجتمع خليط مختلف المنظر تبعاً لما إذا كان أهله يعيشون فى المدن (حيث

صار لطبقة العمال المصريين الفقيرة هيئة سكان حوض البحر المتوسط التجار والعوام) ، أو فى الريف (حيث صار الأمر على عكس ذلك ، فتخلّق المستعمرون الإغريق بالعادات المصرية ، وعبدوا الآلهة المصرية التى عادلوها بآلهتهم فى مجمع الآلهة) . ثم ظهر الفن « اليونانى المصرى » وتوجد أغرب أمثلته فى جبانة هرموبوليس . وصارت اللغة الإغريقية هى اللغة الرسمية ، وظلت كذلك ، حتى فى عهد الإمبراطورية الرومانية . وفى مدن الفيوم : يوهيميريا ، وفيلادلفيا ، وبجدولة ، وباكخياس ، وسوكنوباينسوس — حيث اقيمت المسارح والملاعب الرياضية والحمامات والمعابد الإغريقية ، جنباً إلى جنب مع المعابد المصرية . وفى السبعين سنة الأخيرة عثرنا على أغزر كمية من مخطوطات البردى الإغريقية من العصور القديمة .

الأغنام : سمى الكبش فى اللغة المصرية القديمة بعدة أسماء ، وخصوصاً بـا واستخدمت صورته كعلامة صوتية ، وكذلك سمى خنوم الذى يقابل الاسم السامىّ القديم (بالعربية غنم) . وكان القائمون بتربية الأغنام يربون نوعين منها : النوع الأكبر واسمه العلمى Ovis Longipes Paleoaegyptiaca ، ويمتاز بحجمه الكبير وذيله الطويل وقرونه الملتوية البارزة أفقياً على جانبى رأسه . وللذكور قرون جميلة وجزة كثيفة . وقد اختفى هذا النوع فى الألف سنة الثانية ، غير أنه قبل أن يختفى تماماً بدأ النوع الصحراوى Ovis Platyra aegyptiaca ، يزداد عدداً على ضفاف النيل . وكان هذا النوع عادى الحجم ، مقوس الجبهة وذيله قصير سمين . ويتميز ذكوره بقرون غليظة ملتوية حول آذانها . وكانت قطعانه كثيرة العدد ، وكلما قلّ عدد أفرادها عُوِّض النقص بغارات على ليبيا وآسيا . وقد يبدو هذا لأول وهلة ، مدهشاً . غير أن الوثائق الوحيدة التى توضح بالضبط ما كان يفعله فلاحو العصور التاريخية بأغنامهم ، عبارة عن صور للزراعة والحصاد مصورة فى المقابر . فعندما يبذر الفلاح الحب فى الأرض الطينية التى يتركها الفيضان ، كان يترك قطيعاً من النعاج والكباش تدوسها بأقدامها . فيمسك الفلاح ببعض الحب أمام الكبش قائد القطيع ، فيتبعه هو وأفراد قطيعه . وهكذا يذهب ويجىء القطيع فوق الحقل حتى تغرس أقدامه الصغيرة الحبوب فى الطين كيلا تأكلها الطيور وأحياناً أخرى كان الفلاح يأخذ الأغنام إلى الجرن لكى تقوم برقصة مشابهة . ومن الصعب أن نعتقد أن قدماء المصريين ربّوا وغنموا من أعدائهم مثل تلك الأعداد الضخمة من الأغنام لا لشىء إلا لتُستعمل آلات زراعية . فهل كانوا يفيدون من صوفها فى صناعة صوفية ؟ يبدو أنهم كانوا يحتفظون بالصوف لعدد قليل من الأغراض التافهة ، ولم يستعملوه فى صنع الملابس . وحتى فى القرن الخامس ق.م. عندما فضّل الأجانب ارتداء الصوف ، لم يستعمل الكهنة ولا المومياوات هذه المادة النجسة . وأكثر ما يمكننا قوله ، هو أن الجلد المأخوذ من الأغنام كان يستعمل فى أغراض شتى . وهل رُبيت الأغنام من أجل لحمها ؟ تدل

القهامة التى جُمعت من قراهم على أنهم كانو يأكلون الضأن . وتصف مخطوطات البردى الطبية دهن الضأن أحياناً . غير أن قوائم الأطعمة الطقسية الطويلة الخاصة بالآلهة والموتى ، لا تشتمل على لحوم الضأن . ولا شك أننا نستطيع الاعتقاد أنه كان هناك تحريم يمنع الآلهة والموتى الممجدين وكهنتهم من تناول لحم الضأن . ومع ذلك ، فكما هى الحال فى السمك المحرّم على العظماء ، لا يشتمل طعام العامة إلا على افخاذ الضأن وبعض قطع خاصة من لحمه .

تلعب الأغنام دوراً هاماً نسبياً ، ومدهشاً ، فى حياة المصريين . فرغم أن الكهنة لم يأكلوا لحمها ولم يلبسوا صوفها ، فقد حنطوا أجيالاً من الكباش (يرجع تاريخ أول خروف محنط إلى عصر الأسرة الأولى) . وكانت الآلهة الكباش عديدة جداً ، وتختلف منذ عصور ما قبل التاريخ ، وهى بلا شك من تراث رعاة الصحراء أو رعاة آسيا . ومن أمثلة هذه الآلهة : حريشف (أرسافيس Arsaphes الإغريقى) إله هراقليوبوليس ، وكبش منديس الشهير ، الذى لايزال محرابه الجرانيتى الضخم قائماً على جانب تل أجرد ، هو كل ما بقى من مدينته ، والإله الكبش الأعظم ، الذى عُبد فى أماكن شتى ، واسمه خنوم « الذى له صورة الكبش » . كل هذه الشخصيات الإلهية تجسدت فى الكبش Paleoaegyptiaca . ولكن ، ما إن اختفى النوع الحقيقى لهذه الآلهة العظام ، حتى اضطر الناس إلى أن يضعوا محلها كباشاً من السلالة الجديدة ، أو على الأصح ، تيوس الجبل التى كانت منتشرة فى مصر . ويذكر هيرودوت « تيس منديس » ، الذى أعجبت مغامراته رابليه وفولتير . ومع ذلك ، فلا يمكن أن تمحى الصورة الأصلية لهذه المخلوقات العاتية . فقد كمنت فيها منذ أقدم العصور ، تلك القوى الضامنة لقوى تكاثر الأحياء .

وتتألف من قرونها بعض التيجان السحرية التى كان يلبسها الملوك والآلهة ، وكانت رمز الفزع نفسه ، النابع من القوى الخارقة للطبيعة . والرمز الهيروغليفى الذى بصورة رأس الكبش ، معناه القوة والهيبة . وحتى نهاية الوثنية ، استخدمت النصوص والتماثيل والنقوش البارزة فى المعابد صوره فى نوع الأغنام المعروفة باسم Ovis Longipes للتعبير عن فكرة البطولة .

أما الكبش الجديد ، الذى يشبه خروفنا ، فقد حظى فى النهاية بمكانة عظيمة فى مجموعة الآلهة . فاتخذه أمون ، إله طيبة الغامض ، حيوانه عندما صار حامى الأسرة الحاكمة . ومنذ بداية الأسرة الثامنة عشرة ، زُينت مقدساته ، وسفنه وأوانيه بصور رأس الكبش Ovis Platyre . وهناك عدة تماثيل لهذا الحيوان مصفوفة على جوانب طرق طويلة لحراسة معبد الكرنك . وشيئاً فشيئاً صُوِّر أمون على هيئة رجل ذى رأس كبش ، وظهر للإغريق بهذه الصورة لنفضى بوحيه فى واحة سيوة ، التى هى « واحة أمون » . وقد خُلِّدت ذكرى ذلك الإله الطيبىّ فى كلمة أمونّ التى أطلقت على بعض المحاريات الشبيهة بقرون أمون .

الأقـاليم Nome : أخـذ المؤرخـون المحدثون هذه الكلمة عن الإغريق ليُعبروا بها عن أقاليم مصر العظمى . فلما وفد أوائل الاغريق من المدن ذات الحكم الذاتى ، وزاروا مصر ، لاحظوا على الفور تقسيم تلك المملكة الافريقية القوية إلى أقاليم متوسطة المساحات يحكم كُلّاً منها موظف هو « حاكم الاقليم nomarch » ، الموفد من قِبَل السلطة الرئيسية . وبعد الغزو المقدونى ، لم تُغيِّر الإدارة الإغريقية التنظيم السابق واعتمدت تلك الكلمة التى بقيت منذ العصور الكلاسيكية حتى اليوم مستخدمة فى اللغات الأوروبية .

يبدو أنه كان يقيم بمصر فى عصور ما قبل التاريخ قبائل مستقلة انتشرت فى الأجزاء الصالحة للزراعة بطريقة مفككة فى وادى النيل . كان لكل مجموعة علمها ، وتضع تمثال إلهها على قمة سارية بحيث يصنع معها زاوية قائمة . وفى بعض الأماكن ، كان كتف الحامل المقدس يحمل ثوراً أو بقرة أو غزالاً ، ويحمل فى أماكن أخرى شجرة أو صولجاناً سحرياً ، كما يحمل فى أماكن غير هذه تمثالاً منحوتا . وعندما اتحدت مصر ، قسَّمت الحكومة الملكية - « الوجهين » إلى أقاليم أو سبات . فتُمَثِّل العلامة « سبات » رقعة من الأرض مقسمة بانتظام بواسطة قنوات وخنادق . وتؤيد النصوص عموماً ، أن الأقاليم كانت مقسمة تبعاً لنظام الرى ، وصلاحية الأرض للزراعة ، والغلات الزراعية ، والمستحقات الضريبية . وأقدم لقب لحاكم الاقليم ، معناه الحرفى « ذلك الذى يحفر القنوات » . وتسجل قائمة من أقدم القوائم ، مساحات الاقاليم بالضبط ، إذ كانت مساحة كل اقليم تختلف عن مساحة غيرها ، كما كانت الحال فى أوروبا . وغلبت الرموز والشارات التى إتخذتها القبائل المستقلة السابقة ، شعار الأقاليم فى عهود الملكية .

انقسمت مصر فى عصر الدولة القديمة إلى ٣٨ أو ٣٩ إقليماً . بعد ذلك حوَّلَ « رؤساء الاقاليم العظام » لمصر العليا ، مناصبهم إلى مناصب وراثية . ولكى يصلح الملوك الطيبيون تلك الأحوال الإدارية ، حاولوا تكوين عدد أكبر من المناطق ذات مساحة أصغر ، والمحافظة عليها و ضُمَّت هذه المناطق ، لأغراض اقتصادية ، فى مساحات جغرافية عظيمة ، تحكمها السلطة الرئيسية . وكلما أعيد إقرار ذلك النظام بعد فترة كبيرة من الفوضى ، كان على الحكومة أن تعيد رسم الخريطة الإدارية .

« أعاد الملك أمنمحات الأول تنظيم كل ما فسد ، ففصل بين كل مدينة وما يجاورها ، وفرض على كل مدينة أن تحافظ على حدودها وتعيد بناء كل ما بداخلها وأسوارها التى يجب أن تكون ثابتة ثبات السماء . وأعاد تنظيم وسائل إمداد المدن بالمياه تبعاً لما كان مكتوباً فى الكتب وحدَّدَ الضرائب تبعاً للسجلات القديمة » .

لا شك أن هذه الإشارات إلى النظام الموروث لا تمنع اتخاذ إجراءات جديدة حسبما تقتضى الضرورة . ومن السهل أن نفهم أن عدد الأقسام الإدارية وعواصمها

وحدودها وأسمائها الرسمية كانت عرضة لتغيرات كبيرة خلال ثلاثة آلاف سنة ، وكذلك حدثت تغيرات سياسية واجتماعية اقتضت النجاح أو الإخفاق في الحصول على إمكانيات الأرض ، كما نتج عنها ازدهار المدن وتدهورها . ومع ذلك ، فرغم هذه التغيرات ، بقى مبدأ الأقسام الإدارية ثابتاً : فظلت هناك دائماً وحدات اقتصادية وضريبية . وبقى المصرى العادى وفيًا لإله بلده ولمعبده ولما تحرمه الديانة المحلية طوال العصور التى كانت الأقسام الإدارية فيها تضم عدة مدن وما يحيط بها من ريف .

وحتى عندما تغيرت الأقسام الإدارية ، استمر كتبة المعابد يعتبرون قوائم تلك الأقسام إبان الدولة القديمة نموذجاً مثالياً لمصر ، ونموذجها الأصلى الإلهىّ . فلم يحدثوا بها أية تغييرات إلا بأقصى الحيطة والحذر ، بصفتهم علماء لاهوت أكثر منهم علماء جغرافيين . وفى الحقبة المتأخرة ، زيد عدد الاقاليم إلى ٤٢ مديرية ، أى إلى ما يساوى عدد القضاة الاثنين والأربعين الذين كانوا يساعدون أوزيريس فى محكمته . ولما كان كل إله ، هو رب المملكة كلها ، فى عيون رجال كهنوته ، فإن « المداميك » السفلى للمعابد كانت مزينة بصف مزدوج من الآلهة مزدوجة الجنس التى تمثل الفيضان أو تحمل على رءوسها شعارات الاقاليم . وزُين الحائط الجنوبى بموكب يضم ٢٢ اقليماً لمصر العليا ، وعلى الحائط الشمالى موكب يضم أقاليم الدلتا . غير أنه لم تكن لهذه المواكب سوى علاقة بسيطة بالقوائم المعاصرة لتلك الاقاليم . وترتيبها السائد مضلِّل لعلماء تاريخ مصر إذا ما أرادوا تكوين فكرة عن جغرافيتها . بيد أن المصريين وجدوا فى هذا الترتيب السائد صورة أنقى وأقرب إلى الحقيقة لأرضهم المقدسة .

الأقباط : استعملت كلمة « قِبط » لأول مرة فى أوروبا فى القرن السادس عشر الميلادى للدلالة على سكان مصر المسيحيين . وهى مشتقة من اللفظ الإغريقى Aigyptios ، الذى أصبح بعد الفتح العربى فى القرن السابع ، قبط . وظل الأقباط ، أبناء الارض محتفظين بلغتهم — وتتكون من بعض اللهجات العامية لمصر القديمة — التى كانوا يكتبونها بحروف إغريقية . وفى القرن الثانى ق . م . ، عندما زار الأمير النوبى أرجونافور Urgonaphor ، أبيدوس ، كتب على الحائط عبارة باللغة المصرية ، ولكن بحروف إغريقية . ومن الجلى أن معرفته لهاتين اللغتين كانت ضئيلة جداً ! بعد ذلك ، كُتبت بعض الطقوس الدينية المصرية بالحروف الإغريقية . والسبب فى استعمال الحروف الإغريقية هو إعطاء النطق الصحيح للنصوص الوثنية القديمة المقدسة ، التى كانت الكتابة المصرية لا تذكر منها سوى الحروف الساكنة (الحروف الصحيحة) . وحاول كُتّاب البرديات القبطية القديمة . اضافة بعض علامات أخرى لتدل على الحروف المصرية الساكنة التى ليس لها نظير فى الإغريقية . وبفضل الابتكار الذى تم فى القرن الثالث المسيحى ، ظهرت أولى المخطوطات

القبطية ، وهى تراجم لكُتُب العهد الجديد (ولا شك فى أنها كتبت فى البيئات اليهودية المقيمة فى مصر العليا) . ثم تُرجمت الأناجيل . وفى القرنين الثالث والرابع ، ظهرت نسخ جونستية Gnostic ومانيكية Manichaean وهكذا بدأ نشاط أدبى يشجعه نمو الكنيسة القومية المصرية ، وافق اختفاء الكتابة الهيروغليفية وتدهور الهيلينية ، التى فرضت نفسها لوقت قصير. وأكثر هذه الأعمال أهمية هو ما كتبه الرهبان ، أمثال القديس أنطونيوس (سنة ٢٥١ — ٣٥٦) والقديس باخوم (سنة ٢٨٦ — ٣٤٦) ، وحتى القديس أثناسيوس استعمل اللغة القبطية فى بعض الرسائل . ولما كان هناك كثير من الأديرة القبطية ، فقد خلقت فنًا أوحت به النماذج الرومانية ، وانفصل تماماً عن النمط الفرعونى فى العصر الذى شهد بداية قيام الفن البيزنطى ، والرومانسكى . وفى سنة ٤٥١ ، اعتنقت الكنيسة السكندرية (بمؤتمر إفسوس) المذهب الذى يقول إن للمسيح طبيعة واحدة . وانشقت عن بقية المذاهب المسيحية . وأسس الراهب ، الأنبا شنودة ، دير سوهاج الأبيض (مات بعد سنة ٤٦٦) ونظم الأنبا بيزنطيوس (مات بعد سنة ٦٢٦) حياة الزهد الخشنة لنساك طيبة .

دخلت هذه الصورة المبكرة من المسيحية بلاد النوبة فى القرن السادس . واستعملت الكتابة القبطية فى إعادة تدوين بعض المخطوطات باللغة الوطنية . ثم فتح الإسلام الممالك الجنوبية فى القرن الثالث عشر . وقد بقيت هناك ثقافة قبطية بمصر فى عهد الحكم الإسلامى فى الريف المحيط بمدينة طيبة حتى القرن الرابع عشر . والأقباط اليوم حوالى ١/١٠ سكان مصر ، ولاتزال لغتهم القديمة مستعملة فى الخدمة الكنيسية وفى بعض الأديرة وزيادة على ذلك فلبطريرك الأقباط سلطة اسمية على الكنيسة الاثيوبية بموجب التقاليد منذ ١٥ قرناً .

الاقتصاد : رغم أن الظروف الجغرافية للاقتصاد الفرعونى معروفة تماماً ، فإن أساسه الفنى ليس معروفاً بصفة قاطعة . وكلما حاول المؤرخون تعريف الاقتصاد نفسه وتحليل طرقه وفهم وجوهه القانونية وتتبع تغيرات الثروة ، اضطروا إلى الاعتماد على دفاتر الحسابات وعلى قليل من الإجراءات القانونية والرجوع إلى بعض المراجع من مختلف الأماكن والعصور. وأمكنهم ، بواسطة مخطوطات أوراق البردى والأوستراكا التى وُجدت فى دير المدينة ، دراسة الأجور التى دُفعت لعمال الجبانة ، ومعرفة التغيرات التى طرأت على أسعار المعادن والحبوب فى طيبة إبان عصر الرعامسة (من سنة ١٣٠٠ — ١١٠٠ ق . م .) . ولسوء الحظ كانت هذه المعلومات استثنائية . فمن المستحيل كتابة تاريخ صحيح للاقتصاد الفرعونى ، وإن محاولة فرض نظرية تفسر معنى الوثائق التى لا تفيد بشىء فى هذا الصدد قد تؤدى إلى تشويه الأدلة وتعطى انطباعاً خاطئاً عن الاقتصاد أيام الفراعنة . مثل محاولة تفسير أعظم العصور رخاءً بسيادة طبقة غنية خيالية من التجار والبحارة فى الدلتا وتفسير

العصور المتوسطة الفقيرة بضغط النظام الإقطاعي من الجنوب ، وكان يتألف من أصحاب الأراضي المستبدين ، وهذه المحاولة وليدة بعض الآراء المتفق عليها من تاريخ العصور الوسطى المسيحية .

استخدمت مصر القديمة نظام السخرة في فلاحة الأرض وصناعة اللبن (الطوب غير المحروق) وقطع الأحجار ، إذ لم يكن لديها نظام أفضل من هذا النظام كمصدر للقوى العاملة ولذا استخدمته بطريقة معقولة كما أساءت استخدامه . فكان مركز صغار العمال أشبه ما يكون بمركز العبيد . ورغم هذا فإن صفة العبودية ليست صحيحة هنا من الناحية القانونية ، وإنما تصف فقط نظام الفراعنة في الإنتاج دون أي اعتبار لتكوين ذلك النظام أو لطريقة استخدامه .

وفي الأحوال العادية ، كانت التجارة الدولية ومخازن الحبوب والبضائع ، ومصائد الأسماك ، والأسطول بنجّاريه وبحارته والأشغال العامة (انظر الري والملاحة والمحاجر والمعمار) ، من اختصاص موظفين يشرفون عليها وينظمونها ، وكانوا مسئولين أمام الملك وحده ، إما أمام « بيت الملك » مباشرة ، وإما بطريق غير مباشر أمام البيوت الأخرى الخاصة بالآلهة أو بالحريم أو بغير ذلك . والمبدأ الأساسي هو أن الأرض التي يملكها الآلهة والفرعون ، يشرف عليها مباشرة موظفون ملكيون ، أو تُعطى للمعابد بصفة دائمة . وأحياناً كانت تُمنح لبعض الموظفين ، لمدى الحياة ، يتعهدون بإدارتها ويتسلمون خراجها مكافأة لهم على خدماتهم .

اعتمدت الشئون الزراعية والأرض والمباني والأدوات والناس والحيوانات ، على الملك أو على موظف ملكي سام ، مثل مديري المعابد وأصحاب المناصب المدنية . وعلى أساس هذه الحقائق ، حاول بعض الناس تعريف الاقتصاد الفرعوني بأنه « اشتراكية حكومية » ، إذ يبدو حقيقة ، أنه بخلاف ممتلكات الملك ، الذي كان هو نفسه يمثل الهيئة السياسية ، لم يكن أي شيء مقدساً ولا دائم الملكية .

وحتى إذا مُنح مستأجرو الأراضي ، العدالة الاجتماعية التي تنادي بها الحكومة الإلهية التي يديرها الكهنة ، فإن كلمة « اشتراكية » واضحة الخطأ ، إذ كان بمصر نظام المِلْكية الخاصة الذي قدّسته التقاليد . وفضلاً عن منح النبلاء مساحات من الأراضي ودفع المكافآت نوعاً بحسب مراكزهم ، فإنهم منذ أقدم العصور كانوا يمتلكون مساحات واسعة كممتلكات خاصة . وتشمل هذه الممتلكات ، الأراضي البور التي استصلحوها لأنفسهم وأطلقوا عليها أسماءهم ، والهدايا المنقولة وغير المنقولة ، من الملك ، وقطعان الأغنام التي كانوا يربونها ويزيدون في أعدادها ، وكذلك هدايا من « بيت الأب » ، أيْ كل شيء كان يمكنهم تحويله إلى أولادهم . وكذلك كان الفرعون نفسه يساعد على خلق « طبقة تمتلك الأراضي » بمنحه النبلاء مناصب وراثية وفوائد أخرى . وأخيراً ، نال الكهنة وكبار الموظفين عدداً من الميزات الملكية ، في بعض عصور الضعف . والحقيقة أنه يمكن وصف الاقتصاد الفرعوني على أنه « حكومي » ويميل إلى الشمولية أما الملكية

الخاصة والمشروعات الفردية الهامة التى كانت لها أهميتها فى نطاقها المحلى فكانت قليلة الأهمية بالنسبة إلى ملكية الأراضى المملوكة للحكومة مباشرة (المَلَكية) أو غير مباشرة (المعابد) وإلى الخدمات المَلَكية ، وإلى العمل المهنى والمحدد بأجور ، وإلى توزيع وسائل الإنتاج والطعام بواسطة الهيئات الإدارية .

لم ينقص مصر سوى الأخشاب للبناء ، والنحاس والفضة والبهارات . وكانت الحكومة تحصل على هذه المنتجات من جيرانها ، دون مشقة ، بالتجارة وبالدبلوماسية وبالغارات وبالغزو . وكان وادى النيل يصدِّر الورق (أوراق البردى) والسمك المجفف والمنسوجات والحبوب . كانت هذه الدولة غنية بالمواد الأساسية . فسواء أكانت السنة وفيرة الغلة أو قليلتها فإن محصول الأرض كان يكفى مطالب الطعام والكساء لسكان قليلى العدد نسبياً وفى بعض الأحيان كان يزيد على الحاجة .

رغم سمو المستوى الفنى لمهارة قدماء المصريين فى صناعاتهم الترفيّة ، ورغم إلمامهم التام بالإدارة الذى يبدو حديثاً ، فإنهم حافظوا على نظام اقتصادى بائد نوعاً ما ، مبنى على أساس استهلاك المواد الغذائية بحسب محصولهم السنوى . كان

النبيل العظيم يخزن الملابس والمجوهرات والأوانى لاستعماله فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولاستعمال أسرته ، بيد أن الجزء الأكبر من ممتلكاته ، وهو على قيد الحياة ، كان يأتى من إيجار الأراضى ومن حق الانتفاع بالريع ، ومن ممتلكاته الشخصية ومن الضرائب التى تدفع له نوعيّاً من المعابد التى كان هو كاهنها الاسمىّ . فكان يستعمل هذه المحصولات النوعية فى تغذية أتباعه الذين كان يتمتع بواسطتهم بسطوته السياسية . بيد أن ثروته لم تكن « رأسمالا فعّالا » وعلى الرغم من أن التاجر البسيط ومُقْرِض الأموال كانا بالغى الأهمية فى منطقتهما ، فلم تتكون منهما طبقة تجارية تبنى نفوذها على الربح التجارى . ولم تساعد طريقة المقايضة على تكوين طبقة تجارية . ولا شك فى أنه منذ عهد أحمس (سنة ١٥٨٠ ق . م .) على الأقل ، حُدِّدت قيم للسلع بالذهب أو بالفضة أو بالنحاس ، وذلك لتسهيل نظام المقايضة ، مع تحديد أوزان ثابتة . ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد ، إن لم يكن قبله ، سكّت خزانة المعبد العظيم قضباناً من الفضة . غير أن استعمال القيم المعدنية (الذى ربما أخذ عن آسيا) لم يؤدِّ إلى اقتصاد نقدىّ جدير بهذا الاسم (ربما حُدِّدت قيم الأشياء فى عهد الرعامسة بزكائب من الشعير) .

لم تكن الصورة الحرفية للثروة صورة أموالاً مختزنة ، بل كانت دائماً قطعاناً من الماشية الجميلة ومخازن كاملة من الحبوب ، ومستنقعات غنية بالطيور . كما قيست الحياة الاقتصادية للدولة بعدد السفن التابعة لخزانة الدولة ، التى كانت تنقل الحبوب الملكية أو بأسطول ، تحت إمرة موظف حكومى ، ينقل الحبوب من منطقة إلى منطقة أخرى تشكو المجاعة .

كان الكهنة والكتبة والصناع والعمال يتسلمون أجوراً نوعية (من القمح أو

الشعير أو السمك أو ما إلى ذلك) تبعاً لدرجاتهم (وأعبائهم العائلية ؟) . ولما كانت مصر تعتمد ، كما رأينا ، على خصوبة النيل ، فإنها كانت دائمة الرخاء وذات

اقتصاد ثابت ، عندما تكون الدولة قوية . وعلى العموم ، كانت عصور الدول القديمة والوسطى والحديثة القوية والمتحدة التي أدارتها هيئة إدارية مدربة ، أكثر نجاحاً من الدول الأوربية المحاربة في العصور الوسطى ، في تنظيم استغلال الأرض بتوزيع الأيادي العاملة ، وفي الري ، وفي استيراد السلع الأجنبية من الصحراء ومن الخارج ، وتوزيعها ، وفي تخزين المواد الغذائية ، قدر الإمكان ، لمواجهة نتائج قلة الماء في الفيضانات الضعيفة ، وأخيراً ، في تزويد الآلهة بما يناسبهم كي يحفظوا الدولة في خير كيان ورخاء .

لما كانت ديانة قدماء المصريين ــ أو بمعنى أصح ، النظرية الحيوية التي تنطوي عليها ديانتهم ــ وثيقة الارتباط بالاقتصاد ، كانت تؤثر فيه بطريقة ثابتة ، أكثر مما كانت في أي مجتمع قديم آخر . فكانت هناك شركة بين البشر والآلهة مبنية على أساس « الطعام » . وكان على الفرعون أن يشيد المعابد ويجددها ويقدم القرابين لكي تحفظ الآلهة ، التي تعطي الحياة لجميع صور الإنتاج ، النشاط الذي كان ضرورياً لضمان رخاء الدولة . ومن ناحية أخرى ، كان ضمان رفاهية الشخص بعد موته متوقفاً على غنى قبره . ونتيجة للنظام الاقتصادي « المعيشي » ، كان هناك نظام خاص « للحياة الجماعية » ونظام « للحياة الثانية الفردية » . واستلزم هذان النظامان قدراً عظيماً من العمل والمحاصيل . فكان استغلال المحاجر وتشييد المقابر ونقل الأحجار وإقامة التماثيل الضخمة والأعمدة ، وغير ذلك ، من الصناعات التي لا غنى عنها لمصر القديمة . وقد سافرت بعثات تجارية حتى پونت ، وكانت غرضها الوحيد جلب البخور ليحرق أمام تماثيل الآلهة . وابتلعت القبور ألوفاً من الأدوات المصنوعة (لابد لضمان الحياة الثانية من نظام زراعي دقيق يكفل تكديس مثل تلك الكنوز) . وكان الكهنة والصناع والمحنطون يقدمون خدماتهم نظير أجور . ولم تكن الهبات الملكية للمعابد مجرد احتفال ديني ، بل كانت تتكون من هدايا من محصول الزراعة ، تقدم للإله ، ومن الحيوانات والمناجم والكنوز والأسرى البرابرة . وكان النادر تقديم القرابين المحروقة ، وكان الإله « يستهلك » هدايا الأطعمة بطريقة سحرية ، ثم تصير هذه الأطعمة ملكاً للكهنة . وهكذا صار « بيت » الآلهة العظام احتكاراً زراعياً وصناعياً . وكان ذلك « البيت » منظمة مستقلة بالحكم عندما كان الملك قوياً ، وصار « شركة محدودة » قوية عندما كان الملك ضعيف السيطرة على الكهنة . (انظر الدولة الحديثة) .

الأقزام Pygmies : جاء أول ذكر للأقزام في الأسرة السادسة (حوالي سنة ٢٣٧٠ ق.م.) . أحضر الرحالة حرخوف قزماً معه عند عودته من رحلته إلى الجنوب ، وهو عمل لم يحدث له غير مثيل

واحد قبل ذلك بقرن ، فى عهد الملك إسيسى . ذُكر هذا القزم فى النصوص المصرية باسم « دنج » ويقابلها باللغة الحبشية كلمة بمعنى « قزم » . ولا شك فى أن مجيئه إلى مصر كان حدثاً بارزاً ، كما يتضح من خطاب كتبه الملك الصغير ببى الثانى إلى حرخوف ، يقول فيه : « أسرع بالمجىء فوراً بالسفينة ، إلى البيت ، واحضر معك القزم الذى جئت به من الأرض التى فى نهاية الدنيا ، حياً وسعيداً وبصحة جيدة ، ليقوم برقصات الإله ويمتّع سيدك . وإذا ما ركب السفينة معك ، لاحظ أن يحيط بمقصورته اناس موثوق فيهم ، وراقبه عشر مرات أثناء الليل ، لأن جلالتى يريد أن يرى هذا القزم أكثر من جميع كنوز سيناء وأرض البخور » .

بعد ذلك بوقت طويل ، انتشرت الأسطورة فى حوض البحر المتوسط تصور الأقزام يقاتلون الكراكى ويتضح ذلك تماماً من لوحات الفسيفساء الهيلينيستية والرومانية ومن التصاوير الزيتية . لم يكن الأقزام فى عهد الدولة القديمة سوى راقصين يحيون إله الشمس بألعابهم وقفزاتهم البهلوانية .

الأقصر Luxor : إن المدينة التى كانت تسمى « حريم الجنوب » ، وهى الضاحية الجنوبية لطيبة القديمة ، غدت اليوم مزدحمة بالفنادق الفخمة ، ويؤمها التراجمة وبائعو التحف . يمتد المعبد فى قلب هذه المنطقة « السياحية » ، ويفصله عن النيل طريق مرصوف ، « يبدو كأنى سماوى ، ذلك المسكن السرى لسيد الآلهة » . اتخذ أمون هناك صورة مين Min . وكان التمثال الرئيسى لذلك الإله يترك قصره فى الكرنك ، مرة واحدة فى السنة ، ويذهب فى النهر متجهاً نحو المنبع ، ليزور معبده بالأقصر . وقد أعاد الملك أمنحوتب الثالث بناء هذا المعبد « بالحجر الرملى الجميل » جاعلاً إياه « أعلى وأوسع » مما كان من قبل ، وبناه حسبما تذكر نصوصه التكريسية « على أرض مكسوة بالفضة ، ووضعه على فراش من البخور » . وإنا لندين له بالحجرات التى فى الخلف ، المزخرفة بالنقوش البارزة ، وبالبهو المنقطع النظير « ذى الأعمدة التى بشكل براعم اللوتس » . ولو أن علماء الآثار المحدثين يفضلون أن يطلقوا على الطراز الزهرى المختلط الخاص به ، اسم « الطراز البردىّ الشكل » .

بعد ذلك ، بنى رمسيس الثانى فناء أمامياً من الحجر الرملى الجميل ، جعله أمام بيت الحريم وأحاطه بصف من الأعمدة . . . . . وزينه بتماثيل من الكوارتزيت والجرانيت « والحجر الأسوانى » . وأمام صرح عظيم « مكان مكشوف تزينه مسلتان من الجرانيت » (نقلت احداهما إلى ميدان الكونكورد فى باريس سنة ١٨٣٦) وقد بقيت التماثيل العظيمة فى الفناء الأمامى ، والمدهش أن هناك مسجداً صغيراً أبيض حيث دُفن أحد الأولياء المسلمين . قد يأسف علماء الآثار لوجود هذا المسجد ، غير أن آمون نفسه يغتبط عندما يرى شعب منطقته الطيبية ، إبان عيد الولى المسْلم ، يحضرون سفينة « سيدى أبى الحجاج » فى موكب ، كما لو كانت سفينته هو فى غابر الأزمنة فى « عيد الحريم الجميل » .

الاقليم الطيبى Thebaid : اسم أطلق فى العصور الكلاسيكية على المنطقة الجنوبية من مصر العليا (انظر مصر ، وطيبة) .

أكل لحوم البشر : « أوناس هو ثور السماء الذى يقهر تبعاً لرغبته ، والذى يعيش على روح كل إله ، والذى يأكل أحشاءهم ، والذى يأتى عندما تمتلىء أجسامهم بالسحر .... أوناس هو الذى يأكل البشر ويعيش على الآلهة .... يأكل أوناس سحرهم ويستهلك أرواحهم . فأضخمهم لافطاره ، والمتوسطون طعام غدائه ، وصغارهم لعشائه ... يوقد عظماء الآلهة فى السماء الشمالية النار تحت قدر طعامه المحتوية على عظام أفخاذ كبارهم » .

بهذه الطريقة وصفت نصوص الأهرام الهجوم المظفر الذى قام به الملك ضد سكان السماء . فأكد المعقبون على هذا النص الخارق بأنه يتضمن شيئاً بدائياً وأنه تلميح صريح إلى طقس أكل لحوم البشر الذى بواسطته يأخذ المحارب الظافر قوة المهزوم الحيوية وخواصه السحرية ويحفظ هذا النص بذكرى عن عادة متناهية فى القدم ، لم تدم فى العصور التاريخية

فى العصور التاريخية ، فى أيام المجاعات ليس غير . فعندما صارت مخازن الحبوب والأجران خاوية ، وتشققت الحقول وجفت ولم ينبت فيها أى زرع ، انهارت جميع القوانين البشرية والاجتماعية . وهناك وثيقة من أحد العصور تصف مثل هذه الكارثة فى بلاغة محزنة ، فتقول : « انظر ، قد بدءوا هنا يأكلون الرجال والنساء ! ليس هذا طعاماً عاديا للكائنات البشرية فى أى مكان . بيد أن المملكة كلها تموت جوعاً » . ويشير ديودور إلى أحداث مماثلة ، فيقول : « يقال إنه عندما وقع شعب مصر . ذات مرة ، فريسة لقحط شديد ، أكل بعضهم البعض الآخر دون أن يمسوا أى حيوان من الحيوانات المقدسة » . وأخيراً ، لو صدقنا ما قاله جوڤينال ، فإن نزاعاً قام بين أهل دندرة وجيرانهم سكان كوم أمبو حول خلاف دينى ، انتهى بمعارك أكلت فيها لحوم البشر ، ولكنه يؤكد أن تلك حالة شاذة حدثت نتيجة عداء دينىّ . ولا تعتبر هذه العادة من صفات أية مدنية .

الألعاب واللعب : من لعب الأطفال عند قدماء المصريين : الخذاريف (جمع خذروف وهو النحلة الدوارة) والمصلصلات (الشخاشيخ) والعرائس (الأقزام الراقصة والتماسيح ذات الفكوك المتحركة) وفئوس القتال المصغرة . كانت البنات الصغيرات يلعبن بعرائس صغيرة يضعنها فى المهاد (ليست العرائس التى فى صورة المعبودات ، والتى كانوا يعتقدون أنها تساعدهم فى كثرة عدد أولادهم عندما يشيخون ، وإنما عرائس حقيقية من الخشب ، صغيرة الحجم فى صورة أطفال فى أسِرّةٍ صغيرة) .

كانت الفتيات يلعبن الكرة فى الحريم بمهارة ورشاقة ليشغلن سيدهن . أما الصبيان الكبار فكانوا يلعبون ألعاب المهارة

كالتى فى مهرجانات الأسواق (الصيد بالعصا والرماية نحو هدف) وعدة تمرينات يدوية (مما يبعث الدفء فى الجسم) ، والسير على الحبل المشدود والمصارعة والجرى والقفز . ومارسوا هذه الرياضات حسب قواعد معتمدة . ومن بين الألعاب المصورة على المصاطب ، لعبة قفز غريبة ، تتكون العوائق فيها من لاعبين جالسين فى التراب و ظل معنى هذا المنظر المسلى غامضاً حتى تذكر أحد علماء الآثار المصرية ، من المصريين ، أنه لعب مثل هذه اللعبة أيام طفولته .

أما الكبار فاهتموا بالرياضة ، ولكنهم كانوا يفضلون الجلوس فى الظل أو على الطريق يمارسون ألعابهم التى تعتمد على البراعة والحظ . ومن الألعاب التى شاهدوها لعبة « الأفعى » ولعبة « الإوزة » ولعبة « الكلب وابن آوى » ، والزينت Zenet الشبيهة بالنرد ، وكانوا يلعبونها فوق لوحة مقسمة إلى ثلاثين مربعاً .

الفنتين Elephantine : بعد أن يخرج النيل من منطقة مدار السرطان ، يمر بين شاطئين من الجرانيت الملتهب والحجر الرملى ، ويجرى فوق صخور عدة منتشرة فى طريقه ، ويمر ببعض الجزر الشهيرة ، مثل جزيرة سهيل Sehel وجزيرة بيجا ، دون أن يعترض طريقه أى سد بعد جزيرة فيلة .

تقع مدينة أسوان على شاطىء النيل ، وتتنسم الهواء بعيداً عن أفريقيا المظلمة ، وكانت قليلة الأهمية زمن الفراعنة ، ولو أن السياح يقصدونها كثيراً فى هذه الأيام . بيد أن هناك مدينة أخرى فى مقابل أسوان ، تقع على الصخر بعد آخر شلال ، وسط مجرى النيل — إنها مدينة الفنتين التى كان يحكمها خنوم Khnum ، الإله الكبش ورب منطقة الشلال . وكان الناس يعتقدون أن النيل ينبع من بقعة مقدسة قرب تلك المنطقة ، ولايزال هناك مقياس للنيل على شاطىء تلك الجزيرة .

تطل مدينة الفنتين على المحاجر الشرقية لحجر الجرانيت الأحمر والرمادى التى تزود النحاتين والمعماريين بالأحجار ، فى جميع أنحاء الدولة . ويظهر اسم تلك المدينة أو الجزيرة فى كل باب من تاريخ مصر السياسى ، لأن تلك الجزيرة كانت قلعة عند مدخل النوبة ومركزا للجمارك وعاصمة لتلك المنطقة . وقام تجارها الجنود بتجارة دولية ضخمة بإرشاد أمرائهم الرواد الذين تقع قبورهم فوق قمة الشاطىء الغربى للنيل ، إبان الدولة القديمة . وأيام الحكم الفارسى ، قامت مستعمرة يهودية ضخمة ببناء معبد ليهْوَه Jahweh .

الإله : لا شك أن أبرز ظاهرة فى خصائص الديانة المصرية القديمة هى كثرة الآلهة : عرف المصريون مئات من الآلهة والربات جمعوها محلياً فى « تاسوعات » ، وأشاروا إلى « ملك الآلهة » ، وإلى « سيدة جميع الآلهة » . ولو ذرعنا المنطقة من منف إلى أسوان ، وبحثنا فى كل مركز من مراكز العبادة ، لوجدنا كائنات إلهية تتخذ صور الأبقار والتماسيح والكباش والكلاب الوحشية واللبؤات والعجول وأبى قردان

والقردة والثيران والطيور الجارحة الصقور ، وكثيراً من المخلوقات الأخرى ، ويطلق عليها عادة أسماء شتى فى مختلف المدن .

بعد ذكر هذه الحقيقة ، يجب علينا أن نقرر أن هناك فروقاً بين الألهة الكونية ، التى هى مواضيع الأساطير ، والتى قلما تظهر فى المعتقدات الشعبية اليومية ، وكذلك الجن (انظر العفاريت) ، وآلهة الأسرة الخاصة الشعبية ، التى ليس لها معابد ، ولا تُذكرَ فى الأساطير . كما يجب أن نقرر أن إلهاً بعينه ، مثل حورس أو خنوم أو تحوت ، عُبد فى كثير من المدن بجميع أرجاء المملكة ، ولكنه لم يعبد فى بعض الأماكن الواقعة بينها .

كيف نستطيع فهم الأمر على حقيقته وسط هذه الفوضى ؟ كيف يمكننا تفسير هذه الكثرة المدهشة من الأشكال الإلهية ؟ إن دراسة تاريخ مصر المبكر يمدنا بتفسير هذه الظاهرة : كوَّن مينا مملكة متحدة مما كان من قبل مجموعة من القبائل المستقلة ، جاءت فى أزمنة مختلفة من الهضبتين ، الليبية والعربية . كان لهؤلاء القوم ، قبل مجيئهم ، ثقافة بدائية ، وربما كانت لهم لغتهم الخاصة ، وآلهتهم الخاصة التى كان مظهرها الخارجى شعار القبيلة ، كأن يتخذ الإله صورة حيوان أو شجرة أو اى شكل جنىٌّ آخر .

لما انتفع أولئك الأقوام من ضبط مياه النيل ، استقروا فى قِطع الأرض التى نزلوا فيها بجانب النهر ، فصار رب القبيلة الرحالة ، إله تلك المنطقة التى نظموا فيها حياة زراعية ، ويقى هناك رغم وحدة المملكة ونمو العبادات الأخرى . وهناك عوامل أخرى ، كاختلاط السكان بعضهم ببعض ، وإقامة مستعمرات عسكرية أو زراعية ، واستيطان الأجانب فى بعض الأماكن ، كالأسيويين والنوبيين . وامتد نفوذ آلهة المدن التى تبدأ منها طرق للصحراء أو للواحات ، إلى تلكْ الصحارى والواحات . واندمجت العبادات المجاورة بعضها مع البعض الآخر ، وانتقلت معاً إلى أجزاء أخرى من مصر . ونتيجة كل هذه الحركات ، سواء حدثت فى وقت واحد أو على التعاقب ، هو وجود ذلك العدد المدهش من الألهة الذى نجده فى الحقبة التاريخية ، وانتشاره فى جميع أنحاء المملكة دون وجود أية علاقة ظاهرة بينها .

ومع ذلك ، يبدو أن تعدد الألهة هو السمة المميزة للديانة المصرية نتيجة لهذه العوامل التاريخية ، ويبدو أكثر وضوحاً فى تعدد أشكال تلك الألهة ، والأسماء التى تُعبَد بها . ويتضح هذا بنوع خاص لمن يعمل إحصاءً عاماً للعبادات . ولكن ، هل كان تعدد الألهة صفة خاصة لكل جزء من المملكة على حدة ؟ إذا فحصنا أقدم عبادات منف أو طيبة أو دندرة ، ظهر أن عدد الألهة الأصليين الذين عُبدوا فى كل منطقة صغير جداً . ولم تتكون « الأسر الألهية » إلا فى وقت متأخر نسبياً ، على يد علماء اللاهوت . وعلى هذا ، يحق لنا أن نعزو ازدياد عدد العبادات وما نتج عنها من تعقيد ، إلى وحدة المملكة لا إلى ميل للتعدد الذى ، كان موجوداً من قبل فى

شتى القبائل التى اسهمت فى تكوين الدولة المصرية .

يوجد فى تاريخ العبادات المصرية ما يؤكد هذا الاستنتاج . ولا شك أن هذا راجع إلى أن المصريين لم يفرطوا فى شىء من ماضيهم . بل جُمع كل شىء وحوفظ عليه جنباً إلى جنب مع المعتقدات التى يجب أن نعتبرها غير ملائمة . بيد أنه على الرغم من الجمود الذى اتسم به هذا النظام ، توجد عدة دلائل على أن المعتقدات الدينية كانت موحدة فى أذهان المصريين أكثر مما نظن من واقع اختلاف أشكال الآلهة وأسمائهم .

كان هناك ميل ، منذ أقدم العصور ، إلى إدماج جميع أسماء ووظائف إلهين أو ثلاثة آلهة فى إله واحد . وقد أوضحنا أن العقل المصرى لم يقنع بكثرة المذاهب الدينية ، التى لكل منها وظائفه الخاصة ، وإنما كان يميل إلى أن جميع هذه الوظائف الإلهية ، يجب أن تدمج فى شخص الإله الرئيسى لكل منطقة . وبدلاً من ترتيب آلهة العواصم فى نظام متكامل ، كما هى الحال فى الآلهة الأوليمبية مثلاً ، كان كل منهم يطلب السلطة العامة .

رغم أن الآلهة ، تبعاً لبلادها ، كانت تختلف فى الشكل وفى الاسم وفى طريقة السلوك ، فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافات فكرة « الألوهية » المجردة التى لا تنكر ، ممثلة فى شعار على هيئة لواء معلق فى طرف ساق خشبية ، تغرس عند مداخل المعابد البدائية . وكلمة « نتر » أو « الألوهية » هى الاسم الذى كان يصف أى واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانية . ومن الطبيعى أن تستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وسرعان ما أدى هذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوة إلهية مستقلة اشترك فيها كل إله ، ولكنها رفعت قدر هذه الأشكال المتعددة ، لأنه أمكن استعمالها لكل واحد منهم بغض النظر عن حدودهم .

كان الاعتقاد فى « قوة إلهية » غير شخصية ، ولا نهائية موجودة فى كل إله على حدة (ولكنها عامة ومنتشرة فى حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصراً أساسياً فى الفكر الدينى المصرى . لهذا السبب ، يمكن أن نقول ، إلى حدٍّ ما ، إن التوحيد المصرى موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضح فى العبادات المادية . كثيراً ما يُذكر الإله فى أدب الحكمة دون أية مواصفات :

« ليست إرادة الإنسان هى التى تتحقق ، بل تدبير الإله » (بتاح حوتب ، بالدولة القديمة) . « يعرف الإله مَن يعمل من أجله » (منيريكارع ، الأسرة الحادية عشرة) . « كل من يفعل هكذا ، سيمجد الإله اسمه » (آنى ، الأسرة الثامنة عشرة) « الإنسان طين وقش ، وصانعه هو الإله » (أمينموبى ، نهاية الدولة الحديثة) « سعيد مَن يسير فى طرق الرب » (پيتوسيريس ، القرن الرابع ق . م .) . توجد أساليب التعبير هذه ، القاصرة على أدب الحكمة ، فى الكتابات الخاصة : « أدخلتُ السرور على قلب الإله لأنى فعلتُ ما يجب ، إذ تذكرتُ أنه يجب علىَّ أن أذهب إلى الإله يوم مماتى » (الدولة الوسطى) .

• إذن لا سبيل لإنكار أن مصر قد عرفت فى مختلف عصورها عقائد تدعو لعبادة آلهة متعددة نشأت عن الديانات المحلية المختلفة التى احتفظت فى حالة التوحيد بالاختلافات الأصلية التى كانت فى عبادات ما قبل التاريخ ، مع وجود اعتقاد عام لا يتناقض إطلاقاً مع عمومية ووحدة كائن إلهى لا اسم له ولا شكل ولكنه يضم كل شىء .

كان هذا الاعتقاد ، بالإضافة إلى العوامل السياسية البحتة ، هو الذى سبب انهيار إصلاح العمارنة . فقد أراد أخناتون أن يفرض إلهاً واحداً شاملاً . لم يكن هذا الاعتقاد ، فى حد ذاته ، جديداً ولا هدّاماً ، ولكنه جعل ذلك الإله كائناً مرئياً ـ كان هو الشمس ـ وأعطاه اسم أتون و أراد استبدال الآلهة الكثيرين بإله فرد ، يستوعبهم تماماً ولم يرغب فى تجسيد الوجود الكلى لقوة إلهية ، بواسطة الأشكال التقليدية والمألوفة إلى قلوب المؤمنين حيث

أراد أن ينفصل تماماً عن الماضى وكل أفكاره ، كى يثبت إلهاً جديداً ، عالمياً ومنفرداً بالحكم ، يُقصد به محو جميع الآلهة الأخرين إذا لم يشتركوا فى ذلك الكائن الغامض الذى ينكر عليهم أى حق فردى .

على الرغم من حدوث نكسة لذلك الإصلاح الذى نشأ فى العمارنة ، فقد أفادت منه الآلهة ، إذ استعاد كل منهم معابده وعابديه ، غير أن فكرة وجود إله واحد لم تعد مجرد فكرة كامنة فى ماضى شتى العبادات ، بل أحدثت أثراً عميقاً فى نموها الفردى إذ بدأ كل إله ذى اسم وعبادة وأسطورة ، فى الاتجاه نحو تلك القوة غير المسماة ، التى عاش معها من قبل فى تعايش سلمى .

ازدادت سعة البون ، بين الآلهة الموجود على الأرض ، والتى يمكن تمييزها بالحواس والموجودة فى التماثيل أو فى الحيوانات المقدسة ، وبين الإله الحقيقى ، الغير ممكن معرفته ، والبعيد ، و الذى تتحدد معالمه بواسطة تماثيله الأرضية وأشكاله التقليدية المصوَّرة .

وصاحب هذا التسامى لمفهوم الإله الذى تعجز صورته الأرضية عن أن تمثله بهيئة حقة (ليس ما أنتجته الأعمال الفنية صوره حقيقية له ، فلا يمكن أن تمثله بالألوان ، إن الغموض يكتنف وجوده فلا يدرك الإنسان عظمته ولا يسبر غوره مخلوق . إنه أعظم قوةً من أن يُعرف) ظهور أفكار لاهوتية تميل إلى توحيد الوظائف التى اختص بها كل معبود . فمثلاً ، اختيار الألقاب التى اعطيت لآمون أو خنوم أو بتاح ؛ نلاحظ أن هذه الأسماء الثلاثة مع جميع أساطيرها الموروثة ، ليست إلا أدلةً على وجود إله واحد يسيطر على جميع المناطق الجغرافية للعالم كله ، ويتعهد جميع الظواهر الطبيعية ، ويحكم على الكائنات الحية بقوة متعادلة ، كما يحكم على حياة البشر اليومية وعلى مصير الملوك ، وعلى المستقبل الذى كان أوزيريس سيده دائماً . وينطبق نفس هذا الشىء على الصلوات الجماعية التى تعدد مختلف الأسماء التى يعبد بها أى إله معين ، فى أى جزء من المملكة (مهما كانت مظاهر ووظائف ذلك الإله) .

يبدو أن كل إله عظيم ، ليس فى الواقع إلا مظهراً من مظاهر جميع الآلهة الأخر . ماذا كان سيحدث للفكر الدينى المصرى لو لم تظهر المسيحية ؟ يمكننا أن نتخيل الجواب رغم أنه لا يمكن إعادة التاريخ . على أية حال ، علينا أن نقر أن الديانة المصرية كانت فى القرون الأخيرة على الأقل فى سبيلها إلى التمزق ، وفى ذات الوقت بدأت الأفكار اللاهوتية المحصورة فى إطار المعابد تتجه نحو فكرة إله عام : « هو الإله الأوحد » و « الروح الجماعية » ، الذى تتحدث عنه النصوص . وثانياً ، فإن حماس الشعب ، الذى وجد أن الإله المجرد غير كافٍ ، وأبعد من أن يقوم بدور فعال فى الحياة اليومية ، قد أخذ يتجه شيئاً فشيئاً نحو الصور الملموسة لذلك الإله الذى كان هو نفسه بعيداً عنها ، وهى : الرموز الأرضية ، والحيوانات المقدسة ، والمعابد المكرسة للجن الثانويين ، و المفتوحة للصلاة ، وكان بوسع أولئك الجن شفاء الأمراض والتنبؤ بالمستقبل .

اجتذبت المعابد جموع العابدين بما حوته من دور علاجية (Sanatoria) شعبية ولما ألفاه الحجاج من متع اجتماعية أثناء شعائر الحج واحتفالاته .

ولكننا نجد الآلهة الشعبية تظهر فى كل مكان ، ونرى الحكماء المطببين القدماء يندمجون فى مجمع الآلهة والأرباب ، ويظل أوزيريس وإيزيس أرباب العامة والبسطاء بينما تحظى مقاصير السحرة وأكواخهم بإقبال عامة الشعب .

من هذه الصورة المزدوجة للديانة المصرية فى القرون الأخيرة من حياتها ، ظهرت الأخبار والروايات التى ورثناها من الكُتاب الكلاسيكيين ، وهى مزدوجة أيضاً . فهى من ناحية تقدم الكهنة المصريين كحكماء عظام كرسوا حياتهم للأسرار السامية ، ومن ناحية ثانية ترى شعب النيل سوقة أغبياء ، عبدوا الحيوانات فى حقولهم والخضراوات فى حدائقهم .

الألوان : استُخدمت الألوان رموزاً فى الطقوس الدينية والصور المقدسة . فاستخدم الأسود الذى بلون القار ، كالذى تطلى به المومياء ، رمزاً للبعث والحياة الخالدة (أنوبيس ، مين) . وأحياناً صُوِّر أوزيريس بلون أسود ، ولكنه غالباً ما صُور بلون أخضر ، لون الحياة النباتية والشباب والصحة . وصورت بشرة أمون ، رب السماء ، بلون أزرق نقى . واستُعمل اللون الأصفر ، الذى يمثل الذهب ، رمزاً لجسم الآلهة . أما الأبيض فكان لون الحظ السعيد والفرح ، وبشيراً بالنصر مثل تاج الجنوب الأبيض . وكان الأحمر رمز السمعة السيئة ، إلا إذا استعمل لتاج الشمال . وكان ، على أحسن تقدير ، قوة لا تقهر ، وعلى أسوأ تقدير ، شراً مستطيراً . فكان ست أحمر اللون . واعتُبر ذوو البشرة المائلة إلى الحمرة ، من الناس ، ملعونين ، وكذلك الحال فى الحمير والكلاب . وكانوا يصفون بالحمرة كل بغيض . وخطَّ الكتبة الألفاظ ذات المضمون الشرير (مثل ابوفيس وست ، ونحوهما) بالمداد الأحمر على أوراق

البردى ، بينما كتبوا بقية النصوص بالمداد الأسود . (لأجل معرفة طريقة عمل الألوان للتصوير ، انظر « التصوير ») .

امحوتب Imhotep : نرى فى صواوين العرض فى المتاحف كثيراً من التماثيل البرونزية الصغيرة ، لرجل جالس ناشر لفافة من ورق البردى فوق ركبتيه . إنه صلب جادٌ فى جلسته . هذا هو إيمحوتب ، الحكيم المؤله . ولا نعرف إلا القليل عن حياته وأعماله . نعرف أنه كان مستشار الملك زوسر (الأسرة الثالثة ، فى حوالى سنة ٢٨٠٠ ق . م .) ولا شك فى أنه منشىء فن المعمار الحجرى الجميل ، الذى ظهر فجأة فى هضبة سقارة ، بدلاً من مبانى العصور القديمة المكونة من الآجر والخشب . وكانت هناك أسطورة مازالت منتشرة حتى العصور الفارسية البطلمية ، تقول إنه حامى مشرفى الأعمال . ومع ذلك ، فليس هذا الاختراع الهام فى نتائجه ، ولا شهرته كحكيم هما اللذان أديا إلى تأليهه . اختفت الكتب التى ألفها ، كما اختفى قبره ، وما قطرات الماء التى كان يسكبها الكتبة اللاحقون من قدورهم تكريماً لذلك السلف ، سوى عمل تكريم من تلميذ ، وليست قرباناً من عابد . ومن المدهش أن يُعبد فى الحقبة المتأخرة ، كإله للشفاء ، وسمى معبده فى سقارة بالاسم الذى أطلقه عليه الإغريق « أسكليبيون Asklepieion » وصار مصحة يؤمها المقعدون من جميع أنحاء مصر . وقد ظلت شهرته منتشرة ، وكُرست له عدة أبنية فى كثير من المعابد بمنطقة طيبة (الكرنك والدير البحرى ودير المدينة) وجزيرة فيلة حيث بنى له بطلميوس الخامس معبداً . نال امحوتب شهرة عظيمة بين كل من الاغريق، الذين سموه إموثيس Imuthes ، والمصريين . وتوجد كتب دعاية كثيرة تعلن عن نجاحه فى الشفاء بمعجزات .

أمنحوتب أو أمينوفيس : اسم لاربعة ملوك مشهورين فى الأسرة الثامنة عشرة (الدولة الحديثة) .

أمنحوتب (ابن حابو) Amenhotep (Hapu) : (انظر التأليه) .

أمنحوتب الأول (١٥٥٧ — ١٥٣٠ ق . م .) : ابن احمس ، ووالد تحوتمس . دُفن فى دراع أبو النجا ، فى أقدم قبر ملكى بطيبة . وعُبد على أنه الحارس الإلهى للمدافن الطيبية أما والدته فكانت أحمس — نفرتارى .

أمنحوتب الثانى (١٤٥٠ — ١٤٢٥ ق . م .) ابن تحوتمس الثالث ، ووالد تحوتمس الرابع . حاول الاحتفاظ بالإمبراطورية الآسيوية التى أخذها والده ، وذلك باستخدام القسوة فى سحق كل تمرد . تمتع بحكم مصر أكثر من أى ملك آخر ، ويسجل فخره بشدة بأسه فى أشهر النقوش . كان محارباً عظيماً ، وأقوى رجل فى استخدام القوس ، ومجدفاً قوياً فى قاربه الخاص . كان ذلك الملك المصارع يرى

الحرب رياضة ، ويحارب على هذا الاعتبار وقام بنفسه فى احدى المناسبات بهجوم مفاجىء ، وظل ساهراً ليلة كاملة على فرسه وهو يحرس وحده بعض الأسرى . كان ذا نزعة وحشية ويتعطش دائماً لإراقة الدماء — غير أنه يجب علينا أن نعترف بأنه كان معتدلاً إذا قورن ببربرية الأشوريين . وعلى أية حال ، فمن المثير حقاً أن نرى فرعوناً وهو يربط الأسرى فى نير عربته ، أو الأمراء السوريين السبعة الذين قتلهم بصولجانه ، ثم عرض جثثهم فى طيبة وفى النوبة . وعندما اكتشف لوريه Loret قبر أمنحوتب الثانى فى وادى الملوك (سنة ١٨٩٨) ، عثر على جزء من الأثاث ، ومومياء ذلك الملك نفسه ، مع مومياوات كثير من الملوك كانت مخبأة منذ عهد الملوك الكهنة . (انظر المومياء الملكية) .

أمنحوتب الثالث (١٤٠٨ — ١٣٧٢ ق . م .) : ابن تحوتمس الرابع . تشهد أروع النقوش البارزة الموجودة فى مدافن طيبة (رع موسى) ، كما تشهد صالة الأعمدة بالأقصر ، وكثير من تماثيل سخمت ، ببراعة فنانى ذلك العصر . وإن القصر الملكى فى طيبة ، والمعبد الجنائزى العظيم (فى كوم الحيطان) الذى لم يبق منه سوى تمثالى ممنون العظيمين ، والتماثيل الجنوبية الضخمة بالكرنك ، لآثارٌ تشهد بالذوق الرفيع الذى اتسمت به أعمال المهندس المعمارى أمنحوتب بن حابو (الذى أُلّه فيما بعد) . خلّد أمنحوتب الثالث ذكرى رحلات صيده على عدد خاص من الجعارين كما تخبرنا هذه أيضاً بمجىء أميرة ميتانية إلى حريمه ، وبأنه صنع لزوجته الأثيرة بركة خاصة جميلة . وكان ذلك الملك يحب زوجته تى هذه حُبًّا جمًّا ، فظهرت على الجزء الأكبر من آثار عهده وبلغت الإمبراطورية المصرية فى عهده أوج مجدها ، ولكنها كانت تعتمد على سياسة أجنبية ماهرة . وكان من جراء تحاشى الدولة القيام بأعمال حربية ، أن سنحت للأمراء الوطنيين فى آسيا الفرصة لكى ينكثوا بولائهم . فبدأ النفوذ الحيثى يقوى على حساب مصر. أما فيما يختص بالدين ، فقد اعترف أمنحوتب الثالث ، قبل اخناتون ، بآتون كإله الشخصى ، وإن استمر يكرم قدامى آلهة وطنه .

أمنحوتب الرابع : ابن أمنحوتب الثالث اختار آتون ليكون الإله الوحيد لمصر ، وغيّر اسمه إلى أخناتون . (انظر أخناتون) .

أمنمحات Ammenemes : اسم لأربعة من ملوك الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) ، منهم :

أمنمحات الأول (١٩٩١ — ١٩٦٢ ق . م .) : هو مؤسس تلك الأسرة . كان وزيراً لمنتوحوتب فى الأسرة الحادية عشرة . جاء إلى الحكم بعد أن ظل العرش عدة سنوات خالياً من ملك ، ولم تستقر الأمور فى مصر بغير مشقة ، بعد أن ظلت مدة طويلة فى قلاقل . فقضى ذلك المغتصب ثلاثين سنة من العمل الشاق فى إعادة تنظيم المملكة وإقرار سلطة التاج ثم

نقل عاصمته من طيبة ، التى كانت حاضرة أسلافه ، إلى اللشت ، الواقعة على الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى . ولكنه لم يقض بها وقتاً طويلا هو نفسه ، لأنه شُغل أولاً وقبل كل شىء بالتنقل فى أنحاء مملكته لإخضاع جيوب المقاومة فى كل موضع . وطرد قبائل البدو الرحل ، الذين استغلوا فرصة القلاقل الداخلية فى مصر ، وأقاموا على الحدود ، وعلى الأخص فى شرق الدلتا ، التى حصنها أمنمحات . وقد أفلح فى إقامة إدارة قوية ، وفى المحافظة على حدود مملكته . ولكى يدعم ذلك الملك حقه المزعزع فى العرش ، أعلن نفسه مخلصاً بواسطة نبوءة زائفة . ولقد كان من أتباع أمون الذى اتخذ اسمه ، والذى كان حديث العهد بالألوهية مثله . وفى سنة ١٩٧١ ق . م . وجد هذا الملك نفسه وقد تقدمت به الشيخوخة ، واخذ التعب منه كل مأخذ ، فعينَ ابنه سنوسرت الأول شريكاً له فى المُلك . ومنذ ذلك الوقت لم يغادر قصره ، وإنما ترك القتال فى سوريا والنوبة وليبيا لابنه . وبينما كان سنوسرت فى احدى هذه الحملات مات والده . الذى ربما كان ضحية مؤامرة . فكادت أسرته تفقد التاج . وانتهى الحكم بنكسة مرحلية ؛ وتعتبر نصائح أمنمحات الأول عملاً كلاسيكيا ، ولكنه ، دون شك ، كُتب بعد وفاته ، ويُعبر عن الشك ومرارة خيبة الأمل .

أمنمحات الثانى (١٩٢٩ — ١٨٩٥ ق . م .) : حفيد أمنمحات الأول . استقرت الأسرة عندما تبوأ العرش . وأحداث عهده غامضة . وإن الكنز الأجنبى الذى اكتُشف فى معبد الطود ، لدليل على علاقات هذا الملك بسوريا .

أمنمحات الثالث (١٨٤٢ — ١٧٩٧ ق . م .) : خلف سنوسرت الثالث فى حكم مملكة مزدهرة حسنة التنظيم . كرّس نفسه للأعمال الجريئة التى اعتمدت عليها شهرته فيما بعد . اهتم بالفيوم ، وبنى فيها هرمه ومعبده الجنائزى ، الذى أطلق عليه كُتّاب الإغريق والرومان ، الذين أعجبوا به أيما إعجاب ، اسم اللابرنت . وقد أُلّه أمنمحات الثالث وعُبد فى تلك المنطقة لمدة ألفى سنة بعد وفاته . وكانت شهرته بعد موته بسبب مصادفة عجيبة ، وهى أن اسمه الملكى « نى ماعت رع » ، الذى نطقه الاغريق مارس Mares والذى عُرف به فيما بعد ، يشبه اسم بحيرة قارون الموجودة بالفيوم — « بحيرة (مدينة) « مر ور » » . فحدث التباس بين الاسمين ، وصار اسمها « بحيرة مويريس Moeris » ؛ واعتُقد خطأً أن أمنمحات هو الذى حفر تلك البحيرة وسماها باسمه .

أمنمحات الرابع (١٧٩٨ — ١٧٩٠ ق . م .) : مهد عهد هذا الفرعون القصير النهاية لعصر زاهر كان يوشك على الأفول . ورغم أننا لا نستطيع الإشارة إلى أى ضعف معين ، فإن الأحداث التالية للملك الحكم تؤيد هذا الاعتقاد ، إذ سقطت هذه الأسرة الذائعة الصيت ، ثم اندثرت بعد ذلك ببضع سنين . وقد حاول بعض الملوك ، فى

العصر المظلم الذى تلى تلك الأسرة ، أن يزيدوا من هيبتهم بأن يسموا أنفسهم أمنمحات ، ولكن عبثاً حاولوا .

أمون Amon : يدهش السياح عندما يزورون معابد إدفو ، ودندرة ، وأبيدوس ، حتى إذا ما زاروا معبد أمون بالكرنك تضاءلت المعابد السابقة وبدت إقليمية بالنسبة إلى ذلك المعبد العظيم . فتدخل رحابات الكرنك فى الروع أنها عاصمة الإمبراطورية ، ويخيل إلى المرء وهو يتأمل اتساع رقعة تلك المدينة المقدسة ، أنه فى حضرة « ملك الآلهة » . والحقيقة أن أمون كان يحتل مركزاً منقطع النظير فى تاريخ مصر .

ظهر أمون أولاً فى منطقة طيبة ، فى بداية الدولة الوسطى . فمن أين أتى ، يا ترى ؟ لا يوجد رد أكيد لهذا السؤال . ويعتقد البعض أن أحد الآلهة الثمانية لمدينة هرموبوليس (الأشمونين) ، كان اسمه أمون ، أى « الإله المختفى » ، فاستنتجوا أنه إله تلك المدينة المقدسة القديمة ، غير المعروف تماماً ، ثم « استعاره » أهل طيبة ليكون مؤسس أسرة إلهية جديدة . والأرجح أن أمون كان فى ذلك الوقت إلهاً غامضاً للمنطقة الطيبية ، وأنه أحضر إلى الكرنك قبل ذلك بزمن طويل جداً . غير أنه من الحقيقى أيضاً أن ديانته التى تجعله إلهاً للهواء وللإخصاب ، تدين بالشىء الكثير إلى المعتقدات الهامة لمدن هليوبوليس والأشمونين ومنف ، وربما تدين أيضاً إلى الديانات التى لا نعرف عنها سوى القليل مثل عبادة الإله مين بمدينة قفط ....
وكان المصريون يمثلون أمون كإنسان ذى رأس كبش أحياناً ، وتزوج الربة موت التى كانت تعبد بموضع قريب من الكرنك ، كما كان أحد آلهة القمر المسمى خونسو ابنه .

زودت السياسة أمون بنجاحه التاريخى ، لأنه كان إله الملوك الذين طردوا الهكسوس ، وبهذا صار أهمّ إله فى الدولة التى حُرِّرت حديثاً ، وسرعان ما صار أهمّ إله أيضاً فى الإمبراطورية التى برزت إلى عالم الوجود ويمكن أن نتتبع بسهولة ارتقاءه إلى السلطة فى الدولة الحديثة . ويدل الحج إلى معابده ، والأموال الكثيرة التى كان كهنته يتمتعون بها ، والسلطة التى لرؤساء كهنته على كثير من وظائف الدولة ، على أن أمون قد انتزع السلطة والهيبة من كثير من آلهة الدولة الآخرين . غير أن بذور سقوطه كانت كامنة فى تعاظم سلطانه ، إذ استاء الكثير من رجال كهنوت العبادات الأخرى . وحتى الملوك أنفسهم ، وجدوا أنهم صاروا يعتمدون كثيراً على كهنة أمون . ولا شك فى أن فترة العمارنة لم تكن سوى تحذير ، ولكنها ساعدت العبادات التى جار عليها أمون فى أن تظهر من جديد فى الأسرات التالية . ومع ذلك ، فقد احتفظ ذلك الإله الطيبىّ العظيم بمركز الإله القومى لعدة قرون . ووجد كهنته العظام أن بوسعهم أن يعينوا أنفسهم ملوكاً ، وأن يديروا الأمور بواسطة وحى إلههم (انظر الملوك الكهنة) . وانتشرت عبادته حتى الواحات الليبية ، واتخذ ملوك النوبة أمون إلهاً أعلى لهم .

كان تدمير طيبة سنة ٦٦٤ ق . م . على يد الأشوريين نذيراً بأفول نجم عبادة أمون الذى استمرت عبادته فى خرائب تلك العاصمة الكبرى . إلا أنه عندما تحرر الآلهة الإقليميون من نير طيبة الإقتصادى ، استعادوا شهرتهم التى فقدوها ، وبدأ « أوزيريس » يحتل تدريجياً ذلك المكان الذى كان يحتله أمون فى جميع أنحاء المملكة .

الأناشيد Hymns : يتكون جزء كبير من أدب قدماء المصريين الدينى الذى وصل إلينا من التراتيل : تراتيل للآلهة سوبك وأمون وأتون ورع حور آختى ، أو ترانيم للملك ، وللتيجان الملكية ، وحتى للمدن . وسواء أكانت هذه التراتيل والترانيم دينية أو لقصد الدعاية ، فإنها تبين مظهراً خاصاً من مظاهر المعتقدات الدينية المصرية . فما هو النمط العادى للترتيلة ؟ إنها تبدأ عادة بعنوان يمكن أن يكون عبارة كاملة ، مثل : « سلاما رع حور آختى عندما تشرق الشمس فى أفق السماء الشرقىّ . . » أو بصلاة مباشرة للإله المقصود ، مثل : « طوباكَ » ، أو « سبحانك » ، يتبعها النص الجوهرى للترتيلة . كان أتباع إلهٍ ما ، يعبدونه بذكر أعماله وتكرار ألقابه . فلا تعبر الترتيلة عن حماس العابد ولا عن ديانته ، وإنما تُعبر عن شخصية ذلك الإله ولاهوته بالتفصيل . وهكذا كانت تبدأ الترنيمة بقائمة مطولة من الألقاب ، تتخللها أحياناً مجموعة من العبارات الكاملة التى تُحصى الأفعال الماضية لذلك الإله .

« طوباك ، يا أوزيريس ، يا سيد الخلود ، وملك الآلهة ، يا ذا الأسماء الكثيرة ، يا جميل الطلعة ، يا من صورتك سريّة فى المعابد . . . . إنه أول إله للقطرين . . . . إنه أول من وُلد ، وأكبر اخوته ، وأعظم زملائه الإلهيين ، الذى أقام قانونه فى القطرين ، الذى أجلس ابنه على العرش ، ذلك الذى يحترم أباه جب Geb ويحب أمه نوت Nut » .

من خصائص هذه التراتيل أنها تذكر الإله بأسماء المدن والمعابد التى كان يُعبد فيها ، مثل : « أيا أوزيريس ، القوىّ فى منف ، وروح جسم رع المقيم فى هيراكونيوليس ، والمهتم به بحماس فى ناريت Naret ، وسيد القاعة العظمى فى هرموبوليس ، الكلىّ القوة فى شاس حوتب ، وسيد الخلود فى أبيدوس ، إلى غير ذلك » .

ليست هذه القائمة الجغرافية ، عادةً ، سوى جزء من التراتيل الأكثر تقدُّماً . ومع ذلك فهى تحتل مكانة بالغة الأهمية فى الصلوات الجماعية المأخوذة من التراتيل . وتتكون عندئذ من مجموعة من الأشعار ، متناظرة جميعاً فى شكلها ، تبدأ باسم الإله المعبود ، متبوعاً بألقابه وأسماء الأماكن المقدسة . وهذا النوع من الأدب معين لا ينضب لكل نوع من المعلومات اللازمة لدراسة علم اللاهوت المصرى القديم . ولايزال لبعض التراتيل الجميلة ، للدولة الحديثة والحقبة المتأخرة ، قدرة على إثارة إعجابنا ، ولو أننا نفتقر إلى النطق الصحيح ومعرفة الوزن الشعرى ، اللذين يسلبان

ذلك الأدب معظم بهائه ورونقه الشعرى . ومع ذلك ، يجب أن نعترف بأنه نوع من الأدب الفذ .

انتشار الحضارة المصرية : فى الألف الثالث ق م تطورت . . مصر فى الناحيتين الفكرية والمادية تطوراً كان له أثر فى حضارتنا الحديثة . ولم تكن هناك دولة ما تضارعها فى حضارتها تلك منذ هذه الحقبة البعيدة سوى العراق . أما فلسطين وسوريا فكانتا أقل حضارة بينما كان باقى بلاد العالم لا يتجاوز الحالة البدائية فى المستوى الفنى والثقافى .

كان العرافون يقولون متنبئين بالمصائب التى ستأتى : « انظروا ! ها هى أسرارنا ستقع فى أيدى الجهلاء والبرابرة وسيبرعون فى فنون مصر السفلى » .

وإذ كانت مصر معزولة فى مجدها ومحدودة داخل نطاق مدنيتها الخاصة ، فإنها لم تعمل على نشر حضارتها . ورغم هذا انتشرت هذه الحضارة بقوة الظروف . (انظر النوبة و « العصر الإثيوبى » لمعرفة كيف تسربت الحضارة المصرية والثقافة إلى السودان . وانظر « صناعة المعادن » و « حضارة قدماء المصريين » ، لمعرفة أثر مصر غير المباشر على أفريقيا الزنجية الذى بالغ فيه بعض العلماء منذ زمن غير بعيد ، والذى رغم هذا لا يمكن إنكاره) .

وبحسب معلوماتنا الحاضرة ، بدأ انتشار الحضارة المصرية القديمة إيجابياً منذ سنة ٢٠٠٠ ق . م . إلى الشرق الأدنى . فقد تبدلت الآراء والمهارات الفنية لمدة خمسة عشر قرنا من عصر الملك سنوسرت إلى الغزو الفارسى ، بين آسيا ومصر ، جيئة وذهاباً تبعاً لقيام الدول والإمبراطوريات واضمحلالها . وسواء أكانت مصر ظافرة أو مدحورة ، فقد وجدت نفسها مشتركة فى ذلك الاختلاط بين الشعوب ، رغم تمسكها بالعزلة ، فأعطتها آسيا كثيراً من الهدايا النافعة ، كالنحاس وأشجار الزيتون والخيول والقيثارة والزخرفة بسعف النخل والقانون الدولى . ومن ناحية أخرى ، فإن تبادل الهدايا من الأميرات والخبراء (انظر الدبلوماسية) ، والتجارة الدولية ، جعلا ثروة مصر موضع حسد جيرانها : أهل بابل والحيثين والأشوريين ، ثم بعد ذلك بوقت ما أهل ليديا وفارس . أما فلسطين ولبنان اللتان كان ينزل فيهما كتبة المصريين وجنودهم من وقت إلى آخر ، فاشترك المصريون الوافدون فى أسرارهما مع « الآسيوى الماكر » . وكان « الحكم المطلق » الذى تأسس على العقيدة الشمسية من القوة بمكان حتى أن ملك الحيثين نعت نفسه « بشمس ذاته » . ويبدو أن سليمان صهر فرعون قد شكَّل تنظيمه للمملكة اليهودية تبعاً للبيروقراطية الفرعونية المنظمة والقوية الأثر .

من السهل أن نفهم أن النماذج الرائعة لقدماء المصريين قد ساعدت الآسيويين على قطع الأحجار بطريقة أفضل والبناء بطريقة أحسن والرسم بصورة أقل ردامة . والحقيقة أن الهيبة السحرية لفنون قدماء المصريين قد انتشرت فى مناطق واسعة ، ومن أمثلتها : الجعران والتمائم والمصنوعات البرونزية والأوانى والعلب الصغيرة التى كانت تلك

البلاد تستوردها من مصر بالألوف وتحاكيها ثم تعيد تصديرها إلى جميع دول البحر المتوسط . وقد أوحت النماذج المصرية التى انتشرت فى أشور وفارس حيث حوكيت ، بمصنوعات العاج الفخمة التى كانت تزين أثاث القصور الملكية فى فينيقيا وسوريا كما أوحت بطرز أوانيهم ولوحاتهم والمصنوعات الفينيقية الأخرى . ويوجد قرص الشمس المجنح ورمز « اتحاد البلدين » وأبو الهول والصقر واللوتس والصل الفرعونى Uraeus ، وصور الإله بس والإلهة حتحور والفراعنة المتمصرين ؛ توجد كل هذه فى المناطق الممتدة من نهر النيل حتى نهر الفرات ، مختلطة مع الأشكال الأشورية وأشكال دول بحر إيجة وآسيا الصغرى .

لنا أن نتساءل إذا كان المصريون قد علموا الفينيقيين الملاحة . ويبدو أنه لم يكن لدى المصريين الشىء الكثير من التقنيات البحتة كى يعطوه لغيرهم من الأقوام فى الشرق الأدنى ، وإنما أخذوا عن هؤلاء كثيراً من هذه الأمور . وإذ قنع المصريون بنقوشهم الهيروغليفية ، فقد أعطوا بطريق غير مباشر ، بعض الشعوب الكنعانية فكرة استعمال العلامات التصويرية فى كتابة لغاتهم (مثل الهيروغليفية البابلية الكاذبة) وساعدوا فى تكوين الكتابة الأوربية (أى حروف الهجاء اللاتينية) . وعلى العموم ، لعبت الحضارة المصرية دوراً عظيماً ،

بطريقة غير مباشرة ، فى انتشار اختراع الكتابة . عندما كُتبت حروف الهجاء الجديدة لأول مرة ، كان هناك نوعان متنافسان من مواد الكتابة ، هما : ألواح الطين الطرية التى كان يُنقش عليها الخط المسمارى بقلم من المعدن ، وورق البردى المصرى الذى كانوا يكتبون عليه بالفرجون والمداد ـ وهى أدوات الكاتب المصرى القديم ـ وقد فُضل البردى عن ألواح الفخار الخشنة ، فاستعمل وشاع استعماله واشتقت منه كلمة Paper الحالية ، كما اشتُق القلم من الفرجون المصرى مع تطور أنواع المداد .

وليس فى وسعنا أن نحدد بدقة مدى تأثر الشعوب المجاورة بالعلوم المصرية لأننا نفتقر إلى الأدلة والشواهد ويبدو أن العلوم البابلية كانت أكثر تقدّماً . ومع ذلك ، فقد أعجب أقوام الشرق الأدنى بالطب المصرى أيما إعجاب ، فكثيراً ما طلب ملوك الحيثيين والفرس أطباء مصر للعناية بهم فى مرضهم . ويبدو أن ما كتبه هيبوقراط يضم نصوصاً معدلة من النصوص الطبية للدولة الوسطى .

لا شك أن المصريين هم أول من كتب قصص الخوارق ، أو القصص التى ابتكرها العظماء والوضعاء على حد سواء . كان المصريون أول من كتب قصة الملاح الذى تحطمت به السفينة فى وسط البحر (وهو سندباد المستقبل) ، وحيل القائد تحوتى (وقصته تذكرنا بلصوص على بابا) ، ومغامرات باتا Bata (الذى اتخذ اسم إيفان Ivan ، وزوجته فى الأغانى الفولكلورية الروسية ، وزوجته الخائنة ، (التى قد تكون فيدرا Phedra أو زوجة بوتيفار Potiphar) وكثيراً من القصص الشهيرة .

لا شك أن إقامة بنى إسرائيل فى مصر تفسر بعض العناصر القانونية والدينية فى الناموس الموسوى ، على أن الرأى الساذج القائل بأن ديانة موسى ما هى إلا نسخة بدوية لديانة « التوحيد » الخاصة بأخناتون تنقصه الأدلة والبراهين . غير أن هذا لا يعنى أن الفلاسفة وعلماء اللاهوت المصريين لم يؤثروا على الفكر اليهودى ، بل على العكس عُرفت تراتيلهم وأدب حكمتهم فى كنعان منذ الدولة الحديثة وعلّمت علماء يهوذا كيف ينظمون تراتيل أفضل لإلههم وكيف يزيدون فى حكمة التوراة .

إذا حططنا من قدر تراث الأقوام السامية الرُّحّل وقدامى الإغريق ، أو تجاهلنا إسهام بلاد النهرين (العراق) ، ونسبنا كل شىء بلا تبصُّر ، إلى قدماء المصريين ، كان ذلك منافياً للأدلة التاريخية كلها . أما إذا غضضنا النظر عن التراث المصرى المباشر وغير المباشر ، الذى تركوه للأمم اللاحقة ، صارت اسرائيل وكتابها المقدس ، والإغريق وأعمالهم غير مفهومة . وقد اعترف الاغريق بما عليهم من دَيْن — بحماس بالغ أحياناً (واقتداء ببعض الشعوب ، استوعبت مصر آلهة الإغريق وقيثارة أپولو ، وغابات الزيتون !) . وسواء رحَّبت مصر أو نَفَرَت ، فإنها جذبت فضول الإغريق . وفد إلى مصر كثير من المفكرين قبل سقراط ، وأتباع فيثاغورث ، وتلاميذ أورفيوس ، ليُتموا دراساتهم فى الهندسة أو فى علم الفلك ، أو فى اللاهوت . وبعد ذلك أدرك البطالمة أن قوة المَلِك تزداد إذا كان إلهاً . وفى ذلك الوقت استشار الأجانب الفَلَكِيين القائلين بان الشمس مركز الكون ، وأطباء منف . ومع ذلك فإن نفس عدد الألفاظ القليلة التى مرت من اللغة المصرية إلى الإغريقية ، وضآلتها (انظر اللغة) ذات دلالة عظمى . فقد أعطت مصر ، منذ زمن بعيد ، أهم اكتشافاتها إلى غيرها من الأمم . وقد لَمَّحَ أحد الشيوخ بقوله : « أيها الإغريق ، ما أنتم سوى أطفال ! » .

امتزجت مدنية الأسكندرية الحديثة،نسبياً بتقاليدها الهيلينستية واليهودية والشرقية مع المدنية الفرعونية التى رغم قوتها الطاغية لم تستطع أن تصبغ المدينة بصبغتها فظلت متأغرقة رغم وجود الآثار « المتمصرة » مثل السيراپيوم والجبانة . وقد عمل كهنة الصعيد قائمة بجميع التقاليد الموروثة التى لوحظت من قبل عندما لم تتأثر الدولة بالنفوذ الخارجى . وكان السائح الإغريقى أو الرومانى يدهش لتلك الفخامة العجيبة التى لم يعلم عنها العالم الخارجى سوى القليل الذى جاءه عن طريق أوصاف السائحين والتى حوَّلت فيها النظرياتُ الإفلاطونية الجديدة التعاويذَ السحرية القديمة إلى محاولة لخلق منهج رمزى . واتخذ الإله تحوت لنفسه ، فى الفكر الإغريقى ، خصائص تنجيمية كِلدانية . وطوال مدة حكم الإمبراطورية الرومانية ، أرضى عباد إيزيس نزعة فى عقيدتهم لم تكن معروفة للمصريين ، وأضفوا المزيد من الأهمية على التماثيل الفرعونية ، وصنعوا نسخاً قميئة من النقوش الجصية المصرية والمصلصلات والقدور والأوانى المقدسة وتماثيل أنوبيس . هكذا قدر للمعات الأخيرة التى جادت بها شمس حضارة مصر الآفلة ، التى أسىء فهمها ، أن تحيا وتصلنا ، ولكن من المؤكد

أن عراف إيزيس ، وأتباع طقوس أوزيريس ، وعلماء البيراميدولوجيا (علم الأهرامات) والمتخصصين فى العلوم الفرعونية الغامضة ، كانوا سيثيرون دهشة أبناء عصر الرعامسة وعجبهم أكثر من أبناء القرن العشرين (انظر التنجيم) .

أمدَّت الدراسة العلمية للآثار الفرعونية ، وحل رموز النقوش الهيروغليفية ، أوروبا بفرصة تجديد معلوماتها عن مصر الحقيقية وإعادة مجدها الحقيقى . كان يحسن بأبناء الشعوب التى حاولت إعادة تكوين الفن المصرى من مصورى حركة « العودة إلى مصر » فى فرنسا النابليونية ، إلى المهندس المعمارى الذى صمم محطة سكة حديد الجيزة ، ألا يقعوا فى هذا الجمع بين طراز العصور الغابرة والحضارة الحديثة مما أفقد هذا الطراز سموه وقداسته الأولى (لم يتحاش الكارثة من المصورين الذين تأثروا بالفن المصرى سوى جوجان Gauguin) . وإذ عادت مصر إلى اليقظة من سباتها بتناقضاتها الخاصة بها ، وبطقوسها البدائية وحكومتها ونظمها ، فقد وَهَبَت الحالمين أحلاماً وآمالاً ، وأمدت شعبها بموضوعات صارت مجالاً خصباً للمفكرين .

نجد دائماً أن القاعات المصرية فى أى متحف هى أشهر قاعاته وأكثرها امتلاءً بالآثار . لقد أوحى علم الآثار المصرية بمواضيعَ للروايات ، وإنه ليغزو الآن عالم القصص البوليسية والسينما . وقد ضُمَّت مفردات التاريخ المصرى ، شيئاً فشيئاً ، بعضها إلى بعض ، كما تآلفت من سلسلة معجزاتها التقنية وخوارقها السحرية مادة بديلة لقصص ألف ليلة وليلة . وإن القصص البارعة التى وضعها ك . و . سيرام C.W. Ceram لأشبه بترجمة علمية لقصة علاء الدين ومصباحه العجيب .

أنشودة عازف القيثارة The Song of the Harper : الموت أمر محتوم ، ولا نعرف شيئاً عما هنالك بعد الموت : « لاتزال بعض الأجيال تسير ، ودخل غيرها إلى عالم الخلود منذ أزمنة موغلة فى القدم . لا أحد يعود من وراء القبر فيخبرنا بما يحتاجون إليه هناك ، أو ليريح قلوبنا ، حتى نذهب نحن إلى هناك أيضاً ، إلى حيث ذهبوا » .

ليست حياة الإنسان إلا جزءاً من دورة مستمرة : « رحلت أجسام منذ أقدم العصور ، ويحل محلها جيل آخر . والشمس التى تولد فى الصباح ، ترتاح عند مجىء الليل فى الجبل الغربى . ينجب الرجال ، وتلد النساء . تتنفس جميع المخلوقات الحية الهواء ، وتلد الأطفال فى الوقت المحدد ، ثم تذهب إلى قبرها ......
لا حياة تمكن إطالتها فى أرض مصر ؛ لا يوجد من لا يذهب إلى العالم الآخر ، وليست فترة البقاء فى الدنيا إلا بقدر فترة الحلم » .

وإذ تواجهنا حتمية الموت والجهل بالمصير الذى ينتظرنا وراء القبر ، فليس أمامنا ، والحال هذه ، إلا مسلك منطقى واحد : « اقضِ يوماً بهيجاً . تمتع بأجمل العطور رائحة ، وضع أكاليل من أزهار اللوتس على ذراعى زوجتك وجيدها . عسى أن يجلس إلى جانبك شخص تحبه . ليكن أمامك غناء وموسيقى . اطرح الهموم بعيداً عنك ولا تفكر

إلا فى السرور حتى يأتى وقتك للذهاب إلى أرض السكون » .

هذه هى الأبيات الأساسية من تلك الأنشودة الشهيرة التى كُتبت أولاً فى قبر الملك أنتف ، والتى صارت أكثر شيوعاً بين كتبة الدولة الحديثة . ربما كانت هذه هى الأنشودة التى تكلم عنها هيرودوت عندما ذكر « أنشودة لينوس Linos » ، التى يدعى باللغة المصرية « مانيروس Maneros » .

أنوبيس : عُبد أنوبيس بعدة ألقاب ، هى : «الذى يتمى إلى لفائف المومياء» و « رئيس السرادق الإلهى » ، حيث يتم التحنيط ، لأنه حنط أوزيريس ، وصار راعى خبراء التحنيط ؛ و « سيد الجبانة » و « الراقد فوق جبله » ، لأن ذلك الإله الأسود كان يقود الموتى فى العالم الآخر ، ويحرس المقابر . كان يتقمص جسم الكلب الوحشى أو ابن آوى الذى يجوس وسط المقابر . وقبل أن يشتهر « أوزيريس » ، اعتبر « أنوبيس » إلهاً جنائزياً عظيماً ، ووُجِّهت إليه الصلوات المنقوشة على جدران أقدم المصاطب . كان له كثير من المعابد ، أشهرها فى مصر الوسطى بمدينة أطلق عليها الإغريق اسم كينوبوليس Cynopolis أو « مدينة الكلاب » . وهيكله الجميل بمعبد الدير البحرى جدير بالزيارة ، وكذلك المقابر ذات الأبواب التى صُوِّرت عليها صور رائعة لكلب ضخم أسود اللون ، يقوم بالحراسة ويقبع فوق قاعدة بشكل مصطبة .

الأهرام Pyramids : للأهرام أثر أعمق فى خيال العالم كله أكثر من جميع آثار قدماء المصريين . ولا يُعرف أصل هذه الكلمة على وجه التحقيق ، ولكن يبدو أنها كانت من ابتكار الإغريق الذين أطلقوا عليها ، مزاحاً ، الكلمة الإغريقية Pyramis ومعناها « كعكة من القمح » . وتذكرها النصوص المصرية دائماً باسم مر التى لا يعرف نطقها الصحيح بالضبط . كانت الأهرام ، بغير استثناء ، مقابر للملوك ، وأحياناً مقابر للملكات أيضاً ، من الأسرة الثالثة (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق.م.) إلى الأسرة السابعة عشرة (حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م.) ، ثم أقامها فيما بعد حكام مصر الأثيوبيون فى الأسرة الخامسة والعشرين (حوالى سنة ٧٥٠ — ٦٥٠ ق.م.) وخلفاؤهم الذى حكموا شمال السودان حتى القرن الرابع للميلاد .

يمكن تتبع نشأة القبر الهرمى الشكل ، فى جميع الاحتمالات ، إلى كوم الرمل المستطيل الشكل الذى كانوا يكومونه فوق القبر البسيط (حفرة) الذى استخدمه سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات . وأظهر الحفر فى سقارة وفى جبانة منف أمثلة لأكوام الرمل فوق المصاطب المبنية بالآجر للأسرة الأولى (حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.) وأقدم مثل معروف عبارة عن أساس من الرمل مغطى باللبن . غير أنه نشأ ، قبل نهاية هذه الأسرة ، بناء من الآجر أكثر صلابة ، ترتفع جوانبه الأربعة بشكل درجات . وقد بُنى كل من هذين البناءين « الكومين » داخل هيكل المصطبة ، ولذا لا

تمكن رؤيتها عندما يصعد البناء الخارجي بالتدريج ، وبوضع السقف . وبما أنه ليست لتلك الأكوام وظيفة معمارية ، فلابد لنا أن نعتقد أن بقاءها كان لأسباب دينية سحرية سنناقشها فيما بعد .

لم يكن هناك ، حتى بداية الأسرة الثالثة ، أى فارق بين قبر الموظف الكبير وقبر النبيل وبين قبر الملك من حيث التخطيط غير أنه منذ ذلك الوقت ظل الموظفون والنبلاء يُدفنون فى مصاطب بينما يُدفن الملوك فى قبور هرمية الشكل . ثم أنشأ زوسر ، الذى ربما كان أول ملوك تلك الأسرة ، شكلا جديدا للقبور ، وكان هذا بلا شك من وحى مهندسه المعمارى الشهير إمحوتب . وإن قبره الفخم فى سقارة ، لمن العجائب المعمارية للعصور القديمة . لم يكن هرماً بالمعنى الهندسى الصحيح ، ولكنه يتدرج فى ست درجات ضخمة من جوانبه الأربعة ، إلى ارتفاع نحو ٦٠ متراً . وطول قاعدته ١٠٩ م تقريباً من الشمال إلى الجنوب وحوالى ١٢١ متراً من الشرق إلى الغرب . وهناك برهان معمارى على أن هذا الهرم صار بتلك الأبعاد بسلسلة من التكبيرات وأن الهرم المدرج موضوع فوق مصطبة مربعة مثلما وُضعت مصطبة الأجر فوق « الكوم » . توجد حجرات دفن الملك وأعضاء أسرته الأحد عشر أسفل الهرم على عمق كبير فى الصخر الذى تحت سطح الأرض ، كما أن هناك عدداً من الحجرات والممرات الأخرى ، بعضها مزيّن بالفيانس الأزرق محاكاةً لحصير الغاب ، والأحجار المنقوشة نقشاً بارزاً ، تُصوِّر الملك وهو يقوم بشتى الاحتفالات الدينية . أما الحوائط المسلوبة التى تحيط بالكوم فى مصاطب الأسرة الأولى ، فيفصلها عن القبر ، فى حالة الهرم المدرج ، مسافات واسعة من الجوانب الأربعة ، لتُكَوِّن سوراً مستطيلا يحيط بالهرم ارتفاعه حوالى ١٠ أمتار ومحيطه نحو ١٦٥٠ متراً تقريباً . وهناك ظاهرة غريبة فى هذا السور ، وهى أنه يضم عند قطاعه الجنوبى مصطبة ، تشبه حجراتها السفلية ، حجرات الهرم المدرج ، إذ أن بها نقوشاً منحوتة للملك وتبطن حوائطها الداخلية بالقيشانى الأزرق . ولا نعرف حتى الآن الغرض الذى بُنيت من أجله هذه المصطبة . ويشمل الفضاء الذى بين الهرم المدرج والسور أفنية مكشوفة ، ومبانى للاحتفالات بعضها مصمت من الحجر وليس به حجرات داخلية . وفضلاً عن الفناء ذى الأعمدة الواقع أمام المدخل ، فإن المبانى التى على الجانبين الشرقى والجنوبى مخصصة للملك كى يحتفل فى حياته الثانية ببعض الأعياد الرئيسية ، كالعيد اليوبيلى الذى كان يحتفل به فى حياته على الأرض . ومن المبانى التى على الجانب الشمالى للهرم ، والتى لم تكن مصمتة ، سرداب به تمثال من الحجر للملك وهو جالس ، ومعبد جنازى قام الكهنة بالخدمة فيه لمدة رُبما تبلغ عدة سنوات بعد موت الملك ، وكذلك بالطقوس الدينية نيابة عن الملك .

وأعظم ما يسر العين أن تراه من كل التجديدات المعمارية فى هذا السور الرائع ، هو الأعمدة المتصلة بالحوائط ، وكذلك بالواجهات فى حالة المبانى المصمتة . فهى

تمثل ، بدون استثناء ، إما حُزَماً من سيقان النباتات ، أو سيقان النباتات مفردة ، ومن أمثلة هذه النباتات البردى الذى تُكَوِّن أزهاره تيجان الأعمدة .

بنى ثلاثة على الأقل من الملوك الذين خلفوا زوسر على العرش ، أهراماً مدرجة ، بيد أنه ما من واحد منها يمكن أن يقارن بهرم إمحوتب الرائع ، حتى ولو عملنا حساب حالتها المتداعية . وينسب أحد الأهرامات إلى ملك يدعى سخم خت ، وقد أثار اهتماماً عالمياً عندما عُثر عليه أثناء الحفر (فى سنة ١٩٥٤) إذ كان به تابوت من المرمر فى حجرة الدفن ، بدا عند العثور عليه أن أيدى اللصوص لم تعبث به ، غير أنه ما إن رفع غطاؤه حتى وجد خاوياً .

يمكن رؤية المرحلة الثانية فى تطور بناء الأهرام ، فى الهرم القائم فى ميدوم الواقعة على مسافة ٨٠ كم جنوبى الجيزة . وربما بناه حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة ثم أكمله سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة (حوالى ٢٦٧ ق.م.) ، الذى بناه أولاً هرماً مدرجاً ثم ملأ الثانى درجات لتكون جوانب الهرم الأربعة مستقيمة مائلة من القاع إلى القمة ، وربما أمكننا التخمين بأن قمته كانت مدببة ، غير أنه لا يمكن البرهنة على ذلك لأن قمته قد تهدمت . ثم اتبع هذا الشكل ▲ فى الاهرامات التالية لتبدو على الصورة الجديدة (الهرمية) ، ويوضح نظام المبانى المجاورة لهذا الهرم تطوراً استمر بعد ذلك مع بعض تغييرات فى التفاصيل إلى نهاية تاريخ بناء الأهرام . وقد بُنى إلى جانبه هرم صغير ، ربما لتدفن فيه الملكة ، على الجانب الجنوبى للهرم الأصلى ، بينما بنى عند الجانب الشرقى ، وفى خط مستقيم تقريباً ، معبد جنازى وممر مكشوف يصل هذا المعبد بمعبد ثان ، يقع على بعد ٢٠٠ م تقريباً عند الحدود بين الصحراء والأرض الزراعية .

هناك هرمان فى دهشور ينسبان إلى الملك سنفرو من الأسرة الرابعة (على مسافة قريبة جنوبى سقارة) جديران بالذكر بسبب منظرهما الفذ . ففى الجنوبى منهما يزداد ميْل زاوية الانحدار فجأة عند نقطة بعد منتصف ارتفاعه ، ولذا سمى « بالهرم المنحنى » أو « الهرم المتبعج » . أما جاره الشمالى فمبنى بزاوية انحدار مقدارها ٣٦َ,٤٣° (تساوى تقريباً زاوية ميل الجزء العلوى من الهرم المنحنى) ، على نقيض زاوية الانحدار العادية التى تبلغ ٥٢° تقريباً .

أما خوفو ابن سنفرو ، فهو الذى بنى هرم الجيزة الأكبر الذائع الصيت ، ويشغل مساحة أكثر من ١٣ فداناً ، وكان يصل إلى ارتفاع ١٤٦ م تقريباً ، وقد فُقد منه جزؤه العلوى البالغ ارتفاعه حوالى ٩ م . وتواجه جوانبه الأربعة المائلة بزاوية ٥٢ ، ٥١° ، الجهات الأربع الأصلية تماماً . وقد بُنى جزؤه الداخلى من الحجر المَحَلّى وكُسىَ كله بطبقة لامعة من الحجر الجيرى ، من أجود نوع ، من محاجر طرة ، ولكن لم يبق من هذه الكسوة الخارجية إلا جزء بسيط . ويقع مدخله الوحيد على الجانب الشمالى ، على ارتفاع حوالى ١٦ م فوق مستوى سطح الأرض . يدل الدليل المعمارى على أن

التصميم الداخلى غُيِّر مرتين أثناء التشييد .

قصد بالتغيير الأول وضع حجرة الدفن على عمق كبير تحت الأرض ، وعندما كاد تنفيذ هذا التصميم يتم ، عُدِل عنه وبُنيت حجرة أخرى يوصل إليها ممر مائل إلى أعلى ، داخل جسم الهرم . وبعد ذلك مُدَّ الممر بشكل دهليز كبير يوصل إلى حجرة أخرى مبنية كلها من حجر الجرانيت حيث لايزال تابوت الملك موجوداً بها بغير غطاء . وبالحائطين : الشمالى والجنوبى فتحتان هما فوهتا ثقبين يخترقان البناء إلى السطح الخارجى . ويتكون سقف الحجرة المسطح من تسع كتل من الجرانيت تزن حوالى ٤٠٠ طن ، وفوقها خمس مقصورات منفصلات ، لأربع منها سقف مسطح ، أما سقف العليا فمائل مدبب ليقلل من خطر التداعى تحت ثقل البناء الذى فوقه . وبعد أن وضعت جثة الملك فى التابوت ، أُقفل باب الحجرة ، أولاً بثلاث لوحات ضخمة وُضعت على هيئة أبواب منزلقة بين تلك الحجرة والطرف العلوى للدهليز الكبير ، ثم بكتل ضخمة من الجرانيت وُضعت فى الممر المائل العلوى . ولكى يخرج العمال الذين وضعوا هذه الكتل فى أماكنها ، ثُقب ممر إلى أسفل من قمة الممر العلوى إلى الممر تحت الأراضى المؤدى إلى حجرة الدفن الأصلية التى سُدَّت بعد ذلك بالحجر أيضاً .

موضع الهرم الأكبر عجيب كالهرم نفسه ، فيوجد إلى الشرق مباشرة وأمام منتصف الهرم تقريباً ، معبد جنائزى متصل بممر طويل بمعبد آخر على حدود الصحراء . وبُنيت ثلاثة أهرامات صغيرة ، مقابر للملكات ، على الجانب الجنوبى لهذا الممر الأخير عند موضع اتصاله بالمعبد الجنازى . ودُفنت خمسة قوارب خشبية فى حُفَر قُطعت فى الصخر تحت الأرض ، ثلاث منها على الجانب الشرقى ، واثنتان على الجانب الجنوبى للهرم (انظر سفينة الشمس) . وبُنى صف واحد من المصاطب موازياً للجانب الجنوبى لهرم الملك ، كما بنيت صفوف متوازية من المصاطب المماثلة لتتألف . منها جبانة كبيرة عند الجانبين : الشرقى والغربى . وقد بنيت كل هذه المقابر لأعضاء الأسرة الملكية والنبلاء وأجيال من الكهنة الذين كرسوا حياتهم للقيام بالطقوس الدينية فى المعبد الجنازى .

من جميع الملوك الذين خلفوا خوفو على العرش ، لم يحاول أحد بناء هرم يعادل فى ضخامة حجمه الهرم الأكبر ، غير ابنه خفرع . أما منكاورع صاحب هرم الجيزة الثالث ، فبنى طرازاً جديداً على مساحة أقل من نصف المساحة التى يشغلها الهرم الأكبر . ويتكون تصميم داخل هذه الأهرامات ، كقاعدة عامة ، وأهرامات

خلفائهم حتى الأسرة الثانية عشرة (حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م.) من ممر يمتد من الوجه الشمالى للهرم ، إلى حجرة أمامية صغيرة ، ثم إلى حجرة الدفن . وقد راعوا فى القيود المفروضة على نظام البناء ، أن يبنوا معبداً جنائزياً وممراً ومعبداً بالوادى إلى شرق كل هرم ، مع إجراء بعض تعديلات فى التفاصيل المعمارية . كما أن المناظر المنقوشة

على جدران هذه المبانى ، التى ظهرت لأول مرة فى الأسرة الرابعة ، تعالج نطاقا واسعاً من الموضوعات . ولم يُعثر على نقوش داخلية بالأهرامات التى شيدت من بعد هرم زوسر المدرج حتى هرم أوناس Unas فى نهاية الأسرة الخامسة ، الذى وجدت به النصوص المسماة بنصوص الأهرام على جدران حجرة الدفن والممرات والحجرات المجاورة لها (انظر النصوص الجنائزية) .

أدخل منتوحوتب الشهير ، أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ، نظاماً خارجاً على النظام الموروث ، عندما بنى معبداً للموتى ، بالدير البحرى ، ذا شرفة ومتصلاً ومندمجاً فى هرم أمامه فناء زرعت فيه أشجار الأثل Tamarisk والجميز . وقد بنى ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذين تقع مقابرهم فى اللشت ودهشور والفيوم ، أهرامات ذات طراز أكثر قدماً ، ولكنها تتضمن براعة فى التصميم الداخلى لتضليل لصوص المقابر . ويمكننا أن نرى مثل هذه المهارة فى الأسرة الثالثة عشرة ، كما فى هرمى الملكين الوحيدين لتلك الحقبة اللذين تأكد الباحثون منهما . ولم يُكتشف حتى الآن أى هرم من الأسرة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة ، إلا أنه توجد فى طيبة أهرامات صغيرة مبنية بالآجر ، بناها ملوك الأسرة السابعة عشرة . وليست أهرامات الملوك والملكات الاثيوبيين فى نباتا ومروى ، إلا إحياءً لطراز بناء المعابد القديم ، مع تغيير طفيف فى الشكل .

هناك بعض اختلافات فى آراء العلماء من الطريقة المتبعة فى بناء الأهرام . ويلوح أن الأمر غير القابل للجدل هو أن مداميك الأحجار الأولى وضعت فى الوسط أولاً ثم مُدَّت إلى الخارج . واستعمل الحجر المَحَلى فى بناء الجزء الأوسط الداخلى ، واستعمل حجر طرة الجيرى ، الأجود نوعاً ، أو حجر الجرانيت فى بعض الأحيان ، لبناء الكسوة الخارجية . كما أنه مما لا جدال فيه أن سطوح الكسوة الخارجية صقلت من القمة إلى القاعدة بعد إتمام البناء . والأمر صعب الاكتشاف هو الطريقة التى رفعت بها الأحجار من مستوى الأرض إلى مواضعها الصحيحة . ويبدو أن الدليل الأثرى يشير إلى استخدام طرق صاعدة من الآجر تُمَدّ عند وضع كل مدماك جديد ، تُجَرُّ فوقها كتل الأحجار ، وقد يكون ذلك على زحافات . ومع ذلك فقد وُجد أن بناء مثل هذه الطرق الصاعدة يستغرق وقتاً طويلاً ومقداراً عظيماً من الجهد ، ولابد أن طريقة أخرى عملية أكثر من هذه قد استعملت فى بناء الطرق الصاعدة كالسقالات أمام سطوح الهرم . غير أن هذا التفسير المبنى على أسس نظرية ضعيف واهٍ ، إذ لا توجد أية آثار لهذه الطرق الصاعدة الجانبية (السقالات) ، بينما عثر على منحدرات طويلة فى ميدوم وفى اللشت .

عند تفسير العادات الجنائزية المصرية ، يتضح أنها كانت ذات أهمية دينية سحرية ، ومما لا شك فيه أن بناء المقابر الملكية على صورة هرمية لم يشذ عن هذه القاعدة . حقيقةً ، إن هذه الأهمية كانت عُرضة للتغير بتقدُّم الزمن ، إذا ما اندمجت فيها معتقدات

أخرى مغايرة لها . وفضلاً عن التعاويذ المكتوبة أو المتلوّة ، فإن السحر المصرى كان يعتمد كثيراً على الرمزية ؛ وهكذا تصبح المسألة ، معرفة أية معتقدات يمكن تقديمها رمزياً بواسطة الكوم ، والمصطبة ، والهرم المدرج ، والهرم الحقيقى . وليس من الصعب أن نتصور أن المصريين قد اعتقدوا أن الكوم ، رغم أنه استخدم لأسباب عملية فى نشأته ، يشبه التل الذى برز من المياه الأولية عندما جاءت الدنيا إلى حيز الوجود ، وبذا مَثَّلَ الوجود . ويمكن مقاومة الموت سحريًا بوجود هذا الرمز القوىّ . ولما كانت المصطبة (القبر) نسخة من البيت المعاصر ، فقد زودت صاحبها الميت بمسكن . وفى وقت مبكر من التاريخ اعتقد المصريون ، عندما استعملت الحفرة قبراً ،

وأقيمت فوقها المصطبة ، أن أرواح الموتى تعيش فى القبر وحوله . ومع ذلك فقد كانت هناك فكرة أخرى ترتبط بالملك ، يؤمن بها أنصار عبادة الشمس التى كان مركزها فى هليوبوليس ، على مسافة غير بعيدة من العاصمة فى منف . وتبعاً لعقيدتهم هذه ، يقضى الملك حياته الثانية ،

إما فى صحبة إله الشمس ، أو بصفته إله الشمس نفسه ، ولكن يجب عليه أن يصل أولاً إلى المنطقة الشمسية . ومن بين طرق الصعود العديدة المذكورة فى نصوص الأهرام ، تسلق سُلّم وأشعة الشمس . ولا شك أن الهرم المدرج الذى اخترعه إمحوتب (كاهن هليوبوليس) ، كان القصد منه تمثيل ذلك السلم . وليست أهمية الهرم الحقيقى واضحة هكذا مباشرة ، ولكن لا شك أنه يعكس منظر أشعة الشمس النازلة لتضىء الأرض خلال فرجة فى السحب .

فإذا ما كان فى حوزة الملك الميت أحد هذين النوعين من الأهرام ، استطاع أن يصعد إلى السماء ويعود ، تبعاً لمشيئته ، إلى قبره كى يتناول من تقدمات الأطعمة التى يضعها الكهنة يومياً فى المعبد الجنازى .

الأوانى Vases : نستطيع الحكم من واقع صور الأوانى التى فى القبور والمعابد ، ومن الأنواع الكثيرة المختلفة المصورة بالنقوش الهيروغليفية ، وبكمية المؤلفات العلمية التى دونت عليها القدور المكسورة أو السليمة المأخوذة من المدن والجبانات فى ترتيب تاريخى تبعاً لأنواعها ، بواسطة الخبراء ، بأن الأوانى المصرية القديمة كانت متعددة الأشكال وملائمة لشتى استعمالاتها فكانت تشمل « السلطانيات » والأطباق الكبيرة (القوارب) والكئوس وأطباق الحفلات الملكية والأباريق والقدور سواء أكانت للمطبخ أم لمخازن الأطعمة ، وأباريق اللبن ، وأباريق الجعة (البيرة) وأباريق النبيذ وقوارير الزيت وأنابيب الكحل

وأوانى المراهم و « برطمانات » دهون التجميل والزجاجة المسطحة القاع التى كانت تقدم هدية فى عيد رأس السنة .

ابتكر قدماء المصريين فى عصور ما قبل التاريخ عدة أشكال من الأوانى ، ولم يُشَكّلوا الفخار الرقيق فحسب ، بل واستخدموا طرقاً تبدو اليوم فوق ما يمكن

تصديقه ، ونحتوا الأوانى من الأحجار ، وسيطروا على أصلب المواد . ومنذ العصر الثنى ، صنعت أعداد متزايدة من الأوانى النحاسية الجميلة ، للنبلاء . ومع ذلك ، فبعد الدولة القديمة قلّت الأوانى المصنوعة من الأحجار الصلبة ، شيئاً فشيئاً ، وبقى الفخار المشَكّل صناعياً ، على مستوى متوسط (كانت الأفكار الجديدة قليلة والأشكال فاسدة) . ومن ناحية أخرى ظلت الأوانى المصنوعة من المرمر ومن الخزف ، من النوع الراقى ، وكانت تصدر منها كميات كبيرة إلى بلاطات الملوك الأجانب . وعلى العموم ، ظلت الأوانى الفخارية العادية — كالقدور المصنوعة من الطين غير المحروق جيداً ، التى تخزن فيها الحبوب والسوائل والبردى ، وتقفل وترص بجانب الجدران فى البيوت ، أو ترتب فى حوامل خاصة — تشكل فى أساسها جزءاً من أثاث البيوت . فكان الرجل يتحدث عن « قدره » قاصداً ممتلكاته . وهناك قطع مكسورة من هذه الأوانى تملأ جميع أكوام مصر .

استعملت المعابد للقرابين وللتطهير أوانى طقسية مصنوعة من المعدن النفيس تبعاً لمواصفات خاصة ونموذج معين .

وتشمل هذه الأوانى الأباريق والمباخر • والطاسات الصغيرة ● المستعملة فى سكائب الماء أو الخمر . وتوجد فى القبور نماذج من هذه الأوانى الطقسية مصنوعة من معادن أقل قيمة .

● و « القمقم » البرونزى المستعمل فى سكائب الماء واهبة الحياة يمثل نوعا خاصاً من أوانى الاحتفالات ، كثيراً ما وضع فى القبور الخاصة للحقبة المتأخرة . (لمعرفة الأوانى التى تحفظ فيها أحشاء المومياوات ، انظر القدور الكانوبية) .

الأوانى الكانوبية Canopic Jars : لسنا نعرف يقيناً لماذا أطلق الإغريق اسم أحد أبطالهم الأسطوريين ، كانوبوس ، ربان سفينة مينيلاوس ، على الثغر المصرى ، الذى اسمه باللغة القبطية « أبو قير » ، أو حرفياً « القديس كير » ! غير أن تمثال أوزيريس عُبد هناك فى عصور لاحقة ، فى صورة إناء له غطاء على هيئة رأس إله . فأوحت هذه العادة إلى قدامى علماء الآثار الأوربيين بأن يطلقوا اسم الأوانى الكانوبية على أوعية من الفخار لها غطاء بشكل رأس ، أخذت من القبور المصرية . والحقيقة أن هذه الأوانى الكانوبية كانت أوعية لحفظ أحشاء الميت عند نزعها ، من جوفه أثناء التحنيط . ويقوم على حمايتها أربعةٌ من الأرواح ، يُعرفون باسم أبناء حورس ، الذين يضمنون الوظائف الفعلية للكبد والرئتين والمعدة والأمعاء . ولذا كان هناك أربعة أوانى تتميز بشكل أغطيتها إذ صنع كل غطاء منها ليمثل أخا من الإخوة الأربعة وهم إمستى Amset ذو رأس الإنسان ، وحابى Hapi ذو رأس القرد ، دوا — موت — اف Duamutef ذو رأس الكلب ، قبح — سنو — اف Qebehsenuf ذو رأس الصقر . وقد

أعجب الذوق الحديث بهذه الجرار فاستعملها كأدوات للزينة دون الاهتمام باستعمالاتها التشريحية أو الدينية ، والحقيقة أن لهذه الجرار الجميلة هيئة طريفة .

أوزيريس Osiris : ربما كان أوزيريس هو الإله المعروف أكثر من جميع الآلهة المصرية . ويدين بشهرته بعض الشيء إلى بقاء عبادته نحو ألفى سنة ، وبناء على تلك الشهرة أقيمت معابده بطول شواطيء البحر واستمرت حتى ظهور المسيحية . وانتشرت على شواطيء البحر المتوسط كما ترجع أيضاً إلى الطابع الإنسانى الذى اتسمت به أسطورته ويختلف أوزيريس عن غيره من الأرباب المصريين الذين يجسدون قوى الطبيعة ويتمثلون فى هيئات نصف آدمية ونصف حيوانية . ويرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ ، ويحيرنا ظهورها . أما أوزيريس بالنسبة لنا ، فهو واحد من بين ظهرانينا ، عانى الخيانة والموت على الأرض ، وعاد إلى الحياة بوفاء زوجته إيزيس ، وبذا انتصر على الموت ، وربح للبشرية كلها حياة أبدية أكيدة .

قبل أن يصير أوزيريس إلهاً معروفاً فى مصر كلها ، كان ذا بداية متواضعة . كيف تصوره عبدته الأقدمون ؟ لا شك أنه كان الإله الممثل لخصب الأرض والنباتات . بيد أن هذه الصفة الأصلية — رغم كونها فرضاً بحتاً — سرعان ما اكتسبت صفات جديدة أخرى . وبينما انتشرت عبادة أوزيريس فى طول البلاد وعرضها ، ورث بالتدريج بعض وظائف الآلهة الذين طغى عليهم . فمثلاً ، نراه فى « أبو صير » ، حيث عرفناه أولاً ، قد حلّ محل إله أقدم منه بكثير ، هو عنجتى ، الذى يبدو أنه كان إلهاً ملكاً ، استعار منه أوزيريس بعض عناصر أسطورته التى مثلته كملك فى أقدم العصور . أما نزاعه مع رع إله هليوبوليس فأسفر عن ترضية بينهما وصار عضواً فى التاسوع العظيم ، وابن نوت وجب ، وشقيق إيزيس ونفتيس وست ؛ أما حورس الذى كان أصلاً الإله الصقر للسماء فاتخذ مظهراً آخر كابن أوزيريس وايزيس . وإن انتقاله إلى منف واندماجه فى سوكر ، أحد أعضاء القوى تحت الأرضية المتصلة بالإله بتاح ، ليؤكد أجزاء أسطورته الخاصة بحكمه لمصر ، ثم تحوله إلى رب للموتى .

ثم رُحِّب به فى أبيدوس حيث تفوق تماماً على خنتى إمنتيو ، إله الموتى والمقابر . وإذ صار هكذا إله الحياة الأخرى ، وضامن البعث للبشر ، مدَّ مملكته حتى شملت مصر كلها ، وبذا استأصل ديانة عبادة الشمس فيما يختص بالحياة بعد الموت . وفى نهاية الأسرة الخامسة ، كان الملك الميت أوزيريساً ، كما أصبح كل شخص يموت قبيل الدولة الوسطى ، أوزيريساً أيضاً .

وبعد أن كانت الرعية تتكاتف لاقتحام عالم السماء تحت قيادة الملك الراحل دون أن تستطيع أن تلج هذا العالم السماوى إلا بافتراض أن مصر الحية الممثلة فى الذات الجماعية لملكها — وهو افتراض يتسم بالإبهام وتذوب فيه الذات فى المجموع ، اتبع المصريون أوزيريس ، كأفراد ، إلى العالم السفلى ، الذى بات مفتوحاً أمام كل فرد .

حكم أوزيريس على الحياة بعد الموت بشخصيته المتعددة الوظائف ، التى نالها بانتصاراته الأرضية المتعاقبة . وفتح خلودُه وبعثُه المضمونُ بالتحنيط أمام البشرية أمَلَ الحياة الخالدة فى مملكة جديدة . غير أنه اتخذ صفات أخرى نتيجة لانتقاله إلى هليوبوليس . ظلّ أحدَ النجوم التى تضوء ليلاً ، فى السماء الجنوبية ، باسم أوريون . كما كان القمرَ أيضاً . وصار أوزيريس ، الذى نحى الشمس من معتقدات الحياة الأخرى ، أحد مظاهر الأساطير الشائعة فى ذلك الوقت ، وبات صورة لشمس الليل ، وهناك إشارة إلى تحوله إلى « روح مزدوجة » مع رع . أما إيزيس ونفتيس ، اللتان عملتا بمحبتهما على بعث الإله الميت ، فصارتا الربتين اللتين ترحبان بالشمس عند شروقها ، وذكر الأغريق ، الذين جمعوا آثاراً طفيفة حديثة جداً من هذه الأسطورة ، أن أوزيريس هو « الشمس » .

وإلى جانب الثوب الذى اخترعه علماء اللاهوت للتوفيق بين شتى مظاهر أوزيريس المتعاقبة ، التى اجتمعت دون حذف أىٍّ منها ، ذكرت الميثولوجيا الشعبية أسطورة أوزيرية ، غير كاملة ، بغير شك ، ولكنها أكثر تماسكاً . إنها أسطورة أوزيريس هذه

التى نُسِّقت فيها العناصر المتضاربة لشخصيته الإلهية ، والتى أخذناها عن الكُتّاب الإغريق ولاسيما عن پلوتارخ (إيزيس وأوزيريس) . لم تبق أية رواية مصرية كاملة ، غير أنه لدينا أدلة كافية متناثرة خلال الأدب الدينى والسحرى ، على صحة الرواية الإغريقية .

وإذ وُلد أوزيريس فى أيام النسىء الخمسة من السنة ، صار ملك العالم : « ما إن صار ملكاً ، حتى رفع الشعب المصرى من حالته البائسة البربرية ، وجعل ابناءه يعرفون ثمرات الأرض ، ومنحهم قوانين ، وعلّمهم أن يحترموا الآلهة . بعد ذلك زرع الأرض كلها لينشر فيها الحضارة » . ذكرت النصوص المصرية هذه المرحلة الأولية من مَلَكية أوزيريس دون أن تطيل فيها كثيراً . ذُكر أوزيريس ، وارث جب على العرش الأرضى ، وربما نشأ عن أحد ألقابه « الكائن الطيب « ون نفر » » ، الاعتقاد بأنه أعطى الحضارة للبشر . غير أن ست ، شقيق أوزيريس ، الذى سماه پلوطارخ تيفون ، غار من المحبة التى حظى بها أوزيريس ، « فجمع ٧٢ شريكاً ، وتوصل لمعرفة الطول المضبوط لجسم أوزيريس ، ثم صنع صندوقاً جميلاً يتوائم مع حجمه ، مزخرفاً أبدع زخرفة . وعمل ترتيبه على أن يؤتى بذلك الصندوق أثناء وليمة . فلما شاهد الزائرون الصندوق دُهشوا له وأُعجبوا به . عندئذٍ وعد تيفون ، وهو يضحك ، بأن يعطيه للشخص الذى يناسب طوله بالضبط عندما يرقد فيه .

شرع جميع المتآمرين يجربون الصندوق واحداً بعد آخر ، ولكنه لم يكن بطول أى منهم . وأخيراً رقد فيه أوزيريس . وعندئذٍ اندفع كل المتآمرين وأغلقوا غطاء الصندوق ، فثبّته بعضهم من الخارج بالمسامير ، وأحكم إغلاقه آخرون بالرصاص المنصهر . ولما انتهت هذه العملية وُضع الصندوق فى النهر فحمله

التيار إلى البحر . توجد فى الوثائق المصرية روايات قليلة نادرة مماثلة لهذه القصة . وأحياناً يُذكر الصندوق ، وكثيراً ما يُذكر إغراق أوزيريس فى النيل .

يأتى « البحث عن أوزيريس » عند هذا الموضع من الأسطورة . وتبعاً للمصادر المصرية ، وجدت إيزيس ونفتيس جثة ذلك الإله على شاطىء نديت Nedit حيث مات . ولكن إلى جانب عبادة رفاته ، التى نمت فى العصور الأخيرة (زهت كل مدينة مقدسة بأنها تملك جزءاً من الجثة الإلهية) ، ثم أخذت أسطورة أكثر تعقيداً من هذه تنتشر ، وهى تمزيق أوصال أوزيريس بواسطة ست . وتبعاً لهذه الرواية ، وجدت إيزيس جثة زوجها عند ميناء بيبلوس اللبنانى ، بعد عدة مغامرات ، فأعادتها إلى مصر . بيد أن ست لما اكتشف المخبأ الذى وضعت فيه إيزيس جثة أوزيريس ، قطع الجثة إرباً وبعثرها فى جميع أنحاء مصر .

فاستأنفت بحثها مرة أخرى ، ودفنت كل جزء حيث وجدته . وأحياناً يُعزى بعثه إلى الحياة من جديد ، فى النصوص الأدبية المتأخرة ، إلى أمه نوت ، وأحياناً أخرى إلى عطف رع ، الذى أرسل الإله تحوت ، وساعده بتعاويذه ، كما يعزى أيضاً إلى أعمال أنوبيس الطيّبة « سمعنا عن حزن إيزيس ونفتيس وصراخهما الشديد ترجوان الإله أن يعود إلى الأرض » . وهناك مناظر تمثل هاتين الربتين وهما ترفرفان بأجنحتهما الضخمة فوق مسند رأس ذلك الإله الميت كى تعيدا إليه أنفاس الحياة . ونعلم كذلك أن إيزيس ولدت ابناً من زوجها الميت وخبأت هذا الطفل المولود بعد وفاة والده ، لمدة طويلة ، فى مستنقعات خميس Chemmis ، كيلا يكتشف ست هذا الطفل (حورس) ثم تروى القصص والنصوص الدينية خبر مجىء هذا الطفل المنتقم لوالده ، الذى هاجم ست ، وأخيراً تروى حكم الآلهة الذين قسّموا الكون بين حورس وست .

مُثلت عدة أحداث من أسطورة أوزيريس سنوياً فى العيد بمدينة أبيدوس : ظهور ذلك الإله فى سفينته ، ومجيئه مع الكلب ويواووت لينكل بأعدائه ؛ ثم موت ذلك الإله ودفنه فى مكان يسمى او- بكير Upeqer ، والموقعة الكبرى فوق الشاطىء عند نديت ، حيث ماتت إيزيس ، والانتقام من الأعداء . ويناظر هذه الأعمال التمثيلية التى كانوا يقومون بها وسط حشد عظيم من الناس ، احتفالات سرية أخرى ، إذ يقومون بتمثيل أسرار عبادته فى بعض حجرات سرية بالمعابد . ولكنهم لم يمثلوا كثيراً تلك المظاهر البشرية من أسطورة أوزيريس ، لأن وظيفته الأصلية هى إله الأرض ورب الزروع .

كان ذلك يتم فى الشهر الرابع من السنة المصرية عندما تنحسر مياه الفيضان وتكون الحقول مُعَدَّةً للبَذْر . فكانوا يصنعون تماثيل صغيرة من الطين الرطب على هيئة أوزيريس ، تُخلط فيها الحبوب بالطين ، ويضعونها على فراش . فلا تمر بضعة أيام حتى تنبت البذور وتخرج حديقة على صورة الأرض التى أعطتها الحياة . هذه هى تماثيل « أوزيريس الحبوب » التى صُوِّرت خضراء

يانعة فى النصوص ؛ إنها الحدائق الإلهية التى وُجدت أحياناً ذابلة فى مقابر طيبة . وكما حدث لذلك الإله ، يحدث لأرض مصر ، التى بعد موتها محترقة بشمس الصيف ، تولد من جديد عندما تنخفض المياه وتوهب حياة جديدة . فهل يعرف المصريون الذين يستنبتون بذور العدس فوق القطن المندى بالماء اليوم فى بعض الأعياد الدينية ، أنهم إنما يقومون بإحياء عادة قديمة ؟

وهكذا عندما ننظر إلى تمثال أوزيريس مكفنا فى ثوب محكم الالتصاق بجسمه ، وقد ضم ذراعيه فوق صدره وأمسك بصولجان ومذبة حبوب ، ويلبس التاج الأبيض تعلوه ريشتان كبيرتان ، نجد أمامنا صورة مزدوجة . احداهما بشرية جداً وقريبة من فهمنا ، ترينا شخصاً طيباً قاسى تجربة الموت وانتصر عليه ، جالباً الخلاص للبشر فى نفس الوقت . أما الصورة الأخرى فأكثر بدائية ، ولكنها لا تقل عن الأولى أهمية ، وهى صورة كائن إلهى يجسد أرض مصر وزروعها التى تتلفها الشمس والتحاريق كل عام ، ثم تولد من جديد فى نفس المواعيد من كل سنة .

الاوستراكا Ostraca هى خامة رخيصة للكتابة وللرسم ، فقد جمع قدماء المصريين كسر من الحجر الجيرى من سفوح الجبال ، كما جمعوا قطعاً من الفخار المحروق (الشقافة) من أكوام المخلفات واستخدمها الفقراء بدلاً من أورق البردى . ويرجع استعمالها إلى عصر الدولة القديمة واستمر حتى العهد الاسلامى ، وقد وُجدت آلاف القطع من الاوستراكا فى طيبة الغربية بالذات ، ويرجع تاريخها إلى عصر الأسرات ١٨ — ٢٠ . وهى مكتوبة بالهيراطيقية العادية وتضم حسابات وخطابات وقوائم عمال وكل شىء يتعلق بالحياة اليومية والأعمال العادية . كما وُجدت أيضاً نُسخ من المؤلفات الأدبية من أنواع شتى ، ما بين حكم قديمة ، إلى أشعار غرامية . وعلى العموم كانت الكتابات التى على هذه الألواح تمرينات مدرسية . كذلك كان الفنانون المقيدون بقواعد دقيقة ، عندما يعملون فى زخرفة المقابر بوادى الملوك ، يطلقون العنان لخيالهم وأقلامهم على قطع « الشقافة » هذه ، التى نرى فيها فناً حيوياً يجمع بين طرز مختلفة

أونوريس (انحور) Onuris : المعنى الحرفى لهذه الكلمة هو « ذلك الذى أعاد الشخص الذى كان بعيداً أو مُرجع البعيدة » . غضبت الربة « عين الشمس » فحولت نفسها إلى لبؤة وهربت إلى بلاد النوبة ، فنجح أونوريس فى استرضائها وإرجاعها . كان لهذا الرب المحارب الذى يصور واضعاً رياشاً عالية فى رأسه ، ويسحب حبلاً متدلياً من السماء ، معبدان ، أحدهما فى ثنى (طينة) والآخر فى سمنود ، وأسطورته المحلية ذات علة روايات متباينة . فيقول بعضها إن أونوريس هو تحوت Thoth رب الحكمة ، وإن الربة الغاضبة هى حتحور ، أو إن المطارِد هو شو Shu ابن رع وإن اللبؤة هى تفنوت .

إيجة (بحر) : احتفظت مصر طوال الألف سنة الثانية بعلاقاتها مع كريت (أو كفتيو Keftiu) ، وبعد ذلك بجملة مع الجزر « الموجودة فى ذلك البحر » — أى العالم الأيجىّ . وتضم مقابر الدولة الحديثة كثيراً من نقوش سكان بحر إيجة وهم يحضرون الجزية إلى مصر من الفضة بكميات مدهشة ، ومن الذهب ومن الأحجار الكريمة والنحاس والبرونز والعاج ، وقبل كل شىء من الأوانى المعدنية النفيسة المختلفة الأشكال والدقيقة الصنع .

يبدو أن العلاقة بين سكان بحر إيجة والمصريين ، التى ربما تكون قد بدأت فى موانىء سورية والشرق الأدنى ، كانت دائماً علاقات ودية ولقد دخل النفوذ الأيجى فى الفن المصرى إبان الأسرة الثامنة عشرة .

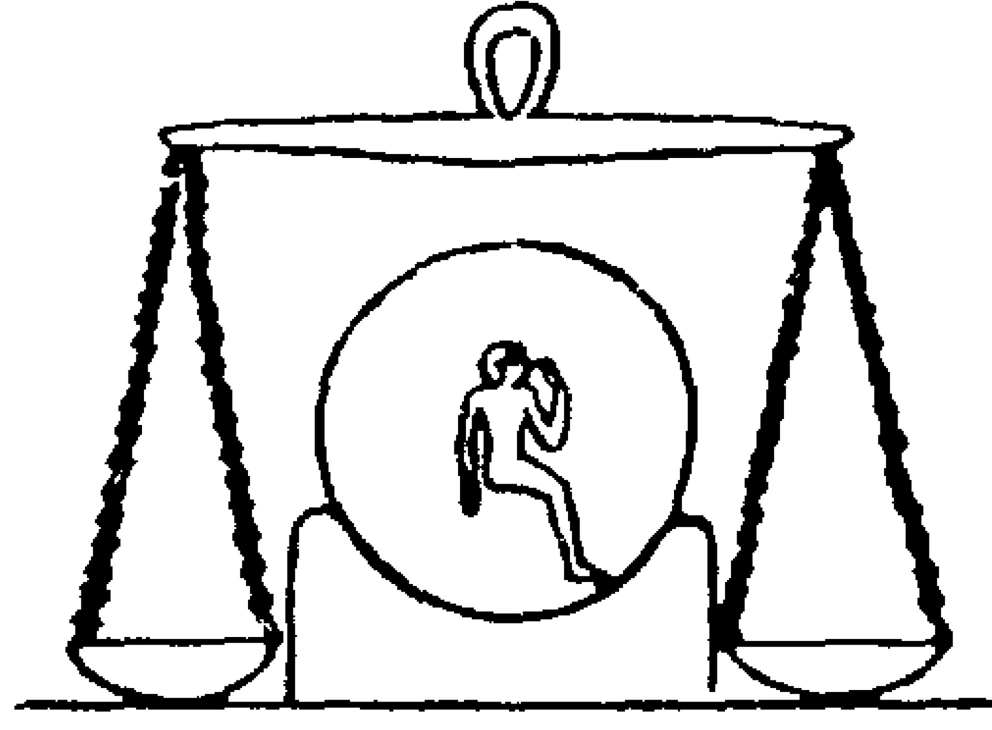
ويبدو أن أنماطاً معينة من الأوانى ، وطريقة خاصة من تطريز الأقمشة وصباغتها ، وزخرفة سقوف المقابر ، كانت بها عناصر مستمدة من الفن الإيجىّ .

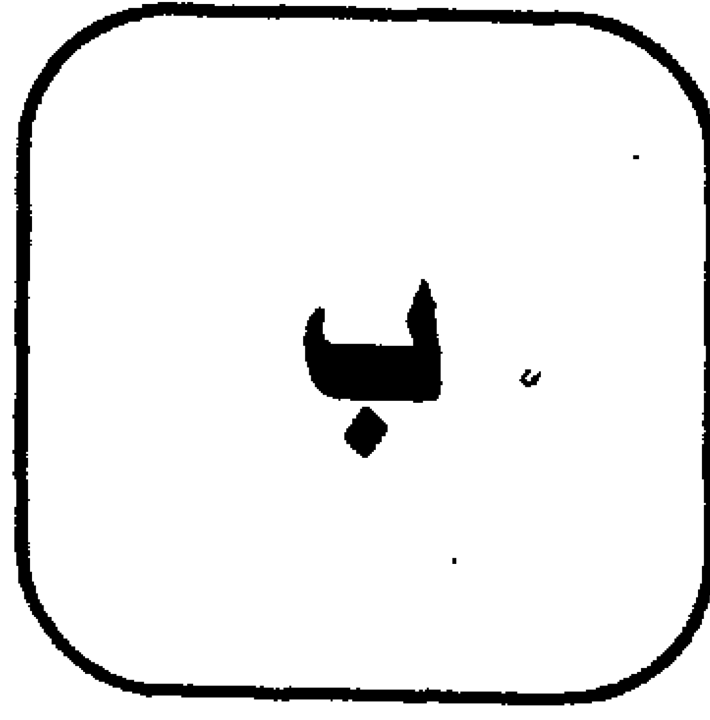
إيزيس Isis : صارت إيزيس شخصية بارزة فى مجموعة الآلهة المصرية ، بسبب أسطورة أوزيريس . كانت إيزيس شقيقة ذلك الإله وزوجته . واستعادت جثته بعد أن قتله ست . وبمساعدة نفتيس وتحوت ، أعادت إليه أنفاسه بحركة جناحيها . بعد رحيل أوزيريس إلى حياة جديدة محدودة فى العالم الآخر ، ربّت ابنها حورس الذى أنجبته من زوجها الراحل أوزيريس ، فى أجمة مستنقعات خيميس Chemmis بالدلتا . كانت إيزيس أشهر الربات المصريات جميعاً . كانت مثال الزوجة الوفية حتى بعد وفاة زوجها ، والأم المخلصة لأولادها — والواقع أنها اتصفت بكل ما أكسبها كثيراً من الأتباع . وإن قوتها السحرية ، ولاسيما فى العناية بالأطفال ، لكافية وحدها لأن تزيد فى عدد المتبتلين إليها . وتروى مخطوطات البردى ، كيف عَرَفَت إيزيس ، بالحيلة ، اسم أعظم الآلهة ، ذلك الذى منحها قوة غير محدودة على العالم .

لا نعرف شيئاً عن منشأ إيزيس ، ولو أن هذا قد يبدو غريباً . عُبدت فى الحقبة المتأخرة ، فى عدة أماكن بجميع جهات مصر ، من إيسيوم Iseum بالدلتا ، إلى قفط وجزيرة فيلة ، حيث بُنى خير معابدها ، المتبقية . ولكننا لا نعرف فى أى بلد بدأت عبادتها . لا شك أنها جاءت من الدلتا ، وربما كانت أولاً ربة العرش الملكىّ . ويفسر مثل هذا المنشأ اسمها الذى يلوح أنه يعنى « مقعد » . بيد أن هذه نظرية فحسب . لا شىء فى شخصية إيزيس فى العصور التاريخية يدل على هذا الدور القديم غير الأكيد .

امتدت عبادة إيزيس فى عهد البطالمة والرومان ، إلى ما بعد حدود مصر ، وكان لها معابدها وكهنتها ، وأعيادها وأسرارها الدينية فى كافة جهات العالم الرومانى حيث صارت تمثل الربة العامة للكون كله . « أنا أم الطبيعة كلها ، وسيلة جميع العناصر ، ومنشأ

الزمن وأصله ، زالربة العليا ، وملكة الأشباح ، وأولى سكان السماء ، والنموذج العام لجميع الآلهة والربات . أحكم ذرا السماء ونسمات البحر الخيرة ، وسكون الجحيم المقفر ؛ وأسيرهم كيفما أشاء » . « أنا القوة الوحيدة ، يعبدنى العالم كله بأشكال مختلفة كثيرة وبطقوس متنوعة وبعدة أسماء فيسميني البعض « جونو Juno » ، وآخرون « بيلونا Belona » ، وغيرهم « هيكاتى Hecate » ، وأقوام أخرى « رامنوسيا Rhamnusia » . أما شعوب المملكتين الإثيوبية والمصرية ، ذوو الثقافة العريقة البالغة ، فيبجلوننى بعبادتى الحقيقية ، ويسموننى باسمى الحقيقى وهو « الملكة إيزيس » » .





(باستيت) Bastet : (انظر القط).

بتاح Ptah : هو إله مدينة منف صُوِّر فى هيئة إنسان ملتف بثوب محكم الالتفاف بجسمه كما هى الحال فى المومياء. وجعلته

أسطورة مدينته خالقَ العالم الذى وضع فى العالم أشكالاً مرئية، بواسطة قلبه (= فكر) ولسانه (= الخَلْق بالنطق). وجعلته الخطوط السياسية لمدينة منف أحد حُماة المَلَكية، والإله المشرف على الأعياد التذكارية. ونسبت إليه احدى الأساطير القديمة اختراع الصناعات فصار الصناع تحت حمايته. وكان كاهنه الأعظم يحمل لقب «سيد أساتذة الصناع». ومثّل الإغريق بتاح بهيفايستوس Hephaistos.

وإذ انتحل بتاح شخصية الإله الجنائزى سوكر (ثم شخصية أوزيريس عن طريق سكر)، صار عضواً فى أسرة إلهية تتألف من زوجته الربة سخمت، التى كانت جارته، وابنهما نفر توم Nefer - Atum، اللوتس المعطر.

البحيرة المقدسة Sacred Lake :

لما كانت الشمس قد بزغت من المياه الأولية عند بدء الزمن، كان بكل معبد بحيرة مقدسة ظلت مياهها الراكدة محتفظة بقواها الكامنة. كان فعل الخليقة يتجدد كل صباح فى تلك البحيرة. وقد كشفت الحفائر عن كثير من هذه البحيرات المقدسة، منها ما كان فى الكرنك ودندرة والطور وميدامود وتانيس. وكان الكهنة يتطهرون كل يوم عند الفجر فى البحيرة المقدسة قبل بدء الشعائر الدينية. كما كانت تقام بعض الأسرار المقدسة الليلية على ضفاف تلك البحيرات، ومن أمثلة هذه الأسرار، بعْث أوزيريس فى سايس.

وكانت البحيرات المقدسة إما مستطيلة الشكل أو مدورة قليلاً عند الأطراف. وبطنها المصريون بالحجر وجعلوا لها سلماً يستند إلى سورها للوصول به إلى مستوى سطح الماء الذى كان يتغير بتغير أوقات السنة.

بحيرة مورس Lake Moeris :

انظر الفيوم، وأمنمحات الثالث.

البردى Papyrus : نرى هذه الكلمة فى كل صفحة من صفحات هذا المعجم مستعملة فى ثلاثة معان مختلفة : فتكون أحياناً بمعنى نبات طويل من العائلة الخيمية Cyperus Papyrus ، وأحياناً أخرى بمعنى مادة للكتابة (هى أوراق البردى) . وقد اشتقت كلمة Paper الإنجليزية من اللفظ الإغريقى Papyros ، الذى يُعتقد أنه مشتق بدوره من اللفظ المصرى القديم Papuro ، ومعناه « الملكىّ » (إذ كان صنع الورق احتكاراً ملكيًّا) . وأخيراً ، عندما تذكر مثلاً بردية أنستاسى ، Papyrus Anastasi ، يكون معناها المخطوط رقم ١ فى مجموعة الأستاذ أنستاسي القديمة ، التى حظى بها المتحف البريطانى ، وهو أول متحف يجمع مخطوطات البردى . وكلمة « Payrus » معناها « كتاب » ، أى مجلد ملىء بالكتابة .

فى أراضى المستنقعات الفسيحة فى مصر القديمة ، وخصوصاً فى الدلتا (أرض البردى) تعمقت جذور نبات البردى فى الطين ، وامتدت سيقانه إلى أعلى (ذات مقطع مثلث الشكل) ، وكذلك أزهاره الخيمية الشكل ، إلى ارتفاع بالغ (٦ أمتار) ونشر أحراشه الكثيفة . وفى الرسوم المصورة على المصاطب ، ومع مراعاة أن الفنانين قد بالغوا فى أحجام أصحابها وهم يقودون جماعات لصيد أفراس النهر ، فإننا نرى حجم الإنسان فيها قزماً بالنسبة إلى تلك الأحراش . ملأ ذلك النبات مساحة كبيرة من الوادى عند ظهور أرض مصر .

فصار البردى رمز الدنيا وهى تتأهب للميلاد . واستعملت الأعمدة ، ذات الزخارف المأخوذة من صور أزهار البردى وأعواده ، دعامات فى المعابد

وهى منظر تجدُّد ولادة الكون كل يوم . ولما كان دائم الخضرة وحوليًّا ، ورمز « الفرح » و « الشباب » (= « أخضر » فى النقوش الهيروغليفية) ، صار صولجانَ الربات السحريّ . واستُخدم فى عمل الباقات الفاخرة ، ورموز النصر والفرح ، التى كانوا يقدمونها للآلهة وللموتى

استمر البردى ، ذلك النبات الموجود منذ العصور الأولية يستر عالماً غريباً . فتشابكت سيقانه الطويلة المستقيمة وأعواده الغضة وأزهاره فى أحراش ظليلة حيث اختبأت إيزيس وابنها ، وحيث تسعى الزواحف وصغار الحيوانات ، والحشرات جيئة وذهابا (انظر الحيوان والنبات) . وكانت الطيور تحلق فوق تلك الأحراش وتدب الماشية فوق ممراتها . وتُوِّجت التماثيل المقدسة بالبردى إلا قلة قليلة منها ، وكذلك الآلهة لم يوضع منها « فوق زهرة بردى » غير القليل (مثل الكوبرا واجيت ، والصقر حورس) . ولما كانت زهرة البردى نوعاً غريباً من الأقراص يشبه قرص الشمس ، صورت أحياناً بين قرنى البقرة حتحور ، أمّ الشمس .

انتقلت زراعة البردى ، فى العصور القديمة ، إلى صقلية وفلسطين ، وظل ذلك النبات ينمو هناك . ولايزال من السهل أن

تتوه فى أحراش البردى العديدة ببحر الغزال . أما فى مصر ، فللأسف ، أدى غمر الأراضى بالطمى سنة وراء أخرى ، ولاسيما المستنقعات ، وفلاحة الأرض ، إلى اختفاء البردى ، الذى كان مقدساً منذ العصور الأولى .

جدَّ العمال أولاً فى قطع أعواد البردى عوداً عوداً ، فى الأحراش والحقول المزروعة ، وحزموها حزماً ثقيلة حملوها إلى المصانع . ولقد استُعمل ذلك النبات القيم فى كل غرض . فربطت حزم السيقان

واحدة إلى أخرى وصنعت منها القوارب . واعتُبرت قاعدة السيقان من الأطعمة الحلوة التى يقبل الناس على مصها (كالقصب) . كما صنعت منه الحبال وأشرعة السفن والحصير والسلال والأحذية وثياب الطبقات الفقيرة . وأهم من هذا وذاك ، صنع من نخاعه الليفى ورق أبيض لدن لا يمتص الرطوبة ولا يَصْفَرُّ إلا قليلاً بمرور الزمن ، منذ عصور ما قبل الأسرات . وأثبت علماء

البردى أن ورق البردى كان يُصنع بالطريقة الآتية : تقطع الساق طولياً إلى جزءين يحددان ارتفاع الصفحة (وهذا يختلف باختلاف العصور) ، الذى لا يزيد على ٤٧ سم . فيُشق النخاع بسكين ويُلَقُّ بدقة . وترص الشرائح التى يُحصل عليها بتلك الطريقة ، جنباً إلى جنب فى طبقتين ، واحدة فوق أخرى وعمودية عليها . وتُنَدَّى الطبقتان أحياناً بالماء ، وتُدَقان معاً لمدة طويلة وبشدة (وكان من عقوبات الجيش أن « يُضرب الجندى كالبردى ») . بعد ذلك تلصق الأطراف الطويلة للصفحات

معا . وتتكون اللفافة النموذجية من ٢٠ صفحة . وبطبيعة الحال ، كان بالإمكان لصق عدة لفافات معاً (أطول لفافة عرفت يبلغ طولها ٤٠ م) ؛ ويمكن أن يضاف إليها عدة صفحات ملحقة ، أو تُقطع اللفافة طولياً أو عرضياً تبعاً للشكل المطلوب لنوع العمل . وتُلف الشريحة الناتجة بهذه الطريقة بحيث تكون الألياف الأفقية إلى الداخل — وهى التى يمكن الكتابة عليها أولاً . وهكذا

تغدو لفافة البردى مُعَدَّةً للاستعمال . يتربع الكاتب ويكتب على أوراق البردى ، الأوامر والتقارير والحسابات ، بالهيراطيقية أو بالديموطيقية (وهذه هى مخطوطات البردى الديوانية أو الإدارية) . كما يسجل العالم

مؤلفاته عليها (مخطوطات البردى الطبية والرياضية) ؛ ويرسم الفنانون عليها تصميمات رسومهم المقدسة لزخرفة المعابد والقبور . وهكذا كان ورق البردى هو

الوسيلة التى نقل بها الأدباء مؤلفاتهم إلى الأجيال اللاحقة (مخطوطات البردى الأدبية) ؛ والتى أمدَّ بها النساخ الكهنة ، فى « بيوت الحياة » ، بالنصوص الجنائزية .

صدَّرَ قدماء المصريين هذه اللفافات الجميلة ، فسجَّلَ عليها الأجانب فى بلاد الإغريق وفلسطين ، أفكارهم وتأملاتهم الشهيرة . وهكذا ، لولا المصريون وعبقريتهم ما صار بالإمكان نقل التراث الكلاسيكى بمثل هذه السهولة .

البريد : لا تذكر النصوص القديمة إلا المعلومات القليلة عن الوسيلة التى كان

قدماء المصريين ينقلون بها خطاباتهم . ولولا مصادفة العثور على صورة شعرية سجلت نظاماً للخدمة البريدية فى الدولة الحديثة ، لما عرفنا عنه شيئاً .

« آه لو تحضر بسرعة إلى حبيبتك ــ كالرسول الملكى ــ الذى ينتظر سيده الرسالة بصبر فارغ ــ إذ يتلهف قلبه لسماعها . أعدت له الخيل المسرجة فى حظائر كاملة . وتنتظره الجياد عند المراحل ــ والعربة ذات الخيول واقفة فى موضعها ــ لا يرتاح رسول البريد فى رحلته . وعندما يصل إلى بيت الحبيبة ، يقفز قلبه من شدة الفرح » .

كان على أفراد الشعب العاديين أن يقنعوا بالرسل العاديين فى نقل رسائلهم و كان بوسعهم ، على الأقل ، أن يعهدوا برسائلهم إلى المسافرين . ولكى يتراسل

الكهنة مع السماء ، تخيلوا أنهم يستطيعون استخدام الطيور . وكانوا يعلنون نبوأ ملك جديد للعرش بإطلاق أربع إوزات بريات إلى أركان السماء الأربعة . « أسرعن صوب الجنوب ، واخبرن آلهة الجنوب بأن الفرعون « س » قد أخذ التاج المزدوج » . كانوا يكررون هذه الصيغة لكل من الجهات الأصلية . وكان يحدث مثل هذا الاحتفال فى بعض الأعياد الدينية ، وفى بعض الأحيان كانوا يربطون رسالة مكتوبة فى عنق طائر .

بس Bes : إله منزلى مشوه الخلقة ، غزير الشعر ، مقطب الأسارير ، يلبس باروكة من الريش وجلد أسد ويخرج لسانه من فمه . وكانت وظيفته حماية الناس من قوى الشرّ والزواحف والكائنات المؤذية .

وكانت منظره المضحك يُدخل السرور على قلب كل فرد . وكانوا يصورونه على اللوحات الحجرية والأوانى والتمائم السحرية ، وأحياناً على الآثار ، كالمعابد .

وعلى تيجان أعمدة الماميزى (أى بيت الولادة) إنه أحد الجن الخيّرة ، يقى النساء فى ساعة الولادة من كل ما يسبب لهن الأذى .

بسمتك Psammetichus : كان بالأسرة السادسة والعشرين ثلاثة ملوك بنفس هذا الاسم .

بسمتك الأول Psammetichus I : حكم مدة ٥٤ سنة (من سنه ٦٦٤ — ٦١٠ ق.م.) ، كان عليه فى بداية حكمه أن يتخلص من حكام الأقاليم الآخرين فى الدلتا ، فقاتلهم فى معركة وصفها هيرودت بطريقة شعبية غريبة . فألغى الحملة الأشورية وطرد الإثيوبيين من مصر العليا . ولكى يدعم النصر ويؤكده ، جندّ الجنود المرتزقة من الإغريق والكاريين ، الذين احتلوا ، منذ ذلك الوقت ، مكانة هامة فى مصر . وما إن اتحدت البلاد حتى أعاد بسمتك نظامها ورخاءها وقوتها . ثم خلفه ابنه نكاو الثانى .

بسمتك الثانى Psammetichus II : ابن نكاو الثانى (من سنة ٥٩٥ —

٥٨٩ ق.م.) أرسل جيشاً لمحاربة إثيوبيا، فاخترقها حتى وصل إلى قلبها. وفى الطريق إلى هناك، ترك جنوده الإغريق والكاريون والفينيقيون نقشاً على حوائط معبد أبى سنبل ببلاد النوبة.

بسمتك الثالث Psammetichus III: ابن أمازيس (أحمس الثانى) وآخر فرعون فى الأسرة السادسة والعشرين، لم يستمر حكمه سوى ستة شهور فحسب. فلما فتح الملك الفارسى قمبيز مصر قتله فى سنة ٥٢٥ ق.م.

بسوسينيس Psusennes: هو ملك غامض التاريخ، من ملوك الأسرة الحادية والعشرين (أسرة ملوك تانيس)، حكم الدلتا بينما كانت مصر العليا، التى هى جزء من مملكته نظرياً، تخضع لحكم الكاهن الأعلى لأمون (حوالى سنة ١٠٥٠ ق.م.). وما كنا لنعرف شيئاً عن الملك بسوسينيس، الذى قلما عرفه علماء الآثار المصرية أنفسهم، وما كان له أن يحظى بشهرته لو لم يكتشف بيير مونتيه Pierre Montet قبره فى مدينة تانيس سنة ١٩٤٠. دُفن بقبره أربعة أشخاص وُجدوا دون أن تمتد إليهم يد، وهم: بسوسينيس نفسه؛ وأحد قواده؛ وملك آخر يدعى أمن ـ إم ـ ابت Amenemapet، من ملوك الأسرة الحادية عشرة؛ أحد ملوك الأسرة الثانية والعشرين. وحظى متحف القاهرة بأثاث هؤلاء الفخم النفيس، ويتضمن توابيت من الفضة، وأقنعة ذهبية، ومجوهرات وآنية مقدسة تتجلى فيها براعة صائغى الذهب المصريين. وإذا قارنّا بين هذه الكنوز وكنوز توت عنخ أمون، نجد أن كنوز بسوسينيس تفوق هذه الأخيرة، على الأقل، فى وجهة واحدة. إذ نشر من قام بالحفر تقريراً كاملاً بعمله. وجدير بالذكر أن هؤلاء المدفونين لم ينزلوا نقمتهم على المكتشفين الذين قضوا مضاجعهم بعد طول سبات وهتكوا سرهم المكنون خلال تلك القرون. وزيادة على ذلك، فقد كان هؤلاء العظام أربعة، بينما كان توت عنخ أمون، الذى لم يحالفه الحظ فى حياته، فرداً واحداً.

بطلميوس Ptolemy: فيما بين سنة ٣٠٤ ق.م.، وهذا هو تاريخ اعتلاء بطلميوس الأول العرش، وسنة ٣٠ ق.م.، تاريخ الغزو الرومانى، احتل خمسة عشر ملكاً ـ اسم كل منهم بطلميوس ـ عرش مصر. كان كثير منهم يتمتعون بملكة النظام، فرضوا على مصر نظاماً ضرائبياً واقتصادياً جديداً، وجعلوا الإسكندرية العاصمة الثقافية، والمدينة التجارية العظمى لشرق البحر المتوسط. فى خلال مدة الثلاثة القرون هذه، جُددت المعابد المصرية العظمى بحجم أكبر، أو أعيد بناؤها من جديد. ومن أشهر أمثلة المعابد الباقية: إدفو وفيله وإسنا وكوم امبو ودندرة. وقلما كانت هناك أية مدينة هامة لم تُستبدل معابدها العتيقة بأخرى حديثة. ورغم هذا الرخاء الظاهر، قاست مصر الضائقة إبان حكم هؤلاء الفراعنة الأجانب، وحدثت فتنتان فى منطقة طيبة (فى سنة ٢٠٨ — ١٨٦ ق.م.، وفى سنة ٨٨ — ٨٦ ق.م.).

بطلميوس الأول سوتير Ptolemy I Soter : (من سنة ٣٠٤ — ٢٨٢ ق.م.) . أعاد تنظيم إدارة المملكة ، وأدخل عبادة سيرابيس Serapis ، وأسس مدينة بطلمية Ptolemais ، بالصعيد .

بطلميوس الثانى فيلادلفوس Ptolemy II Philadelphus (٢٨٢ — ٢٤٦ ق.م.) : ابنه ، نفَّذ نظاماً صارماً من الإدارة المالية ، أسس مستعمرات زراعية إغريقية فى الفيوم ، وأدخل عبادة الأسرات . ويرجع تاريخ أشهر المبانى بالإسكندرية إلى عصره ، ومن بينها فاروس Pharos ومتحف الإسكندرية ومكتبتها . وأعاد فتح الطريق المائى بين القاهرة والبحر الأحمر . وتبعاً للأساطير القديمة ، ترجم التوراة الترجمة السبعينية إلى الإغريقية (بواسطة ٧٠ مترجماً) فى عهده .

بطلميوس الثالث يورجيتيس Ptolemy III Eurgetes : (٢٤٦ — ٢٢١ ق.م.) ، وبطلميوس الرابع فيلو پاتور Philopator (٢٢١ — ٢٠٥ ق.م.) : الأول ابن بطلميوس الثانى ، والآخر حفيده . أحرز كل منهما نجاحاً دبلوماسياً وحربياً فى قورينيئة (ليبيا) وفى سوريا (الانتصار فى رفح على أنتيوخوس الثالث فى سنة ٢١٧ ق.م.) ، وحدث تمرد فى طيبة فى مدة حكمه .

بطلميوس الخامس إيفانيس Ptolemy Epiphanes : (٢٠٥ — ١٨٠ ق.م.) ، وقبض على زمام الحكم ثانية فى سنة ١٨٧ — ١٨٦ ق.م. لم يستطع الاحتفاظ بالممتلكات الأجنبية فى آسيا الصغرى وفلسطين وبحر إيجة .

ومن بطلميوس السادس فيلو ميتور Philometor (١٨٠ — ١٤٥ ق.م.) إلى بطلميوس العاشر ، الإسكندر الأول (٨٨ — ٨٠ ق.م.) مزّقت الشقاقات الأخوية مصر . فحارب فيلوميتور ضد أخيه بطلميوس الثامن ، يورجيتيس الثانى (١٧٠ — ١٦٤ ق.م. ، ثم ١٦٤ — ١٦٣ ق.م. ، ومن سنة ١٤٥ — ١١٦ ق.م.) الذى قتل ابن أخيه بطلميوس السابع نيوس فيلوپاتور Neos Philopator (١٤٥ — ١٤٤ ق.م.) ، وشُغل ولداه بطلميوس التاسع ، سوتير الثانى وبطلميوس العاشر ، الإسكندر الأول ، بين عامى ١١٦ ، ١١٠ ق.م. فى عراك الحق بملكهما خراب متبادل . وواجه خليفتاهما ، بطلميوس الحادى عشر ، الإسكندر الثانى (٨٨ — ٨٠ ق.م.) وبطلميوس الثانى عشر ، نيوس ديونيسيوس (أوليتيس Auletes) ، أحياناً انتفاضات الأسكندريين ، وأصيبا منها بنتائج مفجعة . وقع بطلميوس الثالث عشر (٥١ — ٤٧ ق.م.) وبطلميوس الرابع عشر (٤٧ — ٤٤ ق.م.) ، شقيقاً وزوجا كليو پاترة العظمى ، فريسةً ليوليوس قيصر Julius Caesar ، وفريسة لشقيقتيهما على الترتيب . أما بطلميوس الخامس عشر ، قيصرون Caesarion ، ذلك الطفل المولود نتيجة حُبٌ بين قيصر وكليو پاترة ، فقُتل بأمر من أوكتافيان Octavian ، فى سنة ٣٠ ق.م. (انظر الرومان) .

البقرة : (انظر الماشية ، وحتحور) .

البلاغة Rhetoric : يقول أدب الحكمة ، يجب أن يكون الرجل الصامت قدوة لكل مصرى كريم المحتد . ولكن كيف تستطيع حضارةٌ وليدة الاتصال بين العالم الأفريقى وعالم البحر المتوسط أن تتجاهل البلاغة والاسراف فى المجاملة ؟ ومنذ عصر الأهرام اتجه المصريون إلى تنميق عباراتهم وإلى التلاعب بالألفاظ فى النصوص ذات الطابع الأدبى . ومما قالوه : « إذا قابلتَ رجلاً يعادلك فى المجادلة فدَعْ مهارتك تتغلب عليه » . يبدو أنه ليس من الضرورى أن ينال المرء مقعداً فى المجالس لكى ينتفع من قوة الكلام . فلقد ترافع قروى متواضع بنفسه فى قضيته بألفاظ جيدة الاختيار حتى أن الملك أمر القاضى بمدّ الإجراءات وتسجيل مرافعة ذلك الرجل .

ولكن الشكايات التسع التى يقال إن ذلك الرجل القروى ، الذى هو أحد رعايا طاغية متأله ، قد ارتجلها ، ربما لم تبلغ مبلغ الأسلوب الأتيكى المعتدل ، بل ربما يبعث الحشد العارم من الزخرف البلاغى السأم فى نفس السامع ، فقال :

« أيها السيد العظيم السامى ، يا سيدى ، العظيم بين العظماء ، والغنى وسط الرجال الأغنياء ، الذى يكتشف فيه العظيمُ أعظمَ منه ، والغنىُّ شخصاً أوفر منه ثراءً ، دفة السماء و « صابورة » الأرض » . لقد كان هذا أنموذجاً للفصاحة الجيدة ، التى تكثر فيها الحِكَم الموجزة ، مثل : « هل يأمر بالسرقة من يوصى بالاستقامة ؟ » والصور البيانية الجزئية ، مثل : « هل عبور النهر على الأقدام هو خير طريق ؟ » ، كما يكثر فيه النصح بعمل الخير ، مثل : « لا تنطق بالكذب لأنك عظيم ، ولا تكن خفيفاً لأنك رجل عظيم الوزن (القدر) » . ، واستدرار العطف ، مثل : « لا تسلب رجلاً فقيراً ممتلكاته ..... فأمتعته هى أنفاس حياته ، فكل من أخذها منه خنقه » . ولكى نختم ذلك الموضوع ، بشكاية المعتدى إلى إله الموتى . لقد كان ، والحق يقال ، خطيباً مفوّهاً .

بونت Punt : تقع أرض بونت ، المتسربلة بالغموض ، على مسافة بعيدة من مصر ، وإلى جنوبها الشرقى ، على خط عرض واحد مع إريتريا والصومال وقد عرف قدماء المصريين بونت منذ الأسرة الخامسة . ولاتزال النصوص الموجودة فى المعابد البطلمية والرومانية تتحدث عن مملكة نائية تُنتج الصمغ العطرة الرائحة .

بيد أن المصادر الرئيسية للمعلومات الخاصة بهذه المملكة ، هى روايات العصور الوسطى ، وسجلات الدولة الحديثة ، عن نجاح السياح الذين ذهبوا إلى بونت . وقد اكتشف المغامر حنو Henu طريقاً جديداً إلى البحر عبر الصحراء الشرقية . وأرسلت الملكة حتشبسوت حملتها المشهورة وسجلت رحلتها على جدران المعبد الموجود بالدير البحرى .

أقام سكان بونت على جانب النهر فى أكواخ فوق أعمدة . وتنتج بلادهم الأبنوس واللبان والتربنتينا ، وتصدّر العاج ومادة الصباغة السوداء والذهب والحيوانات ،

مثل الماشية والنسانيس ذات الوجوه الشبيهة بوجه الكلب . وكان التعامل التجارى وقتذاك بالمقايضة ، فى جو ودى على ما يبدو ، وطاب للفنانين المصريين أن يصوروا الخصائص البدنية لمضيِّفيهم (التى كانت شبيهة بخصائصهم) ، والمرض العضل الغريب الذى أصاب ملكة پونت .

احتلت پونت ، كجميع البلاد النائية غير المعروفة ، مكاناً فى التعبيرات الأدبية ، وتحدَّثَ مؤلفو الأشعار الغرامية وكاتبو الروايات الشعبية عن پونت بنفس الطريقة التى يتحدثُ بها الكُتَّابَ المحدثون عن أوفير Ophir وجولكوندا Golconda وإلدورادو Eldorado .

پيپى Pepi : أطلق هذا الاسم على ملكين فى الأسرة السادسة (حوالى ٢٤٢٠ — ٢٢٨٠ ق.م.) لم يكونا متعاقبين فى الحكم بل فصل بينهما مرنرع ابن پيپى الأول وشقيق پيپى الثانى . وقد دفن أولئك الملوك الثلاثة فى أهرامات بسقارة ، نقشت على جدران ممراتها ثلاث نسخ من النصوص الجنائزية المعروفة بـ « نصوص الأهرام » .

بقيت لنا صورة لپيپى الأول ، هى تمثال ضخم من النحاس المطروق وُجد فى مدينة هيراكونبوليس (نخن) (موجود الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة) . ويوجد عدد كبير من القبور والنقوش من عصر پيپى الأول والثانى ، شاهداً ، بصفة خاصة ، على البعثات الحربية والتجارية إلى فلسطين والنوبة والصحارى . ومع أن الملكية كانت قوية فى عهد پيپى الأول ، فإن تدهور الدولة القديمة بدأ فى عهد پيپى الثانى . لايزال السجل الملكى محفوظاً فى مخطوط بردى فى تورين ، ويتفق هذا السجل مع المؤرخ الإغريقى المصرى مانيتون ، فى أن هذا الملك حكم أكثر من تسعين سنة . إذن ، فلابد أن كان حكمه أطول حكم تمتع به ملك .

بيت الحياة House of Life : أُطلق هذا الاسم على معاهد التعليم التى كان لها عدة وظائف : فأولاً ، كانت هناك وظائف الكتبة المتصلة بالمعابد الكبرى حيث توضع النصوص الدينية اللازمة لطقوس العبادة ، وتُنسَخ ، وتُعَدُّ النسخ الأصلية للأساطير والطقوس التى ستنقش على جدران المعبد .

وزيادة على الأعمال المتصلة مباشرة بحاجات المعبد ، يمارس موظفو « بيت الحياة » الطب أيضاً ، ويُحتمل أن تكون « المصحات » ، التى صارت ، فى عصور لاحقة ، جزءاً من مبنى المعبد ، ذات صلة مباشرة ببيوت الحياة هذه فكان بها المعلمون وموظفو المعبد ، كأولئك المسئولين عن إقامة الشعائر الدينية اليومية ، والفنانون وأرباب المهن . ويحتمل أن يكون بيت الحياة هذا هو المكان الذى نسخ فيه الكتبة آلافاً من كتب الموتى ، فأنتجوها بكميات كبيرة منذ الدولة الحديثة وما بعدها ، إذ اعتُقد أن مثل هذا الكتاب من المعدات الضرورية للموتى فى رحلتهم الأخيرة .

كانت بيوت الحياة أكثر من مواضع لنسخ النصوص التى تتطلبها طقوس العبادة ، فيبدو أنها كانت مراكز للعلم الكهنوتى .

بيت الولادة Mammisi : أطلق

شامبوليون كلمة « ماميزى » على « بيت الولادة » ، وهى كلمة قبطية بهذا المعنى . وتصف الملحقات التى كانت تضاف فى الحقبة المتأخرة إلى المعابد الكبرى حيث تقام الطقوس السنوية لمولد « الإله الطفل » . وخير « بيت الولادة » باق بحالة جيدة ، فى فيلة ، وفى إدفو ، وفى دندرة ، وهى جميعاً متشابهة فى رسمها المعمارى . وغالباً ما يكون لها سور من الأعمدة ارتفاعه نصف ارتفاع المبنى نفسه ذى الحوائط المدعمة بالأعمدة . وزُين المذبح والباب بالنقوش البارزة البهيجة الموحية بالمرح والموسيقى بينما تبين المناظر الداخلية « الزواج الإلهى » و « مولد الملك الطفل » .

بيتوم Pithom : هى مدينة على الحدود خارج الأراضى المصرية فى وادى الطوميلات ، وهذا أحد فروع النيل الشرقية ، الذى تكوَّن منه فى قديم الزمان ، الجزء الأكبر من قناة السويس .

كانت هذه المدينة مركز استيطان فى منطقة شبه صحراوية ، ومقر حامية قوية ، وكانت تسمى « بيت أتوم » (الإله الشمسى العظيم الآتى من هليوبوليس) ، وتقدمت المدينة كثيراً فى عهد حكم الملوك الرعامسة . وتبعاً لسِفْر الخروج ، فرض فرعون على العبرانيين أن يصنعوا الآجر اللازم لمدينة التخزين تلك . وتقع بيتوم على مسافة قصيرة من طريق قوافل ، يصل الآن بين القاهرة والإسماعيلية ، عند موضع يسمى « تل المسخوطة » . واستخرج الحفر ، أيام ديليسبس ، عدة تماثيل ولوحات حجرية منقوشة وتماثيل اتخذت شكل أبو الهول للملك رمسيس الثانى . ويمكن رؤية هذه اليوم فى موضع ناضر الخضرة فى « حديقة النُصُب الحجرية » بالإسماعيلية .

البيرة (الجِعة) : كانت البيرة هى المشروب القومى الشائع بين الأحياء والآلهة والموتى . وكانوا يصنعونها بعمل عجينة من دقيق الشعير ، تُسوَّى فى النار كالخبز . ثم ينقع خبز الشعير هذا ، وربما أضيف إليه البلح للتحلية . وبعد أن يختمر ، يُصَفى السائل فى قدر . ويقول ديودوروس إن طعم ونكهة هذه البيرة لا يقلان فى الجودة عن طعم ونكهة النبيذ . وقد أيد هذا الرأى كتبة الدولة الحديثة الذين كانوا ، وقت راحتهم من الدراسة ، يحتسون البيرة والنبيذ بمتعة متساوية .

البيوت الخاصة : تركت لنا مصر القديمة كثيراً من المعابد والمقابر ، إما منحوتة فى الصخر ، أو مشيدة من الحجر ، ولكنها لم تترك لنا سوى القليل من البيوت . وسبب ذلك بسيط . كانوا يصنعون البيوت العادية من اللبِن (الطوب غير المحروق) وهذه مادة سريعة التآكل ، ومن الخشب وأعواد الغاب . وكما هى الحال فى مدن مصر ، كان يعاد بناء هذه البيوت فى نفس مواضعها السابقة . ولم تستغرق هذه البيوت وقتاً طويلاً حتى تتحول إلى طين وتصبح

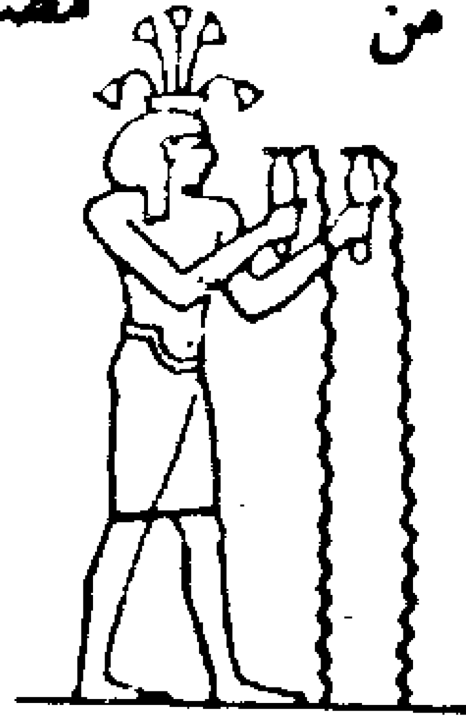
أساسات للبيوت الجديدة . ومن النادر جداً أن تهجر المدن ولا تبنى مكانها مدن أخرى ، بعد مدة قصيرة ، ومن أمثلة ذلك :

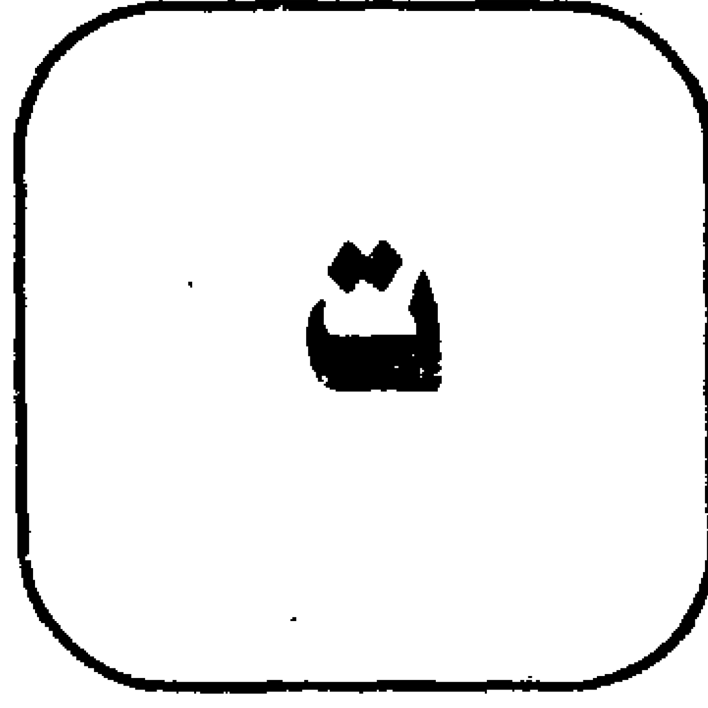
مدينة أخناتون (تل العمارنة) ، واللاهون Illahun (مدينة الأهرام فى الفيوم) ودير المدينة (مقر العمال الذين بنوا المقابر فى وادى الملوك) . كذلك يمكننا أن نتصور المدن المصرية القديمة من الرسوم التى على المقابر ، ومن النماذج القديمة .

إذا حكمنا من واقع البيوت القليلة الباقية من مساكن العمال ، فإن القرى القديمة كانت عظيمة الشبه بالقرى الحديثة . فكانوا يبنون البيوت من اللبن ، ويجعلون لها شرفة فى الجهة الشمالية ، حيث يستطيع صاحب البيت أن يتمتع بهواء المساء البارد . كذلك كانت هناك صوامع غلال مخروطية الشكل تشبه أبراج الحمام الحديثة ، وحظائر للحيوانات ، وحوانيت صغيرة لبيع المنسوجات والخبز ، فى الطريق . كانت أفخم البيوت من طابقين علويين ، ودور أرضى يستعمل مخازن .

وتبنى وسط حدائق بها برك مليئة بأزهار اللوتس والأسماك وتعشش الطيور على جوانبها . ويحيط بهذه الحدائق أشجار من كل نوع ، ولاسيما نخيل البلح وأشجار الجميز الوارفة الظلال . وينقسم البيت نفسه إلى قسم خاص ، وآخر عام . ففى القسم العام قاعة استقبال ذات أعمدة ، وبها أرائك لجلوس الزائرين . ويتكون القسم الخاص من حجرات ، ومخادع للسيدات ، وهذه غالباً ما تكون فى الطابق الأول فوق الأرضى . وعادة ما يكون خارج البيت ركن منعزل فى الحديقة ، به المطبخ ومخازن الأغذية ومساكن الخدم والحظائر . وتضم ڤيلات تل العمارنة Amarna معابد صغيرة للأسرة ، فى جانب من الحديقة .

ويختلف الأثاث فى فائدته ونوعه تبعاً لدرجة البيت الطبقية . ويتكون عادة من أسِرّة ومناضد صغيرة ومقاعد وصواوين خشبية لحفظ الأطباق والمجوهرات ، والستائر والأبسطة وغير ذلك من المنسوجات الملونة التى تزين بها الحجرات الداخلية . وبالمطبخ أفران من الطين وجرار كبيرة للنبيذ والزيت والحبوب . وكانوا يحفظون الماء بارداً فى أزيار يضعونها فوق حوامل خشبية . وتزين حجرات البيت بالأزهار وبأكاليل من أوراق الأشجار والأزهار . وبالبيوت الفخمة حمامات ومغاسل ودورات للمياه . أما فى المستنقعات فكان الراعى يقنع بكوخ بسيط مصنوع من أعواد الغاب .





التابوت **Sarcophagus** : لما نُفى سنوهى إلى سوريا ، ارتعد ذعراً لمجرد تفكيره فى أنه سيكفن بعد موته فى جلد خروف بسيط . والحقيقة أن التابوت أحد الأشياء الضرورية للدفن بمصر : إذ يقى التابوت الشخص الميت من رمال الصحراء ، فيعيش هناك كما لو كان فى بيت ، وكان فى مقدوره أن يخرج متى أراد من الباب المصور على جانبى التابوت ، وإذا ما عجز عن رؤية ما بالخارج ، رآه بالعينين المصورتين على التابوت دون أن يتحرك .

التوابيت كثيرة جداً فى جميع المتاحف ، وهناك مجموعات خاصة لدى الأفراد تحتوى ، على الأقل ، على الغلاف الخارجى للمومياوات . ويختلف شكل التابوت باختلاف العصور ، والثروة وطبقة صاحبه الاجتماعية . فاتخذ التابوت فى الدولة القديمة شكل حوض ضخم من الحجر ذى جوانب مستقيمة ، والنقوش التى على جوانبه تحاكى النقوش التى على القبور ذات واجهات القصور الموجودة بالجبانات الثينية . ثم عمَّ استعمال التوابيت الخشبية البسيطة الشكل فى الدولة القديمة . وزينت هذه التوابيت بأعمدة من النصوص الجنائزية وبأفاريز من صور مختلف الأشياء العامة .

أما التوابيت التى على هيئة المومياء والمزودة بقناع يصور ملامح الوجه ، فهى من الدولة الحديثة غالباً . وهى مزخرفة فى بذخ وتحمل عادة فقرات من « كتاب الموتى » . هذا هو العصر الذى وُضع فيه الملوك فى توابيت مرتبة واحداً داخل آخر ، ومصنوعة من الذهب أو الفضة ومرصعة بأبهى الأحجار . ووضعت مجموعة الأغطية المتحدة المركز هذه داخل تابوت حجرى مستطيل الشكل ، ذى غطاء مزخرف من الداخل أحيانا ، بصورة الربة نوت ، وتمسك هذه الربة بقبة السماء فوق الشخص العظيم الميت

ومنذ العصر الصاوى ، كان الدفن داخل تابوت جميل بشكل الإنسان مصنوع من الحجر الشديد الصلابة (الجرانيت الأسود أو البازالت ويزخرف بنصوص منقوشة بطريقة فنية جميلة ، ويغطى أحياناً بعدد من الأشكال والنقوش المأخوذة من « الكتب الجنازية الملكية ») . كما كان

هناك أيضاً توابيت أقل جمالاً تدرجت فى البساطة شيئاً فشيئاً . وتتضمن هذه الأخيرة توابيت ذات أعمدة فى الأركان وأغلفة من البردى القديم ، لُصق بعضها إلى بعض وطليت برسوم غير متقنة وملونة بألوان ذرت عليها بغير انتظام . واستعيض عن قناع العصور السابقة ، فى بعض الأحيان بقالب من الجبس على صورة الشخص الميت (صور أنتينوى Antinoé) ، أو فى بساطة أكثر ، بصورة على قطعة من الخشب توضع بين طيات الأغلفة أمام الوجه (الصور الرومانية المصرية المعروفة بصور الفيوم) .

هذه هى الأنواع العادية ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أنه يوجد بكل عصر توابيت أكثر بساطة مصنوعة إما من أربعة ألواح من الخشب ، أو من الحصير البسيط أو من قدور كبيرة من الفخار لتكون مأوى للتعساء ، فى حياتهم وراء القبر ، بدون زخرف أو جمال مظهر .

التاج المزدوج : **Pschent** انظر التيجان .

التاريخ : اعتمد علماء الآثار المصرية على طريقة لترتيب ملوك مصر فى أسرات ، كالتى استعملها مانيتون Manetho — وتُعرف كل أسرة برقم وبمدينتها التى نشأت فيها — وتقسيم الأسرات إلى مجموعات مناظرة للحقب أو العصور . ولهذا الترتيب المزدوج ، السهل التذكر ، ميزة الاحتفاظ بالترتيب التقليدى للأحداث السياسية فى التاريخ الفرعونى ، كما يصف تلك الأحداث فى تسلسل كامل

كان هناك ثلاث دول فى الحقبة الممتدة من عصر ما قبل التاريخ المظلم إلى الحقبة المتأخرة ، أى من سنة ٣٠٠٠ ق . م . إلى سنة ٧٠٠ ق . م . ، اتحدت خلالها مصر العليا ومصر السفلى ، وازدهرتا تحت حكم ملوك أقوياء ، رضخ كل منهما بدوره إلى القوى المناوئة لتركيز السلطة (الأطماع الإقطاعية للنبلاء والمصالح الشخصية المحلية) ، وأفسح المكان لعصر متوسط انقسمت المملكة خلاله إلى أقسام تكاد تكون مستقلة .

كانت الدول ، القديمة والوسطى والحديثة ، حقبات من الأمن الداخلى ، والسياسة الأجنبية القوية ؛ وعصوراً شُيدت فيها المبانى العظيمة ، وأنتج فيها الفنانون أجمل أعمالهم . وكانت الحقب الوسطى أزمنة تدهور فيها الاقتصاد ، وجاء الغزو الأجنبى أو تسرب الأجانب إلى مصر ، وقامت فيها الحروب الأهلية ، فقلّ النشاط الفنىّ

يمكننا القول إن التاريخ المصرى كان أسرع تحركاً بعد سنة ٧٠٠ ق . م . بسبب نفوذ القوى الصغرى فى العالم الخارجى . وتكونت الحقبة المتأخرة من سلسلة من العصور المتتابعة القصيرة نسبياً ، التى تمتعت فيها مصر بالرخاء والعظمة . غير أن الأسرة الحاكمة جاءت ، مرة أو مرتين ، من خارج وادى النيل .

يمكننا عرض أهم التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى تاريخ مصر ، مرتبةً حسب تسلسلها ، فى جدول بسيط (انظر هذا الجدول بأول الكتاب) .

التأريخ Chronology : زودنا العصر المسيحى بتقويم عالمى نستطيع بواسطته ضبط تواريخ جميع حوادث التاريخ منذ لحظة معينة . وبالمقارنة ، يبدو أن الطريقة التى استعملها قدماء المصريين ليست دقيقة من الناحية العملية فى عدّ السنوات . فكانوا يعدون سنوات حكم كل ملك على حدة ، حتى إذا ما اعتلى العرش ملك غيره ، بدءوا يعدون سنىّ حكمه من جديد . فكانوا يقولون : « سنة ٥ من حكم رمسيس » ، « سنة ٢٠ من حكم أمنحوتب » ، دون الإشارة إلى ترتيب تعاقب الفراعنة . ولم يذكروا أرقاماً ، حتى للملوك المتشابهين فى الاسم ، كما نفعل نحن ، ولكنهم ميزوا بين الأحد عشر رمسيساً والأربعة الذين عرفوا بأمنحوتب بعناصر مختلفة فى ألقاب كل منهم ، أى كان بمصر عصور مستقلة بعدد فراعنتها ، ولا توجد هناك أية إشارة إلى صلة القرابة بينهم ، أو بين أى فرعون وآخر .

فكيف نعرف ، فى مثل هذه الظروف أىّ رمسيس وأى أمنحوتب يقصدون ؟ ولا حتى أيهم كان يحكم قبل الآخر ؟ وأنىّ لنا أن نعرف متى عاشوا ؟ وعلى هذا ، تتضح صعوبة التأريخ المصرى . ومن السهل أن

نرى الصعوبات التى واجهت المؤرخين فى محاولاتهم معرفة ترتيب الحوادث (التأريخ النسبى) ووضعها فى تاريخها الصحيح (التأريخ المطلق) . ولولا مساعدة المصريين أنفسهم لتعذرَ القيام بهذا العمل .

على الرغم من اقتضاب التاريخ الذى كتبه مانيتون وفوضاه ، فقد اشتمل على قوائم بالملوك بحسب ترتيب ارتقائهم العرش ، وقسّمهم إلى ٣١ أسرة ، وذكر مدة حكم كل منهم . كما أن فى حوزتنا بردية تورين الملكية ، التى جمعت فى عهد الدولة الحديثة . ويشمل هذا النص نفس نوع المعلومات التى جمعها مانيتون ، ولكنه أكثر أهمية لتحديد التواريخ . بيد أن الباقى لنا منها مهشم . وهناك أربع قوائم بالملوك تذكر نفس التواريخ ولا تضم إلا أسماء فراعنة خصصت للأغراض الدينية . وبالمتحف البريطانى احدى هذه القوائم ، وهى من أبيدوس . وأخيراً ، هناك التقاويم الملكية المعروفة باسم « حجر باليرمو » ، والتى بقيت من عصر الدولة القديمة . وقد استعيدت ٦ قطع من هذه الوثيقة ، التى سُجِّل عليها الأحداث الرئيسية ، سنة بسنة ، حتى الأسرة الخامسة . وفضلاً عن هذه المصادر الأساسية هناك عدد لا يحصى من الوثائق الأخرى ، من كل نوع ، بها أسماء الملوك وتواريخ حكمهم .

قد يخيّل إلى المرء أنه بمجرد أن يضم هذه المصادر بعضها إلى بعض ، يسهل عليه تحديد التاريخ . غير أن الأمر ليس بهذه السهولة ، فيجب أولاً معرفة الملوك بحسب ترتيبهم ، ثم معرفة مدة حكم كل واحد منهم ، ولا يبقى بعد ذلك إلا إضافة الأرقام التى حصل عليها . الفكرة بسيطة نظرياً ، ولكنها صعبة عند التنفيذ . فهناك كثير من العقبات ، لأن المصادر الموجودة أهملت فى ذكر مدة حكم بعض الملوك ، ولم تكمل

بيان مدة حكم ملوك آخرين . وأحيانا يُلاحَظ اختلاف بين مصدر وآخر فى بعض النقط ، فلا يمكن دائماً ترتيب الفراعنة فى سلسلة متصلة الحلقات — ثم إن هناك تواريخَ خلا فيها العرش من الملوك أو من الأوصياء على الملوك . وفى بعض العصور كان بعض الملوك بل وأسرات كاملة ، يتناوبون الحكم فيما بينهم فى مختلف أنحاء الدولة ، أو يختص كل منهم بحكم جزء من الدولة ، وأرخ لكل منهم حسب مدة حكمه . فإذا لم نعرف أىّ الملوك كانوا متعاصرين فى الحكم ، سجلناهم على أن كلا منهم أتى بعد الآخر — وبذا تكون النتيجة تاريخاً غير صحيح . ولهذه الأسباب وغيرها ، فإنه على الرغم من صحة هذه الطريقة فى عصور الاستقرار السياسى ، فإنها لا تعطى تاريخاً دقيقاً .

لا تمدنا التواريخ المصرية بأساس للتاريخ المطلق ، ولذا كان من الضرورى أن نستعين بعلم الفلك . ولكى نفهم كيف حصلنا على التاريخ ، نفرض عدم وجود سنة كبيسة . فعند عدم إضافة يوم إلى شهر فبراير كل أربع سنوات ، تنقص السنة التى نحسبها ، عن السنة الشمسية أو السنة الطبيعية .

قد يكون الخطأ ضئيلاً فى أول الأمر ، ولكنه يزداد بالتدريج بسبب نقص يوم فى كل أربع سنوات . فيصل الخطأ إلى عشرة أيام فى مدى ٤٠ سنة ، وإلى ثلاثين يوماً فى مدى ١٢٠ سنة ، وهكذا . وعلى هذا تتقدم سنتنا عن السنة الحقيقية التى تضبط بواسطة الشمس . وتكون النتيجة عدم انطباق تواريخ التقويم على الأحداث الطبيعيه ، فيسجل التقويم أيام القيظ على أنها فى شهر يناير ، ويكون هناك ثلج فى منتصف أغسطس . وشيئاً فشيئاً تتحرك جميع الظواهر الثابتة على مدار التقويم وتعود ثانية إلى تواريخها الأصلية . ولكن بعد أربع سنوات من عودتها ، يبدأ الاختلاف من جديد . فكم سنة تستغرق دورة التقويم حتى تعود إلى حالتها الاصلية ؟ المسألة بسيطة ، نضرب عدد أيام السنة فى أربع سنوات ، أى ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ سنة .

الحقيقة أن مصر استعملت السنة الفرضية ، إذ كانت سنة المصريين القدماء ٣٦٥ يوماً مع عدم احتساب السنة الكبيسة ، ولا يومها الزائد . غير أنهم لاحظوا أن الظواهر الطبيعية تتحرك بالنسبة لسنة التقويم ، وفى كثير من المناسبات سجلوا التواريخ بحسب تقويم أحداث فلكية هامة ، مثل شروق نجم الشعرى اليمانية Sothis وهو نجمنا سيريوس Sirius فى يوم معين — ١٩ يوليو (بالتقويم اليوليانى) — إذ يُرى عند الأفق قبيل شروق الشمس مباشرة . وفى حوالى نفس الوقت ، يبدأ ارتفاع فيضان النيل ، وكان المصريون يعتقدون ان تلك الظاهرة السماوية هى التى تعطى إشارة الفيضان ، ذلك الحدث الهام فى حياة شعب زراعى .

نعلم أن شروق نجم الشعرى اليمانية فى سنة ١٣٩ ق . م . (وهذا التاريخ أكيد) وافق اليوم الأول من سنة التقويم المصرى المتحرك . فإذا بدأنا من هذا التاريخ المعروف ، كان من السهل حساب

الخطا بين اليوم الأول من السنة المتحركة ويوم شروق نجم الشعرى اليمانية ، فى أى تاريخ من القرون السابقة . ونعلم أن الخطأ يزيد يوماً فى كل أربع سنوات . فإذا سجلت احدى وثائق عصر ما ، أن الشعرى اليمانية أشرق فى سنة كذا من حكم الملك فلان ، وفى يوم كذا من التقويم المتحرك ، مع علمنا بأن التقويم المطلق يختلف يوماً كل أربع سنوات ، فنستطيع أن نحدد بالضبط تاريخ ذلك الملك .

ليست الوثائق التى من هذا النوع كثيرة . فهناك أربع وثائق من الدولة الحديثة ، ووثيقة من الدولة الوسطى (السنة السابعة من حكم سنوسرت الثالث : سنة ١٨٧٢ ق . م .) بيد أن بوسع العلم أن يمدنا بنقط ثابتة أخرى تساعدنا على ضبط التأريخ . فنبدأ بالتواريخ المحددة فلكياً ، ونجمع مدد حكم جميع الملوك ، ومن الطبيعى أنه كلما بعد العهد ، زاد مقدار الخطأ . فلا يوجد خطأ فى الأسرات الثانية عشرة ، والخامسة والعشرين إلى الثلاثين ، وخطأ طفيف جداً فى الدولة الحديثة ، ثم خطأ محسوس فى الحقبة المتوسطة الأولى والثانية ، وخطأ جسيم فى العصور المتأخرة ولم يتفق العلماء على تاريخ معلوم لبداية التاريخ المصرى . فيبدأ بعضهم الأسرة الأولى فى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م . ، ويُفضل آخرون سنة ٢٨٥٠ ق . م . وربما استطاع علم الطبيعة النووى أن يساعد على تحديد ذلك بواسطة تأريخ الكربون ١٤ ، وهذه عملية اكتشفت حديثاً ولاتزال حتى الآن فى طور النمو.

التاسوع **Ennead** : فى اللغة المصرية القديمة « بسجت » وتعنى مجموعة من تسعة آلهة ، تمثل معا جميع القوى الأساسية فى الكون .

ولعل تاسوع هليوبوليس ــ وهو المعروف لنا ــ يمثل المجموعة التى نظمها قدامى كهنة مدينة هليوبوليس الذين اهتموا غاية الاهتمام بتبويب وتنظيم آلهتهم فى ترتيب منطقى . فوضعوا على رأس تلك المجموعة أتوم **Atum** ، وهو الخالق الوحيد ، ويعلمه أولاده مرتبين فى أزواج : شو **Shu** (الجو) وتفنوت **Tefnut** (الرطوبة) ، وأحفاده جب **Geb** (الأرض) ونوت **Nut** (السماء) وأخيراً ، إيزيس وأوزيريس وست **Seth** ونفتيس **Nephthys** .

نهجت العبادات الأخرى نهج هليوبوليس فنظمت لنفسها تاسوعات خاصة بها وكل منها تدور حول الرب الخالق ، ومعه مجموعة من الآلهة الثانويين . لم تكن هذه التاسوعات كافية لتتسع لكل إله فى أية عبادة . فكونت هليوبوليس تاسوعا ثانوياً إلى جانب مجموعتها الأصلية ، وتختلف آلهتها عما فى المجموعة الأولى . أما فى المدن الأخرى فلم يصل عدد الآلهة جميعاً إلى تسعة أو يزيد عليها بقليل . ثم فقدت هذه الكلمة معناها الأصلى ، شيئاً فشيئاً ، وباتت تعنى مجموعة الآلهة . فمثلاً كان « التاسوع الأعظم لأبيدوس » ، يتألف من سبعة آلهة ليس غير ، بينما كان « تاسوع طيبة » ، يضم خمسة عشر اسماً . وعلى نقيض هذه المجموعات المحددة العدد ، فى معظم الأحيان ، تكونت عبادة مدينة

هيرموبوليس من ثمانية آلهة سميت « بالثامون » .

التأليه : التأليه ميزة قلما كانت تمنح فى مصر . ولذا اضطر هيرودوت إلى أن يسجل فى تاريخه :

« لم يكن الأبطال هدف أية نزعة دينية » ، ومع ذلك فهناك بضعة أمثلة . ولقد حظى الملوك ، علاوة على الطقوس الجنائزية التى تقام فى محاريبهم ، بعبادة الأجيال اللاحقة . فعُبد أمنحوتب الأول وأمه أحمس نفرتارى فى جبانة طيبة . كما عُبد سنفرو فى سيناء ، وسنوسرت الثالث فى بلاد النوبة ، وأمنمحات الثالث فى الفيوم ، وهكذا . وجدير بالذكر أن عبادة الملك المتأله هذه كانت قاصرة دائماً على فئة من الناس لديهم أسباب مهنية أو عاطفية تدعوهم إلى عبادة مؤسس طائفتهم أو راعيهم القديم . وفضلاً عن هؤلاء ، هناك نفر كان ألقابهم عسيرة الفهم ، سمح لهم خلفهم بأن يكونوا ضمن الآلهة . وأُلّه البعض عقب موتهم مباشرة . ولا شك فى أن الحال كان كذلك مع بعض وزراء الدولة القديمة ومنهم : كاجمنى ، الذى أقام له أتباعه المخلصون هيكلاً يُعبد فيه وفاته ، ولوحات حجرية تخلد ذكراه قرب مصطبته بسقارة . وإيزى Isi أمير إدفو ، الذى عُبد مثل كاجمنى على أنه « وزير مقدس » و « إله حى » ، من الأسرة السادسة إلى نهاية الحقبة عصر الاضطراب الثانى . وحقا — إب الذى اكتشف الأستاذ لبيب حبشى قبره فى أسوان والذى كُرِّس لعبادته هيكلاً بجزيرة فيلة حيث يبدو أنه عُبد هناك حتى وقت متأخر نسبياً . ومن جهة أخرى ، لم يؤله آخرون إلا بعد وفاتهم بأزمنة طويلة . ومن أمثلة هؤلاء : امحوتب المهندس المعمارى الخاص بالملك زوسر (الأسرة الثالثة) ، الذى لم يؤله إلا بعد موته بألفى سنة . وعبد ، بدرجة أقل منه ، أمنحوتب بن حابو . المهندس المعمارى الخاص بأمنحوتب الثالث الذى صار إلهاً للشفاء فى العصور المتأخرة ، وله مصحة داخل مقصورة بالدير البحرى .

كذلك أُلّه بعض اناس لا نعرف عنهم سوى النزر اليسير ، منهم : تيفيبيس Tecphibis ، الذى عُبد فى هيكل صغير على الضفة اليسرى لمدينة طيبة . ويجب أن نعلم أن هناك فكرة تسلطت على أذهان المصريين فى عصور لاحقة جعلتهم يذهبون إلى صحبة الآلهة مباشرة ، وذلك بإغراق أنفسهم فى النيل . هذا هو المصير الذى أصاب الشقيقين بهور Pehor وبتى — إيزيس Peteisis ، اللذين دُفنا معاً فى كهف نوبىّ ، وبُنى معبد دندور الصغير أمام قبرهما . وكان هذا الاعتقاد سبباً من أسباب تأليه أنتيموس Antinous محبوب هادريان ، الذى غرق فى النيل ، والذى خُلدت ذكراه ببناء مدينة فى نفس المكان الذى ظهرت فيه جثته .

تانيس Tanis : كان السهل الواقع على شاطىء بحيرة المنزلة ، الذى كان غابة خضراء على حدود مصر الشمالية الشرقية ، فسيحاً مترامى الأطراف ، أما الآن فليس سوى أرض معشوشبة مهجورة ، يحاول

السكان استصلاحها . وفى وسط ذلك السهل جبل صان ، أشهر موضع فى الدلتا . هل سُميت تانيس أولاً باسم أفاريس ، حصن الهكسوس ؟ ولقد وضع پيير مونتيه ، الذى قام بالحفر هناك عشرين موسماً ، عدة أدلة تؤيد هذه النظرية . ورغم قيام جدال فى هذا الأمر ، فإن هناك أمراً محققاً : وهو أن تانيس ، مهد الأسرة الحادية والعشرين ، المعاصرة للملوك الكهنة ، ازدهرت حتى العصور الرومانية . ففيها معبد عظيم لأمون يحيط به سور من الآجر ، ومدخله الآن مهدم ، ويمتد وسط عدد من المسلات الواقعة ، والتماثيل الضخمة المحطمة ، وكتل هائلة من الأحجار ، من أعمال رمسيس الثانى . وتماثيل أبى الهول والتماثيل الكبيرة الموجودة بمتحفى اللوڤر والقاهرة ، وُجدت هناك . وقد دفن الملوك فى إحدى زوايا ذلك المعبد ، ووجد مونتيه كثيراً من مومياواتهم لم تُمسّ ، ومنهم پسوسنيس وأمنمأوبت وأوسوركون الثانى و شاشانق الثالث .

التجارة : احتكرت الحكومة الملكية تجارة الصادرات الرئيسية ، واستخدمتها سلاحاً سياسياً تقريباً . فكانت الإدارة تقرر ما إذا كانت تصدر الحبوب إلى الحيثيين أو إلى الأثينيين ، أو تصدر الذهب إلى الطغاة الأسيويين ، أو الشب إلى وحى دلفى . وكان عبور التجار الأجانب للحدود المصرية يخضع لرقابة صارمة . وفى العصر الصاوى ، ظل الأغارقة والنقراطيون (انظر نوقراطيس) Naucratis والطرابلسيون القاطنون بمنف فى الأحياء التجارية ، تحت مراقبة الإدارة المصرية . ولم يستطع إخوة سيدنا يوسف ، فى عصر التوراة ، أن يشتروا الحبوب دون المرور بالوزير المختص بمخازن الحبوب (وزير التموين) . وكان سكان أطراف مصر (سكان الواحات بوادى النطرون ، والبدو الذين كانوا يجمعون الجالينا) يأتون لعرض بضائعهم نظير أطعمة لأولادهم .

وكانت بساتين الواحات والمحاجر والمناجم كلها خاضعة لمراقبة الملك . ومنذ العصور القديمة كانت جماعات من المسافرين يذهبون إلى پونت والنوبة وبيبلوس ، ويحصلون على المنتجات الأجنبية من سكانها . وفى أيام الدولة الحديثة كانت الاحتياجات الأساسية التى تفتقر إليها مصر (الخشب من لبنان ، والنحاس والبرونز من آسيا والبهارات) — إذا لم يُستولَ عليها كغنيمة أو تُجمع كجزية — يحصل عليها مندوبون من قبل الملك أو من المعابد التى كان لها أسطول تجارى خاص بها . وكذلك سافر الممثلون إلى موانىء البحر الأحمر للاتفاق بلغة الإشارات مع القادمين من پونت ، أو كانوا يذهبون إلى هناك هم أنفسهم . وغير هؤلاء أمثال ون — أمون ، الذى ترك لنا تسجيلاً واقعياً لرحلته ، وذهبوا للمتاجرة فى موانىء بلاد الشرق .

أما فى داخل البلاد فكانت حركة البضائع تعتمد جزئياً على التجارة . وكان النبلاء يعيشون على الهبات الملكية ، وكانت الأجور والمرتبات تدفع نوعاً . وكان بوسع الشخص العادى أن يقايض أجره اليومى ، بطريقةٍ ما ، فيدفع نفقات طعامه ويحصل

علـى السلع المصنـوعـة ، والعبيـد والحيوانات .

ربما كان بمصر « تجار » ، بيد أن أولئك الوسطاء ، الذين يبدو أن بعضهم كانوا موظفين ، قلما جاء ذكرهم فى النصوص . وظلت طرق التجارة بدائية . فكانت المقايضة هى الطريقة المتبعة فى الأسواق الريفية ــ كأن يبادلوا على عقود الخرز بالخضروات . ولكى يعقدوا الصفقات الكبيرة ، كان من الضرورى أن يجمعوا كميات ضخمة من هذا الشىء أو من ذاك : « باع الضابط نب ــ أمون إلى هاى Hay ثوراً قيمته ١٢٠ دبنا Deben من النحاس ، فتسلم نظيره جرتين من الدهن قيمتها ٦٠ دبنا ، وخمسة أثواب من التيل الرفيع قيمتها ٣٥ دبنا ، وثوباً من تيل الجنوب قيمته ٢٠ دبنا ، وجلداً قيمته ١٥ دبنا » . ويتضح من هذا المستند ، أنهم كانوا يستعملون معدناً ما ــ وهو النحاس فى هذه الحالة (ولكنهم كانوا يستعملون الذهب والفضة أيضاً) ، كوحدة لتقدير السلع فى الدولة الحديثة (انظر الاقتصاد) .

التحنيط Mummification : (انظر المومياء) .

تحوت Theth : هو إله القمر المتخذ هيئة طائر أبى قردان ، وقد عُبد تحوت فى عدة أماكن بمصر . وكان المركز الرئيسى لعبادته هو مدينة هرموبوليس . وإذ كان حديث المجىء إلى هذه المدينة ، وجد فيها عبادة كثير من الآلهة غيره : الأرنب المقدس ، وثامون الضفادع والثعابين ، وقرد . فاكتسح جميع هؤلاء تماماً . ولم يبق الأرنب إلا لكتابة اسم المديرية ، وكون الثامون ، منذ عصر مبكر مجموعة العناصر الثمانية ، واضطر القرد (انظر القرد) إلى أن يشترك مع أبى قردان ليكونا تجسد روح تحوت . وصارت صفات الإله الجديد هامة حقاً . ويبدو أنه سيطر على كل ما يتعلق بالثقافة الذهنية ، مثل : اختراع الكتابة ، وفصل اللغات ، وبالتالى ، تسجيل الأحداث التاريخية والقوانين كان تحوت حامى الكتبة . ولكنه كان الإله المكلف بالحسابات ، والمسيطر على الحروف ، لى كان يحسب الزمن ، والسنوات والتقويم ، وأشرف على تقسيم الزمن .

ونظراً لمواهبه العديدة فى جميع النواحى ، جعلته الأساطير دائماً كاتم سر الآلهة الحكيم ، والمساعد الذى لا يُستغنى عنه فى أى عمل إلهى . بيد أن له امتيازات هامة أخرى ، فقد جعلته براعته فى الهيروغليفية والألفاظ الإلهية ساحراً مريعاً يستطيع تحويل أى شىء يريد إلى أية صورة يشاؤها وذلك لمعرفته بقوة الكلام الخلاقة . وهذه الموهبة هى التى تفسر السبب فى أن علماء اللاهوت بمنف كانوا يعتبرونه لسان بتاح ، أو أداة التعبير الشفهى التى أعطى بها ذلك الإله الوجود للكون . وتقول نصوص أخرى تسير على نفس الفكرة ، إنه « قلب رع » ، وجوهر فكره الخلاق (كان القلب عضو التفكير) . ولما كان تحوت هو إله الكلمة الإلهية ، والكاتب الأعظم ، صار حامى السحرة (انظر السحر) الذى يعرف جميع النصوص اللازمة لشفاء المرضى

(ألم يشف الطفل حورس عندما لدغته عقرب فى مستنقعات الدلتا ؟) وقد اشتهرت مكتبة عاصمته هرموپوليس . وتحدثنا الأساطير عن مقاصير الكتب السرية التى توجد بها الوثائق المقدسة التى كتبها هذا الإله بخطه . وتصف قصة ساتنى Satni الديموطيقية ، البحث عن كتاب تحوت الإلهى ، الذى يهب من يجده قوة السيطرة على الأرض والسماء والماء ومناطق الجحيم ، والأحداث المفجعة التى أصابت كل من دفعه سوء حظه إلى محاولة البحث عن ذلك السر الخطر .

شبّه الإغريق تحوت بهرميس ، وتمتع ، باسم Trismegistos (أى العظيم ثلاث مرات) بنجاح مدهش فى الأدب « الهرميسى » . ومع ذلك ، فإن الأفكار التى تعبر عنها هذه الرسالات خاصة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط ومشتقة من مذهب التوفيق الدينى السكندرى ، وليس من اللاهوت المصرى القديم (انظر الرمزية) ، الذى أطلق عليه تحوت اسمه فحسب . غير أنه يتضح من هذه الرسالات ، التى تفتقر إلى الانسجام فى كتابتها ، أن كثيراً من عناصر المعتقدات وصور التعبير المصرية استعارها العرافون الجدد كى يدمجوها فى خطة جديدة تتلاءم معها .

تحوتمس Thutmosis : هو اسم لأربعة ملوك فى الأسرة الثامنة عشرة .

تحوتمس الأول Thutmosis I :

(من سنة ١٥٣٠ ــ ١٥٢٠ ق.م.) ، هو ابن أمنحوتب الأول ، وهو أول الملوك الفاتحين العظماء فى الدولة الحديثة . امتد نجاحه العسكرى من جنوب الشلال الرابع إلى ما بعد نهر الفرات . وهو أول من بنى لنفسه مقبرة فى وادى الملوك . ومع ذلك فلا يوجد سوى القليل من المعلومات عن حكمه وعن حكم ابنه تحوتمس الثانى (١٥٢٠ ــ ١٥٠٤ ق.م.) الذى كان محارباً كوالده ، وأول زوج لحتشبسوت .

تحوتمس الثالث Thutmosis III

(١٥٠٤ ــ ١٤٥٠ ق.م.) : ابن تحوتمس الثانى ، ووالد أمنحوتب الثانى ، وهو بطل الأسرة . بدأ حكمه بداية تعيسة ، لأنه لم يكن سوى الزوج التابع للملكة حتشبسوت . غير أنه لما ملك حريته بموت زوجته التى كانت زوجة أبيه ، أثبت أنه فاتح عظيم ومشيد معابد . فقد هزم عصبة من الأمراء السوريين فى مجدو بغير قتال تقريباً ، وطوال العشرين سنة التالية ، قضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى فى فلسطين وسوريا فى حملات سنوية ، وأوقف زحف الميتانى ، تلك الدولة العراقية الشمالية التى زحفت حتى نهر الفرات وثبت أقدام المصريين فيما بين الشلال الأول والرابع للنيل . فتدفقت الجزى من كل جهة . فسجلت بأمر من تحوتمس على جدران معبد أمون بالكرنك ، الذى صار المنتفع الرئيسى بالفتوحات العسكرية . كما سجل هناك نقوشاً تثنى على فتوحاته

وأعماله الدينية الخيرة . وإن مقصورته اليوبيلة بالكرنك ، وبعض الآثار الطيبية الأخرى ومقابر موظفيه الجميلة (مثل رخميرع) ، تفصح عن عظمة مؤسس أعظم حقبة فى تاريخ مصر . ويمكن رؤية قبره فى وادى الملوك .

تحوتمس الرابع Thutmosis IV (١٤٢٥ – ١٤٠٨ ق.م.) ، ابن أمنحوتب الثانى ، ووالد أمنحوتب الثالث ، وظل يتمتع بالامبراطورية التى كونها جده ، دون الحاجة إلى قتال كثير . وقد اشتهر بسبب حلم جاءه وهو شاب . فبينما كان فى رحلة للصيد ، استراح عند قدمى أبى الهول بالجيزة فسمع أبا الهول يقول له ، إنه ليحزنه أن يرى نفسه مغطى بالرمال . فلما تبوأ تحوتمس عرش مصر ، أمر بإزالة الرمال من على أبى الهول ، وسجل هذه القصة على اللوحة التى لاتزال موجودة بين قدمى ذلك الإله .

تراث مصر الحى : يجدُّ العلماء الآن فى البحث عن بقايا حضارة مصر القديمة فيما يتعلق بالطرق الفنية والطقوس الدينية لشعوب أفريقيا . ولا شك أن علينا ألا نهمل أى دليل من هذا النوع ، ولكن يجب أن نركز على عاملين : وصلت إلى أفريقيا ، عن طريق مملكة مروى Meroe ، كثير من الأعمال المصرية ، وربما بعض المهارات الفنية والمعتقدات الدينية ، وكان أثرها ، لو كان لها أثر ، غير مباشر . ومن جهة أخرى ، فإن كثيراً من المعتقدات الدينية التى تبدو فيها مشابهة أو صلة بالمعتقدات المصرية ، يمكن أخذها عن مصادر أفريقية عامة ، دون أن يكون لمصر أية علاقة بها .

توجد فى مصر الحديثة بواق حقيقية كثيرة من مصر القديمة . وأسماء الأماكن القديمة التى لاتزال باقية فى الأسماء العربية عديدة جداً : مثال ذلك ، أسوان وكوم أمبو وإدفو وإسنا ودندرة ، وهذه كلها أسماء قديمة مثل الفيوم وأسيوط وصان وسمنود ودمنهور . لم تتغير حدود هذه المدن ولاتزال أسماء المدن القديمة باقية فى الأسماء الحديثة . وعلاوة على هذا ، فرغم الغزوات والفتوحات واختلاط السكان وتنقلاتهم ، فإن « الجنس » المصرى فى الوقت الحاضر ، منحدر ، بغير ما شك ، من الجنس المصرى القديم (انظر الأجناس) . وفضلاً عن المميزات الأنثروبولوجية الأساسية ، فمن الممتع ملاحظة بعض تشابهات خاصة بقدماء المصريين ناشئة عن عادات من أزمان غابرة . فمثلاً ، يميل الرجال عامةً إلى قص شعر رءوسهم قصيراً ، وتضفر النساء شعورهن ، وتضعن الكحل حول عيونهن ، وتتعطرن بكميات كبيرة من العطور .

يمكن رؤية مصر القديمة فى كل مكان بالريف . فلايزال الشادوف مستعملا ، كما كان فى العصور القديمة ، فى رى الحقول ؛ وكذلك المنجل والمذراة المستعملة فى تذرية الحبوب بعد الدراس . ولاتزال نرى « أخصاص » الغاب فى الحقول ، والبيوت المبنية باللبن والطين فى القرى ، وعلى

الأبواب دمى من القش كالتى كان يضعها أسلافهم . يبدو أن العالم القديم يظهر فى كل مكان : فلايزال الصانع يعمل فى الطريق أو فى حزانيت مكشوفة فى أغلب الأحوال . فهؤلاء صانعو سلال الخوص (المقاطف) أو سلال الغاب (السلال والسَّبَت) ، وهناك الأفران ذات الشكل الأثرى القديم مبنية فى العراء كما أنه لاتزال بمصر الأنوال البدائية لنسج الأقمشة ، ودولاب الفخارى الذى يبدو أنه أخذ مباشرة عن رسم قديم . وكذلك نرى المغنى بضع يداً على أذنه اليسرى والفلاحين يجرون فى الطرقات وراء الماشية يجمعون روثها المستعمل وقوداً (الجلّة) . وقد علّق هيرودوت على هذه العادة الغريبة . وتدل « أوستراكا » من الدولة الحديثة على أن هذا الوقود غير العادى استُعمل مع أنواع شتى من الخشب والحطب للحصول على الحرارة . ولم يتغير شكل الإبل والجاموس كثيراً فى الحقول والطرق عما كان عليه زمن الفراعنة ، بيد أن الدابة المستعملة أكثر من غيرها فى الطرق المتربة ، لاتزال هى الحمار بخطواته القصيرة كالمصور تماماً على جدران المقابر . ولاتزال المراكب (الفلوكة) تبنى على ضفاف النيل ، والمدهش أننا نراها تصنع من قطع صغيرة من الأخشاب توضع جنباً إلى جنب وتوصل ببعضها بنفس الطريقة القديمة الشاقة فى صبر وأناة كما كانت الحال فى الأيام الغابرة .

لا شك فى أن الإسلام أثّر تأثيراً عميقاً فى نفسية المصريين العامة بالريف ، وحدثت تجديدات كثيرة . ومع ذلك ، فقد بقى عدد عظيم من العادات القديمة . وبعض هذه المظاهر واضح ، وخصوصاً الروح المرحة . بيد أن هناك أيضاً مشابهات أعمق ، كما فى الحياة العائلية ، مثلاً — حب الأسرة للذرية والتباهى بالعائلات الكثيرة الأفراد ، وأهمية الأم العظيمة فى الأسرة ، إذ كانت تلك الأم صارمة فى الإشراف على أبنائها ، حتى ولو كانوا لصوصاً . ومن المظاهر المدهشة فى شعب يميل عادة إلى الوئام ، ولا يحب القتال ، ذلك العنف فى المشاجرات العائلية وتحول المنازعات الفردية إلى منازعات أسرية ، إذ تقتل كل أسرة أفراد الأسرة الأخرى أخذاً بالثأر ويختفى القتلة فى الحقول ومزارع القصب إذا ما تدخلت الشرطة أو السلطات الحربية فى وضع حد للنزاع . ويمكن الحصول على بعض المعلومات فى هذا الصدد ، بإعادة قراءة النصوص القديمة التى تصف مشاكل بيتيسيس Peteisis ، أو التنافس بين أهالى أومبوس ودندرة ، التى روى أخبارها جوفينال Juvenal .

هناك عدة مظاهر متبقية من الحياة الدينية والمعتقدات الشعبية ، كعيد شم النسيم فى الربيع ، وعيد أبى الحجاج فى الأقصر حيث يحمل الرجال سفينة على أكتافهم تكريماً لذلك الولى الذى يقوم مسجده وسط معبد الأقصر ، كما كان يفعل القدماء لتكريم أمون . وهناك عادات لاتزال باقية ، فيما يختص بالأعياد ، كتناول البصل فى شم النسيم . وكذلك استمرار حرق البخور ، وقص شعر الأطفال علامة على تكريسهم ، والخوف المستمر من العين الشريرة

(الحسد) ولبس التمائم كوقاية . وأخيراً ، الأهمية البالغة المنسوبة للعفاريت (= الجن) فى المعتقدات الشعبية . والعفاريت أرواح شريرة تسعى إلى امتلاك الإنسان ومتابعته أثناء الليل أو فى جوار المقابر ، هذه أيضاً من مخلفات الماضى . إنها الأروح المالكة التى كان يخافها قدماء المصريين أشد الخوف ، والتى تقول لوحة بنترش Bentresh ، إنها استولت على روح أميرة صغيرة . ولايزال أهل القرى يروون قصة ابنة الملك التى دفنت فى تمثال بقرة (سمع هيرودوت هذه القصة) . ولايزال هناك تقويم الأيام السعيدة وأيام النحس . فمثلاً « لا يجب أكل السمك فى اليوم السادس والعشرين من شهر كيهك » ، كما كان يحدث فى عهد الملوك الرعامسة .

بقيت بعض العادات الجنائزية حتى العصور الحديثة . ومن أوضح هذه العادات صياح أقارب الميت وأصدقائه ويعادله فى العصر الحديث الندب والتعديد . هذه صورة معبرة فى مقبرة رع — موسى Ramose ، وتَرى فيه النسوة متسربلات بثياب طويلة ومحتشدات جميعاً معاً ، يطلقن الصيحات المدوية ويغرقن جميع أحياء المدينة فى عويلهن الجنائزى .

وكما كان يفعل قدماء المصريين ، يذهب أقارب الميت بانتظام لزيارة قبره ، وحرق البخور هناك ، وتقديم الذبائح ، ويأخذون معهم الطعام . ومن العادات القديمة أيضاً أن يترك الرجال لحاهم تطول علامة على حدادهم . ولوحظ حديثاً أن هناك عادة فى الدلتا ، أن تُغسَل ثياب الميت كيلا يبقى أى جزء من روحه على الأرض . أليس من ألقاب إيزيس ونفتيس « السيدات الغسّالات ؟ » .

وبوسعنا أن نذكر عدة أمثلة أخرى . فلاتزال مصر القديمة موجودة فى آثارها ، وما فتئت حية ، دون وعى منها ، فى عدد كبير من القصص والعادات التى لا يشك الفلاحون المحدثون فى قِدمها .

تربية الماشية : كانت تربية الماشية من الأعمال الرئيسية لسكان الصحراء فى عصور ما قبل التاريخ . وكانت الصحراء فى ذلك الوقت تشبه أراضى الاستبس Steppe ، ومن أطلال قراها ، نعرف أنه منذ سنة ٥٠٠٠ ق . م . ، كان لدى شعب وادى النيل ، كما لدى مزارعى عصرنا الحاضر ، فى جميع أنحاء الدنيا ، كلاب وخنازير وأغنام وثيران وأبقار . وحتى عصر بناة الأهرام (سنة ٢٨٠٠ ق . م .) لم يستقر رأى المصريين على أىّ الحيوانات يستأنسون . ولا يدهشنا أن نرى الحيوانات الأليفة تساق إلى الذبح جنباً إلى جنب مع الحيوانات المتوحشة . فنرى قطعاناً ضخمة من الثيران والغزلان والماعز والوعول والأغنام الأليفة مع المعز الوحشية . كما نرى منظراً مروعاً آخر ، إذ نرى الضبع المفترس وجميع الحيوانات المفترسة التى صادوها من الصحراء مربوطة فى حظيرة لكى يُغذّوها باليد . ومن الملاحظ ، أنهم لم يعرفوا كلب حراسة الأغنام . كان من السهل على نفر قليل أن يسوقوا قطيعاً من الأبقار والعجول ، أما الرجل الواحد فلا يستطيع أن يسوق غير حيوان ذكر واحد أو اثنين ،

على الأكثر ، سواء أكان غزالاً مدبب القرون أو تيساً سريع الهياج ، أو ثوراً وديعاً سميناً . ترك المصريون ، فى الدولة الوسطى ، فكرة محاولة استئناس حيوانات الصحراء التى إذا أرادوا أن يحتفظوا بقطعانها فى الحقول ، تركتها فى الحال وفرّت هاربة ، ولذا لا نجد إلا قطعاناً كبيرة من الأغنام والخنازير وأهم أنواع الماشية قد عُهد بها إلى واحد أو اثنين من الرعاة .

وجدت الماشية كثيراً من أعشاب العلف فى الحقول المحيطة بالمنخفضات الأرضية ، وكان الراعى المصرى شبه متوحش ، يسكن المستنقعات ، وليس من البدو الرُّحَّل المتجولين على حافة الصحراء . وهناك نقش توضيحى بين النقوش البارزة القديمة ، يبين الأبقار والعجول وهى تعبر النهر على مقربة من التماسيح ، ويقودها رعاة عراة الأجسام يعنون بها عناية فائقة ، وهى تخوض النهر وتعوم فيه . ولكن يبدو أنه بمرور الزمن ، أخذت أهمية الرعى ، وخصوصاً رعى الماشية ، تقل بسبب اتساع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة ، والتغيرات المناخية فى منطقة النيل السفلى . بلغت الضرائب أقصاها إبان حكم ملوك منف على الماشية الكبيرة والصغيرة ، أما فى الدولة الحديثة ، فكان أكثر الدخل من الحبوب . وكان الفراعنة ، فى خلال جميع عصور التاريخ ، يزيدون من القطعان باستمرار بالإغارة على مواشى الدول الأخرى ، أو بالحصول على جزية من الماشية النحيفة الوافرة الصحة ، التى كان يربيها أهالى السودان وليبيا وآسيا فى أراضيهم القاحلة . وكان الفلاح المصرى يحتاج دائماً إلى الأبقار والأغنام لتساعده فى أعمال الحقل . كما كان المصريون يستهلكون كميات ضخمة من اللبن واللحم والدهون . وكان للرعى تأثير على أفكار المصريين الدينية ، وبذا نشأت أسطورة البقرة السماوية والثيران المقدسة ، ولبن القربان وغيرها من الأساطير التى لعبت فى ديانات العصور اللاحقة دوراً لا يتناسب فى حجمه مع الأهمية الضئيلة التى أولوها إلى تربية الماشية ورعيها فى الاقتصاد القومى . (انظر الزراعة والطيور والحصان) .

التشاؤم Pessimism : مهما صادف المصرى اليوم من سوء حظ فإنك تجده مبتسماً دائماً . وكذلك ، تبعاً لما نعلم ، كان الفلاح فى قديم الزمان ، يثق فى إله بلده وفى طلاسمه ، وكذلك أيضاً كان الكهنة والكتبة . وقلما يبدو أن المجتمع المصرى كان يجد متعة فى أى فن أو أدب محزن أو جالب للكآبة . لا شك أن مؤلفى الحكم القديمة ، والأدب القديم ، وكُتّاب الدعاية فى الدولة الوسطى ، كانوا يعرفون ضعف البشر وفسادهم ، ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً أن الملك الإلهى والحكم الصالح لماعت هما الحارسان للجميع .

ومن المؤكد أيضاً أن قدماء المصريين كانوا يخشون أن يُلقَوْا فى عالم النسيان بعد الموت ، بيد أنه كان تحت تصرفهم مجموعة من الطقوس والطرق الفنية التى تُمكّن كل فرد ، حسب موارده وأعماله ، من أن يتمتع بالحياة ، حتى فى قبره . ومع ذلك ، فقد

جاءت فترة ، ارتمت فيها النفوس ، حتى أعظمها مرحاً ، فى أحضان اليأس . كان ذلك إبان « الثورة » .

« أفكر وأمعن التفكير فى هذه الأحداث ، وفى الخطط التى أسفرت عن معاناة المملكة . تحدث تغيرات . لم يعد الأمر كما كان فى العام الماضى ، فكل سنة أشق احتمالاً من سابقتها ــ لقد انقلبت المملكة رأساً على عقب ! » .

استُعملت طريقة تعبير تختلف عن هذه ، فى عهد آخر : « ليت عندى كلمات غير معروفة ، وتعبيرات غريبة تؤلف لغة جديدة ، لغة غير معروفة ولا يمكن نقلها بالكتابة ، إذ لا توجد ألفاظ فى اللغة القديمة . (تعبر عما فى قلبى) إنى أعتصر قلبى لأحصل على ما فيه » .

هذا الرجل الأديب الذى يشكو بتلك الطريقة ، يكتب بعد هذه الأيام المريرة بمدة طويلة . لأن التشاؤم الناتج عن ذلك الوقت التعس ، ظل عالقاً بأذهان المؤلفين واتخذوه موضوعاً محبباً (كما هى الحال فى التشكك إزاء جدوى الطقوس الجنائزية ، الذى ظل مدة طويلة موضوع عازفى القيثارة) . ومن المعروف جيداً أن هذه الحالة الأدبية قد أوحت ، فى عصرها ، بالقصيدة الرائعة عن « الرجل الذى سئم الحياة » . فبعد الكارثة العامة ، بات رجلاً وحيداً ، فسأل نفسه ، يقول لها : « إلى من أتحدث اليوم ، إذ لم يبق أناس عادلون ؟ إلى من أتحدث اليوم ، إذ صارت المملكة مُقام الأشرار ؟ إلى من أتحدث اليوم ، وأنا محمَّل بالبؤس ومجرد عن الأصدقاء ؟ إلى من أتحدث اليوم وقد ضرب الشر أطنابه فى المملكة ؟ ماذا ستكون نهاية ذلك ؟ يرحب بى الموت اليوم كعلاج لدائى ــ أشبه بالخروج فى نزهة على الأقدام بعد مصيبة . يرحب بى الموت اليوم كعطر اللبان ! » .

تصفيف الشعر : « لا يفكر قلبى إلا فى حبك .... أسرع سرعة نحوك بشعرى غير المرتب ..... ولكنى سأُعد خصلات شعرى وأكون على استعداد فى لحظة » .

إن كان هناك أى شك فى هذا الموضوع ، فالنصوص القديمة كافية لبيان اهتمام المصريين بتصفيف الشعر .

تصف مخطوطات البردى الطبية مراهم عديدة لجلدة الرأس ، وكثيراً من المحاليل لمنع الصلع وعلاج الشعر الأشيب . كانت مجموعة مستحضرات علاج الشعر متنوعة وكثيرة ، بجميع عطورها ومثبتاتها . ولما لم يكن نجاح هذه المستحضرات فى علاج الشعر ، أفضل مما فى عصرنا ، ولم تكن العقاقير ذات أثر فعال ، فلجأ الرجال والنساء إلى الشعر المستعار وجدائله . وكثيراً ما صنعت الباروكات من الشعر الطبيعى ، وأحياناً كانوا يخلطونه بالألياف النباتية ، ويلبسها أفراد الطبقات العليا . وكانوا يلبسون الباروكات فى الحفلات ، حتى ولو كان الرأس محتفظاً بشعره . وكان المحظوظون من الأموات يأخذون باروكاتهم معهم ، مصففة بعناية داخل علب ، إلى العالم الآخر . وسواء أكان الشعر طبيعياً أو مستعاراً ، كان يصفف فى عدد من الجدائل الصغيرة أو إلى عدد من الخصلات بطريقة أفريقية نموذجية . وعادة ما كان الرجال يسوون شعورهم فى شكل مستدير يتبع

خطوط رءوسهم . وكان الشعر متوسط الطول يسمح بعدد من طرق التصفيف المختلفة ، وكانوا يخفون آذانهم أحياناً ، وأحياناً أخرى يتركونها ظاهرة . وأحياناً كانوا يرسلون الشعر على القفا ، وفى بعض الأحيان يرسلونه على أحد جانبى القفا . وكانت هناك طريقة لتصفيف الشعر طويلاً حتى يصل إلى الكتفين . ولبعض الباروكات خصلات تصل إلى الصدر ، وكان يوجد منها عدة أشكال متنوعة .

كان شعر النساء عادة طويلاً مسترسلاً على أكتافهن وأعناقهن ـ كانت هذه طريقة تصفيف شعر الربات دائماً . غير أن البشر ، بين آونة وأخرى ، كانوا يتفننون فى ابتكار طرق جديدة تتفق مع العرف السائد فى وقتهم . وإذا أرادت المرأة أن تحيد عن العرف العام ، كانت تقص خصلات شعرها عند كتفيها ، أو تجعله على الطريقة المستديرة ومن التسريحات الطريفة فى العصور المبكرة أن تحاكى السيدات الأنيقات الرجال فى تصفيف الشعر ، بينما كان العكس فى الدولة الحديثة كانت النساء يصممن الطريقة فيحاول الرجال منافستهن فيها . أما فى الدولة القديمة ، فقد شاع الطراز القصير البسيط ، ثم صار فى الدولة الحديثة أكمل وأكثر أناقة وغزارة . واتخذت الأشرطة المتعددة الألوان والأزهار لتحسين منظره . وكانوا يضعون فوق الشعر مخروطاً معطراً من الزيت ، ينصهر بالحرارة فى بطء ، ويسيل فى تيار جميل فوق الرأس والكتفين ، ويكسب البشرة طبقة من الزيت ، ويجعل الملابس تلتصق بالجسد . حدث رد فعل لهذا الإسراف ، فبدأ الكهنة يحلقون رءوسهم ، فجرت هذه العادة قاعدة .

أما الأطفال فيضفرون شعورهم دائماً فى جديلة طويلة تتدلى فوق الصدغ الأيمن ، وهذا هو السبب فى أن هذا الرمز الهيروغليفى كان بمعنى طفل (انظر الرموز الهيروغليفية) .

التصوير Painting : كانت أعواد الغاب ذات الأطراف المبرية والفراجين الصغيرة المصنوعة من ليف النخيل وأقداح الماء ، ولوحات مزج الألوان المصنوعة من الأصداف أو قطع الفخار المكسورة هى عدة المصور المصرى للتصوير على الجدران بالأصباغ المحلولة فى الغراء وزلال البيض . ولكى يحصلوا على الألوان المطلوبة ، كانوا يمزجون به الألوان الأساسية التى كانوا يحتفظون بها على هيئة أصابع من المسحوق ، أو يضعون لوناً فوق آخر . والألوان التى كانت لديهم هى : الأسود ، من الكربون ، والأبيض من الجير ، والأحمر ، والأصفر من أكاسيد الحديد ، والفيانس المسحوق للأزرق والأخضر .

واستعملوا الألوان ذات المواصفات الخاصة للكائنات المقدسة ، والألوان النموذجية والتقليدية للمخلوقات البشرية (فصوروا الرجال باللون البنى المائل إلى الحمرة والنساء بلون أفتح) ، والألوان الصناعية لمحاكاة ألوان الأحجار والأخشاب ، والألوان الحقيقية البهيجة للتقدمات ، والألوان المرقطة لفراء الحيوانات . ويمكن رؤية الألوان خلال غلالة شفافة (الأجسام المكسوة بالثياب أو الأجسام الموجودة تحت

الماء) ، أو يمكن استعمالها لتوحى بمظهر الموت دون استعمال مظهره الحقيقى (كما فى حالة الطيور) . أَحَبَّ قدماء المصريين الألوان البهيجة المنظر . فظهر الأثاث مطعَّماً والمجوهرات مرصعة ، ولُوِّنت القصور بألوان زاهية ، وطنافس الجدران بألوان متعددة . ودائماً ما اعتمد فن السحر المصرى ، الذى حاول خلق كائنات حقيقية حية ، على استخدام الألوان التى لعبت الدورنفسه الذى يلعبه ضوء الشمس فى الطبيعة . فطُليت جميع التماثيل ، من

النماذج الخشبية إلى التماثيل الحجرية الضخمة ، بالألوان . فنرى ، فى « كتب الموتى » الخاصة بالموسرين ، صوراً صغيرة تزينها كأنها نماذج مصغرة من اللوحات الضخمة . واستخدمت الألوان بغزارة فى طلاء المبانى المبنية بالأحجار وبالآجر ، عموداً عموداً ، ورمزاً رمزاً ، وحرفاً حرفاً من النقوش الهيروغليفية . ونرى مناظر الطقوس الدينية والخليقة والمعارك فى المعابد ، ومناظر الطقوس ومناظر الحياة اليومية فى المقاصير ، والتماثيل الإلهية والتماثيل الحارسة ، سواء أكانت منحوتة أو منقوشة نقشاً بارزاً ، أو ملونة فى صورها المرسومة بمستوى السطوح ، فى القبور تحت الأرضية ، وقد بدت كأنما تدب فيها الحياة بواسطة ألوانها . تُقَدِّم لنا ثلاثة آلاف سنة من التصوير شيئاً يلائم كل ذوق ، بدءاً من أعمال الدولة القديمة ذات الأبعاد الضخمة

والطابع المهيب إلى البرقشة اللونية التى تشيع فى الأثاث الجنائزى الذى انتشر فى عصر الملوك الكهنة . ومع ذلك ، فقد فقدت جدران المعابد طبقة المصيص التى كانت محتفظة بألوانها البهيجة . كما عمل الزمن على أن تفقد التماثيل والنقوش البارزة فى أجمل القبور ، رونقها وبريقها . والحقيقة هى أن اللوحات الجدارية قد حلت محل النقوش الملونة البارزة الأبهظ تكلفة فى مقابر طيبة الدنيا (من عهد الأسرات ١٨ — ٢٠) ، ويمكننا رؤيتها أينما احتفظت الحوائط المتداعية المبنية بالحجر الجيرى البسيط ، أو المغطاة بطبقة المصيص ، أو الطين التى تحمل الصور برونقها والتى قاومت عبث الأقباط والبدو ، ولكى ندرك القيمة الحقيقية لهذه اللوحات ومذاهبها وخيالها وتكوينها وطرازها ، ونحن نتأمل أشخاصها المسحورين وهم يُصلّون ويكدحون ، ويحرثون على خلفياتها الزرقاء أو البيضاء أو الصفراء ، علينا أن نزور مقابرهم ، التى هى فى حد ذاتها متاحف للفن ، وأن نرى تلك الكائنات ، التى هى فى الحقيقة ذات بُعْدَيْن ، وحيث يحسب الزائر أنه أمام عالم سحرى يتجسد فى مقابر منا ، ونخت ، ورع موسى ، وكثير غير هؤلاء من سكان طيبة . هناك فقط ، يمكننا أن نتعلم دروس أولئك الأساتذة أنفسهم ، غير المعروفين جميعاً لنا (انظر : — الفنانون ، والرسم ، والفن) .

التعبير بالرموز Symbolism :

جرت العادة ، أن نقول إن ذلك التمثال « يرمز إلى » هذا أو ذاك . ومن باب التعميم ، نقول إن الرمز شىء مادىّ يمثل فكرة معنوية . (ومن هذا القبيل ، الصور السحرية الموجودة فى وادى الملوك ، التى

تصف شروق الشمس ، الدائم أبداً) .
وبناء على هذا ، يُستعمل اللفظ « رمز » فى علم الآثار المصرية بعدة معان . فلم يكن فرس النهر فى جوهره ، « رمزاً للشرّ » ؛ ولكن ضخامة الحيوان كانت مصدر متاعب للمصريين وسبباً فى إهلاك زروعهم ؛ فإذا ما قُتل أو حُطم تمثال له ، زال الشرّ .

وبنفس الطريقة إذا ما قدَّم الملك زهرة لوتس للشمس ، أعاد خلق بداية العالم فى صورة مادية ، وضمن استمرار الكون . نشأ التصور المصرى للدنيا من ممارسات المصريين السحرية التى اجتمعت فى نظام عال مرتبط بسياسة الدولة ويتسم بالترابط والمنطقية والروعة التى تذهل النفس والوضوح ، ولم تكن مجرد رموز تأملية يرمى بها الانسان وفقاً للهوى . وبقدر ما يستطيع المرء أن يستنتج ـ لأن الأدب الإلهى المصرى عسير التفسير ـ نقول إن للرُّقى والطقوس والمناظر أثرا مباشرا على الأشياء المادية ، ولم يقصد بها التأثير على فكرة ميتافيزيقية عن الأشياء . ونتيجة لسوء الفهم الناتج عن اختلاط المذهب المثالى الإغريقى وعلم التنجيم البابلىّ والعلوم الطبيعية المصرية ، كوّنَ الفلاسفة الإغريقو رومانيون ، ولاسيما الأدب الهرميسى ، نظرية مدهشة تقول إن الديانة الفرعونية تخفى فى رموزها الهيروغليفية أفكاراً غامضة كل الغموض .

نشأ حول آخر تطور لهذه النظريات ، « علمُ الأهرامات » ، الذى أثار جدلا حاداً ، ويفترض علم المصريات الرمزى أن حكماء الماضى الذين عملوا على هدى النجوم معصومون من الخطأ ، وبذا يجعل أى حقيقة تاريخية شيئاً ثانوياً أو فرعياً ، ويختار بعض مناظر المعابد على أنها مفاتيح التفسير ، مستخدماً تفاسير عن الخزعبلات الغامضة والشعوذة المنظمة ونظريات العلوم الوضعية العامة ، كى يبرهن على أن الآثار المصرية تخفى وراءها معارف مطلقة ، وترمز إلى التوافق التام بين العالم والأرض والجسم البشرى والإيقاع الكونى حول المبادىء وما إليها . ولا صلة لهذه الطريقة بالبحث التاريخى كما يعتقد البعض أحياناً . فلا ينتج عن هذا غير نظريات متجددة أشبه بنظريات السيميائيين فى العصور الوسطى التى تأسست على أفكار عتيقة بالية . وطريقة التفكير هذه هى صورة أخرى من المعتقدات الخفية الغامضة التى تنحو لها بعض الجماعات الأوربية وهى تسمو بجوهر سائر المفاهيم الفلسفية والأفكار العلمية المتقدمة وكافة الديانات إلى ما وراء حدود العالم الملموس ، أما الشعبية النسبية التى تحظى بها بين بعض المتعلمين فيمكننا تفسيرها بالهالة التى يحيط بها البشر الشعر الأسود ، وبنزوع أبناء العصر الحديث إلى النظر إلى الحضارات الغابرة بعين العاطفة لا العقل ، بعد أن منت السماء علينا بالوحى عن طريق شامبوليون .

التعليم : يقول قدماء المصريين ، إن آذان الصبى فى ظهره ، فهو يصغى عندما يُضرَب . وإذ عبَّر قدماء المصريين عن نظريتهم فى التعليم بهذا القول ، وضعوا

عدة مميزات لمختلف أنواع التعليم . كان التعليم فى البيت أكثر أنواع التعليم شيوعاً . فيقول ديودور ، إن الآباء كانوا يعلمون أولادهم العناصر الأساسية لمهنتهم . وقد تغلغلت عادة تعليم الآباء لأولادهم فى التقاليد المصرية القديمة ، حتى قدّم مؤلفو الرسالات التهذيبية (انظر أدب الحكمة) فى صورة وصية من أب لابنه .

أما الملوك فعهدوا بتعليم أبنائهم وبناتهم الذين من الدم الملكىّ ، إلى مؤدبين مختصين . وأرسل الصناع والموظفون أولادهم ليتتلمذوا على يد الأساتذة . ثم جاءت المرحلة الثانية عندما جُمع عدد من التلاميذ تحت إمرة أستاذ واحد ، وأرسلت عائلات النبلاء أولادها ليتعلموا فى فصول مع أطفال الملوك . وكان للمصالح وإدارات الحكومة مدارسها الخاصة ، كما طُبّق هذا النظام فى المعابد . (انظر بيت الحياة) . نعلم أنه كانت هناك مدرسة إبان الدولة الوسطى ، فى العاصمة ، لتعليم جيل من الموظفين للمستقبل . ولكن لم تذهب البنات إلى المدرسة ، وبقين فى معظم الأحوال أميات . ولم يتلق التعليم المدرسى سوى الصبيان المزمع تعيينهم كهنة أو فى المناصب الإدارية المدنية . كان الطفل يذهب إلى المدرسة وهو فى حوالى العاشرة من عمره ، ويبقى فيها أربع سنوات تقريباً ويتتلمذ فى هذه السن . وليس لدينا أى

دليل على وجود امتحانات قبل عصر البطالمة .

وكما فى المدرسة الحديثة ، يتعلم الأولاد القراءة بأن يغنوا الفقرات المختارة معاً ، كذلك كانت الحال وقتذاك . أما الكتابة فتعلموها بنقل النصوص . ويوجد الكثير من هذه التمارين محفوظاً فى ألواح أو على الأوستراكا . أما الرياضيات فكان دورها ضئيلاً جداً فى الخطة التعليمية التى كانت أدبية قبل كل شىء . وقد دُرس فى الدولة الحديثة ما كتبه بعض المؤلفين المدرسيين والحكماء الذين كتبوا منذ ١٠٠٠ أو ١٥٠٠ سنة ، ولم تعدُ لغتهم مستعملة فى الكلام . كانت أشبه بألغاز لأولئك التلاميذ الذين قلما كانوا يفهمون ما يكتبون . واستُخلصت فى تعليم الكتبة مجموعات من الرسائل ونماذج التقارير . كما تضمنت المختارات الأدبية بعض القطع التهذيبية لتشجيع التلميذ فى دراسته ، ومن أمثلتها : « أيها الكاتب ، لا تكسل ، والا أصابك الندم ولا تنغمس فى الملذات وإلا كنت من الفاشلين . اكتب بيدك ، واقرأ بشفتيك ..... فبوسع القردة أن تتعلم الرقص ، ويمكن تدريب الخيول » . كان التعليم تدريباً فى الكتب . ولم يهتموا إلا قليلاً بالألعاب الرياضية إذ اعتبروا الكتابة كافية لتكوين الشخصية . ولقد كانت المعرفة صنوا للفضيلة عند المدرسين المصريين والكُتّاب .

التقويم : وضع قدماء المصريين تقويماً وأحكموا وضعه ، حتى ليقول خبراء التقاويم : « لا شك فى أن ذلك التقويم هو التقويم الوحيد الذى عُمل بذكاء فى التاريخ البشرى كله » .

قسّمَ التقويم المصرى السنة إلى ٣٦٥ يوماً ، وجعلوها اثنى عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً وخمسة أيام نسىء تضاف فى آخر

كل عام . ثم قسموا الشهر إلى ثلاثة أقسام كل منها عشرة أيام . وقسمت السنة إلى ثلاثة فصول كل منها من أربعة أشهر ، وهي : « الفيضان ، والشتاء والصيف » . وكانوا يكتبون التاريخ هكذا : سنة ٥ ، ثالث شهر من الشتاء ، يوم ١٣ . وأخطأ قدماء المصريين في اهمال اضافة السنة الكبيسة ، وهذا مما ساعد على تحديد تواريخهم . ولما كانت طريقتهم بسيطة ومباشرة ، فهي جيدة كطريقتنا ، وتمتاز بتساوى عدد أيام شهورها . وقد اعترف علماء الفلك الهيلينيستيين بميزة التقويم المصرى واعتمدوا استعماله فى حساباتهم ، وظل مستعملاً فى العصور الوسطى ، وانتفع به كوبرنيكوس ؛ وربما عاد العالم إلى استعماله فى يوم ما . وإنا لنذين إلى قدماء المصريين بتقسيم اليوم (الليل والنهار) إلى ٢٤ ساعة ، ومع ذلك فلم تكن ساعاتهم متساوية الطول . فاختلف طول كل ساعة من ساعات ضوء النهار الاثنتى عشرة وساعات الظلام الاثنتى عشرة أيضاً باختلاف فصول السنة . ففى الصيف ، كانت ساعات النهار طويلة وساعات الليل قصيرة ، وعكس هذا فى فصل الشتاء . ورغم هذا ، فقد كانت « الساعات المتساوية الطول » معروفة فى ذلك الوقت . كان علماء الفلك الهيلينيستيين هم الذين قسموا الساعة إلى ستين دقيقة ، وبذا اعتمدوا الطريقة الستينية التى أصلها من بابل . ولكنهم احتفظوا بالمبدأ المصرى ، ثم نهجنا نحن نهجهم .

التمائم : كانت قوة السحر المحاكى عظيمة ، لدرجة أنه كان بوسع ذلك السحر أن يعطى الحياة لتمثال يشبه صاحبه (انظر الفن) . فقد سعى المصريون إلى الدفاع عن الحياة الأبدية للشخص المحنط بتغطيته بهذه الأشكال منظومة فى عقد ، أو مطوية داخل اللفافات . وكانوا يصنعون تلك التعاويذ الجميلة المبهجة من الذهب ، أو البرونز ، أو الحجر ، أو الزجاج ، وفى معظم الحالات من الفيانس (الخزف المزجج) . وإنه ليتعذر فى هذا المقام أن نعطى قائمة كاملة بهذه التمائم ، أو نشرح وظيفتها السحرية (تبين نصوص « كتاب الموتى » ، وطقوس التحنيط ، كيفية استعمال بعض التمائم) . وإن مجموعة كاملة من هذه التمائم لتملأ معرضاً كاملا لها . بيد أن هذا العالم المصغر يحوى الديانة الفرعونية بأسرها . « تسهر المجموعة الكاملة للآلهة والحيوانات المقدسة على سلامة جسمك . وتملؤك الشارات الملكية بقوة فرعون فوق البشرية . وتنقل إليك الرموز الهيروغليفية المنحوتة على الحجر ، قوتها الإلهية ، وتعطيك « الحياة » و « الحيوية » والوعى (حرفيا : القلب) ، والسيطرة على يديك وساقيك ، والأهم من كل هذا ، اسمك » (أنظر الخرطوش) .

أما رمز ميزان البناء فيعطى ضماناً للثبات الدائم ، وأقوى الطلاسم جميعاً وأكثرها شيوعاً ، هو الجعران ، وأعمدة الجد وعقد إيزيس والعين أوجات ، التى تمثل العين منزوعة من إله السماء ، وتحتها أداة غريبة تشبه خد الصقر ولهذه العين قوة على رؤية كل شىء ، وتعطى الازدهار البدنى والاخصاب العام ؛ كما أنها موضوع

محبوب لدى مقلدى الآثار فى العصر الحديث .

وإذ عرف الأحياء قوة التمائم ، كانوا يتزينون بها ويصنعونها على هيئة حلى ، مثال ذلك : الخرطوش الملكى ، ووجه أحد الآلهة داخل صدرية كبيرة (درع aegis) ، والأزهار ، والأصداف المأخوذة من البحر الأحمر ـ ولاسيما للسيدات . وكانت صورة الإله بس Bes والربة تاورت تعاويذ واقية قوية (انظر فرس النهر) . ولم تستعمل العين أوجات والقلب ، والجعران ، وعمود انجد ، وغيرها للأغراض الجنائزية فقط بل كانوا يشفون المريض بأن يضعوا حول رقبته عقدة من نبات البوص أو عقداً مضفوراً من البصل ، وأحياناً يصفون له علاجاً أغلى نفقة ، عبارة عن ٤٠ خرزة عادية ، منها سبع خرزات من الحجر الأخضر وسبع أخرى من الذهب ، وكانوا يستعملون سبعة خيوط من التيل لضمان رفاهية الطفل المولود قبل أوانه .

التماثيل Statues : فلنترك من الحساب مؤقتاً ، النماذج وتماثيل الحيوانات والأجانب ، التى أعجب بها الناس فى الدولة الحديثة ، فإن تماثيل مصر القديمة ، من التماثيل العملاقة إلى التماثيل المجيبة نيابة عن الميت ، مدهشة جداً بسبب منظرها الوقور الجذاب . فوجوهها الغامضة مشبعة بالشخصية . تخطو القدم اليسرى إلى الأمام ؛ ويقوم البشر والآلهة بـ « المسيرة الساكنة » التى أشار بها العرف الفنى المصرى . صُوِّر الآلهة والملوك والموتى فى حياتهم الخالدة على أنهم ينتظرون الصلوات والقرابين ، فمنذ حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. عندما حل « الطراز المصرى » محل تماثيل عصور ما قبل التاريخ ، التى تبدو بدائية إزاءه ، صُنعت آلاف من التماثيل الكبيرة والصغيرة ، منحوتة فى الخشب أو من الحجر ، أو مسبوكة من البرونز أو الذهب أو مُشَكَّلة من الفخار أو الخزف . ونتيجة لذلك ظلت أسماء الملوك القدماء وملامحهم حية يعرفها كل فرد ، وبدونها لم يكن ليعلم بهؤلاء سوى علماء الآثار وإخصائى النقوش المكتوبة على التماثيل . وأمام التمثالين الكلاسيكيين لخفرع ومنكاورع الشديدى الصلابة ، يبدو تمثال منتوحتب ، الأبيض والأسود ، كشبح بطل من العصر البائد . ومُثِّلَ الملكان سنوسرت وأمنمحات على أنهما رجلان متألمان ، بأسلوب « الواقعية الطبيبة » ، وعلى أنهما إلاهان بشريان بـ « المثالية المنفية » . وصُنعت تماثيل إخناتون المقلقة ، وتماثيل نفرتيتى ، فى تل العمارنة ، على نسق الملامح الباسمة لحتشبسوت وتحوتمس وأمنحوتب . أما تمثال رمسيس العظيم فانتصرت فيه العظمة على كل ما عداها . وبعد ذلك جاءت تماثيل الزوجات الإلهيات المصنوعة من البرونز . وأخيراً تماثيل الإثيوبيين وملوك سايس ونختنبو الأول والثانى التى تفوقت جميعاً على الكلاسيكية السابقة ـ ثلاثة آلاف سنة من النحت تتجدد عظمتها باستمرار .

بعد أن يُعطَى الميت الحياة باحتفال « فتح الفم » يقوم النحات « مُشَكِّل الحياة » بنحت الجسم المقصود أن يعيش إلى الأبد . لابد أن يكون التمثال صلباً وأن

يطابق النمط المطلوب . وبمرور الزمن ، ورغم رأى أفلاطون ، تغير قانون النسب ، أما الأنماط وطرقها ومميزاتها فلم تتغير إلا قليلاً .

تماثيل الآلهة والملوك كثيرة لا تحصى ، غير أنه لم يُعبد منها سوى القليل . كان بالمعابد تماثيل من الخشب والمعدن ولكنها اختفت الآن ولم يعد لها وجود وبعض تماثيل الملوك الحجرية ، التى يحمل كل منها اسم ملك . ولم يُقصد بتماثيل الآلهة العديدة الموجودة الآن فى المتاحف وفى العراء ، إلا زيادة قدرة أولئك الآلهة وقوتهم . (وقد جرت العادة على نحت وجوهها على صورة الملك الحاكم) . كان بوسع كل شخص أن يقتنى نموذجاً صغيراً من البرونز أونسخة من التمثال المبجل ، كتميمة واقية له . وتقوم التماثيل الملكية العظيمة بدور مسكن فى المعبد لروح الملك . وأحياناً ، كما فى بعض تماثيل الدولة الحديثة وما بعدها ، صُنع تمثال الملك فى هيئة متعبدة أو كهنوتية ، أو مثل ممسكاً بأحد الأعداء لأغراض سحرية تضمن النصر . كذلك صُوِّر الملك مع الآلهة فى « مجموعات » .

وُضعت فى مقاصير المقابر تماثيل عديدة ، غالباً ما صُنعت بغير اهتمام ، للأفراد العاديين ، لكى تمثل جسم الشخص الميت عند تقديم القرابين له ، ولتكون له ملجأ إذا لم تكن مومياؤه صالحة للسكنى . كما كانت تلك التماثيل تُكَرّس لمعبدٍ ما حتى يستطيع صاحبها ، أن يشترك إلى الأبد فى الطقوس واهبة الحياة ، وفى القرابين المقدمة للإله .

عُرفت الأنماط الرئيسية للتماثيل الخاصة فى الدولة القديمة . فكان بوسع كل موظف كبير أن يصنع لنفسه تمثالاً واقفاً لا يتحرك أو يمثله وهو سائر أو جالس أو متربع مثل « الكاتب المتربع » أو كفرد فى مجموعة مع زوجته (يمكن أن يكون تمثال الزوجة من نفس حجم زوجها أو أصغر منه قليلاً) وأولاده (ولا يكون هؤلاء أعلى من رُكَب والديهم) . وعلى مَرّ العصور ، تغير نمط هذه التماثيل تبعاً للطراز السائد . وظهرت ، فى الدولة الحديثة ، الثياب المغضنة وباروكات الشعر المستعار الكثيفة ، فى تفاصيل دقيقة ، يقوم بها النحات فى عناية ومهارة . أما فى الحقبة المتأخرة فساير صنع التماثيل الاتجاهات العالمية لذلك العصر (نموذج شرقى للثياب ، أو عباءة « مقدونية ») ؛ غير أنهم كانوا يفضلون « نقبة » قصيرة ولباس الرأس البسيط ، اللذين كانا الزى العادى ، لهذه التماثيل الخالدة . وحظيت بعض الأشكال الجديدة للتماثيل بأهمية بالغة . فكان هناك التمثال المصمت الذى يبين الرجل فى تفكير وتأمُّل ورزانة (من الدولة الوسطى وما بعدها) ، وتماثيل ممسكة بلوحات حجرية ، مثبتة فى الواجهة الخارجية لمقابر طيبة (النص المنقوش على هذه اللوحات التى يمسكها صاحبها ، عبارة عن ترنيمة ترحيب بالشمس المشرقة) . وأخيراً ، هناك تمثال الرجل الممسك برمز الإله أو بمقصورته أو بتمثاله (من الدولة الحديثة وما بعدها) . أضفت كل هذه التماثيل على المتوفى مسحة ربانية ، وبما أن اسمه منقوش عليها فهى تمنحه الحياة الأبدية ، حتى إذا كان النحات

لم يخرج تقاطيع وملامح وجهه فى دقة وإتقان .

التماثيل الضخمة : نحتت كثير من التماثيل الضخمة للملوك حتى بلغ ارتفاع أحدها ٢٧ متراً (لاتزال بقاياه فى مدينة تانيس) ، وصُوِّرَ الملوك فى تماثيل من كتل بالغة الضخامة (كتلة واحدة لكل تمثال) ، من الحجر الرملى أو الحجر الجيرى أو الجرانيت . وذلك فى عهد مبكر يرجع إلى الدولة القديمة . غير أن أضخم التماثيل صنع لاثنين من فراعنة الدولة الحديثة ، هما أمنحوتب الثالث ، الذى عرف فيما بعد باسم ممنون ، ورمسيس الثانى ، الذى صنعت له عدة تماثيل ضخمة تشبهه تمام الشبه ، وكذلك عدة تماثيل بالحجم الطبيعى . وقد احتاج صنع هذه التماثيل الضخمة إلى مهارة الفنان الابتكارى مع دقة المهندس المعمارى . لأن الفنان قلما كان يستطيع رؤية موضوعه أكثر من مرة واحدة . ونرى مثل هذه الموهبة فى عمالقة الصخر بأبى سمبل . إلا أن هذه التماثيل المنحوتة فى وجه الصخر لم تتضمن المشكلة العامة لمسألة النقل والإقامة التى تتضمنها التماثيل الضخمة التى نحتت فى المحاجر ثم نقلت وأقيمت أمام معابد على مسافات بعيدة . وُجدت قطع من هذه التماثيل فى مدينة تانيس (عين طولها أكثر من ٤٠ سم وقدم طول إصبعها الكبرى يزيد على ٦ سم) وكذلك فى الرامسيوم . والتماثيل لضخمة التى أعجب بها هيرودوت فى منف . ويمكننا ، اليوم ، أن نرى اثنين من هذه التماثيل الأخيرة فى حالة جيدة ، وهما : تمثال رمسيس المصنوع من الحجر الجيرى ارتفاعه ١٣ متراً) ولايزال فى الموضع الذى أقيم فيه ، وتمثال رمسيس المصنوع من الجرانيت (وارتفاعه ١٠ أمتار) ، وهو الذى أقامه قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى فى ميدان محطة القاهرة لتزين المدينة كما فعل البارون هوسمان فى باريس . وهناك تماثيل صنعت قاعدتها مع القدمين من قطعة واحدة . أما تماثيل أمنحوتب الثالث القائمة فى جنوب الكرنك ، فواقفة على إخمص القدم مباشرة ، وبذا تشهد بمهارة أمنحوتب بن حابو ، الأستاذ المبجل المتخصص فى تلك الأعمال ، والذى استطاع صنع تماثيل ضخمة من الحجر .

كانت هذه التماثيل تجسداً للأرواح التى سكنت فى الفراعنة . كانت فى الحقيقة مظاهر مرئية للملك الإله ، وأطلقت عليها أسماء ، مثل : « أمنحوتب شمس الحكام » و «رمسيس مونتو» و« رمسيس الرابية فى الأرضين » و « رمسيس محبوب أتوم » ، وما إلى ذلك من الأسماء . وكان عامة الشعب ، ولاسيما الجنود ، يبجلون آلهة الأسرات هذه ، التى كانت ترتفع وجوهها المتوجة فوق الأسوار المقدسة . وهناك لوحات حجرية نذرية صغيرة ، تصور الجنود وهم يعبدون التماثيل الضخمة « التى تصغى إلى صلاتهم . وذات يوم ، كان رمسيس الثانى يسير فى « الجبل الأحمر » فوجد كتلة ضخمة من « الكوارتزيت » ، لم يوجد مثلها منذ عهد رع ، وكانت أعلى من مسلة من الجرانيت ، إن جلالته (الإله) هو من

أبدعها بأشعته مثل أفقه » فأمر رمسيس بصنع « تمثال ضخم لرمسيس الإله » من هذه المادة الشمسية . فاستغرق صنع هذا التمثال سنة كاملة . فقام الملك بنفسه بمكافأة الصناع . وجدير بالذكر ، أن هذه التماثيل الضخمة ، التى كانت مظاهر أرضية للآلهة الملكية ، لا ينبغى أن تعتبر من نتاج غرور ملوك مزهوين بل هى من عمل حكام كانوا يتوقون إلى تأكيد خلود أرواحهم وسموهم فوق غيرهم من بنى البشر .

التماثيل المجيبة (أوشابتى) Ushabti : إن أصل الاسم القديم « شاوابتى Shauabti » غير معروف ، وقد نسبه المصريون أنفسهم واستعاضوا عنه باللفظ Ushabti ومعناه الحرفى « المجيب » . كل تمثال من هذه التماثيل الصغيرة العديدة موجز لجميع مصر القديمة : إنها مباركة وسحرية بفضل شكلها كمومياء إلهية ، وريفية ودنيوية بفضل المعزقتين الممسكة بهما والسلة المعلقة على ظهرها . وغالباً ما ينقش على هذه التماثيل الصغيرة نص الفقرة السادسة من كتاب الموتى التى يصف الغرض منها ، فيقول : « أيها التمثال المجيب ، إذا طُلب فلان لأعمال السخرة فى الحياة الأخرة ، فقل : أنا هنا » .

عندما ظهرت هذه التماثيل المجيبة فى الدولة الوسطى ، لأول مرة ، وضع فى قبر كل شخص ميت واحد منها . وبعد ذلك ، فى الدولة الحديثة ، كانت توضع بالمئات (وجد منها ما وصل إلى ٧٠٠ فى قبر واحد) ، ولم تُعتبر بعد نائبة عن الميت بل خدماً وعبيداً (وهذا ما يفسر وجود « المشرفين على العبيد » فى هيئة تختلف عن مومياء) . كان كل شخص يحصل على عدد من هذه العبيد بعد موته تبعاً لموارده .

كانت هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من الحجر أو من الخشب الجميل النحت ، وأحياناً من البرونز ، وغالباً من الفيانس الأزرق (فى الدولة الحديثة وفى عهد الملوك الكهنة) ومن الفيانس الأخضر (فى الحقبة المتأخرة) ، جديرة بأن تخدم الملوك والأثرياء ، والآن يعجب بها الهواة المستنيرون . ثم إن التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار العادى والمصبوغة بالألوان ، والتماثيل الشبيهة بالمومياء ، والمشكّلة من الطين غير المحروق ، وكل مجموعات التماثيل المجيبة الرخيصة ، لتُذَكِّرنا بقوم زراعين قدماء .

تمثالا ممنون Colossi of Memnon : هناك تمثالان جالسان لأمنحوتب الثالث يعرفان باسم « تمثالى ممنون » تبعاً للتقاليد المتوارثة منذ القدم ، وهما من معالم طيبة الغربية . وقد اعتبرا فى العصور الغابرة ، من عجائب الدنيا ، ولا يفوت السائح الحديث أن يقف لحظة أمام هذين التمثالين الموقرين ، القائمين بجانب الطريق المؤدى إلى المعابد الملكية ومقابر الملوك الموجودة بالجبانة . لهذين العملاقين الحجريين المتروكين الآن وسط الحقول المزروعة بعيداً عن المبانى روعة وجلال . كان هذان التمثالان ، ككثير من التماثيل الملكية الأخرى ، قائمين فيما مضى عند

مدخل معبد جنائزى ، وهو فى هذه الحالة ، معبد امنحوتب الثالث ، الذى اختفى تماماً حتى ليصعب العثور على أية بقايا منه ، حتى موضع أساساته . ويبدو لأول وهلة ، أنه ليس لهذين التمثالين أية قيمة سوى أنهما يمثلان انتصاراً فنياً رائعاً . غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن كُلًّا منهما منحوت من قطعة واحدة من الصخر الرملى ، ويبلغ ارتفاعه أكثر من ١٥ متراً بدون القاعدة . ونعلم ، زيادة على هذا ، أن المهندس المعمارى الذى أقامهما هو امنحوتب بن حابو (الذى بنى معبد الاقصر ، بغير شك) ، وأن الحجر الذى صُنعا منه جاء من الجبل الأحمر ، ويبعد عن مكانهما بحوالى ٧٠٠ كم .

لم تكن ضخامة هذين التمثالين ، ولا روعة نحتهما ، هما سبب شهرتهما ، وإنما شهرهما بعد عدة قرون ، حادث غير متوقع .

حدث زلزال فى عام ٢٧ ق.م. هز منطقة طيبة ، وكان عنيفاً لدرجة أن التمثال الشمالى منهما انشطر نصفين عند وسطه . وبعد ذلك . ولأسباب طبيعية ، أثبتت

حديثاً فى معبدى إدفو والكرنك ، أخذ الحجر يرسل ذبذبات صوتية عن طريق فعل داخلىّ ناتج عن التغيرات الفجائية للرطوبة ودرجة الحرارة عند الفجر .

لفتت هذه الظاهرة الطبيعية ، التى لم يفسرها المصريون ، انتباه كثير من الزائرين . فمثلا ، ذهب سترابون Strabon ليسمع هذه الأصوات الغريبة ، ولكنه لم يقتنع بمعجزتها ، فقال : يمكنى أن أسلم بأى شىء ماعدا الإيمان بأن كتلة من الصخر يمكنها أن تُحدث صوتاً .

ومع ذلك ، فقد أخذ الشك يزول شيئاً فشيئاً خلال السنين الأولى من العصر المسيحى ، وظهرت الأسطورة . فسمى الحى الغربى من طيبة ، باللغة الإغريقية « ممنونيا » . فاتخذ تمثالاً أمنحوتب ، منذ ذلك الوقت اسمهما الجديد ، ولذا اعتقد القوم أنهما يمثلان البطل الإثيوبى ممنون الذى سقط فى ميدان طروادة وظلت ذكراه خالدة .

وترثيه أمه المكلومة أوروا (ربة الفجر) ذات الأصابع الوردية ، التى لم تسله قط ، بذلك الأنين فى كل صباح ، ومنذ ذلك التاريخ ذاع اسمهما بين السائحين الزائرين لتلك المنطقة ، فكانوا يهرعون فى الساعات الأولى من النهار لسماع ذلك الصوت الذى يصدر لمدة لحظة وجيزة ، وكان بعضهم يذهب لسماعه فى عدة أيام متتالية ، خلال ضباب الليالى المنصرمة .

وهكذا استقبل ممنون كثيراً من عظماء الزائرين ، منهم : محافظو أقسام مصر الإدارية ، وحكام منطقة طيبة ، والقضاة ، وأحياناً الأباطرة ، مثل هادريان وسبتميوس سفيروس . وحفر الشعراء على قاعدتيهما المصنوعتين من الحجر الرملى ، وعلى ركبتى كل منهما ، أبيات من الشعر تخلد ذكرى حجهم . بينما نحت الزائرون الأقل شاعرية أسماءهم فحسب ، كما نقش البعض بضع كلمات تُعبر عن

سرورهم لسماع غناء ممنون ، وأحياناً للتعبير عن حنقهم إذا ما خيَّب ممنون أملهم وبقى صامتاً ، كما يحدث فى بعض الأيام .

بعد ذلك بوقت ما ، قرر سبتيميوس سيفيروس ، بحسن نية ، أن يعيد ذلك التمثال المكسور إلى مجده السابق . فأصلح النحاتون الجسم والرأس بعدة طبقات من الأحجار . فكانت النتيجة كارثة ، إذ أصبح ممنون تمثالاً كبقية التماثيل ولم يُصدر أية أصوات بعد ذلك . غير أن اسمه بقى ليذكِّرنا بتاريخه العجيب .

التمساح : لما كان الفلاحون يعيشون بقرب هذا الوحش ، فقد تعلموا أن يحذروه إذ عرفوا أن بمقدور التماسيح أن تهاجم المستحم أو من تحطمت سفينته ، وتجرّ النساء اللواتى يذهبن إلى النهر ليملأن جرارهن بالماء ، أو من يغسل الثياب هناك . وإذا ما عبر قطيع مخاضة فى النهر ، ألقى الرعاة تعويذة على التماسيح فى صورة أغنية سحرية ، ويقال إن أهل دندرة وحدهم هم الذين لديهم مناعة ضد هذا « المعتدى » ، كما كانوا يسمونه . ويغنى العاشق قائلاً : « إن حب معشوقتى الواقفة على الضفة الأخرى ، هو لى ؛ بيد أن تمساحاً يرقد على الشاطىء الرملى . سأنزل إلى الماء وأحدث رشاشاً فى التيار . . . . . فأجد التمساح كالفأر الصغير ، لأن حبى لها جعلنى قوياً . سيكون تعويذة لى (ضد التمساح) » . وهناك عدد عظيم من التعاويذ تدرأ عن المرء خطر التمساح فلا يقتله . وغالباً ما قال عابدو حورس وأوزيريس ، إن هذا « المخلوق الضارى » حليف ست .

على نقيض الاعتقاد السائد ، لا تأكل التماسيح الناس إلا فى النادر . فعادة ما يترك الحيوان ذو « الأقدام السريعة والفكين المخيفين » الشاطىء حيث كان يرقد ، والنباتات المائية الطويلة ، حيث يكمن نصف مختبىء ، ويندفع غاطساً فى الماء كالبرق وراء السمك الذى هو غذاؤه الرئيسى . « جاء التمساح ، كالشمس ، من الأمواج ، والأسماك هى أعداء الشمس الخفية » . وهكذا بجَّل كثير من المصريين التمساح سوبك (سوخوس) دينياً بنظرتهم المعقولة المنتظمة عن الكون . وقد كُرس عدد عظيم من المعابد ، يمتد من مستنقعات الدلتا إلى شواطىء السلسلة وكوم أمبو والجبلين ، لهذا الإله الذى اشتهر منذ عهد الدولة الوسطى . كان هو رب مدينة التماسيح بالفيوم وكل الجهات المحيطة ببركة قارون ، كما كُرس له نصف المعبد الجميل بكوم امبو .

جمع سوبك ، كما فعل أمون ، كثيراً من الصفات ، بتوفيق بارع بين الاراء المتعارضة : « أهلاً بك ، يا أيها التمساح سوبك ، ورَع ، وحورس ، الإله الجبار أهلاً بك يا سوبك التمساحى ، أهلاً بك ، يا من خرجت من المياه الأصلية ، يا حورس ، قائد مصر ، وثور الثيران ، والذكر العظيم ، وسيد الجُزُر الطافية . . . . . » كان كهنة مدينة التمساح ينشدون هذه الترتيلة فى كل يوم ، طالبين من إلههم هذا ، الذى كان الشمس والأرض والمياه فى آن واحد ، أن يهب مصرَ الحياة .

احتُفظ بتمساح مقدس ، أو بعدة

تماسيح مقدسة فى هذه المدينة ، كما فى البلدان الأخرى حيث عُبد سوبك . وروى هيرودوت عن هذه التماسيح ، أنها : « تُزيّن وتُطعَم ، وتصنع لها أقراط من الأحجار الصناعية أو الذهب وتوضع فى آذانها ، كما توضع الأساور فى أقدامها الأمامية . ويقدّم إليها طعام خاص ، وذبائح خاصة ، ويُعتنى بها بكل طريقة ممكنة أثناء حياتها . وعندما تموت توضع فى توابيت مقدسة . ومن جهة أخرى ، فإن أهالى مدينة فيلة لم يهتموا بالتماسيح إطلاقاً ، حتى إنهم كانوا يأكلونها » . وتؤيد كتابات المصريين أنفسهم رواية هيرودوت هذه .

تناسخ الأرواح Transmigration of Souls : « كان قدماء المصريين هم أول من أكد أن الروح البشرية خالدة ، وأنها تمر عند موت الجسد إلى صور الحياة الأخرى ، وبعد أن تسكن فى دورات فى أجسام الحيوانات التى على الأرض وفى البحر والجو ، تعود إلى جسم الإنسان ثانية . وتستغرق الروح فى تنقلها هذا مدة ٣٠٠٠ سنة » . هذا هو رأى هيرودوت ؛ وإن نظرة بسيطة إلى كتاب الموتى ربما جعلتنا نظن أنه كان على حق . فيحتوى ذلك الكتاب على صيغ لـ « تحوُّل إنسان إلى عنقاء ، أو إلى صقر ذهبى أو إلى لوتس أو إلى خطاف أو ما إلى ذلك » . ومع هذا ، فرغم المظهر ، ليس من الصواب أن نتكلم عن تناسخ الأرواح فيما يتعلق بمصر . فالصيغ المذكورة بكتاب الموتى يُقصد منها تجنيب الروح « با » أن تظل سجينة فى قبر يجب أن يبقى فيه الجسد إلى الأبد ، وتمكينها من العودة إلى الأرض والتجول فيها كيفما شاءت ، فى هذه الصورة أو تلك (انظر الروح) . بيد أن مثل هذا الانتقال مؤقت فى كل حالة ، فلا تمر الروح بدورة كبيرة من التقمص ، بل تبقى مرتبطة بالجسد المحنط فى القبر ، ولا تغيب عنه إلا فترات وجيزة فحسب . أما الحالات النادرة لاتخاذ روح شخص ميت حياة جديدة فأمر خيالى ناشىء عن الأوهام .

التنجيم Astrology : كانت مصر اليونانيه الرومانية ، ولاسيما الإسكندرية ، ملتقى معظم الديانات والمذاهب الهرطوقية الشهيرة ، والحركات الروحية الجديدة التى انتشرت فى جميع أنحاء بلاد الشرق ، والتى نشأت إبان القرون السابقة مباشرة لبداية العصر المسيحى ، واللاحقة له مباشرة أيضاً . فنشأت عن هذه الحركات والآراء المضطربة معتقدات وعادات غريبة ، يقال إن جذورها من مصر القديمة : ومنها عقيدة هرميس ، والسيمياء (تحويل المعادن الرخيصة إلى أخرى نفيسة) ، والتنجيم . وإذا لم تكن هذه المذاهب هيلينيستية ، خالصة ـ وهو المرجح ـ فيجب افتراض أن مصر هى المسئولة عن بعض معالمها وأسمائها . أما دورها الفعلى فكان أقل بكثير من أدوار دول الشرق الأدنى المتاخمة لها .

كثيراً ما تطلق الآن قارئات الطالع والكف على أنفسهن اسم « مدام طيبة » أو « مدام منف » ، ومن المعتقد بصفة أكيدة ، أن التنجيم وعلوم السحر من اختراع قدماء

المصريين . ويجب ان نقول ، ولو أن هذا لا يرضي البعض ، إن مصر الفرعونية ، رغم اهتمامها بعلم الفلك العملى ، لم تعرف شيئاً عن التنجيم . أما الاعتقاد بأن لمراكز النجوم تأثيراً على مصائر الأفراد وحظوظهم الذى توجد آثار قليلة منه فى المستندات الديموطيقية ، فمجلوب من بلاد النهرين (العراق) ، وربما كان من العصر الفارسى ، ولكن ، على أية حال ، انتشرت فى عصر متأخر جداً فى التاريخ المصرى خرائط السماء التى يطلق عليها خطأ اسم « دائرة أبراج Zodiac » ، غير أن شارات البروج ، الاثنى عشر ، لم تظهر إلا أخيراً جداً ، وجاءت من الخارج أيضاً . ولما جداول معرفة الوقت ليلاً من مواقع النجوم decans ، نكانت معروفة فى مصر فى الدولة الوسطى ، على الأقل ، ولم تستعمل قط للدلالة على حظوظ الأفراد . وأما علم الطوالع hemerology الذى عرفته مصر ، فهو الفن الذى يُعرف بواسطتة أثر اليوم ، من حيث السعادة أو التعاسة — كما فى فنون قراءة طوالع الأشخاص عند ولادتهم من النجوم horoscopes ، فى عصرنا — فلا تمتّ إلى التنجيم بصلة . كان قدماء المصريين يقررون طابع اليوم من حيث الخير أو النحس من واقع الأحداث الميثولوجية التى وقعت فى تلك الأيام نفسها ، وليس من حالة السماء ولا من مواقع النجوم .

وهكذا زودت مصرُ الحركة الجديدة للعالم الهيلينيستى ببعض العناصر المشهورة . ولما الروح التى حولتها وطريقة استخدامها فجاءتا من مكان آخر .

توت عنخ آمون Tutankhamun :

(حوالى سنة ١٣٥٤ — ١٣٤٥ ق.م.) .

لما كانت ذرية أخناتون كلها من البنات ، فقد زوّج احداهن بالأمير الصغير توت عنخ أتون ، الذى اختاره لولاية عرشه فلما مات أخناتون ، تركت مصر عبادة أتون ، وعادت إلى المعتقدات القديمة . فصار توت عنخ أتون (الصورة الحياة لأتون) توت عنخ أمون ، وصدر القرار المعيد لعبادة أمون فى كافة مجده ، باسم ذلك الملك . وفى السنة التاسعة من حكمه وهو آخر فرعون فى الأسرة الثامنة عشرة ، مات ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد . لم يعترف المصريون بفضله فى تصفية هرطقة العمارنة ، فمحوا اسمه من القائمة الرسمية للملوك . ومهما كانت هذه القصة مؤثرة فيما يختص بذلك الشاب الغض ، الذى نشأ فى كنف الهرطقة الأتونية ، والمرتد عن دينه لأسباب سياسية ، فإنه لا يحق له أن يكون أشهر الفراعين جميعاً . ولكن قبره المرتجل ، المتواضع كذاته ، الذى بنى من أجله على نفس أرض وادى الملوك ، لم تمتد إليه يد اللصوص أكثر من ثلاثة آلاف سنة . بيد أنه فى سنة ١٩٢٢ ، بينما كان هوارد كارتر (١٨٧٣ — ١٩٣٩) يقوم بمسح شامل للوادى موفداً من قبل اللورد هربرت ، إيرل كارنارفون الخامس (١٨٦٦ — ١٩٢٣) ، عثر على ذلك الكنز المخبأ . كان به كل شيء : مقاصير التوابيت وتماثيل الملك والمجوهرات الذهبية والأثاثات

السحرية والأثاثات العادية والمحاريب الذهبية والأوانى المصنوعة من المرمر ومن الخزف تتضمن جميعاً مجموعة فذة من الآثار ، للدراسة والفنون ، وللاحتفالات الطقسية . وإن الخلاف الذى نشأ حول حقوق النشر والإجراءات القانونية التى اتخذها كارتر واللورد كارنارڤون ضد مصلحة الآثار المصرية ، وتأجيل نشر أخبارها فى الصحف ، لتدل جميعاً ، أو ليمكن اعتبارها دليلاً على لعنة ! .

التوفيقية Syncretism : لكى نشرح التوفيق بين الآراء المتناقضة فى الديانة المصرية القديمة ، بألفاظ بسيطة ، نقول إنه نتيجة لتطورين هامين : أحدهما المركزية السياسية للحكومة ، واندماج عدد من العشائر لكل منها حياة دينية مستقلة وطقوس مختلفة ، والثانى تطور فكرة الإله .

لقد خضع المصير التاريخى المصرى لنفس الحالة ، ولنفس الظروف الاقتصادية ونفس المعتقدات ، وانبثق من تنظيم سياسى عام ، وجماعات من الناس تمتعت طقوسهم بصورة مستقلة منذ أزمان موغلة فى القدم فُرضت عبارات يمكن وصفها بأنها « قومية » (كعبادة رع ، أى الشمس منذ الأسرة الخامسة ؛ وأوزيريس ابتداء من الحقبة المتوسطة الأولى ؛ وآمون ابتداء من الدولة الوسطى) على هذه المجموعة من الآراء والصور الإلهية المختلفة ، تبعاً للتطور العام لحياة الدولة السياسية ، وتطور المعتقدات الشعبية . ومن المعروف جيداً فى مصر ، أنهم لم يتركوا شيئاً من معتقداتهم ، بل أضافوا الجديد فقط إلى القديم . ورغم ظهور عقائد أكثر عمومية من العبادات المحلية إلا أنها لا تنسخ العبادات القديمة ولا الآلهة السابقة ، بل زادت عليها ؛ وهكذا أُعطِىَ الآلهة « المهزومون » صفات جديدة ، وتغير الآلهة « المنتصرون » بدورهم ، تبعاً لانتصار كل منهم ، واحتفظوا بشىء من صفات الآلهة السابقين المهزومين الذين تقمصوهم . ويتبع هذا النوع من التوفيق التاريخى والسياسى ، مصير أوزيريس ، الذى تغلب بنجاح على كل من عنجيق وسوكر وخنتى امنتيو ؛ ورع الذى أضاف إلى نفسه مجموعة من الآلهة ، مثل امون رع وسوبك رع وخنوم رع .

لهذا النوع من التوفيق بين المعبودات مظهر الحل الوسط ولكن من الصعب اعتباره حلاً وسطاً على المستوى الروحى إذ لا يمكن للعابد تفهمه إذا لم يكن راغباً فى قبوله . كان من الضرورى أولاً أن تأتى فكرة وجود كائن إلهى لا يمكن تعريفه أو فهمه بدقة إلا باستخدام عدد من الطرق المختلفة . تسوقنا هذه الحقيقة إلى نقطة ثانية ، وهى نشأة فكرة الإله (انظر الإله) ؛ ظهرت من مجموعة من الآلهة الفردية فى عصور ما قبل التاريخ عدة عبادات تشابهت فى الكثير من مظاهرها .

ثم ظهرت فكرة التمييز بين الإله ومظهره المعروف : أى تمثاله ، أو الصورة التى يُعبد عليها ، اللذين هما نوع من المظاهر التى ترسى فى بقعةٍ ما الجوهر الإلهى العام . فأمكن ، من نقطة البداية هذه ، الاعتقاد والإيمان بقوة الإله الأساسية ، ذلك الإله الذى كانت صوره فى مقر عبادته مجرد مظاهر

يكمل كل مظهر منها غيره . إذن فلم يكن التوفيق فى هذه الحالة أكثر من إدراك تدفق القوة الإلهية من الأوانى التى حاول الإنسان أن يضعها فيها . ولم يكن خلق تماثيل آلهة مركبة ، تتضمن الأسماء والخواص البدنية لكثير من الآلهة ، سوى التعبير بصورة مفهومة ، عن الإيمان بقوة الإله — قوة إله واحد فريد لا تمكن معرفته — فى جميع مظاهره الأرضية مهما اختلفت هذه المظاهر .

صار هذا النوع من التوفيق عامًا فى الحقبة المتأخرة ، وهو المسئول عن الخليط المدهش من الصفات والألقاب ، الذى أدمجَ فى شخص واحد معظم الربات المصريات ، وشَبَّه جميع الآلهة الأطفال بـ « حربوقراط » ، وجَمَعَ صفات كثير من الآلهة المنفصلة أصلاً ، فى تماثيل سحرية صغيرة واقية . ومن هذا النوع من التوفيق جاءت الصلوات الجماعية التى تعدد المظاهر الفردية الكثيرة التى يظهر بها الإله ، الموجود بجميع هذه الصور ، فى جميع أنحاء الدولة .

تى Ti : عاش هذا الموظف فى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. وأشرف على إدارة معبدين جنائزيين للملكين من ملوك الأسرة الخامسة . وكان هناك أناس غيره فى الدولة القديمة نالوا ألقاباً أسمى من لقبه ، بيد أن شهرة تى سببها النحاتون الذين زخرفوا مقبرته فى سقارة . التى تحتوى على نخبة من أروع صور للحياة فى منف القديمة . فتبين المزارعين وصيادى الأسماك ورعاة الماشية ومربى الطيور والكتبة المشغولين فى أعمالهم ، كما تصور مناظر الرقص والألعاب وصيد الحيوان والجنازات . وصُوِّرَ تى نفسه يتسلم التقدمات والصلوات . وقد نُفِّذَت تلك الصور الجميلة بطريقة رسمية ، ولو أن وجوه الفلاحين غير الحليقة تنبو عن هذا الاطار البديع .

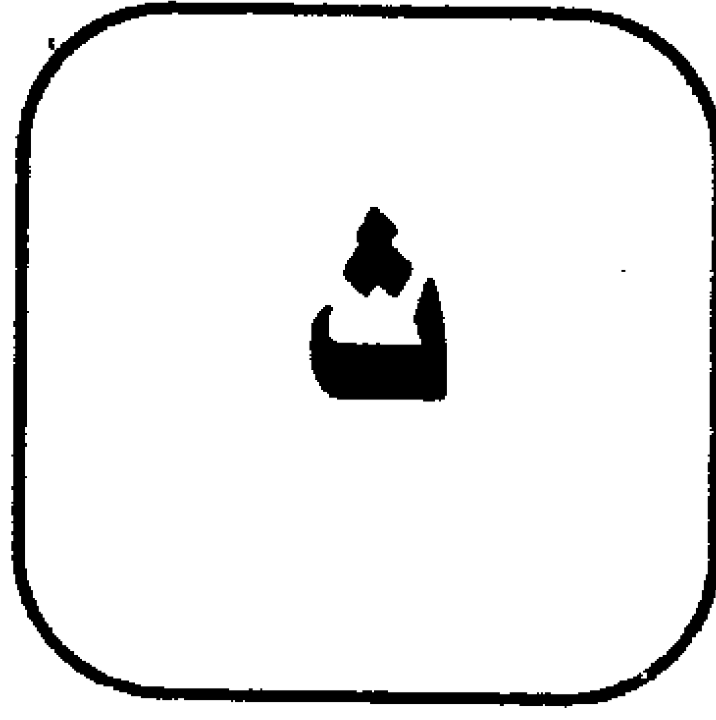
التيجان : لبس ملوك مصر التيجان ، كما لبسها آلهتهم . كانت عديدة ، ولذا لم نعمل بها قائمة ، كما أننا لم نستطيع اكتشاف الأهمية الرمزية للتيجان المعقدة وهاك وصف التيجان الشائعة مع بيان أهميتها . لبس ملوك مصر العليا ومصر السفلى وحكامها التاج المزدوج (Pschent) المكون من غطاء الرأس الخاص بالدلتا (التاج الأحمر) وفوقه تاج مصر العليا الأبيض . كذلك كان آلهة مصر السفلى يلبسون التاج الأحمر ، مثل نيت ونظيرتها الطيبية أمونت ، وواجت ، لما نخبت ربة الجنوب الحارسة ، فكانت تلبس التاج الأبيض تعلوه ريشتا نعام . وأحياناً كان الملوك يلبسون تاجاً أزرق مزركشا بنقط مستديرة (ويسمى خوذة حرب الفراعنة) ، وأطلقوا عليه اسم خبرش .

جرت عادة الآلهة أن يلبسوا تاجاً يدخل فى تصميمه بعض صفاتهم مثل قرص الشمس فوق رؤوس الإله رع أو رع حور آختى والريشة المزدوجة تتوج رؤوس آلهة السماء والاله حورس والاله أمون وقرنى البقرة الشبيهين بالقيثارة يعلوان رؤوس الالهات حتحور وايزيس . وقرون الكبش

سواء الملتوية أو المقوسة تميز الالهين خنوم أو أمون وغيرهما . وعادة ما كانت تيجان الآلهة والملك المصور فى المعابد ، أغطية رأس معقدة التركيب ، تضم عدداً معيناً من هذه العناصر . وهكذا كان التاج « آتف » الخاص بأوزيريس يتكون من التاج الأبيض بعد قطع قمته والاستعاضة عنها بقرص صغير للشمس وبريشتى نعامة ، كل واحدة فى جنب من جانبيه . وأما تاج الرب جب ، فكان يتكون من التاج « آتف » فوق تاج الدلتا الأحمر ومزيناً بقرنى كبش أفقيين . ويتكون تاج « حمحمت » رمز صيحة الحرب ، من ثلاثة تيجان آتف مركبة جنباً إلى جنب ، فوق قرنى كبش مماثلين لما فى التاج السابق ، مع إضافة ثعبانى كوبرا Uraei . وهناك تيجان أخرى أكثر تعقيداً من هذه ، بها أقراص مجنحة وجعارين وشعارات نباتية ، فى أوضاع متماثلة أو مضفورة .

اعتبر المصريون التيجان ، بما لها من رمزية لا تُنكَر ، كائنات زاخرة بالقوة . وهناك نظرية للتوفيق بين الأدلة الدينية المتعارضة ، تقول إن بعض هذه التيجان هو عين الإله ، وبعضها ثعبان الكوبرا وبعضها الآخر اللهب الحامى للملك ، أو تدمج هذه التفاسير الثلاثة وتجعلها الربة المرافقة له . وهذه التيجان القوية ، سواء أكانت للآلهة أو للملوك ، « العظيمة السحر » ، لا يلبسها غير « العارفين بأسرار الصلين » ، والذين يدينون بعبادتها . ودائماً ما تُذكر أوصاف الملك والآلهة كجزء داخل فى تركيب شخصيتهم ، وتنشد لهم التراتيل .





الثالوث Triad : هو مجموعة ثانوية مرتبة فى نظام لا يتغير (الأب والأم والابن) لآلهة مدينة ، ربما كانت مستقلة فى الأزمان السابقة . ففى طيبة مثلاً ، اتحد أمون وموت وخونسو بهذه الطريقة ، وفى منف ، بتاح وسخمت ونفرتوم ، وفى إدفو ، حورس وحتحور وحورسماتاوى . خلقت مجموعات أسر الآلهة هذه ، لرغبة علماء اللاهوت فى التوفيق بين العبادات فى كل مدينة بدلاً من كونها متناقضة . لم تكن المجموعة الثلاثية موجودة فى نظام ، ولا توجد كلمة مصرية بهذا المعنى . وقد يسأل سائل عما إذا كانت فكرة الثالوث فكرة حديثة ؛ أى محاولة دمج عدة آلهة فى مجموعات أو فى « أسر » ، أو تطبيق قاعدة قديمة .

الثامون Ogdoad : أطلق هذا الاسم على مجموعة من أربعة أزواج تمثل القوى الأساسية ، التى ، تبعاً لأسطورة هيرموبوليس (الاشمونين) ، سبقت خلق العالم . وسميت بهذه الأسماء : نون Nun ، ونونت Naunet ــ الماء البدائى ، وحح Heh وححت Hehet ــ اللا نهائية ؛ وكك Kek وككت Keket ــ الظلام ؛ وأمون Amun وأمونت Amaunet ، اللذين لا يمكن تحديد وظيفتهما (لهذين الأخيرين ، فى بعض الأساطير ، أسماء أخرى ، غير هذين الاسمين ، تعنى « العدم » أو « الخواء » أو « الفضاء اللا نهائى ») . لم تكن هذه ارباب كون منظم بل مثلث عناصر الفوضى التى سبقت الخليقة . ولما كانت هذه العناصر ، الثمانية أو الآلهة ، قوى غامضة فى عالم لم يُنظم بعد ، فقد اتخذت صور الضفادع والأفاعى ، أى المخلوقات التى خلقت نفسها بنفسها فى المياه البدائية . ولم يظهر الجيل الأول إلا بعد ظهورها ، فى البقعة التى كان من المقدر لقرص الشمس أن يولد فيها من زهرة لوتس . وإذ كان لمدينة هرموبوليس شرف مجموعتها الثمانية ، أُطلق عليها الاسم المصرى خمنو (أى مدينة الثمانية) ، الذى اشتُقَّ منه الاسم القبطى شمون ، والاسم العربى الحديث أشمونين . وإن المصير التاريخى الرائع للإله الطيبىّ أمون ، الذى شابه اسمه اسم أحد آلهة الثامون ، ليفسر الأهمية التى أبدتها النصوص الاغريقية الرومانية المأخوذة من طيبة ، نحو الآلهة الثمانية الأصليين لمدينة هرموبوليس .

اعتُقد أن هؤلاء الآلهة الثمانية يرقدون تحت جبل جيمه Djéme (مدينة هابو). فكانوا يتسلمون هناك، فى أواخر سنىّ الحضارة المصرية، السكائب الجنائزية، التى كان الملوك الأحياء، وهم خلفهم الملكيون، يقدمونها لهم كل عشر سنوات.

الثعابين Serpents : يقول الخالق: «لم يكن هناك شىء قط فى ذلك الوقت، ولا حتى الأفاعى ولا الديدان. وكنتُ لاأزال مغموراً وسط المياه الأولى، حينما خلقتُ بعضاً منها فى صورة كائنات غافية». لم تكن تلك المخلوقات الدنيا التى أشار لها المصرى بأبناء الأرض بالكائنات التافهة أو بالتى يمكن أن يتجاهلها. انظر كيف تتلوى الأفاعى الحقيقية فى الصحراء رفوق الطين وفى الماء. لقد احترمها المصريون جميعاً، وألّه بعضها بصورة أو بأخرى. ورغم أن الثعابين فى الرمال أو التراب أو الطين لم تكن بالكائنات المعادية فى رأس المصريين، فما كان من الحكمة الاقتراب من الأفاعى الأخرى. ولن يجرؤ على الاقتراب من الأفاعى غير النمس وهو حيوان النيل المقدس أو أى ساحر من سحرة الحيات الإلهيين، يعرف كيف يتناولها كما لو كانت مجرد عصى. ويجب عدم إزعاج الناشر المصرى (الكوبرا) الطويل اللامع وهو مستريح فى الحقول الرطبة أو فى المستنقعات. فإذا غضب نفخ زائدته كما تفعل الأفعى الفرعونية المرعبة. كذلك كان من الضرورى الاحتراس من الثعابين التى تخرج من الرمال محدثة صوتاً بالحراشيف التى على بطنها (الحية ذات الأجراس) وهى تتحرك، والتى تدخل البيوت: هذه هى الأفعى ذات الضلوع والأفعى ذات الذنب الأسود، والأفعى ذات القرنين، ويعبر عنها بالرمز الهيروغليفى «f». ويجب على كل مشتغل بعلاج لدغ الزواحف أن يعرف فهرست التعاويذ الشافية من سم كل زاحفة من الزواحف اللادغة، أو المبطلة لمفعول سمها، الذكور منها والإناث، وكذلك سم كل عقرب وسم كل زواحف لادغ. كان إنسانٍ ما قبل التاريخ يسير على ضفاف النيل وهو يرتعد فرقاً من أفعى لا تلدغ إطلاقاً. تلك هى الأفعى الخانقة، أفعوان سيبا الذى لايزال يتكاثر فى السودان حيث يعيش، كما يقول قدامى الكُتّاب، عدُوًّا لدوداً للفيلة. وتحتفظ المناظر الباقية من عصور ما قبل التاريخ بذكرى هذا «التنين» البرمائى، كما تحتفظ بذكرى التعاويذ القديمة، مثل: «عسى أن يقبض أفعوان على الأفعوان، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروساً فى الأرض الطينية. أيتها الأرض! ابتلعى ثانيةً ما خرج منكِ». ومازال ذلك العملاق الوحشى يعيش بصورة أضخم، فى الأسطورة المفزعة الخاصة بالثعبان أبوبيس Apopis الذى هاجم سفينة رع.

وفضلاً عن أفعى البحر الكونىّ، كان هناك عدة أنواع من الأفاعى بعضها طيب والبعض الآخر شرير، فى أساطير الحياة الآخرة، لبعضها أجنحة، ولبعضها الآخر أقدام، وبعض منها كثير الرءوس، أو ملتف، أو قائم، أو قوىّ العضلات؛ وابتلع بعضها الشمس لكى يعيد خلقها،

بينما ابتلع البعض ذيوله ليوصل حلقات سلسلة الحياة الأبدية . وتقول الأساطير القديمة : « تخرج الأفعى الحديدية من اللوتس الأولى » . وتظهر صور أخرى ، أشبه بالأفاعي ، للإله الخالق ، ومنها أفعى التاج الفرعونى (الربة المضيئة) ، واجيت Wadjyt ملكة مصر السفلى ، والزواحف ملوك الأرض ، التى استأصلها رع من هليوبوليس . كان على الأرض أفاع مقيتة ، قطعت نصفين فى الطقوس لوقاية الآلهة والبشر والماشية . وهناك حيات سامة وأخرى نافعة عُبدت وحُنطت . فكانت السيدة الطيبة الكوبرا « رع — رننوتت ، سيدة مخازن الحبوب » ، تأخذ أولى ثمار الحقل من الفلاح ، لأنها أشرفت على نمو النباتات . (صارت القديسة ثيرموتيس Thermutis فى العصور المسيحية التى يعتقد أنها كانت مرضعة موسى) . وفى صخور طيبة ، كانت مرسجر (« محبة السكون ») ، محبوبة من أهالى دير المدينة ، وتقى المقابر . وكان القدر نفسه أفعى ، سواء أكان سعدا أم تعساً . وصُوِّر شكل الأفعى فى معبد تلك المدينة فى صورة جانبية على لوحتين مستطيلتى الشكل ، وكان الناس فى الحقبة المتأخرة يُحضرون الطعام جاهزاً على الموقد لثعبانهم الطيب الودود (Agathodemons) . وتُروى القصص عن جزيرة غامضة تحكمها أفعى كريمة تحدث زلزالاً عندما تحرك جسمها ذا الحراشيف الذهبية ، البالغ طوله ٣٠ ذراعاً ، وعن أفعى خالدة تحيط بها جماعة من الزواحف الملتوية ، وتحرس كتاب السحر الأعظم . للأفعى جلد براق ، وعينان جاحظتان ، باردة الملمس ولكنها تصيب من يلمسها بجرح حارق ، محيرة إذا ظهرت ، غامضة إذا اختفت . هكذا وُصف ذلك المخلوق المفزع الذى يتخذ ألف شكل فى معتقدات وقصص العالم كله . ولكن يبدو أن الأدب الشعبى المصرى وحده يمنحه مجموعة كاملة من الأطوار الثعبانية الممكنة .

الثور : (انظر الماشية) .

الثورة : « انظر ، لقد حدثت أشياء لم تحدث منذ زمن طويل . خطف اللصوص المُلك . انظر ، لقد جاء أناس عديمو الإيمان ولا يحترمون القانون لينهبوا أرض ملكهم . انظر ، يتمرد الناس ضد الصل الفرعونى ...... نُهب القصر فى مدة ساعة ...... أُفشيت أسرار ملوك مصر العليا والسفلى ..... والرجل الذى لم يكن بوسعه شراء تابوت ، يملك الآن قبراً ...... ومن لم يستطع أن يبنى لنفسه كوخاً صار الآن مالك بيت ..... لقد تشتت القضاة وفرقوا .... انظر ، ها هم مالكو صواوين الثياب يلبسون الآن الأسمال . والرجل الذى لم ينسج قط شيئاً لنفسه يملك الآن ثياب التيل الفاخرة . انظر ، الرجل الذى لم يستطع بناء طوف لنفسه يملك الآن عدة قوارب ، بينما يتطلع إليه مالكها السابق ، فما عادت مِلْكه . انظر ، الرجل الذى لم يستطع أن يعزف حتى على الربابة ، يملك الآن قيثارة » .

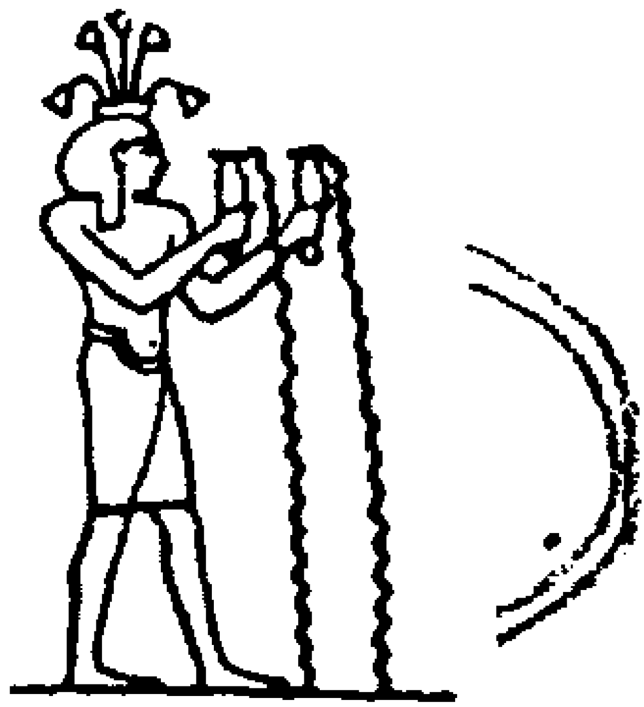
هكذا أخذ إيبوور Ipuwer ينعى (دون انقطاع) الأحداث التى ألقت بمصر فى الفوضى ، فى نهاية الدولة القديمة (فى حوالى سنة ٢٢٨٠ ق.م.) . وما إن تبدأ سنوات المحنة لعصر الاضطراب الأول ، حتى « تدور المملكة كدولاب الخزاف » .

الثياب : لم تُلزم حرارة مناخ النيل الرجال بارتداء الملابس الدافئة الثقيلة ، كما أن المصريين لم يستعملوا الصوف لباساً ، بل كان قماشهم من التيل الذى صنعوا منه عدة أنواع من الأقمشة ذات اللون التقليدى الأبيض . ومن نتائج المناخ اللطيف الأخرى ، أن الرجال كانوا لا يلبسون سوى وزرة عبارة عن نُقبة قصيرة ، تترك الأجسام عارية حتى الوسط ، وتصل إلى ما فوق الركبة . هذا هو الزى الذى كانت الآلهة تستحسنه بغض النظر عن شكله ، كما استحسنه الفراعنة الذين احتفظوا بنفس الزى منذ الألف سنة الرابعة حتى العصر الرومانى . كادت هذه النُقبة أن تكون ترفاً لغالبية الشعب . ولكى يغيروا فى وحدة الزى ، صنعوا منها عدة أشكال متباينة . وقد اهتم أحد علماء الآثار بدراسة فى الأزياء ، فوضع قائمة تضم أربعين نموذجاً متنوعاً : منها المقفول والمفتوح والمنخفض من الأمام وذو الثنية الأمامية ، وما له طرف مدبب بارز إلى أعلى ، وغير ذلك . وأحياناً كان أغنياء المصريين يلبسون جلباباً أو قميصاً واسعاً أو عباءة .

أما النساء فكن ، عادة ، يلبسن ثوباً « معلقاً » يربطنه بأشرطة عريضة تمر فوق الكتفين . ولم تلبس الربات غير هذا الثوب . أما الأنيقات من السيدات فكن يلبسن ، زيادة على هذا الثوب ، عباءة فضفاضة . وزادت أهمية هذه العباءة باطراد فى الدولة الحديثة حتى صارت أخيراً أهم لباس للسيدات فى ذلك العصر .

يلاحظ تغير الزى تغيراً ملحوظاً فى الطبقات الاجتماعية الراقية . فكان الميل عامًا إلى تنويع الزى وتغطية أكبر جزء من الجسم قدر المستطاع . فصارت النُقب أطول ، ومزدوجة ، وأكثر اكتمالاً . وغُطى الصدر والكتفان والذراعان بأثواب واسعة شفافة . فإذا كانت الدولة القديمة قد أوجدت زيًّا موحداً لا يمكن به تمييز الأمير من العامل البسيط ولا الملكة من الخادمة ، فإن الدولة الحديثة المترفة ، أوجدت ثياباً أنيقة ومتنوعة ، وتقلباً سريعاً فى الموضات » . وتبارى الرجال والنساء فى بلوغ الأناقة التى سرعان ما صارت دلالاً وخلاعة . أما العصر المتأخر ذو الأخلاق الصارمة والأذواق التقليدية فعمل على منع التطرف فى الزى دون الرجوع تماماً إلى البساطة القديمة .

بيد أن نماذج معينة أفلتت من قوانين التطور ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك حلة الوزير إذ كان يرتدى ثوباً طويلاً يصل إلى إبطيه . وكان الكاهن يرتدى شريطاً عريضاً أثناء الخدمة الدينية . وأما الكاهن « سم » فكان يلبس جلد فهد . وأما زى الأطفال فلم يتغير ، إذ كانوا صبياناً وبناتاً ، يسيرون عرايا الأجسام فى جميع العصور .



ج

جب Geb : هو إله ذكر يمثل الأرض ، وهو زوج الربة نوت Nut (السماء) ، التى فرق شو (الهواء) بينه وبينها . كان جب ، تبعاً لأساطير هليوبوليس أحد آلهة التاسوع ، وكان ملكاً قبل مجىء المخلوقات البشرية — والحقيقة أنهم كانوا يطلقون على فرعون اسم « وارث جب » . وتبعاً لأسطورة متأخرة ، انتزع جب السلطة من والده العجوز شو . وصور الفن المبكر جب كرجل ليس له خصائص معينة ؛ ويُرى فى مناظر من عصر متأخر لابساً تاجاً معقداً .

الجبانات Necropolis : مهما كان موقع الجبانات ، فى الصحراء (فى « الغرب الطيب » عادة حيث يدخل رع العالم السفلى ، وأحياناً فى التل الشرقى) أو فى جُزُر من الرمل « البكر » فى الدلتا ، أو متجمعة معاً فى أرض مخصصة لها قرب معابد المدينة ، فإنها كانت مُدُناً واسعة للموتى وليس مدناً ميتة . حيث ضمن المصريون حقوق الموتى بواسطة مجموعة كاملة من العادات والأعمال القضائية والاقتصادية والدينية ووضعوا عدداً كبيراً من الكهنة والعمال . كان من المستحيل ، فى مصر ، أن تتحدث عن سكون المقابر المحزن . وكان بها دائماً عدد من مختلف طبقات العمال منهمكين فى البناء ، أو فى ترميم مقابر الملوك والنبلاء ، وكذلك كانت الأنشطة الفنية نحت ونقش وتصوير قائمة على قدم وساق هناك ، وإذ وهب الأحياء الكهنة الجنائزيين معاشهم من الأرض والدخْل ، كان أولئك الكهنة يذهبون إلى الجبانات للقيام بالطقوس المتفق عليها ، جيلاً بعد جيل (انظر العادات الجنائزية) ، وكانت صلاة الجنازة لقريب أو الرسالة المرسلة إلى الموتى (انظر خطابات إلى الموتى) أو عبادة ملك قديم ، أو بطل سابق ، (انظر التأليه) ، هى التى تأتى بالأحياء إلى الجبانة . وكانت هناك إدارة دائمة تراقب وتدير وظائف الكهنة وتوزيع التبرعات وإرسال المندوبين لفحص حالة المقابر . بيد أنه فى وقت المجاعة والسخط واختلال الأمن ، زحف اللصوص بكل جرأة أو هجموا على الجبانات وخاطروا بحرق المومياوات كى يتحاشوا انتقام أصحابها فى العالم الآخر . فقد دفنت تحت المدينة كنوز ثمينة بالأكوام ، ورغم أنها كانت وسيلة استمرار حياة الأغنياء الراحلين ، إلا أنها كانت ضرورية أيضاً لحياة الفقراء من الأحياء .

جداول معرفة الوقت ليلاً بمواقع النجوم Decans :

استخدم المصريون المزولة والساعات الرملية لمعرفة الوقت نهاراً . (يختلف طول الساعة باختلاف الفصول) أما فى الليل فكانوا يعتمدون فى ذلك على جداول خاصة . فرسموا خرائط لمجموعات النجوم ، وبينوا عليها متى يظهر هذا النجم أو ذاك فى الأفق ، وبذا استطاعوا معرفة الوقت ليلاً معتمدين على وجود مجموعة نجوم معينة فى نقطة معينة ، فى وقت معين . ويستعمل الجدول الواحد لفترة عشرة أيام تقريباً . كان هناك ٣٦ جدولاً يستعمل كل منها لمدة تزيد على عشرة أيام من السنة المصرية ؛ ولذا اعتبرت من روائع ما أخرجته العبقريات . وبعد ذلك صارت بالغة الأهمية فى خريطة الأبراج الاثنى عشر ، ثم فى التنجيم الهيلينيستى .

الجعران Scarab : الجعران أو الجعل هو خنفساء الروث ولونها بلون فحم الأنثراسيت وأطلق عليها قدماء المصريين اسم « خبيرر Khepher » . وعندما بدأ ظهور الكتابة ، استخدمت صورته لكتابة كلمة معقدة هى الفعل « خبر Khepr » = بما معناه « يأتى إلى الوجود باتخاذ صورة معينة » . ثم صار بمعنى « يكون » أو « يصير » . ولما كان الجعران وثيق الصلة بفكرة الخلق تلقائياً ، عن طريق المشابهة الصوتية ، اعتقد أهل هليوبوليس أنه مظهر للرب الخالق « الذى أوجد نفسه بنفسه » ، الرب خبرى ، أى الشمس المشرقة . ومن بين الصور الغريبة المحفوظة فى وادى الملوك ، خنفساء ضخمة سوداء تخرج من الرمل تسحب كرة متوهجة . ويفسر بلوطارخ كل هذا ، دون ابتعاد ، على ما يبدو ، عن التفسير المصرى ، فيقول :

« أما عن خنفساء الجعران ، فالمعتقد أنه ليس لها إناث ، وكل الجعارين ذكور . فتضع بذرتها فى حبة من مادة تجعلها على هيئة كرة وتجرها وراءها وهى تدفعها بأرجلها الخلفية ، محاكية بفعلها هذا مسير الشمس من الشرق إلى الغرب » .

استعملت الجعارين المصرية فى الأغراض العامة ، فكانت أختاماً (كالأختام الأسطوانية وأزرار الأختام التى على صورة الحيوانات ، والخواتم الذهبية الضخمة) . وإذا وضعت فصاً لخاتم أو عقد أمكن أن تختم بها سدادات الأوانى ، والخطابات ، والمزاليج ، ضد عبث اللصوص . كما كانوا يحملونها كتمائم واقية رخيصة ، إذ خبأت هذه الحشرة فى نفسها قوة تجديد حياتها باستمرار . أنتجت آلاف من الجعارين بسرعة ، وبصناعة خشنة غير متقنة غالباً ، والنقوش التى عليها مكتوبة بطريقة رديئة ، حتى صار من الضرورى استخراج الجعارين من الحفائر للتأكد من أنها أصلية لا زائفة . ومازالت هذه الحلى البسيطة ، التى تباع فى مناطق البحر المتوسط منذ العصور القديمة ، أكثر « التذكارات المصرية » شيوعاً ، ورغم العثور على الآلاف من الجعارين فى الأكوام

والمقابر ، فلايزال التزييف على أشده لسد حاجة الطلبات الدائمة .

يتراوح طول الجعارين المصنوعة من الحجر الصلب مثل سليكات المغنسيوم الصابونية (الإستياتيت) المصقولة ، أو الحجر الجيرى أو الفيانس ، ما بين (١) سم إلى أكثر من (١٠) سم ، كما يتراوح شكلها من الطبيعى إلى شبه الجعران ، ومن الخنفساء التى نقشت عليها الأجنحة نقشاً واضحا إلى الجعران ذى رأس الكبش . وغالباً ما يُنقش البطن أو الجانب المسطح للجعران إما بالكتابة أو بالرسوم تبعاً للغرض المقصود من الجعران . فكثير من الجعارين كانت أختاماً تحمل اسم الموظف وألقابه . ونقشت على بعضها الأمنيات ، مثل : « عام سعيد لفلان » ، أو الحِكَم مثل : « راحة البال خير من الغضب » ، و « أمون قوة الوحيد » ، وعدد كبير منها يحمل أسماء ملكية نقشت من أجل الصفات التى تعبر عنها فيُعَبِّر الاسم الأول (من ــ خبر ــ رع) لتحوتمس الثالث العظيم (ومعناه الحرفى « عسى أن يستمر رع فى جلب الحياة ») على معنى رمز الجعران تمام التعبير حتى إنه كُتبَ على كثير من الأشياء الصغيرة حتى الحقبة المتأخرة .

أصدر قدماء المصريين الجعارين التاريخية بنفس الطريقة التى تصدر بها النياشين التذكارية . وتضم المجموعة الصغرى اسم الملك متبوعاً بلقب يدل على عمله . وتحمل المجموعة الكبرى ، على الجانب المسطح للجعارين الكبيرة ، أخباراً قصيرة (انظر امنحوتب الثالث) . والرسوم المنقوشة على الجعارين المزخرفة عديدة ؛ وتشمل الزخارف الزجزاجية والحلزونية ورسوماً أخرى تتضمن علامات واقية كما تخفى أحياناً بعض الألغاز ، وصور الآلهة والملوك ، وأحياناً تكون الرسوم عبارة عن مناظر حقيقية وحيوانات مقدسة . كذلك يمكن تحديد تاريخ طبقة أرضية أثرية بواسطة الجعارين ، عند الافتقار إلى أى دليل آخر . فإذا ما عُثر بطبقة ما على بعض الجعارين ، استطاع الخبير ، بدراستها ، أن يحل رموزها وأسرارها ، كما يفعل خبير النقود والنياشين القديمة . ومن الممتع حقاً أن نستقرىء حياة مصر الاقتصادية والاجتماعية والدينية من الجعارين وحدها .

كان عدد كبير من جعارين القلب الكبيرة ، المصنوعة غالباً من الحجر الصلب أو من الفيانس وتحدها أجنحة الصقور ، طلاسم جنائزية خاصة . وإذ كانت توضع بين طيات أكفان الموتى أو ترصع بها الحلى الصدرية ، فكثيراً ما كانت تنقش عليها الفقرة الثلاثون من كتاب الموتى ، التى يوضح بها السلوك المنتظر من القلب السحرى أثناء احتفال وزن القلب : « لى قلبى ، يا أوفى جزء من كيانى ! لا تقف شاهداً ضدى أمام المحكمة ...... لأنك الإله الموجود فى جسمى ، وخالقى المحافظ على أعضائى » .

الجيزة Giza : الجيزة مدينة من العصور الوسطى ، تقع قبالة القاهرة وصارت اليوم مدينة حديثة جميله ، بيد أنها

ستظل مدينة بشهرتها إلى كون هذا الاسم معروفاً فى العالم كله باعتباره موضعاً قديماً فى الصحراء الغربية . وما هى إلا مسافة ٩ كيلو مترات بالسيارة ، حتى يصل السائح إلى سفح هضبة شديدة الانحدار مكونة من الحجر الجيرى . وتشمخ فوقها الأهرامات التى تمكن رؤيتها منذ بدء الرحلة . وهى أهرامات خوفو وخفرع ومنكاورع ، على التعاقب من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، فى ترتيب تاريخى ، وفى ترتيب الحجم تنازلياً . ويقع أبو الهول أسفل هذه الأهرامات عند حافة الأرض الزراعية الخصبة خلف مساكن بدوية عادية قائمة على موضع « بيت أوزيريس » القديم .

ويستطيع السائحون أن يصعدوا إلى قمة الهرم لقاء أجر زهيد . وهناك كثير من المصاطب فى خطوط مستقيمة فوق الأرض الرملية . إنها مقابر نبلاء الأسرة الرابعة والأجيال التالية التى أقامت هناك حتى نهاية الدولة القديمة . ولا شك فى أن هذه الجبانة الواسعة هى خير جبانة معروفة فى مصر كلها ، ليس لطلاب المتعة وحدهم ، بل للمنقبين عن الآثار أيضاً . وقام المنقبون النمساويون والإيطاليون والأمريكيون والمصريون بحفر تلك البقعة كلها . ما عدا بضع مساحات معزولة كالمكان الذى عُثر فيه أخيراً على مركب شمس خوفو .

الجيش : منذ تأسيس الدولة الفرعونية ومصر لها منظمة حربية دقيقة

التنظيم . وفى القاعدة ، يقوم الكتبة بمراقبة التجنيد وإدارة التعيينات وإسناد الوظائف . وفى كل عصر ، كان الملك هو القائد الأعلى للجيش ، والقائد النظرى للمعارك .

ولم يهتم المصريون فى المملكة القديمة بفرض نفوذهم المستمر على جيرانهم ، ولم يهددهم أى غزو . وعندما أرادوا إخضاع البدو وجمع الغنائم من الليبيين والنوبيين والفلسطينيين ، صدرت الأوامر إلى المحافظين بجمع الجنود من الريف من خيرة الرجال المدربين ، ومن رجال المستعمرات الحربية النوبية والليبية . أما القوات النظامية القليلة العدد فكانت تُستخدم عادة فى المهام السلمية والأشغال العامة والتجارة . وعلاوة على الفرقة المختارة المخصصة لحراسة القصر ، وشرطة الصحراء ؛ كان هناك كثير من وحدات الجيش تقوم بأعمال تهدف لتدعيم رهبة ملك مصر فى قلوب الدول الأجنبية ، وجلب الأشياء التى كانت تزين الملك . ومن عرف من هؤلاء ، اللغات البربرية ذهب إلى « بيبلوس » وإلى « بونت » ، وإلى أبعد جهات النوبة ليجمع المنتجات الأجنبية . واختص بعض آخر بنقل المعادن الثمينة من الصحراء الشرقية . وكان جيش الدولة القديمة يضم قواتا دائمة لها مهام

خاصة ، تضاف إليها قوات أخرى بالتجنيد عند الطوارىء ، وله قيادات متدرجة المراتب وإن لم يكن تدرجها ثابتاً كما لم يختلف كثيراً عن البحرية . ولهذا الجيش نظام عتيق ، ولكنه جيش قومىّ يخضع لأوامر وقوانين دقيقة تفرضها عليه الحكومة . وإن القوم الذين سيطروا بسهولة على البر والبحر ، والذين ابتكروا علم الإدارة ، ورفعوا صروحاً هندسية إلى عنان

السماء ، لقادرون كذلك على تنظيم حياة المحاربين . وكانت فرق الحرس تقسم إلى صفوف كل منها عشرة رجال ، وتسير في طوابير منتظمة . وليس من المدهش أن قوماً مدربين بمثل ذلك التدريب الدقيق ، استطاعوا القيام بأشق الأعمال ، سواء أحبوها أو لم يحبوها . فكانوا ينقلون كتل الصخر بعد قطعها من المحاجر . ولاتزال أسماء وحداتهم منقوشة على صخور الأهرام إلى يومنا هذا (انظر الأهرام) . كذلك كان النظام العسكرى فى الميدان صارماً : فلم يُسمح لأى جندى بأن يضرب جندياً آخر ، ولا بأن يخطف من أى عابر سبيل حذاءه ولا رغيفه ، ولا بأن يسرق ثياباً من أية قرية ، أو يسرق عنزة من أى شخص .

عندما استقل رؤساء الأقسام الإدارية فى عصر الاضطراب الأول ، جندوا قوات مساعدة من البرابرة ، لاستعمالهم الشخصى ، ودربوهم على القتال . وجندوا « الشباب » من أبناء مقاطعاتهم ، وهناك نماذج خشبية للجنود عُثر عليها فى قبر أحد الأمراء فى أسيوط ، تبين هيئة الجيش فى ذلك الوقت . وإن لم تؤد الحروب الإقطاعية إلى عسكرة المواطنين .

هناك قسمان ، هما : رمّاحو المقاطعة ، والنبالون النوبيون . ويتألف كل قسم منهما من ٤٠ رجلاً (فى أربعة صفوف ، بكل صف منها ١٠ رجال) . يحمل الوطنيون تروسهم فى أيديهم اليسرى ملاصقة لأجسامهم ، ويحملون فى اليمنى رماحهم قائمة ، ويثنون أذرعهم عند المرافق . وترتفع نصال رماحهم إلى ارتفاع باروكاتهم . ويراعى النبالون السود البشرة النظام الذى يزود الجيش بأعظم قوته ويسير هؤلاء الجنود فى أربعة صفوف متوازية ، بخطوات منتظمة تبدأ بالقدم اليسرى . وفى خضم الحروب الأهلية تلاشى النظام القديم بتقنياته ومركزيته وتألفت جيوش أمنمحات وسنوسرت ، مؤسسى الدولة ، من الميليشيات المحلية وجنود الملك الخصوصيين .

أما الدولة الحديثة وهى عصر الفتوحات العظمى ، فكانت عصر الجنود المحترفين المنظمين بطريقة تكاد تكون حديثة . فإذا لم يقم الفرعون بقيادة العمليات الحربية بنفسه ، فإنه كان يشترك فى مجلس الحرب ، ويسند القيادة العليا للجيش إلى « قائد عظيم » . وكانت هناك مناطق عسكرية يشرف عليها ضباط مسئولون .

اضطلع المندوبون الملكيون فى البلاد الأجنبية بعمليات أقل من هذه . وكان الجنود أكثر لياقة فى العرض العسكرى ومدربين على أداء الحركات العسكرية بمجرد سماع صوت البوق . فزادت الوحدة التكتيكية فى أهمية المعارك والجنود المشتركين فى القتال . ويتألف فرقة المشاة من ٢٠٠ رجل تحت إمرة حامل لواء . وتنقسم الفرقة إلى أربعة أقسام ، بكل قسم ٥٠ رجلاً .

وتسمى هذه الأقسام بأسماء طنانة ذات عظمة ، مثل : « أمنحوتب يضىء كالشمس » و « رمسيس القوىّ الذراع » وما أشبه . وكانت أعلامهم عبارة عن صور مثبتة فى أطراف سيقان من الخشب . وقد

قُسِّم الجيش إبان الحملات العظيمة للأسرة التاسعة عشرة إلى أربع فرق تحمل أسماء الآلهة العظمى للدولة : أمون ، ورع ، وبتاح وست . ويتألف الجيش من قسمين ، هما المشاة وراكبو العربات . والقسم الأخير أكثر ميزة من القسم الأول ، ويُعطَى ضباطه درجة كُتَّاب ملكيين وتقوم العربات بالهجوم الضخم ، أو بمساعدة المشاة ، فى مجموعات صغيرة العدد . ويتألف المشاة الكثيرو العدد من المصريين الذين اتخذوا الجندية حرفة ، والأسرى الذين كانوا يُدمَغون بالحديد الساخن ، فيصبحون من الجنود المرتزقين ، كالسودانيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والبدو ، وأكثرهم من الليبيين ورجال البحر ، وخصوصاً « الشردن » Sherden المشهورين الذين قبض عليهم رمسيس الثانى بسيفه ، والذين أنقذوا الجيش فى يوم (قادش) .

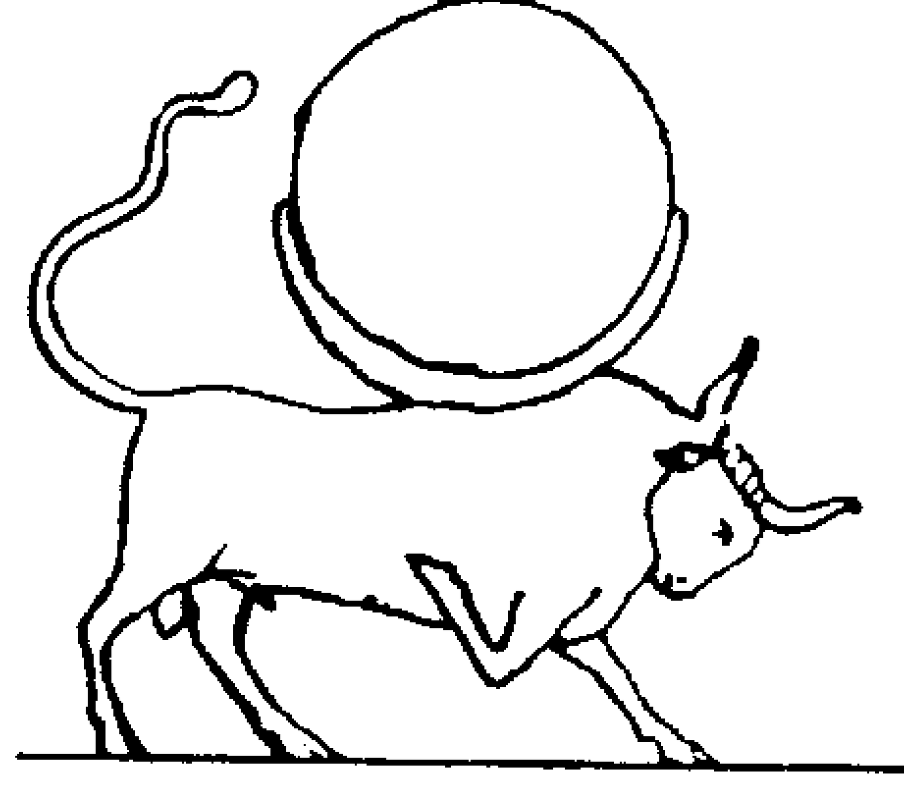
سخر بعض النقاد من بؤس حياة الجندى ، كأن يقولوا : « سُرَّ راكب العربة المغرور لأنه باع ميراثه ليدفع ثمن عربته الفخمة ، ولكنه سقط من تلك العربة فضُرب ضرباً مبرحاً . أما جندى المشاة فيؤخذ طفلاً ويوضع فى معسكر ، وتُوَجَّه ضربة موجعة إلى معدته ، ولطمة جارحة إلى عينه ، ولكمة مذهلة إلى حاجبه ..... ثم يأتى السير إلى فلسطين والقتال فى الصحراء ، فيُجبر على أن يحمل طعامه وشرابه فوق ظهره كالحمار ..... ويضطر إلى أن يشرب الماء الآسن ولا يتوقف عن السير إلا ليقف ديدباناً للحراسة . حتى إذا ما وصل إلى العدو ، كان أشبه بعصفور وقع فى شرك ، ففقد كل قوة فى جسمه . وعندما يعود إلى مصر ، يكون كقطعة من الخشب نخرها السوس . فيمرض ويضطر إلى الرقاد ، ويرجع محمولاً فوق حمار ، فيجد ثيابه قد سُرقت وخادمه هرب » .

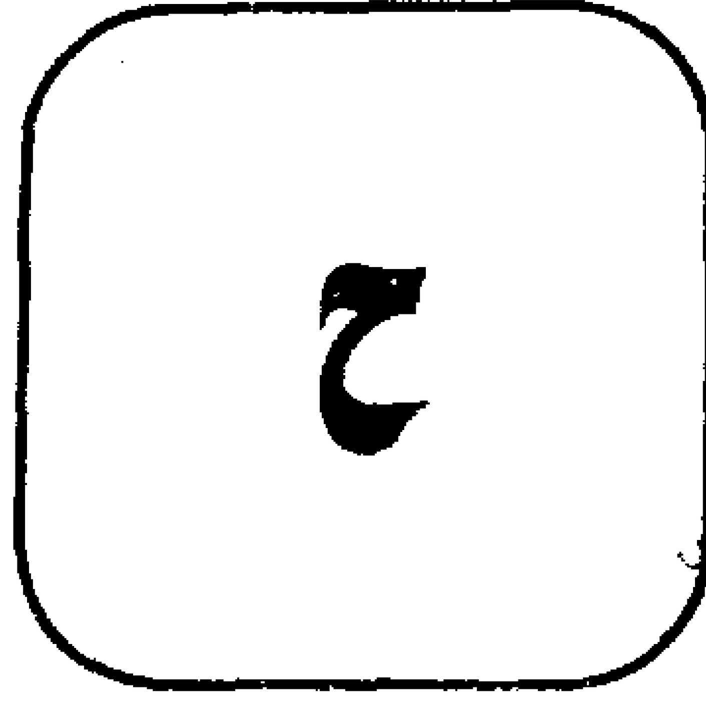
يوجد سبب قوىّ يجعلنا نعتقد بأن هذه الصعاب القاسية لم تكن من قبل المبالغة . ولكن المتعلمين ، ومنهم كبار الموظفين ، يعطون صورة قاتمة عن الجنود ليبرهنوا لتلاميذهم على صحة المثل القديم القائل : إن حظ الكاتب خير من حظ الجندى . ولكن إذا أصبح الشاب كفئاً لأن يكون إما راكب عربة أو كاتباً ، فإن المستقبل المفتوح أمامه هو : الإدارة فى المستعمرات ، والخدمة فى البلاط ، والمهامّ الدبلوماسية ، ووظائف الكهنة العليا . والحقيقة أن للجندى العادى حظاً يُحسد عليه ، سواء أكان من الوطنيين ، أو من البرابرة المعينين فى الجيش ، فيتحلى بـ « ذهب الشجاعة » ، ويُكافأ بالغنائم ، ويعفى من جميع الضرائب ويُمنح اقطاعاً من الأرض الخصبة . وعلى ذلك يكون الجنود فئة محظوظة ، واحدى دعائم الدولة الحديثة وبعد القتال يرتاح المشاة والفرسان

ويستطيع الشردن والكيهت Keheks أن يعيشوا بسلام فى مدنهم . فتُحفظ القسى والأسلحة فى المخازن ، ويأكل الجنود مع زوجاتهم وأولادهم ، ويشربون كيفما شاءوا .

ولما قوى الجيش سياسياً فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة ، ارتقى القائدان حور محب ورمسيس (الأول) العرش . ومنذ ذلك الوقت ، انحدر الملوك من الجنود ، ولم يثقوا

بالنبلاء ولا بالقوات الوطنية ، وأعطوا الأفضلية للضباط البرابرة وجنودهم الأجانب . وفى بداية الألف سنة الأولى ، حكم الجنود المرتزقة الليبيون البلاد مع شاشانق ومنذ الأسرة السادسة والعشرين ، وثق الفرعون بمشاته الذين أحضرهم من بلاد الإغريق ومن كاريا ، أكثر من ثقته بالطائفة العسكرية المصرية .





حاربوقراطيس Harpocrates :
(انظر حورس) .

الحبوب : كلنا يعرف قصة أبناء يعقوب ، وكذلك مقولة إن مصر مخزن حبوب روما . وهناك أسطورة مضحكة تقول إن سنبلة قمح وُجدت فى مقبرة مصرية قديمة ، لو زُرعت لأنبتت قمحاً . والغريب أن كثيرين يعتقدون ذلك . ولذا زاد تبجيل الناس للقمح المصرى القديم . جاءت معرفة الزراعة من الشرق الأدنى منذ العصر الحجرى الحديث . فأخذت مصر تزرع أنواعاً كثيرة من الشعير العادى ، ونوعين من القمح ، هما : قمح الشوفان Spelt ، والقمح الفلاحى السمين الحبوب emmer . ولما كان المصريون يستهلكون كميات كبيرة من الخبز والبيرة ، صارت زراعة القمح أساس الاقتصاد الفرعونى (انظر الطعام) . وقد صورت زراعة القمح على جدران المقابر أكثر من أى عمل زراعى آخر . كان الزارع يبذر الحب فى الأرض الطينية بعد انحسار ماء النيل عنها . ويتبع المحراث ، الذى تجره بقرتان ، عامل يمسك بعزقة من الخشب يدارى بها الحبوب تحت التراب . بعد ذلك يؤتى بقطيع من الأغنام أو الخنازير ليطأ الأرض بأقدامه . وكانت هذه الطرق البدائية تعطى محصولاً وفيراً . وتدل وثائق الخزانة على أن الأرض التى كانت تزرع ، فى عصر الرعامسة ، كانت تدر نفس محصول القمح الذى تدره الأرض فى العصور الحديثة . ويحصد القمح فى الربيع ، ويشترك الجميع فى حصده ، وهم يسيرون جماعات ، وغالباً ما يكون هذا على وقع أنغام الموسيقى . فيمسك الرجال بالسنابل ويقطعون العيدان من منتصفها ، بمناجل من حجر الصوان ذات مقابض من الخشب . وبعد أن يتعب الفلاح يقطب جبينه ، ويمد يديه الصلبتين ويطلب « بيرة لعمال حصد الشعير » . تحصد العيدان القصيرة فى حزم وتنقل على ظهور الحمير أو يحملها الرجال بين أذرعهم إلى الأجران حيث تُفصل الحبوب عن القشور بحوافر الحيوانات . بعد ذلك تنظف الحبوب بتذريتها فى ريح عالية بمجرفة بدل المذراة ، ثم تغربل .

يخزن التبن بشوكة من الخشب ويستعمل فى صناعة اللبن أو لعلف الماشية . ويقوم كتبة الخزانة بكيل القمح وتقديره بالمكاييل ، ثم يعبأ فى زكائب تملأ بها الصوامع العالية المبنية بالطين ، والتى كانت قوة الدولة ومحط سلامتها .

حتحور Hathor : كانت حتحور سيدة الجبلين القوصية واطفيح وإيماو Imau (النوبة) . سميت حتحور الجميزة ، بمنف ، وحتحور بجميع الاماكن التى نسبها الإغريق إلى « أفروديت » ، فى كل من الشمال والجنوب . كانت حاكمة السماء وجسمها الحقيقى ، والروح الحية للأشجار ، وربة فى صورة بقرة ، ومربية ملك مصر ، وأم حورس (مثل إيزيس) ، وربة الذهب ، وشخصية متعددة الألوان بوسعها أن تأخذ صورة لبؤة (ولذا حدث التباس بينها وبين تفنوت ، (انظر أنوريس) . أما معابد حتحور وأسماؤها وخصائصها فلا يمكن أن تحصى ، ولها اسم يدل على أنها ربة كانت أصلاً خليطاً من عدة شخصيات إلهية . وكانت « الحتحورات السبع » أشبه بجنياتنا اللواتى يقررن مصير الطفل الحديث الولادة عند مولده . جعلها المصريون ربة للأماكن البعيدة ، مثل بلاد پونت وبيبلوس ومناجم سيناء ثم صارت حتحور ، على الضفة اليسرى فى طيبة وفى منف حارسة جبل الموتى . والبقرة التى وُجدت فى الدير البحرى تمثلها فى دورها الكونى المألوف . ولكنها تظهر ، فى معبد دندرة العظيم ، فى صورها الكلاسيكية الحقيقية ، كربة عامة وكامرأة شابة ، مرحة وباسمة ، وكربة السعادة والرقص والموسيقى .

حتشبسوت Hatshepsut : وُلد تحوتمس الثانى ، أخوها غير الشقيق ، من زوجة ثانوية ، ولكنه ثبّت شرعية حقه فى العرش بأن تزوج حتشبسوت . بعد ذلك « صعد فى المجد إلى عنان السماء ، وانضم إلى الآلهة » (أى توفى) . وتولى الحكم بعده ابنه تحوتمس الثالث وهو من زوجة ثانوية ، وحل مكانه ملكاً للأرضين ، وجلس على عرش والده . صرَفَتْ أخته ، الزوجة الإلهية ، حتشبسوت ، أمور الدولة حسب أهوائها . كان مركزها قوياً بسبب مولدها . ويبدو أنها نالت تأييد معبد أمون الغنى . والحقيقة أن هذه الملكة جعلت ابن زوجها ، وزوجها الثانى شريكاً فى المُلك ، عديم الأهمية ، وأباحت لنفسها تزيين تماثيلها وصورها بسمات الملوك الذكور (ومنها اللحية) .

تركت حتشبسوت السياسة الاستعمارية التى كان والدها يسير عليها ، وجعلت مهندسها المعمارى ، وصفيّها سننموت Senenmut ، يبنى الآثار الفخمة تكريماً لأمون ، ولاسيما معبدها بالدير البحرى حيث كانوا يحتفلون بذكرى هذه الملكة .

بعد أن ماتت حتشبسوت ، حاول تحوتمس الثالث أن يمحو ذكراها ، ولا يوجد بالدير البحرى إلا قليل من الأماكن لم يمح منها اسم هذه الملكة . ولم يبق أى تمثال لها سليماً . كان عمله هذا وليد حقد عائلى شخصى وليس رد فعل سياسى ضد امرأة

تبوأت أسمى مكانة فى الدولة ، كما يقال أحياناً . (انظر المرأة) .

حجر رشيد Rosetta Stone : اكتشفه فى أغسطس سنة ١٧٩٩ پيير فرانسوا كسافييه بوشار (١٧٧٢ — ١٨٣٢) ، وكان ضابطاً مهندساً ، أثناء قيامه بأعمال هندسية عند « قلعة جوليان » قرب رشيد (وهذه الأخيرة ثغر على مسافة ٧٠ كم شرق الإسكندرية) . فلما لاحظ لوحة حجرية غريبة مستعملة فى بناء حائط قديم ، أخطر القائد مينو باكتشافه ، فنقل ذلك الأثر إلى الإسكندرية . وكان على تلك اللوحة قرار بطلميوس الخامس (سنة ١٩٦ ق.م.) بالهيروغليفية وبالديموطيقية وبالإغريقية . فأعلنت جريدة قوات الحملة « لاكورييه ديچيپت » نبأ الاكتشاف وسألت عما إذا كان وجود الكتابة الإغريقية ، التى يبدو أنها ترجمة للنص المصرى ، يمكن أن يزودنا بمفتاح لقراءة اللغة الهيروغليفية . فكانت هذه نبوءة رائعة — إذ استطاع شامبوليون ، بعد ذلك بثلاث وعشرين سنة ، أن يفك رموز الكتابة المصرية لذلك النص . ولما احتل الإنجليز مصر فى سنة ١٨٠١ نقلوا هذا الكنز النفيس فصار من أثمن كنوز المتحف البريطانى .

الحدائق : (انظر الزراعة) .

الحدود : لما كان جفاف الصحراء والقفار قد عزل مجرى النيل المنخفض لمدة طويلة ، فعندما تأسست الدولة الفرعونية ، صار لزاماً على الأمة المصرية أن تعيش داخل نطاق الطبيعة والسياسة فى دائرة مزدوجة من الحدود . فكانت الحدود السياسية للإمبراطورية ، غير محددة تحديداً قاطعاً ، إذ كان فرعون نظرياً « رب كل شيء » . كانت هذه الحدود ، السيئة التحديد ، والمائعة ، والتى امتدت أحياناً إلى الآفاق البعيدة لنهر الفرات وإثيوبيا ، هى التى حاول الملوك المحاربون أن « يجعلوها أوسع » ، كما أكدوا هم أنفسهم . فقد أعلن سنوسرت الثالث مزهواً ، فوق لوحة حجرية أقيمت فى بلاد النوبة ، قائلاً : « لقد حددتُ حدودى ، وتفوقتُ على آبائى نحو الجنوب ، وزدتُ فيما خلفوه لى ...... فأى ابن من أبنائى سيُقَوِّى هذه الحدود ، فهو ابنى حقيقةً .... وقد أقمتُ تمثالاً لعظمتى ، عند هذه الحدود ، ليجعلكم ثابتين ، ويحثكم على القتال من أجلها » .

أما الحدود الطبيعية لمصر فكانت أكثر تحركاً . فازدهرت الدولة القديمة داخل هذا الإطار ، وتقلصت حدود العالم الفرعونى فى أزمنة الضعف . فكانت حدود مصر فى العصور القديمة ، هى : شلال أسوان وأطراف الصحراء وساحل البحر عند الدلتا ، كما هى اليوم . عند تلك الحدود ، كان رجال الجمارك والشرطة ينتظرون المسافرين . وكانت هناك مجموعات من التحصينات العسكرية لحراسة المداخل ، من القلعة القديمة القائمة وسط جزيرة فيلة ، إلى « حصون البحر » (انظر الحصون) . وكانت هناك حصون قوية فى

كل من سيلة وبلوزيوم وبيثوم تغلق الطريق الآتى من آسيا ، كما كانت هناك حصون اخرى فى مريوط والمنطقة المحيطة بها تؤمن المداخل الغربية . وكانت هناك أبراج تشرف على التلال الغربية والليبية كما عينت هيئة من الشرطة تطوف مع الكلاب خلال الصحراء . وقد وصف أحد وزراء أمنحوتب الثالث نظام الحدود ، فقال :

« وضعت قوات فى الطريق لمطاردة الأجانب وإرجاعهم على أعقابهم إلى بلادهم . تحيط تلك القوات بنصفي المملكة لمراقبة تنقلات البدو الرحل . وفعلت نفس هذا الشيء على ضفاف النيل ومصباته فى الدلتا ، فيغلقها الجنود فى وجه كل واحد ما عدا رجال البحرية الملكية » . وما من شيء كان يعبر الحدود دون أن يسجل كتابةً . وأمدتنا مذكرة مدرسية بمحاضر أحد مراكز الحراسة على الحدود الشرقية . سَجَّلَ هذا المركز فى أحد الأيام مرور أحد ضباط الملك ، وسجَّلَ فى يوم آخر مجيء رسول من غزة . وكان على الكاتب أن يسجل سبب الانتقال وعدد الخطابات التى يحملها الشخص المرتحل .

لما كانت مصر دولة ذات اقتصاد دولىّ ، كان لها حواجز جمركية على الحدود . ولما اكتسبت التجارة الإغريقية أهمية ، مُنع الاغريق من دخول مصر إلا من الفرع الشرقى للنيل . وهناك أسطورة قديمة تقول إن نختنبو أصدر الأوامر بتحصيل ضريبة العشور على الذهب والفضة والخشب وكل شيء يرد من البحر المتوسط ، كما أمر بتسجيل كل شيء مطلوب لبيت الملك فى مدينة ثونيس . كذلك جُمعت ضريبة على الواردات الآتية من الجنوب إلى فيلة . كذلك كان الأشخاص عرضة للإجراءات الرسمية كالسلع تماماً . ينزل السائح الآن فى الأسكندرية ، فلا يستغرق فحص أمتعته وأوراقه والتصريح له بالنزول إلى البلد مدة ساعة أو ساعتين على الأكثر بعد أن تمس سفينته الشواطيء المصرية . أما فى العصور القديمة فكان يستغرق مدة أطول بكثير . وكان القحط يدفع النوبيون إلى الهجرة إلى مصر ، وجاء بدو النقب يسوقون قطعأنهم إلى الشواطيء المصرية ، وجاء أولاد يعقوب لشراء الحبوب من مصر ، وطلب بعض العبيد المأوى فى مصر كما فعل عبيد پاريس عندما تحطمت سفينته (بناء على رواية هيرودوت) . فانتظر كل هؤلاء عند الحدود ، وأرسل المراقب الواقف عند مدخل البلاد رسولاً إلى السلطات فى العاصمة ، التى أرسلت التصريح بدخول البلاد مع الرسول . ورغم أن فرعون رجا أحد رجال البلاط « سنوهى » أن يعود من منفاه ، فإن هذا الأخير خضع لتلك الإجراءات البطيئة ، فكتب يقول :

« توقفت عند القنطرة . وأرسل الضابط المكلف بالحراسة هناك رسالة إلى القصر ليعلن حضورى . فعمل صاحب الجلالة الترتيبات اللازمة لمجيء رسول خاص من الريف . وتبع هذا الرسول عدة صنادل محملة بالهدايا للآسيويين المرافقين لى .... بدأت رحلة العودة ورفعت الشراع . وقد أُعدَّت لى كميات من الجعة الطازجة ، على ظهر السفينة ، حتى وصلتُ ميناء العاصمة » .

الحروب : كثيراً ما نرى فى الرسوم التى على صخور الصحراء التى

ترجع لعصور ما قبل التاريخ « عددا من الرجال يحرسون قطيعا من الماشية ، بينما يهاجمهم آخرون » .

من الجلى أن النهب والحرب كانا جزءاً من الحياة الأفريقية منذ أقدم العصور عندما كانت طوائف البشر تتراجع إلى الشرق وإلى الغرب بسبب جفاف الأرض . فاتخذوا لأنفسهم بيوتاً على ضفاف النيل . فى ذلك المكان شكلت يد سكين جبل العركى . تبين تلك الصور مجموعتين بشريتين مختلفتين مشتبكتين فى قتال يداً بيد ، بينما تطفو جثث القتلى بين السفن المتضادة . وإلى هذه الحقبة يرجع تاريخ العلامات ذات الدلالات العسكرية فى عصر الدولة القديمة والعصور اللاحقة . وتستلزم تقاليد المصريين وجيرانهم أن يُظهر المحارب أنه كان فى الحرب ، بطريقة طقسية ، وذلك بأن يضع فى شعره ريشة نعامة أو أكثر . وكانوا يرسمون « ريشة الحرب » دائماً تقريباً على رأس الرمز الهيروغليفى الدال على « الجندى » وعلى العَلَم . وكانوا يضعونها أحياناً فى يد العدو المهزوم المستسلم . ومن العادات البدائية الأخرى التى كانت سائدة فى مصر ، رقصة الحرب . وهناك صورة على حائط مقبرة من مقابر الدولة الوسطى تبين شباناً واضعين الريش على رءوسهم ويقفزون كالجن ، ويركعون على ركبة واحدة ثم يقفزون إلى أعلى ممسكين قبضة من السهام ، ويشهرون قسيهم أمامهم . وهناك عادة ثالثة ، وربما كانت بائدة أقل من العادتين السابقتين ، وهى التعهد بين المصريين أنفسهم ، على الأقل ، بالإعلان عن المعركة المزمع قيامهم بها : « لا تهاجموا فى الليل كالمخادعين . قاتلوا عندما يمكن للعدو أن يراكم . أعلنوا عن القتال قبل بدئه » .

وعلى العموم ، فإن مصر ، تلك البلاد الباسمة السعيدة ، التى كان يسكنها المزارعون والموظفون المحبون لوطنهم ، كانت تُخرج أقل اناس حباً للقتال ، فى العصور القديمة . لم يكن من الضرورى الاشتباك فى حرب أجنبية مستمرة أو ممتدة لتدعيم الاقتصاد الأساسى أو لتثبيت الاتحاد الداخلى . احتفظت مصر بسيادتها على الليبيين والنوبيين « الأقل تقدماً » ، بنظامها الرائع . وكثيراً ما أحزنها أن تجرب قوتها ضد خصوم متعادلين معها فى القوة ، مثل الأسيويين . ولا شك فى صلاحية الفلاحين الكادحين الأشداء لأن يكونوا جنوداً مجيدين إذا دُرّبوا على القتال ، ولكنهم لم يُبدوا ، إطلاقاً ، أى ميْل طبيعى للخروج فى حملة إلى أرض أفريقية وراء واديهم ، أو فى جبال آسيا الكثيرة الغابات . جُندت المرتزقة فى عصر مبكر يرجع إلى عصر الدولة القديمة ، وزيد فى أعدادها بمرور الزمن . كانوا أقل نظاماً وطاعةً ، ولكنهم كانوا أكثر مغامرة . ومع ذلك ، كان لدى مصر دائماً جيش قومى ، وتقاليد حربية موروثة ، وسبب قوى لشن الحرب .

قامت الحرب الأهلية بين الأمراء فى سنوات الاضطرابات إبان الحقبة المتوسطة الأولى ، عندما كان « ابنُ الإنسان عَدُوُه ، واخو المرء خصمَه » ، وفى أثناء الحقبة الليبية شهدت مصر كفاحاً من أجل الدفاع عن وادى النيل أو من أجل تحريره ، ضد كثير

من الغزاة القادمين من أركان الأرض الأربعة ـ الهكسوس ، والليبيين ، وشعوب البحر ، والاثيوبيين ، والأشوريين ، والفرس . وكانت مصر تشن الحرب فى الخارج ، عندما كانت فى أوج قوتها ، بنوع خاص . لم تُشن حرب حقيقية فى العصور القديمة من أجل الغزو ، بل قامت حملات « لمعاقبة » الليبيين أو النوبيين ، بقصد الإغارة أكثر منها لحماية الحدود . وقد تقدم المصريون فى عصر الأسرة السادسة حتى فلسطين كى يُشعروا « المتمردين » الوطنيين بقوتهم . وهناك سجل معاصر دُوِّنَ به أن « هذا الجيش عاد مسروراً » ، وكُرِّرَ عدة مرات ذاكراً أقدم تاريخ معروف لحملة عسكرية ظافرة ، فيقول : « عاد هذا الجيش مسروراً عندما نهب تلك البلاد وسوى بها الأرض ، وهدم حصونها ، وخرَّبَ كرومها واقتلع أشجارها الكبيرة ، وأحرق البيوت ، وذبح رجالها بالألوف ، وعاد بالكثير منهم أسرى » . كُررت مثل هذه الحملات على نطاق واسع فى الدولتين الوسطى والحديثة بقصد المحافظة على ولاء الممتلكات التى ضُمت لمصر بالغزو أو التابعة لها كمحميات .

ونتيجة لذلك ، كان من بين الصفات النظرية للفرعون المثالى ، « المحارب الأعظم » انه هو « الذى يشتبك فى المعركة ولا يتقهقر ، والقائد الأعلى لجيشه ، والمقدام فى عربته ، الذى يمسك قوسه ويطلق السهام مباشرة دون أن يخطىء الهدف ؛ الذى يثبت فى مكانه ، والرائع فى شجاعته ؛ الذى تحمل ذراعه القوية الصولجان والترس ، ويطأ الملوك تحت قدمه ، ولا يعرف أىَّ تقهقر » . وقد اهتم بعض الآلهة بالحرب ، مثل : ست سيد العواصف ، وسخمت اللبؤة الثائرة ، ومونتو الذى اعتبر حامى الانتصارات الطيبية فى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. ؛ وشَبَّه الملك نفسه بأولئك الآلهة . فكان « الظل الذى يحمى جنوده » ، ولولاه لما كان لهم حوْلٌ ولا قوة . حدث فى معركة قادش أن شُتتت الفرق المصرية ؛ غير أن رمسيس الثانى ، وقد أحاط به الحيثيون ، انتصر فى ذلك اليوم على عكس ما كان متوقَعاً ، بمساعدة حرسه . هكذا كان التأكيد بأن الفرعون يقهر وحده « دون أن يكون جيشه معه » ، ولذا استحق أن يُجعل خالداً فى الملحمة البطولية الطنانة ، التى عنوانها « موقعة قادش » .

وبألف طريقة ، عبر المصريون عن فكرة الملك المحارب فجعلوه « سوراً من البرونز حول مصر » ، والبطل الذى « وسَّعَ حدودها » ، وقد بولغ فى ذلك على الآثار تبعاً لأراء المصريين الخاصة عن الحرب . كان المعتقَد أن مصر هى العالم الذى نظَّمه الخالق الأول ، الذى كان الفرعون الحاكم وارثه . كان على الممالك التى فى الشمال والجنوب والشرق والغرب أن تحترم ملكها وتظل خاضعة له . وتعلن النصوص الطقسية ، والترنيمات الخاصة بالملك ، وصور الأسرى الأجانب المكبلين بالأصفاد تحت عرشه ، وما إلى ذلك ، عن حقوق الملك فى السيادة العالمية . فنشأت نظرية أمن المملكة وسياساتها الاستعمارية من أفكار المصريين حول النظام الكونىّ . وقد اعتبروا الغارة التأديبية ضد البدو ، أو الحملة العظمى التى تزود المصريين بالجزية

والعبيد ، كما تزود آلهتهم ، عملا إلهيًا لحفظ السلام . فكانت نتيجتها انتصار النظام الأوّليّ على الفوضى . أما فيما يختص بالحرب الأهلية (انظر الثورة) ، فقد رأى مؤلفو أدب الحكمة (الذين يُذكروننا بالمحنة التى حدثت بعد الدولة القديمة) ، شيئاً أشبه بنهاية العالم : « أريك الدولة مقلوبة ، أعلاها فى أسفلها » — وتقول نبوءة تليت بعد سقوطها : « تحدث أشياء لم تحدث من قبل . سيمسك الناس أسلحتهم ، وستعيش المملكة فى فوضى » . وحتى الغزوات نفسها ، اعتبرت امتدادات للأساطير الأولية . واعتبروا الفرس تجسيد ست ، قاتل أوزيريس .

من السهل أن نفهم سبب وجود كثير من الصور الحربية على جدران المعابد التى شيدها الملوك الرعامسة فى طيبة ، وفى أبيدوس ، وفى بلاد النوبة . صُوِّرَ ملك مصر ، بالحجم الطبيعى ، وكله ثقة فى نفسه ، « يبدو مثل الشمس » يصحبه بضعة من أتباعه الذين لا يعرفون الخوف يتهاوى أمامهم الأعداء صرعى أو يفرون . وحتى الحصون نفسها لا تصل إلى ذقنه . ثم تُصَوِّر عودته مع جحفل طويل من الأسرى المربوطين معاً فى أوضاع مضحكة ، يجرهم الملك شطر الإله وأحياناً يُبالَغ فى مناظر المعركة أو تكون خيالية فتغدو ملاحم بطولية . ورغم هذا ، يشير معظمها إلى أحداث حقيقية . ومغزى مناظر المعارك هذه مشروح فى الصور التقليدية التى كثيراً ما نراها على واجهات المعابد . فنرى الملك فى تلك الصورة رافعاً يداً ليتسلم سيفاً من الإله ، ويمسك باليد الأخرى عدة حبال أطرافها فى فتحات الحصون ، وقد صور كل حصن بهيئة بيضاوية (خرطوش) يعلوها صورة نصفية لأسير ، وتحتوى الخراطيش هذه المرتبة فى درجات مسلسلة على أسماء الشعوب الأجنبية . وفى بعض الصور الأخرى ، يشهر الملك سيفه فوق رءوس جماعة من الأجانب الراكعين . وفضلا عن كون هذه الصور برهاناً ظاهراً على نشوة النصر التى أثملت الظافرين ، فإنها ترمز إلى الرهبة السحرية التى يلقيها الفرعون على العالم الخارجى بفضل إلهه . وذلك لأن قدماء المصريين ، على خلاف الأشوريين ، لم يشتبكوا فى أية حرب بقصد المتعة .

الحريم **Harem** : أفرد النبلاء أقساماً من بيوتهم للنساء . ويمكن أن يطلق على المناظر المرسومة على الأوستراكا التى تبين الحسان يتبرجن ، اسم « مناظر الحريم » . بيد أن هذه لم تكن غرفاً للحريم بالمعنى المتداول . ومما قال هيرودوت ، أن النساء المصريات كن يسرن بُحرية فى المدن وفى الحقول ، وقرب الفيوم (حيث كان الفرعون يذهب لصيد الحيوان) ، وفى منف ، وفى أماكن أخرى ، كان للفرعون « حريم » بالمعنى الحقيقى (هذه الكلمة مشتقة من الحرمانية) ، بيد أن الحياة فى هذا الحريم ، كانت تختلف تماماً عن الصورة الكلاسيكية للحياة الفاترة فى الحريم الشرقى . وكانت أماكن الحريم ، فى الدولة الحديثة واسعة وخُصصت للإنفاق عليها أوقاف وضرائب معينة . وكانت الملكات يذهبن إليها ويقمن بها . وكان

صغار الأسرى من الأجانب والمستوطنين (مثل النبي موسى) يربون في «الحريم». وتقضي السيدات وخادماتهن وقتهن بالحريم، في النسج على نطاق صناعيّ. ويشرف على ذلك البيت هيئة كاملة من الرجال، تتألف من مدير ومشرفين وكتبة ومحصلي ضرائب وممثلين تجاريين وحراس، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك خصيان.

حزام إيزيس Girdle of Isis: كانت لدى قدماء المصريين تميمة بشكل صليب ذي يد، وذراعين منحنيتين إلى أسفل. ولسنا نعرف أهميتها في تلك العصور، على وجه التحقيق، ولكنها كانت دائماً على علاقة بـ «عمود الجد»، ولذا نُسبت إلى إيزيس في عصور لاحقة.

غير أن أربطة أحزمة الربات كانت تشبه هذه التميمة في بعض الأحيان.

الحصان Horse: حقق المصريون عدة انتصارات على عالم الحيوان. ولكنهم عاشوا آلافاً من السنين دون أن يعرفوا الدابة التي توصف بأنها «أنبل الحيوانات». وقد اتفق المؤرخون على أن الهكسوس هم الذين أتوا بالخيول إلى مصر، اعتقاداً منهم أن الأسيويين، مثل كورتيز Cortez (فاتح المكسيك، يدينون بانتصاراتهم إلى ذلك الحيوان القاهر. وليس هناك ما يؤيد هذه النظرية رغم قبول الجميع بها. فعندما بدأ الهكسوس يتسربون إلى الدلتا في القرن الثامن عشر ق. م.، ويفرضون حكمهم، كانوا، في أغلب الظن، من المشاة مثل الوطنيين. أما الخيول والعربات الحربية فأدخلها الآريون في جميع دول الشرق الأدنى منذ بداية القرن السابع عشر ق. م.. ولم يستمدها سكان وادي النيل، إلا عند نهاية حكم الهكسوس، من فلسطين (حوالي سنة ١٦٠٠ ق. م.).

ابتكر قدماء المصريين مجازات لوصف الحصان والعربة: سُمى ذلك الحيوان «الجميل»، وسميت العربة بـ «الملجّمة»، ولكنهما ظلا يدعيان «سوسيم Susim» و «مركبوت Merkabot» (أي الخيول والعربات)، وهما لفظتان استعاروهما، من جيرانهم المتكلمين باللغة السامية مثلما استعاروا منهما هذين الشيئين اللذين تصفانهما.

جاء الحصان متأخراً جداً فلم يصبح حيواناً مقدسا لأي من الأرباب، ولكنه قد دخل في فن الصور الدينيه مع الربات المحاربات اللواتي جئن إلى مصر من كنعان، ولاسيما «عشتارت Astarte» (ربة الفرسان).

اعتقد النبلاء الأسيويون أنه مما يحط من كرامتهم أن يركبوا الخيول، وفضلوا الذهاب إلى ميدان القتال أو إلى الاستعراض في عربات. وكذلك فعل قدماء المصريين. فنرى الملوك وعظماء النبلاء في عربات خفيفة ذات عجلتين، مصنوعة من الخشب والجلد والمعدن، يسرع بها حصانان فاخران، وفيها راكبان،

السائق والمحارب . وقد حاربت فرقة خاصة من راكبي العربات في جميع الحملات الملكية منذ عصر تحتمس . أما ركوب الخيل فتُرك للكشافين وحاملي المراسلات .

كانت عربة فرعون كائناً بطوليًّا كصاحبها — يعيش إله في كل جزء من أجزائها ، وقيلت فيها الأناشيد والأشعار . وكذلك اشتركت الخيول ، إلى حدٍّ ما في ألوهيتها . وأُطلق على جميع أزواج خيول الملوك أسماء طنانة . فسميت الخيول التي خدمت رمسيس في قادش « الانتصارات في طيبة » و « عسى أن تَرْضَى مُوت Mut » .

أخذ الليبيون الحصان والعربة الحربية عن المصريين في القرن الثامن ، كما أخذهما أهل النوبة في بداية الألف سنة الأولى ق.م. وتأقلم الحصان جيداً في مصر . فرُبيت قطعان الخيول في مراعي حافة الدلتا ولاسيما في منطقة بيتوم . وازدهرت الخيول

في الدولة الحديثة ، ويرجع بعض ذلك إلى هدايا ملوك آسيا . واعتبرت جماعة مشرفي حظائر الخيول وكتبتها ، موضع تدريب لكبار موظفي المستقبل .

عومل الحصان دائماً على أنه مخلوق نبيل ثمين . كان الحصان في عصر الفوضى

وقد أولع ملوك النوبة الأقوياء الذين حكموا السودان في حوالي نفس ذلك الوقت ، بخيولهم ، حتى أنهم بنوا لها المقابر بجانب أهراماتهم . وقد أوقف أمير مصري تقدم أحد أولئك الملوك خارج أسوار مدينته .

فلما هلكت المدينة جوعاً ، واستسلمت « ذهب صاحب الجلالة إلى الاسطبل ، إلى أقسام المهور ، ورآها تموت جوعاً ، فقال : بحياتي ويحب الشمس لي ويرجعة الشباب إلى أنفي بالحياة الإلهية ، إن تجويع خيولي لأشق على نفسي من جميع أعمالك الشريرة » . كان الأمير المهزوم قد تنصل من سيده ، ونهب ممتلكات تابع مخلص للملك النوبة بل وتحدى مملكة النوبة ، بيد أن كل هذه الجرائم تضاءلت بجانب آلام خيوله ، تلك الحيوانات الملكية ، بسبب خطئه .

الحصون **Fortresses** : سرعان ما تقدم المصريون البارعون في نقل التراب والأحجار ، في فن بناء وسائل الدفاع الصناعية . ففي جميع العصور الفرعونية كانت الحدود الهامة محروسة بوسائل دفاع قوية ، وأحيطت تلال الصحراء بحصون صغيرة . كما كانت هناك مبان مماثلة لهذه تحرس المناطق الريفية واستعملت كسجون . وكلمة « حصن » معناها « سجن » أيضاً . ومنذ الأسرات الأولى فصاعدا ، بنيت حول القصور الملكية أسوار عالية من الآجر ، ذات واجهات مقسمة بحواجز . واتخذ مثل ذلك النمط حول الفناء الخارجي لمقابر الأمراء في الحقبة الطينية ، وفي سور زوسر بسقارة ، وحول توابيت معينة . والرمز الهيروغليفي الذي يؤدي معنى محيط أو نطاق ، له نفس الصورة . كذلك كانوا يصنعون حصوناً بيضاوية الشكل مدعمة بدعامات مستديرة كالنموذج الذي كان يستخدمه المصريون والفلسطينيون في العصور الأولى .

بنيت في الدولة الوسطى وسائل دفاع أكثر تعقيداً ، عبارة عن قلاع ضخمة من الآجر ، ارتفاعها من ٥ — ٦ أمتار ، ذات حوائط مزدوجة ، وحواجز ، وشرفات ، وأحيانا كانت تزوّد بأبراج متحركة وخنادق . فكان الأربعة عشر حصناً التي بنيت بدهاء على الجزر والجبال الواقعة بين الشلال الأول والشلال الثالث للنيل في عهد الملك سنوسرت الثالث قاهر بلاد النوبة ، من هذا النوع . وربما كان على غراره « حائط الأمير » الذي بناه أمنمحات الأول ، في وادي الطميلات لصد الأسيويين . ويحتمل أن يكون هذا النمط من قلاع الحدود هو منشأ الأسطورة التي ظلت حتى عصور العرب ، وتقول إن ملكاً بنى سوراً طويلاً من بلوزيوم (الفرما) إلى هليوبوليس (عين شمس) . وهذه التحصينات التي بناها الفراعنة في هذه المنطقة ، تشبه إلى حد كبير سور الصين العظيم . وبعد أن هزم المصريون آسيا في عصر الدولة الحديثة ، اتخذوا نموذج الحصون الشائع في آسيا والمعروف باسم « سيجدول Migdol » ، وهو بناء لا يختلف كثيراً عن القلعة الأوربية للعصور الوسطى ذات الحائط الخارجي المزود بفتحات لقذف السهام ، وله نفس الحراسة ونفس الأبراج الصغيرة . وما الباب الأثري لمعبد رمسيس الثاني بمدينة هابو ، إلا نسخة حجرية من الحصن الأسيوي السوري .

بُنيت في الدولة الحديثة حصون من كل نوع ونمط ، على الحدود حيث زودت بحاميات في نقط استراتيجية على طول الطرق الموصلة إلى ليبيا ، (مثل الحصن الذي أقيم في العلمين) وإلى كنعان وتقع في نهايته القلعة الشهيرة التي كانت مرحلة من مراحل « خروج اليهود » .

تقدم المصريون القدماء في فن بناء الحصون ، وكذلك جيرانهم الشرقيون . فعُرف في الدولة القديمة استخدام سلم لتسلق الأسوار والخطاف اليدوي . وكذلك استخدموا الكبش (قضيب دك الأسوار) ، في الدولة الوسطى ، كما استخدموا نوعاً من « الدبابات » لوقاية أنفسهم من قذائف العدو . ولكنهم لم يستعملوا وسائل الحصار التي استعملها الأشوريون . ومنذ أقدم العصور لم يكن الاستيلاء على حصن مصري ، عملية سهلة . فجميع مومياوات الجنود المدفونين قرب ضريح الملك منتوحوتب الأول ، مصابة بجروح فظيعة في قمة الجمجمة . وهكذا يحق لنا أن نعتقد أن أهل طيبة هؤلاء قد هلكوا جميعاً تحت أسوار أهناسيا المدينة في حوالي سنة ٢٠٦٠ ق . م .

حعبي Hapy : انظر النيل .

الحقبة الثينيه (الطينية) Thinite Period : تحدد الحقبة الثينية (الأسرتان الأولى والثانية ، حوالي سنة ٣٢٠٠ — ٢٧٨٠ ق.م.) فجر الحضارة التي انبثقت من ظلمات العصور قبل التاريخية ، وبشرت بانبلاج صبح الدولة القديمة الأمجد . جاء ملوك هذه الحقبة من ثني . وقد وجدت مقابرهم في أبيدوس على مسافة غير بعيدة من مدينة ثنيّ . وَحَّدَ مينا ، وهو أول ملك

ثنى ، والرمز الأسطورى لعصره ، الشمال والجنوب ، وأسس منف . وتنتشر فى سقارة كثير من المقابر الثينية . ظلت هذه الحقبة أسطورة غامضة لمدة طويلة ، وعُرف من الآثار اللاحقة (مثل حجر بالرمو) أن أوائل الفراعنة اضطروا إلى حمل السلاح ضد بعض الأقاليم ، وأنهم كانوا يحتفلون بالأعياد التقليدية ، وبنوا المعابد ، وصنعوا التماثيل . والآن ، أوضحت الكشوف التى وجدت فى كثير من الأماكن (أحدثها ما كُشف فى حلوان) ، حقيقة الحقبة الثينية .

كانت الحقبةَ التكوينية للحضارة الفرعونية . فقام فيها فن صناعة الذهب والنحاس والعاج ، واتخذت الفنون المصرية طابعها الخاص ، وأخذت الكتابة التصويرية تتلاشى شيئاً فشيئا ، وصارت هيروغليفية أكثر فأكثر . وتدل الأوانى الجميلة النحت على السيطرة التامة على أشد الأحجار صلابة . وليست القبور التى وُجدت فى أبيدوس وفى سقارة ، قبور القرويين من أهالى العصر الحجرى الحديث ، بل قبور رجال البلاط مرتبة حسب درجة كل منهم ، وتعلن الأوانى المختومة التى وجدت فيها ، عن وجود نظام للخزانة العامة فى عصر زوسر ، وسرعان ما جلبت الأسرة الثالثة ازدهار الحضارة المصرية التى صُوِّرت فى الحقبة الثينية .

الحلىّ : عُثر على عدد قليل من مقابر الملوك والأمراء سليمة لم تعبث بها الأيدى ، فوُجدت فيها حلى ومجوهرات من كل نوع ، وغالباً ما كانت ذات روعة وبهاء . وتتضمن الأمتعة الجنائزية لبعض الملوك الأوائل ، أمثال چر Djer فى أبيدوس ، وسخم-خت Sekhemkhet فى سقارة ، بعضاً من القطع فى غاية الجمال . وُجد فى قبر حتب-حرس Hetepheres والدة خوفو ، وفى جبانات الجيزة وحفائر المحاسنة ، كثير من الحلى يرجع تاريخها إلى الدولة القديمة ، وهى عبارة عن أساور وعقود وأطواق وفراشات ، تتألق بالذهب ، ومرصعة بالعاج واللازورد الأزرق والفيروز ، تشهد ببراعة الصياغ والذوق الفنى العجيب والأعمال الفنية الفذة .

كانت الدولة الوسطى هى عصر الحلى ، كما يمكن أن نُرى من كنوز أميرات دهشور واللاهون (خرز مجوف من الذهب ، وخرز من الجمشت ، وأكاليل دقيقة الصنعة وأحزمة من الخرز تشبه الأصداف ، وخواتم وحلى للصدور [كردان] أو رقائق مستطيلة الشكل تتدلى من طوق) ، وتشمل المجوهرات والحلى الخاصة ببعض السيدات ، مثل سينبتيسى Senebtisy وهابى Hapy من مدينة اللشت Lisht . وفى هذا العصر ،حاول فنانو جبيل (بيبلوس) Byblos أن يحاكوا النماذج المصرية فى شىء من النجاح . أما الدولة الحديثة العصور اللاحقة لها ، فتركت مجموعة وفيرة بدرجة لا تُتصور ويتجلى فى كنوز الملكة إعح حوتب Aahotep ، و « الأميرات الثلاث » وتوت عنخ أمون وحلى السيرابيوم ، والملكة تاوسرت Tausert ، والمقابر الملكية فى تانيس فن راق ودرجة عالية من المهارة الفنية . ولبعض حلى الجزء الأخير من عصر

الرعامسة أو العصور الإثيوبية جمال زخرف معين يتمثل في الكميات الوفيرة من فصوص الزجاج الحقيقي والخزف ، والأحجار الملونة شبه الكريمة . وقد ظهرت الأقراط في الدولة الحديثة ، وكذلك الخواتم المستديرة ذات الفصوص الكبيرة ، التي شاعت في العصر الصاوي .

أبدى صياغ العصور الحديثة ، الذين درسوا هذه الكنوز ، إعجاباً بالغاً بزملائهم الغابرين وتمكنوا من معرفة التقنيات القديمة بمساعدة الحلى نفسها ومناظر حوانيت الصياغ المصورة على جدران المقابر . وبهذه الطريقة أمكننا أن نعرف الكثير عن عمليات صهر المعادن وسبكها ولحامها وطرقها وتشكيلها (وُجدت رقائق من الذهب سمكها ٢٠٠/١ من المليمتر) ، وعمليات الزخرفة التالية لتلك وتشمل : التمشيط والحفر والتذهب بالضغط ، والزخرفة بالنقش البارز والترصيع واستعمال المحببات Granulation أو المخرمات (الشفتشي) Filigree والصقل والتلوين .

ليست هذه الكنوز المكونة من الذهب البراق ، والأحمر الزاهي والأزرق اللامع ، التي تتلألأ في متاحفنا ، إلا بقايا قليلة أفلتت من جشع الإنسان طوال آلاف السنين . فقد نهب أهل طيبة المقابر الملكية ، في عصر رمسيس التاسع ، ونعرف من كتاب استعمل دليلاً للباحثين عن الكنوز اسمه « الدر المكنوز في الدفائن والكنوز » أن المصريين في العصور الوسطى كانوا يعرفون عن وجود هذه الحلى الجنائزية الثمينة ، وشغلوا نفوسهم باستعادة تلك المجموعات الهائلة .

الحمار : كتب معظم زائرى مصر المبرزين ، الذين مروا بالقاهرة في القرن الماضى ، بضعة سطور ، بعضها ملح وبعضها قدح ، في الحمير الصغيرة الكثيرة ، وصغار المكاريين الموجودين في تلك المدينة . وحتى اليوم ، لا تتم زيارة مصر بغير رؤية جبانة طيبة ، ولو مرة واحدة ، من على ظهر أحد هذه المخلوقات التي بجلها الزمن . فالحمار الأفريقي جزء من ماضي مصر الجغرافي والتاريخي . كان الحمار من الحيوانات البرية التي تقطن منطقة الصحراء الحالية إبان العصور الفرعونية . ومنذ زمن غير معروف ، صار ذلك الحيوان خادماً للإنسان . فصار كل فلاح مصري مكاريًا محترفاً . فنرى الحمير ، ذكوراً وإناثاً ، وبجانبها صغارها ، مصورة على جدران المصاطب القديمة ، تجرى بجسمها الضئيل الهزيل الذى أضناه طول احتمال المشاق ، ثم تغدو عنيدة .

إذا ما أراد الفلاح المصرى القديم أن يدرس القمح ، ساق الحمير إلى الحقل ، وحمّلها بحزم القمح . وكان يصيح فيها : أحياناً للتهكم ، وأحياناً أخرى لحثها على السير . ونرى هذه الصيحات مكتوبة باللغة الهيروغليفية فوق المناظر الخاصة بها وإذا رفض الحمار أن يحمل القمح ، انهال عليه الفلاحون (ثلاثة أو أربعة) بالعصى وأشبعوه ضرباً بالطريقة التقليدية ، لكى يرغموه على حمله . وإذا سقطت من فوق ظهره حزمة ، ضرب من جديد .

كما أنه لا غنى للفلاح عن الحمير ، كذلك كانت ضرورية لقطع المسافات

الطويلة فى القوافل الرسمية ، إلى المناجم أو إلى بلاد النوبة ، كما استخدمها البدو فى الصحراء العربية ، والتجار الجائلون القادمون من الواحات .

ليس هناك ما نقوله أكثر من ذلك عن الحمار ، فاستخدمه قدماء المصريين بنفس الطريقة التى نرى الفلاح اليوم يستخدمه بها فى الحقول المصرية ، كما لم تختلف معاملة قدماء المصريين له عن معاملة فلاحى اليوم ، فى معظم الأحوال فنرى الفلاح ممتطياً صهوة حماره فى عظمة ، سائراً فى المناكب الترابية « المدقات » ، وغالباً ما يركب خلفه زوجته وأولاده ، ذاهبين إلى سوق القرية . ولا يبدو أن أسلافه كانوا يميلون إلى ركوب الحمير بتلك الطريقة . أما الذين نراهم مصورين على ظهور الحمير ، فهم عادة أمراء من آسيا ومع ذلك ، فالمعروف جيداً أن هناك استثناءات لذلك ، كما فى صورة منفية بالنقش البارز بها هودج موضوع فوق ظهرى حمارين ، أشبه بالهودج الذى يركبه النبلاء ، ويحمله الرجال على أكتافهم . فإن ساكن وادى النيل كان يُفضل كثيراً أن يستخدم رجليه وسيلة للانتقال ، على أن يدليهما على جانبى حمارته وهو راكب على ظهرها ، كالأسيويين .

إذا كان المصريون يحتقرون الحمار فى هذا العصر ، ويستخدمون اسمه فى أحط أنواع الشتائم ، فيبدو كذلك أن قدماء المصريين الوثنيين ، الذين قدسوا الحيوان ، كانوا يمقتونه أيضاً وفى العصور الفرعونية ، أخذ هذا الحيوان المستخدم فى جميع الأعمال اليومية ، يدخل شيئاً فشيئاً فى القصائد الدينية على أنه كائن شرير ، يستثنى من ذلك نص قديم جداً استعمل فى كتاب الموتى ، ينص على أنه يجب على الميت أن ينقذ حماراً أسطورياً من عضة ثعبان . فأولاً ، كانوا يعتبرون الحمار ، ولاسيما الحمار البنىّ اللون ، حيواناً غير طاهر ، ثم اعتبروه ممثل الاله ست . ولما اعتُبر ست ، فى العصر المتأخر ، عنصراً شريراً ، صار الحمار بدوره أعظم حيوان سحرىّ، ولذا كانوا ينكلون بجسمه الحىّ أو بتمثال له كى يلقوا على الشر تعويذة بطريقة السحر الغامض . وكان قاتل أوزيريس يلبس رأس حمار . وما كان بوسع كتبة المعابد أن يكتبوا الكلمة الدالة على الحمار دون أن يرسموا سكيناً مغروساً فى كتف هذا المخلوق البغيض .

شبَّه المصريون الغازىَ الفارسى بالاله ست ، وأطلقوا عليه اسم « الحمار » . ولكى ينتقم ارتاكسركسيس الثالث لنفسه من هذا اللقب ، دنَّس المقدسات أدنأ تدنيس . فكان يأمر ، عند الاحتفال بعيد العجل أبيس ، بأن يوضع مكانه حمار ليتلقى الأمجاد .

حورس Horus : كانت آلهة الصقور ، مثل سوكر أو عنتى أو سوبد أو مختى إرتى ، عديدة فى مصر ، غير أن الآلهة المشهورة أكثر من غيرها ، هى الآلهة المعروفة بإسم « حورس » . ويجب أن نميز بين كثير من الآلهة بهذا الاسم ولو أن أساطيرهم وطقوس عباداتهم مختلطة ، بعضها ببعض .

لا شك أن حورس كان أولاً إلهاً للسماء مثل الطائر الجميل ، الصقر ، الذى كان

رمزه . وظل بعض الوقت إله الفضاء ، متخذاً الشمس والقمر عينيه . وأحياناً أخرى ، صار هو الشمس ولاسيما باسم رع حوراختى Rehorakhty . وفى هاتين الحالتين الأخيرتين ، استمر حورس إلهاً يحكم على السماء والنجوم . ولما كان ذا صلة بالملوك الذين وحّدوا مصر العليا ومصر السفلى ، فقدْ عيّنته الأقدار إلهاً ملكيًّا بالامتياز . وعند انتصارهم فى بداية الأسرة الأولى ، صار الصقر حورس الإلهى حامى الملك ، وإلى حد معين ، صار هو الملك نفسه . كانوا يكتبون الاسم الملكى داخل صورة قصر يجثم فوقه الصقر . وهذا ما يعرف « بالاسم الحورى » .

شاعت أساطير أخرى إلى جانب هذه المعتقدات ، منها واحدة يبدو أنها نشأت عن النضال بين عبادتين متعاديتين . إنها قصة النضال الأبدى بين الإلهين حورس وست وكان هذا النضال حتميا حتى يحافظ على توازن القوى فى الكون . ظل ذلك العراك لمدة طويلة متجسداً فى الشخص الملكىّ . فمنذ الأسرة الأولى اعتبر أن الملك قد ورث قوته وعرشه معاً من « سيدين » وأطلق على الملكة « التى ترى حورس وست » .

وبمرور الزمن ، اختفى ست تماماً من الشركة الملكية . حدث ذلك بتأثير أسطورة خلطت بين حورس إله السماء وبين إله أسطورىّ آخر ، وهى أسطورة أوزيريس التى أنشأها علماء اللاهوت بمدينة هليوپوليس .

وإذ صار حورس ابن أوزيريس وإيزيس ، وابن شقيق ست ، كان هو الوارث الصغير لمملكة أبيه الأرضية ، التى خلعه عنها عمه الشرير . وتقول هذه الأسطورة إن حورس اختفى من مطاردة قاتل أبيه فى مستنقعات الدلتا . وبعد ذلك جاء التنافس العلنى لاستّرداد ميراثه . وبعد مناوشات عديدة ، وبعد تحكيم الآلهة ، كسب حورس القضية . ويقول مذهب منف إن حورس أخذ الدلتا بينما بقى ست سيد مصر العليا . غير أن الأسطورة التى شاعت فى الدولة الحديثة تقول إن حورس الظافر صار ملكاً أبديًّا على كل الأرض ، وذهب ست إلى الرعد فى السماء . وتبعاً للرواية الأوزيرية لهذه الأسطورة ، وهى الأكثر شيوعاً ، لم يكن ست ، فى النهاية ، أكثر من إله للأغراب . وكوفىء حورس العادل فصار سيد مصر وملكها الوحيد .

وبهذه الطريقة اندمجت فى النهاية شتى العناصر المختلفة والمتشابهة : فصار حورس ابن إيزيس ، وحاربوقراطيس Harpocrates الصغير (باللغة المصرية « حورس الطفل ») ، الذى صُنعت له فى عصر متأخر تماثيل من البرونز كطفل يرضع إصبعه ، صار ملك مصر مثل إله هيراكو- نپوليس Hierakonpolis المسمى باسمه . أما رب السماء ، حورس إدفو الذى قَهَرَ العالم من أجل رع ، فتغلب على أعدائه الذين لم يكونوا غير ست وأتباعه .

الحياة بعد الموت : انظر المعتقدات الجنائزية .

الحيوان والنبات : اعتبر قدماء المصريين : أنياب الفيلة ، والزراف ،

وجلود الفهود والقردة ، والقرود المقدسة ، والنباتات العطرية المقدسة التى استوردها فرعون من بلاد النوبة وبلاد پونت من العجائب . ولابد أنهم وجدوا الحيوانات والنباتات الغريبة التى أحضرها تحتمس الثالث من سوريا البعيدة ، والتى أمر بتصويرها على جدران معبد الكرنك من الغرائب المدهشة .

لو انتقل أحد قدماء المصريين بآلةٍ زمنيةٍ ما ، إلى دنيا اليوم لذهل لما يرى . سيلتقى تحت نفس السماء الزرقاء بالحمير الكادحة والكلاب العاطلة . ولا شك فى أنه سيأكل نفس الطعام الذى كان يأكله فيما مضى (انظر الطعام) . ولكنه سيبحث عبثاً عن المستنقعات الواسعة ونباتات البردى السامقة التى كانت تنمو فيها ولن يجد الأسد أو التمساح أو فرس النهر . وأغرب شىء أن يرى خلفاءه تعاونهم حيوانات غريبة لم تكن معروفة له ، كالجاموسة والهجين ، ويزرعون محاصيل جديدة عليه ــ كالقطن وقصب السكر والأرز والذرة الشامية والذرة العويجة والموالح . ولو ذهب نفس هذا الفلاح الخيالى إلى نفس البلاد فى عصور ما قبل التاريخ ، لوجد ، نتيجة لتغيرات الطقس ، السافانا العالية والاستپس المعشوشبة تتخللها الشجيرات الشوكية ؛ والحقيقة أنه كان سيجد على نفس حدود مصر ، مناظر لا توجد ، حتى فى زمنه ، إلا فى المساحة المحصورة بين الصحراء الكبرى وخط الاستواء . ولوجد الوحوش ذات القرون والغزلان والنعام والفيلة والزراف تتجول فى قطعان ضخمة . وسيتمكن من رؤية الخرتيت يرتع ، بينما يختبىء آكل النمل فى جحره تحت الأرض . والمنظر الذى كان منتشراً وقتذاك فى وادى النيل العظيم ، يشبه إلى حد كبير منظر منطقة بحر الغزال اليوم . فقد انتشرت نباتات البردى واللوتس والغاب ، وساد التمسلح وفرس النهر وثعبان « الأصلة » الضخم . ولكن ، بينما كانت السهول تتحول إلى صحراء ، أخذت تتراكم التربة السوداء فى بطء . وجاء الإنسان بأنواع جديدة من النباتات أو زرعها . جاء بعضها من الواحات (مثل نخيل البلح) ومن أفريقيا الاستوائية (مثل قرع العوم) . ونقل بعضها من غرب آسيا (كالحبوب والكتان والكروم) فى أزمنة موغلة فى القدم . وجاء بعضها خلال العصور الفرعونية (مثل القط والحصان والزيتون والرمان) .

حقاً ، إن علم الآثار المصرية ليهيىء فرصة عجيبة لدراسة الطريقة التى حصلت بها الحضارة البشرية منذ عدة آلاف من السنين ، على تلك النباتات والحيوانات ، وكيف اعتنت بها وأنقصت أعدادها فى الوقت نفسه ، وأفادت منها مادياً وأدبياً . تمدنا مومياء الحيوانات وأكوام قمامة القرى ، والتحف النباتية وطعام الموتى والمصورات الجميلة العديدة وصور النباتات والحيوانات المنحوتة فى الأحجار ، وعدد كبير من النصوص (ولاسيما مخطوط البردى الطبى الذى يتناول أعضاء جسم الإنسان كاملة) والدليل غير المباشر الذى أدلى به علماء الطبيعة الاغريق والرومان ، بمادة للبحث

بطريقة معقدة أساسية . ويستطيع من يصغون إلى ڤيكتور لوريه Victor Loret أو إلى لويس كيمر Louis Keimer ، وكلاهما من العلماء المتحمسين لدراسة هذه الموضوعات ، والمنكبين على دراسة الديدان المتعددة الأرجل (أم ٤٤) Scolopendra Cingulata Latr. . أو آكلة العسل Mel-livora Ratel Sparrm ، أن يروا الهيكل الحى الحقيقى الكامن خلف الأشكال النباتية والحيوانية . وطريقة تصويرها مثل الإله التمساح سوبك الذى يصور مع أوراق نبات مائى طافية والسبب هو أن النبات المائى Potamagton هو فى الحقيقة ملاذ الأسماك المحبب وعندما تسند حتحور ظهرها إلى جبل الصحراء ، وتخرج خطمها من خلال حرش بردى ، فهذا لأنها تتصف بطباع الأبقار التى اعتادت أن ترعى فى المستنقعات الفاصلة بين الأرض الزراعية والصحراء . هذه التماثيل نوع من « الآثار الجغرافية الحية » وتوضح كيف تأثرت الأساطير والفن وأفكار الوثنيين ساكنى وادى النيل ورجال الريف الحاذقون وعباد الحيوان المتحمسون وفنانو الحيوانات البارعون وصانعو الجرعات الطبية ، بالطبيعة نفسها . فإذا لم نقرن الحيوان والنبات معاً تحت عنوان واحد وتناولنا كل موضوع منهما على حدة ، بعدنا عن الدقة .

كان النحل البرىّ الذى يعيش فى الصحراء ، ويجمع عسله موظفون مختصون ، يجد الكثير من الطعام لغذائه . وكان بالوادى ، وحتى على جوانب الصخور ، مقادير كافية من المياه تسمح بنمو كثير من الشجيرات ، وخصوصاً شجرة التربنتينا التى كان الأهالى يهتمون كثيراً بجمع صمغها الشديد الرائحة وبعد كل سقوط أمطار كانت تنمو بغزارة أنواع شتى من الحشائش . وكانت الحيوانات تجول بحُرية وسط الصحراء — الماشية والحمر البرية والغزلان المصرية والظباء والوعول على اختلاف أنواعها والأغنام البرية والماعز والنعام وغير ذلك من الحيوانات . كذلك كان هناك كثير من المخلوقات التى تتغذى بالحيوانات ، إما حية أو ميتة ؛ كالكلاب البرية (انظر ابن آوى) ، والضباع المخططة والفهود الهندية والقطط البرية والأسود . ويخرج من الجحور المحفورة فى الجبال عالم صغير من الحيوانات ؛ كالثعالب والأرانب والقنافذ والنمس والجربوع وثعالب الصحراء والضب . وتخرج السحالى طلباً للدفء بحرارة الشمس فوق الصخور التى ترقد عليها الثعابين وترتاح فوقها الطيور الجارحة .

كانت الصحراء أبعد ما تكون عن أن توصف بالأرض الجرداء وكان الوادى ، حيث ينمو كل شىء ويتكاثر بسبب النيل ، عامرًا « بالحياة » . ففى الفيوم ، وحول البحيرات الساحلية العظمى التى تحد الدلتا ، وعلى البحيرات الواقعة بين الحقول والجبال ، وفى مصر العليا المحوطة بدائرة مزدوجة من المستنقعات ، وعلى مجارى المياه المتعرجة ، وفى جزر النهر ، يوجد خصب أشبه بخصب وسط أفريقيا ، يجذب صيادى الأسماك والحيوان . وكانت كتل البردى الخضراء تخفى عالماً يحفل بالكائنات — كالقط البرى ، وقط الزباد ، والنمس

والكوبرا والحرباء التي تنتقل من جذع إلى آخر ، بينما تحدث أسراب الطيور جلبة فى الجو فوقها ، ويجاورها فى الماء نقيق « القرور Qror » (اسم الضفدعة الخالدة) . ويقبع على الضفة ، تحت شجرة صفصاف ، تمساح وطائران من مالك الحزين وقندس ، تبحث تلك الكائنات عن الأسماك . وبينما فرس نهر يغط غطيطاً بين أزهار اللوتس . ويمكنك أن ترى تحت أعواد الأعشاب الطويلة ، سلحفاة ، وهى وحش الظلام والشر (« ماتت السلحفاة ، يحيا رع » !) . وعلى حافة المستنقع ، فوق الطين الطرى ، مساحات واسعة من الحلفاء وأعواد الغاب حيث ترتع الثيران الوحشية والخنازير البرية ، وتكون مرعى طيبا لقطعان الماشية والأغنام .

بدأت المدنية حيثما جُففت السهول البدائية من مياهها ، واستصلحت وسُوّيت (انظر الرى) ، فأقام فيها الإنسان مع حيواناته الأليفة ، وزرع الفلاح الأرض حبوباً وكتاناً وكروما وخضروات . (انظر الزراعة) . لم يقم فوق الأرض ، زيادة على القرى والسدود ، سوى بضع أشجار قلما كانت مجتمعة فى حدائق أو بساتين ؛ وإنما تتألف منها ، فى بعض الأحيان ، أدغال خاصة مقدسة ، أو تنمو متناثرة فرادى .

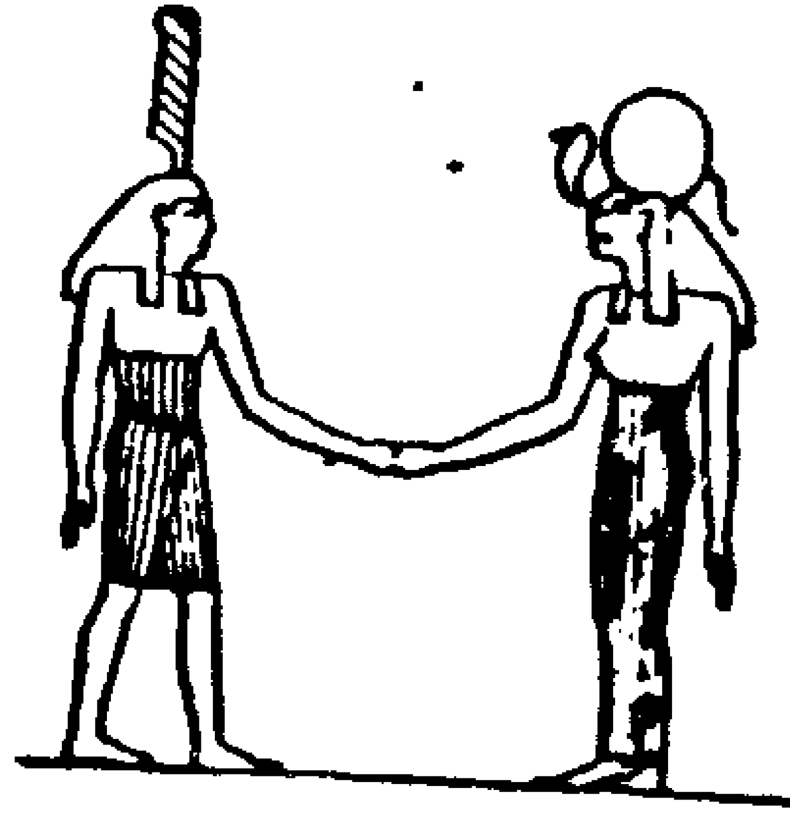
تلك الأشجار هى « أشواك المسيح » واللَّبخ والطرفاء والمورنجة والتين والبلح ونخيل الدوم ونخيل البكاريس ، وأكثرها جميعا أشجار السنط والجميز ، وقد اعتبروا هذا الأخير تمثيلاً لربة السماء . ولم يرحب الإنسان بوجود الحيوانات فى الأراضى الصالحة للزراعة والمستنقعات . فمثلاً كان الوعل يأتى ليسرق الغلال من الأجران وفرس النهر كان يدوس القمح فى الحقول . وكان الجراد الرحال من الآفات الزراعية . كذلك كان على الفلاح أن يعالج ما تفسده العصافير والفيران والديدان ، كما كان يعانى من الذباب والبراغيث ، ومن خطر الأفاعى والعقارب المستمر . ولاتزال هذه الحيوانات المتطفلة موجودة بكثرة ، أما حيوانات الصحراء الوحشية فقد ظل الإنسان يصيدها خلال العصور حتى قل عددها كثيراً . واختفت عدة أنواع منها ، استأصلها الإنسان ، أو طاردها حتى هاجرت ، أو انقرضت بانقراض البيئة التى كانت تعيش فيها وذبلت نباتات الصحراء ، وسرعان ما حُوِّلت المستنقعات والمراعى إلى أرض صالحة للزراعة . واختفت نباتات البردى ، وقلما تجد اللوتس الآن . والحقيقة أنه لا يوجد إلا القليل النادر من العالم البدائى الذى بجّله واستغله أسلاف مصر الحديثة

الحيوانات المقدسة Sacred Animals : أدهش هذا المظهر من الديانة المصرية الإغريق وأدى إلى قسوة الفرس وسخرية الرومان وحنق آباء الكنيسة . نشأت عبادة المصريين للحيوانات ، التى اعتبروها رموزا لأربابهم ، قبل سنة ٣٠٠٠ ق . م . ثم أساءوا فهمها فاعتبروا الحيوانات أكثر من مجرد شعارات أو رموز . ورأوا أن تلك المخلوقات جديرة بالعناية والعبادة لأنها كانت المكمن الحقيقى للصور النافعة أو الخطرة من القوة الإلهية . وكان إله القبيلة

يتجسد فى كل مدينة ، إلى الأبد ، فى حيوان معين يحميه التحريم ، ومن أمثلة تلك الحيوانات : الماشية والأغنام والكلاب والقطط والقردة والأسود وأفراس النهر والتماسيح والأفاعى والصقر وأبو قردان والنمس وآكل النمل والغزلان .

وفى بعض الأحيان كانوا يتوجون فى المعبد حيواناً ذا علامات خاصة مثل العجل أبيس المشهور وزميليه منيفيس Mnevis بهليوبوليس ، وبوخيس Buchis فى هرمونتيس . وأحياناً كانوا يعنون ببعض أنواعها الممثلة لها (التماسيح فى مدينة التمساح وأبو قردان فى هرموبوليس ، وهكذا) . وظل المصريون يحتفظون بهذه الحيوانات ليضمنوا بركة الآلهة ورخاء بلادهم فى الحقبة المتأخرة عندما انتشرت عبادة الحيوانات المحلية بدرجة جعلت الكُتّاب الأجانب يسخرون منها . فيقول هيرودوت ، إن المصري ليترك أمتعته تحترق ويخاطر بحياته لينقذ قطاً من لهب الحريق . وقتل العامة مواطناً رومانياً لأنه قتل قطاً . ويرجع تاريخ معظم مومياوات الحيوانات التى لا تحصى ، إلى ذلك العصر . وكانوا يرتبونها إما بحسب السلالات أو كيفما اتفق ، فى القبور أو فى الجبانات الواسعة ، وأحياناً فى قوالب من البرونز تُصنع على صورها . وكان الاعتناء بالأرض المخصصة لدفن الحيوانات من كل نوع ، المقدسة والمدللة والمشردة ، واجبا يفخر به كل مصرى ، فيقول :

« أعطيت خبزاً للجائع ، وماء للظمآن وثياباً لمن ليس لديه ثياب . واعتنيت بأبى قردان والصقور والقطط والكلاب المقدسة ودفنتها تبعاً لما تقضى به الطقوس الدينية ، فدهنتها بالزيت ولففتها فى أكفان من الكتان المنسوج » .



خ

الخبز : إذا كان الرومان يطلبون دائماً الخبز والسيرك » ، فإن قدماء المصريين قنعوا بطلب « الخبز والبيرة » . وتتضمن الصيغ الجنائزية خبزاً لمتعة الميت ، ومَن حباه الملك بكرمه أعطاه خبزاً يشبعه . وهكذا احتل الخبز مركزاً رئيسياً فى الطعام اليومى لقدماء المصريين . ولإثبات هذه الحقيقة ، لا يلزمنا إلا أن نلقى نظرة على قائمة القرابين ، وعلى قائمة الأطعمة التى يأخذها الموتى معهم لحاجتهم . وتبعاً لما نقش على جدران مصاطبهم (قبورهم) ، تضم تلك القائمة خمسة عشر نوعاً من الخبز . أما فى الدولة الحديثة فلا تضم القائمة أقل من أربعين نوعاً مختلفة من الخبز والكعك . فكيف كان كل نوع من هذا الخبز يختلف عن الأخر؟ لا يمكننا الإجابة على هذا السؤال بالضبط ، إذ لم نعثر حتى الآن على أى كتاب يفسر ذلك ، بين مخطوطات البردى فى مصر القديمة . اختلفت الأشكال ، فكان بعض الأرغفة بيضىّ الشكل وبعضها مستديره ، وبعض آخر مخروطيًا . كما استعملت أنواع مختلفة من الدقيق والمواد الأخرى الداخلة فى صنع الخبز — ومنها الشعير والشوفان والقمح والعسل والزبد واللبن والبيض — وبهذا تختلف شتى أنواع الخبز فى مظهرها وفى طعمها .

أطلق قدماء المصريين على الخبز العادى اسم « تا ta » . أما الجنود فكانوا يأكلون الخبز الأسيوىّ . وفى أيام هيرودوت شاع استعمال نوع من الخبز اسمه « كيلستيس Kyllestis » واسمه بالمصرية (كيرشت Keresht) . ويبدو أن الخبز كان يصنع دائماً فى البيوت ، كما هى العادة السائدة اليوم فى المناطق الريفية . أما فى ضياع النبلاء فكانت هناك مخابز ، وصار الخباز فرداً من الأسرة منذ بداية الدولة الحديثة . وقد استطعنا تتبُّع مراحل تحضير الخبز من النقوش البارزة التى على المصاطب . فأولاً : تسحق الحبوب فى هاون ، ثم يأخذ الطحان الدشيش فيطحنه على حجر كبير ، وينخله . ثم تحمى أطباق من الفخار فى النار ، وتوضع فيها العجينة المصنوعة من الدقيق واللبن والمواد الأخرى . ولما استُعملت الأفران ، منذ بداية الدولة الحديثة ، ساعدت على سرعة هذه العمليات وسهلت صنع الخبز تجاريًا :

« يظل الخباز يخبز باستمرار . وعندما يضع أرغفته على النار ، يُدخل رأسه فى الفرن وعندئذ يجب على ابنه أن يمسكه من قدميه بشدة — إذ لو يفلت من قبضته لسقط فى الفرن مباشرة » .

الختان : يقول هيرودوت إن المصريين أخذوا هذه العادة عن الشعوب السامية . وعلى أية حال ، فوسعنا أن ننسب إليه هذه النظرية التى لا يمكن إثباتها . توجد بالمصاطب صور لعمال عرايا الأجسام تؤيد عادة الختان . وهناك منظران صورت فيهما هذه العملية ، وبعض النصوص النادرة تبين السن التى « يظل العضو التناسلى فيها بقلفته » ، وتدل على أن الختان فُرض على الشبان فى حوالى سن البلوغ . غير أن هذه العادة لم تكن عامة فى العصور المتأخرة . كما فُرض الختان على كل كاهن ليكون طاهراً للقيام بالطقوس الدينية . أما فى الدولة الحديثة فلم يكن ختان الفرعون نفسه إجبارياً ، ولا نعرف السبب الذى من اجله يقوم الجنود المصريون بقطع الأعضاء التناسلية الغير مختنة للقتلى الليبيين واحضارها معهم وتسجيلها . وفى أنهم كانوا يحترمون رجولة الجثث « التى أزيلت قلفتها » .

الخرطوش Cartouche : عرّف قدماء المصريين الكون بأنه « ما تحيط به الشمس » . وتعبر العلامة Ω عن هذه الفكرة ، وهى تمثل أنشوطة حبل بقاعدتها عقدة . ولكى يبين أولئك المصريون ان الدنيا كانت مِلْكاً لفرعون ، كتبوا اسمه داخل هذا الخرطوش الذى يَرسم مستطيل أحياناً ليتسع لاسمه . هذا ، على الأقل هو أنسب تفسير لهذه العادة التى لم يهتم المصريون أنفسهم بتفسيرها .

استعمل الخرطوش لاسمين من أهم الأسماء الملكية الخمسة ، وهما : الاسم قبل الأخير المسبوق بعبارة « ملك مصر العليا والسفلى » ، والاسم الأخير المسبوق بلقب « ابن رع » . وقد سهَّل تمييز الأسماء بهذه الطريقة قراءتها على الفور مهما كانت طويلة ومكتوبة بخط ردىء كما أن معرفتنا لاستعمالات هذا الخرطوش يجعلنا نفهم كيف كان الخرطوش مفتاحاً حل به شامبليون طلاسم اللغة المصرية القديمة

الخروج Exodus : من المحتمل أن يكون بعض الإسرائيليين قد تركوا فلسطين فى عصر الهكسوس ، واستوطنوا حدود الصحراء شرقى الدلتا قرب « بيتوم Pithom » . ولا شك أن فرارهم من « أرض جوشن » قد حدث إبان الأسرة التاسعة عشرة ويتفق وجود النبى موسى عليه السلام مع أحداث هذه الأسرة . كان بعض الأسيويين يعيشون فى بلاط فرعون ويتمتعون بمناصب سامية (مثل بن عازن ، حامل كأس مرنبتاح) . وإذ تربى النبى موسى تربية مصرية ؛ أعدته هذه التربية لدور النبوة الذى قام به فيما بعد ، ولسن القوانين (بيد أن هذا النفوذ الفرعونى على إسرائيل ، لم يكن عظيماً مثل تأثير ملوك تانيس [الأسرة الحادية والعشرين] على مملكة يهوذا) .

لا شك أن اضطهاد اليهود كان جزءاً من حملة الرعامسة ضد الشاسو (البدو) ، عندما حاولوا إخضاع جميع السكان القاطنين بين النقب ومصر ، وتاريخ هذا الخروج موضع نقاش . فتبعاً للتوراة ، كان اليهود يعملون فى مدينة تسمى رمسيس ، وتتحدث لوحة حجرية من عصر مرنبتاح ، ابن رمسيس الثانى ، عن التنكيل بإسرائيل . فاستُنتج من هذا الدليل أن الذى اضطهدهم هو رمسيس الثانى ومرنبتاح ، وأن الخروج حدث فى عصر هذا الأخير فى حوالى سنة ١٢٣٠ ق . م . غير أن « لوحة إسرائيل » تدل على أن اليهود كانوا قد رجعوا إلى فلسطين فى ذلك الوقت . فإذا وضعنا فى اعتبارنا التاريخ الذى تنص عليه التوراة ، ونتائج الحفر عند أريحا ، يبدو من المحتمل أن محنتهم تلك حدثت فى عهد سبق الأول (أبى رمسيس الثانى) ، وأنهم تخلصوا منها فى حوالى سنة ١٢٩٠ ق . م .

هناك روايتان متناقضتان ، منذ العصور القديمة ، عن الطريق الذى سلكه الإسرائيليون ، وكلتاهما مندمجتان فى التوراة . وتقول الرواية الأخيرة ، إن المعتقد أن الإسرائيلين قد خرجوا سيراً على الأقدام عن طريق الحصون المصرية الخطرة ، التى كانت تحدد الطريق من بلوزيوم Pelusium إلى الجيزة . أما « البحر » الذى شطره الله لهم ، فهو فى تلك الحالة ، البحيرات الواقعة شرقى بور سعيد . أما الرواية الأخرى ، وهى بلا شك أكثر صحة ، فتقول إن سيدنا موسى سار خلال الأراضى الجرداء فى البرزخ حتى وصل إلى خليج السويس ، وهو البحر الأحمر الحقيقى .

تتضمن رواية التوراة عن فرار الإسرائيليين من مصر ، التى دونها بعد ذلك بمدة طويلة ، كتبة عبريون ، أحداثاً أشبه بالمعجزات (ويتفق مفسرو جميع الديانات فى هذه النقطة) . أما نحن ، الذين نعرف عظم التراث الدينى الذى كانت رسالة موسى بَدْلته ، فنميل إلى الاعتقاد بأن فرار الإسرائيليين كان ذا أهمية عظمى لمصر . وعندما أخذت بعثة جمعية استكشاف مصر ، فى نهاية القرن الماضى ، تحفر وتنقب فى الجزء الشرقى من الدلتا ، كانت تأمل فى العثور على بقايا للعبريين ، غير أن أملها خاب فى هذه الناحية .

يُلقِى علم الآثار المصرية مزيداً ومزيداً من الضوء على ماضى نكبة الإسرائيليين . بيد أن الأمل ضعيف جداً فى العثور فى مصر على دليل لاستيطانهم . وذات مرة توهم البعض أنهم وجدوا دليلاً فى النصوص الهيروغليفية . بيد أنه ثبت فيما بعد أنه مجرد أوهام خيالية . وهكذا الحال فيما ظنه البعض ذكراً لموسى فى ورقة بردى أنسطاسى الأولى Anastasi . وما « اللوحة الإسرائيلية » إلا اسم مضلل لوثيقة تتألف من ٢٨ سطراً ، منها ٢٥ سطراً تصف انتصار الملك على ليبيا . ولم يأت ذكر فلسطين إلا فى الخاتمة المكونة من ثلاثة سطور ، والتى يظهر فيها اسم اسرائيل الشهير بين عدة أسماء أخرى . وفيما يختص بحكومة الرعامسة ، لم يكن الخروج سوى

هجرة لعمال البدو ، الشاسو ، ضمن آخرين دفعهم إلى التمرد وحرّضهم عليه موظف ثائر . ورغم أن هذه الواقعة محيرة ، فهي قليلة الشأن بالنسبة إلى الأزمات الدولية التي جعلت مثل تلك الهجرة ممكنة ، وهي التمرد العام في فلسطين (سنة ١٢٩٠ ق . م .) ، أو غزو مصر على يد جماعات من الليبيين (سنة ١٢٣٠ ق . م .) .

الخطابات : أخرجت تربة مصر كثيراً من الخطابات ، ومازالت تخفي الكثير .

كانوا يطوون لفافات البردي إلى نصفين ويربطونها بخيط يُثَبَّت بخاتم من الطين ، ويكتب اسم المرسل واسم المرسَل إليه من الخارج . وأحياناً كان العلماء هم أول من فتح تلك الخطابات واكتشفوا الرسالات العاجلة التي أرسلت منذ ثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وتبدأ الخطابات بصيغة رقيقة بطول الرسالة التي في الخطاب أو أطول منها ، مثال ذلك : « يكتب الكاتب « ميه Meh » إلى الكاتب الصغير « ياي Yey » (له) الحياة والرخاء والصحة ! في رعاية آمون ــ رع ، ملك الآلهة . كيف حالك ؟ كيف صحتك ؟ كيف حالك ؟ هل أنت بصحة جيدة ؟ أنا بصحة جيدة . انظر ، هأنذا أقول لأمون ، ولبتاح ، ورع ــ حور آختي ولجميع الآلهة الموجودة في مسكن تحوت : عسى أن تكون في صحة جيدة ! عسى أن تزدهر ! عسى أن تكون موضع رعاية بتاح ، سيدك الطيب ! عسى أن تكون نشيطاً ، عسى أن تستطيع إحراز نتائج ، وعسى أن تكافأ على كل ما فعلته !

وزيادة على ذلك ، راقب الضابط ميريمس Merimes ؛ فقد أرسلتُه إلى المحافظ وفضلاً عن هذا ، طلب مني إسي ــ نفر Isinofre ، مغني آمون ، أن أسألك : « كيف صحتك ؟ كم أشتاق إلى رؤيتك . عيناي كبيرتان مثل منف ، ورغبتي في رؤيتك عظيمة » .

تختلف صيغ الرسائل الإخوانية بحسب العصر ، وتبعاً لما إذا كان المرسل إليه أعلى من كاتب الخطاب أو أدنى منه ، أو مساوياً له . ولم يكن من السهل كتابة الخطاب كتابة صحيحة . إذ يبدأ الكتبة يتعلمون فن الكتابة في المدرسة بدراسة النماذج ، التي وصلنا عدة أمثلة منها . وضَمَّن المدرسون خطاباتهم النموذجية ، عدة عبارات أخلاقية ، كما حرصوا على كتابة النصائح في خطاباتهم لتلاميذهم الأشقياء .

هكذا صار الخطاب قطعة إنشاء أدبية ـ وهناك موضوع إنشائي تهكمي تهذيبي من ثماني وعشرين صفحة مكتوب في صورة خطاب ، يصف في أسلوب بسيط ، الرحلات إلى الأماكن النائية ، وأشياء أخرى .

خطابات إلى الموتى : تبعاً للمعتقدات الجنائزية المصرية ، لم يكن هناك حدٌّ فاصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى . وزيادة على هذا ، يحتفظ الشخص بعد موته بشخصيته التي كانت له على الأرض ، وبمشاعره السابقة ، ومصالحه ، ولا يختلف في شيء قط عن أولئك الذين خلفهم وراءه . وتحت إمرة الميت قُوَى خارقة للطبيعة ، تساعده في

معونة أقاربه الذين يحبهم وتسوية المنازعات القديمة .

قد يشكو الابن إلى والده الميت ، من مشكلة ما ، ويطلب منه مساعدته فيها ، أو إذ اشتبه أهل المتوفى في أنه يؤذيهم عاتبوه وطلبوا منه ألا يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى .

كيف يتصل الإنسان بالموتى ؟ يتصل بهم بنفس الطريقة التي يتصل بها بشخص غائب بخطاب ، مُعَنْوَنٍ إلى محل إقامتهم ، أي إلى قبورهم . ولكي يشجع المرءُ الميتَ على قراءة رسالته ، كانت تكتب على آنية تحتوي على طعامه . وبفضل هذا الافتراض ، الذي لا شك في منطقيته ، حصلنا على حوالي عشر خطابات ، مرسلة إلى الموتى ، معظمها مكتوب على صحاف من الفخار . سادت هذه العادة ، بنوع خاص ، في القرون الأخيرة من الألف سنة الثالثة ق.م. بيد أن أغرب مثال ، يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ق.م. ، وهو مكتوب على ورق بردي . إنه خطاب من ضابط محترف إلى زوجته ، يقول فيه :

« إلى الروح الباهرة عنخيري Ankhiry ، أي ضرر فعلته بكِ حتى توقعيني في مثل هذه الحال المحزنة ؟ ماذا فعلتُ بكِ ؟ هذا هو ما فعلته ، رفعتِ يدكِ ضدي رغم أن يدي لم تمتد إليكِ بأي أذى . ماذا فعلتُ منذ اليوم الذي صرتُ فيه زوجكِ إلى هذا اليوم ، وهل اقترفت في حقك شيئاً أخفيه ؟ أما أنتِ ، فقد فعلتِ ما يجعلني أُوجِّه هذا الاتهام ضدكِ . ماذا فعلتُ لك ؟ سأتقدم ضدكِ بشكوى ، بألفاظ فمي ، أمام التاسوع في العالم الآخر ، وسيصدر حكم بينكِ وبين هذا الخطاب ..... تزوجتكِ عندما كنتُ شاباً ، وعشتُ معكِ ، ولم أتركْكِ ، وتحاشيتُ أن أفعل أي شيء يحزن قلبكِ .

هكذا عاملتكِ .... فجوزيتُ بكل نوع من أنواع الوظائف المملة لفرعون .... ثم إذا بكِ تمنعين قلبي من أن يكون سعيداً » .

خفرع Chephren : رابع ملوك الأسرة الرابعة (سنة ٢٦٢٠ ق . م .) وهو ابن خوفو أو شقيقه ، وباني هرم الجيزة الثاني البالغ ارتفاعه ١٤٣ متراً وطول ضلع قاعدته ٢١٥ متراً ، واشتهر من أجل تمثاليه الرائعين المصنوعين من الحجر الأسود (واللذين وجدهما ماريت في معبد هرمه (موجودان بمتحف القاهرة) . ولا شك في أن أبا الهول العظيم من عمل نحاتيه . وتصف الرواية التي سجلها هيرودوت هذا الملك بالطغيان والغطرسة مثل سلفه خوفو .

الخنزير : انحدرت الخنازير التي رُبِّيت في مصر ، من الخنزير البري . وتبعاً لما يقوله علماء التاريخ الطبيعي ، يستطيع هذا الخنزير أن يجد قوته بنفسه في سهولة كما يفعل الخنزير الأليف ، الذي إذا نال حريته عاد إلى عادات ومنظر أسلافه . وُجد الخنزير البري والخنزير المستأنس ، كلاهما ، في مصر . وقد عثر على عظامهما في بقايا مطبخ مستوطنات العصر الحجري

الحديث . والنقش الهيروغليفى [hieroglyph] واضح لصورة الخنزير منذ عصر الأهرامات فما بعده . و لهذا الحيوان خطم طويل وظهر كثير العظام به شعر كثيف كالشوك وأرجل طويلة . ولا يشترك الخنزير المصور فى مناظر المزارع بمقابر قدماء المصريين ، فى شىء مع الخنزير الكثير اللحم ذى الأفخاذ السمينة الذى نراه فى حوانيت القصابين سوى ذنبه المقوس . والخنزير الذى صحب القديس أنطون ، الناسك المصرى ، من النوع نصف المتوحش . والحقيقة أنه كان يشبه الخنزير السريع الخفيف الحركات الذى يمر بين عجلات السيارات الحاملة للسياح الزائرين للقرى القبطية ، وقد أطلق عليه الأقدمون الاسم الدال على صوت مسماه (ررى) .

اعتبر قدماء المصريين الخنزير حيواناً نجساً رغم استعمال لحمه كغذاء واستعمالهم

قطعانه فى مواراة البذور فى الأرض الرطبة بعد بذرها خشية أن تأكلها الطيور . فيقول هيرودوت « إذا لمس أحدهم وهو سائر خنزيراً ، وجب عليه أن يغطس فى النهر هو وثيابه . أما رعاة الخنازير ، فرغم كونهم مصريين ، فهم الفئة الوحيدة غير المسموح لها بدخول المعابد ، ويزوجون بناتهم لرعاة خنازير مثلهم ولا يتزوجون إلا من عائلات رعاة الخنازير . ولا يقدم المصريون الخنزير ذبيحة لأى إله غير القمر وديونيسيوس . فيذبحون الخنازير لهذين الإلهين فى وقت واحد ، ثم يأكلون لحمها » .

لا شك فى أن سوء طباع الخنازير الوحشية ، ومنهم الخنازير الأليفة المعفوت ، هما أصل كثير من الأساطير الخاصة بهذا الحيوان . وكل أسطورة يبدو فيها الخنزير تصوره بصورة النهم الذى يلتهم كل شىء ولم يقدم الخنزير ذبيحة إلا للقمر بسبب تحريم دينى ينبذ هذا الحيوان . فالقمر ، الذى هو احدى عينى حورس ، كان يبتلعه فى فترات منتظمة ، منذ بدء الزمن ، خنزير أسود ضخم . لم يكن ذلك الخنزير سوى ست ، عم حورس وعدوه ، وقاتل « ديونيسيوس » ، أى أوزيريس . والحماية ست بالتعاويذ ، ذلك الإله الذى تشير إليه النصوص المقدسة للحقبة الأخيرة « كخنزير » كانوا يصنعون تعويذة على كعكة فى هيئة خنزير صغير ، ثم يقطعون تلك الكعكة . وكان من المحرم فى المعابد كل التحريم أن « يحدث أى فرد صوتاً يشبه صوت الخنزير » .

ذكر أحد علماء التاريخ الطبيعى الإغريق ، أن الخنزير بالغ الشراهة لدرجة أنه يلتهم صغاره ؛ و « هذا هو السبب فى كون المصريين يعتبرونه حيواناً ممقوتاً » . والأسطورة الوحيدة التى فى صالح الخنزير مأخوذة عن مثل هذه الميول . فالنجوم خنازير صغيرة تختفى فى الصباح بين فكى الخنزيرة السماوية التى تعيد ولادتها عند الشفق . وقد صنع قدماء المصريين تمائم جميلة تبين خنزيرة ترضع صغارها ؛ إنها تمثل نوت ربة السماء والأم الخالدة للنجوم .

خنوم Khnum : صُور خنوم على هيئة رجل ذى رأس كبش وقرون مزدوجة . إنه الإله خالق الحياة والكائنات الحية ، ولما انتشرت عبادته ، اتخذ لنفسه وظائف ثانوية

كحارس لمنابع النيل (عند فيلة ، حيث كان يحكم بالاشتراك مع الربتين ساتيس Satis وعنقت Anukis) ، أو كالخزاف الذى شكَّلَ فوق دولابه ، تلك البيضة التى تخرج منها الحياة كلها .

كان إلهاً موغلاً فى القِدم ، وذاع صيته ، بنوع خاص ، فى النصوص التى بمعبد إسنا ، والتى يرجع تاريخها منذ القرن الأول للعصر المسيحى . وانتشرت عبادته انتشاراً واسعاً ، وتواجد بمصر فى عدة مدن بعدة صُوَر وصفات

خوفو Cheops أو سوفيس Suphis : ثانى ملوك الأسرة الرابعة (سنة ٢٦٥٠ ق . م .) ، الذى طار صيته فى العالم كله من أجل هرمه الأكبر البالغ ارتفاعه ١٤٦,٦ من الأمتار وطول ضلع قاعدته ٢٣٠,٩ من الأمتار . وفى سنة ١٩٥٤ اكتُشف مركبان من مراكب الشمس عند قاعدة هرمه ، فعاد اسمه للظهور من جديد فى عناوين الصحف

والحقيقة أننا لا نعرف عن أعمال هذا الملك سوى القليل ، كما هى الحال فى كل ملك من ملوك الدولة القديمة . بيد أن الأساطير تروى الكثير عنه . فيقول هيرودوت ، إنه أغلق المعابد ، واستعبد رعيته لكى يبنى قبره الضخم ، وأجبر ابنته على مزاولة البغاء لسد النفقات . ليست هذه الرواية وليدة الحقد الإغريقى ، فحسب . بل إن هناك قصة قديمة تصف خوفو بالغطرسة وإهدار الكرامة البشرية . ورغم ذلك ، فقد حظى هذا الملك بشهرة علمية .

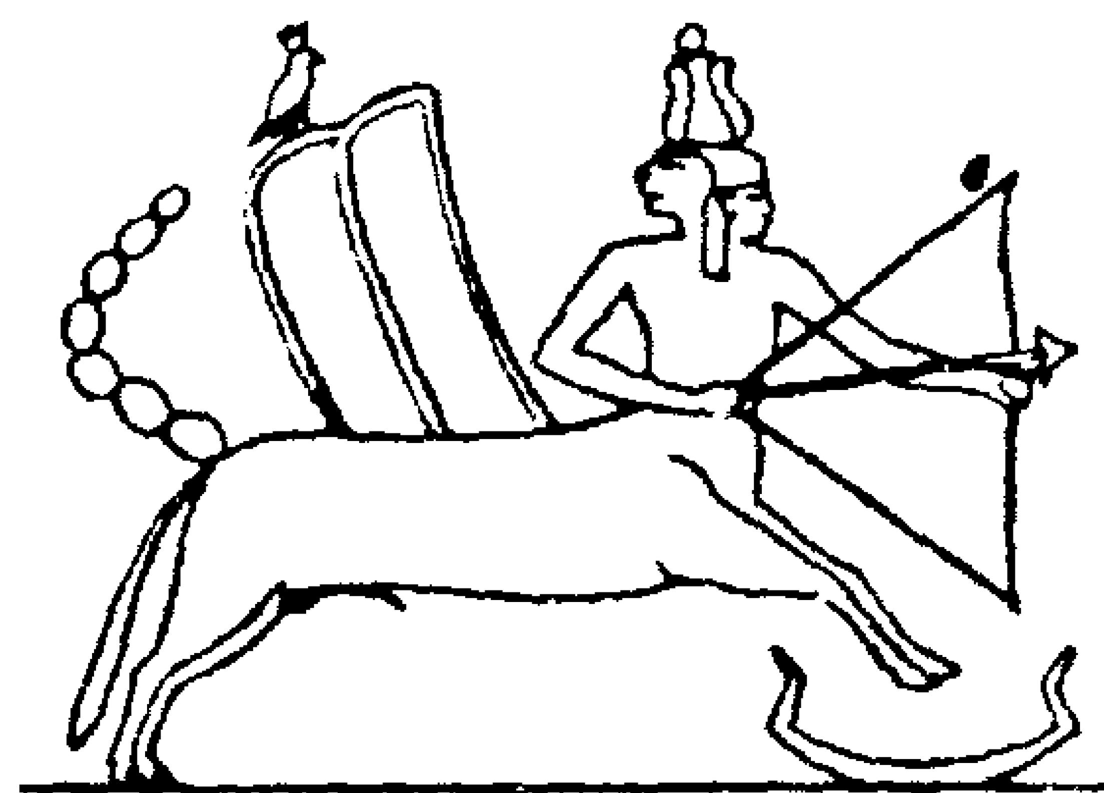
وتقول بعض الروايات الموروثة ، إن بعض النقوش القديمة وخريطة دندرة المقدسة ، ودائرة معارف تانيس الكهنوتية ، من أعمال عصره . ويفخر هو نفسه بمعرفته عدد كهوف تحوت . ونَسَبَ إلهُ الحكمة ، والكيميائيون الهيلينيستيون تأليف كتاب معتقدات هرميس إلى « سوفيس » المصرى .

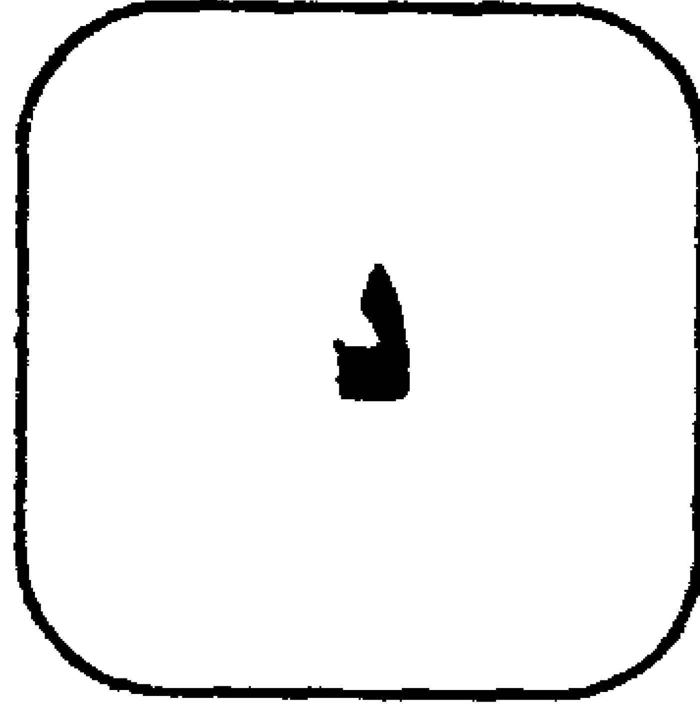
خونسو Khons : أحد آلهة القمر ، دخل منذ القدم فى أساطير طيبة على أنه ابن أمون ومُوت Mut . ومعبده فى الكرنك محفوظ حفظاً مدهشاً ويقع خلف صرح يورجيتيس . وصُوِّرَ عادة كرجل ذى رأس صقر ، يعلوه قرص قمرىّ ، كما ظهر أيضاً فى صورة مومياء ، أو كطفل . وله ألقاب

(*) يرى دكتور عبد المنعم ابو بكر ان مركب خوفو مركب جنائزية وليست لها صلة بالشمس ويعتقد أنها ربما استخدمت لنقل جثة الملك خوفو من قصره على الضفة الشرقية للنيل إلى قرب هرمه على الضفة الغربية للنيل ثم وضعت بعد ذلك فى حضرتها وغطيت بأحجارها أما الرأى السائد وهو ان الاله رع يستخدمها فى رحلتى النهار والليل فيصعب قبوله لعدة اسباب أهمها إن الحفر التى وجدت حول الهرم سواء فى الجهة الشرقية أو الجنوبية هى حفر مختلفة فى الحجم مما يدل أنها تختلف فى الغرض كما ان مراكب الشمس كما صورتها النقوش المصرية لها رموز خاصه لم نجدها على المراكب المكتشفه

(المراجع)

كثيرة ، مثل : خونسو السامى العقل ، ولقبه الطيبى « صاحب السمو » ، وبديله الشائع « خونسو المدبّر فى طيبة » ، « الإله الذى يطرد الأرواح الشريرة » ، وقد عُرفت هذه الألقاب من قصة أميرة باختان Bakhtan (نفرو-رع Neferu - Ré) .





دائرة المعارف Encyclopedia : وضع قدامى العلماء قوائم طويلة بكثير من الكلمات مع شرح لها من أستاذ ، نستطيع بواسطتها أن ندرك منها بصفة إجمالية ، مستوى المعارف التي كانت سائدة وقتذاك . ويتضح الغرض من تكديس جميع المعارف البشرية في مؤلف واحد من عنوان ذلك المؤلف الشهير « قائمة الأسماء Onomasticon » ، ويشمل : « بداية التعليم لتنقية العقل ، ولتعليم الجهلاء كل شيء موجود ، وما أوجده بتاح ، وما كتبه تحوت ، والسماء وشئونها ، والأرض وما فيها ، وما تخرجه الجبال ، وما يرويه الفيضان ، وكل شيء ينيره رع ، وكل ما ينمو على ظهر الأرض ؛ إنه مؤلف أمينيموبي Amenemope ، الكاتب المقدس ، في (بيت الحياة) » .

ذكر ذلك المؤلف العناصر الموجودة في السماء وفي الأرض وفي المياه ، والطبقات الاجتماعية الموجودة في الدولة ، والدول الأجنبية ، ومدن مصر ، وشتى أنواع المباني والأراضي والطعام والشراب . إنه « مختارات للكاتب » كاملة ، تتضمن مجموعة تحليلية للمعلومات التي سبقت مؤلَّف إفرايم تشيمبرس Ephraim Chaimbers بثلاثة آلاف سنة .

الدبلوماسية : كان المصري البدائي يسير إلى القتال واضعاً ريشة في شعره ومتدثراً بجلد ثعلب حول حقويه . وهناك نقش هيروغليفي قديم يبين سفيراً يمسك في يده ريشة وجلد ثعلب . ولا شك في أن هذا أقدم تصوير لرجل دبلوماسي . أما « التراجمة » الذين كانوا يجوبون الأرض سعياً وراء السلع الأجنبية إبان الدولة القديمة فقد فضلوا أن يساوموا على أن يقاتلوا . وفي عهد سنوسرت الأول ثقَّف سنوهي الشهير الأردنيين كي يكسب تعضيدهم لمصر . صوَّرت المستندات القديمة أن العمل الدبلوماسي كان يتم بطرق شتى إذ اعتبر المصريُّ البدويَّ رجلا متوحشاً : « لا يهتم بأن يعلن عن اليوم الذي سيشن فيه الحرب » . ورُوعيت طرق المخاطبة الدبلوماسية ، مثل : « يرسل إيوى بن رع تحياته إلى ابن ملك النوبة » . وعندما تأزمت الأمور للملك المكسوس أمام ملك طيبة ، يرى لزاماً عليه أن يتحالف من فوره مع ملك النوبة . ولكنه رغم هذا ،

يرفض أن يخاطبه باللقب الملكى : « ماذا ! اعتليت العرش دون أن تخبرنى ؟ وبعد أن يُذكِّره هكذا بالرسميات ، ينتقل إلى دور العمل ، فيقول : « سنُقَسِّم مدن مصر فيما بيننا ، وسترضى دولتانا عن ذلك تمام الرضى » .

يبدو أن المصريين حاربوا كثيراً فى آسيا ، فى عهد الدولة الحديثة . ومع ذلك ، فقد مارسوا نشاطا سياسيا ولكن اهتمامهم كان أشد بالتجارة . وإبان قرون الحضارة الشرقية هذه ، وصلت مصر ودول آسيا ــ الميتانيون والبابليون والحيثيون والأشوريون ــ إلى درجة عظيمة من اتقان فنون المعاملات الدبلوماسية بما تنطوى عليه من التملق والتهديد والمناورات للحصول على قدر من الهيبة أو هبات من الذهب مما كانت مصر تدعم به جيرانها ، وإرسال « السفراء » باستمرار من الملك إلى البلاد الأجنبية » ، لدى البلاطات الكبرى والصغرى . وكان هناك تدخل مستمر من جانب هذه الدول فى شئون المقاطعات الفينيقية والفلسطينية والسورية . عضَّد فرعون ، كأى ملك آخر ، أتباعه من المطالبين بالعروش ، وأقصى عنه ، عند الضرورة ، أتباعه الذين خامره أى شك فى ولائهم واحتفظ بأولادهم فى بلاطه . هكذا روعيت الدبلوماسية فى الأمور التافهة والبروتوكولات الدقيقة منذ ألفى سنة قبل العصر المسيحى .

جرت العادة أن تكتب الرسائل بين الحكومات باللغة الآكادية بالخط المسمارى فى ألواح العمارنة وألواح أوجارت Ugarit بفينيقية وبوغازكوى Boghazkoy عاصمة الحيثيين بآسيا الصغرى . وقد اختلف أسلوب كتابة الرسائل وما تتضمنه من تحيات تبعاً لمكانة الكاتب الذى كان يخاطب الفرعون بـ « شقيقه » (ملوك الحيثيين أو الميتانيين أو البابليين) أو « خادمه » (ولاته وانباعه) . واعتبر عدم إرسال الهدايا عند اعتلاء العرش ، أو التقصير فى السؤال عن أخبار الملك ، من الأعمال العدائية . كانت المساومات السياسية والتجارية والميراثية ، تتبع كل منها الأخرى ، وكانت بالغة الدقة وفى حين أن الفرعون كان يتقبل فى حريمه بعض أميرات من الميتانيين أو البابليين أو الحيثيين ــ رد باحتقار على ملك بابل الذى أراد مصاهرته بقوله : « لم تُعطَ ابنة ملك مصر قط لأى فرد » .

فى تلك الأثناء ، كانت الملكات يتراسلن فيما بينهن للمحافظة على الصداقة بين أزواجهن . وتبدى المعاهدات مراعاة دقيقة لتفاصيل القانون الدولى ، الذى كان من صنع بلاد النهرين (العراق) واعتمدته مصر وسائر دول الشرق . وفى المعاهدة بين رمسيس الثانى وخاتوسيليس Hattusilis ملك الحيثيين (حوالى سنة ١٢٨٠ ق . م .) ، بعد أن تذاكرا بالارتباطات السابقة بين البلدين الموقع عليها بإمضائهما العظيمين ، وقَّعا على معاهدة « سلم وإخاء » دائمة ، وعقدا تحالفاً مبنياً على أساس التعاون المتبادل ، أهم مظاهره عدم الاعتداء والعمل بشروط المعاهدتين السابقتين والتحالف الدفاعى ضد كل اعتداء خارجى وضد كل انقلاب داخل

والاتفاق على شروط نفى غير المرغوب فيهم — ويتضمن الاتفاق شرطاً فحواه العفو تلقائياً عن كل من يطلب اللجوء إلى الطرف الآخر ويتم رده إلى بلاده . صيغت هذه المعاهدة كلها فى فقرات واضحة محددة ، وكُفلت ضماناتها باستدعاء آلهتها لتشهد عليها ، وبإنزال اللعنة على من يخرق هذه المعاهدة .

الدفن : (انظر العادات الجنائزية) .

دندرة : يقع الجانب الأثرى لهذه المدينة فى عزلة لطيفة قرب الصحراء على بُعد ٦٠ كم تقريباً شمال الأقصر ، على الضفة اليسرى للنيل ، قبالة مدينة قنا . وهى مثل إدفو وإسنا وكثير من المدن الأخرى المعروفة بآثارها ، مدينة بالغة القدم ، وكانت عاصمة الاقليم السادس فى مصر العليا ، وقد كرست لعبادة الربة حتحور . وتقول أسطورة متأخرة ، إن رسم المعبد أوحت به مستندات بالغة القدم ، يرجع تاريخها إلى عصر خوفو وبيبى الأول ، وحتى إلى أزمنة أتباع حورس البعيدة . وهناك جبانة قديمة قريبة من سور المعبد تؤيد قِدَم المدينة وطقوس عبادتها .

بدأ العمل فى معبد دندرة فى عهد أواخر البطالمة ، وانتهى فى العهد الرومانى . وكُرِّس لعبادة ربة السماء حتحور ، التى هى سيدة السعادة . وتذكرنا الأربعة والعشرون عموداً المقامة فى البهو المسقوف العظيم ، والمنحوتة لتمثل « المصلصلة » ، برموز تلك الربة ، وتقوم مقام هدية موسيقية لها . ومن غرائب هذا المعبد اثنتان وثلاثون حجرة ضيقة يصعب الوصول إليها ، مبنية فى داخل الحوائط نفسها وتُعرف باسم الغرف السرية Crypts وتوجد مثل هذه الحجرات فى المعابد الأخرى ، بيد أن حجرات دندرة هى وحدها المزخرفة . وقد رتبت فى ثلاثة مستويات ، أدناها معرضة لنشع المياه . ويصل المرء إلى الحجرات الوسطى بواسطة أبواب مسحورة فى منتصف المسافة إلى حوائط الحجرات الموصلة إليها . ماذا كانت فائدة هذه الحجرات السفلية ؟ لسنا متأكدين تماماً من الإجابة على هذا السؤال . ربما كانت مخازن لأثمن أدوات الطقوس الدينية والترتيل والنواويس الممثلة على حوائطها . ومع ذلك ، فلم تكن الروح الإلهية ، التى تتقمص هذه التماثيل الأرضية المخبأة فى سُمك الحوائط ، تخاف الأخطار الخارجية . لذلك ، قد تبرهن علة نصوص على أن هذه الحجرات التى حلَّت فى المعابد المركبة للعصر المتأخر محل المقاصير المقامة تحت الأرض التى كانت تجاور بعض المبانى الدينية فى العصور المبكرة أو مقابر الموتى من الآلهة ، أو الأماكن التى يهجع فيها الإله فى انتظار بعثه كانت تستقبل فى الظلام بعض القوى التى قد تساعده فى يوم ما على أن يولد من جديد .

هناك محراب مكشوف فوق السطح حيث كانوا يقيمون احتفال « الاتحاد بقرص الشمس » فى عيد رأس السنة . وقد بُنيت الحجرات السفلى التى تتم فيها استعدادات

الحفل لإعادة مولد أوزيريس ، رب الخضرة ، فى شهر كيهك . وكان بأحد هذه المحاريب التى فوق السطح خريطة للسماء والنجوم وأبراجها . ولا يوجد الآن من هذه الخريطة سوى نسخة «مصبوبة» ، إذ نقلت الخريطة الأصلية إلى متحف اللوفر .

الدولة الحديثة New Kingdom :
الدولة الحديثة أو الإمبراطورية الطيبية الثانية (لأن طيبة كانت مركزها الدينى) ، هى ثالث حقبة لعظمة مصر ، وتتجلى مظاهرها فى المعابد والمقابر والأعمال الفنية ومخطوطات البردى والأوستراكا . كانت هذه الدولة إمبراطورية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة : كانت قوة سامية التنظيم ، لها مستعمرات (مثل بلاد النوبة) ومحميات (مثل آسيا) . وكان للأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق.م.) إبان حكم الملوك المدعوين باسمى تحوتمس وأمنحوتب السيادة فى المجال الدولى بواسطة الحروب وبواسطة الدبلوماسية ، وانغمست فى الترف ، وبلغت أوج عظمتها فى مجد باهر يتلخص فى الأسماء الشهيرة : أتون والعمارنة وأخناتون .

حافظت الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق.م.) ، فى عصر سيتى الأول ورمسيس الثانى ، وكلاهما من عظماء الملوك المولعين بالعمارة ومن المحاربين الصناديد ، على تماسك الإمبراطورية رغم كل شىء . بقى الكيان السياسى لهذه الإمبراطورية دون أن يطرأ عليه أى تغيير إبان هذه الدولة ، وكان عرضة للنفوذ العالمى الذى تتجلى روحه فى السفسطة المتهورة وعمق التقوى الشخصية . كانت بيروقراطيةً تسيد فيها الكتبة على العمال المهنيين والفلاحين البسطاء الذين غلب عليهم التواضع والطاعة ، بينما يرشد الكتبة إلهٌ ، هو الملك .

غير أن قوى جديدة ظهرت فى الميدان : فقد طَرَدَ أحس المكسوس وأرجعهم إلى آسيا ، واستولى على شمال النوبة . وإذ رأى تحوتمس الأول ذلك ، أسرع بغزو البلاد الواقعة بين الشلال الرابع ونهر الفرات . ولكى تحافظ مصر ، بعد ذلك ، على هذه الروح ، كونت جيشاً نظامياً . كان الملك المصرى يستمد قوته من إلهه ، ويحافَظ على قوة الإله بالقرابين . وحَّدَ مؤسسو الدولة الحديثة مصر ، وكانوا جميعاً من أبناء طيبة ، ثم هزموا العالم بواسطة أمون ، حامى الماشية والمناجم . ومن ثَم عاشت بيروقراطية منافسة فى العاصمة الظافرة حيث «بيت أمون» أو معبده . وتمرد أخناتون ، عبثاً ، ضد هذه القوة النامية . غير أن الجيش ، فى النهاية ، ثبَّتَ كهنة أمون . كان بوسع رجل مثل رمسيس الثانى أن يجعل تحت إمرته «الكاهن الأول لأمون» ، ويدير شئون الجيش أيضاً . ومع ذلك ، فقد جعلت الغزوات والتمردات ، تلك الإمبراطورية المحتضرة موضع سخرية . تعاقبت فى الأسرة العشرين (١٢٠٠ — ١١٠٠ ق.م.) سلالة من ملوك باسم رمسيس ، وحدثت أزمات حكومية وأخلاقية طويلة انتهت بالهجوم على المومياوات الملكية . وبقى أمون غنياً ، بيد أن أسعار الحبوب والنحاس ارتفعت .

وزحفت الجيوش الليبية . على مصر ثم ماتت الملكية بصورتها الكلاسيكية يوم أن صار أحدُ القواد « الكاهن الأول لآمون » . بدأ بهذا الاتحاد بين الجيش و « ملك الآلهة » ، الذى كان كُلُّ القوة بسبب ثروته ووحيه ، عصر الملوك الكهنة .

الدولة القديمة Old Kingdom : أو « العصر المنفى » ، استمرت من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة ، أى من حوالى سنة ٢٧٨٠ — ٢٢٨٠ ق.م. وفى عصر الملك زوسر ووزيره إمحوتب ، حل الحجر محل الآجر ، كمادة بناء استعملت فى مقابر النبلاء . وقد نُحتت على جدران المصاطب نقوش ونحت بارز (النصوص الجنائزية ، وتواريخ حياة الموتى ، وصور من الحياة اليومية) كما نُقشت أيضاً على جدران المعابد الجنائزية . صارت السجلات المكتوبة كثيرة العدد ، بعد أن كانت نادرة فى العصر الثينى . ومن الممكن أن ندرس التنظيم الاجتماعى كى نفهم المعتقدات ونقدر البراعة الفنية لشعب عصر الأهرام . منذ ذلك العصر ، دُفن الملوك فى أهرامات — ضخمة فى بداية الأسرة الرابعة (أهرامات سنفرو وخوفو وخفرع) ، ثم متواضعة الحجم منذ عصر منكاورع وعصر أبناء رع فى الأسرة الخامسة « ساحو — رع » و « نى — وسر — رع » وأوناس وغيرهم) ، وبعد ذلك فى عصر ببى الأول وببى الثانى فى الأسرة السادسة (انظر الأهرام) .

كانت الدولة القديمة أكمل زهرة فى الحضارة الفرعونية . ولا يهم كثيراً ألا نعرف سوى القليل عن حقائقها التاريخية التى أمدتنا بها الأساطير . وقد اختفت كتابات ذلك العصر (إلا بعض مذكرات إدارية) ، غير أن الكتاب من أبناء الأجيال اللاحقة نسخوا « الحِكَم » والتذكرات الطيبة لذلك العصر ، أو عدَّلوا فيها . وتاريخ تلك الحقبة مبسوط أمامنا كى نرى فى مقابر الجيزة وسقارة غير البعيدتين عن مدينتيها الرئيسيتين منف وهليوبوليس :

الجلال والنظام والهدوء والجمال وأهراماً كلاسيكية : وعلى رأس كل ذلك ملك منفرد بالحكم ، بينما يُظهر عناية رجل بأسرته ، كان فى الوقت ذاته القوة المحركة للدولة ، وللدنيا كلها ، بحق ، بسبب طبيعته المقدسة . وقد أحاط نفسه ، فى حياته ، وفى آخرته ، ببلاط من الأقارب وموظفى الدولة ، اختارهم بنفسه . ويبدو أن المقارنة بين كثافة الآثار فى منطقة منف وفخامتها ، وضآلة المقابر فى الأقاليم ، لتدل على فرساى Versailles ماجدة تشمخ على مدن ريفية من الأكواخ الطينية المتواضعة . كان هذا هو الأمر الواقع : انتصرت الإدارة المركزية البيروقراطية ، وكوفىء خيرة الفنانين مكافأة تتفق وما قاموا به من أعمال جليلة ، ومنح كهنة المقابر ربع الأراضى ، وصار جميع كتبة الدرجة الثانية والفلاحين المتنفعين بالحصانة الملكية ، تابعين لعظماء أشراف منف . وشُغل الفلاح الصغير بعمله فى المستنقعات والحقول . ولئن وجد عبء « الأهرام » ثقيلاً ، لكنه كان يدرك أن حياته لن تستمر بغير الساحر الملكىّ . وبقى جميع النشاط فى الدولة ، الذى أوجدته تربة مصر الخصبة وطبيعة البلاد ، معزولاً . لم يكن قدماء المصريين قوماً

استعماريين : خرجت حملات ملكية « لمعاقبة البرابرة » والعودة بكنوز الصحراء ، بيد أن المملكة قنعت بعدم اتساع رقعتها كما لو كانت قانعة بتقدمها .

فى نهاية الدولة القديمة ، أعلنت الاقاليم استقلالها ، وطمع الخادم فى أن يصير سيداً عظيماً ، و « عمّت البلاد كلها ثورة » .

الدولة الوسطى Middle Kingdom : أطلق مصطلح « الدولة الوسطى » على الحقبة التى تشمل الأسرات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة ، التى حكمت مصر ، بأكملها ، أو جزءًا منها ، من حوالى سنة ٢١٣٠ ق.م. إلى حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م. والحقيقة أن عصر الفترة الأولى انتهت ، فبدأت الدولة الوسطى بمنتوحوتب Mentuhotep الأول ، أحد

ملوك الأسرة الحادية عشرة عندما وحّد المملكة فى حوالى سنة ٢٠٥٠ ق.م. فاستيقظت مصر بعد زمن طويل من القلاقل والحروب الأهلية ، فتأهبت لإعادة النظام . اضطلعت الأسرة الثانية عشرة التى خلفت الأسرة الحادية عشرة فى سنة ١٩٩١ ق.م. بهذا العمل الذى رُسمت خطته منذ

مدة طويلة ، ووصلت بالمملكة إلى ذروة قوتها ورخائها بمساعدة حاميها أمون ، الذى كان إلهاً غامضاً ورفعته هذه الأسرة إلى مرتبة الآلهة العظام . غادر الملكان

أمنمحات وخليفته سنوسرت ، طيبة وأقاما فى اللشت Lisht ، بين منف والفيوم ، إذ كانت مركزاً أنسب لحكم المملكة كلها .

أخضع هذان الملكان بلاد النوبة السفلى وضمّاها إلى مصر ، ونظّما استغلال مناجم سيناء . ودخلت فلسطين وسوريا فى نطاق نفوذهما . وحصّنا مشارف المملكة من الجنوب وعند برزخ السويس بتحصينات قوية (انظر الحصون) . أما فى داخل البلاد ، فوطد ملوك الأسرة الثانية عشرة أنفسهم وعملوا على استتباب هيبة الملكية وسلطة الحكومة . وأعادوا تنظيم الإدارة ، فروجعت سجلات الأراضى وقاموا بأعمال عظيمة فى الفيوم فزرعت المنطقة كلها . وفى سنة ١٧٧٨ ق.م. انتهى حكم الأسرة الثانية عشرة فجأة ، إبان حكم آخر ملكاتها ، فانحدرت مصر إلى عصر من أظلم العصور فى تاريخها (عصر الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة) . فأخذ الملوك يتنازعون العرش أو يتولى أحدهم الحكم فى نفس الوقت الذى يحكم فيه غيره ، وحكم بعضهم لمدد قصيرة جداً ، وقد عجز المؤرخون حتى الآن عن معرفة حقيقة الواقع فى تلك الفترة . فسهّلت حالة الضعف والانقسام السائدة فى البلاد ، على الأجانب أن يثبتوا أقدامهم فى مصر ، ووقعت مصر تحت سيادة الهكسوس .

الحقيقة أن الدولة الوسطى هى عصر حكم الأسرة الثانية عشرة . ورغم ندرة آثارها ، فمن المستطاع تكوين فكرة عن نقائها البسيط من المقصورة البيضاء لسنوسرت الأول ، التى رُممت فى الكرنك .

ونعرف أيضاً أن اللابرنت الذى بناه أمنمحات الثالث بالفيوم ، فى العصور القديمة الكلاسيكية . نال إعجاباً يزيد على

الإعجاب بالأهرام فى الجيزة . فقد بلغ الفن ، فى هذا العصر ، مستوى فائقاً من الكمال ، إذ أن تماثيله الملكية ، مثلاً ، ذات قوة وحيوية منقطعتى النظير . كما كانت حليه أدق وأجمل من كنوز توت عنخ أمون الشهيرة . كذلك ارتقى الأدب فى ذلك العصر ، فمن روائعه قصة سنوهى . أما عن اللغة ، فقد بقيت اللغة المصرية الوسطى هى النموذج الكلاسيكى للكتبة حتى العصور الرومانية ورغم اعتقادنا بأن عصرى خوفو ورمسيس هما العصران اللذان بلغت فيهما مصر أوج عظمتها ومجدها ، فإن المصريين أنفسهم يعتقدون أن القرنين اللذين حكم فيهما أمنمحات وسنوسرت هما العصور الكلاسيكية فى تاريخهم .

الدير البحرى : على الضفة اليسرى للنيل تجاه الكرنك ، تجد سلسلة التلال الليبية مدرجاً واسعاً يبين موضع الجبانة الطبيعية . فى ذلك المكان يوجد الدير البحرى .

والأثر الذى اشتهر به هذا المكان هو المعبد الجنائزى لحتشبسوت ملكة الأسرة الثامنة عشرة . وهذا المعبد أكثر المبانى التصاقاً ببيئته الطبيعية ، إذ نُحت جزء منه فى الجبل . ووضع تصميمه المهندس سنموت حظى هذه الملكة . هناك أحدور صاعد يتوسط شرفات المعبد المتدرجة ، فى مواجهة الصخر ، والمزينة بنقوش بارزة ملونة ، تشمل مناظر مولد حتشبسوت المقدس ، والحملة البحرية إلى بلاد پونت .

وتؤدى الشرفة العليا إلى المعبد الرئيسى وإلى عدة مقاصير أخرى . وضع سنموت فى بعض هذه المقاصير صوراً لنفسه خلف أبواب الفتحات الغائرة فى الحوائط .

دير المدينة : تقع قرية دير المدينة فى واد ضيق بين خط المعابد الجنائزية فى السهل الغربى عند طيبة والمنطقة الجبلية التى تخفى وادى الملوك . وهناك جبانة على الجانب الغربى الشديد الانحدار ، ليست جبانة عادية كبقية الجبانات ، إذ نُحتت مقابرها الجميلة التى تنتمى لعصر الرعامسة وطليت حوائطها بالألوان المبهجة وأقيمت الأهرامات المصغرة فوق قمة معابدها بيد أبرع الفنانين . لم تخصص هذه المقابر للأمراء وإنما لعمال الجبانة الذين بذلوا قصاراهم فى تشييدها . ترقد فى هذه الجبانة تلك الطائفة التى تسمى نفسها « خدم موضع ماعت » (أى الحقيقة) ، والتى أطلقت عليها الإدارة اسم « رجال الفرقة التى فى الجبانة » . كانت هذه الطائفة تتكون من رؤساء العمال ، وعمال المحاجر ، والنجارين والنحاتين والنقاشين والعمال . أعد هؤلاء الرجال قبر فرعون و « زوجاته العظيمات » . وقسموا أنفسهم إلى مجموعات تتناوب العمل فيما بينها ، كل عشرة أيام ، فى وادى الملوك . وكان يشرف عليهم « كاتب ملكىّ » ، وكانوا مسئولين أمام الوزير . كذلك كانت القرية التى يعيشون فيها مع زوجاتهم وأولادهم ، فى ذلك الموضع . ولاتزال بقايا مساكنهم بأرض هذا الوادى وقد ترك لنا هؤلاء العوام عدداً ضخماً من الآثار ، تتضمن مقابر ،

بعضها سليم ، لألهتهم المفضلة ، وأماكن للراحة فى الجبل ، ومساكنهم ، والمخلفات المنزلية من بيوتهم ، وكوماً من القمامة فى القرية . ومازالت مخطوطات البردى وكسر الفخار المكتوبة التى تصف سير أعمالهم موجودة إلى اليوم (قوائم دفع الأجور والإضرابات وما أشبه) ، وكذلك المستندات القانونية الخاصة بالجرائم والأحكام والمواريث ، وصفقات الأعمال . ويوسع الأستاذ ب . برويير P.Bruyere الذى ظل يتابع اكتشافاته لهذا العالم الصغير لأكثر من ثلاثين سنة ، والأستاذ ج . تشيرنى J.Cerney ، مؤرخ المدينة ، أن يتحدثنا عن أولئك الناس الذين كانوا يقيمون فى دير المدينة ، فى عصر الرعامسة ، كما لو كانا من قدامى أصدقاء أسرتهم ، كأن يقولا : « هذا الرجل الميت فى القبر رقم ٢ كان أصغر أبناء الرجل ا (بالقبر رقم ١) وابن عم الرجل ب (فى القبر رقم ٢٦٧) ..... أتتذكر ذلك

الرجل المعروف من لوحة كذا ، الموجودة فى متحف كذا ؟ حسناً ، كان هذا الرجل زوج احدى السيدات التى اعتدى على عفافها رئيس العمال پنب Peneb . كان رجلاً سيىء السير والسلوك . فدائماً ما كان يتفنن فى الخدع الدنيئة ! وكان ابنه على شاكلته تماماً ..... » ولكن يجب علينا والحالة هذه أن نتوقف ، وإلا وجدنا أنفسنا نكتب معجماً عن الحضارة القديمة فى دير المدينة .

الديموطيقية : فى حوالى نهاية القرن السابع ق . م . ، ظهرت وثائق مكتوبة بخط جديد يستعمل أجرومية واضحة الاختلاف عن الأجرومية المصرية المتأخرة ، وتستعمل ألفاظاً جديدة . وإذ نحذو حذو هيرودوت نطلق على كل من اللغة والكتابة اسم « ديموطيقية » أى الخط الشعبى . ولا شك أنه كان يمثل اللغة المصرية القديمة التى كان يتكلمها أهل الدلتا . وقد ضاعت أقدم المستندات ، ولم نعرف هذا الخط إلا منذ عهد الغزو الصاوى للجنوب . ظلت الديموطيقية ، زهاء ١٠٠٠ سنة ، صورة الكتابة العامة (على نقيض الهيروغليفية التى لم تستعمل إلا فى النقش على الأحجار ، والهيراطيقية التى اقتصر استعمالها على الأدب الدينى) . والديموطيقية كتابة سهلة واضحة ،

ولكنها متطورة كثيراً فتضمنت روابط ومختصرات لكثير من العلامات والمجموعات السطحية العسيرة القراءة ، وبمرور الزمن توقفت الديموطيقية عن التغير واتخذت صورة ثابتة .

وأكثر من كانوا يستعملون الديموطيقية هم المحامون وموظفو الحكومة . فاستعملوها فى تحرير العقود والمستندات القضائية والإدارية . وفضلاً عن هذا كتبت بها أيضاً عدد من المؤلفات الأدبية ، كالأساطير القومية (مثل أسطورة پيتوباستيس Petubastis) والقصص العادية ، والحِكم والأمثال ، والقصص الأسطورية ، ونصوص التنبؤ والسحر وطقوس الجنازات .

الدين : يقول هيرودوت إن المصريين أكثر الناس تديُناً . والحقيقة أن الدين دَخَل ونفذ فى جميع نشاطهم ، ومن السهل أن نتصور تأثير حياتهم اليومية فى نفس شخص أجنبى . فيلاحظ أولاً المكان الذى يشغله المعبد فى أفقر القرى ، إذ يشمخ سامقاً وسط أكواخ متهدمة . والتناقض أكثر وضوحاً فى المدن ، مثل منف أو طيبة أو سايس ، بين مساكن البشر والمعابد . بعد ذلك يلاحظ الأهمية التى أولوها للموتى الذين بُنيت قبورهم من الحجر أو نُحتت فى الصخر (ولابد أن يتعجب الأجنبى عندما يكون القبر بمستوى الأهرام ، أو من القبور الملكية فى طيبة) .

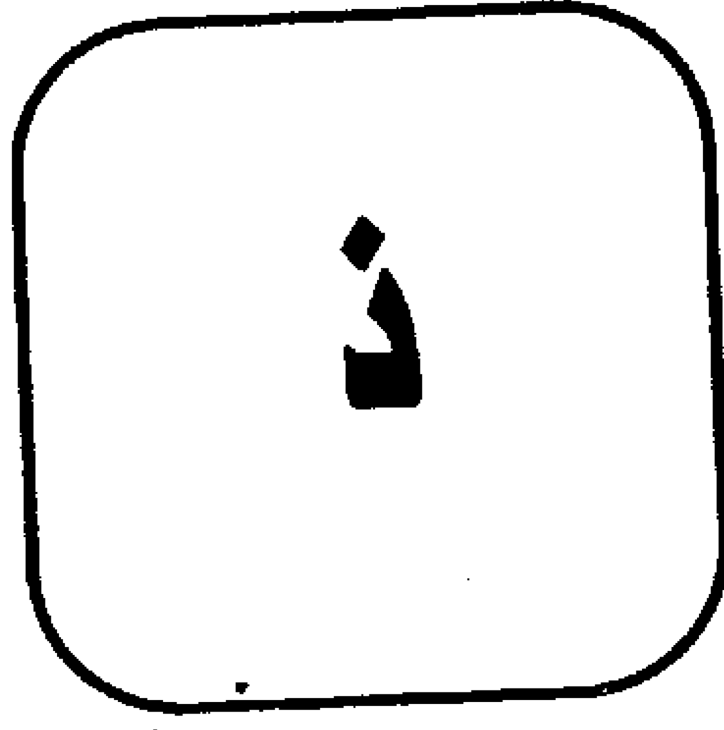
وطقوس التحنيط الرائعة ، والجنازات الفخمة ، والطقوس والاحتفالات الباهرة فى المقابر ، والنزهات التى يذهب فيها الأحياء ليشتركوا مع الأموات فى أيام معينة ، كلها مظاهر دينية جنائزية كافية لأن تكون دليلاً واضحاً على حضارة المصريين . وعلاوة على هذا ، كانت هناك أيضاً أعياد ومواسم حج ، خَلَقَت فى المدن المقدسة جوًّا من البهجة والمرح وجذبت الجموع من كافة أنحاء مصر . وأخيراً ، تأتى الطقوس الدينية والسحرية اليومية ، وهذه يمكن تسميتها « منزلية » . وتتضمن هذه الطقوس عبادة حيوانات معينة (قاتل أهل أقليم سكان اقليم آخر من أجل قط قتلوه) ، ومراعاة أيام السعد وأيام النحس تبعاً لتواريخها فى التقويم ، وتفسير الأحلام ، والأسئلة الموجهة للوحى ، والتطبيب بالسحر ، والسحر الوقائى . كل هذه مظاهر دينية ، وهناك كثير غيرها كانت تؤثر فى الحياة البشرية فى جميع أطوارها لابد أن يكون لها أثر قوى فى نفسية السائح الأجنبى

رغم كل هذه المظاهر المختلفة التى يمكن اكتشافها بهذه الطريقة فإنها لا تمدنا بوصف كامل للديانة المصرية ، وإنما تتعلق بالعادات الدينية التى تبدو لنا بمظاهرها الغريبة وخرافاتها . ومهما كانت الصورة الحيوية والبراقة التى تبدو فيها الحياة الروحية لغالبية المصريين (وكذلك العقائد الخاصة للأفراد) ، فإنها تظل غير واضحة . وبهذه المناسبة ، يجب ألا يغيب عن بالنا أن المعابد ، التى تبدو على أنها الرموز الجلية على استمرار الروح الدينى بين الأحياء ، لم تفتح أبوابها فى وجوه الناس الذين احتشدوا حول أسوارها . فالطقوس التى أقيمت بها ، وجميع الاحتفالات التى أمكن إقامتها فى ظل مبانيها الحجرية ، إنما كان يقوم بها الكهنة دون سواهم . كان الغرض من جميع الطقوس المعبدية كونيًّا : أى للمحافظة على الكون ، وليس للعواطف الشعبية أى دخل فيها .

إذا أردنا اكتشاف حقيقة روحية أعمق ، وجب علينا الابتعاد عن هذه المظاهر المرئية ، البالغة الشفوفية فلا تخفى أية أسرار عميقة . يقدم لنا « أدب الحكمة » شيئاً عن الفكر الروحى المصرى ، ولا شك أن صورة الإله أو صورة حالة البشر التى تعكسها هذه المؤلفات الدنيوية الأصل ، تمثل ديانة شخصية نبحث عنها عبثاً خلال النصوص الدينية الرسمية . وإننا لنرحب بالتعاليم التى صيغت من أجل مريكارع فى الحقبة المتوسطة الأولى ، وبكتاب أمينموبى

الموضوع بعد ذلك بألف سنة ، ترحيبنا بالواحات وسط صحراء روحية ذات صفحات لا نهائية من الطقوس الرسمية ، التي يبدو أن الطقوس والآداب قد أتت فيها على كل شعور ديني . ومع ذلك ، فمما يمكن الجدل فيه ، أن الذرا الروحية التي وصل إليها بعض المفكرين جديرة بالتقدير لقيمها الخاصة ، ولا تمثل ، إلى أي مدى ملحوظ ، الوعي الديني العام . لا يمكن إنكار مثل هذا الرأي . إذن ينبغي علينا أن نتجه إلى مصادر أخرى ، لنرى ما استطاع معظم المصريين أن يتصوروه على أنه أعظم قيمة روحية . ففي هذا السبيل ، تمدنا دراسة أسماء الأعلام التي تدل معانيها غالباً على حلقة اتصال وثيق بين الإنسان وربه ، بحلول هامة . كما تزودنا اللوحات التي تصور معتقدات العوام ، ببعض المعلومات . وهذه اللوحات تحتوي على نقوش تبين كيف عاقب الإله من سلك سلوكاً خاطئاً نحوه . وقد سُجِّل بها أن اليمين الكاذبة والإهمال قد تسببا في مرض مقترفهما ، كما تسببا أحياناً في إصابته بالعمى . فإذا ما أدرك الآثمون إثمهم ، ندموا ، وعندئذ تنزل عليهم الرحمة الإلهية ، وتعيد إليهم صحتهم وإيماناً لا يتزعزع . يتضح من هذه النصوص المعبِّرة عن الوفاء الشخصي للآلهة ، أن الآلهة العظام تكفّ عن الابتعاد وتصير أكثر بشرية ومألوفة أكثر من ذي قبل . وهكذا يصير أمون « الإله الذي لا يقبل أية هدية من الرجل الغني » ، والإله « الذي يجيب دعاء الداعي » والذي « يأتي عند نداء الملهوف » ، ومن « يُنَجِّي المحتاج » ، والذي « يعطيه الأنفاس » . وبناء على هذا ، كما نرى أن الجماهير كانت تصلي إلى الآلهة الأقل أهمية (بدلاً من التوجه إلى الآلهة العظام الموجودين في المعابد) الذين لهم ميزة الاتصال المباشر بهم . كانت المواضيع الجديدة للعبادة هي التماثيل الملكية أو تماثيل الآلهة القائمة أمام صروح المعابد ، والآلهة العائلية في معابد القرى ، وآلهة أفراد الأسرة ، وفي بعض الأحيان قديسي العصور السابقة الذين يمكن التوسل بهم عند أبواب قبورهم .

وأخيراً ، النصوص المكتوبة على الجعارين ، وهذه الأخيرة نوع من الحلي الشعبية التي يستطيع كل فرد أن يشتريها ويحملها معه ، وينقش عليها ، كلمات بسيطة مجردة عن البلاغة تعبر عن الشعور الديني لرجل الشارع . ويمكننا العثور بين المجموعات الضخمة من هذه الجعارين على نصوص تسجل أقوالا مأثورة ، مثل : « كل شيء في يد الإله » ، و « الإله هو الذي يقود إلى السعادة » ، و « الرزانة مربحة أكثر من الغضب » — وعلى صيغ تدل على الصلة الوثيقة بين الإنسان وربه ، مثل : « أمون — رع قوة الرجل العديم الخلان » ، و « ليس لقلبي ملجأ آخر غير أمون » ، و « أمون سيد حياتي » . في هذه النصوص ، وليس في الأدب الرسمي المكرس لعبادة الآلهة ومشاكل الحياة الثانية ، يمكن العثور على الحقائق التي تكشف الشعور الديني الشخصي الذي يربط المصري بالإله الذي يعبده ..



الذهب Gold : يظن كثيرون ممن لا يعرفون إلا القليل عن علم الآثار المصرية ، أن أقصى ما يطمع فيه ويصبو إليه عالم الآثار هو العثور على الذهب فى القبور . كان هذا ، حقيقة ، هو ما اعتقده المصريون فى العصور الوسطى ، إذ بهرتهم الاكتشافات الكثيرة ، بين آونة وأخرى ، لتلك الكنوز الثمينة . وكانوا يعتبرون أبا الهول العظيم وغيره من التماثيل الوثنية ، حراساً لتلك الكنوز الضخمة التى خبأها قدامى السحرة . وقد منع السكان المصريون قدامى السائحين من أن يأخذوا معهم بعض الأحجار المنقوشة ، ظناً منهم أن هؤلاء السائحين سيحصلون على الذهب من الجرانيت . ولكن الواقع أن بعثة الحفر ، الجيدة الإدارة ، تعثر على آلاف من كسر الوثائق والفخار والأشياء الثمينة والتافهة ، التى يستطيع عالم الآثار أن يعيد اكتشاف التاريخ بواسطتها .

ومن آن إلى آخر ، تعثر تلك البعثة على حلية أو تحفة من الذهب ، وسرعان ما تُطير الصحافة الخبر فى جميع أنحاء العالم .

إذا عثر المنقب على مقبرة ملكية سرت موجة من الإثارة الشديدة فى نفوس الجماهير التى تصورت ، حينما اكتشف أثاث مقبرة توت عنخ آمون المذهب ، أن عرشه المصفح برقائق الذهب ، كان مصنوعاً بأكمله من هذا المعدن النفيس ، وأخذوا يتراهنون على أطنان الذهب التى تحيط بجثة هذا الملك ، ولكنهم لم يهتموا بمئات القبور المتواضعة التى اكتشفها علماء الآثار ، فالشهرة دائماً من نصيب الأغنياء . كانت الكنوز من الضخامة بحيث تسحق الدخيل تحت ثقلها ، ومن سحر هذا الذهب ولدت أسطورة أرض الأحلام « أوفير » التى تتحاكى بها قصص العصور الوسطى .

ألم تشوه قيمة الذهب النقدية آراءنا ؟ لم تكن كنوز توت عنخ أمون وغيرها مما عُثر عليه فى قبور قدماء المصريين احتياطيات مالية ، ولا خزائن لتجار المجوهرات . لا شك فى أن المصريين اعتبروا الذهب من أثمن المواد . بيد أن قيمته العظيمة لم تكن بحال ما راجعة إلى الاعتبارات الاقتصادية البحتة ؛ بل لكونه مادة الشمس وأجاد الآلهة ، فهو المعدن اللامع وغير القابل للفساد ، وهو الذى انبعثت منه الآلهة .

وقد اعتقد قدماء المصريين أن الربة حتحور هي « تجسيد » الذهب . ولا يزال المثل العامي سائراً في عصرنا الحاضر : « هاتور (الشهر القبطي المشتق اسمه الحديث من حتحور) ، أبو الذهب المنثور » . وكان أحد الألقاب الملكية عند قدماء المصريين : « حورس الذهبي » . كُسيت تماثيل الآلهة بالذهب الرقيق عندما لم يمكن صنعها كلها من الذهب . واستُعملت رقائق الذهب في تغطية قمم المسلات والمعابد والدهاليز وأدوات الطقوس الدينية والنقوش البارزة ذات الصور المقدسة .

لما كان الذهب معدناً إلهياً ، فقد أضفى الحياة الخالدة . فوهب الذهبُ توت عنخ أمون وكلَّ من شابهه الحياة الخالدة التي للشمس والآلهة . وامتد هذا الاعتقاد حتى صار اللون الأصفر بالغ الأهمية في الرموز الجنائزية . وأُطلق على المواضع التي صُنعت فيها تماثيل « القرين » والتوابيت ، اسم « بيوت الذهب » . وكذلك أُطلق نفس هذا الاسم على بعض بيوت التحنيط وحجرات التوابيت بالمقابر الملكية . وكانت الأقنعة التي تغطي وجوه الأطفال المحنطة ، إما أن تكسى بالذهب أو تطلى باللون الأصفر . أما أقنعة الملوك وعظماء النبلاء فتصنع من الذهب النقي . واستخدم الصياغ الماهرون نفس هذا المعدن في صناعة العقود والأساور والخواتم والحلي الصدرية وغيرها من التمائم القوية الأثر ، التي كانت تزين جثة الملك المحنطة وجثث أولئك الذين كان يحبوهم الملك بعطفه .

هل قصر المصريون استعمال الذهب على الأغراض الطقسية والجنائزية ؟ إذا قلنا « نعم » كنا ، بغير شك ، مخطئين . فقد كان الأحياء يبجلون هذا الأصفر البراق ، أيضاً . ففي الدولة الحديثة ، كان الملك يزين جنوده الأكفاء بـ « ذبابات ذهبية » ، ومنح وزراءه عقوداً ثقيلة من الذهب . كان ذلك المعدن الإلهي متداوَلاً ، كبقية المعادن ، منذ الألف سنة الثانية على الأقل . وكثيراً ما استعمله العوام نقوداً ولكن لم يشعر المصريون من تلقاء أنفسهم بحاجتهم لتكديس كميات من معدن بديع (ذي خواص سحرية وغير قابل للفناء وينجي صاحبه في الحياة الآخرة) وتخزينه للانتفاع به في الحياة الدنيا إلا عندما رأى المصريون طمع جيرانهم ، فاقتنعوا بأن مناجمهم كانت مقياس قوتهم . وتزخر الخطابات التي أرسلها ملوك آسيا إلى آخر ملكين باسم امنحوتب ، بالطلبات البالغة القيمة : « الذهب النقي في مصر تراب على الطرق ..... يجب أن ترسل لي كمية كبيرة من الذهب كما فعل أبوك » . ويقول ملك بابل : « لا يجب أن يعهد أخي لي موظف بالذهب الذي يرسله لي . بل يجب أن يرى أخي بعينيه أن الذهب قد عُبِّيء وخُتم وسافر . لأن الذهب الذي أرسله لي أخي .... والذي عبأه وختمه موظف من عند أخي ، كان من نوع رديء » .

غشّ موظفو أمنحوتب الرابع الذهب ، كما رأينا ، ولكن جرمهم أقل دنساً من لصوص القبور في عصر آخر الرعامسة ،

الذين نهبوا المومياوات الملكية وسلبوا جميع حليها الخالدة .

لما كانت الأجور تدفع نوعاً (أى من نفس النوع الذى ينتجه العامل) ، تسرب الذهب ببطء إلى أيدى العامة والبسطاء . وقال أحد الفراعنة الحكماء ، الذين عرفوا مبلغ هذا الخطر : « أما عن الذهب ، لحم الآلهة ، فهو ليس لكم . خذوا حذركم ، إذن ، ألا تنطقوا بكلام إله الشمس عندما بدأ كلامه قائلاً : إن بشرتى من الإلكتروم النقى » . هكذا قال سيتى الأول إلى عمال مناجمه فى احدى خطبه .

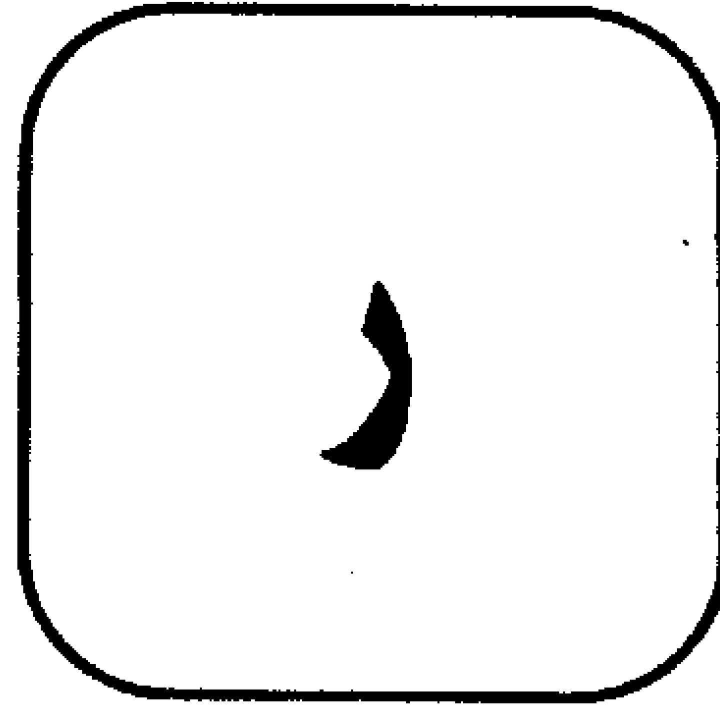
وربما كان ملك مصر أغنى ملوك بلاد الشرق ، فى الذهب . « إنه جبل ذهبى يضىء المملكة كلها ، مثل إله الأفق » ،

وعندما استولى أهل طيبة على مناجم الصحراء ، صار معبد أمون المزدهر ، مصرفاً حقيقياً . كانت مصر وبلاد النوبة هما البلاد المنتجة للذهب . وكان الكوارتز المحمل بالذهب وفيراً فى قلب الجبال الشرقية والجنوبية الشرقية ، فيكسر الصخر ويغسل ، ويجمع الذهب تبراً فى أكياس من الجلد ، ثم يصهر ويحوّل إلى قوالب بشكل متوازى المستطيلات ، أو حلقات . فكان الضباط والجنود ، المكلفون بمراقبة العمليات لصالح الدولة وحدها ، يتحملون مسئوليات جسيمة . أما العمل فى المنجم فكان جد شاق . يصف الكاتب الإغريقى أجاثارخيديس Agatharchides ذلك العمل الشاق وظروف المعيشة المفزعة التى يعيشها المتهمون المحكوم عليهم فى مناجم الذهب البطلمية فى وادى الحمامات ، حيث كان العمل مستمراً فى المناجم .

توجد ممرات قديمة بالغة الضيق حتى أن « الطفل أو الأشخاص الذين باتوا هياكل بشرية ، هم وحدهم الذين يستطيعون الزحف خلال تلك الأنفاق » . ثم إن الرحلة ذهاباً وإياباً خلال الصحراء قاتلة .

فلكى يستمر سيتى ورمسيس فى « إنتاج التماثيل » ، بذلا جهوداً مضنية للمحافظة على الآبار مفتوحة فى الطرق الصحراوية من كوبان وإدفو ، إلى مواضع الكوارتز المحمل بالذهب ــ فعدم وجود الماء ، يعنى عدم وجود عمال المناجم ، ويعنى انقطاع الذهب من على الأرض .

وفى ذروة مجد الدولة الحديثة ، كانت مصر تفرض جزية باهظة على الذهب من عبيدها السوريين . ويبدو أنها كانت تحاول الحصول على الاحتكار الكامل له . ثم زاد فرعون ، القابض على مفتاح أفريقيا ، فى دخله من المناجم الشرقية ، وجلب الذهب من بلاد پونت بالسفن ، فضلاً عن الجزية السنوية التى يدفعها أهل النوبة الخاضعين لحكمه ، إذ كانت إثيوبيا غنية بالذهب ، هى أيضاً ، حتى تخيل الأغارقة المتمصرون ، فى أزمنة لاحقة ، أن « جميع الأسرى هناك مقيدون بسلاسل من الذهب » ــ وهكذا كان مولد أسطورة عظمى .



الراميسيوم Ramesseum : هو « قصر ملايين السنين » ، كان يملكه الملك اوسر — ماعت — رع ، رمسيس الثانى ، وقد ضُمّ فى طيبة إلى أملاك أمون الواقعة غربىّ طيبة ، وأطلق عليه علماء القرن التاسع عشر اسم « الراميسيوم » . وسماه المؤرخ الإغريقى ديودوروس ، خطأ « قبر أوسيماندياس Osymandias » ، وهذا الاسم الأخير تفسير خطأ لاسم رمسيس الثانى القديم ، وهو اوسر — ماعت — رع . هذا المعبد الجنائزى ، بناه رمسيس لأمون ولنفسه ، فى الشمال الغربى من تمثالى ممنون ، ولايزال بالإمكان رؤيته . وإذ تهدمت جدرانه الخارجية حوّلت الأبهاء إلى طريق ، وأبهاء الأعمدة إلى دهاليز . وتتكون من بقايا طرق الأعمدة ، والأعمدة الأوزيرية المتكسرة والصرح الضخم الذى تهاوى نصفه ، أجمل آثار فى مصر ، بينما تعطى فكرة طيبة عن المبنى الأصلى . ويلاحظ ظاهرتان مشهورتان ، وهما : جسم تمثال ضخم محطم وأعضاؤه المحطمة ، ذلك التمثال المصنوع من الجرانيت ، والذى يبين « رمسيس شمس الملوك » وهو مرتدى التاج (كان ارتفاعه حوالى ١٧ متراً ، ويزن ألف طن) ، ومخازن المعبد المحفوظة جيداً ، وسقوفها المقوسة المصنوعة من الآجر والتى تقع فى مستوى واحد مع السور .

رخميرع Rekhmire : كان رخميرع وزيراً فى عصر تحوتمس الثالث . ويجب على كل زائر لمدينة طيبة أن يشاهد قبره فى جبانة القرنة ، إذا أراد أن يرى صور احتفال فتح الفم والوليمة العائلية التقليدية فحسب ، بل وكذلك النشاط الخاص بوظيفة الوزير البالغة النفوذ ، إذ تتضمن جمع الضرائب ، واستلام الجزية الأجنبية ، وتنظيم أعمال الفلاحين والفنانين والصناع من كل مهنة — كصانعى الآجر ، والصياغ وصناع المعادن والحدادين .

الرسم : استعمل قدماء المصريين الرسم أكثر مما استعمله أى قوم آخرين . فحتى كتابتهم كانت على هيئة صور . أما نماذج الكائنات الحية المصنوعة كلها بيد الإنسان فكان لها أغراض سحرية : فامتلأت معابدهم بالرسوم الحية ، ونحتوا الصور بدقة (انظر النحت البارز) ، أو

رسموها على السطوح المستوية (انظر التصوير) غير أنهم ، فى بعض الأحايين ، كانوا يرسمون صوراً مطابقة تماماً لما تمثله ، واستعملوا الألوان فى ذلك بحسب « العرف » . وقد حلل مؤرخو الفنون قواعد الفن المصرى الشهير هذا [مثل مزج المنظر الجانبى بالمنظر الأمامى ، وقانون « الأمامية » ، وكراهية « المنظور » (قاعدة التلاشى) والتغطية والإدماج والتناقص ، وهكذا] تحليلاً مفصلاً — فيما مضى ، لتحديدها باعتبارها أخطاء على الفنان أن يتجنبها ، أما اليوم فننظر لها نظرة إعجاب وتقدير ولكنهم دائماً كانوا يعجزون عن تفسير أصلها . يظهر « الطراز الفرعونى » تامّ التكوين فى أوائل ما عُرف من الآثار الفرعونية (سنة ٣٠٠٠ ق . م .) . وربما كان من بدايته أشبه بالرسوم التى يعملها الأطفال ، الذين يصورون ما يعرفونه عن الشىء وليس ما يرونه . وبالطبع ، كان الفن ، فى مراحله الناضجة ، يهدف إلى تعداد صفات جسم معين ، واختيار خصائصه المفيدة ، حتى إن الألفاظ السحرية التى جعلت للفن أثراً فعالاً ، سيطرت بالفعل على ذلك الجسم .

لا يلاحظ عالِمُ الآثار المصرية ولا المعجبُ المتحمس (والأطفال الصغار غالباً) شذوذاً فى العين المصورة من الأمام فى رأس مصورة من الجانب وموضوعة على كتفين أماميتين فوق جذع جانبى ، الخ . انهم يرون العمال والراقصات والأعداء المهزومين والملوك الظافرين والآلهة الوثنية ، الذين يبدون طبيعيين تماماً ، حتى ولو كانوا برءوس حيوانات ، ويعتبرون أشكالهم طبيعية ، إذ أنه من الطبيعى أن يبدو السادة ضخام الأجسام ، والطبقة الثانية من المواطنين متوسطى الأحجام ، والرعية العاديون صغار الأبدان . ومن الحقيقى أيضاً أن قدماء المصريين كانوا قادرين على رؤية الأشياء وتصويرها بأسلوب مخالف للقواعد المتوارثة كما تدل على ذلك رسوم الاوستراكا والمناظر الخيالية التى خرج فيها الفنان على التقاليد الفنية آنذاك . ومع ذلك فإن الرسام المجيد كان يبدع رسوماً لطقوس تتفق وميوله ؛ وكان يترفع عن نقل رسوم غيره أو الاهمال فى عمله . كما أنه لم يُظهر أى جهل أو ازدراء « للقوانين القومية » ؛ إذ ينص الطراز الفرعونى على أن كل ما يمكن أن يكون ، لابد وأن يتفق دائماً مع الموجود ؛ فاتبع المصورون « مدارس » الأسلاف فى وفاء لمصنفاتهم المجدْولة بدقة والتى لم يخرجوا عليها إلا فى القليل النادر ، وكانت تتألف من صور طقسية وحربية ، ومناظر زراعية وصناعية ، وصور من الحياة اليومية ، ومناظر دينية .

كان « كاتب الصور » ، الذى يُعِدُّ النقوش ويصمم اللوحات ، يتعلم أصول النحت هذه ، وقوانين كتابة نصوص النقش ، فى المدرسة . فكان ينقلها تبعاً لنبوغه الشخصى . كان يجب أن يصمم ويوزع شتى العناصر تبعاً لطريقة مألوفة فى اشرطة طويلة أفقية تقسم دائماً حوائط الآثار ، ومن ثم استخدم شبكة مربعات كبيرة لتقسيم السطوح وتحديد نسب شخوصها ، وبمساعدتها كان يخصص مساحات كبيرة للآلهة التى تسود دائماً كل شىء . وكان يصور ، بضربات ازميله ،

عمل العمال أو حزن النائحات أو معمعة القتال أو جلبة رحلات الصيد ، ويكتفى فى إثباتها برسم خطوط توضيحية ، وينفذها غالباً دون محو أو إعادة للرسم . وكان يستخدم التفاصيل التقليدية أو الملاحظات العابرة (التى كثيراً ما كان يسرقها) فى تصوير دنيا الحيوانات . فتبدو كما لو كانت حية . ويُعبر عن عظمة النبلاء ، ويُدخل فى فنه عقيدة الخلود المصرية . وتشى النقوش الهيروغليفية سواء العمودية منها أو الأفقية بمهارة عمل الفنان ، وهى عبارة عن الصيغ الدينية ؛ ووصف الأشياء ، وأسماء الناس ، ومظاهر السرور والغضب والملاحظات والأوامر ــ المهذبة أو البذيئة التى يقولها شخص فى صيغة ما .

رع **Re** : ليس الإله رع سوى الشمس نفسها ، وهذه حقيقة واضحة ، إن كانت هناك حقيقة لا تحتاج إلى رمز . ولا شك فى انه عُبد منذ أقدم العصور فى عدة أماكن من مصر . وكان مقره الرئيسى هليوبوليس حيث كان يرأس «التاسوع العظيم» باسم «أتوم» . وكان نجاحه السياسى متأخراً نسبياً فى التاريخ . ويدل الاسم نبى ــ رع Nebire بمعنى «رع سيدى» ، فى الأسرة الثانية ، على أن الناس بدءوا يتضعون من تأييده . وبعد ذلك بوقت قصير جاء بناء الأهرام ، التى كانت أصلاً من الآثار الشمسية ، مما يدل على أن عبادة الشمس قد تطرقت إلى العادات الجنائزية . ومع ذلك ، فلم يتخذ الملك لقب «ابن رع» ، رسميًا ، إلا منذ عصر خفرع . وقد ظلت هذه «القرابة الشمسية» فى الألقاب الملكية ، حتى نهاية التاريخ المصرى .

عندما ثبت رسمياً أن رع هو الرئيس الرسمى لمجموعة الآلهة الرسمية ، فى الأسرة الخامسة ، لم يمض وقت طويل حتى ظهر منافسون للإله رع . فأولاً ، على المستوى الأسطورى : نتج عن التغيرات السياسية ، التى أدت إلى تثبيت البيت الملكى فى طيبة ، أن ظهر فى المقدمة إله جديد يدعى أمون ، قُدِّر له أن يحظى بالأولوية ، فى الوقت المناسب . ولكن لم يكن من الممكن للمصريين أن يغفلوا أهمية رع أو الشمس التى تسطع فى السماء المصرية ، لذا كان على جميع الآلهة التى حظيت بالسيادة العالمية بسبب النجاح السياسىّ ، أن تتخذ مظهراً شمسياً . فانتصر أمون وخنوم ومونت وسوبك ، بدورهم ، باتخاذهم الصور : أمون ــ رع وخنوم ــ رع ومونتو ــ رع وسوبك ــ رع

ومن الممتع أنّ نلاحظ أنّ ملوك الأسرة الثامنة عشرة تغلبوا على القوة الهائلة لأمون ، بالاعتماد على لاهوت الشمس . وقد استعار مذهب العمارنة ، الذى عبد أتون ، أى قرص الشمس ، كثيراً من مبادئه ، من عبادة رع القديمة .

وفى المعتقدات الجنائزية ، سرعان ما تضاءل رع ، إلهُ الحياة الملكية الثانية ، والقاضى العظيم فى العصور المبكرة ؛ أمام أوزيريس الذى رسخت أقدامه فى عالم الموتى . ولكن ، حتى فى ذلك العالم ، بقى رع واستمرت طقوس عبادة الشمس تؤثر فى احتفالات الدفن ، ومعتقدات الحياة الثانية ، وصورة عالم الليل . أما فى الدولة الحديثة فحدثت ترضية ، وصار أوزيريس

ورع مظهرين لنفس « الروح » الإلهية العظمى . إذن فلم يتعارضا بعد ، بل صار كل منهما مكملاً للآخر .

أوحت رحلة الشمس اليومية خلال السماء المصرية ، بالأساطير التى أدمجت رع فى الشمس . تصف النصوص شروق الشمس على الشاطىء الشرقى البعيد حيث تحييه فرقة من القردة ، بمجرد ظهورها من المياه . فإذا ما أوقظت هذه الحيوانات من نومها ، ترقص طرباً لظهور الشمس . بعد ذلك يركب رع سفينته النهارية التى تبحر به عبر السماء حتى المساء . بعد ذلك ينتقل من سفينة النهار إلى سفينة الليل التى تنتظر به فى العالم السفلى مدة الاثنتى عشرة ساعة قبل شروقه مرة أخرى . ولقد نسجت عدة أساطير وقصص حول رحلة الشمس هذه . فتقول بعض هذه الأساطير إنه يكون طفلاً عند شروقه (= خپرى) ، ورجلاً كامل النمو فى منتصف النهار (= رع) ورجلاً عجوز مضطرباً عند المساء (= أتوم) . وذكرت أساطير أخرى حياته على الأرض منذ زمن غابر ، وشيخوخته ، والحيلة التى نجحت بها إيزيس فى إغرائه على أن يبوح باسمه السرى وخطته التى ينوى أن يدمر بها البشرية ، وكيف بكَّته ضميره فكف عن القتل الذى عهد به إلى ابنته حتحور ، وأخيراً ، رحيله إلى السماء ممتطياً ظهر البقرة السماوية (انظر أساطير الخليقة) .

رع موسى **Ramose** : هو آخر وزير لأمنحوتب الثالث ، وأول وزير لأخناتون . ويجب على كل من يزور طيبة أن يرى قبر رع موسى فى جبانة القرنة . فعلى الحائط الجنوبى مناظر على الجبس تبين طقوس الجنازة الجميلة الفخمة ، والنسوة الحزينات على الميت ، ونقل الأثاث الجنائزى . وعلى الحائط الغربى رسم ، هو أول تمثيل لأخناتون وأتون . وعلى الحائط الشرقى نقش غير عميق يمثل القيام بطقوس التقدمات أمام رع موسى ونبلاء أسرته . ويمكن رؤية هذا العمل الدقيق فى قبرى خع ـ إم ـ حات ، وخرو ـ إف .

الرق **Slavery** : إذا كان معنى كلمة « رق » هو التجرد من الحقوق القانونية ، فمثل هذا المعنى لم يكن موجوداً فى مصر القديمة . لا شك فى أن بعض طبقات من الشعب كانت تملكها طبقات أخرى يحق لها أن تبيعها وتُوَرِّثها أولادها أو تؤجرها أو تعتقها بعقد رسمى . ولكننا نلاحظ أن لهؤلاء « العبيد » أملاكهم التى يمكنهم التصرف فيها كيفما أرادوا ، وكانوا يقتنون المزارع ويرثها عنهم أولادهم ، ولهم خدمهم ، وتزوجوا بسيدات من الأحرار . يبدو لنا كل شىء متناقضاً هنا . ولكنه لم يَبْدُ كذلك لقدماء المصريين والذين لم يتقيدوا بنظريات ثابتة فى مجال القانون . ومع ذلك ، يمكننا أن نتحدث عن نوع من الرق كان منتشراً هناك نوعاً ما . نظَّم التاج والمعابد وأفراد الشعب قوة من العبيد للخدمة ، تضم بعض الأجانب ، ولاسيما أسرى الحرب والمواطنين المصريين . واستخدم العبيد فى المصانع وفى الحقول ، للأعمال التى على نطاق واسع ، وللخدمة المنزلية . وبعض وثائق البيع التى بقيت

لنا ، يبين أنهم كانوا يدفعون أثماناً عالية . وهكذا يلوح لنا أن تشغيل العبيد لم يحتل مركزاً حيوياً فى اقتصاد المملكة .

الرقص : تصور الآثار المصرية ، سلسلة كاملة من الرقصات ذات إيقاعات معقدة ــ من الرقصة الطقسية التى يقوم بها الأقزام عند شروق الشمس ، ورقصات الحرب الصاخبة التى يبدو الراقصون فيها كأنما يقفزون فجأة من الغابات الأفريقية ، إلى الدوران البسيط على العقبين للفتيات الراقصات ذوات الحركات الرشيقة ، اللواتى كُنَّ يعملن على تسلية الضيوف فى الولائم . كان الرقص جزءاً من الطقوس الدينية قبل أن يصير تسلية دنيوية ، فأقيمت حفلات الرقص المقدس فى كثير من المناسبات : فى الأعياد (عيد السد Sed ، وذكرى إقامة عمود الجد ، وعيد أوبت Opet ، وموكب السفن) . وفى الجنازات (رقصة مور Muu ــ التى يلبس فيها الراقصون تيجاناً من الغاب غريبة الشكل ، ويقومون برقصة بالغة القدم) ، وفى أثناء الاحتفالات بطقوس حتحور الدينية ، وأمامها كان الفرعون : « يأتى ليرقص ، ويأتى ليغنى ــ انظرى ، أيتها الملكة ، كيف يرقص ، انظرى يا زوجة حورس ، كيف يقفز » وقد اشترك بعض الآلهة فى هذه الرقصات ، مثل : بس الذى يخيف العفاريت بعبوسه وبصوت دفوفه ، وإحى ابن حتحور ، الذى كان يجلجل بصلصلته ، وغيرهما . وإذا جاز لنا أن نصدق لوكيان Lucian ، فإن بعض الممثلين « ترجموا أعظم العقائد الدينية غموضاً إلى حركات تعبيرية ، وكذلك أسطورتى أيس وأوزيريس ، وتحوُّل الآلهة إلى حيوانات ، وفوق كل شيء ، شئون الغرام » . وهناك مثل لهذه الأحداث الميثولوجية المترجمة إلى رقصات ، فى منظر من الدولة الوسطى ، ففيها خمس فتيات صغيرات يقدمن مشهداً بهلوانياً عنوانه « أغنية الرياح الأربع » . غير أننا لم نعرف نص الأغنية ، ولكن يمكن تخمين السيناريو من الصيغة الدينية ، إذ تقول الفتيات : « أُعطيتُ الرياح . إنها ريح الحياة الآتية من الشمال . أعطيتُها ، وأعِيش عليها » .

صُوِّرت الرقصات الدينية على حوائط المصاطب ، على أنها تسلية فى الولائم وفى الحفلات الخاصة . وتنص الكتابة على وجود راقصين محترفين يمكن استخدامهم بالأجر فى المناسبات الهامة .

من الصعب أن نتخيل الرقصة كلها برؤية الحركات المصورة فى لحظة معينة واحدة . وقد درس الأستاذ السويسرى هنرى ڤيلد ، المتخصص فى الآثار المصرية ، جميع مناظر الرقص هذه ، فتعرَّفَ فيها على هذه الأوضاع والخطوات : تبقى القدمان ساكنتين بينما تقوم الذراعان والأرداف بحركات عنيفة (طليعة بعيدة لرقصة العوالم المصريات الحديثة) .

وتتحرك القدمان إلى الأمام ، إما فى مشية بسيطة على أصابع القدمين مع رفع الذراعين على صورة باقة أزهار ، أو التحية الرومانية . كما يتضمن الرقص حركات

أخرى كالجرى والقفز (والجسم منتصب أو مثنىّ) ، والميل إلى الأمام ، وإلى الجانبين دون شك ، وكذلك وضع الأربيسك الذى يرتفع فيه الراقص على قدم واحدة ويمد احدى ذراعيه وساقه الأخرى إلى الخلف مع انحناء جذعه وفرد ذراعه الأخرى إلى الأمام ، واللفة العظمى ، والدوران على العقبين ، وثنى الظهر ، والشقلبة البهلوانية ، والدوران الجانبى على الأيدى والأرجل كعجلة العربة .

تحدث كل هذه الحركات على إيقاع التصفيق بالأيدى ، ويقوم بها الراقص أو الراقصة ، حركة وراء أخرى فى نظام متغير بمصاحبة الدفوف ، وأحياناً بمصاحبة آلات موسيقية أخرى .

رمسيس (مدينة) **Ramses** : ذُكر فى سفر الخروج أن الإسرائيليين أُجبروا على

صنع أجر لمدن التخزين الخاصة بيثو **Pithom** ورمسيس .

يعترف معظم علماء الآثار المصرية بأن هذه الأخيرة هى « پر — رمسيس » ، أى « بيت رمسيس ، العظيم بالانتصارات » ، المذكورة فى كثير من النصوص التاريخية والتى مدحها كثير من الكُتّاب المعاصرون . بيد أن موقع هذه المدينة العظيمة ، التى بناها رمسيس فى شرق الدلتا ، كان مثار مجادلات لا حدَّ لها . وعلى العموم ، يُنسب شرف التسمية « پر رمسيس » إلى مدينة واحدة أو مدينتين . ويقول پيير مونتيه إن تلك المدينة هى تانيس . أما محمود حمزة ، وقداسة الأب كوروابيه **Couroyer** ولبيب حبشى ، فيقولون إنها « قنطير » . والأدلة والحجج متعادلة عند كل من الطرفين . ولن يبطل الجدل طالما كانت المسافة بين هذين الموقعين ، وقدرها ١٢ ميلاً ، لم تُحفر بعد . ومع ذلك ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن رمسيس الثانى بنى كثيراً من المدن التى تحمل اسمه ، حتى صار من العسير علينا القطع بأن المدينة المذكورة فى التوراة هى « پر رمسيس » عاصمته الشهيرة .

رمسيس **Ramses** : (رع — مس — سو) هو اسم لعدد الملوك عُرفوا باسم الرعامسة فى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين فى النصف الثانى من الدولة الحديثة .

رمسيس الأول **Ramses I** : (١٣١٤ — ١٣١٢ ق.م.) : هو أحد القواد الذين محوا الحكم الدينى الذى أنشأه أخناتون . تبوأ العرش وهو شيخ هرم ، وترك مقاليد الأمور لابنه سيتى ، الذى صار سيتى الأول .

رمسيس الثانى **Ramses II** (١٣٠١ — ١٢٣٥ ق.م.) : هو ابن سيتى الأول . كان كل شىء فى عهده على نطاق واسع . استمر فى الحكم مدة ٦٧ عاماً وتزوج بخمس أو ست زوجات عُظْمَيات وكان أباً لأكثر من مائة « ولد ملكى » . وأقام عدداً كبيراً من التماثيل الضخمة ، وشيد كثيراً من المدن الكبيرة فى

جميع أنحاء مصر ، وخلّد ذكرى انتصاره فى قادش ، فى نص طويل ، بل هو من أطول النصوص فى الأدب المصرى . وعندما مات كان عمره أكثر من مائة عام .

تحمل آثار تانيس وجميع أنحاء الدلتا تقريباً ، ومنف وكثير من أماكن مصر الوسطى ، وأبيدوس وطيبة (الكرنك والراميسيوم) ، وستة معابد صخرية فى النوبة ، اسم رمسيس « الذى اصطفاه رع » مكتوباً ومنقوشاً على نحو متكرر فى دأب بالغ وتباه بسلطانه الملكى . وتكفى قائمة مبسطة لآثار حكمه الباقية ، لكى تملأ هذا المعجم ، حتى ولو لم نذكر الآثار السابقة له التى اغتصبها . ومع ذلك ، يجب علينا الاعتراف بأن انتصاره فى قادش كان إفلاتا من كارثة كادت تقضى عليه فلم تثمر حرب الستة عشر عاماً ، التى شنها ضد الحيثيين ، سوى العودة إلى ما كان الأمر عليه قبل نشوبها . وإن الحصون التى بناها رمسيس الثانى فى ليبيا لم تمنع البرابرة من تهديد منف من خمس سنوات بعد موته . كذلك قد يكون من المؤسف أن حبه للعظمة والطريف من كل شيء أدى إلى انحطاط الفنون إذ كلف مهندسيه المعماريين بما فوق طاقتهم . ورغم هذا فلا ننكر أن هذه الشخصية العجيبة المحيرة قد نجحت فى تكوين دعاية طيبة لنفسها وتوريث الطراز الخاص بعمائره وآثاره الفنية للعصر اللاحق بأكمله .

رمسيس الثالث Ramses III (١١٩٨ — ١١٦٦ ق.م.) : رغم أنه كانت تفصل بينه وبين رمسيس الثانى عدة سنوات فقد حاكاه فى كثير من الأشياء وخصوصاً فى تصميم معبده بمدينة هابو . كما أنه حارب دفاعاً عن الإمبراطورية التى كانت مهددة أكثر من ذى قبل . ونجت المملكة فى عصره من غزوين قام بهما الليبيون ، ومن هجوم شنته « شعوب البحر » التى جاءت من منطقة بحر إيجة لتعيث فساداً فى الشرق كله . غير أنه أغتيل بمؤامرة من الحريم .

أما بقية ملوك الأسرة العشرين ، من رمسيس الرابع إلى الحادى عشر ، فكان حكمهم خاملاً يرثى له (من سنة ١١٦٦ — ١٠٨٥ ق.م.) ، وقد شهدوا انحلال مصر الذى اتسم بفضائح إدارية وشقاقات داخلية والسيادة الحربية على ممتلكات أمون ، وتسريح الجنود الليبيين ، ونهب مقابر طيبة ، وبلغت الفوضى إلى حد الاعتداء على المومياوات الملكية أنفسها ، وارتفاع أسعار وسائل المعيشة . وأخيراً تخلّت أسرة الرعامسة عن الحكم إلى « الملوك الكهنة » .

الروح Soul : إذا ما تكلم المصريون المسيحيون عن الروح استعملوا الكلمة الإغريقية پسوخى Psyche (انظر الأقباط) . تدلنا استعارتهم هذا اللفظ ، فى وضوح ، على أنه لم توجد كلمة فى اللغة القديمة تعبر تماما عن الفكرة المسيحية للروح ، التى هى الجزء الروحى الخالد من الشخص . فبينما توجد ألفاظ مصرية كثيرة لأجزاء جسم الإنسان ، لم يجد المصريون (للأسف) ضرورة لتحديد فكرة الروح

وتعريفها بوضوح ، ولذا اضطررنا إلى مقارنة النصوص التى ذكرت فيها هذه الفكرة ، لكى نفهم معناها ؛ غير أن طبيعة كل كلمة منها غير واضحة تماماً فظلت عسيرة الفهم .

تتضمن العناصر الروحية للشخص المصرى الحىّ نيانين (على الأقل) واضحين ، هما الـ « كا » والـ « آخ » . وصُوِّر العنصر الأخير فى الهيروغليفية بطائر أبى قردان ذى خصلة من الريش خلف رأسه . كان الآخ كياناً غير قابل للفناء ؛ فتقول النصوص : « فكما أن الجسم خاص بالأرض ، كذلك الآخ خاص بالسماء » . فاشتقت من هذا الأصل اللغوى ألفاظ بمعنى « يضىء » ، وكذلك ألفاظ بمعنى « ذو أثر فعّال » ؛ ويبدو أنه يمكننا تفسير الآخ على أنه قوة غير مرئية بوسعها أن تعبر قوة تأثيرها للبشر وللآلهة . وتستعمل بعض النصوص كلمة آخ للدلالة على « الأرواح » ، وهى قوىً وسط بين الآلهة والبشر ؛ كما تشير فى نصوص أخرى إلى الموتى المحظوظين ، وفى غيرها إلى الأشباح ، واستعملها الأقباط للتعبير عن الشياطين .

أما « البا » فهو جزء من الروح البشرية ، أسهل تعريفاً : إنه الجزء الروحى من الشخص ، الذى يحفظ فرديته بعد موته ، ويستطيع التجوال كما يريد . وقد صُوِّر « البا » فى مخطوطات البردى الدينية بشكل طائر له رأس إنسان ، يستطيع أن يبقى مع الميت فى الحجرة الجنائزية ، ولكنه كثيراً ما كان يؤثر الخروج إلى الفضاء ويزور الأماكن التى كان الميت يحبها ــ كالبركة التى أزال فيها ، مرةً ، متاعب نهاره ، أو الشجرة التى تمتع تحتها ببرودة المساء . وهكذا كان البا هو العنصر الروحى الذى يستطيع الظهور مستقلاً عن دعامته الجسدية ويعمل ما يتراءى له كممثل لصاحبه . وقد اعتقد قدماء المصريين أن الحيوانات(هكذا)، هى البا الخاصة بإله ما ، هى مظهره الجسدى ؛ كما يمكن أيضاً أن تكون الآلهة با آلهة أخرى ، أو « نفسها الأخرى » ، والجمع باو . وكانت قوى العمل خارج الشخص الذى تتجسده ؛ أو تتقمصه ، وتدل على المظاهر البعيدة للكائن الحى ، ذلك الجزء القابل للانفصال عنه ، والذى يعمل على مسافة بعيدة . وإنا لنجد أنفسنا مضطرين إلى ترجمة كلمة « باو » بكلمة « قوة » ، ولكن يتحتم علينا الاعتراف بأنها تشير إلى قوة مجردة عن قيود الحيِّز وتستطيع الانتقال بعيداً عن المكان الذى يوجد فيه حاملها . وبالاختصار ، « البا » هى الروح المتجولة للكائن الحى ، القادرة على العمل البدنى .

وعلاوة على هذه المظاهر : الكا ، والآخ ، والبا المتحدة فى الجسم لتؤلف كائناً كاملاً ، فإن شخصية المصرى تشمل عدة عناصر أخرى كالظل والاسم ، التى تُكَوِّن جميعها جوهره نفسه .

الرومان Romans : بعد أن غزا الرومان مصر (فى سنة ٣٠ ق.م.) لم تَعُدْ دولة مستقلة لها عاصمتها الخاصة وملوكها الذين يحيون فوق أرضها ؛ بل مُنحت

مركزاً أقل من مستعمرة امبراطورية ، لأنها صارت مِلْكاً خاصاً لأوغسطس ، ومخزناً للحبوب يمكن استغلاله ؛ وصارت القاعدة المتبعة هى ابتزاز الأموال مهما كانت حالة السكان المادية . ولم تغير سلطة الاحتلال الجديدة شيئاً فى النظام الإدارى الذى وضعه البطالمة . فحل محل الملك حاكم ، بيد أن كبار الموظفين الرئيسيين احتفظوا بوظائفهم . ومع ذلك ، فقد تغير هدف

الإدارة ، إذ لم يعد يحاول إيجاد توازنٍ فى الاقتصاد ، أو تنظيم إيرادات ومصروفات الدولة ، بل كان يرسل الجزية إلى روما التى لم تدفع شيئاً فى مقابلها . ومنذ ذلك الوقت قلما كان للإدارة وظيفة غير ضمان جمع الضرائب بانتظام ، التى كانوا هم شخصياً مسئولين عنها . كان من المحتم على ذلك الاستغلال المنظَّم أن يبوء بنتائج مفجعة ،

منها هجر الفلاحين حقولهم ، وفقر المملكة ، وازدياد قطاع الطرق . فقام الأباطرة ببعض المحاولات لتحسين حال المصريين ، ولاسيما سبتميوس سفيروس ،

الذى غيَّر هيئة الحكام الإقليميين بأعضاء مجلس الشيوخ . بيد أن السبب الرئيسى فى التدهور (الجزية المفروضة) ظل باقياً ،

إذن فلم تكن تلك التغييرات سوى أمور اسمية فحسب . ومنذ القرن الرابع للميلاد ، إذ ضعفت السلطة الإمبراطورية ، ولم تعد مصر جزءاً من الامبراطورية الشرقية ، بل صارت تابعة لبيزنطة . فنسمت الوخاء قليلاً ، وتكونت ضياع عظيمة كانت تتبع الدولة أو الأديرة .

ظلت الاغريقية إبان الحكم الرومانى هى اللغة الرسمية للإدارة ، وبقيت الثقافة الإغريقية سائدة فى الإسكندرية والمدن المتأغرقة فى داخل البلاد . وكانت قوات الاحتلال قليلة العدد وتفتقر إلى الثقافة والعلم ، فلم تستطع تثبيت أقدامها فى المملكة ، أو تمارس نفوذ فكرى . أما المصريون فاستمروا فى عبادة آلهتهم السابقة . فاكتمل بناء المعابد التى لم تتم فى دندرة وفيلة وكوم امبو ، وزُخرفت باسم الأباطرة . ورغم كون هذه الزخارف من طراز مصرى ، فإنها صورة محزنة للفن القديم ، ومازالت الصورة الجنائزية نموذجاً مؤلماً لانحلال الأمة . وكانت بعض أقنعة المومياوات المصنوعة من المصيص وخصوصاً الصور المرسومة على الخشب ، أعمالاً فنية دقيقة ، ولكنها تبرهن ، قبل كل شىء ، على انتصار الهيلينية .

لم يكن منشور ثيودوسيوس فى سنة ٣٨٤ ، القاضى بإغلاق المعابد والذى أصبحت المسيحية بمقتضاه الديانة الرسمية ، كافياً لتدمير المعتقدات الفرعونية القديمة . ورغم أن جزءاً كبيراً من الشعب اعتنق الديانة الجديدة (انظر الأقباط) ، فإن مدن الجنوب ، وخصوصاً أخميم وفيلة ، قاومت زمناً طويلاً ، وبقيت بعض المناطق النائية وثنية حتى الفتح العربى فى سنة ٦٣٩ ميلادية .

الرى : لقد قال هيرودوت ، إن مصر « هبة النيل » . غير أن هذا المثل الإغريقى لا يبين سر رخاء مصر إلا إذا أكمله المثل

« ساعد نفسك يساعدك النيل » . فحتى العصر الحجرى الحديث ، لم يُكَوِّن نهر النيل سوى الحدود الإجمالية لمصر . وكانت تتألف من رقع غرينية جففتها الشمس ، وفروع النهر التي تتعرج وتنتشر وسط المستنقعات . وفي الصيف كانت المياه تغمر الأراضى المنخفضة تاركة الأرض المرتفعة جافة .

بذل الشعب الفرعونى جهوداً جبارة ، حتى نظموا بسرعة بناء السدود في الوادى ، وسيطروا على الفيضان . بدأ هذا العمل محليًّا قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م. بزمن طويل ، إذ تمّ عندما اتحدت مملكتا الشمال والجنوب في عهد مينا ، المؤسس الأسطورى لمنطقة منف . لم تتكون هذه المملكة المركزية المنظمة إلا بالتوفيق بين السيطرة على رواسب الطمى ، وتوزيع المياه على كل جزء من أجزاء المملكة ، وجمع آلاف العمال المزودين بالفئوس والمقاطف فحسب . فإذا حدثت أزمة سياسية ، اختل نظام توزيع المياه ، وبعد فترة قصيرة من ذلك يختل الاقتصاد ويتدهور .

لم يكن هذا العمل أمراً سهلاً . فكان لابد من إصلاح الأراضى بتسوية الأكوام القديمة والجديدة وملء الحفر والمنخفضات وإعداد ضفاف النهر والجزر الجديدة للزراعة ، وكانت هذه الجزر تتكون تدريجياً من الطمى الذى يجلبه النهر . ومع ذلك فلم تكن هناك مشكلة من مشاكل كثرة السكان تضطر المصريين إلى العمل فوق طاقتهم وإجهاد الأرض بكثرة الزراعة .

وقد احتفظ المصريون خلال العصور القديمة كلها بمساحة واسعة من أراضى المستنقعات لصيد الحيوان وصيد السمك وتربية الماشية وزراعة الفاكهة البرية . وأخيراً ، فلكى يمنع المصريون ضياع الماء ، ويَرووا أكبر عدد ممكن من الحقول ، حفروا الترع وسط الأقاليم . كان من الضرورى حفر تلك الترع وتطهيرها وتخطيط مكان مرورها ليُنتفع بها على خير وجه . ولكى يُوَزَّع الماء بانتظام على الأراضى الصالحة للزراعة ، والطمى الذى يجلبه النيل وقت الفيضان ، شيدوا حياض الرى وأحاطوها بحواجز مرتفعة . وفي نهاية الصيف ، كانوا يفتحون عيوناً في السدود في أعلى النقط ، وبعد أن تمر منها الكمية المطلوبة من الماء المحمَّل بالطمى ، تقفل العيون . وبعد ذلك بخمسة عشر أو عشرين يوماً ، يأتى « عيد فتح الحياض » . فإذا ما امتلأت الحياض بالماء ، بدأ العمل ، وبذر الحب . وبطبيعة الحال ، كان الوقت الذى تتم فيه هذه العمليات ، يختلف من مكان إلى آخر تبعاً لارتفاع الفيضان .

الفرق بين الظروف القديمة والحديثة ، هو أن الرى الآن مستطاع طوال شهور السنة ، بينما كان في الماضى لا يحدث إلا مرة واحدة في العام ، ماعدا في البساتين القريبة من الأحواض التى يأتيها الماء بانتظام من مأخذ من النهر .

وفي العصور القديمة ، كان البستانى ينزل على سلالم زلقة ، فيملأ سقاءين كبيرين معلقين من طرفى قضيب خشبى يحمله فوق

كتفيه ، ثم يصعد بها إلى الحديقة فيفرغها فى قناة تصب فى أحواض مستطيلة الشكل . ثم اخترع الشادوف فى الدولة

الرياضة Sport : لم يتضمن أدب الحكمة ، الذى وضعه كُتاب الأخلاق ، شيئاً عن تمرين الجسم والعقل . وأحياناً ما تبين صور الكاتب الناجح ، بطنه الضخم . ورغم هذا ، فهناك قصة تروى أن امرأة هامت بغرام أخى زوجها الشاب عندما أبصرت قوة عضلاته . كُلف الشعب المصرى بالقوة وخفة الحركة والرشاقة . فنرى فى معظم التماثيل ، التى قصد منها أن تدوم إلى الأبد ، خواصر نحيفة ومناكب عريضة . وجد نبلاء قدماء المصريين متعة فى مشاهدة الرياضة والاشتراك فيها ، دون أن يرفعوها إلى مرتبة الطقوس الدينية أو مستوى العبادة ، ولكنهم اعتبروها أحياناً طقوساً حقيقية لضمان النشاط والقوة . وقد صُوِّر على حوائط القبور فى منف ، نبلاء ذلك البلد يشاهدون مباريات المصارعة وقذف الرمح التى يقوم بها شبان عراة الأجسام . وزيادة على ذلك ، كان من الضرورى تقوية أجسام « المجندين المترفين » بهذه الطريقة . وبهذه المناسبة ، نرى ذلك مصوراً بطريقة رائعة فى مقابر بنى حسن . فهناك مصارع مصور باللون الأحمر ، يتبارى مع مصارع آخر ملون باللون الأسود ، فيمسك مصارع أسود آخر أحمر من وسطه ، ويمسك مصارع أحمر قدم آخر أسود ، ويسقط مصارع أسود فوق زميل أحمر . يمسك كل واحد منهما بالآخر ، ويتشابكان أو يحجبان تبعاً للقواعد الأصلية التى حللها أحد خبراء المصارعة الألمان وأقدم دليل على المباريات الدولية ، جاء من مصر إنه صورة تبين مباراة فى « التحطيب » بين الجنود المصريين والأجانب وقد وضعوا خوذات من الجلد على رءوسهم وذقونهم ، وتجالد الفريقان أمام بلاط رمسيس (وبالطبع فاز الجنود المصريون بفضل الملك) .

وإذ لم يقنع الفرعون ونبلاؤه بمشاهدة المباريات كخبراء ، قاموا ، هم أنفسهم ، بالمباريات الرياضية ، بعضهم مع البعض الآخر لإظهار مهارتهم . فذهبوا إلى مستنقعات الفيوم أو إلى مستنقعات الدلتا ، تصحبهم نساؤهم ، يركبون فى الصباح الباكر قوارب صغيرة بيضية الشكل ، لصيد الأسماك بالحراب وقتل أفراس النهر أو صيد البط بعصا الرماية (Boomerang) . وكانوا يذهبون أحياناً إلى ما بعد هليوبوليس أو إلى جوار الأهرام فى رحلات لصيد الحيوان .

وقد صُوِّرت على جدران المقابر ، مناظر صيد الحيوان وصيد الأسماك ، التى كانت رياضة وتسلية منشطتين وصحيتين ، ورمزاً سحرياً للنصر . ويتضح من السجلات التاريخية ، كسجلات أمنحوتب الثانى مثلاً ، وصور الرياضة المرسومة فى المعابد (فى مدينة هابو) ، أن الملك كان مصارعاً جباراً ، ذا « ذراعين قويتين » ، و « خطوات واسعة » ، ومدرب خيول ، وراكب عربات ماهراً ، ونبالاً قوياً ، ومجدفاً بارعاً .

الرياضيات Mathematics :

مصادرها : لم نعرف الرياضيات المصرية إلا من بضع وثائق عبارة عن أربع مخطوطات على أوراق البردى ، ومخطوط على لفافة من الجلد ، ولوحين من الخشب . ويمكن زيادة المعلومات التى نأخذها من هذه النصوص ، بالاستنتاجات الممكن الحصول عليها من الآثار والمظاهر الحضارية الأخرى . وقبل أن نبدأ فى هذه القائمة ، يجب أن نقول ، إن المعرفة المزعومة التى تنسب أحياناً إلى الكهنة العظام المصريين ـ وأشهرها تفسير أبعاد واتجاهات بعض الأهرامات بطريقة خيالية ـ ليس لها أدنى أساس .

كيف كانوا يكتبون الأعداد الصحيحة ؟

تُكتب الأعداد الصحيحة بطريقة بعضها عشرى وبعضها تكرارى فكانوا يكتبون القوى العشرية (المناظرة للآحاد والعشرات والمئات والألوف وغيرها ، فى عصرنا الحاضر) ، هكذا :

١ = 𓏺 ، ١٠ = 𓎆 ، 𓍢 =
١٠٠ ، 𓆼 = ١٠٠٠ ، 𓂭 =
١٠٠٠٠ ، 𓆐 = ١٠٠٠٠٠ .

وكانوا يكتبون الأعداد ابتداء من الرقم الأكبر ، وبعده التالى له فى الرتبة ، وهكذا حتى رقم الآحاد . وهكذا يُكتب العدد ١٣٢١ على هذه الصورة :

𓏺𓎆𓎆𓍢𓍢𓍢𓆼

ولم يكن لديهم علامة للصفر ، غير أن بعض الكتبة المشتغلين بالأعداد ، فكروا فى ترك مسافة حيث يُقصد عدم وجود شىء : فمثلاً ، كانوا يكتبون العدد ٢٠٣ هكذا أحياناً : 𓍢𓍢 𓏺𓏺𓏺

حساب الأعداد الصحيحة : كان جمع الأعداد وطرحها أمراً ميسوراً . أما إذا أريد ضرب العدد فى عشرة أبدل كل رمز بالرمز التالى له فى الجدول العشرى . أما الضرب فى الأعداد الأخرى فيحسب بمجموعة من التكرارات . فيكرر المضروب عدداً من المرات حسب المطلوب . فتختار الأرقام المكونة للمضروب فيه (وتحسب بطريقة التضعيف ـ ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، وهكذا) التى إذا جُمعت صارت مساوية للمضروب فيه . ثم تجمع الأرقام المناظرة لها فى المضروب . فمثلاً ، إذا أريد ضرب ١٥ × ١٣ ، بدأ الرجل المصرى القديم هكذا :

١	١٥
٢	٣٠
٤	٦٠
٨	١٢٠

يقف عند الرقم ٨ لأن ١٣ أقل من ضعف ٨ . ويأخذ الأرقام التى مجموعها ١٣ من العمود الأيسر ، وهى : ١ + ٤ + ٨ ، ويجمع الأرقام المناظرة لها فى العمود الأيمن ، وهى : ١٥ + ٦٠ + ١٢٠ . فيكون مجموعها ١٩٥ ، وهو حاصل ضرب ١٣ × ١٥ . ولا حاجة بنا إلى معرفة أية جداول ضرب أخرى ، ولكن يجدر بنا أن نعرف جدول المضاعفات . فحتى بدون هذا الجدول ، كان بوسعه أن يحصل على الجواب بإضافة العدد إلى نفسه عدة مرات .

وتُقْسم الأعداد بطريقة عكسية للطريقة التى شرحناها الآن . وكان قدماء المصريين يعرفون مربعات بعض الأعداد وجذورها التربيعية دون أن تكون لديهم فكرة واضحة عنها ، كما كان بوسعهم أن يقيسوا المساحات والأحجام .

الكسور والأجزاء المتناسبة : إذا لم يقبل عدد صحيح القسمة على عدد صحيح آخر ، كان من الضرورى استخدام الكسور لبيان خارج القسمة . ومع ذلك ، فلم يفكر المصريون إلا فى الكسور التى بسطها الواحد الصحيح ــ ممثلًا بالرمز ⊂⊃ فوق المقام مثال ذلك : ١/٥ =

⊂⊃

IIIII

غير أنه لم يطرأ على بالهم قط أن يكتبوا كسراً بسطه أكثر من الوحدة ، أو كسوراً موحدة المقامات . فكانوا يختصرون الكسر المركب إلى مجموع كسرين أو ثلاثة كسور مختلفة المقامات ، للكسر الأول منها أصغر مقام ممكن . فكانوا يكتبون ٢/٥ هكذا :

⊂⊃ ⊂⊃

IIIII IIIII

أما ١/٣ + ١/١٥ فتساوى

⊂⊃ ⊂⊃

∩IIIII III

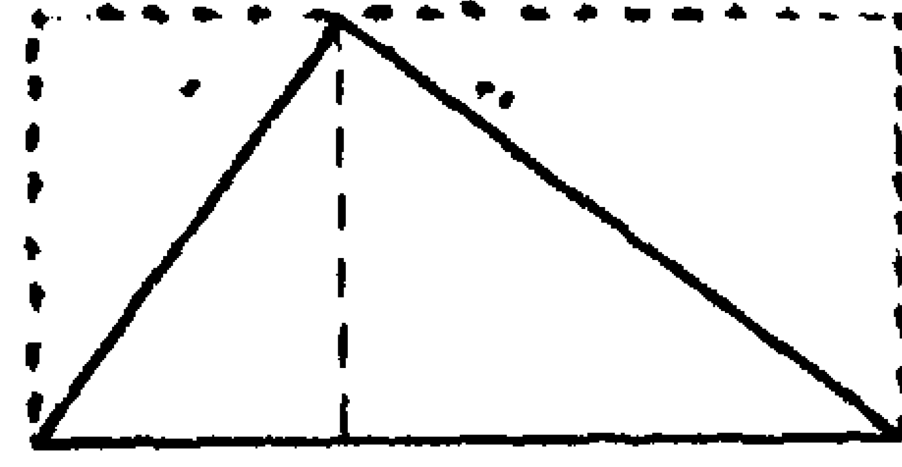
ومع ذلك ، كان هناك رمز خاص للكسر ٢/٥ ، ورمز آخر للكسر ٢/٣ ، ورموز أخرى نادرة الاستعمال للكسور ٣/٤ ، ٤/٥ ، ٥/٦ .

وتقتضى العمليات المشتملة على كسور ، أن تُختزل بحسب الطريقة التى سبق أن شرحناها ، وعندئذ تصبح سهلة سهولة الأعداد الصحيحة . وقد احتاج توزيع المحاصيل للاستهلاك كثرة استعمال التقسيم التناسبى . وربما كان هذا هو السبب فى أن الكتبة كانوا يُفضّلون العمل بكسور بسطها الوحدة ، رغم صعوبة اختزال هذه الكسور إلى كسور بسطها كالمبين آنفاً .

استعمال الجبر والمعادلات : اتُّفِق عموماً ، على أن البابليين هم الذين اخترعوا الجبر وحل المعادلات الجبرية . ويبدو أن المصريين لم يصلوا إلى نفس هذا المستوى من التفكير المجرد ، وإن لم يجمع العلماء على هذا الرأى .

الهندسة : كانت هندسة المصريين مثل حسابهم ذات طابع عملى . وكان الغرض الأساسى منها قياس الأشكال الصغيرة ، البسيطة ، التى يمكن استعمالها لإنتاج هيئات خاصة ، يمكن أن تستعمل لإخراج صور واقعية ، وكانت هذه عادة عبارة عن مساحة حقل أو حجم مبنى أو هرم .

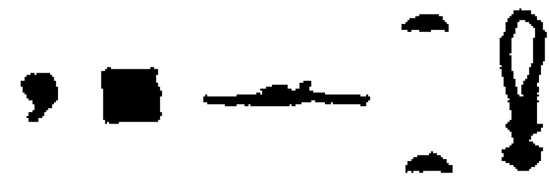
كان علماء الهندسة فى عهد الفراعين يعلمون أن مساحة المستطيل تساوى حاصل ضرب طوله فى عرضه . ويبدو أنهم لاحظوا أن مساحة المثلث تساوى نصف مساحة المستطيل المتحد معه فى القاعدة والمساوى له فى الارتفاع . كما كانوا يعرفون كيف يقيسون مساحة شبه المنحرف .



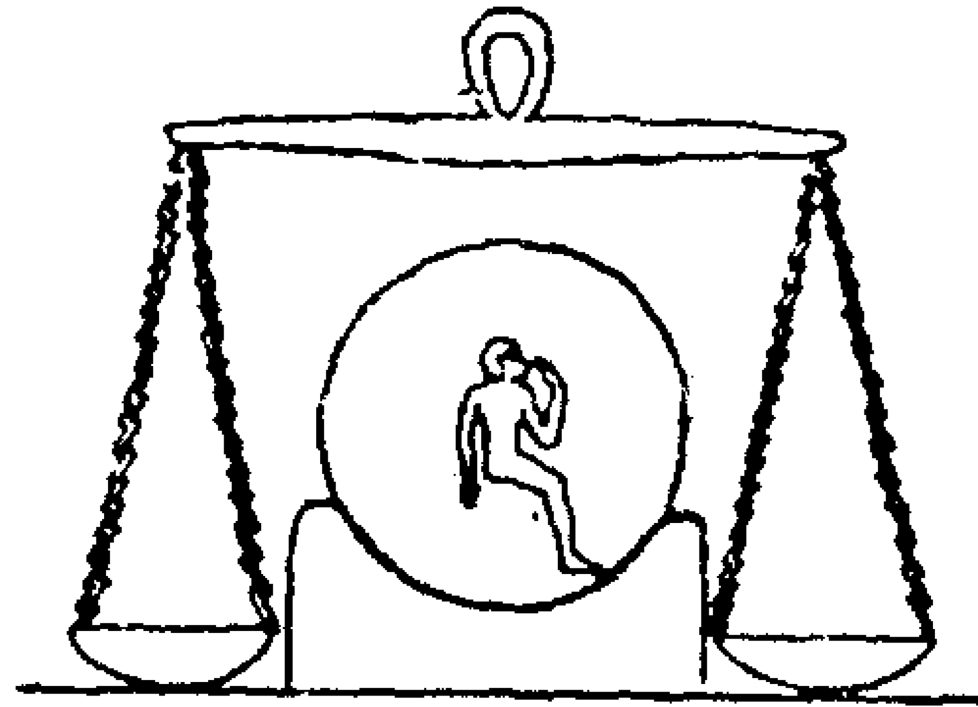
وكانت أشهر انجازاتهم فى مجال الهندسة البسيطة التوصل إلى قياس مساحة الدائرة على أساس طول قطرها ، وذلك بتربيع ٨/٩ طول القطر . وعلى هذا استعملوا القيمة ٣,١٦ وهى مقاربة جداً للنسبة التقريبية المستعملة اليوم (ط π) وتساوى ٣,١٤١٦) . وزيادة على ذلك فإن استخدام هذه النسبة يدل على أنهم كانوا يعرفون أن العلاقة بين مساحة الدائرة ونصف قطرها ثابتة فى جميع الدوائر سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

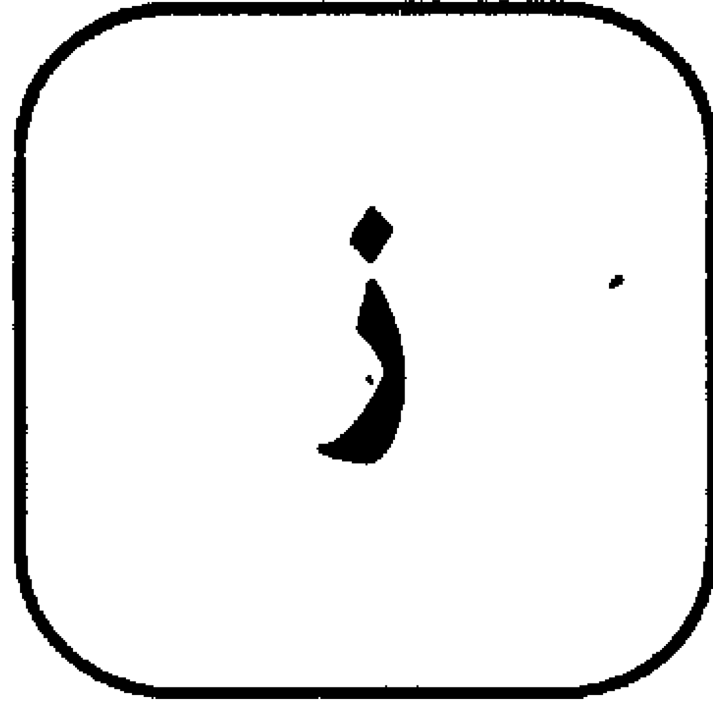
وأخيراً ، لا يدهشنا فى أرض الأهرامات والمسلات أن نعلم أن قدماء المصريين عرفوا كيف يقيسون حجم الهرم والهرم المبتور والأسطوانة وتوصف الوسائل التى استعملوها بأنها تبدو لنا مطولة ، ولكننا ، إذا عبرنا عنها بمصطلحاتنا الحديثة ، انطبقت على القوانين الهندسية الصحيحة .

الوعى الرياضى : تأكد التناقض بين الصفة النفعية (العملية) للرياضيات الفرعونية وبين المستوى الأكثر تجرداً وأشد حيدة، الذى وصل إليه علماء الرياضيات العراقيون . ومع ذلك ، فتتضمن بردية ريند Rhind إشارة إلى جهودهم نحو علم نظرى بحث يبدو لنا رائعاً . وقد كتب المؤلف فى نهاية عملية رياضية عبارة يمكن مقارنتها إجمالاً بالبراهين الرياضية :



« وهو يساوى » ، « وهو هكذا تماماً » وهذا ما يتفق والمصطلح الحديث « وهو المطلوب Quod Erat Demonstratum C.Q.F.D » . وربما كان وعيهم بقوة البرهان الرياضى سابقة لطريقة الفكر الإغريقى .





الزجاج : يمكن صنع مركب كيميائى أشبه بزجاجنا ، بخلط كمية من الكوارتز مع النطرون أو الرماد . وبينما نطلب من صانعى زجاجنا أن ينتجوا لنا زجاجاً شفافاً ، كان قدماء المصريين يريدون مادة لدنة معتمة وناعمة ، وفى لون الأحجار نصف الكريمة .

ينتج اللون الأزرق أو الأحمر أو البنفسجى أو الأخضر باستخدام الأكاسيد المعدنية التى كانت تخلط إذ ذاك كما تخلط اليوم بعجينة الزجاج . عرف قدماء المصريين منذ أقدم العصور كيف ينتجون طبقة لامعة (الفاينس) ، وشكّلوا عدة أشياء صغيرة من الزجاج غير المتقن . وتبدأ خير حقبة لصنع الزجاج فى مصر بعصر الهكسوس . وربما كان مرجع ذلك إلى اتصالهم بالشرق وبالعراق حيث كان أجود أنواع الزجاج يصنع فى ذلك الوقت .

وهناك قوارير عطور جميلة مزخرفة بخطوط متعرجة تحاكى أشعة الضوء ، وهى تبين ذوق وترف بلاط أمنحوتب الثالث (القرن الرابع عشر ق . م .) ، كما كانوا يُصدّرونها أيضاً . ومن أجمل منتجات عصرهم النقوش الهيروغليفية الكثيرة المصنوعة من « عجينة الزجاج » ، (وهذا وصف غير صحيح) .

الزراعة : ظل وادى النيل ذو التربة السوداء منذ العصر الحجرى الحديث حتى الآن ، أرض فلاحين أكفاء ، إذ كان سواد السكان يشتغلون بفلاحة الأرض منذ القدم . وكرّس الفلاح نفسه للعمل فى الحقول الواسعة وفى حديقته الخاصة . ونظمت الحكومة الرى وأشرفت على موارد الطعام (مخازن الحبوب) .

كان الفلاح ، الذى يعمل إما مع أسرته أو ضمن أفراد فرقة ، تبعاً لما إذا كان حراً أو كان مركزه أشبه بمركز العبيد ؛ يعتمد فى حياته على كل ما يمكنه الحصول عليه من الحقول الصغيرة ، وتساعده الأبقار فى حرث الأرض ، والأغنام والخنازير عند البذر ، والحمير عند الحصاد . وكانت هذه الطريقة ناجحة . وهكذا كانت مصر تعيش من محاصيل أرضها ، وتُصدّر فائض المنتجات الزراعية إلى البلاد الأجنبية . لما الاغريق ، الذين اعتادوا تربة المنحدرات

الصخرية والمطر القليل المفاجىء ، فكانوا يعتقدون أن فلاح وادى النيل محظوظ ، إذ يجنى الكثير دون بذل عمل يوازى ذلك الربح الوفير ، فبوسعه أن يغرس البذور فى الطمى الذى يجلبه النيل وقت الفيضان ، وينتظر المحصول دون أى اهتمام أو مجهود . يالها من صورة أقرب إلى الحقيقة ! غير أن الكاتب الإغريقى تناسى تلك الكوارث التى تصيب أرض مصر عندما يأتى النيل منخفضاً ، والمجاعة فى زمن الفوضى ، وأفراس النهر والجراد . كما أنه أهمل عمل السخرة الشاق للمحافظة على ضفاف النيل زمن الفيضان ، وتجاهل حاجة الفلاح إلى استخدام المحراث والفأس والآلات الزراعية الأخرى التى يمكن رؤيتها دائماً فى أيدى الفلاحين ، المصرين على جدران القبور القديمة التى تصور عادة حصاد الغلال والكتان (انظر التيل) . والحقيقة أن هذين القسمين من الاقتصاد الفرعونى ، هما أهم أقسامه .

ومع ذلك ، فإن كانت مصر ، أساساً ، مخزناً للحبوب ومنتجة للتيل الجميل ، فلا يجب أن يغيب عن بالنا أن زراعة الخضروات والفاكهة كانت مهنة هامة أيضاً . فقد أفاد قدماء المصريين من كل شبر فى الحدائق ، بقرب البيوت وفوق السدود . وقد ازدهرت بها زراعة بعض النباتات ، كنباتات الفصيلة القرعية ، على الشواطىء الرملية . ومن النباتات الخاصة بمصر : الفول ، والعدس ، والذرة العويجة ، والحلبة ، والخيار ، والبصل ، والخس ، (انظر مين) . وكذلك كان ازدهار الكروم (انظر النبيذ) وبساتين الفاكهة ملحوظاً . فكثرت فواكه الصحراء ــ التين ، والعنب ، والنبق ، والجميز ، والبلح ، وكذلك الرمان فى الدولة الحديثة ، كما كانت مصر تزرع المحاصيل الزيتية مثل السمسم ، والخروع ، كما بدأت زراعة الزيتون منذ الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنه كان نادراً دائماً . كذلك كان بمصر حدائق للزهور تليق بالشعب السليم الذوق ، الذى أحب باقات الزهور وأكاليلها . ونرى صوراً ملونة لهذه مرسومة على أرضيات القصور ، التى تمثل كبركة تطفو أزهار اللوتس على سطحها وحولها الأقحوان وأزهار الغلال الزرقاء وكذلك النبات المعروف باللفاح mandragore (نبات قوىّ التخدير) ، وكانوا يعتبرون ثماره رمزاً للحب . ويجب ألا ننسى ، ونحن نتكلم عن العمل فى الحقول ، النباتات البرية (الشيطانية) ، التى كانت تنمو فى وادى النيل ، وفى الصحراء ؛ من أعشاب (الكرفس) والريزومات مما يستعمل إما فى طهى الطعام ، أو فى العطور ، والبردى ، ونباتات الزينة مثل اللبلاب والسوسن . ونباتات الصباغة ، والنباتات الطبية مثل شجرة التربنتين ، وما إلى ذلك .

الزواج : كان من تعاليم أحد أبناء خوفو : « إذا كنت رجلاً ذا أملاك ، فليكن لك بيت خاص بك . ولتقترن بزوجة تحبك ، فيولد لك ابن ! » وبعد ذلك بألفى عام ، قال حكيم آخر : « تزوج عندما تبلغ العشرين من عمرك ،

كي يصير لك ابن وأنت لاتزال صغير السن ». وقد طُلب من جتحور الخيرة ، أن تعطى : « الأرملة زوجاً ، والعلراء مسكناً » . وكان من واجبات الرؤساء الإقطاعيين « أن يقدموا الفتيات الصغيرات إلى العزاب » .

إذا كان لنا أن نصدق القصائد الغرامية ، فقد كان المصريون يتوقون إلى تزويج اولادهم ، وكانوا يسمحون لأبنائهم بالاختيار . كانت الزيجات بالأقارب ذوى الدم الواحد هى القاعدة ، تقريباً ، فى العصور الهيلينيستية . ولكن هل كانت الحال كذلك فى العصور السابقة ؟ والحقيقة أن كلمتى « أخ » و « أخت » قد استعملتا فى القصائد الغرامية ، بمعنى « العشاق » . ولكن بتحليل أشجار العائلات لم تتضح أية أمثلة معينة لزواج اثنين من أب واحد . وكان الزواج القانونى بالمحرمات ، امتيازاً ملكياً ، وكان الإله الموجود على الأرض كثير الزوجات ،وله حريم من الملكات ومحظيات نبيلات المولد ، وأميرات أجنبيات .

كان الزواج باثنين من الأمور النادرة بين البشر العاديين . أما الأغنياء فكانت لهم محظيات من الإماء فضلاً عن المسماة « محبوبة البيت » (انظر الأسرة والنساء) .

لم تذكر المصادر ، التى استقينا منها المعلومات ، تلك الطقوس ، التى تبارك الزواج ، ولكنها تدل على بعض عادات شرعية ذات صلة بالزواج . فمثلاً ، ميزت الإدارة بوضوح ، فى المستندات الرسمية ، بين الأعزب ذى المحظية وبين الرجل المتزوج ؛ كان على العاشق أن يأخذ الهدايا إلى بيت فتاته ؛ وكان بوسع الزوج أن يحوّل ثلثى ممتلكاته باسم زوجته (لتصير ممتلكات أولاده بعد مماته) ؛ وكان الزنى بامرأة سبباً للطلاق وقد يؤدى إلى حرق الزانية وهى مقيدة ؛ وكان الزوج يدفع تعويضاً إذا أراد أن يطلق زوجته ؛ وأخيراً ، إذا لم ينجب الزوجان أولاداً ، أمكنهما اتخاذ أمة صغيرة السن ، فإن ولدت للزوج أولاداً أمكن جعلهم شرعيين بالعتق عند وفاته .

زوجات أمون المقدسات (زوجاته المنذورات المقدسات) : ترك المصريون لنا كثيراً من تماثيل النساء أعظمها جمالاً تمثال لكاروماما من البرونز موجود فى متحف اللوفر . ويضم المتحف المصرى بالقاهرة تمثالاً لـ أمنرديس من المرمر وآخر لـ شب ـ إن ـ أوبت المصنــوع من الجرانيت .

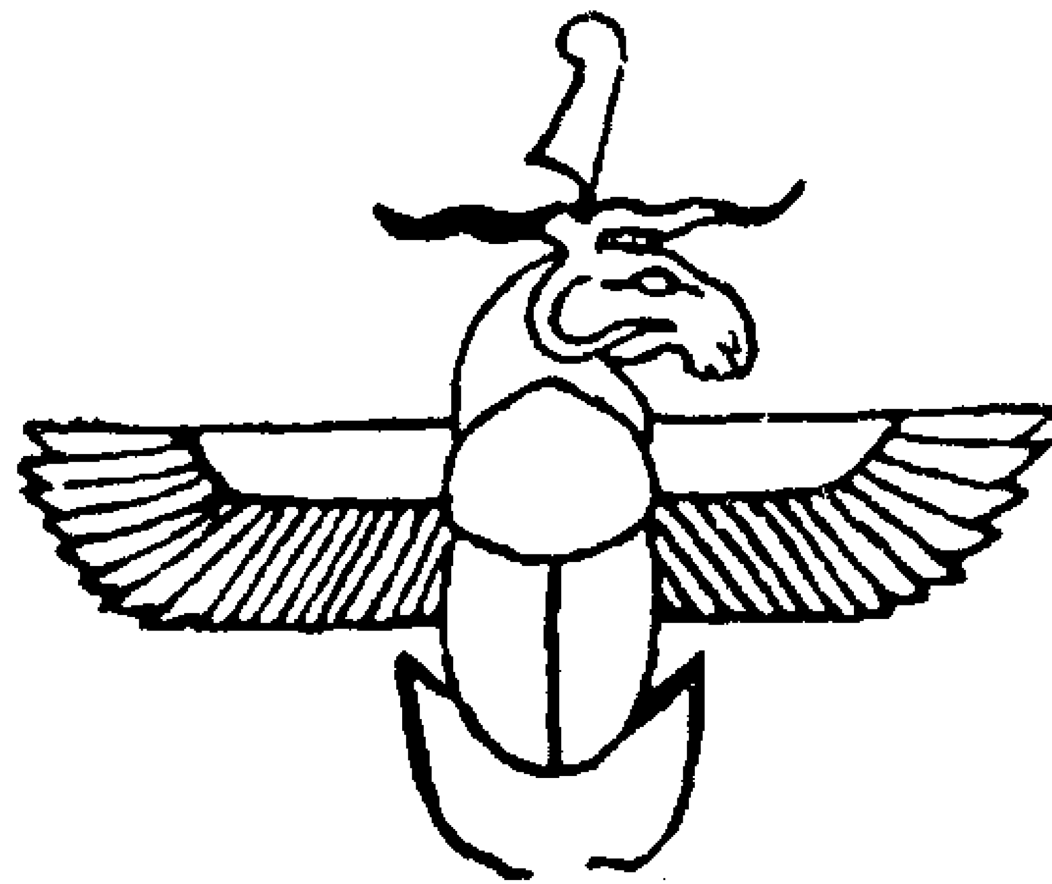
لم تكن تلك السيدات العظيمات مجرد ملكات عاديات ، بل كُنَّ ، فى زمن الملوك الليبيين والأثيوبيين وملوك الصعيد « زوجات أمون المقدسات » ، أى زوجات ذلك الإله من بين الأحياء ، كما كان يطلق عليهن اسم « يد الرب » ، وهذا لقب يشير إلى معتقد قديم من أسطورة الخليقة) .

ومن بين ملكات الدولة الحديثة من كانت زوجة لفرعون ووالدة لأولاده ، وفى نفس الوقت « زوجة الإله أمون » لأغراض الطقوس الدينية . بيد أنه فى عصر لاحق ، منذ عصر الملوك الكهنة (الأسرة الحادية والعشرين) ظهرت احدى العادات ، التى لا يُعرف منشؤها ، واقتضت تكريس ابنة

الملك زوجة لذلك الإله ، وحتمت عليها أن تبقى عذراء وظل هذا الزواج الإلهي على الطريقة البابلية مدة طويلة أمراً غير مفهوم لنا رغم رواية « هيرودوت » . وكانت الزوجة المقدسة ، زوجة لأمون وحده . وأضفت على عبادته عنصراً جنسياً خفيفاً ، إذ كانت تبهج الإله بجمالها وبموسيقى صلصلتها ، وتجلس فوق ركبته وتلف ذراعيها حول عنقه ، وكان لها بيت ، وتُمنَح

خدمات خاصة وأراض وجميع مخصصات فرعون الرسمية . بيد أن سلطتها كانت روحية أكثر منها سياسية . وعادة ما تتبنى أميرة صغيرة السن لتخلفها . وكان على كل حاكم جديد أن يقدم واحدة من أسرته لتكون الوارثة المزعومة للزوجة المقدسة الحاكمة . ويتألف بلاط تلك الزوجة من حريم مكون من محظيات أمون ؛ وكانت خادمات الزوجة المقدسة عذراوات مثلها ويَتَبَنَّيْنَ فتيات خلفاً لهن .

زوسر Zoser أوجسر : نعرف اثنين من ملوك منف ، باسم زوسر ، وكلاهما في الأسرة الثالثة (من حوالى سنة ٢٨٠٠ ـ ٢٧٠٠ ق.م.) . أما زوسر الأول فسُمى على آثاره « حورس نثري ـ خت » . وقد تقدم المعمار في عصره فجأة بخطوات واسعة من البناء بالآجر إلى البناء بالأحجار المسواة . إذ استخدم إمحوتب الموهوب الطرق الفنية القديمة ، التي قلما كانت تستخدم في عصره ، وشيد الهرم المدرج في سقارة للملك زوسر (ارتفاعه نحو ٦٠ م) ، وأحاطه بمجموعة معقدة من المباني الثانوية ، منها مقاصير بائدة من الخشب والغاب ، سرعان ما حوكيت بالحجر الجيري حتى تكاد أن تخدع البصر Trompe d'oeil . وخلف الواجهة المتينة البناء ، يتكون وسط الهرم من الأحجار الصغيرة ويحيط بكل هذه المباني سور مرتفع ذو دخلات وخرجات (يبلغ طول محيطه نحو كيلو متر ونصف) . وقد خلد التاريخ شهرة زوسر . فهناك لوحة بطلمية في سهيل تروى كيف وَضعت معرفة إمحوتب وحسن نية خنوم ، نهاية لسبع سنوات من القحط .



س

ست Seth : شبهه الإغريق بتيفون Typhon (وهكذا صارت كلمة تيفونى التى تشير للشر مرادفة لكلمة ستى) . يقال إن الخنزير والحمار وفرس النهر وغزال الصحراء قد انحدرت جميعاً من هذا الإله الذى يحوطه الشك . أما هو نفسه فاتخذ صورة مخلوق غريب أنيق له جسم كلب الصيد ، وذنب طويل متصلب مشقوق الطرف ، وخطم رفيع مقوس ، وعينان لوزيتان وأذنان طويلتان مستقيمتان . وقد تقدمت

عدة مقترحات عن شخصيته ــ هل هو خنزير ، أم حمار ، أم زراف ، أم كلب ، أم آكل نمل أم أوكابى ! (Okapi) والحقيقة أنه كان وثناً قديماً جدا يضم خصائص مخلوق أو أكثر من المخلوقات الخيالية غير المألوفة الشكل . وتقدِّم أسطورة أوزيريس ، فى رواية بلوطارخ الرمزية ، ست على أنه إله شرير تماماً (انظر الصحارى) . ومن المؤكد أن ذلك الإله الأحمر لم يكن شخصية صديقة . والمعتقد منذ القدم أن الحيوان التيفونى يقترن دائماً بتمثيل العواصف وعوامل العنف . وقد نسبت إليه الأساطير القديمة مقتل أوزيريس وجعلته المنافس الفظيع لحورس الصغير الذى انتزع عينه (ولكى ينتقم منه حورس ، خصاه) . ثم رأى المصريون أنهم بحاجةٍ إلى رب العواصف لدرء خطر أبوبيس « وقف ست فوق مقدمة سفينة رع وطعن برمحه أبوبيس المرعب » . ورغم سمعة ست السيئة إلا أن المصريين ظلوا يمجدون فرعونهم قروناً باعتباره صورة لـ « حورس ست » ! عسكَرَ ملوك المكسوس عند أفاريس ، مدينة ست ، وشبَّهوا هذا الإله بإلههم بعل .ولقب التحامسة (ولتك الملوك المحاربون) أنفسهم بلقب « ست الشديد الغضب » دون أن يلحقهم ضرر من هذا . وكان سيتى ابنه الإلهى ، ورمسيس عابده الوفىّ . ولم يكن هو فى تلك الأيام تمثيل الجفاف ، بل حامى منتجات الواحات .

ومع شهرة أوزيريس بين أبناء الشعب ، حانت نهايته . وفى حوالى القرن الثامن ق.م. بدأ الناس ينشدون الأناشيد احتفالاً بهزيمة ست على يد حورس ، وخصيه ، وسلخه ، وإحراقه وهو مربوط فى وتد . وفى بعض الأحيان كانوا يعيدون صنع تماثيله لتمثل أمون العظيم ؛ فقُطعت الأذنان الطويلتان ووُضع محلها قرنا كبش (انظر الخروف) . بيد أن تماثيله واسمه حطمت من على الآثار القديمة . وحُرِّمت

عبادته فى مدنه . وهكذا صار شيطاناً رجيماً بعد أن كان إلهاً باسلاً .

السحر : عقدت مباراة بين النبى موسى عليه السلام وسحرة فرعون ، فدمرهم بيبب خداعهم بأن ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ابتلع كل ثعابينهم ، فخرُّوا له ساجدين . وما أسرار المقابر الملكية المروِّعة ، وقصص الخوارق إلا خزعبلات ، رغم رسوخ الاعتقاد بحلول لعنة الفراعنة على منتهكى حرمة المقابر . جعلت كل هذه الأمورُ مصرَ القديمة دولة السحر . والحقيقة أن السحر كان يحكم فى أرض الفراعين ، وليست الأسطورة التى أسكنت وادى النيل بالسحرة خطأ ، والبرهان على هذا سهل ميسور : فتدل القصص الشعبية والتمائم وتلك التعاويذ المكتوبة التى تملأ خزائن المتاحف ، على أن السحر قد جاء واستقر فى أرض السحرة .

يوجد السحر فى كافة المجتمعات كعنصر اجتماعى . ومن الخطل أن نتكلم عنه فيما يختص بمصر وحدها ، غير أنه من الممكن أن نذكر مبدأين من مبادئه الأساسية ، وكلاهما قائم على فكرة وجود تجاذب خفى بين الأصوات المتشابهة أو فيما بين الأجسام المتشابهة .

كان السحر أولاً وقبل كل شىء إيماناً مطْلقاً بالقوة الخلّاقة للصوت . لم يَعْتبر الشخصُ البدائى اسم الكائن الحى أو الجسم وسيلة عملية لتسهيل تبادل الآراء بينَ الناس ، بل اعتبره الكائنَ الحىَّ أو الشىء نفسه . فمجرد النطق باسم ، كان يخلق ذلك المخلوق أو الشىء . وتزخر قصص الخليقة بفقرات تنص على أنه ما على الخالق إلا أن « ينطق » باسم كل عنصر من مكونات الخلق حتى يبادر ذلك العنصر فى الحال بأن يأخذ مكانه المعيَّن له . والمبدأ الثانى ، أو الظاهرة الثانية فى السحر المصرى ، هو القوة الخلاقة للتمثال . فكما أن النطق باسم إلهٍ ما ، كان يأتى به فى حضرة الإنسان ، كذلك كان صنع تمثال أو عمل صورة لرجل أو لشىء ، ينقل إلى ذلك التمثال الجديد أو الصورة جزءاً من الشخصية الروحية لذلك الرجل أو الشىء ، وهناك وجهة نظر أخرى تقول بأنه كان يمدّ الإنسان بوسيلة للسيطرة على ذلك الرجل أو الشىء . وتدخل جميع الطقوس السحرية التى استخدمت التعاويذ والصيغ ، فى نطاق المبدأ الأول من هذين المبدأين . ويشتمل المبدأ الثانى على كل محاولة لتمثيل « الحقيقة » أو الكائنات باستخدام الصور والتماثيل . فاستعمل هذا المبدأ فى عدة أغراض ، منها حصول الشخص الميت على مائدة زاخرة بالأطعمة ، أو لدرء الخطر ، وقت الحاجة ، بتحطيم تمثالِ العدو .

الآن ، وقد عرفنا هذين المبدأين ، فلننظر فى كيفية استخدام السحر المصرى : استُخدم السحر لحماية المخلوقات البشرية ، وفى بعض الأحيان ، لحماية الآلهة . وفى أغلب الأحوال ، كانت استعمالاته دفاعية فحسب . « أعطى الرب البشر السحرِ كسلاح ضد الشدائد وعاديات الدهر » . فاستعملت

الطلاسم للأغراض الدفاعية ؛ وكانت على هيئة تمائم لحماية الجسم من الأذى . يفسِّر هذا الاعتقاد ذيوع استعمال الرُّقَى فى الطب . فلكل مرض أعراضه الطبيعية وعلاجه المناسب . بيد أنه من الممكن أن يوجد خلف هذا المظهر الطبيعى الواضح الأثر سبب غير مادىّ نتيجة مشيئةٍ ما معادية . وربما كانت هذه مشيئة إلهٍ أو شيطان أو شبح أو روح شريرة أو جنى شريرٍ فبينما يصف الطبيب العقاقيرَ المسكِّنة للألم ، يهاجم الساحر سبب المرض . وتحت تصرُّف الساحر عدة وسائل يعرفها علماء النفس ، منها : النقل ، ويتلخص فى وضع حيوان قرب الشخص المريض ، وتلاوة بعض التعاويذ ، فتخرج الروح الشريرة وتدخل جسم الحيوان ؛

والتقمص : فيدّعى الساحر أنه إلهٌ ما ، ليأمر الروح الشريرة ، أو ليُذَكِّرها بأنه لا سلطان لها على المريض . وتحتوى النصوص الدينية على عدة فقرات طويلة من هذا النوع الأخير ، يشبِّه فيها كل جزء من جسم الإنسان بإله حتى لا يمتد إليه أى أثر خبيث . وفى بعض المناسبات كان الساحر يستخدم التهديدات ، التى ربما كانت امتداداً للفكرة السابقة ، فيصل مصير الشخص المريض بمصير الكون « إذا لم يُشْفَ هذا المريض ، فستقع السماء فوق الأرض ، ولن تشرق الشمس بعد ذلك » إلى غير ذلك من الوعيد . ويتضمن التهديد بهذه الكارثة أن يهلك الشخص المسئول عن ذلك المرض ، أو الإله الذى بوسعه أن يطرده ويتقاعس عن انقاذه .

هناك أغراض أخرى لهذا السحر الدفاعى ، منها : تهدئة مخاوف الناس من أن تعود تماثيل معينة إلى الحياة فى أية لحظة . فتُقطع أوصال جميع الحيوانات المستعملة كرموز هيروغليفية إذا كُتبت فى نصوص الأهرام مثلاً . وتنتزع أجزاء من أجسام الأسود والأفاعى والعقارب حتى تصير عديمة الأذى . وكثيراً ما كانوا يثقبون صور المخلوقات المعادية ، بالسهام أو بالسكاكين حتى تغدو أشبه بحامل الدبابيس . فإن طرأ على بالها فكرة خاطئة لكى تعود إلى الحياة ، أرجعتها هذه العملية إلى صوابها .

وعلاوة على ذلك ، كانوا يكتبون بالمداد الأسود ، فى خطتهم التنظيمية عن الأشياء ، رموزاً فى عناوين الموضوعات المكتوبة على أوراق البردى ، لها علاقة بإلهٍ ما ، أو بشخصٍ خيِّر (كان اللون الأحمر خاصاً بست والقُوَى الشريرة) .

أخذ استعمال التماثيل فى الشفاء من هذا السحر الوقائى . فيوضع تمثال رجل أو إله ، بعد ملء جسمه كله بالرموز السحرية المضادة للأفاعى والتماسيح والعقارب ، فى مكان يؤمه الجماهير (كالمعابد الموجودة على مشارف الصحارى ودروبها ، أو المستشفيات القائمة بجانب المعابد) .

ويكفى أن يُصَبَّ قليل من الماء فوق هذا التمثال ، وأن يُشْرَبَ سائل مشبَّع هكذا بتلك القوة السحرية ، فيقى من الخطر ، أو يشفى جرحاً سبق أن أُصيب به الشخص .

يستعاض عن هذه الطريقة أحياناً بطريقة عملية أسهل تنفيذاً ؛ وذلك بأن

تُكتب تعويذة سحرية على قطعة من الفخار أو من ورق البردى ، وتوضع فى سائلٍ ما ، ثم يُشرب ذلك السائل . وبهذه الطريقة يمر السحر المكتوب إلى داخل جسم الشخص الذى يشربه .

وبطبيعة الحال ، استخدمت الدولة السحر لحماية مصر وملكها من أى هجوم يشنه أعداؤهما الأجانب . فكانت هناك طرق عدة كلها مصحوبة بالسحر « الشرى » فتُصنع تماثيل صغيرة ويُكتب عليها أسماء الأمم ، أو أسماء رؤساء القبائل التى يرهب جانبها . ثم تُقطع أوصال هذه التماثيل ، أو توطأ تحت الأقدام ، أو تحرق أو تدفن ، كى يصبح من تمثلهم عديمى الضرر . وقد استعمل الكهنة نفس هذه الطريقة ضد التنين أبوبيس Apopis وست وحلفائهما .

إلى نفس هذا النوع من السحر ينتمى الصيد بالشبكة . ليس صيد الطيور والأسماك فحسب ، بل والأشخاص أيضاً . وكثيراً ما صُوِّرت هذه الطريقة على جدران المعابد . أما استخدام السحر الضارّ فى الأغراض الشخصية فكان نادراً جداً . ومن أمثلة هذا النوع ، ذلك المجرم ، الذى أخذ ، فى عهد رمسيس الثالث ، بعض النصوص السحرية الملكية ، وصنع تماثيل من الشمع وبعض التعاويذ لكى يُلقى تعويذة على حرس الحريم . وبنفس هذه الطريقة إذا تُليَتْ تعويذة على تمثال من الشمع لتمساح حوّلته إلى تمساح حقيقى . وبمثل هذه الطريقة استطاع الكاهن المرتل أوباونر Ubaoner أن يزيح من طريقه أحد منافسيه . وتوضح قصص السحر فى العصر البطلمى وأوراق البردى السحرية الخاصة بالدولة الحديثة ، والنصوص القصيرة التى تتضمنها كتب السحر فى عصور متأخرة ، أمثلة أخرى لمثل هذا السحر العدائى الخبيث .

لعب السحر دوراً هامًا فى الحياة اليومية بمصر القديمة . وكان دفاعياً بصفة عامة ، وعدائيا فى حالات نادرة ؛ واستُعمل لمصلحة الدولة والمعابد ، ولفائدة المرضى ومن كانوا يخافون الإصابة بالمرض . كان وقاية ضد الأشباح وضد الحوادث . وكان يقى الموتى شر الشياطين فى العالم السفلى ، ويجنبهم الموت مرة ثانية ويحفظهم من الجوع إذا أهمل أقاربهم الأحياء تزويدهم بالتقدمات . وفى بعض الأحيان كان يضمن النصر فى المواقع الحربية ، والحظ الحسن . وكانوا يزودون تاج الملك بالسحر ؛ كان هو الربة « العظيمة السحر » . وكان الناس ، فى أماكن متناثرة يعبدون إلهاً يسمى « السحر » ، هو تمثيل قوة الحركة التى جعلها الإله الأول تعمل ، عند بدء الخليقة .

سخمت Sekhmet : المعنى الحرفى لكلمة سخمت هو « القوية » . كانت هذه ربة لبؤة ، لها معابد أينما ذهب الأسود لشرب الماء ، وكان مقر عبادتها فى منف حيث اعتُبرت زوجة بتاح ووالدة نفر توم إله اللوتس . واعتُقد أنها مظهر لعين رع فى حالة غضبه ومهلكة أعداء الشمس . غير أن الناس عرفوا كيف يقيمون طقوس

« ترضية سخمت » لجعل هذه الربة المتعطشة للدماء ، وسيلة رسل الموت ، وسبب الأوبئة ، ربة خيرة . فمن عرفت كيف تقتل تعرف كيف تشفى ، وهكذا كوّنَ « كهنة سخمت » جمعية من أقدم جمعيات الأطباء والجراحين البيطريين .

أضاف امنحوتب الثالث عدداً من التماثيل الجالسة لهذه الربة فى معبد موت (بالكرنك) وفى معبده الجنائزى . ويوجد عدد كبير من هذه التماثيل ذوات رأس اللبؤة ، يزيد متوسط ارتفاعها على ستة أقدام ، ومنحوتة فى حجر الديوريت الأسود . وقد عُثر منها للآن على ٥٧٥ تمثالاً ، منها حوالى ٣٠ تمثالاً بالمتحف البريطانى .

السفر والرحلات : لا شك أن قدماء المصريين قاموا بأسفار كثيرة داخل حدود بلادهم ولا يبدو أنهم كانوا يسافرون بقصد النزهة أو الفرجة . ولاتزال النقوش التى على حوائط المقابر أو المعابد تحتفظ بتسجيلات لرحلات التفتيش أو الحج بدلاً من رحلات المتعة . ولا نعرف سوى القليل من السجلات التى تصف رحلات النزهة . أحدها منقوش على حائط معبد صغير فى سقارة ، يقول : « فى سنة ٤٧ (من حكم رمسيس الثانى) ، فى الشهر الثانى من الشتاء ، قام هادناختى Hadnakhty ، الكاتب بإدارة الخزانة ، برحلة لمتعته الخاصة ، إلى غرب منف ، مع أخيه پا ـ ناختى Panakhti ، كاتب الوزير » . فأوحى إليه منظر الصحراء والمقابر والجبانات بأفكار الخلود ، فقال : « أيا آلهة منف الغربية جميعاً ، ويأيها الآلهة الحاكمة فى أرضها المقدسة ، أوزيريس وايزيس .... امنحونى عمراً طويلاً كى أخدم أرواحكم « الكا » ، وعسى أن أحظى بدفن فخم فى سن متقدمة جداً ، حتى يمكننى أن أرى منف الغربية كرجل موقر ! » بيد أن هذه المخربشات كثيراً ما تعبر عن الإعجاب بالآثار القديمة ، كما يتضح من بعض النصوص المكتوبة بالخط الدارج فى ميدوم وبنى حسن وسقارة ، فيقول بعضها : « جاء الكاتب أموزيس ليرى معبد زوسر . فأبصره كما لو أن السماء كانت فيه ، والشمس تشرق بداخله » . ثم يقول : « عسى أن ينهمر الخبز والماشية والدواجن وجميع الأشياء الطيبة والنقية ، من السماء لأجل « كا » زوسر ، عسى أن تصب السماء بخوراً فواحاً ، عسى أن تقطر منها العطور ! » وقد شغف المصريون بحب آثار العصور القديمة ، كما يتضح هذا جلياً منذ عصر سايس ، بيد أن السياحة لم تبدأ فى وادى النيل إلا منذ عصر الإغريق .

السفن : دهش المؤرخون البحريون للرسوم التفصيلية المصرية ولنماذج السفن الصغيرة والسفن الأصلية نفسها (قوارب الشمس) والمصطلحات التى تكاد تؤلف معجماً فنياً كاملاً يبين شتى أنواع السفن ومعداتها . ألم المصريون بالملاحة فى النيل والبحيرات والترع والبحر منذ زمن موغل فى القدم . فاخترعوا أطوافاً متينة من حزم البردى ، فى أقدم العصور . وكان صيادو السمك وصيادو الحيوانات يجوبون

المستنقعات كما يفعل الزنوج حتى اليوم فى منطقة بحر الغزال . وحتى فى عصور ما قبل التاريخ ، كان لديهم سفن جميلة مزودة بمقاصير وتدفعها عدة مجاديف . وإبان العصر الفرعونى كله ، كانت هناك أحواض دائمة لبناء السفن تستعمل أخشاباً من مصر نفسها وأخشاب أرز لبنان . تسير تلك السفن بالمجاديف ، مجموعة منها على كل جانب ، وبشراع على هيئة شبه منحرف مثبت بحبلين ، ويعمل من المؤخرة بحبلين رئيسيين ، فوق سارية مزدوجة أو مفردة ، قابلة للطى غالباً . ويعمل مجداف واحد مثبت فى المؤخرة ، عمل الدفة ، أو يحل محلها مجدافان واحد على كل جانب من مؤخر السفينة ، ويرتكزان على قائمى الكوثل (المؤخرة) كما لو كانا رافعتين .

(فيرفع مرشد السفينة هذا المجداف أو ذاك بواسطة حبل لكى يقود سفينته) . وأقدم القوارب التى ليس لها ضلوع ، مصنوعة من عدة ألواح كبيرة موضوعة واحداً فوق الآخر كما تُرص مداميك البناء ، ومثبتة فى مواضعها « بحوابير من الخشب » أو بالحبال ، والشقوق التى بينها مسدودة بالصمغ . زودت تلك السفن بظهور ، وزيد فى عدد المقاصير ، وأُدخلت تحسينات على طرق الصنع ، بيد أن الشكل العام للسفن لم يتغير كثيراً قبل العصر الصاوى ، إذ حوَّلَ الفينيقيون والإغريق الأسطول إلى النوع الحديث .

لم تفتقر البحرية الفرعونية إلى شهرة ، فقد كان بوسع ترسانات بناء السفن أن تُنزل إلى الماء سفناً طولها ٦٠ م أو أكثر . أما « سفن الملوك » العظمى ، فكانت ذات أسماء طنانة ، مثل « يتجلى تحوتمس فى منف » ، ويلبس المجدفون شباكاً من الجلد تقيهم من النبال ويسيرون بالجيش الظافر . كان لمصر أسطول تجارى يتألف من ألف سفينة تحمل كنوز الإمبراطورية من سوريا إلى السودان . وكان هناك تخصص عظيم فى نماذج السفن : فهذه سفن طويلة قلما ترتفع أطرافها ، وتلك سفن نقل قصيرة ومقوسة عند طرفيها ، وغيرها صنادل لنقل الحبوب والأحجار ، وسفن لنقل الماشية والخيول ، و « سفن ضخمة » ، و « سفن لثمانية » ، وسفن « لتمخر عباب البحر » و « سفن بيبلوس » (هناك التباس فيما إذا كانت مصنوعة فى بيبلوس أو للسفر إلى بيبلوس) ، وسفن تحوتمس الكريتية ، والسفن الحربية التى أعدها ملوك الرعامسة لمقاومة القراصنة ، وغير ذلك من السفن .

سفينة الشمس Solar Barque :

كان للشمس سفينتان فى البحر السماوى (انظر رع ، وصورةالكون) : سفينتا الكون اللتان صارتا اليوم أقل شهرة مما كانتا فى عهد خوفو . وقد وجدت فى مقابر العصر الغابر ، بجانب بعض القبور الملكية ، من حفرة إلى خمس حفر بشكل القارب ، وتحتفظ غالباً ببقايا سفينة . وفى سنة ١٩٥٤ م . ، لوحظ صُدفةً وجود حفرتين مسقوفتين ، عند قاعدة الوجه الجنوبى للهرم الأكبر . فُتحت إحداهما باحتفال ؛ وعثر فى قاعها على سفينة ذات كوثل بشكل البردى . كانت هذه السفينة مفككة ، غير أنه لا ينقص منها أى جزء ، من هيكلها إلى

سقف المقصورة . وبعد ذلك جاء خبراء من متحف القاهرة وأعادوا تركيب هذه السفينة البالغ طولها حوالى ٤٠ م ، قطعة قطعة ، فى الجيزة . إنها سفينة مدهشة ، مصنوعة من قطع متقنة النحت من خشب الأرز ومتصلة ببعضها بالحبال .

رأى بعض العلماء أن هذه السفن دفنت فى المقابر كى يُشَبِّه المتوفى نفسه برع . وكثيراً ما نقرأ أو نسمع تسمية « مركب الشمس الجيزة » ، بيد أن هناك نظريات معقولة أخرى عن طبيعتها : من الممكن أن تكون سفناً للانتقال فى عالم الآخرة ، أو سفناً جنائزية تعمل بوجودها على استمرار فاعلية الطقوس ، أو سفناً للذهاب لاستعادة الحياة فى الأماكن المقدسة . والحقيقة أن جميع السفن التى من هذا النوع ، معروفة من الطقوس الجنائزية . ومن الأفضل أن ندعوها الآن سفينة خوفو ونأمل ان نرى أنموذجاً لها يتهادى على صفحة النهر مثل سفن « روح الآلهة » و « نجم مصر » ، اللتين قادهما القائد البحرى الملكى مر-إب فى رحلاتها باسم والده خوفو منذ ٤٦٠٠ سنة خلت .

سقارة **Saqqara** : قد يظن المرء لأول وهلة أن هذا الاسم تخليد لذكرى الإله الجنائزى سوكر . بيد أن قصص التاريخ العربية تقول إن سقارة اسم قبيلة بدوية عاشت بتلك القرية فى العصور الوسطى . تقع سقارة على مسافة ٢٨ كم جنوبى القاهرة ، بين خرائب منف والهضبة التى وجد فيها أكثر من عشرين ملكاً ، وهيئة كاملة من النبلاء ، وبعض سكان العاصمة « مكاناً سعيداً للدفن » ، فى الأزمنة القديمة . لا تُذَكِّرنا سقارة إلا بجبانة فسيحة الأرجاء يبلغ طولها حوالى ٤١/٢ من الأميال . ولقد صار « سهل المومياوات » هذا حافظاً لشعائر العصور القديمة ومزاراً عظيماً للسياح القادمين لزيارة مصر . وما يُدهش له المرء ، أن سقارة تؤلف موسوعة لعلم الآثار المصرية وللتاريخ والفن . فهناك المقابر الملكية الخاصة بالأسرة الأولى ، ثم هرم زوسر . ثم الأهرامات الملكية للأسرتين الخامسة والسادسة المزينة بالنقوش الجنائزية القديمة ، وتحيط بها المصاطب العظيمة المدفون بها النبلاء أمثال تى ميرا وغيرهما من الأشراف الأكثر تواضعاً . والسبب الأول فى زيارة الناس لسقارة هو ما بها من آثار الدولة القديمة ، ثم إن بها ما يمثل كل عصر ، من أهرامات الدولة الوسطى المهدمة و هياكل الدولة الحديثة التى تنتشر نقوشها البارزة الدقيقة الصنع بين متاحف العالم الآن ، إلى مدافن الأريستوقراطيين فى الحقبة المتأخرة ، مخبأة على مسافة عميقة فى قاع حفر ضخمة . كما لا يجب أن ننسى المكانة الرفيعة للوثنية ، والسيرابيوم ودير القديس ارميا القبطى .

سنفرو **Snefru** : هو أول ملوك الأسرة الرابعة (حوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م.) . له هرمان فى دهشور ، كما أتم الهرم المدرج فى ميدوم الذى دفن فيه حونى ، آخر ملوك الأسرة الثالثة .

ويدل ذلك على أن سنفرو كان بالغ القوة حقاً . عُرف هذا الملك ، الذى انتصر فى غارات على ليبيا والنوبة ، من الأدب اللاحق الذى وصفه بأنه « ملك طيب جداً » ، حُرّ وخير . ويقال إنه كان يُحيّى عامة الشعب كما لو كانوا أصدقاءه ، يخاطبهم بقوله « يا صديقى » ، أو « يا رفقائى » . وخلفه على العرش الملك خوفو .

سنوسرت **Sesostris** : اسم لثلاثة ملوك فى الأسرة الثانية عشرة .

سنوسرت الأول **Sesostris I** : (من سنة ١٩٧١ — ١٩٢٨ ق.م.) ، هو ابن أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، اشترك مع والده فى الحكم لمدة عشر سنين « أخضعا البلاد الأجنبية » خلالها . وعندما رجع ظافراً من حملة على ليبيا ، علم بموت والده ــ ومن الجلى إن ذلك كان اغتيالاً (١٩٦٢ ق.م.) ــ فتأثر لذلك النبأ وهُزَّ كيانه ولكنه « لم يتوان لحظة واحدة . فأسرع الصقر قُدُماً مع رفقائه دون أن يخبر الجيش بشىء » . فأحبط رجوعه بسرعة حرباً أهلية فى مصر . فلما مرت الأزمة ، وضع سنوسرت سياسة للتوسع لم تحلم مصر بمثلها . فانتصرت جيوش هذا الفرعون إلى مسافة بعيدة وراء الشلال الثانى . وأقام حصناً بعد الشلال الثالث . فتدفق على العاصمة ذهبُ بلاد النوبة ومنتجات السودان . أما فى آسيا فقامت حركة دبلوماسية عنيفة وسّعت أفق نفوذ مصر . وكان استغلال المناجم والمحاجر على أشده ، وامتلأ وادى النيل بالآثار تمجيداً للآلهة ، وزخرفت بنقوش من الكتابة ذات عبادات مستفيضة تشيد بقوة ذلك الملك وبانتصاراته . « إنه فى الحقيقة فارس مقدام ، يقهر بذراعه اليمنى القوية ، فهو رجل عمل منقطع النظير » .

سنوسرت الثانى **Sesostris II** : (من سنة ١٨٩٧ — ١٨٧٩ ق.م.) : لا نعرف عن حكم هذا الملك سوى القليل .

سنوسرت الثالث **Sesostris III** : (من سنة ١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق.م.) : أوصل الأسرة إلى ذروة قوتها ، وأخيراً قضى على سلطة النبلاء الذين استقلوا بحكم الأقاليم عن التاج . وغزا جنوب النوبة وضمه إلى مصر وبلغت حدود مصر فى عهده جنوباً ، حتى سمنة الواقعة جنوبى الشلال الثانى وأقام حصوناً من سمنة إلى الفنتين لحماية المواصلات . وفى الدولة الحديثة عُبد سنوسرت الثالث المتأله فى تلك المنطقة . وفى الشمال ، قاد هذا الملك بنفسه الحملة الحربية البعيدة المدى الوحيدة ، والتى لدينا سجل عنها إبان الدولة الوسطى . فاستولى على سيخم Sichem فى جبل إفرايم . وبهذه الحملة زادت سلطة مصر على فلسطين وسوريا . وتقول ترنيمة لسنوسرت الثالث : « ذلك الذى يبيد القبائل دون أن يضرب ضربة ، ذلك الذى يطلق السهم دون أن يمس القوس » .

ما من فرعون قبل هؤلاء نال مجداً

كمجدهم . ولكن ذاكرة التاريخ خلطت بين أمجادهم ، وطمس الزمن تفاصيل تاريخهم . واحتفظت الأساطير الشعبية بطابع سنوسرت واحد ، هو البطل الأسطورى ، الذى بولغ فى قصته بمرور القرون ، حتى بلغت المؤلفين الكلاسيكيين الذين رووا أعمال ذلك الفرعون الرائع ، بأسلوب جذاب . ذلك الفرعون الذى قهر العالم كله ، والذى كان أعظم ملك عرفه التاريخ .

سنوهى **Sinuhe** : لقصة سنوهى التى كُتبت فى الدولة الوسطى شهرة خاصة فى مصر . فحتى بعد أن مضى عليها ثمانمائة عام ، ظل تلاميذ مدارس الكتبة ، على الضفة اليسرى للنيل ، فى طيبة ، ينقلون فقرات منها كتمرينات . والحقيقة أنها جديرة بتلك الشهرة التى نالتها ، وقال كيبلنج **Kipling** إن هذه القصة تعد بحق من روائع الأدب العالمى . إنها تاريخ حياة أحد رجال حاشية أمنمحات الأول ، إذ هرب من مصر عند موت الملك خوفاً من وقوعه فى المشاكل السياسية التى أحس بأنها ستحدث على مسألة تولى المُلك . عبر سنوهى الدلتا ، وأفلح فى مغافلة الحراس عند الحدود ، وسافر عبر البرزخ إلى السويس حيث وجد نفسه فى الصحراء وكاد يموت من الظمأ . غير أن البدو ساعدوه ، وصار مع أصدقائه الجدد هؤلاء مرتحلاً وسط فيافى الصحراء ، ثم صار رئيس قبيلة وباتت له أسرة . وتصف هذه القصة بأسلوب جذاب مزخرف ، شتى مراحل حياة سنوهى الجديدة ، وصراعه مع منافس غيور ، وانتصاره ، والرخاء المادى الذى تمتع به . غير أنه لم ينس وطنه البعيد وبرّح به الشوق والحنين إليه . وبعد ذلك صدر قرار من الملك الجديد سنوسرت الأول بالعفو عنه ودعاه إلى العودة إلى مصر . وتختم القصة برجوعه إلى وطنه وتصور وصوله إلى البلاط و تهيبه للقاء الملك الذى دهش لهيئته البدوية ثم حياته الجديدة التى منحها ، والمقبرة الفخمة التى أُعدت له بجانب مقابر الأمراء الملكيين .

سوبك **Sobek** : (انظر التمساح) .

سيتى الأول **Seti I** : (من حوالى سنة ١٣١٢ — ١٣٠٠ ق.م.) . هو ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، وابن رمسيس الأول ، ووالد رمسيس الثانى ، شريكه فى الحكم قرب نهاية مدة حكمه . وقد وطد السلطة المصرية فى فلسطين وقاوم الحيثيين بنجاح ، وعقد معهم معاهدة سلم . ولاتزال عدة آثار من عصره باقية ، وهى جديرة بالمشاهدة ، إذ بلغ فن النقش البارز أوجه فى ذلك العصر . فهناك المنونيوم **Memnonium** العظيم ، فى أبيدوس ، وقد أعجب به سترابو ، وهناك معبد القرنة الجنائزى فى طيبة ، وبهو الأعمدة المسقوف بالكرنك ، وكان قد بُدىء فى تشييده قبل ذلك ثم زُخرف فى عصر سيتى الأول بمناظر طقسية وصور على الحوائط الخارجية تبين انتصارات ذلك الملك على البدو ، والليبيين ، والأموريين فى قادش ، والحيثيين .

وفى سنة ١٨١٧ م ، قامَ بلزونى بالحفر فعثر على قبر سيتى ، وهو أجمل قبر بوادى الملوك . ومسلة فلامنيوس القائمة الآن فى روما (فى ميدان الشعب) قد صنعت بأمر سيتى لمعبد هليوپوليس .

سيراپيس Serapis : هو إله أُدخل مصر فى عهد بطلميوس الأول ، وكان هدف من أدخلوه أن يشترك الإغريق والمصريون فى عبادته . فاستعار بعض خصائصه من أوزيريس ، بيد أن أهم صفاته كانت هيلينية تذكرنا بصفات زوس وأسكليپيوس وديونيسوس . انتشرت عبادته من الإسكندرية (حيث اعتبر السيراپيوم من عجائب الدنيا) وانتقلت عبادته إلى بلاد منطقة البحر المتوسط ، على يد التجار وعباده الذين اهتدوا إلى عقيدته بعد أن منّ عليهم بالشفاء . ثم طغت شهرة إيزيس فى العصر الرومانى على هذا الإله السكندرى .

السيراپيوم Serapeum : تحتوى سراديب السيراپيوم فى منف ، المنقورة تحت سطح الأرض ، على عجول أپيس المدفونة . اكتشفه ماريت فى سنة ١٨٥٠ — ١٨٥١ ، فوجد به ٢٤ تابوتاً من الجرانيت والبازلت ، لاتزال فى مواضعها ، ويزن أثقلها حوالى سبعين طناً . وبه حجرة بنيت فى السنة الثلاثين من حكم رمسيس الثانى ، وجدت سليمة كما وُجد أثر قدم آخِرِ مصرىٍّ يغادر المكان قبل إغلاقه ، ولايزال ذلك الأثر واضحاً . أعاد بطلميوس الأول النشاط فى السيراپيوم القديم ، وذلك بإدخال الإله الجديد سيراپيس . وكان يقوم بالخدمة فيه رهبان متطوعون (القاطوق Catoques) ، ويشمل مصحة حيث يفد المرضى طلباً لمعجزة الشفاء . وأمام المدخل بهو على جانبية تماثيل ، وأقيمت بقربه تماثيل الشعراء والفلاسفة الإغريق ، فى نصف دائرة .

لابد أن المولع بالقصص والأساطير ، سواء أكانت سلافية أو غينية أو إغريقية أو حبشية ، سيجد نوعاً من الأفاعى معروفاً له ، فى هذه الخلاصة القصيرة .

السير الذاتية : رغم أنه لم يكن من عادة قدماء المصريين أن يسجلوا على أوراق البردى أعمال شخص بعينه لإمتاع أجيال المستقبل ، وحتى لو كانت قصة سنوهى استثناء لهذا ، فقد عرف المصريون نوعاً من « السير أو التراجم الذاتية » جديراً بأن يحمل هذا الاسم « تاريخ الحياة » فكثيراً ما كتب النبلاء وصفاً لحياتهم على التماثيل الموضوعة فى المعابد ، أو على اللوحات الحجرية ، أو على جدران مقابرهم .

ويختلف طول كل من تلك التسجيلات ، وهى فى صورة مقالات موجهة للأجيال المقبلة إذ كان كاتبوها يأملون فى أن تقدم لهم الأجيال التالية الصلوات والقرابين . وتعد بعض هذه المقالات المؤرخين بتفاصيل الحروب والبعثات إلى البلاد الأجنبية وبناء المعابد ، وتكشف الستار أحياناً عن مغامرات خارقة . فأمكننا ، بهذه

الطريقة ، أن نعرف أن « ونى » جلس قاضياً لمحاكمة ملكة زلت زلة مخلة بالشرف ؛ وأن أمون إم حب أنقذ حياة تحوتمس الثالث أثناء صيد الفيلة . ولا تشير بعض النصوص الأخرى إلا إلى مناقب الموتى ، وفهرست بالأقوال المشهورة ، مثل : « كنتُ رجلاً أحبَّهُ أبوه ، وأثنتْ عليه أمه ، ونال تقدير زملائه » . ويتضمن كثير من هذه النصوص موضوعات أخرى ، من

« تاريخ نموذجيّ لحياة شخص يتحدث عن نفسه » . ، ووصف دقيق لجلائل أعمال الموتى ، مثل : « أعطيتُ الجائع خبزاً ، والعريان ثياباً ، وزيتاً لمن لا زيت له ، والحافى حذاء ، وزوجة لمن لا زوجة له » . كُتبت هذه الكلمات الدالة على حب التظاهر بالتقوى في قبر عنختيفى الشجاع ، ولكنه كتب أيضاً نبذة قصيرة جداً عن الأعمال الجديرة بالذكر التى قام بها ضد جيرانه فى وقت الحرب الأهلية (الحقبة المتوسطة الأولى) : « عندما وصلتُ أنا وأتباعى ، والرجال المتحمسين إلى النهر ، نزلتُ على الضفة اليمنى لاقليم طيبة ..... فانتشر رجالى الأوفياء فى هذا الاقليم للاستطلاع وطلباً للمعارك . بيد أن أحداً ما لم يخرج لهم ، خوفاً منهم . أنا الجندى الشجاع المعدوم النظير » .

سينـــاء Sinai : زارت حملات مصرية ، بانتظام ، بعض الأودية الغربية لشبه الجزيرة الصحراوية المرتفعة هذه ، لكى تستغل مناجمها ففى وادى مغارة أكوام من نفايات المناجم تقف شاهدة هى والنقوش التى على الصخور ، على أن استغلال مناجم النحاس بدأ فى عصر مبكر جداً ، واستمر حتى نفدت عروق ذلك المعدن ، فى الدولة الوسطى . وظل المصريون يذهبون إلى سرابيط الخادم حيث توجد نقوش هيروغليفية كثيرة ومعبد صخرى لحتحور « سيدة الفيروز » ، بحثاً عن هذا الحجر الكريم وعن الملاخيت (كربونات النحاس المتبلور) ، حتى عصر الرعامسة .



ش

شابتى Shobti : انظر أوشابتى .

شاشانق Sheshonq : اسم أُطلق على كثير من ملوك وأمراء العصر الليبىّ . وآخر ثلاثة ملوك فى تلك الحقبة كانوا ضعافاً جرُّوا المملكة إلى الفوضى (فى القرنين التاسع والثامن ق.م.) . وشاشانق الأول هو الوحيد الذى له مجده التاريخى (من سنة ٩٥٠ — ٩٢٩ ق.م.) وهو حفيد شاشانق الأكبر ، رئيس قبيلة المشوش Meshwesh ، فأسس الأسرة الثانية والعشرين ، وأعاد النظام ، ولو أنه كان مزعزعاً ، وبذا وضع خاتمه على انتصار الهيئة الحربية . قاد جيوشه إلى فلسطين : « صعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء » (ملوك الأول ١٤ : ٢٥ — ٢٦) . بعد هذه الغارة ، التى كانت لمجرد النهب ، أمر شاشانق بإقامة مدخل من الحجر الرملى أمام معبد الكرنك حيث لاتزال توجد قائمة ممزقة ، بالمدن التى فى إدوم ويهوذا وإسرائيل . وهناك شاشانق آخر ، غامض لدرجة أن ترتيبه التاريخى غير مؤكد ، ولكنه اشتهر عندما اكتشف پيير مونتيه قبره السليم فى تانيس .

شامپوليون Champollion : وُلد چان فرانسوا شامپوليون بمدينة فيجياك Figeac سنة ١٧٩٠ ، ومات فى سنة ١٨٣٢ . مضى أكثر من قرن على موت شامپوليون ، أصبح خلاله علم المصريات الذى خلقه علماً دولياً ، وانتشر واستقر ، ومع ذلك فلانزال نعجب بعبقرية أستاذنا الذكىّ . كانت حياته القصيرة (٤٢ عاماً) كلها سباقا ضد الزمن . وضع ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، رسالة لأكاديمية جرينوبل ، فأحيا بها رأى كيرشر القائل بأن اللغة القبطية ، المكتوبة نصوصها بحروف إغريقية ، ليست سوى صورة أخيرة للغة المصرية القديمة المعبر عنها بالرموز الهيروغليفية . وبعد ثلاث سنوات ، صار أستاذاً لعلم التاريخ ، وقسَّمَ وقته بين الحملات السياسية العنيفة ، وكتابة النشرات ضد ناپليون ، والأغانى الثورية ، والبحث العلمى . كانت اللغة القبطية هوايته المفضلة . فقرأ كل ما أمكنه العثور عليه من نصوص هذه اللغة ، وصنَّفها وكوَّن لها معجماً هاله حجمه ، فقال :

« يتضخم معجمى القبطى كل يوم ، أما مؤلفه فيزداد نحافة » . وفى سنة ١٨٢٢ نشر

خطابه الشهير الذى أرسله إلى الأستاذ م . داسييه حول كتابة الرموز الهيروغليفية الصوتية والذى شرح فيه مبادىء الكتابة المصرية القديمة التى اكتشفها منذ فترة وجيزة . فكيف حصل على هذه النتيجة ؟ يجب ان نذكر أولاً ، أنه على الرغم من ترك استعمال الرموز الهيروغليفية منذ القرن الرابع الميلادى ، فقد ظل الأجانب مهتمين بغوامض هذه الكتابة . ومنذ العصور القديمة فسّر الكُتّاب الاغريق كثيراً من غوامض تلك الكتابة ، وكان من بينهم خايريمون Chaeremon الفيلسوف الرواقى

والنحوى الذى عُهد إليه بمتحف الإسكندرية (فى النصف الثانى من القرن الخامس) . كتب هذان رسالات يفسران ، بطريقتيهما الخاصتين ؛ الصحيحتين فى كثير من الأحوال ، مبادىء الخط الهيروغليفى ، كما ترك آباء الكنيسة ، ومنهم الأب كلمنت السكندرى ، كتابات اهتم بقراءتها واستعمالها باحثو العصر الحديث . بدأت مجموعة المحاولات الطويلة بكتابات أثناسيوس كيرشر (منتصف القرن السابع عشر) ، ولكنها بقيت عديمة النفع إلى القرن التاسع عشر . وجد كيرشر أن معظم الأسماء المصرية القديمة التى يشملها التراث المصرى ، يمكن تفسيرها باللغة القبطية ، واستنتج من هذه الحقيقة أن اللغة القبطية صورة من اللغة المصرية القديمة . كانت فكرة أقرب إلى الوحى ، أرشدت شامبوليون إلى اكتشاف المفتاح المفقود لهذه الكتابة القديمة ووجد أيضاً أن الهيراطيقية ليست سوى صورة مبسطة من الهيروغليفية . ولكن رغم هذه النتائج الباهرة ، ظل كيرشر أعمى تماماً عن طبيعة الرموز الهيروغليفية ، وبنى نظريته على الكُتّاب الكلاسيكيين ، فظن أن الحروف الهيروغليفية ليست سوى كتابة رمزية فحسب . وهكذا ترجم اسم أبريس Apries (ومعناه باللغة المصرية « رع ثابت القلب ») بما يأتى : « تُنال منافع أوزيريس الإلهية بواسطة الاحتفالات المقدسة بمجموعة من الجن ، حتى يمكن الحصول على فوائد النيل » .

ظلت محاولات التفسير طوال القرون التالية لذلك ، بيد أن المجهود الجدّى لم يبدأ إلا فى القرن التاسع عشر . كان من نتائج حملة نابليون على مصر ، والوثائق التى جدها العلماء الفرنسيون فى وادى النيل ، ن باتت ، على الفور ، مصر وآثارها القديمة ، محط اهتمام الرأى العام ، وزودت العلماء بنصوص يمكنهم أن يستخدموا فيها عبقرياتهم . كان اكتشاف حجر رشيد هو الاكتشاف الهامّ ، الذى أدى إلى معرفة الهيروغليفية معرفة صحيحة إذ يحوى هذا الحجر مرسوماً من بطلميوس الخامس ، منقوش بالكتابات الاغريقية والديموطيقية والهيروغليفية . أى أنه كان مكتوباً بلغتين (الاغريقية والمصرية) مما بعث الأمل فى أن اللغة الاغريقية يمكن أن تساعد على حل رموز اللغة المصرية ولسوء الحظ ، كان الجزء الذى نقش عليه النص الهيروغليفى غير كامل

- ظهرت أولى النتائج فى سنة ١٨٠٢ ، على يد س . دى ساسى S.de Sacy

وأكربالد Akerbald ، بعد دراسة النص الديموطيقى . فنجحا فى التعرف على الرموز بواسطة قياس مكان اسم بطلميوس ، وتحليل الأجزاء المكونة له . وبدأ توماس ينج ، فى الوقت ذاته ، يجرى أبحاثه على الهيروغليفية . وكان يعرف من مؤلفات Abbé Barthélemy و Zoega (١٧٥٥ — ١٨٠٩) أن الخراطيش تضم الأسماء الملكية . فحاول أن يميز حروف اسمى بطلميوس وبيرينيكى Berenice فى الخراطيش . فنجح فى ذلك نجاحاً جزئياً ، ولكنه ترك بعض العلامات بغير تفسير ، فساقه هذا إلى الوقوع فى بعض الأخطاء . فقرأ « يورجيتيس " Euergetes " وأوتوقراطور Autocrator ، على أنها قيصر وأرسينوى " Arsinoe " ! .

كانت طريقته ، كما رأينا ، غير كاملة ، فشرع شامبوليون يدرس من جديد ، وساعده نقش من جزيرة فيله يحتوى على اسمى بطلميوس وكيلوباترة ،

وهما يشتركان فى الحروف « ل L » ، « و O » ، « ب P » . كما أفاد من نصوص مؤلف قديم شرح بطريقة غامضة ، أن القيمة الصوتية للرموز المصرية تؤخذ من الحرف الأول لاسم الشىء الذى يمثله ذلك الرمز — وهذا ما نسميه بالمصطلح acrophany . فإذا ما تعرف شامبوليون على رمز ، بحث عن اسمه باللغة القبطية ، وكان هذا أمراً بالغ السهولة عليه ، وبذا أمكنه معرفة القيمة الصوتية للرمز الهيروغليفى من الحرف الأول للكلمة القبطية . فمثلاً : الرمز الهيروغليفى « أسد » ، معناه باللغة القبطية Laboi الذى يبدأ بالحرف « ل L » ، والرمز « يد » معناه tootالذى يبدأ بالحرف « ت t » ، وفم معناه ro ، الذى يبدأ بالحرف « ر r » ، وهكذا يسجل هذه الحروف البسيطة وقيمها الصوتية ، حيثما كانت الحروف واضحة .

بعد ذلك ساعدت النصوص الإغريقية شامبوليون ، فأمكنه ملء الفراغات الشاغرة بتخمين المعنى القبطى للكلمة الإغريقية ، وسط الحروف التى تعرف عليها بالطريقة السابقة ، فأمكنه بذلك أن يحل رموز ٧٩ اسماً ملكياً مختلفاً ، عرف جميع حروفها ورتبها فى جدول ، حرفاً حرفاً . وبواسطة جميع الحروف الهجائية التى عرفها نجح فى معرفة عدد من الكلمات . وشيئاً فشيئاً كوّن معجمه وأجروميته .

بعد أن كتب خطابه لداسييه ، بسنتين ، سافر إلى إيطاليا (من سنة ١٨٢٤ — ١٨٢٦) حيث ظل يفتش فى مجموعات الآثار المصرية ، وينسخ النصوص ، ويضيف كلمات جديدة إلى معجمه ، باستمرار ، فأكمل معرفته للكتابة الهيروغليفية بالتعرف على الكلمات المتعددة الحروف والنهايات . وفى سنة ١٨٢٦ عُيّن أميناً للآثار المصرية بمتحف اللوفر . وسافر إلى مصر بصحبة روسيلينى الإيطالى (من سنة ١٨٢٨ — ١٨٣٠) . وكانت نتيجة هذه الرحلة أربعة مؤلفات : « آثار مصر والنوبة » ، ومخطوط « المذكرات التفسيرية » ، الذى لم يُنشر هو ولا

أجروميته ، ولا معجمه ، إلا بعد وفاته . كما نشر مؤلفه المدهش « مذكرات عن مصر والنوبة » ، الذى سجل فيه مشاهداته ، يوماً بيوم ، عند زيارته للآثار الفرعونية ، وتعليقاته المستفيضة التى ــ لسوء الحظ ــ نسيها علماء الآثار المصرية المحدثون . كذلك قراءاته للأسماء والنصوص التاريخية خطوة خطوة خلال إعادة اكتشافه لمصر القديمة . ولما عاد إلى فرنسا ، عُين عضواً فى أكاديمية Inscriptions & Belles Lettres (سنة ١٨٣٠) ، ثم أستاذاً فى Collége de France (سنة ١٨٣١) ، ولم يُلق سوى بضع محاضرات فى الكرسى الذى أنشىء خصيصاً له ، ومات فى ٤ مارس سنة ١٨٣٢ متأثراً بالإرهاق من كثرة العمل ، تاركاً أجروميته ومعجمه ومذكراته ، تذكاراً عن نفسه .

الشرطة Police : لا تخلو أية قرية أو أى مجتمع مهما كان بدائياً من قواعد وقوانين يتعارف عليها الأهالى . فما بالك بدولة نشأت وخرجت إلى حيز الوجود على ضفاف النيل فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. لابد أن كانت حاجتها إلى الشرطة أمَسّ . كان الفلاح المصرى دائماً صلب العود جديراً بكل تقدير . لم يكن متمرداً فى قرارة نفسه ، إذ كان حريصاً على الانتفاع ببركات الملك السحرية فهو من الرعايا المخلصين . وإذا كان الفرعون قد اضطلع بالحفاظ على النظام الذى سنته الآلهة للدنيا بواسطة الطقوس ، فإن قوة من الشرطة كانت تشد من أزره وتدعم مهمته الكونية حتى يكون هناك ضمان أكثر للنظام القائم الذى تقوم بحمايته أيا كان . كان من واجبه أن يمنع المشاكس من ظلم الضعيف فى المنازعات الخاصة . وكان عليه أن يطرد غير المرغوب فيهم من المجتمع ، ويحمى المزارعين من اللصوص . لذا كان من الضرورى أن تكون لديه قوة شرطة صارمة ؛ شرطة يباهى بها الإدارى الغيور ، شرطة يفخر أحد رجالها فى زمن الفوضى ، بقوله : « إذا أقبل الليل ، شكرنى من ينام على قارعة الطريق ، لأنه فى مأمن كمن ينام فى بيته ، وما أعظم الخوف الذى تسببه فرقتى ! » وهذا هو أول ذكر لخوف اللصوص من الشرطة .

كانت الشرطة المصرية ، كقاعدة عامة ، منفصلة عن الجيش . فتحرس حدود الصحراء جماعة الصيادين (نو Nuu) . قام الصيادون ، أسلاف خفر السواحل البواسل بحراسة الطرق المؤدية إلى الشرق وإلى الغرب . ولما كانوا لا يستطيعون ركوب الهجين كنظرائهم المحدثين أشباه البدو ، كانت تصحبهم الكلاب دائماً فى ترحالهم الشاق . ونراهم فى جميع المناظر الباقية ، تقريباً ، مع رفاقهم الكلاب . وبوسع المرء أن يتعرف على الريف فى الوحدة الظاهرة بين الرمال والصخور . وقد كان فى مقدور كلاب الشرطة أن تكتشف فى الحال وجود أى كائن حى يتصادف وجوده فى المنطقة التى بها الشرطة . وكانوا يقومون بحماية القوافل ممن يغير عليها ، ويتتبعون حركات الرحل ، ويرتادون أودية المناجم ، ويقبضون على الهاربين من وجه العدالة . كذلك كانوا ينتهزون فرصة مرورهم بالصحراء فيصيدون الحيوانات

الصحراوية ، ويزودون نبلاء الوادى بحيوانات الصيد الصالحة للأكل (انظر الصيد) .

تمتعت الإدارة بخدمات أخرى للشرطة من نوع آخر ، إذ كانت واجبات الشرطة أقل مجداً وأقل خطراً . كان على أولئك الموظفين أن يقبضوا على العبيد الهاربين ، ويجبروا الفلاحين المماطلين على دفع ما

عليهم من ضرائب . وكانت الشرطة الريفية ، فى الدولة القديمة ، تساند كبار المنتفعين بالأراضى المؤجرة ، وتجمع الخراج بالتعذيب البدنى . أما أعمال الشرطة العادية اليومية ، فمصورة بطريقة رائعة على جدران المعابد الجنائزية ، كما فى مصطبة تى Ti الشهيرة حيث يقاضى وكيل صاحب الأرض ، وكتبة مخزن حبوب أحد النبلاء ، رئيس المخبز . فتوزن الأرغفة واحداً بعد آخر . فيعلن الحاجب نتيجة التحقيق ، فيسحب الشرطى المختص هراوته من جرابها ، ويضرب بها الخباز المطروح أمامه أرضاً .

أخذ التاريخ الطويل لقوات حفظ النظام دوراً جديداً إبان الأسرة الثامنة عشرة عندما انضم إلى الشرطة رجال الميجاى Medjai ، وهم أهل الصحراء النوبية . فاختلطوا بالسكان المصريين اختلاطاً وثيقاً حتى إنهم سرعان ما صاروا مصريين ولم يعودوا نوبيين . والميجاى كقوة ذكرت كثيراً فى الوثائق الإدراية والخاصة ، فهى سليمة الأبدان بديعة التنظيم ، وقادرة على

استخدام العصا بنفس النشاط الذى يستخدمها به أسلافهم فى عصر الأهرام ، كما يدل على ذلك النقد الساخر لسوء حظ الفلاح (لم يوقَف الجَلْد ، فعلاً ، فى مصر كعقوبة قانونية ، إلا فى القرن الأخير) ولا يدل استخدام هذه العقوبة على أن الشرطة الفرعونية كانت وحشية . ولا شك أن تهاون قبضة الطبقات الحاكمة على الفلاح ،

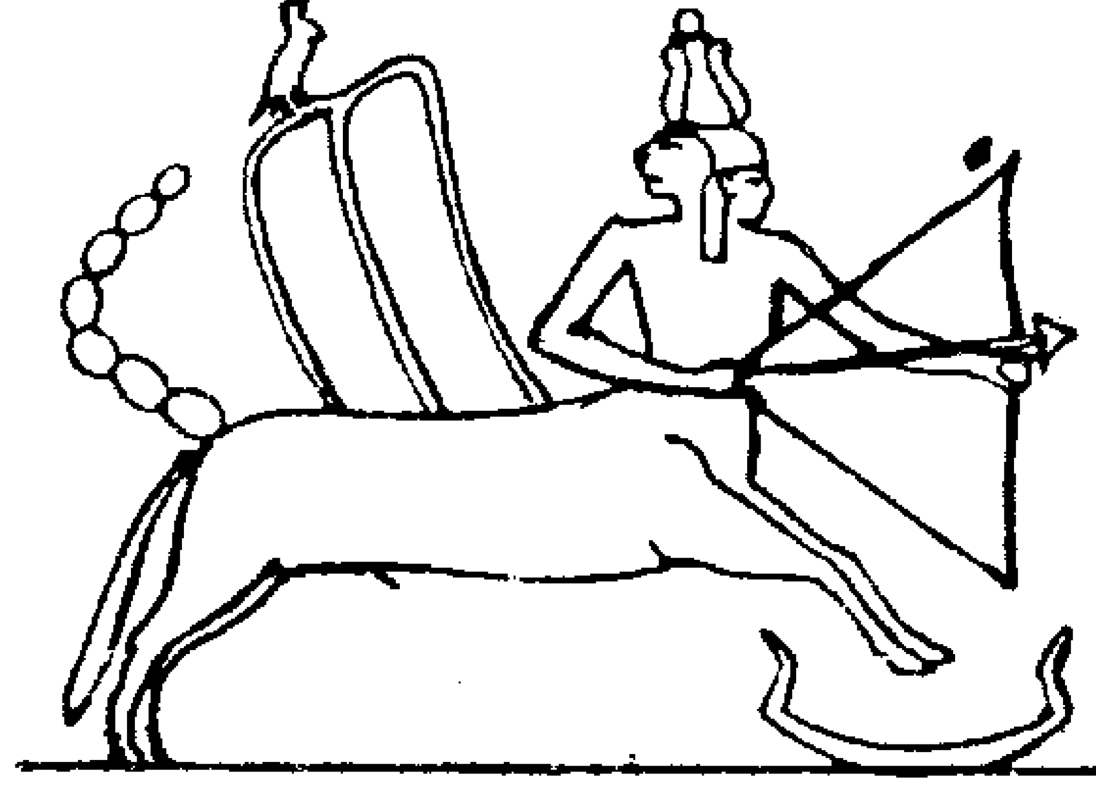
كانت ضَعفاً جر على مصر كثيراً من النتائج السيئة ، ومع ذلك ، يجب ألا يغيب عن بالنا أن الضرب ، علىَ أنه عقوبة عادية لجميع الجرائم البسيطة بعد التحقيق القانونى ، كان يطبَّق أحياناً على النبلاء أنفسهم .

على الرغم من أن جموع الشعب اعتادت التأديب ، فمن الجلى أنه كان يلذ لهم أن يروا الشرطة تُخدَع ، ولا شك فى ابتهاجهم لو سمعوا قصة رامبسينيتوس Rhampsinitus التى رواها هيرودوت ، والتى أسكر فيها لص بارع فرقة كاملة من الحراس كى يسرق جثة شريكه . « نقل ذلك الشاب جثة أخيه ، وكإهانة للحراس ، حلق الصدغ الأيمن لكل منهم ــ فقد كانوا من الأجانب ذوى اللحى ــ وبعد ذلك رجع إلى بيته » .

الشمس : انظر رع .

شو Shu : شو وتيفنوت ، ابنا الإله الخالق ، هما أول زوج فى تاسوع هليوبوليس . يرمز شو إلى الجو ، فكان

الإله الممسك لقرص السماء فوق الأرض بذراعيه المرفوعتين ، فاصلاً جب (الأرض) عن زوجته نوت (السماء) ، كما كان الأنفاس الإلهية التى تعطى الحياة للمخلوقات الأرضية ، ويقترن باسمه آلهة آخرون حاول الكهنة أن يوفقوا بين عبادته وعبادتهم ، منهم خونسو وتحوت وأونوريس وخنوم .



ص

الصحارى : لم تكن هذه الصحارى موجودة فى عصور ما قبل التاريخ ، عندما حُفرت تلك القنوات الصخرية العديدة ، التى يمكن رؤيتها فى الصحارى المصرية ، إذ ساد جو مطير بتلك المساحات الصحراوية التى تعانى الآن من الجفاف . ومع ذلك ، ففى العصور التاريخية التى نشأت فيها الحكومة والحضارة الفرعونية ، انحصر وادى النيل بين هضبتين عديمى المطر .

وليست الصحراء ، كما يحلم بها الأطفال ، مساحة واسعة من الرمال والجبال ، وإنما يتنوع منظرها فى مصر ، كما يتنوع فى أى مكان آخر ، فكانت تتكون من كثبان الصحراء الليبية العظيمة وسلاسل التلال المتبلورة أو المتحولة ، تقطعها أودية جميلة بين النيل والبحر الأحمر ، والحجر الجيرى لجبل طيبة ، الذى تقطعه أودية ضيقة ، والحجر الرملى النوبى ، المستدير الناعم المتفتت ، وأبسطة متموجة من الحصى والرمل فى غرب الدلتا ، وهكذا .

والصحارى كما يراها الفلاح المرتبط بحقله فى وادى النيل ، تشترك جميعاً فى مظهر واحد : إذا أراد الوصول إليها ، كان عليه أن يصعد ويهبط إذا ما أراد العودة منها .

وبمجرد أن يعبر الفلاح الخط الذى تنتهى عنده الأرض الزراعية ، يقول إنه فى الجبل . وكان لدى أسلافه نفس هذه الفكرة . وكثيراً ما توجد هذه العلامة الهيروغليفية على الآثار ، وهى عبارة عن قمم ثلاثة تلال يفصل بينها واديان . رسمت هذه العلامة باللون الأحمر القرنفلى وحُدِّدت من الخارج باللون البنى ، وتمثل الجبل عندما يُرَى من مسافة بعيدة فى ضوء الشمس الكامل . وإذا درسنا شتى فوائد هذه العلامة ، اتضح لنا معنى الجبل عند قدماء المصريين . كانوا يستعملون هذه العلامة للدلالة على الجبانة والأفق والمناجم والمحاجر ، وعلى اسم أية دولة أجنبية ، سواء أكانت روما أو بابل ، يتبعها جبل الصحراء الثلاثى كمخصص لها .

ميز المصريون بين التربة الحمراء والتربة السوداء . كانت الصحراء الجبلية ، التى شغلت القسم الأكبر من سهل مصر ، هى العالم الخارجى ، أى أنها اعتبرت أرضاً أجنبية ، رغم قربها . وعلاوة على هذا فقد اعتبرت معادية بعض الشىء . أما الأماكن الواقعة على المنحدرات الجافة ، والتى أقام بها أقدم السكان ، فبقيت مواضع للمقابر

حيث يساعد الجو الجاف على حفظ المومياء . وكان الوادى يؤدى إلى الجبال البعيدة حيث تشرق الشمس وتغرب . وإذ لم تكن للصحراء الغربية نهاية ، فقد حجبت مدخلاً يوصل إلى بحيرة تحت الأرض حيث يعاد مولد الشمس يومياً . لم تكن الصحراء عالماً غريباً فقط ، بل كانت مقر الآلهة والموتى والسباع والغزلان والبدو المتوحشين الجياع ، بل وكانت الطريق الوحيد الموصل إلى البلاد الأجنبية وأماكن الصناعة الإنتاجية . لم يكن الجبل فى العصر الفرعونى القديم عديم المطر وقفراً ، كما هو فى الأزمنة الحديثة ، وإنما كان به الكثير من طيور الصيد لكثرة الزروع . وكانت الآبار عديدة ، ولكن كان يجب إخفاؤها عن البدو الذين لو رأوها لنزحوا ماءها حتى تجف . وفى عصر لاحق لزم إعادة حفر تلك الآبار . لم تكن الصحراء فى أى عصر عسيرة الاجتياز على شعب منظم تنظيماً جيداً كقدماء المصريين . فزودت القوافل بالحمير والخبز وقِرَب الماء الضرورية لها .

كان كل من اتصلت أعمالهم بالصحراء ، كرجال الشرطة والجنود ، على علم بالثروة المعدنية المخفية تحت الجبال . وتقول التراتيل المنقوشة فى المحاجر البعيدة : « تنقل الجبال محتوياتها إلى الملك . فتُخرج الأشياء المخبأة فيها . فقد أظهر له رب الأرض كل شىء » . ولاقت الحملات التى أُرسلت إلى الصحراء كثيراً من الصعاب . وملأ رؤساؤها أشداقهم فخراً عند عودتهم منها « سالمين » . وملأ خيالَ الشعب الصحراء بكثير من الوحوش الخيالية والعنقاوات والأفاعى المجنحة .

ليس فى الميثولوجيا المصرية أى إله يمثل الصحراء . وبعض الآلهة مثل مين (إله قفط) ، وسويد (إله بلدة صفط الحنا) ، وحورس (إله إدفو) . وحا Ha (إله الطرق الغربية) ، كانوا حماة طرق خاصة تخرج من الوادى وتصل إلى معابدهم . أما ست ، الإله الأحمر ، والقاتل الشرير ، فيرى فيه كثير من المؤرخين الدينيين ، تمثيلاً لمبدأ الجفاف ، غير أنه كان يقوم بدوره هذا فى المراحل الأخيرة ، التى شبهت إيزيس بأرض مصر وأوزيريس بالنيل الخصيب ، كما ذكر بلوطارخ فى تفسيره فى رسالته « عن إيزيس وأوزيريس » .

الصرح Pylon : نرى أمام كل معبد مصرى صرح يتألف من برجين ضخمين من الحجر متماثلى الشكل بينهما الباب الموصل إلى الأفنية المكشوفة وإلى الأبهاء المسقوفة ذات الأعمدة . ويشمخ هذا الصرح عالياً إلى ارتفاع شاهق أعلى من الحجرات الداخلية بكثير ويحجبها تماماً .

وتُزيِّن الواجهة بأعلام ترفرف فى قمة ساريات خشبية مثبتة فى مشكاوات بالجدران . والصرح أجوف وغالباً ما يكون بداخله سلالم توصل إلى قمته . وبأضخم هذه الصروح حجرات فى عدة طوابق ، لا نعرف الغرض منها حتى الآن . وربما كانت لغرض السكنى أو للتخزين . ويمثل البرجان المحيطان بجانبى الباب جَبَلَى الأفق اللذين تشرق الشمس من بينهما . ولا شك فى أن هذه الفكرة توحى باستخدام القنطرة التى

فوق الباب والمتصلة بالبرجين ، كشرفة يقف فيها الملك فى المناسبات الحكومية .

وفى العادة ، كان للمعبد صرح واحد فى واجهته الأمامية . بيد أن معابد طيبة كانت ذات صرحين أو أكثر أمام كل منها أبنية إضافية علاوة على المعبد الأصلى (لمعبد الكرنك عشرة صروح) .

الصقر Falcon : الصقر طائر جارح متوسط الحجم رغم امتلاء جسمه ونشاطه الجم ، ولاسيا الصقر غير الوطنى ذى الريش الجميل . وكان معروفاً لقدماء المصريين أكثر مما هو معروف الآن . وكثيراً ما قيل إن العدو يصيبه الشلل أمام فرعون مثلما « يصيب الشلل الطيور الأخرى أمام الصقر » ، فكان ملك طيور مصر هذا يتمتع بهيبة إله ، لكونه أهم طيور السماء . يعرف كل منا حورس ، الذى ربما كان معنى اسمه « الكائن البعيد » ، إشارة إلى التحليق البعيد المدى والعلو الشاهق الذى تبلغه الطيور الجارحة ، فى جو السماء .

ويعرف جميعاً أن ذلك الإله اتخذ شكل الصقر (وليس النسر) أو هيئة إنسان ذى رأس صقر . ومع ذلك ، فمن الخطأ أن نعتقد أن كل إله يمثل بهذه الطريقة هو حورس ، والحقيقة أن كافة أنواع الآلهة ظهروا فى صورة صقر ؛ ومن بينها صور رع (مع قرص الشمس فوق رأسه) ، وصور مونتو Mont (بجناحين عاليين) وصور سوكر Sokaris (صقر محنط) وصور حورس ابن إيزيس (بتاح مزدوج) . لم نذكر الآلهة الأقل شهرة ، وبعضهم ذوو أسماء مُعَبِّرة ، ومنهم : عنتى Anty « الجريفين » ، و « دون عنوى » الكائن « ذو المخالب الممدودة » . دهش المصريون للعلامة الغريبة التى تُرَى تحت عين الصقر ، تلك العين التى ترى كل شيء ونشأ حول عين حورس رمز كامل للخصوبة العالمية .

الصل (الملكى) Uraeus : ذكر كاتب هيلينى أن الأفعى المسماة « Basilikos (أى الملكيـة) » بالإغـريقية ، تسمى « يورايوس Uraios » باللغة المصريّة . وتحولت الصورة الإغريقية لهذه الكلمة وصارت Uraeus ، باللاتينية واستعملت بعد ذلك هذه الصورة فى المؤلفات العلمية للدلالة على الربة المتباينة الأسماء التى تمثل عين رع المتقدة ، وترمز إلى الطبيعة النارية للتيجان ، متخذة صورة كوبرا أنثى غاضبة . توضع هذه « الصل » ذات الرقبة المفلطحة على الجزء الأمامى من غطاء رأس الفرعون . وتُرسم متكررة على الأفاريز الطويلة فى المعابد ، وتقذف النار على الأعداء فى القبور الملكية . ويلبس أرباب الشمس على رءوسهم قرص الشمس وبه الصل . وعادة ما يشير علماء الآثار المصرية إلى الصل على أنها مذكر ، غير أنها عادة ما يشار إليها بالضمير « هى » ليذكّرنا بأنها فى الحقيقة أفعى مؤنثة .

صناعة المعادن Metal Working : برهن قدماء المصريين على أنهم أتقنوا منذ العصور المبكرة كثيراً من المهن . ومع ذلك فلم تكن صناعة المعادن لديهم بارزة ، نسبياً . جاء عصر صناعة المعادن العظيم ،

فى مصر ، متأخراً عنه فى غرب آسيا . فظهر النحاس ببطء فى نهاية عصر ما قبل التاريخ ، ولم يبدأ استعمال البرونز إلا فى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. أى بعد استعماله فى الشرق بألف سنة . أما الحديد فأدخل ببطء شديد ، فى الصناعات المصرية ، بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٦٠٠ ق.م. ويجب أن نعترف بأن تلك البلاد لم تكن ملائمة لصانع المعادن البدائى . فلم يسهل الحصول على المعادن النافعة من الصحراء ، كما أنها لم تكن وفيرة بها . ولم يحتو وادى النيل إلا على قليل من الأشجار ، ولذا لم يتوفر الوقود وإنما كان نادراً . كما يجب أن نذكر أيضاً أن الحجر ، ولاسيما الظّرّان ، كان مستعملاً فى أغراض عديدة ، مثل : أسنة السهام ومطارق صنع التماثيل وأسنة المناجل وسكاكين الجزارين – أى جميع الأغراض التى نرى ضرورة الحديد لها (انظر الأحجار) .

ولو أن مصر لم تبتكر شيئاً فيما يختص بالمعادن ، فقد صنعت كثيراً من الأشياء الجميلة الدقيقة من النحاس ، ثم من البرونز (أسلحة القتال وأدوات النجارين وأزميل قطع الأحجار والتماثيل الكبيرة) . فمثلاً ، صنع تمثال ببى الأول من النحاس ؛ وكذلك التماثيل الصغيرة والحلى والأمواس والمرايا ، والأوانى شبه الفاخرة ولوازم الأبواب ، وغير ذلك . وأشرفت الحكومة على صناعة المعادن (كان مصنع الأسلحة بمدينة منف أقدم مصنع جماعى فى العالم) وقامت المعابد أيضاً بالإشراف عليها وصنعها (نسمع عن صانعى معادن آمون ، وصاهرى معادن بتاح) .

قلما نرى مناظر لداخل مصنع للمعادن فى مناظر المقابر ، ولكن يمكن تكوين فكرة عنها بمساعدة النصوص وفحص المصنوعات وصور صناع المعادن . وكانوا يقومون بتنقية النحاس فى منجمه . أما البرونز الاسيوى فكان يرد جاهزاً . وجلبوا القصدير من بعض الدول الشمالية (ولا نعرفها) وخلطوه بالنحاس . قام المصريون بتصنيع قضبان المعادن المستوردة ، بطرق شتى تحت إشراف الإدارة . كان يكفى قالب مفتوح لصنع الأشكال البسيطة سهلة الكسر ، كالصفائح والدبابيس . أما الأسلحة والأدوات الصناعية فكانت تُشَكَّل مبدئياً فى قالب ، وتطرق وهى ساخنة لتقسيتها . وأما المصنوعات الدقيقة ، كالتماثيل الصغيرة فيلزم لها قالب مقفل . (تستعمل اليوم طريقة مشابهة فى تحضير الأسنان الصناعية) . وكانوا يستعملون أتونا صغيراً من الطين لصهر المعادن . وكانت البواتق المستعملة ، فى شكل القرن ، فيُكسر الطرف المدبب لينزل منه المعدن المنصهر . وبينما المعدن لايزال لدناً ، يؤخذ بملقاط ويُشَكَّل ، فيتصبب العامل عَرَقاً وسط الدخان ، « أصابعه مشققة مثل جلد التمساح ، ورائحته أسوأ من رائحة بيض السمك » .

لما كانوا يستعملون الفحم النباتى وقوداً ، وكانت ناره ضعيفة ، فإن عدداً من الصبيان كانوا ينفخون عليها معاً بواسطة أنابيب النفخ . وبعد ذلك بوقت ما ، استعملوا منفاخين من جلد الماعز يطأهما رجل بقدميه واحداً بعد الآخر .

(وُجد مثال حديث لهذه الطريقة فى السودان مما يدل على أن مصر قد نقلت بعض معارفها عن صناعة المعادن ، إلى أفريقيا الزنجية) .

صورة الكون Cosmography :
كوّن المصريون فكرة عن صورة العالم تبعاً للأحوال الجغرافية لوادى النيل . كانوا يعتبرون العالم أرضاً يمر النيل فى وسطها ، ويحيط بها الماء (الدائرة العظمى أو المحيط الدائرى الأعظم) الذى أنتجه الإله الأول نون Nun الذى خرجت منه الدنيا ، وكان هو منشأ النيل والمطر . وفوق هذه الأرض المسطحة سماء أشبه بطبق مسطح ، يفصلها عن الأرض الإله شو ، رب الهواء . وتوجد

فى أركان الدنيا الأربعة ، الدعامات التى ترتكز عليها السماء . استعملت هذه الصورة أولاً للعالم الصغير الذى كان معروفاً لسكان وادى النيل منذ عصور ما قبل التاريخ . ثم امتدت رقعته ، شيئاً فشيئاً ، فى جميع الجهات ، بالرحلات وبالغزوات دون أى تغيير فى الفكرة العامة المأخوذة عن صورته . أما حواف العالم ، فاعتقدوا أنها الأماكن التى تنشأ فيها الرياح ، وأن حدّه الشرقى هو المكان الذى تخرج منه الشمس من المحيط فى الصباح ثم تعود ثانية فى المساء عند حده الغربى وتذهب إلى العالم السفلى .

اتخذ المصريون الجنوب وجهتهم فكان الغرب على يمينهم والشرق على يسارهم ، ولم يعتبروا أى مكان أرضا مستوية سهلة خلا واديهم ، سواء أكانت الهضاب التى تحد واديهم هذا ، أو بلاد النوبة البعيدة أو سوريا ، بل كانوا يعتبرون كل هذه البلاد مناطق جبلية .

اختلفت الآراء عن طبوغرافية العالم السفلى تبعاً للمعتقدات الدينية ، فاعتقد المصريون أحياناً أنه نسخة مقلوبة من الدنيا ، سماؤه مقلوبة فى الناحية الأخرى من الأرض ، ويعبر النيل والشمس فى أقسامه الاثنى عشر أثناء ساعات الليل . وتخيلوه أحياناً أخرى رقعة متسعة من الماء حيث تستعيد الشمس قواها بعد أن تموت فى المساء ، وبهذا تستطيع الارتفاع ثانية فى وقت الخليقة . وصوّرت العقيدة الأوزيرية وكتاب الموتى العالم السفلى على أنه منطقة كلها حقول ومستنقعات يعمل فيها الميت أو يرتحل .

صيد الحيوانات والطيور : كان بمصر كثير من حيوانات الصيد تعيش تحت ظل أعواد البردى ، وهى أقل مما كانت فى عصور ما قبل التاريخ (عندما كانت السافانا منتشرة على جانبى النيل) ، ولكنها أكثر مما هى الآن .

تدلنا الرسوم المنقوشة على الصخور ، على أن المصريين البدائيين كانوا صيادى حيوانات ماهرين ، وذلك بدافع الحاجة . فتبين تلك الصور الكلابَ وحيوانات الصيد والرجال ممسكين بقسيهم ، أما فى عصور الفراعنة ، البالغى الحضارة ، فقد استمر المصريون فى صيد الحيوانات ليس لقصد التسلية وإنما دفاعاً عن أنفسهم (ضد الأسد وفرس النهر) ، أو كوسيلة للحصول على أدوات يتحلون بها (كريش النعام) ، أو للحصول على ما ينوعون به طعامهم .

كان كل فرد يتمتع بالصيد ، من صياد السمك الذى يصيد بطة من أمام باب كوخه ، إلى الحاكم الذى « يطعم ذئاب الصحراء وجميع الطيور الجارحة مما يصيد » . ففى أقدم العصور ، كانوا يصيدون الغزلان والتياتل بالشراك ، ويضربها فى الأحراش ، وبالحبال ذات الأنشوطة لكى يسمنوها بالغذاء عندهم . وفى جميع العصور ، كان هناك صيادون معتمدون (انظر الشرطة) يمدون المعابد بالحيوانات للتقدمات المحروقة ، ويلاط الملوك بالأرانب الحمراء .

نرى فى مناظر المقابر التى تمثل الصيد فى المناقع الرجال وقد تجردوا من ملابسهم يستخدمون القط العادى وقط الزباد للصيد فى الأحراش . فيرتفع البط ذعراً ويصبح هدفاً لعصيهم المعقوفة المعروفة باسم البومرانج وكذلك كانوا « يصيدون » بالشباك » . فينصبون شباكهم المزدوجة بقرب الشاطىء ، ويمسكون طرفها بحبل طويل . فيجلس شخص لمراقبة طيور الصيد ممسكاً بقطعة طويلة من القماش فى يديه ، بينما يختبىء أربعة أو خمسة من زملائه على مسافة منه وهم يراقبون قطعة القماش فى سكون . فإذا ما طار إلى الشبكة عدد من البط ورفرف بأجنحته ، لوّح المراقب بقطعة القماش ، وعندئذ يشد زملاؤه الحبل فتطبق الشبكة على الصيد . وليست كل مناظر الصيد المصورة على المقابر وجدران المعابد لغرض الحصول على المطعم . فنرى كل نوع من الحيوان يجرى هنا وهناك وسط رمال الصحراء الوردية اللون أو يجول فى قطعان ، وبعضها يتساقط تحت وابل من السهام . وتبين المناظر الحيوانات تتزاوج وتلد الإناث صغارها للمحافظة على مَعين للصيد . وكانوا يضعون الحيوانات المصيدة داخل حظيرة مسورة ، أو يتركونها ترتع فى حرية وسط الريف الفسيح حيث يصيدونها من العربات . ويسيطر على المنظر نبّال واحد ، هو الملك أو أحد النبلاء ، بمصاحبة خدمه . ونرى على جدران أخرى نفس ذلك النبيل مصوّراً يرمى عصى البومرانج Boomerangs نحو أحراش البردى العالية حيث توجد أسراب كبيرة من الطيور . فما معنى مثل هذه المذبحة فى دولة تقدس الحيوانات ؟ .

أولاً ، كان الصيد رياضة ، كما هى الحال معنا ، فهى رياضة تبدى فيها الطبقة العالية مهارتها ، ويرغب كل نبيل أن يستمر فى مزاولتها بعد موته . كانوا يعتبرون كل حيوان صيد ، سواء أكان مجنحاً أو ذا فراء أو قشور ، موطناً للقوى الشريرة ، وصيدهم نوع من الطقوس السحرية الموجهة ضد الأجانب والشياطين والسحرة الذين كانوا يتهددون أرواح الموتى بالأذى ، وضد كل عدو خاص أو عام ، حقيقى أو فرضىّ .

نرى فى المعابد مناظر غزلان (اتباع ست) مقطوعة الرقاب ، ومناظر أفراس النهر مقطعة الأوصال ، ومناظر للصيد بالشباك ، ومناظر صيد الأسماك ، ومناظر للنوبيين الذين عبّروا عنهم بالأسماك ، ومناظر طيور هى تعبير عن الآسيويين ، ومناظر للثيران المعادية ، ومناظر للغزلان

المتمردة . كان الصيد ، قبل كل شيء ، اختباراً لقوة الملك ، وبرهاناً دائماً على تمتعه بالشباب . فبوسع الملك أن يواجه الأسود الغاضبة بما حبته به الشعائر والطقوس من قوة . فقتل أمنحوتب الثالث ١٠٢ من الأسود في عشر سنوات . ويذكر فرعون في أنشودة النصر التي يتضمنها تاريخه المنقوش على جدران المعبد ، أخبار فتوحاته العظيمة وانتصاراته المدوية على ثيران المستنقعات ، وعلى حُمُر الوحش السورية ، وعلى فيلة نهر العاصي ، وعلى خرتيت ضخم التقى به صدفة أثناء حملته إلى السودان .

صيد السمك والصيادون : كانت مصائد الأسماك والمزارع السمكية بالفيوم مربحة حتى صارت أحد موارد الدخل للحريم الملكيّ . والحقيقة أن صيد السمك كان أكثر ربحاً منه الآن في مصر الحديثة ؛ فكثيراً ما كان العمال يأخذون جرايات من السمك . فنُظِّمَ ساكنو حدود المستنقعات في جماعات وعُيِّنوا « صيادين للطيور المائية والأسماك » . فكانوا يعملون عادة في المياه الضحلة بين بساط أزهار اللوتس ، والأدغال العالية . كانوا يخوضون الأعماق الرملية حتى ركبهم تاركين ما فوقها جافاً ، ولكي يذهبوا إلى داخل المساحات الموحلة ، كانوا يركبون أطوافاً من البردي يصنعونها بأيديهم . يمكن رؤية أولئك المتوحشين العرايا ذوي الأجسام الغزيرة الشعر وهم يعملون ، في النقوش البارزة الملونة ، على المصاطب ، في مناظر حيوية طريفة . وأقدم طرق صيد الأسماك هي وضع مصيدة أسماك كبيرة بشكل القارورة ، في الخليج ، أو قذف شراك أكبر إلى المياه المكشوفة . وأنجع طريقة لصيد السمك هي جر شبكة كبيرة على هيئة مغزل بين قاربين حتى يصلا بها إلى الشاطىء . وهكذا « يذرع صيادو السمك النهر » ؛ بيد أنه كلما كان الصيد أصغر حجماً كان أشق وأعظم جهداً . يجز الرباط في الكتف ، ويجرح الحبل اليدين ، والمشرف يتكىء على عصاه ويهدد المتكاسلين . أما الصيد الفردي فيحتاج إلى السرعة قبل كل شيء آخر . فكان الصياد يجلس فوق مقعد عائم ويمسك في يده الممدودة إلى آخر ذراعه بحزمة من أربعة خيوط ينتهي كل منها بشص . فإذا ما صاد سمكة ضربها بمطرقة خشبية ليمنع حركتها أو وضعها في كيسه ويبدأ استخدام عصا الصيد منذ حكم الدولة الحديثة ، ويبدأ سهل العمل على الصياد . وعند انخفاض النيل كان صيادو السمك يستخدمون سلة مخروطية الشكل من أعواد الطرفاء للصيد في الماء العكر . فكانوا يدفعون السلة ، بالتخمين في موضع ما ، ويضعون أيديهم في فتحة السلة ليمسكوا بالصيد المحبوس بين الطين وجوانب السلة . وأخيراً جاء صيد السمك بالحراب . فيقف الخبراء فوق أطراف زورق من أعواد البردي ويقومون بقذف رماحهم نحو الأسماك بالطريقة البدائية . كانت رياضة شاقة زاولها معظم السكان ووجدوا فيها متعة بالغة .

يرجع تاريخ صيد السمك إلى بداية العصور ، وكان جزءاً من الحياة اليومية ، وهكذا امتد ، بطبيعة الحال ، إلى نطاق الأساطير والمعتقدات الدينية . فصيد السمك هو الذي أعاد الحياة الكاملة إلى إله

جريح : فقد وُجد القمر ، الذى هو عين نزعت من حورس ، فى شبكة صياد ؛ وعثر على يدى ذلك الإله المفصولتين منه ، فى سلة لصيد السمك . وإذا رأينا ، فى احدى مقابر طيبة ، صاحبها الراحل ممسكاً بسمكة بلطى من أجمل الأسماك معلقة فى طرف خيط ذى شص ، أفلا نفكر فيا إذا كانت هذه التسلية المريحة تمثل السعى إلى السعادة الأبدية ! وفضلاً عن هذا ، « عندما يعْبر ذلك الرجل الميت المستنقعات فى قاربه ويقذف رمحه على السمك » ، فيصيب سمكتين كبيرتين فى خياشيمهما . ربما كان ذلك الرجل يُلقى تعويذة على عدوه وهو يصطاد . ولما كان عدو الشمس يتخذ صورة سمكة فى أغلب الأحوال ، عرف كل إنسان التعويذة ١٥٣ من « كتاب الموتى » ، ويحرص على تعلمها حتى يصبح صياداً فلا يسمح بأن تقبض عليه الأرواح الشريرة ، بواسطة القردة الغريبة التى تجر شبكة ، جيئة وذهاباً ، فوق مياه مناطق الجحيم .

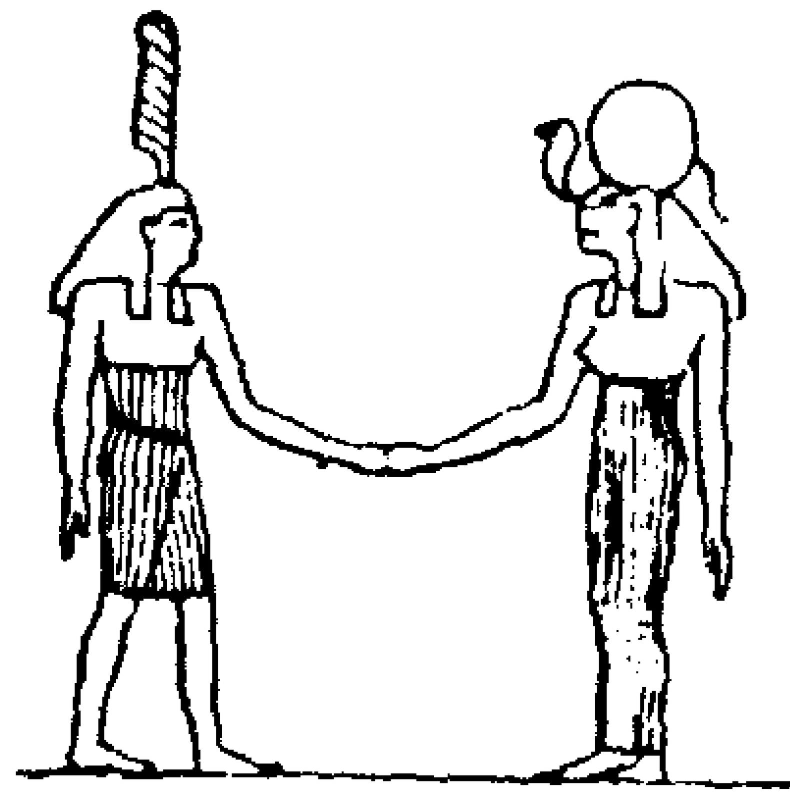
الضحـــايـــا البشريـــة **Human Sacrifices** : ذات يوم ضاق صدر الملك خوفو مللاً ، فطلب قصاصاً يسليه بقصصه أو ساحراً يقوم أمامه ببعض ألعابه السحرية فيفرج عنه مما هو فيه . فأحضروا إليه ساحراً مشهوراً يدعى دجيدى **Djedi** ، لأنه كان يستطيع القيام بأعمال عجيبة ، منها : « أن يعيد وضع رأس بعد فصله من الجسم » . فأمر الملك من فوره بإحضار أحد السجناء كى يبدى الساحر مهارته فيه . ولكن دجيدى اعترض على الملك بقوله : « كلا ، يا سيدى الملك ، لا أجرب لعبتى فى مخلوق بشرىّ . حُرِّمَ علينا أن نفعل ذلك مع قطيع الإله المقدس » .

تبرهن هذه الفقرة الشهيرة على الشعور الإنسانى لدى قدماء المصريين : لا يمكن تعريض حياة إنسان للخطر ، حتى ولو كان ذلك لتسلية ملك . ورغم أن الطقوس الدينية كانت تتطلب قتل المخلوقات العملاقة وأعداء الدولة وأتباع ست ، فإن معجزة أوليس **Aulis** كانت تحدث عند كل تضحية ، فلا يظهر على المذبح سوى الحيوانات أو التماثيل الصغيرة .

يبدو أن قدماء المصريين لم يمارسوا تقديم الضحايا البشرية ، فى العصور التاريخية على الأقل . بيد أن هذا الأمر لايزال موضع شك ، إذ يقول الكتّاب الإغريق إن بوسيريس **Busiris** اعتاد أن يضحى بضيوفه ، ويشيرون إلى عادة المصريين أن يضعوا المخلوقات الشريرة فى ماء يغلى وهم أحياء . والدليل الوحيد الذى يمكن العثور عليه ويؤيد هذه الأسطورة هو اللوحات المنقوشة على جدران المعابد ، وتمثل الملك يقتل عدداً من جنود الأعداء وهو يقبض عليهم من شعرهم . ولكن ، إذا حكمنا من واقع النصوص ، فإن مثل ذلك المنظر ، كغيره من الرموز المصرية الأخرى ، يدل على النصر الذى يناله الملك على جيرانه بمساعدة الإله . ومن المعقول جداً أن يكون هذا الرسم تمثيلاً رمزياً وسحرياً ، أكثر من كونه سجلاً لضحية طقسية واقعية .

يمكننا أن نقول عن هذا الموضوع ، على الأقل ، إنه على الرغم من ادعاءات الكُتّاب الكلاسيكيين ، فليس لدينا أى دليل ، من

مصر نفسها ، على ذبح الضحايا البشرية . أما إعدام المجرمين ومناظر معارك الحروب فتأتي ، بوضوح ، تحت قسم خاص ، لأنها ليست ذات علاقة بالطقوس الدينية .



ط

الطب Medicine : اعتقد قدماء المصريين أن معظم الأمراض — أو على الأقل التى لا تنشأ عن حادث ظاهر — من عمل قوى معادية : « خصم ذكر أو أنثى ، أو روح أو شخص ميت » . فكان لابد من استخدام السحر فى علاجها ، ويوكل ذلك إلى الساحر . وكان الأمر كذلك فى حالة لدغة العقرب أو الثعبان ، وهى كثيرة الحدوث فى مصر ويبدو أنه لم يستعمل فى علاجها أى ترياق خاص ، ولو أنه خُصصت لها تعاويذ لا تحصى مكتوبة على ورق البردى ، وتعاويذ سحرية أخرى .

رغم أن الساحر كان يقوم بدوره فى القرى والريف ، بطرد الأرواح الشريرة من أجسام المرضى بعد أن تستولى عليها ، فلدينا عدد كبير من الوثائق يبرهن على وجود نوع من الطب أقل بدائيةً من تلك الطريقة . وفضلاً عن السحرة ، كثيراً ما تذكر النصوص الأطباء وأطباء العيون وأطباء الأسنان وغيرهم من الأخصائيين ، ومن بينهم الأطباء البيطريون ، وقد أسعدنا الحظ بالعثور على عدد ضخم من المقالات الطبية مكتوبة على أوراق البردى ، ومذكرات كتبها قدامى الأطباء ، تصف ما يُعمل فى حالات خاصة ، وتتضمن : الطب العام وطب أمراض النساء وجراحة العظام وطب العيون . وتتضمن هذه المقالات ، فى بعض الأحيان ، نبذة قصيرة فى التشريح وفى علم وظائف الأعضاء .

هكذا « رسالة القلب » الغريبة المكتوبة فى بردية ابرس Ebers . « بداية أسرار الطب ؛ معرفة حركات القلب ومعرفة القلب . به أوعية تذهب إلى كل عضو فأينما يضع الطبيب إصبعه ، سواء أكان على الرأس أو على القذال أو على اليدين أو على القلب نفسه ، أو الذراعين أو الساقين أو أى موضع آخر ، فإنه يحس بشيء من القلب ، إذ تذهب أوعية من ذلك العضو إلى كل جزء من أجزاء الجسم ؛ وهذا هو السبب فى أنه « يتكلم » فى أوعية كل عضو » .

قد يطرأ على بالنا أن ممارسة التحنيط اضطرت المصريين القدماء إلى الإلمام بتشريح الجسم ؛ غير أن ما يدهشنا هو أن الأمر ليس على هذا النحو ، وتتضمن مقالاتهم كثيراً من التعاريف الخيالية . فمثلاً ، لم يعرفوا شيئاً عن وجود الكليتين ، وجعلوا القلب ملتقى عدد من الأوعية التى تحمل كل سوائل الجسم — من الدم (وهذا

صحيح) إلى الدموع والبول والمنى (وهذا غير صحيح) .

أما الوصفات الطبية ، والأمراض التى استُعملت لها ، فعددها كبير جداً . ورغم صعوبة التعرف عليها ، لأننا لانزال بعيدين عن إمكان الترجمة بدقة ويقين ، لجميع الكلمات التى تصف الأمراض والمواد المذكورة فى دستورهم الأقرباذينى (الفارماكوبيا) ، ولكن بوسعنا ترجمة الجزء الأكبر من وصفاتهم تلك ، وأن نلاحظ أحياناً نجاح العقاقير الموصوفة .

كتب عدد كبير من الوصفات الطبية لعلاج أمراض الجهاز التنفسى (النزلة الشعبية والتهاب الحنجرة) ، والسعال الناتج عنها . ولو أن التفاصيل الداخلية لهذه الأمراض لم تكن ، فى كثير من الأحوال ، مفهومة لقدامى الأطباء هؤلاء ، فقد كان بوسعهم ، على الأقل ، أن يتعرفوا على الأعراض الظاهرية ، ويصفوا عقاقير لم يُتفق عليها عموماً . فوصفوا عسل النحل والقشدة واللبن لالتهابات الحلق ، والاستنشاق للحالات الأكثر خطورة .

وأحياناً كانوا يوصون بغذاء أكثر دسماً للأمراض الرئوية . كما خصصوا فقرات طويلة فى كتبهم للاضطرابات المضمية والمَعِديَّة ، وانتفاخ البطن والسرطان وحالات النزف والإمساك والديدان . وعرفوا كيف يستعملون اللبوس والضمادات العشبية والحقنة الشرجية ، واستعملوا زيت الخروع لعلاج الأمعاء . واستعملوا بعض العقاقير الأخرى للمجارى البولية وهى ذات أهمية ، إذ تدل على أن قدماء المصريين أصيبوا بالبلهارسيا ، التى لاتزال من الأمراض المنتشرة فى مصر . وقد ألموا تمام الإلمام بأوجاع الرأس ، من الصداع النصفى الذى عرّفوه بدقة بالغة ، إلى أمراض الأسنان وإصابات العيون . وتشير النصوص إلى علاج الأسنان . وفضلاً عن هذا نعلم من المومياوات أن قدماء المصريين كانوا على علم بحشو الأسنان بخليط معدنى . كما استعملوا الذهب فى تثبيت الأسنان غير الثابتة ، وكانوا فى بعض الأحيان يثقبون عظام الفك لتصفية الخراريج . وكذلك عالجوا أمراض اللثة (الخراريج والالتهابات) . وقد أبدوا عناية كبيرة فى علاج العيون من الغبار ونقص الوسائل الصحية . وتوجد عدة وصفات لعلاج العيون والجفون ، وهى خاصة بالرمد الحبيبى وظلام عدسة العين (الكاتاراكتا) ، وما يسمى بالعشى (عدم الرؤية ليلاً) استعملوا له عقاراً من كبد الحيوان ، ويبدو أنه كان علاجاً ناجعا ، إذ تستعمل خلاصة الكبد اليوم لعلاج هذا المرض .

يجب أن نعترف بأنه على الرغم من أن الطرق التى استعملها أطباؤهم كانت أحياناً سطحية ، وأن دستورهم الأقرباذينى كان يبدو غريباً (سمى بالطب البرازى ، إذ استعمل قدماء المصريين كثيراً ، براز البجع وأفراس النهر والذباب وغيرها) ، فإن ملاحظتهم لأعراض الأمراض كانت دقيقة والعلاجات التى استعملوها ناجعة .

علاوة على ما تقدم ، قام المصريون بأعمال فى مجال علمى آخر ، هو جراحة

العظام . وتتناول الرسالة المحفوظة فى بردية إدوين سميث Edwin Smith أمثلة لتلك الجراحات ، مثل رضوض فقرات الظهر ، وانخلاع الفك وبعض الكسور (فى عظام الترقوة والعضد والضلوع والأنف والجمجمة) ، وطرق فحص ٤٨ حالة فحصاً منظماً تبعاً للقواعد الآتية :

العنوان : تعليمات خاصة بحالة معينة .

الفحص : إذا فحصتَ رجلاً يشكو من كذا وكذا ، فإذا لاحظتَ أعراض كذا وكذا ، فاتبع ما يأتى . . . . . (كأن يعيد عظاماً مخلوعة ، إلى مواضعها) . ثم يأتى التشخيص : « فعليك أن تقول : إن رجلاً يشكو من حاوت معين ؛ وهو مرض سأعالجه » .

وأخيراً يأتى العلاج : « توضع له ضمادة أو يُدَلَّك كل يوم حتى يشفى » .

أما إذا كانت الحالة خطرة ، كانخلاع فقرة عنقية مع خلل فى العمود الفقرى ، يدرك الجراح عجزه : « إنه مرض لا يمكن أن يُعمل له شىء » .

لا شك فى أن السحر يحط من قدر الطب المصرى القديم ويجعله يبدو كما لو كان وصفات تافهة . ولكن يجب أن ندرك أن قدامى ممارسى الطب كانوا يتمتعون بلقة الملاحظة وتوصلوا أحينا إلى طرق العلاج الصحيحة . ومع ذلك ، فقد طبقت شهرة علم الطب المصرى الآفاق فى العصور القديمة بالشرق الأدنى حيث اشتد الطلب على الأطباء المصريين ، وكذلك فى بلاد الإغريق ، لأن هيبوقراطيس وجالينوس لم يخفيا أن جزءاً من معلوماتهما جاءت من المؤلفات المصرية التى درساها فى معبد إمحوتب فى منف . ولا شك أن الشهرة التى يتمتع بها الطب المصرى راجعة إلى وجود مصحات ملحقة بالمعابد ، فى الحقبة المتأخرة من التاريخ الفرعونى ، حيث يتدخل الإله بمساعدة كهنته الأطباء ، فى علاج الحجاج بما يشبه المعجزات ، وإعلان حالات الشفاء التى تمت على أيدى حابو Hapu وإمحوتب وسيرابيس . وحتى بغير هذه الدعاية البارعة ، فالطب المصرى خليق بأن يُدْرس بعناية .

الطرق : لا شك أن النيل كان خير وسيلة للمواصلات فى مصر القديمة ، والطريق الطويل الوحيد فيها . فمن الشلال الأول إلى البحر ، كانت تجرى فيه السفن الحربية القوية ، والصنادل الضخمة المستخدمة فى نقل المسلات والأحجار والأحمال الثقيلة اللازمة للإدارة المدنية وللمعابد ، والصنادل التى تنقل الموظفين من مكان إلى آخر ، والقوارب الأقل من تلك ، والتى يستقلها المواطنون عند الحج . وكانت الترع الرئيسية المتفرعة من النيل أشبه بالطرق المحلية ، تصل بين الموانىء الهامة الواقعة على النيل . ومع ذلك ، لم يكن من الممكن استخدام ذلك « النهر العظيم » فروعه الطبيعية والصناعية فى مثل النقل بعرض المملكة . ومما لا شك فيه أنه لابد أن كانت هناك جسور على الترع المتوسطة العرض . ومن بين الجسور القليلة المعروفة ، ذلك الجسر الموصل بين جُزْءَى قلعة الأسرة التاسعة عشرة عند القنطرة عبر الخندق المحيط بالحصن . ولم يكن بالإمكان الخوض فى المياه إلا إذا كانت ضحلة .

وبناء على هذا ، كان لابد من استخدام « المعديات » فى ذلك الوقت ، كما هى ضرورية الآن . كما أن النبلاء الذين يملكون قوارب ، كانوا يساعدون « من ليس له قارب » .

وبينما كانت المملكة كلها تستخدم تلك الطرق المائية ، كانت الطرق البرية كثيرة أيضاً . كانت الطرق «العظيمة عديلة كالقنوات العظمى ، والممرات الريفية وفيرة وفرة ترع الرى ، فإذا ما حفرت قناة ، استعملت ضفتاها طريقين بريين . وهكذا الحال اليوم . ويوضح الرمز الهيروغليفى للطريق تصميم أحد تلك الممرات وأعواد البردى السامقة النامية على ضفتى القناة ، اللتين كان ارتفاعهما أكثر من عرضهما ، وكان القرويون يذهبون إلى الحقول سيراً على الأقدام . بعد ذلك استعمل النبلاء تلك الطرق بعرباتهم . وفى بعض الأحيان كان الأمر يقتضى القيام برحلة طويلة ، كما هى الحال مع ساكن الواحات الذى كان يُحَمِّل حماره بالأمتعة والبضائع ، وينتقل به من وادى النطرون إلى اهناسيا المدينة ، فيؤلمه ضيق الطرق الفرعونية .

تفرعت الطرق الصحراوية عند حدود وادى النيل ، من شبكة القنوات والطرق فى مصر نفسها . كان بعض هذه الطرق مجرد صخور لا يستخدمها سوى الصيادين والشرطة وأحياناً البدو . وهناك طرق أخرى من أزمنة سابقة ، كانت ضرورية لاقتصاد المملكة . تقع بعض الطرق القديمة بطول الأودية الجافة الواسعة ، التى اختيرت منذ الأزمنة الغابرة لما بها من آبار كثيرة . تلك كانت الطرق التى سارت فيها جيوش فرعون إلى المناجم الواقعة فى الجبال الشرقية ، أو إلى شواطىء البحر الأحمر . عُثر على طول تلك الطرق على نقوش مكتوبة على الحوائط والألواح ، تخليداً لذكرى البعثات التى سارت فيها منذ عصر ملوك الثينيين ، إلى عصر أباطرة الرومان . وكان هناك خمسة طرق متفاوتة الأهمية لنقل الذهب من المناجم ، والبهارات من پونت ، والمنتجات التى يبيعها البدو فى حبنو وإدفو وقفط . وكانت هذه المدينة الأخيرة نهاية خط التجارة الآتية من بلاد الشرق ، وصار إلهها « مين » ، حامى الجبال العربية .

وعلى الضفة الأخرى للنيل ، امتدت الطرق من أبيدوس وديوسپوليس پارڤا Diospolis Parva إلى الواحة الخارجة ، كما امتد طريق من قرب اوكسرنخوس Oxyrhynchus إلى الواحة البحرية . وعبر هذا الطريق وصلت عبادة ست ، سيد منطقة اوكسرنخوس إلى الواحات العظمى . امتد ذلك الطريق إلى بلاد النوبة ، وكذلك كان « درب الأربعين » ، الذى استعمل إبان العصور الوسطى لنقل الرقيق والبضائع من دارفور إلى مصر . وإلى الشمال الغربى ، يترك الطريق المتجه إلى شاطىء البحر المتوسط زاوية الدلتا ويتجه إلى الصحراء الليبية . وكان فى الشمال الشرقى طريقٌ مماثل يتجه نحو فلسطين . وبنى ملوك الدولة الحديثة الحصون على طول هذه الطرق العظمى . وكان هناك طريق هام آخر ، يخرج من مصر السفلى ، ويتفرع إلى فرعين (فى عصور لاحقة)

بجانب قناة الماء الملح . فكان يمتد بمحاذاة وادى الطوميلات ، ويستدير شطر خليج السويس ، نقطة النزول إلى سيناء . ويقع «بيت سوبد ، سيد الشرق» عند بداية الطريق ، و «بيت حتحور ، سيدة الفيروز» عند نهايته . وهكذا حمى هذان الإلهان طريق العبور .

نجح تنظيم الطرق المصرية فى عهد الحكومات الوطنية . ولما جاء الرومان ، بناة الطرق العظام منذ العصور القديمة ، لم يحتاجوا إلى أكثر من رفع أرض الوادى على جوانب الطرق ، وإصلاح آبار المياه على طول طرق الصحراء القديمة .

الطعام : إذا حكمنا نحن من واقع ألوان الطعام الأخاذة التى عرضها المصريون فى الدولة القديمة ، فى مصاطبهم ، والموائد التى تحفل بالأطعمة التى تبدو كأنها تدعونا إلى وليمة هائلة ، والخمر والبيرة اللتين تتدفقان ملء الأباريق ؛ استنتجنا أن لقدماء المصريين شهية قوية ، وأن لديهم موارد عظيمة تمدهم بتلك الملذات . يحتمل أن يكون الفرض الأول حقيقياً ، أما الثانى فيعتوره الشك . والحقيقة أن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المزارع فى غابر الأزمان ، مثل الفلاح اليوم ، كان يعيش على القليل ، ويخال نفسه محظوظاً إن استطاع الحصول على بضعة أرغفة وجرة البيرة ، والبصل ، وهى باستثناء البيرة الأطعمة الأساسية التى يقيم بها أوده حتى اليوم . ففى دولة تعتمد على مورد أطعمة غير ثابت ، تحدث المجاعات بين آن وآخر . ويذكّرنا كثير من تواريخ الحياة المتضمنة عبارات الثناء ، أن هناك رجالاً ذوى ضمائر حية كانوا يقدمون الطعام للجائع . ولا مناص من استخدام نظام التقتير فى إطعام معظم أولئك السكان الكثيرى العدد .

أما أصحاب الأراضى ، وكبار الموظفين ، والكهنة الذين كانوا يشتركون فى ولائم الآلهة ، والنبلاء ، والوجهاء ، فكان لديهم الكثير من الأطعمة . ما علينا إلا أن ننظر إلى مناظر الحياة اليومية المصورة فى المقابر ، لنرى تلك الطوائف وأبناؤها يتمتعون بكل ما لذ وطاب . فكان الطعام الأساسى هو الخبز ، وكثيرا من الحلويات المصنوعة من الدقيق . ونرى اللحوم (أى اللحم البقرى ولحم الماعز والضأن ولحم الخنزير والإوز والحمام) على موائد الطعام . وكثيراً ما تتضمن المناظر صورا تمثل القصابين والطيور . ومع ذلك ، يجب ألا يغيب عن بالنا أن مصر بلد حار وأن اللحوم لا يمكن الاحتفاظ بها لمدة طويلة . فإذا ما ذبح ثور وجب استهلاك لحمه بسرعة ولا يستطيع الحصول على مثل هذا الترف إلا المجتمع الغنى الكثير العدد . كان اللحم هو الطعام أيام الأعياد ، كما هو الحال اليوم ، ولم يكن ليرى فى وجبات كل يوم . ويبدو أن صيد السمك كان منتشراً على نطاق واسع ، ليهيىء الطعام لمن يعيشون على السواحل وحول المستنقعات ، ويسهل الطعام العادى للفلاح . أما صيد الحيوان ، الذى شاع فى العصور القديمة ، فقل كثيراً فى العصور التاريخية ، حتى صار رياضة .

كان صيادو الحيوان يمدون المعابد باللحوم ، وكذلك البعثات خلال الصحراء ، غير أن

سكان الريف لم ينتفعوا منهم إلا بالنزر الضئيل .

تنتج الزراعة عدة أنواع من الخضروات ، وكميات من الفاكهة ، كما تنتج الحبوب التى يصنع منها الخبز . فكان هناك التين والبلح والرمان والعنب ، وكذلك الكرات والبصل والثوم والخيار والشمام والبطيخ . وتنتج المزارع الألبان ومنتجاتها . وكانوا يحصلون على العسل من خلايا النحل . ولم تعرف فى العصور القديمة كثير من الخضروات والفواكه وألوان الأطعمة الشائعة اليوم فى الأسواق المصرية ، أو أنها لم تظهر سوى فى العصور اليونانية الرومانية ، ومن أمثلتها : الطماطم والسكر والبرتقال والموز والليمون والمانجو واللوز والخوخ ، وغير ذلك . وعلاوة على النبيذ والبيرة ، كان هناك كثير من المشروبات ، يحتسيها قدماء المصريين ، وتركيبها غير معروف لنا .

الطقوس الجنائزية **Funerary Cults** : إذا حكمنا من واقع عدد القبور التى بقيت دون أن تتهدم ، ومن عظمة زخارفها وكثرة النصوص الجنائزية ، يتضح أن قدماء المصريين كرسوا وقتاً وجهد للأمور الخاصة بالحياة بعد الموت أكثر من أى شعب آخر فى العصور القديمة . ومع ذلك ، ينبغى لنا أن نحذر من تكوين فكرة خاطئة عن المعنى الحقيقى للاهتمام الذى خصصوه للموتى عند الاحتفال بالجنازة ، وما بعد ذلك الاحتفال . لم يكن الخوف من الموتى هو الذى أوحى إليهم بتلك الأعمال . وبصفة عامة ، لم يكن الأحياء هم الذين كانوا بحاجة إلى أن يخافوا الموتى ؛ بل إن الموتى هم الذين اعتمدوا على الأحياء ، وكانوا تحت رحمتهم . وما أكده المصريون وحاولوا أن يؤمنوا به ، هو أن الحياة على الأرض خطوة تؤدى إلى صورة أخرى من الحياة تختلف عن السابقة ولايمكن السيطرة عليها كما يحدث فى الحياة على الأرض ، ولكنها رغم هذا حياة حقيقية . هذه هى حياة الجسد داخل القبر ، ولا خوفَ بعدها إلا من الموت مرة ثانية إذ يكون عندئذ موتاً نهائياً . وعلى هذا كان مصير الجثة المدفونة فى أيدى الأحياء الذين وحدهم يستطيعون المحافظة على القدر اليسير من الحياة الباقية لها

وهكذا ، تفسر هذه الاعتبارات أهمية الطقوس الجنائزية . وتشمل هذه الطقوس ، الاحتفالات بعد الجنازة وإعادة تزويد الميت ، بانتظام ، بالطعام والشراب ، إذ بدونها لا يستطيع أحد أن يعيش . وتبين قبور ما قبل التاريخ أن الميت كان يأخذ معه تحت الأرض مخزناً مليئاً بالأطعمة . وكان من واجب ورثة الميت ، ولاسيما الابن الأكبر ، أن يجدد تلك المؤن . ومن الجلىّ ، أنه يمكن تنفيذ هذه الطقوس بسهولة نسبية ، بواسطة أولاد الميت ولكنها تتضاعف بتعاقب الأجيال وتتضمن نفقات متزايدة باطراد حتى تغدو فوق مقدور موارد الأحياء .

نشأت عن هذه المسألة بداية الأوقاف الجنائزية ، وكانت تتألف من تخصيص ممتلكات ذات دخل كبير يكفى الطقوس الجنائزية اللازمة للميت ، ويضمن استمرار

تزويده بالقوت ، ونفقات كاهن يعنى بأمر القبر . بدأ نظام الأوقاف هذا ، أصلاً ، لمصلحة الملك الميت ومعبده الجنائزى . ولكن ، لما كان الملك هو الملك الوحيد لأرض مصر ومواردها ، وكان بوسعه أن يهب تابعيه حق بناء المصاطب (بمواد يحصلون عليها من المخازن الملكية) ، بجانب هرمه ، فقد امتد هذا الحق إلى مشاركة الميت فى طقوسه وأطعمته . فكما أن الملك كان يطعم المخلصين له وهو حى ، كذلك كان يضمن حياتهم فى القبر بأطعمة من مائدته . وتفسر هذه العادة ، تلك النقوش العديدة ، التى تبدأ جميعها بالألفاظ : « تقدمات يعطيها الملك ...... » لا يمكن أن تستمر مثل هذه الطقوس إلا إذا كان البيت الملكى واسع الثراء بدرجة خيالية ، وعدد المنتفعين بهذه الميزات صغيراً نسبياً . ومع ذلك ، فقد اتجه هذان الشرطان إلى الاختفاء بتطور الدولة القديمة اجتماعياً وسياسياً . اضطرُ المصريون بنشأة الطبقات الوسطى وفقد الملوك للثروة ، ونشأة نظام اللا مركزية فى الحكومة ، إلى البحث عن طريقة أخرى غير الرعاية الملكية ، كى يضمنوا المحافظة على طقوسهم الجنائزية .

حاول المصريون ، منذ الأسرة الرابعة ، بمجهودهم الشخصى ، أن يضمنوا تنفيذ طقوس قبورهم ، وهم لا يزالون على قيد الحياة . فكانوا يبذلون كل ما فى وسعهم ، للحصول على قطعة من الأرض ، يعينون فوقها « كاهن الكا » . وكانت وظيفة ذلك الكاهن أن يراعى دوام تنفيذ الطقوس من دخل تلك الأرض ، وتجديد تقدمات الطعام للقبر . تطلَّبَ هذا النظام ، فى عصر الدولة القديمة ، تزويد عدد من الناس بمعاشهم ، لخدمة رجل ميت واحد . ومع ذلك ، فسرعان ما وضح أن تقسيم الأوقاف الأصلية بالميراث قد أدى إلى توقف هذه التقدمات . وعلى هذا ، نشأ نظام جديد ، فى الدولة الوسطى ، يوجب بقاء الأوقاف الجنائزية دون تقسيم ويرثها أحد أبناء الكاهن المكلف برعاية القبر . ويحرر بهذا النظام عقد بين صاحب القبر والكاهن المختار لقبره فى المستقبل . فاحتاط حعبى جفاى Hapidjefa ، حاكم أسيوط بأن نقش نصوص هذا العقد على جدران قبره ، محدداً مقدار الدخل من أوقافه الجنائزية .

وإلى جانب هذه الاحتياطات ، كان الميت يميل إلى الاتجاه أكثر فأكثر إلى الآلهة لتزويده بالطعام والشراب ، مثلما اعتمد أسلافهم من قبل على المعابد الملكية ، فمثلاً ، استطاع نفس ذلك الحاكم ، أن ينال نصيباً كل يوم من تقدمات الطعام المقربة فى معبد ويباوت Wepwawet بأسيوط . وقد ثبت ازدواج طقوس المعابد ، وتقدمات الطعام ، فى عصر الدولة الوسطى ، فى عدة معابد فى الفيوم ؛ ويدل تطور طقوس التقدمات على أن تلك العادة كانت عامة . نعرف ، فى الدولة الحديثة ، مبلغ الأهمية التى علقها الأحياء على إقامة تماثلهم فى أفنية المعابد ، واعتبروا هذا ميزة لهم ، إذ سيكون بمقدورهم ، بعد أن يتناول الإله طعامه ، أن يأكلوا من التقدمات التى تقدَّم لذلك الإله فى كل يوم . وإن ذلك العدد الضخم من التماثيل ، الذى وجد فى مخبأ الكرنك ،

لكثير من الأفراد ، لدليل على انتشار استخدام هذه الميزة .

ورغم هذا النظام ، الذى يضع مصير الميت تحت مسئولية الملك الميت أو الإله الحى ، فقد بدا بوضوح أن من ماتوا فى الأزمنة الغابرة قد آلو تدريجياً إلى مصير محزن ، فأخذت الشكوك تساور المصرى العادى عن مستقبله . إذ رأى أن المقابر القديمة قد هُجرت ، أو نُهبت ، أو أهمل شأنها فلم يهتم أحد بإصلاحها . ويفيض عازف القيثارة ، فى أنشودته ، فى الكلام عن هذه النقطة : « أولئك الملوك المقدسون الذين عاشوا فى راحة قديمة داخل أهراماتهم ، وكذلك فعل النبلاء الذين نالوا المجد .... بنوا لأنفسهم معابد ، اختفت دون أن يبقى لها أثر . ماذا حدث لهم ؟ .... أين قبور إمحوتب أو حور– جدف ، اللذين نسمع كلامهما على شفاه كل الناس ؟ هُدمت الجدران : ومن المحتمل أن قبورهم لم توجد قط » .

وعلاوة على الاحتياطات المادية التى كان يتخذها قدماء المصريين لضمان حياتهم فى القبور ، كانت تأتيهم مساعدات من مصدرين آخرين ، هما : السحر ، وخدمات الأحياء الجليلة . فكانوا يصورون على جدران مقابرهم قوائم مفصلة من تقدمات الطعام ، كما صوروا بدقة متناهية مناظر من حياة الريف – كالبذر ، والحصاد وجمع المحاصيل وصناعة الخبز والبيرة وإعداد اللحم – آملين بهذه الوسائل النظرية وتحوُّل الصورة إلى حقيقة ، أن يضمنوا لأنفسهم موردا مناسباً من تلك المواد الغذائية ، التى كانوا فى خطر الحرمان منها بإهمال خلفهم . وبنفس هذه الطريقة ، ونفس فكرة أن تصوير الطقس كافٍ لتحويله إلى حقيقة ، حاولوا ، بالوعود الخلابة ، جذب انتباه زوار الجبانة وإغرائهم على تلاوة صيغة التقدمة التى تكفى لاستدعاء جميع الطعام المطلوب ، وهى : « يا من تحيون على الأرض وتخدمون أمثالى وترددون : آلاف الأرغفة من الخبز ، وآلاف الأباريق من الجعة والثيران والطيور لصديقنا الطيب س ، ستنضمونَ إلى صحبة الآلهة » . وبعد ذلك يقررون أن النطق بهذه الصيغة لا يكلف الزائر إلا قليلاً من الجهد . « إنها مجرد تلاوة ، ولا تساوى شيئاً . ولا تتضمن أية إهانات أو أى دم خبيث . لا عراك ولا ظلم للفقير . إنها عبارات حلوة مفرحة ولا يملّ القلب سماعها . إنها مجرد نَفَس يخرج من الفم ولا يمكن استهلاكه . لا يسبب جهداً ولا مللاً » .

وبمرور الزمن ، فَقَدَ المصريون ، شيئاً فشيئاً ، آخر وهْم لهم فى استمرار عناية خلفهم واهتمامهم بهم . وتبين طقوس العصور الأخيرة ، أن الموتى كانوا يقنعون بسكيبة رمزية من الماء تُصَبُّ كل عشرة يام . ثم جاء الاحتفال المسمى « عسى أن يزدهر اسمى » ، فقلَّلَ الخدمات التى يطلبها الموتى من الأحياء ، إلى مجرد النطق باسمهم . كان هذا كافياً ليعيد إليهم ـ إبان حزنهم فى حياتهم الثانية بضع لحظات من الحياة الوادعة .

الطقوس المقدسة : ليس لدينا سوى القليل من المعلومات عن الطقوس المقدسة

فى أقدم العصور إذ سلبنا اختفاء معظم معابد الدولتين القديمة والوسطى الأدلة الأساسية على وجودها آنذاك . ومع ذلك ، فيما يبدو أكيداً هو أن طقوس العبادة التى مارستها الدولة الحديثة أو ما قبلها فى مختلف معابد الدولة متعددة الصفات بحيث يتعذر حصرها . قد تختلف أسماء الآلهة وطبيعتها وعلومها اللاهوتية ، غير أن طرق عبادتها كانت على العموم واحدة .

كان الإله موجوداً شخصياً فى معبده ويعيش فى هيكله . وكان الغرض من الطقوس هو المحافظة على حياة ذلك الإله وكيانه ، ووقايته من كل أذى قد يحط من نشاطه على الأرض ، فأقيمت له الطقوس الدينية يوميا . فتبدأ عند مطلع الفجر ، عند فتح المعبد بعد إغلاقه منذ المساء على ساكنه العظيم . وبعد أن يتطهر الكهنة ، يقومون بالاحتفالات الأولى لتقديم قرابين الصباح ، فتُعَدُّ للإله وجبة الصباح فى المطابخ ، ويحملها الخدم حتى الحجرة المقابلة للهيكل . بعد ذلك يُفتح الهيكل ويوقظ الإله بالشعائر الدينية وتلاوة ترنيمة الصباح .

يوضع جزء من التقدمة أمام الإله ، وينسحب الكهنة ليتركوه يتناول « وجبته » ؛ ثم يُغسل التمثال ويُلبس ثياباً نظيفة ، ويزين بالجواهر ويُعطر . وبعد أن يأكل الإله كفايته ، تُحمل القرابين وتوضع على مذابح الآلهة التى تقل عنه فى المرتبة ، أو أمام تماثيل الملوك ، أو أمام الرجال الذين حظوا بمكان فى المعبد . وأخيراً تعاد إلى المطابخ حيث تقسَّم بين الكهنة والهيئة المساعدة . أما طقوس منتصف النهار فتتكون من التطهير والبخور دون تقديم أى طعام . أما طقوس المساء الأكثر تعقيدا فتكرار لطقوس الصباح ، غير أن الهيكل يبقى فيها مقفلاً . ويبدو أن الطقوس كلها كانت تتم فى معبد صغير ثانوى بجانب الهيكل وبعد أن يتناول الإله وجبته الأخيرة ، ينام . وأخيراً يطهر المعبد بالبخور ويقفل فى وجه الأحياء ، وعندئذ تتساقط الظلمات على بيت الإله .

هكذا كانت الطقوس الدينية تتم يومياً بانتظام فى ثلاث حفلات . وفى الأعياد ، يستعاض عن الطقوس العادية باحتفال أكثر حفاوة يتضمن خدمات دينية أكثر دقة وكثيراً من الرُّقَى ، وأحياناً ينقل تمثال الإله خارج المعبد فى ناووس خشبى صغير يُحمل فوق سفينة . أما فى الأعياد السنوية العظمى ، التى قد تمتد عدة أيام ، فتقام شعائر خاصة .

الطوب : بوسع السائح الحديث عندما يزور الكرنك أو الجيزة ، أن يلاحظ بسهولة أن قدماء المصريين كانوا ماهرين فى استعمال كتل من الأحجار بالغة الضخامة ، كما استعملوا الحجر الجيرى والجرانيت بكثرة . ورغم هذا فإنهم لم يستعملوا الحجر إلا للآلهة والموتى ، ولم يستعملوا للأحياء سوى اللبن ، سواء فى بناء قصور الملوك أو بيوت القرى . فكان الريف فى عصر قدماء المصريين يشبه إلى حد كبير ريف مصر الآن . واستطعنا أن نعلم من الرسوم المنقوشة على القبور ، كيف كانوا يصنعون هذا اللبن : يخلط الطين بماء بركة ويقلب

جيداً حتى يصير عجينة ثم يخلط بالتبن ويوضع فى قوالب خشبية ، فتأخذ اللبنة شكل القالب ، وتترك بعد ذلك فى الشمس لتجف (ولاتزال نفس هذه الطريقة مستعملة فى الريف حتى اليوم) . وقد اختلف حجم اللبنة باختلاف العصور ، ولذا نستطيع أحياناً أن نعرف تاريخ المبنى

من أبعاد لبناته . وفى بعض الأحيان ، كانوا يستعملون اللبن المضغوط لبناء سياج حول فناء . وكثيراً ما بنوا الحوائط مقعرة السطح لكى تزداد متانة ، ولهذا السبب كانوا يضعون كتل الأخشاب بين « مداميك » الحائط وقد يضعون جذع شجرة بأكمله وسط حائط ضخم . ولم يظهر الأجرّ الأحمر المحروق إلا فى حوالى سنة ٦٠٠ ق . م . إبان حكم نكاو (الكرنك) . ومن كلمة « طوب » المصرية اشتق اللفظ **adobe** الدال على طريقة رص الأجر فى بناء الحوائط ، واستعمل فى دول البحر المتوسط ، وفى أمريكا اللاتينية .

طيبة Thebes : تحتوى طيبة القديمة ، الواقعة فى مصر العليا على معظم تلك المجموعة الخيالية من الخرائب التى يمكن رؤيتها على ضفاف النيل . وهذه المدينة هى اليوم أضخم مركز سياحى فى تلك الدولة : فيها ، على الضفة اليمنى ، معبدان مركبان ، وإلى الجنوب تقع مدينة الأقصر الحديثة ، بفنادقها ومحطتها وأهلها الصاخبين . يقع معبد الدولة الحديثة فى هذا الموضع الحديث ، وأبهاء أعمدته وفناؤه الذى لايزال الحفر يجدّ فى الكشف عنه ، ومسجد « أبو الحجاج » الجميل الموقر ، والمدينة الرومانية . وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات شمالاً ، تقع الكرنك بمبانيها العديدة ، والقرى الصغيرة المحيطة بها ، ونخيلها ، وعرباتها التى تجرها الخيول . وعلى الضفة اليسرى تقع المعابد الجنائزية الملكية العظمى ، ومدينة هابو إلى الجنوب ، والرامسيوم فى الوسط ، والدير البحرى ، والقرنة إلى مسافة بعيدة جهة الشمال ؛ وعلى حدود الصحراء يوجد تمثالا ممنون الكبيران ، وهما كل ما تبقى من معبد امنحوتب الثالث . وعند سفح الجبل ، تحت ظل قمة طيبة ، تقع المقابر الخاصة ، وهى : دير المدينة ، وقرنة مرعى ، والعساسيف ، والشيخ عبد القرنة (قبور منّا ونخت ورع موسى ورخميرع) . وأخيراً ، يقع وادى الملكات فى بطن الأودية ، ثم وادى الملوك على مسافة بعيدة غرباً . كل هذه الخرائب ومعابد الآلهة والملوك والمقابر ، بقايا احدى مدن العواصم العظمى فى العصور القديمة ــ إنها طيبة هوميروس ذات المائة باب . ولا يُعرف عن بداياتها المبكرة غير القليل ، بيد أنه لا شك فى أن عصر مجدها قد بدأ فى عصر الدولة الوسطى . حلت طيبة محل منف ، منذ الألف سنة الثانية ، ولاسيما بعد طرد المكسوس من مصر ، بأن صارت المركز السياسى والدينى العظيم ، ثم سرعان ما غدت عاصمة الإمبراطورية . فكان فيها عرش أمون « ملك الآلهة » ، وبنى فيها الملوك قصورهم ، ودفنوا فيها فى مقر راحتهم الأبدية .

نتج عن قوة أمون العاتية ، والغزو الأشورى وما جلبه من دمار ، أضرار فادحة

لطيبة فتدهورت تلك المدينة العظيمة بعد عام ٦٦٤ ق.م. ، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . ولكن ، رغم أن العاصمة السياسية قد انتقلت منذ ذلك الحين إلى مدينة فى الدلتا ، ورغم زوال شهرة أمون وانتقالها إلى آلهة آخرين ، فقد بقيت طيبة المخربة أضخم العواصم المعبِّرة عن مجد الماضى العظيم . ولاتزال المكان الذى يُظهر فيه النبوغ المعمارى المصرى ، نتائجه الناجحة الخالدة . كما أن بها أحدث وأجمل مناظر القبور . ومازال السياح ، منذ ألفى سنة ، يذهبون إليها ، وليس هناك أى أمل فى أن تخلف أية مدينة مصرية طيبة أو تبذها فى شهرتها العظيمة .

الطيور : كل من ينظر إلى النقوش الهيروغليفية كتلك المحفورة على مسلة كليوباتره يلاحظ كثيراً من الطيور واضحة المعالم . ومن بين العلامات المستعملة ، أكثر من عشرين علامة تمثل الطيور ، منها نوعان : الشقشاق ، ويجع چابيرو ، وكانا يهاجران إلى السودان فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م . غير أن جميع الطيور المستعملة فى الفن المصرى غير موجودة فى الحروف الهيروغليفية . فهناك إفريز لأحد قبور الدولة الوسطى نقش عليه ٢٩ نوعاً مختلفاً من الطيور (من بينها خفاشان ، وكانت الخفافيش ، ولاتزال تؤم القبور المهجورة وتفسدها ببرازها) . كان قدماء المصريين ، كلما رسموا صورة مستنقع ، صوروا فيها مجموعة كبيرة من الطيور تطير فوق أعواد البردى ، بين جذوعها عشاش بها طيور جاثمة أو أفراخ طيور مذعورة . كان الفنان يجيد رسم خصائص كل نوع فى مهارة بالغة ، ويوضح ريشها الزاهى الألوان . الأزرق والأخضر والأحمر — وهى الألوان المطابقة لها تماماً . تنتشر هذه الطيور وسط الزروع الخضراء والأزهار ، تضرب الهواء بأجنحتها ، وتصرخ بصورة تكاد تكون حية . أما الطيور الجارحة فكانت تعيش فيما بين حدود الصحراء الصخرية وضفاف النيل — ومنها الصقر الملكى والعقاب ، الذى تتجسد فيه الربة نخبت والصقر والحدأة ، وفى الليل البومة العادية وبومة الأجران والصقر . وسواء أحبَّ الفلاح طيور الحقل أو لم يحبها (استُعمل العصفور الدورى المسكين حرفاً هيروغليفياً ليدل على الشىء الصغير أو الشىء الردىء) وكان هناك وقتذاك ، كما فى هذه الأيام : الغراب العادى والغراب الأسحم والهدهد والحمام والخطاف ، وفى زمن الشتاء الصفّير وغيره من الطيور المهاجرة .

وفى البرك والمستنقعات : القاوند ومجموعة كبيرة من الطيور المائية — أبو قردان والنبَّاح وأبو ملعقة والنكّات والدشنيق (الذى يقال إنه ينظف فم التمساح) ، وأنواع كثيرة من مالك الحزين ، من بينها : أبو شوشة والعنقاء (بريشها الأحمر النارىّ) ، وأنواع عديدة من البط والإوز والطيور الأخرى ذات النسيج بين الأصابع منها : الشرشير والبجع والغطاس وغيرها .

جرت عادة قدماء المصريين أن يصوروا البط والإوز والحمام كثيراً . فيصورونها معلقة ميتة مربوطة فى حزم ، أو مشوية . ويصورون بعضها الآخر مأخوذاً من الشبكة وهو مضطرب مذهول ، وقد رُبطت

أجنحته فى قسوة ، أو وُضع فى قفص . وتُسمّن الطيور قبل ذبحها وتقديمها على المائدة وتُغذّى الطيور باليد فى الأفنية الخلفية لبيوت النبلاء وفى المعابد .

ومن بين هذه الطيور : إوز النيل الذى تزعج ذكوره المستبدة قطيع الإوز كله ، والإوز العادى والإوز الرمادى والشرشير ، ومن البط : الخضيرى والأصلع وغيرهما والحمام ، وفى العصور المبكرة جداً ، الكراكى . وكانت أبراج الحمام تصنع ، فى العصور الحديثة ، من الطين المجصص ، فتبدو جميلة المنظر وسط الحقول . أما فى مصر العليا ، فلم تكن كذلك ، وإنما كانت مبانى ضخمة أوحى بهيكلها فن المعمار لدى أسلافهم . ولكننا لا نعتقد أن الحمام كان

يربىّ فى مصر العليا ، وذلك تبعاً لما نعلم . وعلى أية حال فإن هذا الطائر السمين ، الذى لا يشبع من حبوب الأجران ، ومن نخيل البلح ، كان من أنواع الترف على الموائد المصرية منذ أقدم العصور . وفى حوالى سنة ١٤٥٠ ق . م . ، اهدت سوريا إلى تحوتمس الثالث ، (نابليون مصر) ، أربعة طيور لم تكن معروفة الأصل « تبيض كل يوم » . ولم تكن هذه العجيبة التى ظلت نادرة فى مصر حتى مجىء الإغريق ، سوى الدجاج ، الذى لايزال الفلاحون يربونه حتى وقتنا الحاضر .

لا يجب أن ننسى الطائر العملاق الذى لم يستطع الطيران ، بل كان يجرى على الأرض ويرقص عند شروق رع ، ويدور كالخذروف ، ويضرب الهواء بأجنحته القصيرة . ومن ذيوله الجميلة ، . صنعت مراوح الأمراء الذين كانوا يصيدون تلك النعامة المسكينة حتى انقرضت تماماً من الصحراء المصرية .

٤

العادات الجنائزية :تتكون الجنازة ، فى ديانة طيبة مثلاً ، من أربع مراحل . فأول شيء هو المناحة فى بيت الميت ، حول سرير الموت ، الذى تلعب النائحات المحترفات فيه دوراً هامًا ، وهن يلطمن رءوسهن وصدورهن ، ويحسون التراب فوق أجسامهن ، وينادين السماء كى تشهد على حزنهن . ثم الموكب المكون ليحمل الميت وأمتعته إلى النيل . وفى المرحلة التالية ، وهى عبور النهر ، يوضع التابوت الخشبى الذى بداخله المومياء ، فوق حامل وينقل فى قارب . وإبان عبور النهر تقف امرأة من كل جانب ، تمثلان إيزيس ونفتيس ، تنتحبان طوال فترة العبور ، وتبكيان سوء حظهما .

وتحيط بسفينة الميت عدة سفن أخرى تحمل أفراد الأسرة وهم يولولون ، كما تحمل أصدقاءهم وأمتعة الميت ، فيحدثون صخباً وأى صخب . ويجتمع الموكب من جديد على الضفة الغربية ، ويوضع حامل التابوت فوق زحافة تجرها الأبقار . فيجتمع المشيعون فى جماعات حول التابوت يتبادلون التعازى مع أصدقائهم ، ويدور الحديث حول ضعف الجسم البشرى . ويسير الموكب فى طريقه المترب فى بطء حتى يصل إلى الجبانة ، ويطلق الكهنة البخور على حامل التابوت ، وهم يرتلون الأناشيد الطقسية . وعند بلوغ القبر ، يتوقف المعزون ، وتبدأ المرحلة الأخيرة . ويقوم الكهنة أولاً بالطقوس ، كفتح الفم ، وبعدها تركع الأرملة أمام التابوت وتمسكه بذراعيها كما لو كانت تحاول استبقاء الميت فى الدنيا ، وتقول كلمة الوداع . بعد ذلك يُنزلون التابوت إلى موضعه فى القبر ومعه متعلقات الميت . ثم يُقفل السرداب ويشترك الجمع المحتشد فى وليمة جنائزية ، بالاشتراك مع الرجل الراحل .

أما فى المدن الواقعة على نفس الضفة التى فيها الجبانة ، فيكون الاحتفال مختصراً ، فلا حاجة إلى استعمال السفن ، وفيما عدا ذلك فالاحتفال هو نفس الأول .

هذه طريقة دفن رجل غنى ، يأخذ معه كل ممتلكاته المنقولة ، ويتخذ موضعه فى أحد القبور المزينة بالمناظر ، والتى لاتزال تثير إعجاب السائحين عند القُرْنة . لم يتمتع كل فرد بهذه الميزات ، وتقول قصة

ساتنى Satni ، إن ذلك البطل سمع ذات يوم ، من شرفته ، نحيباً عالياً . فانحنى ،

فرأى رجلاً غنياً يُنقل ليدفَن فى الجبال ، يتبعه الحزانى وكل صنوف التشريف . ولما نظر ثانية ، رأى رجلاً فقيراً محمولاً من منف ، وملفوفاً فى حصير من القش ، ولا يتبعه أحد قط . وليس للغالبية العظمى من الناس قبور ، فيذهبون إلى موضع راحتهم فى حفرة بسيطة تحفر فى الرمل ، أو يرصونهم فى مقبرة جماعية شيدت فيها مَضى لشخصية غنية نُسيت منذ زمن طويل . ولكن يبدو أن أوزيريس كان يتعرف على أتباعه ، وأحياناً يصادر الودائع الجنائزية الفخمة الخاصة برجل غنى مستهتر ويعطيها إلى رجل فقير طيب القلب .

عبادة الحيوانات : (انظر الحيوانات المقدسة) .

العبرية Hebrew : انظر الخروج ، وإسرائيل .

العدالة والقضاء : يفيض أدب الحكمة فى ذكر واجبات القاضى . يجب أن يصغى تماماً إلى المدعى وأن يرفض الهدايا ولا يقبل الضغط ، وألا يكون بالغ القسوة إذا ما جاش به الانفعال ، إلى غير ذلك من الواجبات .

لما كان الفرعون مسئولاً عن استتباب النظام ، كان عليه تسوية الخلافات بين الشعب حسب القانون ، وأن يضع اللصوص والقتلة تحت المراقبة ، وأن يهب مصر نظاماً يكفل سير العدالة . فكان يسند سلطته القضائية العليا إلى الوزير الذى يجب عليه أن يستمع فى قاعته إلى كل من يستأنف حكماً ، ويراقب سير الإجراءات القضائية فى المملكة كلها على خير وجه . كان النظام القضائى دقيقاً وصارما ، ولكنه كان مخففاً فى الشئون المدنية (ففى حالة المنازعات مع خزانة الدولة ، مُنح أهل العاصمة مهلة ثلاثة أيام للاستئناف ، أما أهل الريف فمُنحوا مهلة شهرين) . كانت الإجراءات الجنائية قاسية فكانوا يستجوبون المجرمين بالضرب الذى كان قانونياً وشائعاً . كان هناك كثير من الحكام والقضاة : رؤساء يشرفون على المنازعات فى المدن ، وكذلك مجالس تتألف من الأعيان والموظفين (تداخلت واجبات الموظفين المدنيين والقضائيين وموظفى المساحة والضرائب ، نتيجةً لنظام الشئون الاجتماعية والاقتصادية) وكان لديهم محاكم عليا فى القصور الملكية ، ومحاكم فى المعابد تباشر سلطتها إما عن طريق مجالسها ، أو بأوامر الوحى الإلهى . أما المشاكل البسيطة فكانوا يفصلون فيها « عند باب » الإدارات الحكومية . فتُقدَّم الشكاوَى كتابةً أو يسجلها كاتب المحكمة . ويمثل الإدارة الحكومية « مندوب » . ويبسط المتقاضون قضاياهم تبعاً لپروتوكول موضوع (انظر البلاغة) ، ويقومون بمرافعات منمقة . وسواء أكانت القضايا خاصة بالسرقات أو بالنصب فيما يتعلق بالمصالح الكهنوتية أو كانت قضايا معقدة حول ملكية الأراضى ، فغالباً ما كانت الإجراءات عديدة لا تنتهى ، وطلبات التأجيل ومهلات التروى فى القضايا كثيرة ، واحتمالات الاستئناف لا نهاية لها . وبعض ملفات القضايا من أطول النصوص المكتوبة باللغة المصرية القديمة .

كان قمع الجرائم والجنح فى الريف من اختصاص حكام تلك الأقاليم ، الذين يبدو أنهم كانوا يبتون فيها بسرعة وبطريقة فعالة ، حتى إننا لم نسمع عن جرائم عامة فى الريف ، إلا ما ندر . غير أن بعض الجرائم أثرت على مصالح الحكومة الإلهية : كجرائم السرقة بالإكراه ، والمؤامرات الهدامة ، ومحاولات قتل الملك ، وادعاء ملكية الأشياء المقدسة ، والعيب فى الذات الملكية وسرقة المقابر ، والاعتداء على المومياء . فى مثل هذه الحالات تتحرك سلطات العدالة العظمى : فتقام المحاكم فوق العادة ، وتؤلف لجان التحقيق ، ويتدخل الملك مباشرة . ولما كانت أعمال العيب فى الذات الملكية لا تحدث إلا بسبب ضعف السلطة الملكية ، فإن إجراءات المحاكمة تستغرق وقتاً طويلاً ، وكان اللجوء إلى استخدام العصا فى سبر القضايا يؤدى إلى تراجع الشهود والمتهمين عن أقوالهم وإلى مناورات مشبوهة أشبه بالفصول الدرامية . وأشهر قضية يمكن التمثيل بها على ذلك هى قضية اغتيال رمسيس الثالث ، إذ رشا أهل الحريم الملكى القضاة لخصوصيين ، فسرعان ما وجد هؤلاء القضاة أنفسهم فى قفص الاتهام !

أما العقاب البدنى فكان يتفاوت ما بين الإعدام للتمرد والزنى من جانب المرأة ، إلى الضرب من أجل السرقة والجرائم البسيطة وسوء استعمال الإدارة والنصب والوشايات التافهة . وقلما كان يُحكم بالإعدام (قطع الرأس أو الحرق أو الانتحار الاختيارى للأعيان والوجهاء) ، أما الضرب فكان يوقَّع بسخاء ، تبعاً لمعيار دقيق ! وبين هاتين النهايتين ، كانت هناك عقوبات أخرى مثل جدع الأنف وقطع الأذنين ، والنفى إلى برزخ السويس . كذلك كان لدى قدماء المصريين سجون ولكنها لم تستعمل إلا لحجز من ينتظرون الإعدام ، والحجز الوقائى . وفيما عدا ذلك لم تستعمل تلك السجون إلا لإيواء المحكوم عليهم بالعمل الإجبارى وفى أشغال الرى والمناجم والحقول . وقد أثار اختراع المصريين لمعسكرات العمل الإجبارى هذه إعجاب الاغريق . ويصفها هيرودوت بأنها كانت لصالح الشعب ، ويضيف ديودور بأنها كانت تُخضِع المجرم عن طريق العمل .

عسل النحل : « بكى الإله رع ، وسقطت الدموع من عينيه على الأرض فتحولت إلى نحلة . وصنعت النحلة قرص العسل وشغلت نفسها . بإزهار كل نبات ، وهكذا صُنع الشمع ، وكذلك العسل ، من دموع الإله رع » .

استخدم قدماء المصريين هذه الأسطورة لتفسير كيفية مجىء النحل والعسل إلى العالم . تؤكد النصوص والنقوش أن المصريين استعملوا كميات كبيرة من العسل منذ الدولة القديمة . وتبين « غرفة الفصول » فى معبد أبى صير (الأسرة الخامسة) والصور المرسومة فى بعض مقابر طيبة من الأسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٦ ؛ شتى عمليات تربية النحل ، وجمع العسل (بالتدخين) ، ووضعه فى قدور . فصنعوا الخلايا من الفخار ، وربما صنعوها كذلك

من أنابيب من أعواد الغاب ولصقوها معاً بالطين ، وهذه الطريقة لا تزال شائعة فى بعض المناطق الريفية . وأحياناً كان قدماء المصريين يذهبون إلى الصحراء ليبحثوا عن العسل البرىّ . وكانوا يستوردونه ، فى الأزمنة اللاحقة ، من بلاد الإغريق ومن سوريا . وقد لعب العسل دوراً كبيراً فى غذائهم كما هو المتوقع فى دولة لا تعرف شيئاً عن السكر .

استعمل قدماء المصريين العسل كثيراً فى المستحضرات الطبية (انظر الطب) ، وفى المعابد لصنع الدهانات . وكان للآلهة أحياناً خلاياهم الخاصة . ولكنه لم يستعمل فى التحنيط كما استعمل فى العالم الاغريقى .

العصر الصاوى Saite Period : بعد أن طرد بسمتك الأول ملك سايس (صا الحجر) ، الأشوريين والاثيوبيين وأخضع أمراء بلده ، أعاد النظام فى مصر التى حظيت بنهضة سياسية وروحية فى عهد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ — ٥٢٥ ق.م.) — نكاو الثانى وبسمتك الثانى وأپريس وأمازيس . ولم تستطع اثيوبيا غزو مصر ثانية ، وصُدَّت الإمبراطورية البابلية . وعادت الزراعة إلى رخائها السابق ، وأعيد تنظيم البلاط والإدارة . وبدأ استعمال الكتابة الديموطيقية فى جميع أنحاء المملكة . فزينت سايس التى دفن فيها الملوك فى معبد نيت Neith ، ربتهم الحامية ؛ وحفلت منف التى كانت العاصمة الحقيقية ، وجميع البلاد الشمالية ، بالمبانى المقدسة الجديدة . ولم تهمل طيبة ، وهى تحت الرعاية الروحية لزوجة أمون الإلهية . كان العصر الصاوى خليطاً عجيباً من الحضارة الحديثة — تقويها التغيرات السياسية العظمى لذلك الوقت — والانتعاش وبعث التراث الفكرى والفنى للزمن الماضى : فبدا كأن الدولة كانت تريد أن تحظى باستعادة الشباب من ماضيها الماجد ، فكان بوسع أى حكيم فى سايس وهو يقارن بين مصر والاغريق أن يبدى ملاحظته لصولون الأثينى : « سيجد الاغريق أنهم ليسوا إلا مجرد أطفال » وفتحت مصر موانئها للتجارة الإغريقية ، سواء عاد عليها هذا بالخير أو بالشر (انظر نوقراطيس) . وتكونت الفرق الممتازة فى الجيش من المغامرين الكاريين والأيونيين والدوريين . وفى تلك الأثناء ، كرَّس العلماء من الكهنة نفوسهم لدرسة آثار بلدهم ، وقام النحاتون بعمل تماثيل للوزراء والقواد مستلهمين الوحى من نماذج الدولة القديمة والدولة الوسطى . ولما غزا الفرس مصر ، وضعوا نهاية للعصر الصاوى

عصر الاضمحلال الأول First Intermediate Period : استمرت هذه الحقبة الفاصلة بين الدولة القديمة والدولة الوسطى ، أكثر من قرنين ، من حوالى سنة ٢٢٨٠ — ٢٠٥٠ ق . م . وامتدت من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة ، فقد حدثت ثورة قضت على الدولة القديمة . ويصف مانيتون Manetho تلك القلاقل ، فيقول : « كان بالأسرة السابعة سبعون ملكاً حكموا سبعين يوماً » . وفى تلك الأثناء ، احتفظت ملكية منف ، لوقت

ما ، بسلطة حكومية ، وذلك بمنح نبلاء الأقاليم امتيازات ثم مزيد من الامتيازات ، فاختل نظام الحكومة ، وانقسمت المملكة إلى عدد كبير من الإمارات المضطربة . ولم يكن هناك حرس على حدود مصر ، فجاء البدو ليلقوا الذعر فى الدلتا . وفى حوالى سنة ٢٢٤٠ ق . م . قام أمراء « أهناسيا المدينة » Herakleopolis واحتلوا مداخل الفيوم فى ظروف غير معروفة لنا ، واغتصبوا اللقب الملكى وحصلوا على البيعة لهم بالسيادة . وتقول القصص التاريخية المتوارثة ، إنهم كوّنوا الأسرتين التاسعة والعاشرة . وبعد حوالى قرن ، بدأت ثورة طيبة بقيادة أنتف ، أحد أمراء الأسرة الحادية عشرة . وتلا ذلك نضال طويل بين السلطتين انتهى بانتصار أسرة طيبة . وفى حوالى سنة ٢٠٥٠ ق . م . أباد الطيبيون أعداءهم بقيادة منتوحوتب ، وأعادوا وحدة الدولة وأسسوا الدولة الوسطى .

أصابت مصر مجاعةٌ إبان هذه الاضطرابات ، وعانت الانهيار الاقتصادى ، واختلال النظام وانتشار أعمال العنف والفوضى . « اختفى كل شىء طيب » ، « ولم يُترك حتى قلامة الظفر » ، « يطلبون الخبز بالدم » ، « قتل الناس آباءهم » ، « يضحك المرء من المرض ، ولا يبكى للموت » ، « مصر فى حرب داخل المقابر » ، « كفَّ رع عن أن يخلق » . « بكى الحكماء حال المملكة » (انظر التشاؤم) ، وإن تنبأ العرافون بمستقبل زاهر . وجعل سوء الحظ الناس يفكرون مليا ، وسأل البائسون أنفسهم عن ضرورة البقاء ؛ وألقى المرتابون الشكوك على الحياة بعد الموت ، وأنشد عازف القيثارة أنشودته التى تدعو المرء للاهتمام بيومه وبنسيان الغد . ورغم أن الفنون قد ذوت ، فإن الأدب المصرى أنتج بعضاً من أروع وأهم مؤلفاته . وصار الشعور الدينى أكثر عمقا ونالت عبادة أوزيريس قبولاً فى جميع نواحى المملكة . وأدت الفوضى واضطراب الأمن إلى دفع المصريين إلى التفكير فى أهمية القيم الأخلاقية . لم يحدث قط فى مصر أن تحدّث الناس عن العدالة والإحساس والفضيلة بأكثر مما تحدثوا عنها فى تلك الفترة .

العصر الليبى Libyan Period :
سُمى هذا العصر ، الذى يشمل أسرة بوباستيس الثانية والعشرين وأسرة (تانيسْ) الثالثة والعشرين ، بالعصر الليبى نسبة إلى أصل ملوكه شاشانق Sheshonq وأوسوركون Osorkon وتكلوت Takeloth وغيرهم من الأمراء ذوى الأسماء الأجنبية .

فى عصر الرعامسة ، استقر المشوش (أو الماشاواشا) ، أهل ليبيا ، فى مصر ، ولاسيما فى الدلتا . وفى عصر الملوك الكهنة ، تكونت منهم أغلب القوة الحربية . وقد مدَّ « رؤساؤهم العظام » سلطانهم ، بنجاح ، من تل بسطة إلى منطقة طيبة ، حتى نجح شاشانق بن نمرود Nemaret ، أخيراً فى الجلوس على عرش آخر فرعون من فراعين الأسرة الحادية والعشرين ، فى حوالى سنة ٩٥٠ ق.م كانت هذه الحقبة الليبية ، لسوء الحظ ، امتداداً لحقبة سابقة (انظر الملوك الكهنة) . لم يتميز ذلك العصر بالكثير من

الآثار الفنية ، ولكن صنعت فيه بعض الحلى البرونزية الجميلة . ولجأ الناس إلى وحى أمون يستفتونه فى شئونهم وقضاياهم . وأحدث التنافس على العرش وعلى المناصب الكهنوتية العليا ، حالة غامضة معقدة ، حتى وجد العلماء صعوبة بالغة فى ترتيب الملوك والكهنة ترتيباً تاريخياً صحيحاً .

سُجِّلت هذه الفوضى الإقطاعية فى قصة مليئة بالأحداث خلدت فى الأساطير الحربية التى تتألف منها قصة الفرعون بيتوباستيس Petubastis الديموطيقية . فى حوالى سنة ٨٠٠ ق.م. كانت هناك أسرتان ملكيتان ، وفى حوالى سنة ٧٥٠ ق.م. كانت هناك أربع أسر ، دون إحصاء للإمارات الكثيرة فى الشمال التى كوّنها ملوك المشوش وملوك الليبو . واستمرت الفوضى الليبية فى الدلتا حتى العصر الإثيوبى .

العصر النوبى Ethiopian Period : كانت منطقة النوبة خاضعة لمصر فى الدولة الحديثة ، ولكنها نجحت فى أن تهزم مصر عند نهاية العصر الليبى . ففى حوالى عام ٧٣٠ ق . م . أفلح بعنخى ، أحد أهالى نباتا ، وكان أول سودانىّ اشتهر فى التاريخ ، فى أن يهزم مصر العليا ونال خضوع مصر السفلى اسمياً . كان القدوة الكاملة لأسرته : أخلص لأمون ، إله نباتا وطيبة ، وكان مولعاً بالخيول ، ويتحرز من الدنس (رفض مقابلة الأمراء المصريين الذين أذنبوا بمخالفة قوانين العلاقات الجنسية أو الذين أكلوا السمك) .

خضعت الدلتا فى عام ٧١٥ ق.م لنباتا وهى المملكة النوبية التى كانت بالغة القوة ، ويمتد سلطانها من حدود بلاد الحبشة إلى البحر ، فكونت الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر ، وحكمت مدة نصف قرن ، وكان طهرقا Taharqa ، أشهر أعضائها . سميت هذه الأسرة بالكوشية (نسبة إلى كوش وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على السودان) ، أو تبعاً للتقاليد لإغريقية عرفت بالأسرة الإثيوبية .

ازدهرت طيبة تحت إدارة زوجة للإله أمون من العائلة الكوشية وكذلك انتعشت منف ، بيد أن أمراء الشمال بدءوا يتالبون فساعد تمردهم الأشوريين على احتلال الدلتا لمدة قصيرة وعلى نهب طيبة . وفى سنة ٦٦٠ ق . م . وضع بسمتك ، نهاية للحكم الكوشى ، وبذا سمح لمصر بفترة نهضة ، وللسودان بفرصة الحصول على قدر وافر من الثقافة المصرية .

(عصور) ما قبل التاريخ Prehistory : بينما كانت أرض مصر فى طور التكوين ، حدثت تغيرات عدة فى المناخ والنباتات والحيوانات خلال عدة آلاف من السنين المتعاقبة التى لا تحصى (ربما كانت ٩٥٪ من عمر الإنسان على الأرض) ، وعاش فيها بعض الأجناس البشرية ، على الصيد وجمع الغذاء . يُعرف مستوى التقدم الفنى الذى وصل إليه هذا الإنسان الأول فى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، من أدوات العصر الحجرى القديم - المصنوعة عادة من الصوان ومن الحجر الرملى أيضاً ومن كل حجر صلب وجدوه فى هذا المكان أو ذاك فى أرض الوادى أو على

قمة الهضبة الليبية أو على منحدرات الأودية (حيث كانت توجد المصانع أو المعسكرات فى الهواء الطلق — ولم يُعثر على « إنسان الكهوف » فى مصر) ويستطيع الإخصائى التعرف على تدرُّج تاريخى للصناعات : العصر الشيلى (عصر فئوس اليد الحجرية) ثم العصر الكلاكتونى (عصر السهام الحجرية) فالعصر الأشولى Acheulean (عصر الآلات الحجرية الجميلة ذات الحدين المستعملة لجميع الأغراض) ، فالعصر اللفلوازى الموستِّرى - Levallois Mousterian (عصر شتى الآلات الأكثر وضوحاً وتمييزاً) — كما ظهرت ثقافات فى أماكن أخرى . والحقيقة أن الحقب الطويلة الغامضة من العصر الحجرى القديم المصرى لا تُكَوِّن سوى فقرة إقليمية واحدة من بين الفقرات العديدة لقائمة عصور ما قبل التاريخ فى العالم .

أما المراحل الأخيرة من العصر الحجرى القديم الاعلى (تلك العصور الحديثة فى مجموعها ، التى ثبت فيها وجود « الإنسان العاقل » كما ثبتت براعته أيضاً) فتمتد إليها أصول الحضارة الفرعونية . اكتُشف فى مصر ، كما اكتُشف فى المناطق الأخرى ، عدد ضخم من الآلات الخاصة بصناعات بعينها ، وكذلك اكتُشف كثير من الصناعات المختلفة . ويستعمل المصطلح « خارجىّ » للمصنوعات الواردة من الواحة الخارجة ، كما يطلق المصطلح « سبيلىّ » على المصنوعات الواردة من المناطق المجاورة لكوم امبو ، والمصطلح « الليفلوازى المتأخر » على الواردة من مصر السفلى .

وهناك شبه بين هذه الثقافات المصرية وثقافات المغرب والسودان والصحراء وفلسطين ، لأن مصر كانت دائماً الجسرَ الموصل بين آسيا وأفريقيا ، غير أن الثقافات المصرية ، رغم عدم تفوقها ، ذات طابع خاص . ومع ذلك ، فقد ظهرت فى أواخر العصر الحجرى القديم (العصر الحجرى المتوسط) ، سهام ورماح و « مُغْرة » للتلوين ، و « رَحى » لطحن المنتجات المجموعة ، وفنون خياطة الجلود وتصنيع العظام بواسطة مكاشط دقيقة ، والنسيج ، وصناعة الفخار . وفى ذلك العصر نفسه ، بدأت فنون الصخور فى الظهور فى جميع أنحاء أفريقيا — ظهرت بعد رسوم الكهوف بوقت طويل ، فى فرنسا وفى جبال البرانس Pyrenees ، التى تختلف عنها اختلافاً بيِّناً . رُسمت على الصخور فى الصحراء الشرقية صور خيالية للأشخاص ، مرسومة بطريقة الأطفال ، وصور واقعية يتجلى فيها النشاط والحيوية . وفى المناطق التى غدت الآن صحراوات ، كان النبالون ذوو الرياش البارزة من أغطية رءوسهم يجولون فى أنحاء الأودية والهضبة وهم لا يرتدون سوى قراب من الجلد لستر العورة ، ومعهم كلاب الصيد ، لاقتناص النعام والحيوانات العديدة ذوات القرون . وكانوا يربون الحمير والماشية ويعبدون البقرة السماوية .

وحتى فى العصور الحجرية الحديثة ، بقيت الصناعات القديمة لصيادى الصحراء وقدامى رعاة الماشية الأفريقيين ، وصيادى الأسماك النيلية ، جنباً إلى جنب مع حرف تتطلب مهارة أكثر ، وظلت كذلك فى عهد

الملوك الرعامسة . وتتضمن هذه الحِرَفُ الأخيرة زراعة الحبوب وزراعة الكتان ونسجه ، وهى مهن ازدهرت فى القرون التى كانت مصر فيها تُروَى من أمطار المناطق الحارة . وقد تمكن العلماء بواسطة اختبارات كربون ١٤ ، من تحديد تاريخ هام : وُجِد القمح فى صومعة من صوامع العصر الحجرى الحديث على حافة الفيوم (هذه المنطقة الآن صحراء) ، وتبينَّ أنه حُصِدَ ما بين سنة ٤٦٠٠ ، ٤٢٥٠ ق.م. ويتفق التاريخ المتوسط بين هاتين السنتين مع التاريخ المنسوب إلى زوسر . كان النيل ، فى ذلك التاريخ ، يغذى منطقة واسعة من المناقع . وكان الرماحون يقفون على قوارب مصنوعة من أعواد نبات البردى ويتحدَّوْن أفراس النهر والتماسيح . ولكن سرعان ما أقام الإنسان هناك وزرع القمح فى الجُزُر الطينية . وانعدمت « الأخصاص » المصنوعة من أعواد الغاب والطين ، وحلت محلها أكواخ صلبة من الطين . أما التماثيل (المقدسة) فكانت تقيم فى مساكن (مع أضافة الرسم الجانبى) تختلف باختلاف المجتمعات ، فكانت على هيئة أكشاك عالية ـ هياكل خشبية ضخمة مكسوة بالطين والحصير وحزم من أعواد البردى . وفى قبورهم ـ الموضوعة أحياناً فى تجاويف تحت أرض بيوتهم ، والمتلاصقة غالباً ـ وُجد كثير من الأشياء التى توضح المهارة البالغة المتبعة فى صنعها ، موضوعة بجانب الشخص الميت ، الراقد عادة فى الوضع الجنينى ، إما لوقايته ، وإما لراحة الروح . وتتضمن تلك الأشياء التمائم وعقود الخرز والأساور ودبابيس للشعر مصنوعة من الخشب ومن العظم والعاج والحجر ، ثم من النحاس . فما أبطأ ذلك التقدم الخاطىء والنادر الوضوح ! وظهرت صناعة المعادن على نطاق ضيق ، فى بداية الألف سنة الرابعة (المسماة عصر ما قبل الأسرات أو عصر فجر التاريخ) ، دون إحداث انقلاب فى الأسلحة والآلات . والحقيقة ، هى أن العصر التكوينى لتاريخ مصر ، هو العصر الحجرى : تبدو مدنيته « كتضخم ناتج عن حضارة العصر الحجرى الحديث » .

صنعت رءوس الهراوات والعصى والبلط والفئوس والسكاكين والمناجل والقواديم من الحجر المصقول صقلاً دقيقاً ، أو من الصوان ، وشُكِّلَت بحيث تكون حادة قاطعة كالصُّلب . وصُنعت لوحات سحق الكحل أو الصلايات ، التى كانوا يطحنون فوقها الملاخيت (سيليكات پرو توكسيد النحاس) ، أو الجالينا (كبريتيد الرصاص) ، وهما الطلاءان السحريان المستعملان فى تكحيل العيون باللون الأخضر أو بالأسود على التوالى ، وكثير من الاشكال وتماثيل الحيوانات والأشخاص إما من الحجر الصلب أو من الهشّ . وكذلك وجدت أوان جميلة من الحجر الجيرى ومن المرمر ومن الرخام المُعرَّق ، ومن الديوريت (الفلدسپار المتبلور) ، مُشَكَّلة ومصقولة ببراعة رائعة لدرجة أنها تحاكى الأوانى الخزفية . وكذلك كان صنع الفخار نفسه ، ويتضمن الأطباق على اختلاف أنواعها ، المشكَّلة والمزخرفة باليد ، قد بلغ حد الكمال فى عصور ما قبل التاريخ . والحقيقة أن من دراسة هذه المادة ، يمكن وضع ترتيب

تاريخي لحضارة مصر العليا . وتتسم الحضارة التاسية بالفخار الخشن وبالأواني السوداء ذات النقوش الهندسية المحفورة ، أما الحضارة البدارية فتتميز بفخار أحمر ذي حافة سوداء ، وحضارة العمرة بفخار أحمر ذي زخارف صفراء ، وحضارة جرزة بفخار أصفر زاه ذي زخارف بنفسجية محمرة تتكون إما من الأشكال الجامدة وإ ما من رسوم بسيطة كالجبال والنباتات والماعز والصيادين والمحاربين والساحرات الغريبات المنظر يقمن بتلاوة تعاويذهن والقوارب الطويلة ذات المقاصير التي تسير بعدة مجاذيف ، وهذه قد تفوقت ، بالتقدم البحري ، على السفن الثقيلة التي تسير بقوة الرياح .

ومع ذلك فإن هذا التطور الطويل البطيء ، فضلاً عن حدوثه في زمن خلو من الحضارات ، كان يتميز بتغيرات أثمرت ثقافات عاشت وامتد أثرها أمداً طويلاً . تقع مصر في عصور ما قبل التاريخ على طريق نقل دولي للمواد الخام والمنتجات المصنوعة (الفيروز الأفغاني وخام الزجاج الحبشي والأواني الخزفية السورية والنوبية والأسطوانات العراقية) . وكان القمح والشعير يأتيان من فلسطين (سنة ٤٥٠٠ ق.م. لأقرب تاريخ) ، وجاءت زراعة الكروم وصناعة المعادن (في الألف سنة الرابعة) إما عن طريق الهجرة أو بالتقدم التدريجي . في تلك الأثناء ، كان الجزء الشرقي من العراق السفلي والحدود الإيرانية مركزين لحضارات بالغة التطور ذات مهارات فنية عظيمة التقدم . ونشأ عن تبادل الثقافات بين الممالك قبل الثينية والمجتمعات الريفية لعِلام ولسومر (إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق البر) ، مولد حضارتين شرقيتين عظيمتين . وُجدت قوانين متشابهة للنحت وفن التصوير ، على ضفاف النيل وحول خليج عُمان ، في نهاية الألف سنة الرابعة وبداية الألف سنة الثالثة . وقد حاكى قدماء المصريين تلك الصورة الأجنبية للبطل الملتحي ، قاتل الحيوانات المفترسة ، الذي يلبس عمامة من الصوف . وزين الأسيويون واجهات معابدهم برسوم البردي وأعلام الآلهة الأفريقية . وتبعاً لنظرية مبنية على معارف الوقت الحاضر (ولكن لم يُبرهَن عليها) ، أخذت مصر أسلوب الكتابة بالصور عن الأسيويين ، وهي المبادىء الأولية للنقوش الهيروغليفية ، فنشأت طريقة الكتابة هذه على قواعد مصرية صميمة . ومع ذلك ، فبعد اختلاط مثمر بين الوجهين في فجر التاريخ ، لمدة حوالي ألف سنة ، أنشأ كل منهما ، مستقلاً عن الآخر ، فنونه وكتابته وطريقة حياته ، في عزلة رائعة .

العطور Perfumes : انتفع قدماء المصريين كثيراً بالعطور ، شأن جميع الشعوب الشرقية . وأكثر هذه العطور شيوعاً ، هي الزيوت العطرية ، غير أنه يبدو أنهم استعملوا كذلك الخلاصات العطرية من الأزهار بالعصر . وأهم تلك العطور هي ما أُخذ من شجرتي اللبان والتربنتينا اللتين تنموان على شواطىء البحر الأحمر ، وخصوصاً لاستعمالات الطقوس الدينية . فأرسلت البعثات إلى الأماكن القصية لإحضار « أشجار البخور » (بعثات

حتشبسوت ورمسيس الثالث) . وتذكر بعض فقرات النصوص الدينية مظاهر خاصة للربات ، فتقول إن عطور بعض الربات أقوى من عطور أية امرأة أو ربة أخرى . نأخذ من ذلك فكرة عن المكانة الهامة لتعطير الجسم فى تبرج النساء . ولم يأنف الرجال من استعمال العطور ، ولاسيما فى الأعياد والولائم حيث تبديهم الصور والعطور تقطر منهم . كانوا يصنعون العطور والمراهم اللازمة للطقوس الدينية ، فى المعابد ، فى معامل صغيرة ولاتزال إحدى

تلك الحجرات باقية فى معبد إدفو ، وجدرانها مليئة بالنقوش التى تبين كيفية صنع المركبات العطرة الرائحة . ويحتاج بعضها إلى مدة لا تقل عن ستة شهور . وإذ لا يمكننا ترجمة أسماء شتى المنتجات العطرية التى صنعوها ، فمن الصعب علينا تقدير نوع تلك الروائح من النصوص القديمة .

العفاريت : ولئن كان عالم الجان المصرى أفقر كثيراً من عالم الجان فى حضارة بلاد النهرين (العراق) فإنه يزخر بكثير من الأرواح الشريرة . وما كان منها فى العالم السفلى ، كان فى صورة قوى هيولية ومخلوقات غريبة الأجناس ورجال بغير رءوس وحيوانات عملاقة متوحشة . يعيش جيش كامل من المخلوقات الغريبة فى تلك المناطق الموجودة خارج الدنيا ، حيث لاتزال القوى ، التى كانت موجودة قبل الخليقة ، تحكم . وإن حوائط مقابر وادى الملوك مليئة بصور هذه الكائنات المخيفة البشعة . ويذكر كتاب الموتى عدداً من هؤلاء البوابين المفزعين الذين يحاولون سد الطريق إلى الحياة الأخرى . كانت العفاريت على الأرض سبب الأمراض . قد تكون أرواحاً متذمرة عائدة مما وراء القبور ، اتقدت الغيرة فى قلوبها ، لحرمانها ملذات هذه الحياة ، أو أرواحاً شريرة من الذكور والإناث ، والجن ، والمصروعين والغرقى ، الذين يأتون ، كما يفعل الجن فى الحكايات العربية ، ليعذبوا الأحياء ويخطفوا الأطفال من فراشهم ويضطهدوا من يعرضون أنفسهم ، دون وعى ، إلى شر هؤلاء . ومن العفاريت الأخرى ، رسل سخمت الذين يلبون أمرها فيجلبون المرض والموت لمن أهملوها ، ولاسيما فى آخر سنة التقويم ، إذ ينتشر الوباء السنوى فى جميع أنحاء الدولة . ولكى تحارب الديانة المصرية هذه العصابات السوداء ، كان لديها « عفاريتها الأخيار » ، وحماة أوزيريس ، وحراس المعابد ، وكلاب الحراسة الطيبة التى تحافظ على القبر والتابوت .

العقرب Scorpion : الصورة النموذجية لهذا الكائن العنكبوتى الخطر من أقدم النقوش الهيروغليفية المعروفة . وقد استعمل لكتابة اسم حاكم من عصر ما قبل الأسرات ، هو « الملك العقرب » . ولايزال العقرب الأفريقى ، حتى اليوم يتكاثر بوفرة فى كل أنحاء مصر ، أينما وجد الرطوبة اللازمة والأحجار التى يختبىء وراءها ، كالمواضع الأثرية والأحياء العتيقة فى المدن المسكونة ، كما يتكاثر تحت الصخور فى الصحراء .

ولا يُرَى العقرب عادةً ، ولا يبحث عن فريسة ، ولكنه يلدغ بقسوة أى قدم عارية

تطؤه صدفةً ، أو اليد التي تمتد إليه في مخبئه . ومن المعروف جيداً الآن ، أن البيئة الريفية الطبيعية تتقلص أمام زيادة سيطرة الإنسان على عالمه وتحكمه في موارده . وإذا وضعنا في ذهننا كيف يتكاثر العقرب في الوقت الحاضر ، فمن السهل أن نُقَدِّر كيف كانت جموعه الكثيرة في العصور القديمة مُشْكلة وأيّ مشكلة .

كان العقرب ، ككثير من المخلوقات الخطرة الأخرى ، إلهاً عُبد بأسماء مختلفة ، أشهرها عقربة أنثى هي الربة سلكت (أو سلكس) ، وكانت شخصية خيّرة في أساسها ، أعطت القوة لـ « سحرة سلكت » على مظاهرها الأرضية ، وكان هؤلاء فئة قديمة زاولت التطبيب بالشعوذة . أما في نقوش المقابر فاستعيض عن صورة تلك الربة بصورة « عقرب الماء » غير الضار ، التي حلت أيضاً على صور جميع العقارب الصفراء . كما جرد العقرب من إبرته السامة ، التي هي سلاح المخلوقات ساكنة الرمال ، حتى لا يؤذي الشخص الميت إذا عاد النفْس إلى الحياة بالسحر . أما الأحياء فلهم عدة تعاويذ « ضد لدغة أي نوع من الزواحف » ، وذكرت منها العنكبوتيات في وضوح ، التي أذاها المؤلم خطر على أي حيوان صغير أو طفل . ولقد ، تجرأت العقارب ، التي هي « أعداء البشر وخصوم الآلهة » ، ذات مرة ، على أن تلدغ الآلهة . ولكن هؤلاء كانوا لحسن حظ البشر أقوى من السم ، واستطاع البشر بواسطة السحر أن يجعلوا لحمهم كلحم الآلهة ، اعتماداً على تلك الأسطورة وتعاويذها : « قُلْ : (أي) رع ، تعال إلى ابنتك ، القطة المقدسة . فقد لدغها العقرب في طريق موحش . يصل صراخها إلى عنان السماء . تعال إلى ابنتك فقد دخل السم جسدها ويسري خلال لحمها » . عندئذ يَتَدَخَّلَ الإله ويشفي ابنته ، وإذ شبهت المريضة نفسها بالربة نجت كالربة . وكذلك كانت هناك أساطير أخرى عن الشفاء . وعندما هربت إيزيس من ست الشرير ، زودت نفسها بحرس مكون من سبع عقارب . وذات مساء أقفلت سيدة مذعورة بابها في وجه هذه الربة فغضب العقارب السبع أيما غضب : « تشاورت فيما بينها من أجل الربة . فحقنت جميعها سمها في حمة عقربة منها تدعى تيفين Tefen ، زحفت أسفل مزلاج الباب ولدغت ابن تلك المرأة . ولكن الربة الطيبة لم ترض بأن يموت شخص بريء » ، فاخترعت تعاويذ يمكن تلاوتها لكل طفل يموت من لدغة عقرب : « اتركه يا سم تيفين ، ارجع إلى الأرض دون أن تدور في جسمه أو تدخله » .

العلاقات الأجنبية Foreign Relations : (انظر الدبلوماسية) .

العلاقات الجنسية Sexual Behaviour : لم تسبق أية دراسة لسلوك قدماء المصريين الجنسي أو لأفكارهم عن الاتصال الجسمي . وزيادة على ذلك ، فمن الصعب القيام بدراسة مثل هذه الأمور لأن النصوص والمناظر في غاية الحذر من هذه الناحية . أما التماثيل الفاحشة الموجودة في أصونة المجموعات المصرية فهي في

الغالب من تاريخ إغريقى رومانى ، ولا يوجد من المناظر الفاحشة المصرية سوى اثنتى عشرة صورة على الأكثر . ومع ذلك ، فيجب ألا ننسب غياب أدلة وثائقية إلى تصنع الحشمة كما عندنا . ولا شك أن المصرى القديم كان يراعى المحرمات ، التى منها اقتراف الزنى ، وذلك للمحافظة على النظام العام ؛ وتحريم الاتصال الجنسى فى الأماكن المقدسة ، وتحريم زيارة هذه الأماكن بعد الاتصال الجنسى ، وهذه أمور تنص عليها الطقوس أكثر مما تقتضيها الآداب الخلقية . ولقد زجر الكاتب تلميذه على تضييع وقته فى الحانات ، لا لأسباب أخلاقية ، بل لكى يعكف على دراسة الآداب . ولكن ظل المصريون لا يبالون بستر أجسامهم لمدة طويلة . وقبل الأسرة التاسعة عشرة ، كان بوسع الشخص البالغ أن يسير عارياً . وهناك صور لأصحاب القبور يشاهدون بسرور عروض رقص تقدمها فتيات لا يلبسن إلا القليل من الثياب أو لا يلبسن شيئاً . وكان بمقدور أحد الحكماء أن يدخل البهجة على نفس الملك سنفرو بتنظيم نزهة مائية تقوم بها فتيات عاريات .

هناك مثل أكثر وضوحاً عن سلوك المصريين فيما يختص بالأمور الجنسية ، وهو أن الكتابة الهيروغليفية كانت تستعمل العضو التناسلى للأنثى (لكلمة « امرأة ») والعضو التناسلى للذكر (وخصوصاً مع كلمة « زوج ») ، وكانوا يضعونهما مع بعضهما للتعبير عن فكرة « الجماع » . وصوروا الحياة الجنسية للآلهة على جدران المعابد . جاءت إيزيس على هيئة طائر ، وطرحت نفسها فوق أوزيريس المحنط ، وضغطت نفسها عليه ، فاستعاد قوته الحيوية . وتوجد عدة تماثيل ظاهرة الأعضاء التناسلية . وأحياناً تكون هذه التماثيل جنًا واقية أو حافظة إذ كانوا يعتقدون أن حرارة الذكور الملهبة ، لو كانت على مستوى غير بشري ، تستطيع ان تلتهم فاعل الشر . وكثيراً ما كانت تلك التماثيل لآلهة الإخصاب مثل مين الذى أثنت عليه النصوص إجمالاً لغرائزه الجياشة . عرف قدماء المصريين ، الذين كرسوا حياتهم بحماس للذات الحياة ، كيف يُقَدِّرون فن « قضاء يوم بهيج » ، على حد تعبيرهم .

ويتكلم شعر الغزل عندهم ، فى خجل ، عن الرغبة فى « معرفة » فتاة جميلة . وقد أعادت التعاويذ والطقوس للرجل الميت قوة رجولته (التماثيل الصغيرة للمحظيات) . وابتكر أطباؤهم طرقاً لمنع الحمل .

مهما قال الرمزيون عن قدماء المصريين ، فلم يقصر هؤلاء غرامهم على فكرة التكاثر الكونية . والحقيقة أنه ، على الرغم من العقيدة الرسمية الخاصة بالاتحاد الجنسى بين الآلهة ، فإن المصريين نسبوا هذه الفكرة إلى الرذيلة ، حتى عندما لم يقصد مين العظيم شيئاً من ذلك الاتحاد . وأول إشارة إلى القلق الجنسى تتضمنها الشتائم الداعرة المكتوبة برموز هيروغليفية . ونرى أحياناً أن بعض القصص الدينية مبتذل ، بل يصل إلى حد البذاءة . أحس رع بالسرور وهو يشاهد حتحور وهى تتخفف من ثيابها ، وحاول ست أن يضاجع حورس . وأولع بيبى الثانى بغرام أحد قواده . وهناك تعويذة سحرية ربطت الشيطان بيبون Bebon

بمعشوقته ، لإمتاع الآلهة الذين كانوا يشاهدونها ، ولإرباك بيبون نفسه : وتتضمن القصص التاريخية التى جمعها هيرودوت بعض النكات المشكوك فى صحتها وفى بلد كمصر حيث يكثر عدد المتعلمين نجد أن منهم من كان يعمد إلى رسم صور فاضحة على « الشقافة » الأوستراكا . وقد منعت اللياقة متحف تورين من أن يعرض مخطوط البردى الشهير الذى يصور غرام كاهن أصلع بحسناء طيبية بطريقة غير لائقة وبعبارات فاضحة نابية .

العلم : هناك أسطورة عمرها ٢٠٠٠ سنة تنسب إلى المصريين معرفة مدهشة بالعلوم . ومن تلك العلوم : الفلك والهندسة والطب وعلم النبات ومعرفة المستقبل ، التى أخذها عنهم العالم الحديث منذ قرون عديدة ، وطوّرها (أو التى تركها لكونها مستحيلة) ، وتؤكد أنه تناولها بالدراسة قبل أن تضيع بسبب عدم الفهم فى العالم الكلاسيكى أو فى نكسة العصور الوسطى . وربما كانت هالة الروعة «التى تحيط بأى شىء وارد من الشرق ويرجع جزء منها إلى تكوين صورة أثرية لمصر الفرعونية ، تسهم إسهاماً فعّالاً فى تأكيد هذه الأفكار بين المتشككين فى هذا العصر الحديث . لا ننكر أننا لم نعثر على كل شىء خاص بهذه المدنية القديمة ، ولكن عدد الآثار المكتشفة هناك ، وكثرة النصوص القديمة ، وصورة الحياة القديمة التى نجحنا فى تصويرها ــ والتى تزداد فى كل يوم دقة عما كانت ــ كل هذه كافية لكى نعرف إجمالاً مدى معارفهم العلمية وحدودها .

ومن التناقض أن نغالى فى تقدير علوم المصريين ومعارفهم دون الاستناد على دليل يثبت أنهم قد امتلكوا تلك المعرفة ونتجاهل أو نغض من شأن المعارف التى توصلنا إليها فى مختلف فروع المعرفة ، لكى نعطى المصريين قدرهم فى امتلاك معارف لا يوجد عليها أى دليل .

تتسم العلوم المصرية بمسحة نفعية إذ لم يشتغل المصريون ببحث من أجل خاطره . فدرسوا علم الفلك لتحديد تقويمهم ، أو لمعرفة الوقت . ونلاحظ أن مبانيهم الدينية عجائب معمارية تتسم بدقة مدهشة فى أبعادها . وفى جميع الأحوال التى وصلتنا فيها قلة من القوانين الرياضية ، نجد أنها تنطبق تماماً على النظريات التى استطاع الاغريق والرومان تكوينها . ولقد وضع المصريون حلولاً للمعضلات الرياضية التى صادفتهم ولكنهم لم ينجحوا إطلاقاً فى تكوين « قوانين » . فطبهم كان متقدماً جداً فى بعض النواحى ، رغم أن السحر كان يطغى على الطب فى عدد كبير من الحالات . ولم يهتموا بعلم التاريخ إلا بالقدر الذى ينفع فى الأغراض الدينية ، وحتى فى هذه الحالات ، اختصر إلى قوائم بأسماء الملوك وعدد سنوات حكم كل منهم (انظر التأريخ) . ولما لم يكن لديهم تقويم مستمر يرتبون فيه أحداثهم التاريخية فى مواضعها الصحيحة ، لم يعرفوا إلا القليل عن ماضيهم ، وكان عليهم أن يملئوه بالأساطير الشعبية . وكانوا يعرفون الممالك المحيطة بهم معرفة جيدة وذلك بسبب رحلاتهم الكشفية إلى آسيا والواحات

وأفريقيا السودانية والبحر الأحمر . ولما كانوا لا يعرفون شيئاً عن علم المساحة ، فلم تكن لديهم سوى فكرة مبهمة عن موقع تلك الممالك النائية ، ولم يشكّوا قط فى شكل الأرض مثلاً . ومع ذلك ، فقد برعوا فى علم الهندسة العلمية ، فقاسوا وادى النيل ومقاطعاته . ورسموا قوائم بالمدن المصرية من أجل الأغراض الإدارية والدينية . وقاموا بأرصاد دقيقة لمعرفة الجغرافيا الطبيعية لبلدهم . وضع المصريون طرقاً فى جميع هذه المجالات تفى بحاجاتهم العملية ، وقنعوا بعدم التوسع فيما وراء تلك النتائج . أما حضارتهم فكانت أعجوبة فى التنظيم والملاءمة الفنية والإحساس بالجمال الفنى وكثير من الأمور ، ولكنها لم تكن ، بغير شك ، حضارة « علمية » .

علم الفلك Astronomy : كانت معرفة قدماء المصريين بعلم الفلك هامة بحيث لا يمكن إهمالها وإن لم تكن على قدم المساواة مع معرفة البابليين لهذا العلم . فتركوا خرائط السماء مصورة أو منحوتة على سقوف المقابر والمعابد ، وجداول مؤرخة تشير إلى حركة النجوم ليلاً (انظر جداول معرفة الوقت ليلاً بمواقع النجوم) وبعض الرسائل الفلكية جاء معظمها من عصور متأخرة فى حضارتهم ؛ وأخيراً ، أدبهم الدينى وتقسيمهم للوقت . وتشهد تقاويمهم بالجهود التى كرسوها لدراسة حركات الأجرام السماوية . وبعد كثير من التجارب وصلوا إلى معرفة السنة الحقيقية بدقة عجيبة . فقسموا كُلًّا من الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة ، ورصدوا فى السماء خمسة كواكب سيارة أطلقوا عليها أسماء : فمارس هو « حورس الأحمر » ، وهو رصد دقيق . ومن العسير علينا التعرف على أبراجهم . فلم يقسموا النجوم إلى نفس المجموعات التى نقسمها إليها نحن ، بل اتبعوا الطريقة البابلية ؛ ورغم هذا ، يمكننا التعرف على « الدب الأكبر » (ساق ثور) ، وكوجنوس Cygnus(وهو الرجل ذو رأس الصقر المثنى الذراعين إلى أعلى) وأوريون ، والنجم الجنوبى ، وكاسيوبيا Cassiopeia إنسان رافع ذراعيه ، وعلة مجموعات من نجوم أخرى . وقد لعب نجم الشعرى اليمانية Sirius (الذى اطلق عليه الاغريق اسم سوثيس Sothis) دوراً هاماً فى حساباتهم التأريخية ، إذ ساعدنا تسجيل بعض المناسبات التى تصادف فيها شروقه مع الشمس على حساب الفرق المتزايد بين سنتهم القصيرة ذات الـ ٣٦٥ يوماً . والسنة الحقيقية (٣٦٥١/٤ يوماً) .

ولعب توجيه المبانى والصروح دوراً هاماً أيضاً فى حياتهم الدينية . فتدلنا مناظر الأساسات والطقوس الدينية والسحرية المتصلة بها المصورة على جدران المعابد على أن جميع عمليات البناء الدينية كانت تبدأ برصد النجوم حتى يعرفوا الوجهة الصحيحة للمعبد الذى يريدون بناءه . فنرى الأهرام وجميع المعابد المنتشرة بطول الوادى ذات اتجاهات خاصة . بيد أن المعلومات التى لدينا ليست كافية لنستدل منها على استنتاجات موثوق بها فيما يختص بهذه الحقائق .

يبدو أن قدماء المصريين تعرفوا على بعض الظواهر الطبيعية السماوية . فرصدوا

الخسوف والكسوف ، ويقال إن كاهناً مصرياً هو الذى شرح لجنود الإسكندر المذعورين سبب الخسوف والكسوف . وتشير النصوص إلى ظهور ستة أجرام سماوية ملتهبة . ولكننا لا نستطيع الجزم بما إذا كانوا يقصدون الشهب أو الأبراج المتألقة فى السماء الأفريقية . وأخيراً ، سجلوا ظهور نجم متألق قادم من السماء الجنوبية ،

قد يكون هو المذنب هالى Haley ، على أنه معجزة مخيفة ، وذلك فى عصر تحوتمس الثالث .

علم المصريات Egyptology : ٧

يبدأ تاريخ الاهتمام بمصر القديمة فى القرن التاسع عشر ، تماماً ولا ينحصر كله منذ ذلك القرن . فقد زار هيرودوت مصر فى القرن الخامس ق . م . كى يشاهد آثارها القديمة العجيبة ، ويدون أخبارها . وسرعان ما حذا المؤرخون والجغرافيون حذوه ، ومن بينهم سترابو Strabo وديودور Diodorus وكثيرون غيرهما . وقد جذبت الأهرامات ومقابر الملوك بطيبة وتمثالاً ممنون الضخمان ، السائحين من جميع أنحاء منطقة البحر المتوسط . وبينما نسى الغرب ، شيئاً فشيئاً ، كل شيء عن هذه البلاد البعيدة ، إذا استثنينا أيام الحروب الصليبية ، اهتم كثير من المؤلفين العرب بالآثار الفرعونية ، بيد أن مفتاحها فقد منهم ولم يكن اهتمامهم علميًا بحتاً دائماً وإن كتاب « الدر المكنوز » هو دليل للصوص القبور ويبين لهم خير مكان يستطيعون مزاولة مهنتهم فيه . وقبل أن نذكر الكتاب المحدثين ، هناك اسم جدير بالذكر ، ألا وهو أثاناسيوس كيرشر Kircher (فى القرن السابع عشر) ، الذى أحيا دراسة اللغة القبطية التى كان عالماً بارعاً فيها ، وحاول عبثاً حل طلاسم الهيروغليفية . ومن بداية القرن الثامن عشر سافر كثير من الناس إلى الشرق ، ووضعوا كثيراً من الكتب ، بعضها مزود بصور جيلة ، تبين الآثار المصرية ومعالم الريف المصرى .

هناك حادثان يحددان مولد علم الآثار المصرية ، وهما : حملة نابليون على مصر (سنة ١٧٩٨) التى فتحت وادى النيل وآثاره أمام الدراسة العلمية بوضع المؤلف العظيم « وصف مصر » . والمرحلة الثانية هى اكتشاف شامبليون لمفتاح قراءة النقوش الهيروغليفية (سنة ١٨٢٢) . ويتميز النصف الأول من القرن التاسع عشر بالبحث عن الآثار والأشياء وكان عصر البعثات العظمى — بعثة شامبليون وروسيلينى (سنة ١٨٢٨ — ١٨٢٩) وبعثة لبسيوس (سنة ١٨٤٢ — ١٨٤٥) ، اللتين جابتا مصر كلها مع فرق من المصورين نسخوا أهم النقوش ورسموا صوراً للآثار والمقابر والمعابد والتماثيل ونقلوا رسم النقوش المحفورة . وفى الوقت نفسه كانت هناك مشروعات كشفية خاصة قام بها بعض الهواة ، ولكنها كانت أقل أهمية فى أهدافها من الحملات الكشفية العظمى . فصارت مصر العليا مسرحاً تنافس فيه المغامرون وجامعو الآثار فى الخداع وعدم الثقة ، ولكن الجزء الأكبر من الآثار التى جمعت بهذه الطريقة أصبح نواة مجموعات الآثار المصرية فى أهم المتاحف الأوربية .

استمر عصر البطولة هذا بضع عشرات من السنين . ولا شك فى أن علم الآثار المصرية قد برز إلى حيز الوجود ، ولكنه كان يفتقر إلى المبادىء وإلى معدات العمل ، وفوق كل شىء إلى العلماء . وقد وضع أساس هذا العلم كل من ماريت Mariette ودو روجيه De Rougé ، وبيرش Birch ، وشباس Chabas ، وبروجش Brugsch . فأنشئت مصلحة الآثار فى مصر ، كما أنشىء فيها المتحف المصرى وهدفهما حماية الآثار ودراستها ، بالتنقيب عنها وإحضارها لتكون فى متناول العلماء .

وفى الوقت نفسه بدأت دراسة منظمة للغة المصرية القديمة فى أوروبا وتقدمت إلى أبعد من النتائج التى توصل إليها شامپليون (حل رموز وترجمة قصة الأخوين ، فى سنة ١٨٥٢) . وحُلَّت رموز الخط الهيراطيقى فى نظام علمى ، وعُملت محاولة لاقتحام مجال النقوش الديموطيقية . ومنذ ذلك الوقت أُدخلت تحسينات جمة على طرق دراسة هذه اللغات . وقررت البعثات التى كانت تعمل بمصر ، مصير آثارها . كما غدا تاريخ علم الآثار المصرية أوفى وأكثر تعقيداً ، نتيجة للجهود العلمية التى قامت بها عدة دول . فكثر العلماء الفرنسيون والإنجليز والألمان ، وانضم إليهم بعض العلماء السويسريين والإيطاليين والأمريكيين والمصريين والبلجيكيين والهولنديين . والدانمركيين والسويديين والروسيين والبولنديين والتشيكوسلافيين وغيرهم من علماء الدول الأخرى الذين يقومون الآن بدراسة علم الآثار المصرية . وتكونت جمعيات : « البعثة الفرنسية لعلماء الآثار » ، سنة ١٨٨٠ ، التى صارت فى سنة ١٩٠٠ « المعهد الفرنسى للآثار الشرقية » . أما الجمعيات الإنجليزية فهى : « جمعية الكشف عن الآثار » ، و « صندوق الاستكشافات المصرية » و « المدرسة البريطانية لعلم الآثار فى مصر » وهناك « جمعية الملكة إليزابيث لعلم الآثار المصرية البلجيكية » ، و « المعهد الألمانى لعلم الآثار » . وأرسلت حملات وبعثات للتنقيب عن الآثار ، من الجامعات الكبرى والمتاحف العظمى فى كل من أوروبا وأمريكا ومصر — كما جاءت بعثات خاصة من آن إلى آخر .

ونتيجة لكل هذه الأعمال ، نُشرت عدة كتب فى وصف الآثار ، ونُسخ من أعمال الفن ، وتقارير الحفر والتنقيب ، وقوائم بمحتويات المتاحف . وشُغل مُنقبو عدة دول بالكشف عن مصر القديمة . وأهم ما تمخض عنه تاريخ هذه الكشوف العظيمة هو فتح أهرامات سقارة واكتشاف مخبأ الدير البحرى ، ومعبد الكرنك وحفائر وادى الملوك (فُتحت مقبرة توت عنخ أمون فى سنة ١٩٢٢) ، وليس ذكر جميع هذه الاكتشافات بالأمر اليسير . بيد أن التنقيب ، على أهميته ، ليس سوى جزء من علم الآثار المصرية . فهناك العلماء الذين يقضون وقتهم فى دراسة الوثائق وترجمتها ونشرها . وقد قامت عدة منظمات ألمانية وانجليزية وأمريكية وفرنسية بنشر آلاف الصفحات من النصوص الجديدة ، ونسخوا مخطوطات البردى بالخطين الهيراطيقى والديموطيقى ووضعوا قواعد

معاجم مختلف اللغات التي استُعملت في مصر . ودرسوا التاريخ المصرى ، والديانة المصرية والفن المصرى ، وأسهموا بقدر لا يقل عما قام به المنقبون في تقدم هذا العلم .

ماذا عن علم الآثار اليوم ؟ لقد تم فيه عمل لا يكاد يصدَّق . فقد أعيد اكتشاف مصر القديمة في أهم أسسها ، وبُحث عن الوثائق المصرية في كل مكان يمكن أن توجد فيه . ويوجد تحت تصرف عالم الآثار المصرية معجم للآثار ، وسجل للملوك ، ومعجم بالأسماء الجغرافية ، وقائمة بالأسماء الشخصيـة ، ومجمـوعـة من الكتب الطبوغرافية يمكن الرجوع إليها لمعرفة جميع الآثار القائمة ، وقائمة سنوية تلخص بإيجاز حوالى ١٠٠٠ كتاب ، ومقالات تُنشر في كل عام . وهناك ثماني مجلات كرست جميع صفحاتها لعلم الآثار المصرى ، وكثير من المجلات الأخرى ذات الموضوعات العامة ، تنشر ، من آن إلى آخر ، بعض المقالات عن تاريخ الآثار المصرية . ثم هناك قوائم المتاحف ، والتقارير السنوية ، وتقارير الأكاديميات والجمعيات العلمية . وأخذت شهرة مصر تعم الشعوب تدريجياً ، وتظهر عدة كتب ، في كل دولة ، تتناول مظاهر الحضارة المصرية القديمة . ويدرَّس علم الآثار المصرية في كثير من الجامعات . ثم إن المحاضرات تلقى في كل مكان تقريباً ، فتصف الحياة في وادى النيل .

ومع ذلك ، فليس هذا سوى البداية . فيهتم علم الآثار المصرية بمدة زمنية طويلة (أكثر من ٣٠٠٠ سنة) ومساحات جغرافية شاسعة (عبارة عن مصر نفسها ، وشبه جزيرة سيناء والواحات وجزء عظيم من السودان وأحياناً ، سوريا ولبنان) . وتضم المتاحف كنوزاً ، لا تقدَّر بأموال . وقد تستغرق المطبوعات التي تنشر عن نتائج تنقيب موسم واحد من بضعة أسابيع أو شهور ، سنوات من العمل المستمر .

ويتحتم على العلماء أن يقسموا أوقاتهم بين الحفر والتنقيب ، وعمل قوائم الجرد ، ودراسة الآثار دراسة فنية وعلمية ، ورسم الخرائط ، وتصوير الآثار ، ونسخ النصوص ونشرها ، واستنباط قواعد اللغة المصرية القديمة في عصورها المختلفة (وتشمل الخط الهيروغليفى للدولة القديمة والوسطى والحديثة ثم الديموطيقى والقبطى) ، ومعرفة طرق كتابة الهيراطيقية والديموطيقية ، وقراءة المخربشات (الجرافيتى) والوثائق البطلمية . كما يجب أن يكونوا مؤرخين للفنون ، وخبراء في الديانات ، وعلماء في الآثار ، وأن يستخدموا دائماً العلوم المتلازمة ، مثل علم ما قبل التاريخ وعلم طبقات الأرض والتاريخ الطبيعى وعلم النبات والكيمياء ، وعلم الإنسان وعلم المخطوطات الإغريقية ، وفي بعض الأحيان دراسة علم السلالات البشرية الأفريقية وعلم قواعد اللغات المقارن .

ومنذ البداية كان علم الآثار المصرية مقصوراً على حفنة من العلماء إذ لم يزد عددهم عن مائتين على مدار قرن من الزمان ، منهم دون الثلاثين في مصر ومثلهم في فرنسا .

لا يمكننا إلا أن نعجب بضخامة العمل الذى قام به عظماء العلماء ، أولئك الأساتذة

الذين لا يعرفون الملل ، والذين خلقوا علم الآثار المصرية ووصلوا به إلى حالته الراهنة . وإذ سأل سائل : « هل هناك أشياء غير هذه يمكن الحصول عليها ؟ » ، أجبناه بأن علم الآثار المصرية لا يزال فى عهد طفولته ، وأمامه قرون .

العمارة :عرف المصريون منذ عصور ما قبل التاريخ كيف يحصنون مدنهم بأكوام من التراب ، وكيف يحيطون قبورهم باللبن ، وكيف يبنون لآلهتهم مساكن رحبة .

بدأ قدماء المصريين منذ حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م . يستعملون الآجر المجفف فى الشمس ، على نطاق واسع . وكانوا يدفنون النبلاء تحت أبنية كبيرة من الآجر لها سقوف من العقود الكاذبة أو من الخشب ، وصممت حجراتها لتكون مخازن وخزانات .

ومنذ ذلك العصر صاروا يبنون أسواراً من الآجر مستطيلة الشكل حول مساكن آلهتهم وملوكهم . وإذ عرفوا منذ أقدم العصور كيف يصنعون الأوانى والتماثيل من الحجر ، جاءتهم فكرة تبطين حوائط قبورهم ومداخلها بكتل من الأحجار المسوّاة . ولم يمض وقت طويل حتى استعمل عامة الشعب الأكواخ والأخصاص المصنوعة من عيدان البردى . أما القصور الملكية والحصون وبيوت النبلاء ومعابد آلهة القرى ومقابر الطبقة الوسطى ، فكانت تبنى جميعاً من الآجر الجيد والخشب الصلب ، ما عدا الأبواب والكُوّات فكانت تبنى بالحجر . ومع ذلك كانت معابد أهمّ الآلهة ، ومقابر الملك ووزرائه ، تبنى بالحجر الجميل لكى تبقى أبد الدهر . ففى حوالى سنة ٢٨٠٠ ق . م . فكّر رجل عبقرى اسمه « إمحوتب » ، فى أنه إذا استعمل الحجر فى تشييد المبانى التى تقام فيها شعائر الأسرار التى بها يحيا البشر ويعيشون بعد الموت ، كانت أكثر ملاءمة لإنجاز وظيفتها الحيوية .
وابتكر هذا الرجل عمائر ضخمة باتت أسلوبا يحتذى ، وجاءت بعده عدة أجيال من البنائين الماهرين (انظر الأهرام وزوسر) ، ابتكروا طرازاً معمارياً حقيقياً ، وزادوا فى عدد الأهرامات والمصاطب والمعابد المصنوعة من كتل ضخمة من الحجر تقوم فوق أعمدة منحوتة من قطعة واحدة من الحجر ، ومسقوفة بألواح الحجر الموضوعة فوق مجاديل حجرية . وما إن جاء منتصف عصر الدولة القديمة حتى تحددت معالم أنماط وطرز وزخارف المعمار المصرى .

إن جبال مصر تزخر بالصروح وتعج بالدهاليز المنقورة البالغة الطول ، وعاشت المبانى المقدسة العالية والواسعة على مدى القرون (فلم يدمرها الحجارون ولا الجيارون فى القرون الوسطى ، ولا فى العصر الحديث) . لقد قطعت أطنان من الأحجار وسُوّيت ووضعت فى أماكنها بسهولة مدهشة (انظر التماثيل الضخمة والمسلات) . بغض النظر عن ثقلها وضخامتها ، كما لو كانت مجرد قطع من الأخشاب . ويتعذر علينا أن نتصور كيف أمكنهم أن يبنوا كل هذه المبانى الكثيرة فى دقة وإتقان بغير أدوات يمكن مقارنتها بأدواتنا . حتى يحسب الزائر العادى أن معرفة المصريين بالعلوم النظرية والتطبيقية

كانت عظيمة فى العصور الفرعونية بقدر عظمتها فى وقتنا الحاضر ولئن كانت معرفة « المشرفين على الأعمال » بالرياضيات ليست شديدة البدائية كما يظن الكثيرون

إلا أن علومهم كانت على ما يبدو تجريبية. وعلى أية حال، فإن أولئك القوم، وليس لديهم من الآلات المعمارية سوى خيط المطمار (أداة لتحديد الخطوط الرأسية) والزاوية والذراع المصرى (مقياس طوله ٥٢ سم) وشريط القياس و « القدة » (مسطرة التسوية) ونوع بدائى من الثيودوليت قد عرفوا كيف يرسمون الرسوم التخطيطية والقطاعات الطولية والعرضية

للإنشاءات، الصالحة للعمل على الرغم من بساطتها، ويبنون المبانى الضخمة الجميلة. وعندما ننظر إلى الآثار الفرعونية، يجب أن ننسى فكرتنا عن التقدم الفنى كما يمثله الصلب والآلات الحديثة. فقد شُكِّلت هذه الأحجار [بالظِّرَّان] أو بالحجر الصلب أو بالنحاس أو بالبرونز (انظر الأحجار). فرفعت « المداميك » المتعاقبة، وأجسام الأعمدة وتيجانها والكمرات والسقوف، إلى المستوى المطلوب فوق منحدرات مقامة من الآجر والتراب تصل إلى قمة أكوام من الرمل ملاصقة للحوائط. وكل ما استعمل من آلات لرفع تلك الكتل الضخمة هو: الزحافات الخشبية والدرافيل، والحبال، والعتلات. وقامت فرق مدربة جيداً بتحمل عبء التجديف فى صنادل نقل الأحجار، وجر الكتل الضخمة فوق اليابسة (انظر النقل والمحاجر). وقد استلزمت تلك الأعمال قدراً عظيماً من الصبر

من جانب العمال، ووقتاً طويلاً، وأعداداً هائلة من الرجال، يشتغلون معاً على إيقاع واحد كما يفعل أهل الصين. ولا شك فى أن هذا هو سر نجاح المعماريين المصريين.

يستطيع الرجل الحديث، تبعاً لمزاجه الخاص، أن يقدر قيمة الجمال الهندسى والزخارف الوفيرة بهذه المعابد والقبور. ومع ذلك فبوسعه أن يأخذ عليها تلك المبالغة الواضحة فى استخدام العناصر الفنية التى تذهل العقل وتلهيه عنها رغم نفاستها. إن مجرد إيمان المصريين بقدرتهم على بعث الحياة فى الأشكال المصورة كان كافياً ليقوموا بمثل هذا المجهود الخارق ويمثل هذه العظمة السامية. والحقيقة أن منا من يجد فى هذا المعمار معنىً داخلياً ــ رسالة تمدنا بالإجابة على مشاكلنا، ويتوقع أن يجد مرشداً إلى العلم العملى أو التأمل فى تلك الأسرار الدينية. (انظر التعبير بالرموز).

بنى المصريون من أجل أنفسهم، وتبعاً لفكرتهم عن الأشياء والحاجة مجتمعهم. فاستعملوا معارفهم كلها، وكامل عبقريتهم الابتكارية فى بناء معابدهم

وقبورهم بنفس الطريقة التى تركز بها الأمم الحديثة اهتمامها على تحسين القدرة الصناعية (انظر الاقتصاد).

استمر قدماء المصريين يبنون بغير انقطاع، واحتفظوا بأجهزتهم الطقسية القوية. ففى حكم كل ملك، وأحياناً عدة مرات فى حكم الملك الواحد، كانت بيوت الآلهة تبنى من جديد أو تُوَسَّع، وتُصلح الزخارف التى على الجدران أو تُكَمَّل باسم

الملك الذى كان من واجبه أن يبقى تلك المعابد أو يجددها .

لقد كان للمعابد والمقابر مكانها فى الطقوس الدينية الحيوية . واستعملت كلما مصرية واحدة لوصف الرسم المعمارى والأساسات والعمليات المعمارية والغرض من المبنى الدينى . والحقيقة أن المبانى نفسها ، بشكلها وبزخارفها ، كانت تمثيلاً من الحجر للديانة وللطقوس . وكان لهذه المبانى القدرة على إعطاء الحياة فى هذا العالم ، والخلود فى العالم الآخر ؛ حتى لو لم تقم بها أية طقوس دينية . وتعيد هذه الآثار العجيبة المصنوعة من المواد الشديدة الصلابة الحياة للأحياء بواسطة سحر المحاكاة . وتؤكد بعض النصوص أن المعبد ، مع ما فيه من عناصر أنموذج مصغر للكون الذى هو أساسه (انظر المعبد) .

أُخذت بعض أجزاء القبور الخاصة من المعابد ، وبعضها الآخر من البيوت . وربما أمكن مقارنة الهرم بالربوة الأولى التى ولدت عليها الشمس ، كما يمكن مقارنة دهاليز وادى الملوك بالممرات الموجودة فى العالم السفلى حيث وُلدت الشمس .

كان مشرفوا الأعمال ، والعلماء القائمون بالطقوس ، وكبار البنائين ، يمارسون طقوساً سحرية تقام بأمر ملكىّ لبناء المعابد والقبور الملكية ، وبتصريح من الملك لبناء القبور الخاصة . وبعد مراعاة ضرورات التقاليد والأرض المطلوب البناء فيها ، كانوا يقررون اتجاه المبنى ويضبطون مكانه بناء على اعتبارات فلكية . كما كانوا يُسَوُّون ، فى الوقت نفسه ، المسائل الفنية ويرتبون الطقوس الواجب أن يراعوها فى تشييد المبنى ، لأن للأجزاء التى لا يمكن رؤيتها فى هذه المبانى (الأساسات والتخطيط) نفس أهمية الأجزاء الأخرى التى لا تمكن رؤيتها ؛ وهى ودائع الأساس ودفن القرابين وحيوانات الضحية وكسر التماثيل ، وإعادة استعمال الأعمال المنحوتة المأخوذة من أماكن مقدسة أخرى (وهذه من العادات التى لا يمكن تفسيرها ، ومن أمثلتها عادة استعمال المبانى المهجورة كمحاجر للمبنى الجديد ، وغير ذلك من العادات الغريبة الأخرى) .

وأثناء تصميم المبنى المقدس ، يضع المهندس المعمارى تصميم زخرفة ذلك المبنى السحرية (انظر الرسم والنحت البارز) إذ لم يصنع المصريون الكوات فى مقابرهم ونقشوها بالنصوص الجنائزية ومناظر الطقوس الدينية ، وصور الحياة بعد الموت ، لمجرد الأغراض الزخرفية . وقد رُصت صفوف لا تحصى من الصور على جدران المعابد ، فى الأفنية والحجرات ، تبعاً لاستعمالها الطقسى الواقعى . ومن أمثلة الزخارف التى لا تحتاج إلى تفسير : النجوم المصورة على السقوف ، وأزهار لوتس المستنقعات القديمة على أفاريز السقوف . وأفاريز الثعابين الشمسية والنسور السماوية ، وصفوف الأرواح المائية والبرية تحتها . وعلاوة على هذا استمر المصريون يستخدمون الأنماط المعمارية والزخرفية القديمة.وما الكورنيش المصرى الشهير الذى يعلو الأبواب ، وأبواب المعابد ، والأبراج والغرف ، إلا رسوم هندسية من الحجر مشتقة من هيئة أطراف البراع ، المربوطة

بشريط أفقى ، التى كانت تستعمل فى مقاصير الأرباب فى عصر ما قبل التاريخ . واستمدت حزوز الأعمدة ، المعروفة بالأعمدة ما قبل الدورية من القوائم البدائية المصنوعة من عيدان البردى أو جذوع نبات إسمه فى اللغة اللاتينية Heracleum giganteum . وما مجموعات « الخكرو » المرسومة على قمة جدران أقدم المعابد إلا نُسخاً من العُقد التى كانت مستعملة من قبل فى ربط حزم النباتات بالهيكل الخشبى عند بناء الجدران من الحشائش والأعشاب .

يمثل هذا النبوغ المدهش فى ملاءمة المادة ، والرسم ، والزخرفة ، والموضع تبعاً لاحتياجات نظام الكون والطقوس الدينية ، استطاع المعمارىّ المصرى أن يخلق أشكالاً جميلة ذات عظمة وتناسق عظيمين فى تأثيرهما على النفس . وفى الوقت ذاته ، تدل غزارة التعقيد والغرابة على عالم عجيب ، حُوِّلت فيه صناعة البناء العتيقة المرنة ، لخدمة فكرة وثنية ، تبدو طرافتها ، لأول وهلة ، غريبة على العقل الحديث .

العمارنة (تل العمارنة) : قرية للبدو فى مصر الوسطى على الضفة الشرقية للنيل . وتدين باسمها الحالى إلى بنى عمران الذين حطوا رحالهم هناك منذ قرنين ، على حافة الدائرة الجافة العظمى التى تشغلها كلها المدينة التى اندثرت فى تلك الجهة . ويذكرنا اسم العمارنة — فى هذه الأيام — يذكرنا بـ « أخت أتون » أو « أفق أتون » — التى أسسها الملك أخناتون فى حوالى سنة ١٣٧٠ ق . م . لإلهه الشخصى أتون . بيد أن هذه المدينة لم تدم إلا مدة دوام تلك العقيدة . فدُمرت المعابد وهجر الأهالى بيوتهم واكتُشف بها ثلاثة قصور وعدة معابد ، وبيوت للأغنياء ، وحى للعمال ، وستوديو لأحد النحاتين . وسهّلت الألواح المكتوبة بالخط المسمارى ، المحفوظة فى « المكتب الأجنبى » إعادة رسم صورة للسياسة الخارجية فى ذلك الوقت . وقد زَوّدت هذه المدينة علماء الآثار الألمان ، والإنجليز ، ولصوص الآثار ، بكثير من الكنوز الفنية والتاريخية . ولا تزال قبور ذلك الملك وأتباعه النبلاء موجودة فى الجبال هناك ، على مسافة قصيرة من تلك المدينة .

غير أن تل العمارنة تضم أكثر من موضع للحفر منقطع النظير ويرى البعض فى تل العمارنة حلماً من أحلام الأسرار الدينية الغامضة أو تعويذة شرقية . فقد عاشت هناك نفرتيتى « سيدة السعادة الزاخرة بالرشاقة » ، وكذلك توت عنخ أمون . وزيادة على هذا ، صارت العمارنة مضرب الأمثال ، ورمزاً للعقائد الثورية والتراتيل الخيالية ، والصور والتماثيل الواقعية التى كانت مقبولة إبان حكم ذلك الملك المهرطق . لم يكن فن العمارنة جزءاً من النبوغ المصرى التقليدى ، أكثر من مذهب أتون . فكلاهما فرضته إرادة رجل متفوق وُلد قبل عصره . ويَضرب المثل بطابعه الخاص فى الفن ، كما فى الدين ، وهو طراز بهيج ألوف أوحى إلى الفنانين بأن يصوروا على جدران المعابد والقبور مناظر مبهجة للحياة فى المدينة وجموع الشعب الحيوية . غير أن أبرز مظاهر ذلك الفن هى طريقة

تصوير البشر ، والصور الكاريكاتورية الملكية ، التى تصور وجه الملك شاحب اللون ، بادى المرض ، برأسه الطويل وذقنه المدبب الممتد إلى الأمام ، وصدره الغائر وكرشه الكبير . أما أسلوب فن العمارنة المتطرف فمشوش ويعافه الذوق أحياناً ، ولكنه يوحى بأن رجلاً ملهماً ضاق ذرعاً بالآلة المنظمة للعالم الفرعونى بما اكتنفتها من ثقل رغم دقة تنظيمها ، فتمرد عليها ، وهو الأمر الذى جعل جيلنا يتعاطف دائماً مع ذلك الأسلوب الفنى الشاذ (رغم أن هذ التعاطف قد يتيح فرصة للمزيفين البارعين لزيادة دخلهم) . الحقيقة أن فن تل العمارنة كله يبدو مصبوغاً بشخصية أخناتون . أما أولئك الملمون بالفنون المصرية الصحيحة لجميع العصور ، فقد

يجدون فترة العمارنة مخجلة ولا يقبلها الذوق .

العمال Workmen : يكاد العمل البشرى يكون مصدر القوة الوحيدة فى مصر القديمة ؛ أى تلك الكمية الهائلة من العمل الذى لا يتطلب مهارة ، والذى يطلبه المجتمع من الفرد . كان شق القنوات وإقامة السدود وتشييد المعابد وبناء الأهرام أموراً يفيد منها الجميع ، وتستلزم ألوفاً من الأيدى العاملة ، ومن الرجال لرفع الأحمال الثقيلة ، وغير هؤلاء من العمال . وكان الجزء الأكبر من القوة يأتى بنظام السخرة . كان كل فرد عرضة للسخرة ، نظرياً ولكن الفلاحين وحدهم ، هم الذين وقع عليهم عبء تلك الأعمال ، عملياً وكانت الحكومة تلتزم بطعام أولئك الرجال طيلة مدة قيامهم بالعمل . وكان جل تلك القوة الدائمة من أسرى الحرب والمساجين المحكوم عليهم ، يضاف إليهم عدد كبير من العمال الذين بمستوى العبيد تقريباً (انظر الرق) .

منذ أقدم العصور ، كان التخصص جزءاً من الاقتصاد المصرى . غير أنه لم يعط العمال استقلالهم . كانوا عادة جزءاً من أفراد أسرة غنية ، تشتغل إما فردية أو فى مجموعات ، فى حوانيت صغيرة كان مختلف الصناعات إما تابعاً للحكومة أو للمعابد . ومع ذلك ، فإن بوسع الرجال المستخدمين على ذلك النحو ، أن ينتفعوا بجزء من وقتهم فى أعمالهم الخاصة .

وهكذا ، تضمنت الطبقة الوسطى، التى ظهرت فى حيز الوجود فى نهاية الدولة القديمة ، الصناع والموظفين . وكان الموظفون شديدى الازدراء للصناع وكثيراً ما تهكموا على حياتهم الشاقة ، فذلك النساج يظل مقرفصاً « وركبتاه توخزان معدته باستمرار » ، والفخارى « أقذر من الخنزير » ، والغسال « الذى يجاوره التمساح » ، وما إلى ذلك . ورغم ما تتضمنه هذه الأوصاف من معلومات ثقافية ، فإنها تشوه الحقيقة وتؤكد مساوىء الأعمال اليدوية وتنكر ميزاتها . ونعرف أن المهنة شبه الرسمية تكفل لمن يزاولها عيشة رغيدة نوعاً ما . وكشفت أعمال الحفر فى أبيدوس عن لوحات جنائزية قدّمها بعض النجارين وعمال المحاجر والإسكافية والغسالين وصانعى الجعة ومن إليهم ، وما كانوا ليستطيعوا ذلك إذا لم يكونوا فى بحبوحة . وكانت بعض المهن

مربحة جداً ، كمهنة الصائغ والنحات ، كما يتضح من مقابر أصحابها الضخمة فى طيبة ومنف . وكان قادة نقاباتها من أسمى الموظفين الحكوميين فى الدولة . وعلى العموم ، كانوا يعجبون بالمهارة الفنية . أما أسرار المهنة فكان يتسلمها الابن من أبيه وكانت فخر الصناع . ويتجلى حسن ذوق المصرى فى اختيار النوع والجمال فى لغته التى تستعمل نفس الكلمة للفنان وللصانع .

عمود الجد : هو تميمة من عصور ما قبل التاريخ ، لاتزال طبيعته غير معروفة تماماً . فربما كان يمثل شجرة مشذبة ، أو وتداً محززاً له أهمية ما فى الطقوس الزراعية . وكان هذا العمود جزءاً من اسم مدينتين فى الدلتا ، ولكن يبدو أن طقوس الجد وأسطورته نشأتا فى منف .

كان الملك هو الذى يقيم عمود الجد للإله بتاح . كان احتفال إقامته من الشعائر الدينية القديمة التى ظلت تمارس فى العصور المتأخرة . وكانت علاقة بتاح بسوكر وعلاقة سوكر بأوزيريس من صالح بقاء عمود الجد هذا . ورغم أن هذا الشكل غريب على أوزيريس ، فقد ظل لمدة طويلة معتبراً من الرموز الأوزيرية . ولما كان اسمه يشبه فى نطقه كلمة بمعنى « الثبات » أو « المتانة » ، فغالباً ما استعمل عمود الجد فى التمائم وللعقود وللطلاسم الواقية للأحياء ، والرموز السحرية التعطافية المصورة على حوائط المعابد ، وكتمائم لحماية الموتى .

العنقاء Phoenix : عندما غمرت مياه الفيضان الوادى لم تترك سوى القرى والمرتفعات ، وشاهد أوائل قدماء المصريين طائراً جميلاً ، يخوض الماء أحياناً ، ويجثم على الآكام أخرى ، إنه بحق ملك العالم المائى . إنه مالك الحزين الرمادى ardea cinerea ، ذو المنقار الطويل المستقيم ، وتزين رأسه ريشتان ممتدتان إلى الخلف . يبدو يقفز من الماء عند الفجر الوردى ، كما فعلت الشمس عند الصباح الأول . عُبد هذا الطائر فى هليوبوليس مع الشمس نفسها والحجر الغريب ، الذى جاء إلى الوجود عند بدء الخليقة . إذا ما جثم ذلك الطائر على شجرة الصفصاف المقدسة بتلك المدينة العظيمة ، كان أمارة على الفرح والأمل ، أشبه بعودة البجع إلى قمم سقوف منازل الألزاس فى أوربا . « عادت العنقاء ! » وكل طفل يولد فى ذلك اليوم يحتفظ فى اسمه بذكرى تلك اللحظة المدهشة .

تظهر العنقاء فى الصباح تتألق فى مجدها ، اشبه بالشمس التى هى صورتها وهى كالشمس فى أنها خلقت نفسها وسط المياه الأولى لخلق العالم ، وكالشمس أيضاً فى كونها تحكم على دورات من ثلاثين سنة ، وأعياد إعادة الشباب . بالغ الإغريق فى هذه المعتقدات ، وألفوا أسطورة الطائر العجيب . واشتقت كلمة Phoenix من اللفظ المصرى بنو Boinu . فمن مولده الشبيه بمولد الشمس ، ومن حكمه على الدورات الزمنية ، خلقوا أسطورة الطائر الذى قتل نفسه وسط اللهب ، ثم وُلد ثانية من رماد جسمه المحترق ، والذى كان يظهر فى فترات منتظمة تبلغ كل منها عدة

سنوات ـ ٥٠٠ سنة تبعاً لإحدى الروايات ، والف سنة تبعاً لرواية أخرى . وأخيراً اعتقدوا أن عودته فى فترات منتظمة تنبىء بأحداث هامة .



ف

الفاينس Faience : ما خزفنا المصنوع من نوع من الطين والمغطى بطبقة رقيقة من الميناء سوى سلالة منقحة من الفخار الإسلامىّ . وهكذا نطلق اسم الفاينس على المادة الجميلة التى سماها قدماء المصريين « اللامع » والتى كثيراً ما توصف بأنها تحفة لامعة أو « مطلية بالميناء » ، ولو أنها لا تحتوى على طين ولا على طلاء ميناء حقيقى . صُنع الفاينس المصرى من مركب قابل للحرق من الكوارتز النقى ، وطلى بطبقة رقيقة لامعة ليست إلا زجاجاً من السيليكون . ويوجد منه عدة أنواع - مصبوغاً باللون الأحمر أو الأسود أو الأصفر أو غير ذلك ، مع طبقة لامعة خاصة من مركبات الرصاص متحولة إلى زجاج . بيد أن النوع النموذجى الملون بمركبات النحاس ، غالباً ما يكون أزرق اللون أو أخضر - يتراوح ما بين الأزرق النيلى الأدكن والأخضر الزاهى . هكذا كان صانع الفاينس يصنع فى أتونه مادة تحاكى الفيروز واللازورد للأغنياء وللفقراء . والفاينس المصرى القديم من أروع ما يُعرض فى المتاحف : من ألواح زوسر اللامعة ، إلى شِباك الخرز الأسطوانى الملفوفة حول المومياء ، كما أنه من أبهى ما تعرضه حوانيت العاديات . نراه فى صورة خرز متعدد الأشكال وفى المصنوعات المطعمة ، والتمائم المصنوعة فى قوالب ، والتماثيل الصغيرة « الشوابتى المجيبة » المصنوعة فى القوالب أو المشكّلة باليد ، والأوانى الزخرفية ومجموعات الحلىّ . ناهيك

عن الحلى والتماثيل المصنوعة من « حجر الصابون » الرخو ، وهذا نوع من الحجر يمكن تلميعه بحيث يصير « براقاً حقيقيًا » .

فتح الفم Opening of The Mouth : يتضح من عنوان هذا الطقس الدينى القديم ، أنه كان يمنح الشخص « الذى يعيش » فى الحياة الأخرة قدرة كاملة على استعمال فمه ليشرب ويأكل ويرشد الناس والأشياء . كانوا يقومون بهذا الطقس على التماثيل والمومياوات فى « حجرات الذهب » (أى فى قاعات النحاتين ومعامل المحنطين) ، ثم يعيدون الطقس على الشخص الميت نفسه فوق نعشه ، وعلى تمثال خشبى مطلى باللون الأسود يوم الجنازة . كذلك كانوا يقومون به فى المعبد على التمثال المقدس أو على حيوان مقدس . لا تختص مجموعة التعاويذ المختلفة هذه ، كالتى يمكن رؤيتها فى

الأفاريز المزخرفة بمقبرق سيق الأول ورخميرع ، بالفم وحده ، بل كانت تستعمل فى إبراز أو إعادة الحياة فى القوة الحيوية ، فى أية صورة بدنية مُعَدَّة لتتلقى شخصية إلاهية أو بشرية (كتمثال أو مومياء) ، وتتضمن أكثر من مائة دورة طقسية : كالتطهير والتبخير والدهان بالزيت عدة مرات (كما فى الطقس الإلهى) ولمس الوجه بآلة من الصوّان ذات شعبة عند أحد طرفيها ويقدوم (طقس سحرى يكمل عملية إعادة الحياة والخَلْق ، وهى عملية نحت) . كانوا يذبحون ثوراً ويرفعون

ساقه الأمامية اليمنى (حيث توجد قوته البدنية) نحو التمثال . وكان أحد الكهنة يذهب فى غيبوبة ويبدو أنه كان ينصرف للبحث عن روح الشخص الميت ويعيدها إلى جسمه . وإذا أراد أى ناقد فنىّ أن يُقَدِّر قيمة جمال الفن المصرى ، وجب عليه أن يحضر شعائر وطقوس الاحتفال بطقس فتح الفم . والحقيقة أنهم أضفوا حياة على الفن المصرى ، وحياة على التماثيل المجيبة نيابة عن الموتى ، وحياة على تماثيل الآلهة .

فجر التاريخ **Proto - History** :
(انظر « ما قبل التاريخ ») .

فجر الحضارة المصرية **Origins** :
أمكننا بواسطة الرسوم المنقوشة على الصخور ، ونتائج الحفر ، أن نُقَدِّر من حيث الثقافة المادية ، بطء التطور الذى طرأ على مصر فحوّلها من دولة فى طور ما قبل الزراعة إلى دولة ذات مجد وعظمة فى سنة ٣٠٠٠ ق.م. (انظر ما قبل التاريخ) .

نسج التاريخ الرسمى الذى سجله الكهنة أسطورة حول الدور الذى لعبه البشر فى خلق الحضارة ، فتروى الأسطورة أن خلق العالم بدأ فى مصر نفسها ؛ وجاءت بعد الخالق أسرة إلهية ، ثم تخلّت هذه بدورها إلى ملوك حكماء أنصاف آلهة وأخيراً جاء الملك مينا ولكننا نهدف إلى رسم صورة متماسكة بعيدة عن الخيال قدر المستطاع ، عن الأصول الحقيقية التى نشأ منها المصريون .

ظهرت عدة نظريات لتعزيز هذه الفكرة (ربطت بمهارة بين نتائج الحفر فى أماكن ما قبل التاريخ ، مع العلم الذى يبحث فى الانسان ونشأته (الأنثروبولوچيا) وعلوم اللغات ، وعلم السلالات البشرية ، وعلم الدين المقارن ، وتحليل أقدم الأساطير المصرية) ، وهى تفسر بداية الدولة الفرعونية بمصطلحات « التاريخ » والتاريخ الأصلى أو تاريخ الأصول ومما يؤسف له أن الفروض المذكورة فى المؤلفات المختصة بهذا البحث ، كثيراً ما اعتبرت فى الكتابات العامة ، حقائق إيجابية . ومن أمثلة ذلك سلالة آنو Anu ، و « حدادو حورس الغامضتين » (وهم سلالة ظهرت فى الوجود عن طريق خطأ لغوى) ، ونظرية « جنس الأسرات » ومجىء الحضارة الثينية من آسيا ، ونظرية الرعاة الساميين (أو الحاميين) الذين اختلطوا بالزراع الزنوج ، والقصة الجغرافية السياسية التى تفرّق بين مصر العليا وبين مصر السفلى الزراعية ، ونظرية « مملكة هليوبوليس » حيث اخترع التقويم فى سنة ٤٢٤٠ ق.م. ، والحضارة « الجرزية » التى نشأت فى الدلتا المجهولة

والتى قهرت مصر ، كما أن هناك نظرية ضعيفة تنفى وجود ثقافة فى عصور ما قبل التاريخ فى الدلتا : لم تستطع أية أسطورة من هذه الأساطير الحديثة أن تقف فى وجه الاعتراضات الناشئة من الاعتبارات المنطقية ، ولا فى وجه طرق التحقيق الحديثة ، أو فى وجه الاكتشافات الحديثة .

ظلت مصر نفسها ، لمدة طويلة ، سهلاً ضيقاً معظمه مستنقعات وسط رقعة فسيحة مكشوفة هى الآن صحراء ، ولكنها كانت ، فى ذلك الوقت ، صالحة للسكنى . وتاريخ مصر فى الحقبة الأصلية جزء من تاريخ حدودها الآسيوية والأفريقية . ورغم الاكتشافات الرائعة التى تكتشف هنا وهناك ، والتى تحظى باهتمام بالغ من الصحافة ، وكثيراً ما تتضمن تعليقات متهورة عن مصر الفرعونية كالإشارة إلى الرسوم المنقوشة فى الصخور الصحراوية أو استيطان ساكنى الكهوف فى صحراء النقب (Negev) . فلاتزال دراسة هذه المناطق (الأردن وسينا وبلاد العرب والسودان والصحراء) فى مهدها . وعلى ذلك لا يمكن تكوين صورة حقيقية عن شتى حضاراتها وعلاقتها مع غيرها إبان عصور ما قبل التاريخ . وزيادة على هذا ، فإن القرى والمقابر التى يمكن حفرها بمصر نفسها ، قاصرة على تلك المساحات التى كان بوسع الإنسان أن يقيم فيها على سفوح التلال ، دون أن يبتعد كثيراً عن ضفاف النهر . أقام هؤلاء السكان عند مدخل الفيوم فى منطقة القاهرة ، وخصوصاً فى المنخفض الضيق الواقع بين أسيوط والشلال الثانى كذلك بوسعنا أن نقول إنه ، فى الألف سنة الرابعة ، كانت هناك ثقافة مادية نموذجية (تعرف بالنقادية) تتميز بالتقدم العظيم فى فن النحت والزخرفة ، نشأت فى منطقة طيبة وامتدّ أثرها الفنى ببطء متجهاً نحو الشمال ، وإلى الجنوب حتى بلاد النوبة .

ويبدو أنه كانت عند رأس الدلتا ، منذ أوائل العصور الحجرية الحديثة حتى تاريخ غير معروف فى عصر ما قبل الأسرات ، حضارة مماثلة يمكن اقتفاء أثرها بدرجة من اليقين ، بواسطة حضارة مواطنة أخرى ، تفتقر إلى الفنون التشكيلية رغم وجود مهارات فنية بها تعادل فنون الجنوب ، وتتميز بالعادات الأصلية (بناء مقابر للحيوانات المقدسة) . غير أنه مما يؤسف له أن المساكن التى أقيمت على الأرض الزراعية فى مصر الوسطى ، والقرى التى أقيمت على مساحات من السهول الخضراء والتلال الرملية لوسط الدلتا ، التى لم يكتسحها النهر وهو يعيد شق مجاريه فى تربتها الغرينية ، مدفونة الآن تحت « الأكوام » ، تحت قاع النهر . لم تبق أية بقايا مادية لتشهد على أولى أيام الأشمونين ، أو بوتو ، أو صا الحجر ، أو منديس ، أو أبو صير ، تلك المدن التى تعدها الأساطير المصرية ضمن المواطن الأولى لأقدم الطقوس والعادات . وليس هناك شك كبير فى أية محاولة لتخيُّل تاريخ تلك القرون بالتفصيل ، ونعنى بها القرون التى ليس لها سجلات مكتوبة ، مستخدمين المعلومات الحديثة والأساطير الكهنوتية وبقايا الأجناس البشرية .

ومع ذلك ، فإن هذه الأبحاث التأملية قد أسفرت عن بعض النتائج ، التي رغم تفككها وكونها جزئية ، قد تبين أنه كانت هناك تعقيدات ملحوظة ـ تتضح بنوع خاص في أمور الأجناس واللغة ـ في المناطق القريبة أو البعيدة للحضارة المصرية . يبدو أن هذا نشأ عن تغير غير مفهوم ، في الشكل ، في الثقافة المادية والتقاليد الروحية الشائعة بين مختلف الحضارات البدائية التي ازدهرت في شمال شرق أفريقيا وغرب آسيا ، والتي اختلطت على ضفاف النيل ، ورغم هذا فلا يمكن أن نرى منها سوى آثار طفيفة في بعض الأماكن . فمثلاً ، يوجد شَبَه أكيد بين « أسرار عبادة أوزيريس » وبعض الأساطير الزراعية الشائعة في الشرق الأدنى القديم (مثل تموز وأدونيس) ؛ ومشابهات صرفية في الألفاظ الزراعية لكل من مصر وسومر Sumer ، وعادة ختان الذكور واستخدام قذف العصا واستخدام الصولجان ، وبعض العادات الخاصة بتربية الماشية ، التي لاتزال شائعة بين البيجا ، والنوبيين ومختلف شعوب السودان النيلية ، وشعوب الماساى بكينيا وغيرهم من شعوب أفريقيا الذين لايزالون محافظين على أقدم العادات .

يتضح من دراسة الطقوس الدينية المحلية لمصر التاريخية أنه قد تأصلت ، في العصور الموغلة في القدم ، طائفة من المعتقدات ، في كل قطعة من الأرض نشأت حديثاً على ضفاف النيل . وتمسكت العشائر المتدينة بآلهتها من الحيوانات والتحريمات الحيوانية المتصلة دائماً بنفس المكان ، حتى في عصور الأباطرة المسيحيين . فمثلاً كانت هناك توسلات سحرية لقوى الإخصاب ، وتلك الطقوس المتصلة بالحرب ، وصيد الحيوان ، وصيد الأسماك ، التي انحدرت من عصور ما قبل التاريخ واندمجت في العادات الدينية ، وهي تنم عن الرواسب البدائية المتبقية في أسمى مظاهر الحضارات المصرية الراقية . وتَصَوُّر الفرعون ، الذي كان من نسل الإله الصقر ، وكان هو نفسه صقراً بطبيعته ، يلبس تاج « الساحر الأعظم » ، ويتدلى من مؤخره ذنب ؛ وتَصَوُّرُهُ يسير قُدُماً ، تتقدمه الأعلام تحمل « شعارات الآلهة » . فكان يبدو أشبه بساحر يستحث إله الإخصاب ، أكثر منه زعيم دولة بيروقراطية ومتقدمة في الفنون .

تُذَكِّرنا الطقوس الجنائزية القديمة المتناثرة هنا وهناك ، بعادات العصور القديمة المتروكة . فتذكر الخوف من الأفعوانات العملاقة ، ورحلات بالأطواف ، والدفن في الرمل مباشرة ، وكذلك طقوس فصل أعضاء الموتى ، واحتفالات أكل لحوم البشر . كما يوجد في تعاويذ « نصوص الأهرام » ، كثير من اللغات والمعتقدات والقوانين المصرية القديمة ، معظمها بائد .

وقد قال عالم الفقه الألماني العظيم كورت زيته Kurt Sethe وأتباعه ، ونُقّاده (وهم يعملون بنفس أسلوب شراح ومفسري « العهد القديم » ، ويفرضون الفروض » على طريقة يوهيميروس Euhemerus ، إن المغامرات الأسطورية للآلهة ، تمثل في رأيهم ، إلى حدٍّ ما تاريخ الشعوب التي عبدتها) ، ولذا يحاولون أن يكتشفوا فيها

أطواراً تاريخية ، أقدم من الدولة القديمة . إنه عمل محفوف بالأخطار ، نتائجه موضع جدل ، ولكنه مبنى على طريقة معتمدة .

يمكن رسم صورة كروكية عن التطور التقدمى ، « من العشائر إلى الإمبراطورية » بدراسة هذه التعاويذ الجنائزية ، وقوانين ثنى ومنف ، والصور والنقوش والألقاب التى تصف الملكية الإلهية ، وزيادة على ذلك ، بفحص أماكن ماقبل الأسرات .

يمكننا أن نستنتج أن زراعة أرض النيل قد عدَّلت تكوين السلالات والكيان الاجتماعى وهناك أثر من الأريستوقراطية مالكة الأراضى (البات Pat) ونعلم أنه كانت هناك قبور للأغنياء وقبور بسيطة . ويمكننا أن نستنتج أن الحاجة إلى تحسن الأراضى اقتضت حكومة مركزية . وقبضت المناطق على السلطة الملكية بالتناوب ، ونمت الأقسام السياسية (الأقاليم) ، التى بدأت فى الاتحاد والاندماج ، إما طوعاً أو كُرْهاً ، وأخيراً ظهرت مملكتان عظيمتان ، احداهما فى الدلتا والأخرى فى الجنوب . وفى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. ، أى فى العصر الذى أظهرت فيه المدنية المصرية نفسها فجأة بعض التقدم ، ونجح أهل الجنوب ، يقودهم فرعون هيراكوبوليس (نخن) ، فى قهر غرب الدلتا ، مقر فراعنة الشمال (مملكة بوتو) . ما أن تم هذا الاتحاد حتى بدأ العصر الثنى (أو الطيبى) بالملك مينا . فهل حدث فى القرون السابقة لذلك اتحاد بين المملكتين ؟ كانت منف ، فى عهد الدولة القديمة ، تعتقد ذلك . تروى الأسطورة الكلاسيكية نبأ انتصار الصقر حورس ، أهم شعار للفراعنة ، والحامى التقليدى للشمال ، على ست ، الحامى التقليدى للجنوب . إذن ، فهل يمكن أن يقال إن أسرة « حورية » قد تغلبت فى الدلتا على أسرة ستية فى الجنوب ؟ استنتج أتباع يوهيميروس Evhemeriste ، بعد كثير من المجادلات ، أن ذلك هو ما حدث فعلاً . ويقول خصومهم إن كُلًّا من حورس وست يمثل فكرة كونية بحتة . ترى أن هذه المَلَكية الأرضية المزدوجة ليست إلا انعكاساً لفكرة كونية فى عصر سابق ! ويرى العلماء أصحاب النظرة الموضوعية أن أهل الجنوب الظافرين سنة ٣٠٠٠ ق.م. تجسدهم الأساطير فى هيئة الإله الصقر المحلى لمدينة هيراكونبوليس Hierakonpolis وست إله « كوم أمبو » Ombos ــ وكلاهما من أهم آلهة مصر العليا ــ وأن رجال الكهنوت فيما بعد قد قسموا بين هذين الربين مصر . وهكذا يفهم طالب علم الآثار المصرية هذه النظريات المتعددة كفروض توجب البحث ، ولكنها جميعاً تقبل الجدل وتُقلق بال العالِم الحقيقى .

الفخّار Pottery : صنع قدماء المصريين نوعين من الفخار . أجودهما من الفيانس الذى استعمل فيه الكوارتز وحده لصنع الهيكل الأصلى ، وصنعوا النوع الآخر ، الأكثر استعمالاً ، من طمى النيل عادةً ، وأحياناً من الطمى الجيد الممتاز المأخوذ من كفر البلاص ومن قنا (حيث لاتزال تلك الصناعة مزدهرة) . ولون هذه

الأوانى الفخارية ، ذات السطح المعتم ، أو القليل اللمعان ، إما أسود أو أحمر أو أحمر وأسود ، أو رمادى ، تبعاً للمادة المصنوعة منها وعملية الحرق ، ويطلق عليها دائماً (ولا تعنى هذه التسمية أنها تافهة الشأن أو رديئة الصنع) اسم « المنتجات الخشنة » لما الخزف اللامع فلم يصنع فى مصر حتى القرن السادس ق.م. عندما استوطن الخزافون الاغريق منطقة نوقراطيس Naucratis ، فصنعوا الأوانى من كل شكل ، والتماثيل الصغيرة (النماذج ، والعرائس الصغيرة والتماثيل المجيبة (أوشابتى) ، من الطين العادى الذى كثيراً ما خلط بالتبن ، وجُفف فى الشمس ثم صُقل أو طُلى وأُحرق فى قمين . تقدَّم فن صناعة الفخار فى مصر العليا تقدُّماً عظيماً فى عصور ما قبل التاريخ ، إذ صُنعت الأوانى الجميلة ذات الزخارف المنقوشة أو المصورة . وشُكِّلت مثل هذه الأوانى باليد . ولم يُستعمل دولاب الخزاف إلا فى العصر الثنى . وبخلاف ذلك لم تتقدم صناعة الخزف كثيراً فى مصر الفرعونية ، سواء باختراع أشكال جديدة أو فى الزخرفة . وإن أوانى الدولة الحديثة ذات الطلاءات الزاهية والزخارف الزهرية ، بهيجة المنظر ، ولكنها لا تُعَدُّ من بين روائع الفن العالمى فى صناعة الخزف . (انظر الأوانى الخزفية) .

الفرس **Persians** : غزا قمبيز مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م. فأطاح بالأسرة السادسة والعشرين الصاوية ، وضم أرض الفراعنة إلى الإمبراطورية الأخمينية Achemenid . ونظم داريوس الأول (سنة ٥٢٢ — ٤٨٦ ق.م.) إدارة أقسام مصر بحكام فارسيين . واستمرت أولى فترتى السيادة الفارسية على مصر (الأسرة السابعة والعشرين) حتى سنة ٤٠١ ق.م. ، وفى هذا التاريخ استعادت مصر استقلالها لمدة ستين عاماً (الأسرات ٢٨ — ٣٠) . وفى سنة ٣٤٣ — ٣٤٢ ق.م. غزا أرتاكسيركسيس الثالث Artaxerxes وادى النيل ، وبدأ الحكم الفارسى الثانى فى مصر (الأسرة الحادية والثلاثين) ، الذى لم يستمر إلا وقتاً قصيراً . وفى سنة ٣٣٢ ق.م. غزا الإسكندر الأكبر مصر . وهكذا حكم الفرس الدولة القديمة أكثر من ١٣٠ سنة . جلب الاحتلال الموظفين والجنود من كافة أرجاء الإمبراطورية إلى ضفاف النيل . وجُنِّد المصريون فى جيش ملك الملوك وفى بحريته وحاربوا فى موقعتى سالاميس وبلاتايا . وأقام الأطباء المصريون فى البلاط الأخمينى ، وقام الفنانون المصريون بزخرفة القصر الإمبراطورى

وصلت القنال التى أعيد حفرها فى سنة ٥١٨ ق.م. ، بين المستعمرة البعيدة وحاضرة الامبراطورية ويبدو أن الذهاب والمجىء لم ينقطعا ، كما يبدو أن الفرس لم يستغلوا مصر بقسوة . فكانت الضريبة السنوية ٧٠٠ تالنت بالإضافة إلى إنتاج مصائد أسماك الفيوم ونفقات الاحتلال وكان الفراعنة يجبون ضرائب أكثر من هذا ، ولكنهم لم يكونوا أجانب — وقد أحسَّت مصر بالفرق . فظل المصريون مجافين للفرس ولم يرضوا بالنفوذ الفارسى ، ولم يخلف الحكم الفارسى الطويل فى مصر أى أثر قوى فيها .

صورة فرس النهر فى الرموز الهيروغليفية معناها « ثقيل » ، وكان لهم الحق فى ذلك . ليس هذا الحيوان ، آكل العشب ، ذو الشكل المخيف ، خطراً ، وإنما يمقته الفلاحون الأفريقيون لنهمه فى الطعام . كانت أفراس النهر تخرج جماعات فى الليل ، فتذهب لترعى ما فى الحقول ، وتطأ بأرجلها ما لم تقتلعه بأفواهها .

« ألا تتذكر حظ ذلك المزارع التعيس ؟ عندما جاء موسم الحصاد ، أكلت الزواحف نصف المحصول ، وأكل فرس النهر النصف الآخر » .

كان هذا وحده كافياً ليجعل فرس النهر عدو شعب يعتمد على الزراعة . لذا اعتبر هذا الحيوان مظهراً من مظاهر القوى المتمردة فى العالم . ونرى على جدران المصاطب رجالاً من الرماحين المدربين ، يُمدون للنبيل الميت ، ذلك الطقس السحرى المعتاد لقتل فرس النهر — وهذا طقس كان الملك نفسه يقوم به فى أقدم العصور . فيركب الصيادون قوارب خفيفة خلال أحراش البردى حيث يفاجئون قطيع أفراس النهر بحرابهم (وتشبه تماماً حراب الزنوج الحديثة التى يستعملونها فى نفس هذا الغرض) التى تنهال داخل فم أحد تلك الحيوانات ، حربة وراء حربة . ولما كان قائد الصيادين يمسك بالحبال المتصلة بالحراب ، فإنهم يسحبون فرس النهر إلى خارج الماء حيث يحتفلون بقطع لحمه .

إذا نظرنا إلى التماثيل الصغيرة الجميلة المصنوعة من الفاينس الأزرق اللامع ، وجدناها تمثل فرس النهر بكل ثقله ، وقد زُخرف جسمه بالأزهار والنباتات المائية التى تنمو فى بيئته الطبيعية . ولهذه الأشياء التى وجدت فى الدولة الوسطى قيمة عظيمة لدى هواة جمع التحف ، فهى تمثل أفكار النحاتين الذين قاموا بالنقش البارز على المصاطب .

لما اعتبر الأقدمون فرس النهر عدُوًّا للبشرية ، فقد اعتبروه أيضاً الحيوان المقدس لـ « ست » Seth الشرير . واحتفظت إدفو ، مدينة الإله الخيِّر حورس برماة الحراب المدربين على صيده . بيد أن ذلك الحيوان الضخم الجثة سميك الجلد لم يكن تعيس الحظ فى جميع الأمكنة وفى كل العصور . فكانت أنثاه ، ذات الكفل العريض اللامع رمز الإخصاب والإنتاج . وكانوا يعتبرونها ضرورية لبقاء الجنس البشرى وعُبدت باسم « الكائن الأبيض » و « الحريم » (أوبت Opet) و « الكائن الضخم » (تاورت Thoueris) . وتقول الأساطير إنها كانت تساعد الأمهات عند ولادة الآلهة والملوك والعوام من البشر . ومن هنا يأتى تفسير الصور والتماثيل والتمائم الموجودة بكثرة فى المعابد ، التى تبين تاورت واقفة على رجليها الخلفيتين مستندة إلى العقدة السحرية .

فرعون Pharaoh : لم يُستعمل هذا اللقب ، الذى يوحى إلينا بشخصية ذات عظمة ومجد من غابر الأزمنة ، إلا فى الألف سنة الأولى ق.م. ، كلقب للملك ، عندما أنجزت مصر ما أراده لها القَدَر ، ولم يعد ملوكها يبهرون الدنيا

بأعمالهم كأسلافهم الذين حكموا أيام عظمتها نقلنا كلمة « فرعون » عن لفظ حقيقى رسمى فى التوراة ، وهى مشتقة من اللفظ المصرى پرعا أى « البيت العظيم » ، التى بعد استعمالها للقصر ، استعملت لصاحبه (وبطريقة مشابهة ، استعمل « الباب العالى » للدلالة على السلطان العثمانى) . غير أن لقب « فرعون » لم يستعمل فى أى وقت من التاريخ كلقب حقيقى رسمى للملك . فعندما اكتمل البروتوكول الرسمى ، تألف من خمسة أسماء . فأطلق على رمسيس الثانى : حورس ــ « الثور الظافر محبوب ماعت » ، « السيدتان » ، « الذى يحمى مصر ويخضع الأراضى الأجـنـبـيـة » ، « حـورس الذهبى » ــ « الغنى فى السنين ، والعظيم فى الانتصارات » ، ملك مصر العليا والسفلى (حرفيًا : « الشخص المنتمى « للغاب » وللنحلة ») ، وسيد الأرضين ــ « رع قوىّ بالنسبة إلى ماعت ، مختار رع وسيد التيجان ــ « رع هو الذى أنجبه (رمسيس) ، محبوب أمون » .

لم تكن هيئة فرعون أقل فخامة ، إذ تجعله شاراته فى مصاف الآلهة . فكان يضع ، كالآلهة ، ذنب حيوان متصلاً بحزامه ويتدلى من وسطه . ويضع لحية مستعارة كانت هى نفسها إلهاً ، ويحمل صولجاناً مزينا برأس حيوان الإله ست . وكانت رعيته الوفية تنشد التراتيل لتاجه المشبع بقوة خارقة . وفى وسط جبهته أفعى مقدسة تقذف اللهب المدمر للمتمردين .

لما كان الفرعون ذا بنية بطل ، فقد سيطر على الحشود ؛ ما من فرد كان يستطيع مقاومة قوته ، أو يصد ضرباته ، أو يفر من مطاردته . يقف وحده فى ساحة القتال فينكل بالألوف من أعدائه . « والخوف الذى يبثه ، يُلقى الرعب فى قلوب البرابرة فى بلادهم » . لا تخفى عنه خافية ويسبر بعينه الأغوار العميقة بلغت خططه درجة الكمال . « كل ما يأمر به يتم ويتحقق » . لا يعرف كرمه حدوداً ، وضمِنَ السعادة لرعيته ، فيحمى الضعيف ويقيم العدل .

كانت الآلهة تعرف فضائل الفرعون قبل أن يولد : « أعده رع ليكون فى القصر وهو لم يولد بعد » . « شكَّله » ليشغل العرش . كان الملك « ابنه من صلبه » ، « الشخص الذى أنجبه » . والحقيقة أن لهذه العبارات أساساً . كان فرعون الابن الحقيقى للإله الأعلى . وهناك صور محفوظة فى معبدى حتشبسوت فى الدير البحرى ، وأمنحوتب الثالث بالأقصر ، تفسر السبب فى أن مولد ملك هو مولد إله . هناك نرى أمون يأخذ شكل الفرعون الحاكم ، ويضاجع الملكة الأم . وبعد هذا الزواج الإلهى ، يُشَكِّل خنوم الطفل المقدس و« كاه » Ka ، على عجلة الخزّاف . فتتم الولادة بمساعدة الربات الحكيمات ، ويقدِّم الطفل الحديث الولادة إلى أمون والده ، وترضعه الحتحورات السبع ، وتُعمِّده الآلهة .

وتتحقق الوعود التى قُطعت عند مولده الشبيه بالمعجزة ، يوم تبوأ العرش . ويقوم فرعون بطقوس التتويج ، التى تتألف من عدة شعائر ، فى حضور الأمراء ، والنبلاء ، والكهنة المرتدين زىّ الآلهة تمثل هذه الاحتفالات حقيقة سامية . فقد

تسلّمَ الملك ، الذى هو تجسُّد حورس ، وراثة العرش من والده أوزيريس . وإذ كان ابن آمون ، يقوم الإله بتقديمه إلى الآلهة وإلى البشر . ويقدم له حورس وست تاجى مصر العليا ومصر السفلى ، ويعاد اتحاد نصفى المملكة على يديه . ويؤدى شعيرة الطواف حول السور التى تعبر عن تقلده السلطان على مملكته . وقرر المستشار الإلهى بروتوكوله ؛ وينقش تحوت هو ورية الكتابة أسماءه على أوراق الشجرة المقدسة . ولكل تغير فى العرش أهمية كونية . ورغم أن الفوضى كانت تهدد نظام العالم عند موت كل ملك ، فإن ارتقاء فرعون جديد للعرش يعيد الخليقة الأصلية ويوطد توازن الطبيعة .

« فلتبتهج المملكة بأسرها . لقد أتت أوقات سعيدة ! وارتفع سيد فى البلاد كلها . . . . . . يرتفع الفيضان عالياً ، ويطول اليوم ، وتكون لليل مدته المحدَّدة ، ويعود القمر بانتظام » .

يتوقف انسجام العالم على صحة فرعون ، وكان مضطراً إلى وقف كلِ موارده على رفاهية الكون . ولذا كان يحتفل بعيد السد (حب سد) لهذا الغرض . وقد جرت العادة أن يحتفل بهذا العيد كل فرعون فى نهاية حكم يدوم ثلاثين عاماً ، ثم يكرر الاحتفال به بعد فترات قصيرة . ربما كانت هذه العادة صدى بعيد للطقس القديم الخاص بذبح رئيس قبيلة عجوز . يجدِّد هذا الاحتفال لفرعون قواه الحيوية ويجعله خليفة نفسه . وكان عليه أن يقدم القرابين للآلهة التى كانت تحضر الاحتفال بتماثيلها المعبودة .

كانت حياة « حورس فى قصره » محوطة بطقوس احتفالات معقدة أشبه بالطقوس اليومية فى المعابد . فيجب على كل من يتقدم من فرعون أن يطرح نفسه على الأرض : « فيشم الأرض ويزحف عليها » و « يتضرع إلى ذلك الإله الكامل ، ويمتدح جماله » . وقال سنوهى : « بينما رقدتُ أمامه على بطنى ، فقدتُ وعيى أمامه ! » وذكر أحد الكهنة أنه عَلِمَ بموت فرعون من كسوف للشمس ، كما قال سنوهى أيضاً ، إن موت فرعون ظاهرة سماوية : « دخل الإله أفقه . . . . رُفع إلى السماء ووجد نفسه متحداً مع القرص الشمسى ، وذاب جسم الإله فى خالقه » . ولما كان الفرعون ابن رع ، فهو يخرج من دنياه الأرضية إلى حياته الثانية السماوية . حيث يبحر مع الشمس فى قبة السماء ، بفضل كونه الشمس . وبصفته وارث أوزيريس الذى سبق أن حكم على الأرض ، يُشَبَّهُ عند موته بإله الموتى .

وُضعت جميع المعتقدات الجنائزية المصرية أصلاً لأجل الملك ، ووجدتْ تحقيقها اللاهوتى فى طبيعته الإلهية . وعلى مرّ السنين ، اغتصبت رعيته امتيازاته بعد موته ، بيد أنَّ شيوع حق الحياة الآخرة بين الرعية ، كان محفوفاً بالأخطار ، إذ ليس بوسع البشر العاديين أن يرتبوا أمر استمرار حياتهم وراء القبر بنفس العظمة التى يرتبها بها الملك . وقلما نجد هنا ضرورة لإعادة ذِكْر التماثيل العظيمة التى أقامها الفراعنة لضمان حياتهم ، والانفاق على الكهنة القائمين بشئون شعائرهم الجنائزية ، والأرض الموقوفة على استمرار التقدمات ،

والمكان الذى تشغله عبادة الملك في معابد الآلهة .

يبقى فرعون بعيداً عن غيره فى العالم الآخر شأنه فى هذا العالم شأنه على الأرض ، فينفرد بدار فخمة ، ويكون معادلوه السماويون أقرب إليه دائماً من رعاياه . ولما كان ابنَ الإله ووارثه ، بل وهو إله نفسه ، كان وحده القادر على الاتصال بالأرباب . فكان ينهض بالطقوس اللآزمة لتمجيد أسلافه العظام كابن من ابنائهم ، وإن كان الكهنة وحدهم ، هم القائمون بالخدمة فى المعابد كممثلين له . لهذا السبب ، نجد النقوش البارزة التى تزين المعابد ، تصوِّر دائماً فرعون وهو ويقوم بنفسه بتلك الطقوس . لقد بنى المعابد وأنفق عليها من ثروته . وفى مقابل ذلك ، تساعده الآلهة فى كل مناسبة . فمنحته الآلهة السيطرة على العالم ، التى تبعاً للمعتقدات السائدة ، كانت من حقه . فكل ملك ، مهما كان ، خادم له ؛ وكل عدو له ، متمرد ومحكوم عليه بالهلاك .

كانت الحياة والموت مِلْكاً للملك « يعطى الصحة لمن يشاء » . اطاعته العناصر . خضع فيضان النيل لفرعون بنفس الطريقة التى يخضع له بها « ماء السماء » فى مملكة الحيثيين النائية . وكفَّ الثلج عن السقوط فى الجبال السورية لكى يسمح لمبعوث رمسيس الثانى بأن يمر .

يمكن تعداد قوى فرعون غير المحدودة ، ومواهبه التى فوق مواهب البشر ، بإسهاب أكثر ، ولكن من الجلى أنه كان إلهاً حقاً . لقد نسيت رعيته أنه ، على أية حال ، بشر . وتاريخ الملوك المصريين ملىء بمؤامرات الحريم ، وتدبيرهن للفتن وخلع الملوك واغتيالهم . ويبين التاريخ أن الرجال الطموحين لم يتوانوا عن خلع أحد الآلهة (الفراعين) المختارين غير الصالحين لكى يحلوا غيره محله ؛ فما كانت النظريات لتعوق العمل . لم يهتم المصريون كثيراً بألقاب العظمة ، بل كانوا يحكمون على « الإله الكامل » من واقع أعماله . وكان الملك نفسه يدرك هذه الحقيقة . « فرغم محبة العالم كله ، فالشخصية الطيبة تبقى فى الأذهان » . هكذا كانت وصية الملك أختوى الثانى لولى عهده . تُفَضِّل التقاليد الحاكم غير المتكلف على الحاكم المتغطرس ، وتُكِنُّ الحقد للحاكم القاسى . لم يخش الناس أن ينتقدوا الملك أمام عينيه .

وقد نطق الحكيم إيبوور Ipuwer بانتقاداته الأربعة أمام حورس ليقرع الحورس الذى أهمل واجباته الملكية بينما كان لجدى Djedi ، وهو أحد العوام ، القول الفصل فى نقاشه مع خوفو . لا شك فى أن مثل هذه القصص من نسج الخيال ، ولكنها كانت تسر الشعب . وهاك قصة حقيقية :

نَهَرَ أحد العمال رئيساً له لأنه لعن سيق الثانى ، ملكه . وبدون انتظار الأفعى الموجودة فى جبهة فرعون ، أن تنفث اللهب المدمر ، اجتمعت المحكمة . ونسى فرعون قوته الخارقة واستدعى بعض السحرة المحترفين لكى يدافعوا عنه ضد تلك اللعنة أو يصنعوا المعجزات ، فدُهش عجباً بأعمال السحرة . كذلك توجد قصص شعبية أخرى تعبر عن نفس هذه الفكرة .

من السهل أن نسترسل فى ذكر الأمثلة على أن الملك كان فى عينى نفسه ، وفى عيون رعيته مخلوقاً بشرياً خارقاً للعادة ، فى الدولة المصرية . « الملكية مهنة حسنة » : هذه عبارة قالها أختوى الثانى ، ولكن يسقط القناع عندما نترك الأسلوب التقليدى والأساطير والاحتفالات . فللملكية التقليدية مظهران ، تنازعا قليلاً إذ كانا على مستويين مختلفين . اذ يمكننا أن نقرأ على جدران نفس المعابد صيغاً تزعم السيادة العالمية لرمسيس الثانى ، وإلى جانبها نصوص معاهدة مع ملك الحتيين ، تمثل الحاكمين على قدم المساواة ، وتؤيد انهيار النفوذ المصرى فى الشرق الأدنى . ويعكس هذا الأمل والواقع . ولكن تفرض النظرة السامية والمثالية إلى ملك مصر نفسها علينا ، نحن الذين نحكم مبدئياً من واقع النقوش البارزة والتماثيل . ومهما كانت حاسية وخيالية ، فلا شك أن الصورة الخارقة كانت تهتز بعض الشىء فى عيون رعاياه عندما يرون الفرعون يجرى متأرجحاً فى عربته .

الفضة : كان الذهب وفيراً فى الجبال الشرقية وفى النوبة ، وكذلك الإلكتروم ، الذى هو خليط طبيعى من الذهب والفضة . غير أن هذا الأخير لم يكن موجوداً فى الأماكن القريبة من مصر . ورغم هذا ، عرف المصريون كيف يستعملون الفضة الخالصة التى أطلقوا عليها اسم « المعدن الأبيض » ، واعتبروها نوعاً من الذهب . فصنع الصائغ حلياً عجيبة منها : وصنع منها رقائق مطروقة لزخرفة المجوهرات ، والأثاث والتماثيل الصغيرة . وتقول الأساطير إن للآلهة عظاماً من الفضة ولحماً من الذهب . وأقدم كنز فضىّ اكتُشف على ضفاف النيل ، هو كنز طود ، ويرجع تاريخه إلى الدولة الوسطى : جاءت تلك الأشياء من سوريا ومن بحر إيجة . والواقع أنهم كانوا يستوردون ذلك المعدن الأبيض من الشرق أو من الشمال .

ولا تحتوى النصوص القديمة إلا على ذكر بسيط للفضة ، وقلما وجدت فى القبور قبل الدولة الحديثة . ومع ذلك فقد عملت غزوات مصر فى آسيا منذ سنة ١٩٥٠ ق.م. على انتشار الفضة . وكانت الفضة تأتى قبل الذهب قبل ذلك فى القوائم المصرية للمعادن ، خلافاً للمتبع فى بقية العالم ، ثم عاد المصريون فقالوا « الذهب والفضة » . وُجدت كميات كبيرة من الذهب فى مقبرة توت عنخ أمون ، وكميات قليلة جداً من الفضة ، التى أصبحت أقل ندرة من الذهب وأدنى منه قيمةً . غير أنه بعد ذلك بزمن طويل ، دُفن ملوك تانيس الضعاف ، فى توابيت من الفضة ، إما بقصد التغيير وإما اختياراً . ويمكن رؤية هذه التوابيت اليوم فى متحف القاهرة . (انظر بسوسينيس) .

الفلاح Peasant : كانت مصر فى العصور القديمة ، تدين بثرائها إلى كدح الفلاح فى خدمة الأرض . ولما كان الفلاح المصرى يقنع بالقليل ويعمل بجد ، فقد دأب على العمل فى الأرض بغير تعب ، ولم تكن تلك الأرض ، عادة ، مِلْكَهُ ، وبذا عمل على ازدهار المجتمع الذى قلما كان

يسمح له بما يقيم أوده . وبمرور القرون تغيرت حاله قليلا ، ولم تتقدم طرقه فى زراعة الأرض كثيراً ، وبقيت طريقة معيشته دون تغير يُذكر ـ وحتى نفس النوع من البنية الذى كان يميز الفلاح المصرى القديم لايزال موجوداً ، فترى الفلاح النحيف الجسم يتمتع برشاقة وخفة حركة لا تنتظر من رجل يحيا فى بيئة ريفيه . ولاتزال نظرته إلى الحياة هى نفس نظرته إليها أيام الفراعنة : فنجده خالى البال من الهموم مرحاً ، وفيًّا لأرضه ، متمتعاً بحياته رغم مشقتها ـ وقد وصفت النصوص القديمة بعض ما يلاقيه الفلاح من مشقات . وهاك ما لاحظه الكتبة عن « حال المزارع صاحب العمل الشاق . إذا غمرت مياه الفيضان الأرض ، اعتنى بأدواته الزراعية ، فيقضى يومه يصنع معدات حرث الأرض ، ويقضى ليله يصنع الحبال ، وحتى فى وقت الظهيرة ، يقوم بأعماله الزراعية ، فيُعدّ أدواته للذهاب إلى الحقول ، كما يُعد المحارب نفسه للقتال . فإذا جفت أرضه ، خرج يبحث عن عدد من الثيران ، وبعد قضاء عدة أيام يعود بذلك القطيع ، ويُعدّ الحقل له . يستيقظ عند الفجر ليتفقد ماشيته فلا يجدها ، فيقضى ثلاثة أيام فى البحث عنها فيجدها أخيراً وسط الطين ، ولكنه لا يجد معداتها ، لقد أكلتها بنات آوى . فيخرج مرتدياً ما يستر عورته ليأتى بمعدات جديدة . يرجع إلى أرضه فيجدها مُعَدّة للبذر . يقضى كل وقته يبذر الحب . غير أن الأفعى تتبعه وتتلف الحبوب التى بذرها فى الأرض ، فلا يرى الزارع نبتة واحدة تخرج من الأرض . فيبذر الأرض للمرة الثالثة بحبوب يستعيرها . وتقع زوجته تحت رحمة التجار وليس لديها ما تعطيهم فى نظير ما تأخذه » .

تتضاعف هموم الفلاح إذا جاء وقت الحصاد . « تكثر الجرذان فى الحقول ، ويسقط فيها الجراد ، وتأكل الحيوانات محصوله . أما صغار العصافير فوباء للمزارع . وما يتبقى على أرض الجرن يأخذه اللصوص ، ويضيع أجر الثيران لأنها ماتت من مشقة العمل فى الدرس والحرث . بعد ذلك يأتى كاتب الجباية عند شاطىء النهر . لتسجيل الضريبة على الغلة . وقد تسلح أولئك الموظفون بـالهراوات ، والنوبيون بجريد النخل ، فيقولون له « أعطنا الحبوب ! » حتى إذا لم يكن لديه ما يعطيهم إياه . عندئذ يضربون الفلاح بقسوة ، فيقيدونه ويلقونه فى بئر وهو منكس الرأس . وتُقيَّد زوجته أمام عينيه ويُغلّ أولاده بالسلاسل . ويهجره جيرانه ويفرون بعد أن ينزعوا محصول أراضيهم » .

يجب ألا نأخذ هذه الصورة الكئيبة حرفيا عن ذلك الفلاح . فقد وجد الكتبة متعة فى تصويره بصورة قاتمة ما أمكنهم ذلك لأنهم لم يحبوا العمل فى الأرض أو امتلاكها ، وكانوا يسفهون التلاميذ الذين لا يجدون لذة فى الاستمرار فى الدراسة ويرغبون فى تركها والعمل فى الحقول . يدلنا هذا السبب وحده على أن الحياة فى الريف لم تكن عديمة المتعة .

الفن : يفصلنا بون شاسع عن حضارة الفراعنة . ويفصلنا عن قدماء المصريين علوم الإغريق وهبوط الرسالات السماوية ، ثم الانقلاب الصناعى . يبدو أولئك المصريون قريبين منا فى تنظيم حكومتهم ، وفى أعمالهم الفنية ، وفى

ثروتهم ، وفى ترفهم . لقد صاروا مألوفين عن طريق كتاباتهم وأعمالهم الفنية التى هى مرآة لعواطفهم الداخلية نحو البشر . غير أنه من الجلى أنهم مازالوا بعيدين وبدائيين جداً ، فى الفكر وفى إدراكهم الدينى عن العالم والقوى المسيطرة عليه .

استلهم المصريون هذا الفن الذى أعجب به العالم أيما إعجاب ، من تلك المعتقدات الضائعة الغريبة علينا الآن ، أو على الأقل ، على الحضارة الأوربية .

لا نعرف سوى القليل فى عصر ما قبل التاريخ عن تطور ذلك السحر العجيب الذى ارتبط بالمهن المختلفة والتقنيات الناجحة التى استخدمها المصريون لأداء شعائرهم الدينية التى نمت وتطورت معها (فالكاهن الاكبر لبتاح — الاله الذى خلق العالم بكلمته — يحمل دائماً لقب أكبر رؤساء الفنانين) وفجأة نشأ هذا « الطراز المصرى » فى نهاية تلك الحقبة الغامضة ، فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م . ، ويمكن إدراكه بسهولة فى كل من الفكرة والتنفيذ ، ويكاد يكون من المستحيل تقليده بنجاح ولقد مارس المصريون ، فى الدولة القديمة ، جميع الفنون بدرجة عظيمة من المهارة ، بكل ما تحت تصرفهم من مختلف المواد الوفيرة : الحجر ، والآجر ، والخشب ، والعاج ، والذهب ، والنحاس ، والأصباغ (انظر العمارة والتماثيل والنحت البارز والتصوير والفخار) . غير أن الجزء الأكبر من هذا المجهود الفنى ، لم يُقصد به السمو الروحى بواسطة التماثيل المقدسة ، ولا مجرد تخليد ذكرى جلائل الأعمال بالصور الجميلة ، ولا مجرد المتعة ، وإنما لعمل شىء ما ، وخدمة شخص ما . ولا يجب أن يخدع أحد بـ « الواقعية » النسبية للموضوعات الممثلة ، ولا بالآثار المجردة بمهارة من الترتيب المتناسق ، ولا بالتلاعب بالألوان ، ولا بنحت الصخر فى براعة كى يبرهن النحات على عبقريته . لقد صنع المصريون تماثيلا للأربات وابتكروا لهم رموزاً مقدسة . فمزجوا النظرة الميثولوجية عن الكون بالحركة السحرية للقوى التى أعطته الحياة . فأنتج الفنان كائنات تكاد تكون من الأحياء ، حتى يتم الطقس السحرى عمله فيبدو حيًّا . فإذا ما تلا الكاهن الصيغة المناسبة ، وقام بالحركات اللازمة أيضاً ، أضفى على التمثال الحياة ، وشخصية المخلوق الذى يمثله . ولما كانت الكتابة تزيد فى قوة الألفاظ أو الصيغ أو الأسماء إذا ما نُقشت على التمثال أو بقربه ، فإنها تمنحه هذه الحياة وهذه الشخصية على مدى الزمان . وبناءً على هذا ، فإن الطالب الذى يقوم بدراسة الفن المصرى ، يعلم أن النقوش الهيروغليفية التى تزين كل عمل فنى مصرى تقريباً ، ليست مجرد زخرفة ، وليست نقوشاً تافهة ، سواء أكان منظرها سارًّا أو غير سارّ . إنها تضفى على تلك الأجسام الجميلة معنى حقيقياً وشخصية حقيقية .

فتماثيل أحد الأشخاص أو أحد الآلهة تدب فيها حياة هذا الشخص أو ذاك الإله عند ذكر اسمائهما وذلك بعد أن تمر باحتفال . . « فتح الفم » . كان هناك نظام عجيب يتألف من آلهة موجودة فى كل مكان ، ويقين بالحياة بعد الموت ، وكان فى

وسع الكاهن أن يبعث الحياة فى مناظر الريف والمصانع ، وأكوام القرابين أو الكنوز المنحوتة أو المصورة ، بواسطة صيغة خروج الصوت (التى يقولها الكاهن) وكان الغرض من بناء المعبد حماية مصر من الكوارث وذلك بفضل تكوينه المعمارىّ ، وتماثيله الدقيقة التى تسكن بداخله ، و « الألفاظ الإلهية » ومناظر الطقوس الجميلة المنقوشة على الجدران والتى تغطيها من أعلاها إلى أسفلها . فالتمائم الصغيرة المصنوعة من الفيانس ، قد تصير إلهاً مستعداً لمعاونة أى شخص . وتصير التماثيل الصغيرة الجميلة المصنوعة من الفاينس وتعرف باسم شابتى (أى المجيب) خدماً متحمسين إذا تلا المرء الفقرة الصحيحة من « كتاب الموتى » . بهذه الطريقة كان الفن المصرى نفعياً ذا طبيعة مسرفة فى نفعيتها ، اتضحت أكثر عندما استعمل زخرفياً لصنع البيوت الجميلة ، والحلى ، والأوانى المنزلية ، والأثاث للنبلاء فى طراز بهيج متعدد الألوان . كان أكثر من ذلك ضرورة أساسية ، لأن رخاء الدولة وحياة البشر يرتبطان باستخدامه فى الأغراض الدينية للمحافظة على القوة الروحية فى هذا العالم (عن طريق الملك والآلهة) ، وفى العالم الآخر (عن طريق الفن الذى يؤسفنا أنه يسمى جنائزيا) . كان الفنان المصرى موظفاً حكومياً يؤدى واجباً للدولة . وليس معنى هذا أنه لم يعرف الإحساس بالجمال ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن القطعة الفنية الجميلة ، كانت توصف فى اللغة المصرية القديمة بأنها « قطعة نافعة » (منخ) Menekh .

كيف يمكننا أن نستخدم معاييرنا ومصطلحاتنا فى هذا الفن ؟ نبدأ أولاً بأن نقول : إنه لمن العسير تصنيف مختلف أنواع الفن ، كل نوع على حدة ، وهى : المعمار ، والتصوير ، والنحت ، والفنون الصغرى ، فقلما يوجد أى تمثال فى العراء ، أو معبد بغير صور ولا رسوم ملونة ، وهل يمكننا أن نصفَ أسلحة الفرعون ، أو قناع المومياء الذهبى ، بأنه من الفنون الصغرى ؟ كما أنه من الخطر التفرقة بين الفن الرسمىّ والفن الخاص ذى القواعد الفنية النابعة من العرف والعبقرية الفردية أو بين الفن كما يُرَى فى المعابد مُنَفَّذاً بقوانين الكهنة والفن الإنسانى الذى يستطيع فيه الفنان أن يعمل بُحرِّية أعظم . لا جدال فى أن مناظر الحياة اليومية المنقوشة على مصطبة « ى » وعلى جدران مقبرة « مِنا » ، فن حيوى وتلقائى ، وممتع أحياناً ، كالحياة فى الحقول والمصانع والبيوت المصرية ، إذ كان على المصريين أن يجعلوا من « بيت الخلود » ومعداته ، منزلاً يمتع أصحابه بنفس متعتهم فى مساكنهم الأرضية . كان بوسعهم جلب التحف من سوريا ودول بحر إيجة ، ووضعها فى مقابرهم . وكذلك الحال فى أنظمة الرسم الأجنبية المعالجة بطريقة مصرية ، والتى اشتهرت فى الدولة الحديثة ، واستعملت فى زخرفة أثاث القبور . أما تصوير أحد آلهة الكون ، فكان يتم وفق الأوضاع المحددة والمرسومة تبعاً لقوانين خاصة كى تؤكد قوته ، ولم يترك مجالاً للخيالات العابرة والمحاولات اللطيفة لعمل رسوم سريعة من واقع الحياة والأعمال السائدة . كان ما تركه الآباء لهم جهداً

جداً ، ولكن رغم هذا لا يجب التمادى فى البحث عن الفروق بين الفنون الممثلة للطقوس الدينية والفنون الممثلة للأعمال الدنيوية . إذ استغل الفن الدينى لحفظ الحياة والمحافظة عليها . وعلى ذلك ، فإذا كان الفنان بارعاً فى عمله ، أمكنه أن يبث الحياة فيها بعمله . كان من الضرورة الحيوية أن يبدو « الملك الإله » منتصراً (انظر الحرب) . وترمز المحادثة الودية بين أمون والملكة للمولد الحقيقى للملك يعطى الحياة وبنفس الطريقة ضرب رمسيس القائد الليبىّ الشرير فى أبى سمبل . فنراه طريحاً على الأرض يتلوى فى حالة يرثى لها ، وجريحاً . ونرى الزوجة الإلهية ، فى الدير البحرى ، رقيقة وباسمة وتبدو عليها الدهشة . كان الإله يمنح الإخصاب للمملكة على شرط أن تُقَدَّم إليه القرابين . فنراها فى معبد أبيدوس طازجة وشهية وكذلك هى وهى موضوعة على مائدة الكاتب نخت . إن الفنانين قد بذلوا قصارى جهودهم لإنتاج الأشكال الحرفية لأجسام الحيوانات المقدسة وإبراز صفاتها القدسية ، وأفضل هؤلاء الفنانين يجعلنا نشعر بأن تلك الحيوانات مقدسة ، لأنها حقيقية . وليست حتحور الموجودة بالدير البحرى تجريداً خالصاً للبقرة يحاول أن يسمو بها . فهى كما وصفها ماسبيرو « بقرة حلوب ، وهادئة وقوية وطبيعية » . وإذ فُكِّرَ فيها على هذا النحو ، فإنها السماء الحية نفسها ، إذ تُقَدِّم لفرعون اللبن الطيب معطى الحياة ، مثل أم الشمس الوفية .

إذا قورنت ثلاثة آلاف سنة من الفن المصرى ببضعة قرون من الفن الأوروبى ولّدت إحساساً فى نفوس البعض بالثبات والرزانة ، وبالملل فى نفوس البعض الآخر . وهو ملل لا تقطعه سوى مدرسة العمارنة . ليس هذا لأن الفن المصرى لم يتغير قط ، ولا لأنه لم يتأثر ، فى كثير أو قليل ، بـ « المدارس الإقليمية » ولكن لأنه كان يسير فى سهولة مغيِّراً طريقه أحياناً تحت تأثير نفوذ بعض الملوك وبعض الأساتذة غير المعروفة أسماؤهم ، وتبعاً لتغيرات التاريخ . وقد وافق الجميع على أنه فن تقليدى موروث . فلم يفرط المعمارى فى أشكال العمارة الأولى التى ظهرت فى عصور ما قبل التاريخ ــ البراع واللبن والخشب والآجر ، التى ارتقى بها امحوتب . وحافظ الفنان على الأنماط الأساسية للتماثيل ، وعلى قائمة المناظر ومجموعة الرسوم العرفية ، ومجموعة مختارة من الموضوعات التى يحيط الغموض بنشأتها فى عصور ما قبل الأسرات ، والتى وصلت إلى درجة الكمال فى عصر الأهرام ، على أنها ميراث قيّم ثمين . لم يأمل الفنان فى أن يعمل خيرا من أسلافه ، وإنما قنع بأن يحافظ على درجة الكمال التى كانت موجودة فى عصر الاله رع . لم يكن الماضى عبئاً بل ضماناً . وكانت المحاكاة علامة إبان النهضة (أى فى العصر الكوشى والعصر الصاوى) ، غير أن هناك أمثلة أيضاً من أعظم العصور الفنية (الدولة الوسطى ، الأسرة الثامنة عشرة) .

تعلَّمَ الفنان ، كالكاهن ، الطراز المعتمد نقلاً عن أسلافه ، وهذا الطراز هو الأكثر ملاءمة ونجاحاً فى الأغراض الطقسية . وتبين تماثيل البرونز المصنوعة فى

قوالب ، والألواح الحجرية المنقوشة خشنة الصنع ، والأثاث الجنائزى الردىء الخاص بصغار الموظفين ، كيف قَبِلَ الناس العاديون تلك التعاليم دون أن يفهموا معناها الحقيقى . ونعلم من الرسوم المنقوشة على الأوستراكا (كسر الفخار المكتوب) كيف كان الفنان الموهوب يرتجل لنفسه أشكالاً خارج القوانين المعتمدة . ومع ذلك ، فإن روائع القطع الفنية التى يرى فيها الخبير الحديث عملاً فنياً بارزاً (والتى تكون عادة قد طُلبت لإله عظيم أو لموظف حكومى رفيع المنزلة) تبين أن فنانى ذلك العصر – وكذلك فنانى عصرنا – عرفوا ، دون تجاهل العرف أو ازدراء التقاليد ، كيف يحمِّلون مبتكراتهم ، ويضفون الحياة على موضوعاتهم ، ويقدمون لمسة من الطرافة ، دون خروج على القوانين المعتمدة . كانت العصور التى كثر فيها تعبير الفنانين عن شخصياتهم ، هى بالضبط العصور التى نُظِّم فيها التدريب الأكاديمى تحت سلطة حكومة مركزية قوية منظمة أحسن تنظيم وكان فيها النظام الأخلاقى التقليدى فى أوج عظمته : إبان الدولة القديمة والوسطى والحديثة .

إن تماثيل الرجال والنساء التى قدمها إلى المعابد بعض المصريين غير المعروفين ، لتضمن لهم الحياة والصحة ؛ وبقايا مقاصير النبلاء التى كانت فيها مضى مُحرَّمة على غير المتطهرين نراها الآن قد نُقلت من مقابرها حيث عاشت فى ظلام ، ورُتبت بطريقة جذابة فى متاحفنا وقاعات معروضاتنا الفنية . فالألواح الجنائزية والأبواب الوهمية التى لم تعد تفتح على ما بعد الحياة ، والحلى والتماثيل الصغيرة المأخوذة من فوق الأجسام التى كانت تحفظ حياتها الأبدية ، باتت الآن سلعا متداولة فى « سوق الفن » .

وفى المقابر الصخرية حيث صور الملك والشمس وكلاهما يمثل الآخر ليشرقا كل يوم ، وفى مقابر الأفراد حيث تستمر الحياة الأبدية لأفراد العائلة فيعملون ويلعبون ويخدمون سيدهم ويقومون بالطقوس الجنائزية نرى السياح ونسمع ضوضائهم . يبدو من الخطأ حينما نشير إلى الفن المصرى أن نفكر بطريقتنا فيما أبدعته الأيدى المصرية ، وأن نستعمل لبيت خلودهم ولصورهم الحية ، مصطلحات النقد الفنى الحديث ، ومذاهب النحاتين المتغيرة . ولقد أصم النقاد آذانهم فى القرن الماضى عن دعوة شامپوليون وتلاميذه ، وحكموا على ذلك الفن بأنه جاف ومؤذٍ للعين وغير قادر على التحول عن قوانينه المبتذلة وعدم بلوغه كمال الفن الإغريقى . وشيئاً فشيئاً بدأت العبقرية البائدة لذلك الفن البدائى البارع ، تبدو مفهومة . وأخيراً جاء عصر التقدير المبالغ فيه ؛ وأعطى الفن المصرى ، فى النهاية ، المبرر والسند للاكتشافات المتعاقبة للفن الأوروبى الحديث الذى تمرد على القواعد الكلاسيكية ، عندما لم يعد النقاد يعتبرون الفن المصرى كتابة سرية لطريقة تفكير بدائية !

الفنانون : لم يكتب الفنان المصرى اسمه قط على عمله . ولكن ، على الرغم من أننا لا نعرف من هو ، فلا شك فى أن معاصريه كانوا يعرفونه . وكان يفخر بلقبه

الذى يبين مركزه فى الإدارة : « النجار الملكى والبنّاء » (وكان هذا لقب إمحوتب) ، « المثال الأول لمعبد أمون » ، « بناء الأحجار فى موضع الحق » (انظر دير المدينة) . وأحياناً يسجل رئيس الأعمال فى تاريخ حياته أنه بنى هذا المعبد ، وأقام ذلك التمثال ؛ أو يفخر النقاش بمهارته . ونرى بين آونة وأخرى نقاشاً أو رئيس نحاتين ، قد رسم صورة لنفسه فى قبر أحد النبلاء ، إذا كان قد صمّم الزخرفة أو نفّذها . ورغم أن هذه الصروح والآثار قد استلهمت من القواعد الفنية الموروثة وأنها كانت تنفّذ على نطاق جماعىّ ، فقد عرف قدماء المصريين كيف يحكمون على المواهب الفردية ويبجلونها ويكافئون عليها . بيد أن نظرة المصريين الخاصة لمعنى الفن جعلتهم لا يكيلون الثناء على فنانيهم ولا يغدقون المديح عليهم . فمن بنوا ونحتوا وزخرفوا كثيراً من الأشياء العجيبة فى العالم الفرعونى ، كانوا موظفين إداريين منتظمين ، لهم ألقاب ، مثل : « رؤساء الأعمال » ، أو « الكتبة المقدسون » ، أو « حراس قوانين الفنون المقدسة » ، أو « الفنيون » بحق . وتضع دائرة المعارف المصرية فى باب واحد : عامل المحاجر والنقاش ، ونحات النقش البارز ، وعامل الطلاء بالجبس ، وحفار النقش على الأخشاب ، والنجار ، وصانع المعادن . ولا نستطيع نحن ، أن نخلط بين الفنانين وأرباب الحرف ، بهذه الطريقة . ولكن لم ير الفنان الكبير الذى نقش قبر مِنّا أو تلاميذه أى خطأ فى ذلك .

فيلة Philae : جزيرة فيلة التى رثى موتها پيير لوتى Pierre Loti منذ زمن بعيد ، إذ عاشت نصف قرن مغمورة تحت مياه خزان البحيرة الصناعية بأسوان . تظهر المعابد مدة ثلاثة أشهر من كل عام . فتبدو أولاً أفاريز الصروح ، ثم تيجان الأعمدة ، وأخيراً الأرض الطينية التى تكسى بعد بضعة أيام بالزروع . ولبضعة أسابيع ، يلوح من معبد إيزيس فى أوج الصيف ، للسياح (القليلين النادرين) ، خطوط صرحيه الجميلة ، ودقة دهاليزه الطويلة ، وصورة مقصورة تراجان الأنيقة مرسومة رسماً جذاباً على لافتات للسياح . بعد ذلك تقفل أبواب الخزان فترتفع المياه كبحر لا ينحسر مد مياهه ، فتختفى جزيرة فيلة ثانية تحت المياه . وهناك مشروع عمل خزان ثان الآن ، فهل ستولد فيلة من جديد وتستعيد بهاء نخيلها ؟ أوهل ستختفى إلى الأبد تحت بحر لا ينحسر قط ؟ يتنافس المهندسون وعلماء الآثار الآن فى هذا الموضوع(*) .

قام أول بناء فى جزيرة فيلة فى عهد آخر ملوك مصر نختنبو الأول . وكانت آنذاك حديقة ناضرة فى قلب دائرة متسعة من الجبال المظلمة المقفرة . ويقربها ، وسط البيئة المقفرة لجزيرة بجه Bigga الجرانيتية ، يقع أباتون Abaton ، ذلك المكان الذى يتعذر الوصول إليه ، الذى نام فيه أوزيريس آخر نومة له . لم يستطع أى رجل أن يضع قدمه فى ذلك الموضع ، وكان قبر

(*) ثم نقل المعبد وملحقاته إلى جزيرة مجاورة خلف السد العالى .

ذلك الإله فى ظل دغل ، تحيط به ٣٦٥ مائدة للتقدمات ، تتلقى يومياً سكيبة من اللبن . وكان بقربه كهف ترتفع داخله المياه فى كل عام فتُذكِّر بإعادة مولد ذلك الإله .

كُرست عدة مبان بتلك الجزيرة لحتحور ، ربة الأماكن القصية . التى كانت قد فرت إلى صحراء الجنوب الملتهبة ، ثم استعادت اطمئنانها ، وكانت تلك الجزيرة أول أرض مصرية تطؤها قدماها عند عودتها . وقد كُرس أعظم هذه المعابد لإيزيس زوجة أوزيريس . وهناك متسع من الارض يزهو بالأزهار ويحده صفان طويلان من الأعمدة ، يؤدى إلى أول صرح ، ويتبعه فناء يحده من أحد جوانبه « بيت الولادة » ، ومن الجانب الآخر طريق أعمدة وصرح ثان خلفه مظلة صغيرة ذات أعمدة ، وتأتى بعدها حجرات المعبد الداخلية وبهوها . وفى جزيرة فيلة هذه قاومت الوثنيةُ انتشار المسيحيةَ فى عناد شديد . إذ كانت المعابد المصرية قد أقفلت منذ مدة طويلة غير أن حجاج بلاد النوبة ظلوا يفدون إليها ليضعوا القرابين على المذابح بهذه الجزيرة ، وينقشوا على جدران المعابد بعض التراتيل والصلوات لإيزيس العظيمة (يرجع تاريخ آخر نص إلى سنة ٤٧٣ م) .

الفيوم Faiyum : تبدو مدينة الفيوم على الخريطة كأنها جزيرة خضراء مثل جميع واحات الصحراء . غير أنه على نقيض الواحات ، يتصل هذا المنخفض العميق الواقع على الجانب الغربى لمصر الوسطى ، بوادى النيل بفرع طبيعى من نهر النيل ، أطلق عليه الأقباط اسم « بحر يوسف » . وفى وسط هذا المنخفض بحيرة واسعة تعرف باسم « بركة قارون » وهذه البحيرة ، التى انخفض مستواها ، كانت فيما مضى أكثر اتساعاً وتسمى « پايوم Payom » أى « البحر » ، وهذا هو الاسم الذى أطلقه عليها أهل الدولة الحديثة ، ومن هنا جاء الاسم الحالى للمنخفض كله « الفيوم » . تتكون محافظة الفيوم ، اليوم ، من سهل نضير ، يُروَى ويُزرع كله . واشتهرت هذه المنطقة فى قديم الزمان بالبرك والمستنقعات الزاخرة بالأسماك والطيور . وكان الملك والنبلاء يذهبون إليها للصيد (انظر الحيوان والنبات) . اشتغل الأهالى سكان شواطىء تلك البحيرة بصيد الأسماك وكانوا بالغى النشاط ، فزودوا الدولة كلها بكميات هائلة من الأسماك الطازجة والمملحة . وكان بهذه البحيرة كثير من التماسيح ، وصار التمساح فى عصر مبكر إلهاً عظيماً للمنطقة وعرف باسم « سوبك Sobek » (انظر التمساح) . وأطلق الاسم الإغريقى « كروكوديلو پوليس » أى « مدينة التمساح » على عاصمة الفيوم . والواقع أن التمساح عُبد فى جميع القرى تقريباً ، كسيد خيِّر .

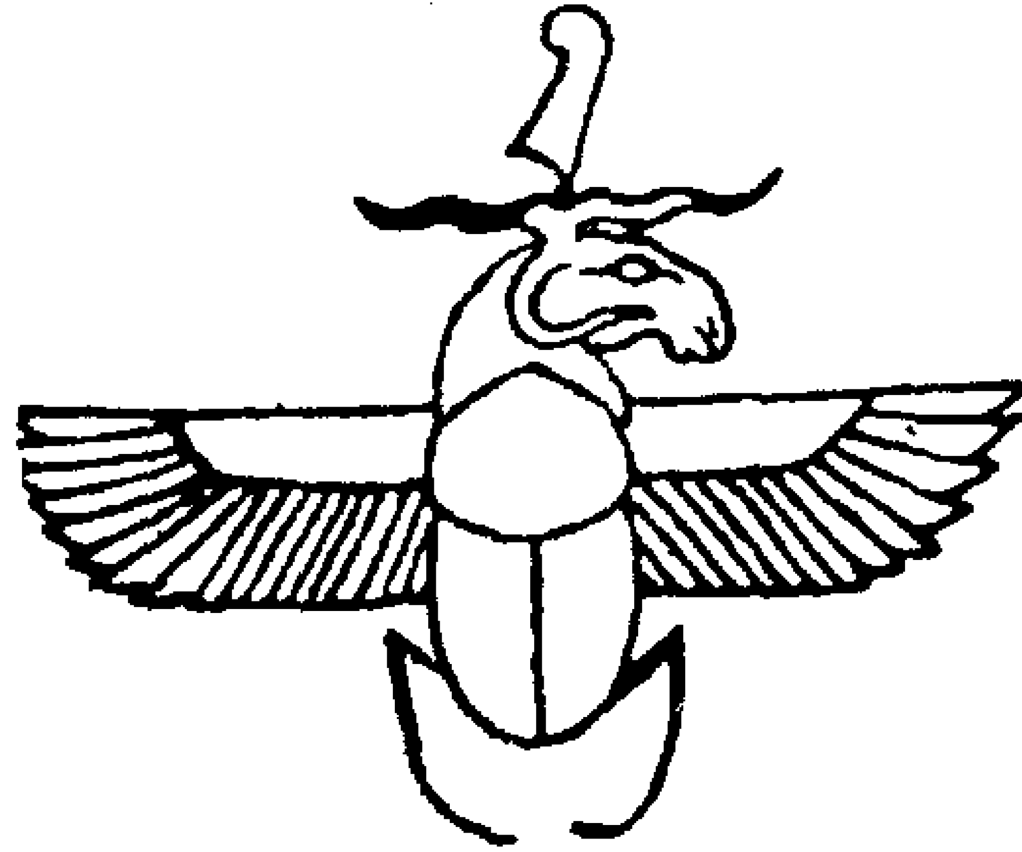
عرفنا بمحض الصدفة أن الخيار كان يزرع على الشواطىء الرملية لبحيرة قارون فى العصر الذى بنيت فيه الأهرامات . ولكن يبدو أن الأهالى زرعوا تلك المستنقعات شيئاً فشيئاً . حدث ذلك فى مرحلتين عظيمتين : الأولى إبان الأسرة الثانية عشرة ، وبنوع خاص ، إبان حكم امنمحات الثالث ، الذى نسجت حوله

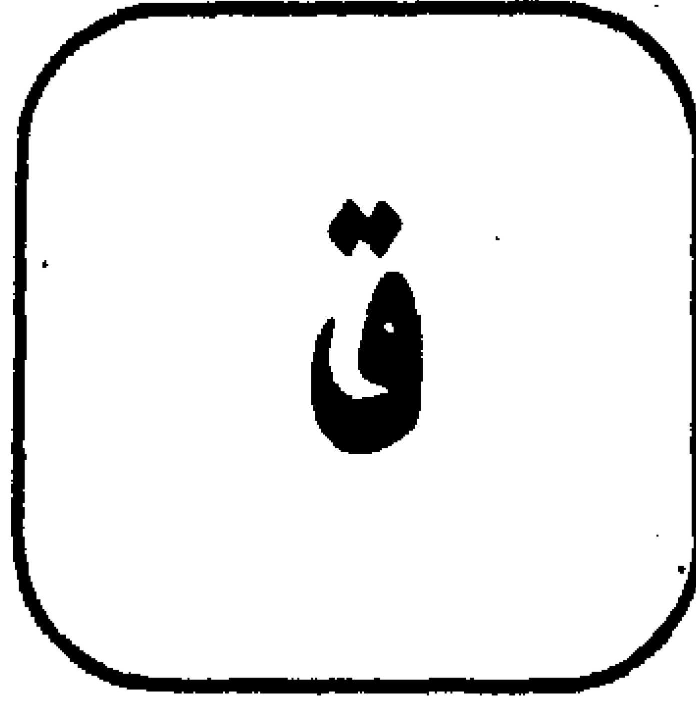
أسطورة الملك « موريس Moeris » فبنى اللابرينت والمعبد الفخم المكرس للكوبرا الربة ، التى تضفى الوفرة على المحاصيل (بمدينة ماضى) ؛ ثم فى عصر لاحق عندما جاء المستوطنون من جميع الأقاليم وجعلوا من الفيوم عالماً مصغراً لمصر كلها ، ثم عندما جاء بطليموس فيلا دلفوس جعل كل قدامى جنوده الإغريق والمقدونيين فلاحين نشيطين كرسوا كل جهودهم لعبادة سوبك . وقد عثر على ألوف من مخطوطات البردى مكتوبة باللغة الإغريقية ، وكذلك بعض المخطوطات المكتوبة باللغة المصرية كتبها سكان المنطقة من الاغريق ، تصف الحياة فى القرى . وصارت « مدينة التمساح » مدينة أرسينوى Arsinoe ، على اسم زوجة فيلا دلفوس . بيد أن المستوطنين الإغريق عبدوا الاله سوبك (سوخوس Suchos) .

كان لابد لهذه البحيرة الداخلية العظمى أن تكون مبعث أسطورة . لابد من نشأة أسطورة لتفسر هذه الرقعة المائية الواسعة التى تكونت بمعجزة وسط سهل صحراوى . فاعتبرها علماء اللاهوت الوطنيون ، فى الحقبة المتأخرة ، تمثيلاً « لبقرة السماء » على الأرض . وقالوا إنها سماء سائلة ، اختبأ فيها ابن هذه البقرة الذكر ، الشمس ، فى شيخوخته ، بطريقة غامضة ، متخذاً صورة تمساح ، هرباً من البشر والآلهة المتمردين (انظر أساطير الخليقة) . ولا شك أن هذه البحيرة كانت فيضاً من المحيط الأزلى ، وإذ كانت « أم جميع الآلهة ، واهبة الحياة للبشر » ، فإنها ضمنت بقاء مصر وجعلت أرضها خصبة .

ورويت أسطورة أخرى ، أكثر بساطة من السابقة ، كيف أمر الفرعون موريس بحفر ذلك المنخفض بأيدى العمال ، وأقام فى وسطه هرمين تحيط بهما تماثيل ملكية ضخمة . وقد أعاد هيرودوت هذه القصة بغير تحفظ ، فيمكننا أن نستنتج من روايته أن « بحيرة موريس » ، قامت بنفس الدور ، منذ الدولة الوسطى وما بعدها ، الذى يقوم به خزان أسوان اليوم . وقد حاول كثير من المهندسين أن يعرفوا الغرض الذى يمكن أن يقوم به هذا الخزان وسط منخفض الفيوم . وقد ظن بعض النجباء أنهم اكتشفوا السر ، غير أن نظرياتهم بعيدة الإمكان . ولا جدال فى أن المصريين والإغريق لم يفهموا تماماً أسطورة موريس .

ولاتزال لنا صورة خيالية جذابة قدمها كاتبو الآداب الكلاسيكية عن بحيرة سوبك المقدسة ، والأعمال العامة العظيمة التى نفذها المصريون فى الفيوم .





القانون Law : بنى قدماء المصريين أساس سلطة حكومتهم على مجموعة من المبادىء والقواعد التى يجب أن يسيروا عليها . حددت هذه المجموعة وظيفة كل فرد وعلاقته بغيره ، وكانت مرشداً لعلاقتهم بالآلهة (أى المعابد) وعلاقة كل عضو من الرعية بغيره من الأفراد . وبالاختصار ، حاولت هذه المجموعة أن توجد نظاماً عملياً لكل شىء يبحث على حسن النظام واستتباب الأمن (انظر ماعت) . ولا شك أن هذه القوانين تغيرت مع الزمن . فباستثناء عصر الملوك الكهنة ، عندما كان وحى أمون هو الذى يصدر القوانين ، كان الفرعون هو المشرف على تشريع القوانين والسلطات القضائية .

فكان هو المصدر الأعلى للقوانين ، بل ويبدو أنه كان فوق القانون العام (أى فيما يختص بوراثة التاج ، سواء أكانت بالمولد أو بوصية من الملك القائم بالحكم أو بالاغتصاب ، وكانت هذه خارجة عن اختصاصات البشر) . فيصدر الملوك عدة مراسيم (Wedjo) كإجراءات لحفظ النظام وقمع المجرمين والمخالفين ، والتعيينات فى المناصب وتخصيص الأوقاف . وقد وُجد الكثير من هذه المراسيم منقوشاً على لوحات حجرية . ومع أن القانون الفرعونى ـ كُتب القانون الثمانية التى ذكرها الكاتب الإغريقى ـ لم يثبت وجوده إلا منذ الحقبة المتأخرة ، فقد كانت هناك قوانين ، بغير شك ، تسمى « هبو Hepu » ، يجب أن يراعيها الفرعون وكانت تُطبّق ضد مقترفى الإثم .

ولسوء الحظ ، نجد أن النصوص القانونية الحقيقية النادرة ، التى بقيت على الأحجار أو أوراق البردى ، تتعلق بحالات فردية خاصة ، وهى من عصور متباعدة جداً ومن أماكن بينها مسافات شاسعة .

وعلى الأقل ، تبين هذه النصوص نشأة القانون فى مصر منذ عهد غابر . وتتضمن هذه النصوص مبدأ المساواة فى المعاملة إزاء الأفعال المتشابهة ، وتقرير شرعية المستندات بوضع ختم عليها ، وتقليم المستندات بواسطة كاتب حكومى ، وقوائم توقيعات الشهود ، وإيداع المستندات فى مكتب التسجيل الخاص بالوزير ، أو بالمعبد ، وأدلة على أن الشهود كانوا يحلفون اليمين عند الإدلاء بشهاداتهم وأن يشيروا إلى القضية فى تلك اليمين أو القانون

المكتوب . كان لكل قضية ملف « لمستندات القضية » . ومن آونة لأخرى ، تُلقى هذه المستندات ضوءاً على تنظيم الحكومة (انظر الإدارة) ، وسريان القانون ، ومراقبة الإنتاج (انظر الاقتصاد) ومراكز الأشخاص (انظر المجتمع والرق والأسرة والنساء والزواج) .

سيطرت مركزية الحكومة على تنفيذ القوانين العامة (ويبدو أن ذلك كان صحيحاً ، حتى عندما انقسمت مصر إلى إقطاعيات) . ويلوح أنه كانت هناك مساواة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات (ماعدا العبيد) فيما يتعلق بالعادات والقرارات الملكية والقانون المدنى وقانون العقوبات وأحكامه . غير أنه لا يمكن وصف القانون الفرعونى بأنه كان يضمن المساواة أو الفردية . وكان المصرى فى العادة يترك وصية يحدد فيها توزيع ميراثه ، أما « أن تذهب الممتلكات من وارث إلى غيره » فهو امتياز وليس حقاً . لم تكن هناك « حقوق خاصة » ، وامتدت مطاردة القانون لمن يعيبون فى الذات الملكية ، إلى الأولاد ، سواء أكانوا مولودين وقتها أو لم يولدوا بعد . ورغم أن المشرِّع كان يهتم دائماً بحماية الأفراد من أحكام البيروقراطية ، فإن إصدار الحكم بسجن أسرة من يهرب من السخرة ، كان أمراً عامًا . يرتبط وضع مصطلحات علمية للبنود القضائية المصرية بمعرفتنا بطبيعة اللغة المصرية القديمة وهى معرفة ضعيفة ، وبفهمنا للاحتياجات الجماعية والرغبات الفردية المذكورة بالنصوص التى تتفق مع طريقة حياة وتفكير عفا عليها الدهر فإذا حاولنا ترجمة هذه المستندات باستخدام مصطلحات قضائية حديثة ، وترجمناها على أسس نظرية عامة ، فسنفرض على الحياة المصرية القضائية ، قيوداً وأخلاقاً لا تنطبق على الواقع . فى مثل هذه الظروف ، كيف يتسنى لنا أن نضع بدقة مصطلحات لعادات مجتمع كانت له أنظمة معقدة فى الاتهام والاستئناف ، تسمح للمرء بأن يحصل على أحكام بالقرعة التى يشرف عليها تمثال إله ، وتكوِّن منها « قانون جنائزىّ » معقد لتنظيم حياة الموتى وضمان نقل القرابين المقدمة ، من مذبح إلهٍ ما إلى مذبح شخص معلوم ؟ .

القبور Tombs : تتتالى الجبانات فى

الحزينة ، وإنما يأتون إلى حضرة « رجال أمجاد » ، أحياء كل الحياة وقانعين بحياتهم غير أن الأسى يخالج من يعتقدون فى الخرافات وكذلك من يرغبون فى احترام حرمة أولئك الموتى الوثنيين ، عندما يرون القائمين بالحفر يفتحون القبور الفرعونية ، وليس اكتئابهم هذا بغير مبرر . عن أى شىء يبحث عالم الآثار المصرية عندما يدخل أية مقبرة لأول مرة ؟ عندما يقرأ النصوص واهبة الحياة ، يبحث أولاً عن اسم الشخص الميت . يُزوِّد كل من المعتدى المزعوم ، ومن يسمى الميت الثائر ، الآخر بما يريد . فيجمع الأول بطريقة ودية ، المزيد من المعلومات عن حضارةٍ مبجلة ، بينما الآخر ، حتى ولو كانت متعلقاته قد نهبت (كما هى الحال فى المومياوات الملكية) بيد إخوانه فى الدين ، وحتى لو كان خلفه المسيحيون قد حطموا صوره وتماثيله ،

وحتى إذا بيع جسمه المحنط كمادة كيميائية للصيدلة ، فى العصور الوسطى ، فإنه يعود تماماً إلى الحياة ، لأنه وجد ، كما كان يأمل ، شخصاً ما « يجعل اسمه يعيش » ، وهو نفس ما كان يقال « يجعله يعيش هو نفسه » .

القحط : تدين مصر بحياتها للنيل ، كما أنها عبَدَته ، وكانت دائماً تحت رحمة الفيضان الذى قد يكون منخفضاً جداً وقد يكون بالغ الارتفاع . كذلك لإهمال الحقول وهجر القرى وإهمال السدود أيام القلاقل السياسية ، أثر مماثل . والحقيقة أن هناك كثيراً من النصوص تصف فترات قحط فى مصر القديمة . ويمكن تخفيف وطأة الفيضان الضعيف بصيانة الترع وبناء خزانات للمياه الاحتياطية . وإن قصة يوسف ، فى التوراة ، لتعطينا مثلاً طيباً لبُعد النظر . وقد زها كثير من الوجهاء بأنهم كانوا « رجالاً » خزنوا كميات من القمح ، فاستطاعوا أن يمدوا مدنهم بحاجاتها منه عدة سنوات متتالية من القحط . وفى بعض الأحيان كان تأثير القحط فى بعض مناطق فى مصر أقل من المناطق الأخرى ، فاستطاع « العامة والفقراء » أن يحصلوا على

كفايتهم من الطعام : « وصلتُ إلى هنا فى الجنوب ، وجمعتُ لكم أكبر كمية ممكنة من الطعام . فالنيل ، بحق ، منخفض جداً ! والمئونة التى جمعياها تتفق مع انخفاض الفيضان . هنيئاً لكم ! فحتى الآن أفلحتُ فى تغذيتكم » . وذهب آخرون إلى « السوق السوداء » ، ونعرف أن الأموال التى سُرقت من المقابر الملكية للأسرة العشرين ، استُخدمت فى شراء القمح ، فى « سنة الضباع عندما أصابنا الجوع » .

أما فى الصحراء فكان القحط مستمراً . وهناك نقش بارز واقعى ، مفزع ، يصور بدويًا هزيل الجسم لا يقوى على الوقوف ، طريحاً على الأرض فى حالة يُرثى لها .

القرد : تبين المناظر وأعمال النحت نوعين من القردة : فيُرى النوع الطويل الذنب كثيراً فى الدولة الحديثة ، ويُرى البابون فى جميع العصور . ورغم أن القرد كان إلهاً فى مصر . لكن لم تعش القردة البرية قط فى مصر ، حتى فى عصور ما قبل التاريخ عندما كانت الصحراء تملؤها المناقع . وربما جاءت عبادته من الجنوب مع المهاجرين . وعندما رأى المصرى القديم أول قرد له آتياً من بلاد أعالى النيل ، تولاه الذعر والاحترام . جُلبت القردة من الجنوب النائية منذ العصور قبل الثينية .

وأعطى الثعبان الخرافى القاطن فى إحدى جزر البحر الأحمر بحاراً تحطمت سفينته — كما تروى أحد القصص القديمة — عدداً من القردة والبابون . وقد أرسلت الملكة حتشبسوت أسطولاً إلى بلاد پونت ، فلما غادرها ذلك الأسطول عائداً إلى مصر ، تسلقت القردة حبال السفن الموصلة إلى سارياتها . وإبان الدولة الحديثة ، كان النوبيون يدفعون جزية ، إلى الخزانة المصرية ، من « القردة والبابون » التى كانوا يصيدونها من غابات السودان أو من المنحدرات الحبشية التى تكثر فيها حتى اليوم . يسير قرد ، فى هدوء ، بجانب

موكب حاملى الجزية السودانيين ، أمام تحوتمس دون أن يسرع أمام قائده ، لأنه « يفهم ما يقال بمجرد مجيئه من الجنوب » ؛ وقال الكُتّاب المداعبون ، إن القردة أسلس قياداً من التلميذ فى المدرسة » .

أكد أحد الخبراء بامتعاض ، أن الفنانين اتبعوا نمطاً موروثاً عن نحاتى العصر البائد ، فرسموا قردة ذات نمط خاص ! ومع ذلك ، فقد عرف المصريون كيف يعبرون عن هيئة تلك الحيوانات الأليفة الغريبة ، ويصورون القرد الطويل الذيل السريع الحركة بخطمه البارز وعوارضه المشعرة ، ويميزون بين قردة الغابات ، فيعرفون الذكور المسنة بفرائها الطويلة الكثة وشعرها العلوى الخشن ، والفراء القصيرة لصغار القردة . كما عرفوا أوجه الشبه بين خطم البابون وخطم الكلب . وأحياناً أطلقوا على بابون « تحوت Thoth » اسم « كلب » ، واتخذ البابون « بابا Baba » « ذو الأذان الحمراء والمؤخرة الأرجوانية » أيضاً صورة أحد الكلاب ولكن حواجبه بارزة كحواجب القرد الطويل الذنب .

ولو أن قدماء المصريين كانوا يستوردون القردة ، فقد كان هذا النوع الأخير كثير العدد ومألوفا فى مصر . وحتى فى العصور الثينية ، فضلَ الفنانون تصوير القردة . وقد أحب أصحاب مصاطب منف ، أن يحيط بهم الأقزام والكلاب والقردة . ويُمكننا رؤية قرد صغير يجلس تحت مقاعد سيدات طيبة ، يقضم ثمرة جميز . وهناك أوانٍ عدة وملاعق للعطور ، على صورة قرد يعمل سلسلة تكاد أن تكون متشابكة على أرض مصر التى نعتت باسم بلاد الصروح الجنائزية الخالدة ، ولكن كلا منها لا تشبه الأخرى ، ويختلف نموذج القبر باختلاف الأمكنة والعصور والمركز الاجتماعى لصاحبه . ولا حاجة بنا إلى الكلام على دفنات الفقراء ، ورغم أن علماء الآثار قد أهملوها زمناً طويلاً ، فإنها تمدنا بمعلومات عن أدنى متطلبات الحياة فى مصر القديمة . ويكفى أن نَصِفَ قبورهم فى موجز صغير صغر هذه بالقبور نفسها . كانوا يحفرون حفرة فى رمال أو فى حصى الصحراء ، على مسافة غير بعيدة من القرية . وأحياناً كانوا يضعون الجثة فى تابوت بسيط جداً ، وأحياناً أخرى يوارون الجثة التراب بغير تابوت قط ، بعد تحنيطها بطريقة بسيطة أيضاً حتى لتكاد تكون هيكلاً عظمياً ، تحيط بها بضع أوان وبعض متعلقاتها الشخصية .

أما قبور الفراعين الأقوياء وكبار الموظفين فكانت تبنى بالأحجار والآجرّ ، أو تُنحت فى الصخر فتجذب إليها الأنظار أكثر من الأخرى . وتتكون كل مقبرة من جزءين أساسين : الأول مكان السكنى الذى يقيم فيه الميت ، وهو فى هذه الحالة حجرة الدفن (وعادة ما توجد فى نهاية البئر) التى وجدنا فيها كثيراً من المومياوات الجميلة والكنوز القيّمة . والثانى المقصورة الجنائزية ، وهى عبارة عن حجرة مكشوفة عند مدخل القبر ، يستطيع الميت بواسطتها أن يتمتع بملذات هذا العالم (رسمت المناظر السحرية للحياة والعمل فى هذه الحجرة) ، وفيها يقوم الكهنة بالطقوس الجنائزية . ويتمثل هذا بوضوح فى كل من القبور الملكية

والخاصة للدولة القديمة (التى وُصفت بالتفصيل تحت عنوان المصطبة والأهرام) . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الأهرام كانت تستعمل ، من آن إلى آخر ، كمقابر ملكية . مثال ذلك ، أهرامات الدولة الوسطى ، والحقبة الكوشية ، وامتدت ميزه امتلاكها إلى بعض الأفراد الخاصة (فى الدولة الحديثة بدير المدينة ، وفى بعض الجبانات الأخرى بطيبة ، مثلاً ، حيث أخفيت حجرات الدفن تحت أهرامات مصغرة ، كذلك يجب أن نلاحظ أن المبانى التى تشبه المقابر فى منظرها الخارجى ، نالت أهمية وميزة على المبانى تحت الأرضية ، مثال ذلك الأقبية المبنية بالحجر التى صارت جزءاً من المعابد فى العصور اللاحقة ، بالدلتا (فى سايس وتانيس) .

وأما القبور التى نُحتت فى صخور الصحراء فى جميع العصور فتختلف عن الأهرامات وعن المقابر التى بشكل المصاطب . فكانوا ينحتون بهواً طويلاً واحداً تحت الجبل ، أو عدة حجرات ، وعادة ما تكون جميعاً أفقية تقريباً ، وفى نهايتها بئر رأسية تصل إلى حجرة الدفن . يتضمن هذا النوع الكلاسيكى من القبور الخاصة ، الذى تمكن رؤيته فى الجيزة (الدولة القديمة) وبنى حسن ومير والبرشا وغيرها (الدولة الوسطى) وفى طيبة ، العنصرين الأساسيين ، وهما : جزء مكشوف (كهف صناعى مزخرف بالنقوش البارزة أو بالمناظر) ، وجزء سرىّ (حجرة الدفن) . ومن الأمثلة النادرة التى لا تضم هذا الجزء ، ما يوجد فى وادى الملوك (وكذلك فى وادى الملكات) . وكانت المقابر الملكية فى الدولة الحديثة ، التى اعتقدوا أنها مسرح إعادة ولادة إله الشمس ، مقفلة تماماً . وعند ذلك كان الفرعون يتناول طعامه وسط الآلهة فى « بيوت ملايين السنين » ، المبنية بناء على أمره (انظر المعابد الجنائزية) . كذلك يجب أن نتحدث عن « القصور الجنائزية » التى كانت تبنى تحت أضرحة من الآجر ، والتى كانت قبور سادة طيبة العظام فى العصر الصاوى . (كل من يهوى المغامرة أو تشغفه الأسرار الغامضة ، يجب أن يصحب معه دليلاً موثوقاً به ، ويتبعه إذا أراد أن يلهو بزيارة متاهات هذا العالم السفلى الخانق) . وأخيراً يجب ألا ننسى المدافن الجماعية للحيوانات المقدسة (السيرابيوم) .

لاحظ أحد الإغريق ، وهو على حق ، أن المصرى كان يهتم بإعداد مكان راحته الأبدية ، أكثر من اهتمامه بإعداد بيته . لم يكن الموت بالنسبة له سوى حياة ممتدة إلى الأبد بواسطة السحر . ولكن ما من قبر أقل وحشة من مصطبة تى أو مقصورة منا حيث يأتى العلماء ، لا لإقلاق راحة الأشباح

أشياء متنوعة و أمهات يرضعن أطفالهن ، وقردة متوجة ، وأخرى تقضم بعض الثمار ، وغيرها تحمل أشياء ، إذ هناك مثل يقول : « يعرف القرد كيف يحمل الأشياء بمجرد أن تكف أمه عن حمله » .

لما كانت القردة تحب ثمار الدوم والتين ، فهى تصحب البستانى إلى الحديقة . وفجأة يواجه عالم الآثار المصرية هذا السؤال : هل يتسلق القرد الأشجار ليشبع رغبته من

الثمار ، أم أنه يساعد البستانى فى جمع الثمار البعيدة عن متناول يده ؟ .

هناك صورة على إحدى مصاطب الأسرة الخامسة صُوِّر فيها بابون يعترض طريق موكب لحاملى القرابين ويمسك بساق غلام وهو يأخذ ثمرة من سلة مليئة بالفاكهة . وهنا سؤال آخر ، هل هذا العمل لمجرد الطمع أو أن ذلك القرد الأليف كان يساعد الشرطة ؟ ومع ذلك ، فليس فى مناظر القبور دعابات كثيرة من هذا النوع ، ولم يعمد الفنانون الهزليون الذين يصورون الحيوانات وهى تحاكى الإنسان ، إلى تصوير حركات التقليد البسيطة . ولم يجعل الأدب الشعبى (الفولكلور) القرد يرقى إلى مرتبة المهرج أو المضحك . فلنترك التعصب المضلل جانباً إذ يجعل من القرد مجرد محاكيا رديئاً للإنسان ، ولنذهب إلى حديقة الحيوان ونشاهد سلوك البابون بها . إنه خفيف الحركة وحاد الذكاء ونبيل ورزين وسلوكه أشد غرابة وطرافة من الإنسان ، وجدير بأن يكون إلهاً لمن يعبدون الحيوان . ولا شك فى أن له عيوبه ؛ فالإله « بابا » يمكن أن يكون « الذكر من بين قردة البابون » ، ومشاكساً وداعراً ولصا وشهوانياً . ونعرف جيداً شراسة وعدوانية النوع الكبير من القرود الطويلة الذيل . وتمثل الرموز الهيروغليفية صورة البابون بعد الفعل « يغضب » ، وقد كشر عن أنيابه ووقف على أربع وقوّس ذيله ثائرا .

كان على الموتى أن يتحاشوا القردة فى الحياة الثانية بالسكاكين ، أو من يصيدون الأرواح بشبكة . ومع ذلك فقد كان هناك أيضاً قردة خيِّرة ، صديقة للشمس وللإنسان . ويُعرف عن القردة الطويلة الذنب أنها تطلق صراخاً حاداً قبيل الفجر ، فتساعد الشمس ، بهذه الطريقة ، على الخروج من وراء الظلال . وكانوا يعتقدون أن أزواجاً من القردة الإلهية ، كانت تحدث ضوضاء وهى تتلو الصلوات النهارية الأولى للشمس المشرقة ، زافعة أذرعها فى خشوع طقسى ، فوق كثبان الرمال الغربية الواقعة جنوبى شرق العالم . وكان البابون فى مصر رمز الشمس نفسها ، إنه فويبوس (لقب لأبولو) Phoebus قردىّ يمسك قوساً وسهماً . أما القرد الأعلى ، الذى عُبد فى جميع أنحاء مصر فهوّ تحوت Thoth ، وُجدت مومياوات وتماثيل القرد المقدس ، مكدسة فى الكهوف بمدينة هرموبوليس الكبرى (تونا الجبل) . لما جاءت عبادة ذلك الحيوان إلى هذه المدينة ، اتخذ تحوت ، الذى كان إلهاً فى الدلتا ، صورة بابون كبير أبيض وهو الرب السابق لتلك المنطقة ، علاوة على صورته الأولى ، وهى صورة الطائر أبى منجل . كما صُوِّر أيضاً على هيئة قرد طويل الذنب هرم يجلس ويداه فوق ركبتيه ، وتدلت معرّفته الطويلة فوق جسمه وظهر ذكَره الطويل الضخم ، وعلى وجهه أمارات التفكير ، وأمامه قرص قمرىّ كبير . وعندما تحولت عين رع إلى قط واختبأت ؛ جاء إليها تمثال القرد هذا لكى يغريها بعذب حديثه كما لو كان بـ « لافونتين » على أن تعود ، لأن تحوت كان إله المتعلمين والعلماء . وكان بكل مكتب تمثال بابون واقف . وكان القرد يجلس على أكتاف الكتبة ويراقب أيديهم .

القرين : انظر كا .

قصائد الغرام : عدّلت غزوات الإمبراطورية وتقدّم حياة المدن ، أخلاق المجتمع فى الدولة الحديثة . هذّب الترف الذوق ، فشاع التهافت على الملذات الدنيوية ، وأصبحت الملابس خليعة والأخلاق ضعيفة والعواطف جامحة . وذاعت الموسيقى والرقص وظهرت قصائد الغرام فى الأدب وبقى منها عدة أمثلة ، يرجع تاريخها إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، محفوظة على أوراق البردى الأوستراكا . وقد نظمت هذه الأشعار لتنشد أو تغنى فى الولائم بمصاحبة الناى والقيثارة . لم تكن تلك القصائد من النوع الذى يرتجله الشعراء المنشدون الجائلون : كانت صبابتها مُقَنَّعة ، ولعواطفها دورة رشيقة ، وهى زاخرة بالتشبيهات والمقارنات الخفية البارعة :

« بشرتك شبيهة بثمار اللفاح (نبات مخدر) » . « حبك فى بدنى اشبه بقصبة فى ذراعى الريح » .

تجعل هذه القصائد الأشجار تتكلم والطيور تشقشق :

« من الممتع أن يقترب المرء من المحبوب » .

يخرج المواطنون ليسمعوا « الأغانى الممتعة الجميلة الموجهة إلى محبوبة قلبك الحسناء وهى عائدة من الحقول » . تشير هذه القصائد ، كنشيد الإنشاد ، إلى العاشقين كأخ وأخت . فيبدأ أحدهما الكلام ويصف سعادته أو يأسه ، ويعبّر عن أمله أو نفاد صبره . « هيّا ، تعال بسرعة لأختك ، تجرى كالغزال المطارَد وسط الصحراء — تتعثر أقدامه ، وتخور أعضاؤه — إذ استولى الرعب على أعضائه ، لأن صياداً وكلابه يجدُّون فى إثره — لا يرون سُحب الغبار التى يثيرها — ويبدو مكان الراحة له شَرَكاً — فيجرى إلى النهر — تعال إلى ملاذك المحبوب — تُقَبِّل يدها أربع مرات — ابحث عن حب أختك — فقد أعطاكها « الواحد الذهبىّ » ، يا صديقى » .

وهناك بعض قصائد تتحدث عن « تصفيف الشَّعر » و « التمساح » و « البريد » .

ويلاحَظ على ظهر أوراق البردى والأوستراكا ، مقتطفات طويلة أو قصيرة ، كالآتى : « إذا هبت الريح فإنما تهب نحو الجميزة — إذا أتيتَ . . . . . » .

القصر Palace : ظن أوائل السياح الذين زاروا الخرائب الفسيحة لمدينة طيبة ، أن الكرنك ليست سوى قصر ملكىّ عظيم . غير أنه اكتُشف أخيراً ، أن القصور الملكية كانت كمساكن الأهلين مصنوعة من مواد أقل صلابة . أليس من المدهش أنه بينما لاتزال هياكل الآلهة الغامضين ، المصنوعة من الحجر الرملى قائمة فى بعض أماكن الوادى ، لا نجد سوى آثار قليلة من القصور الملكية باقية ؟ لقد بُنيت تلك القصور من الآجر والخشب ليس غير . هكذا كان قصر أمنحوتب

الثالث القائم على الضفة اليسرى لطيبة ، الذى أتت منه قطاعات من حوائط تداعت بعض أجزائها ، وأكوام من « الشقافة » غير المنتظمة الأشكال . وقد استلزم رسم القطاع العرضى للملك القصر وفهمه صبراً غير محدود من جانب القائمين بالحفر. وهناك بضعة قصور أخرى ، من أمثلتها : قصر سيتى الأول (فى أبيدوس) ، ورمسيس الثانى (فى قنطير) ومرنبتاح (فى منف) ، ورمسيس الثالث (فى مدينة هابو) ، وفوق كل هذه قصور تل العمارنة ، تعطينا فكرةً ما عن منظر هذه المبانى القديمة . كانت ضخمة الحجم وتضم عدداً كبيراً من الحجرات . وإجمالاً ، كانت مقسمة قسمين : القسم الخاص وبه جناح الملك وحجرات الأمراء والأميرات ، والحريم ، وحجرات الدولة بممراتها ودهاليزها وأبهائها . ومن المظاهر الشائعة فى معظم القصور ، شرفة واسعة مكشوفة تطل على شارع حيث كان الملك يبدى نفسه هو وأسرته للشعب ، وكان ينثر منها العقود والحلىّ الأخرى للمخلصين من حاشيته تقديراً لخدماتهم . لابد أن كانت الزخارف الداخلية لتلك القصور كثيرة البذخ ، كما يمكننا أن نحكم من المناظر الريفية فى بقايا تلك القصور بطيبة وبتل العمارنة ، التى كانت تزين الجدران والأرضيات والسقوف ، ومن ألواح القيشانى ، ومن الزخارف الوردية الشكل المكونة للأفاريز المطعمة فى قصور الرعامسة .

القصص : يحتوى الأدب الشعبى لقدماء المصريين ، كما هى الحال لدى جميع الشعوب الأخرى ، على ثروة من القصص الشعبية . انتقلت هذه القصص من جيل إلى جيل شفاهة ، وبذا لم يصل إلينا منها إلا ما دُوِّن كتابةً وبقى لنا محفوظاً ، حيث لعبت الصدفة واختيار الكاتب دورهما ، ويجب أن نعترف بأننا لا نعرف سوى عدد قليل من تلك القصص . ومع ذلك ، فهى مختارات تلائم ذوق شعب مولع بالبلاغة اللفظية .

استُخدمت فى رواية القصص ، تبعاً للمصادر المتواضعة ، لغة بسيطة وأسلوب تكرارى . وقد تطورت تقنية السرد فاستخدمت القصة التمهيدية كإطار للقصة الأصلية كمقدمة أو لايضاح المغزى أو لإيجاد حلقة اتصال بين عدة قصص ، مثل قصص ألف ليلة وليلة .

وكما يحدث دائماً فى هذا النوع من القصص ، يلعب السحر دوراً هامًّا (مخطوط بردى وستكار) ، وكذلك المعجزات والأمثال (قصة الأخوين) ، فى عالم الخيال الذى أهله من الأرباب ، كالربات الجميلات والعمالقة المتوحشين (قصة الملاح الغريق) ، والأشباح والسحرة . ولا يوجد بالقصص المصرية مناظر ماجنة وما كان بطل القصة الفرعونية حيواناً على الإطلاق . فقام الإنسان بالدور الرئيسى ، ورغم أنه لا يظهر فى الحكايات الأسطورية البحتة ، إلا أن الآلهة كانت تُمنى بأسوأ حالات الفشل التى يمنى بها البشر . يمكن ترجمة الأساطير إلى أحداث من الحياة اليومية ، فتصير الآلهة فلاحين يبذرون الحب ويمترن بالأبقار ، مُزجت الواقعية بما هو خارق فوق مقدور البشر ، بيد أن

السيادة كانت للأولى ، وقد يختفي الخارق من القصة تماماً ، وتعتمد الحبكة على علم النفس والعادات . وتكثر فى القصص الموروثة ذكريات الأساطير . وبوسع المؤرخ أن يستقى منها معلومات قيّمة عن أحداث بسيطة معروفة وعن الملوك الذين رسمت شخصياتهم فى القصص بصورة أوضح مما فى السجلات الرسمية ، والذين يمثلهم القصاص ودودين أو صارمين تبعاً للظروف . ونخرج فى نهايتها بمفهوم يفسر الأخلاق وإجراءات العدالة . وينتصر الحق على الباطل فى القصة الرمزية . وتنتهى جميع القصص التى نعرفها أو نخمن نتائجها ، بنهاية سعيدة .

من السهل أن نرى مبلغ المورد الخصب من المعلومات الذى تمد به هذه القصص عالم الآثار المصرية . وليست هذه القصص بأقل إمتاعاً لدارسى الأدب الشعبى الذين يجدون فيها أقدم روايات للقصص التى أصبحت كلاسيكية ، مثل : السندباد البحرى ، وعلى بابا والأربعون حرامى ، وقصة يوسف وزوجة فرعون (امرأة العزيز) . وكان قدماء المصريين هم أول من كتب قصصاً شعبية محبوكة ولم يكن لها أى غرض آخر سوى إمتاع قرائهم .

القط : كان بمصر نوع من القطط يعيش بريًا ، منذ عصور ما قبل التاريخ ، وكان يُرى دائماً قرب حدود الصحراء . ذلك هو شوس Shaus ، وهو صياد شرس قصير الذيل ممتلىء الجسم ، وميّال إلى الاعتداء . ولا شك فى أن هذا النوع من القطط ، وليس القط الأليف ، هو الذى كان نموذج « القط العظيم الذى جاء ذكره فى هليوبوليس » فى كتاب الموتى ، على أنه كائن شمسىّ قديم غاية القدم ، وأنه يحمى الناس ، ويمزق الأفعى الشريرة إرباً أسفل جذع الشجرة المقدسة . ولم يظهر القط المصرى الأليف ، الودود المبهج ، فى التاريخ إلا أخيراً . ولم يصوَّر هذا القط الأليف فى مناظر الحياة اليومية المرسومة على جدران مصاطب الدولة القديمة ، رغم كونها تضم كثيراً من صور جميع أنواع الحيوانات . ويرجع تاريخ أول إشارة إلى القط الأليف ، إلى حوالى سنة ٢١٠٠ ق . م . . فكان اسم والدة أحد رجال حاشية الملك منتوحتب الأول « القطة » وبعد هذه المقدمة اللطيفة ، ظهر القط الأليف فى كثير من الوثائق . ومنذ الدولة الوسطى ، شاع استعمال صور القطط فى زخرفة جدران المصاطب . وإلى هذا التاريخ أيضاً تُنسب أول مومياء عُرفت لهذا الحيوان . ويتفق علماء الطبيعة وعلماء الآثار فى أن القط الأليف ، الذى كثر عدده فى الدولة الفرعونية وجُعل إلهاً ، جُلب أولاً من الغرب والجنوب على أنه تحفة نادرة . ولا يفيد اسمه ، إلا قليلاً فى معرفة أصله : فاللفظ المصرى « ميو miw » يكاد يكون لفظاً دولياً ، على الأقل ، فى حديث الأطفال .

وإذا رجعنا إلى مناظر مقابر طيبة ، وجدنا أن كثيراً ما صُوِّر صاحب القبر وصاحبته وهما يتسلمان التقدمات التى تعطى الحياة للميت ، وتحت مقعدهما قط سمين ذو فراء ناعم وأذنين لطيفتين طويلتين ، وشوارب وذنب ، يأكل سمكة . ومن الجائز

أن هذا القط لم يكن الحيوان العزيز المدلل لهذين السيدين ، وإنما هو جسد إلٰه حارس كانت وظيفته أن يهلك أعداءهما . وعلى أية حال كان أفراد الأسرة يفرحون بالقط الجميل الذى يصاحبهم فى الأعمال العادية .

كان بائعو الطيور ، يطلقون القطط فى المستنقعات لإحضار طيور الصيد من أحراش البردى . كانت القطط تقتل الفيران ، وتوصى مخطوطات البردى الطبية بما يأتى : « لكى تمنع اقتراب الفئران من الأشياء ، ضع دهن القط فوق كل شىء » .

كان النزاع بين القط والفأر موضوعاً عامًا للأدب الشعبى . وهناك عدد من الصور التهكمية يعبر عن قصص الحيوانات بطريقة أفريقية ، مصور على الأوستراكا وعلى أوراق البردى ، منها : تصبح القطة عبدة لدى مدام فارة .... يهاجم جيش من الفيران فرقة القطط المسكينة المحبوسة فى قلعة .

يرجع ظهور الأسد إلى عصور ما قبل التاريخ . أما القط الأليف فظهر فى العصور التاريخية . وتقول الأسطورة غضبت عين الشمس ، ابنة رع ، فتحولت إلى لبؤة هربت إلى بلاد النوبة . فعملت محاولة لمصالحتها ، فاتخذت لبؤة النار صورة الربة القطة باستت Bastet ، الدائمة الابتسام رغم كونها من الحيوان . وكانت هذه المعبودة فى الأصل لبؤة ، غير أنه ، فى عصور لاحقة ، فضل عابدوها أن يروها فى صورة قطة . وأودع بمعبد القطة بمدينة « بوباسطة » كثير من التماثيل الصغيرة تمثلها فى شتى الصور ، توددا إليها . ولبعض هذه التماثيل جسم امرأة ورأس قطة لطيفة . ويمثل بعض منها القطة وهى ترضع قطيطاتها .

ومنها ما يمثلها فى صورة الملكة القطة منتصبة القامة ، ولها هيبة ووقار ، وهى جالسة على عرشها متحلية بالجواهر وعلى أهبة الوثوب . وتختلف هذه التماثيل البرونزية فى نوعها وإتقان صنعتها ، بيد أن أقل تمثال منها عبارة عن قطعة فنية رائعة ، يسعى إلى اقتنائها علماء الآثار وهواة جمع التحف . غير أن منطقة « بوباسطة » ، التى اكتشفت ونهبت فى القرن الماضى ، قد خلت من هذه التماثيل . وعلى ذلك ينبغى أن يحذر هواة جمع الآثار من التماثيل الكثيرة الزائفة التى غزت الأسواق . ويعتقد بعض المتخصصين أن القط وفد إلى أوروبا من مصر عن طريق بلاد الاغريق ، وأن القطط الإنجليزية القابعة على سقوف المنازل ، من سلالة القطط المصرية .

القلب : تقول رسالة لاهوتية من منف : « إن عمل الذراعين ، وحركة الساقين وكل جزء من أجزاء الجسم ، يمليها أمرٌ من القلب » . وتقوم جميع الحواس بوظائفها بواسطته : « يشرف القلب على بصر العينين وسمع الأذنين وتنفس الهواء خلال الأنف . فالقلب هو الذى يقرر ، ويعلن اللسان عما فكر فيه القلب . تأتى الشيخوخة بسبب بلى هذا العضو الأساسى وتمزقه » . وكتب سنوهى يصف الشيخوخة ، فقال : « عيناى ثقيلتان وتلى ساقاى العمل لأن قلبى متعب » .

وهكذا كانوا يعتقدون أن القلب مركز الحياة الجسدية والعاطفية ، ومركز الارادة والعقل . عبّر قدماء المصريين عن جميع المشاعر ، وحالات الروح ، ومميزات الأخلاق والمزاج ، بمصطلحات شتى ، تشير إلى القلب . فوصفوا « السعيد » بأنه « رحب الفؤاد » ؛ و « المكتئب » بأنه « ضيق القلب » ؛ و « المتبه » بأنه « معدوم القلب » . وأطلقوا على الموتوق به اسم « ذلك الذى يملأ قلبه » . واستخدموا المصطلح « يُغرق القلب » بمعنى « يُخفى أفكاره » ؛ و « يغسل القلب » بمعنى « يُشبع رغبة أو يسعد » . وقد جمع أحد العلماء حوالى ٣٥٠ مصطلحاً من هذا النوع دون أن يكمل قائمته تلك . ونرى الرمز الهيروغليفى باستمرار فى النصوص .

القلب عنصر بالغ الأهمية فى الدين . وتبعاً لنظرية منف فى نشأة الأرض ، شكل الإله بتاح صورة الدنيا فى قلبه قبل أن يخرجها إلى حيز الوجود بواسطة نطقه الخلاّق . وهكذا كانت الحياة بغير قلب أمراً بعيداً على التفكير . لذلك ترك المحنّطون القلب فى موضعه بالجسم ، رغم أنهم كانوا ينزعون القسم الأكبر من الأحشاء ، من الجسم ، ولكى يضمنوا سلامةً أعظم ، ضمنوا كتاب الموتى تعاويذ لإعادة القلب للشخص الميت فى حياته الثانية .

يزن قضاة العالم الآخر قلب الميت (انظر وزن القلب) ، لكى يحكموا بما إذا كان يستحق خلود المباركين بسلوكه على الأرض . وللقيام بهذا الاختبار ، ينزع القلب من صدر صاحبه ليكون شاهداً صارماً ، فكان صاحبه يرجوه أن يعطى شهادة مناسبة . وجعران القلب الذى يوضع على المومياء ، تميمة تمنع القلب من الشهادة ضد صاحبه

كان القلب هو الضمير ، الذى يملى أفعال المرء ويؤنبه ؛ إنه كائن مستقل من روح سامية ، يسكن فى الجسم . وهناك تابوت فى متحف فيينا كتبت عليه هذه الكلمات : « إنما قلب الإنسان إلهه » .

قناة السويس Suez Canal : عندما حفر فرديناند دلسبس قناة السويس ، فإنما كان يُحيى مشروعا قديما وفى زمن ما كان النيل متصلاً بالبحر الأحمر . وكان خليج السويس يصل حتى مدينة الإسماعيلية حيث اتصل به أحد فروع النيل المتجه من الدلتا شرقاً . وقد تركت المياه المتراجعة أثرها فى الأرض ، وآخر أثر لها هو وادى الطوميلات وبحيرة التمساح والبحيرات المرة . فأوضحت مجموعة المنخفضات هذه ، للإنسان خط سير قناة يمكن أن تصل النيل بالبحر الأحمر .

كان لدى المصريين سبب قوى لإعادة شق طريق مائى بين النيل والبحر الأحمر ، إذ بدونه كان عليهم أن يعبروا الصحراء العربية لكى يصلوا إلى البحر الأحمر ويصنعوا على ذلك الساحل القفر ، السفن التى ستحملهم إلى بلاد البهار (انظر بونت) ، بمواد نقلوها من الوادى إلى هناك ، ويحفروا مناجم سيناء ولم تكن لديهم الرغبة فى وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض

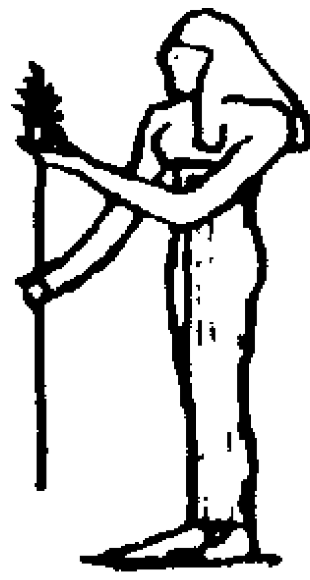
المتوسط ، وكل ما اهتموا به هو نقل أسطولهم من النيل إلى البحر الأحمر بنفس السهولة التى كانوا ينقلونه بها إلى البحر المتوسط . غير أنه ما إن حفرت تلك القناة حتى صار بالإمكان الانتقال من أحد البحرين إلى الآخر .

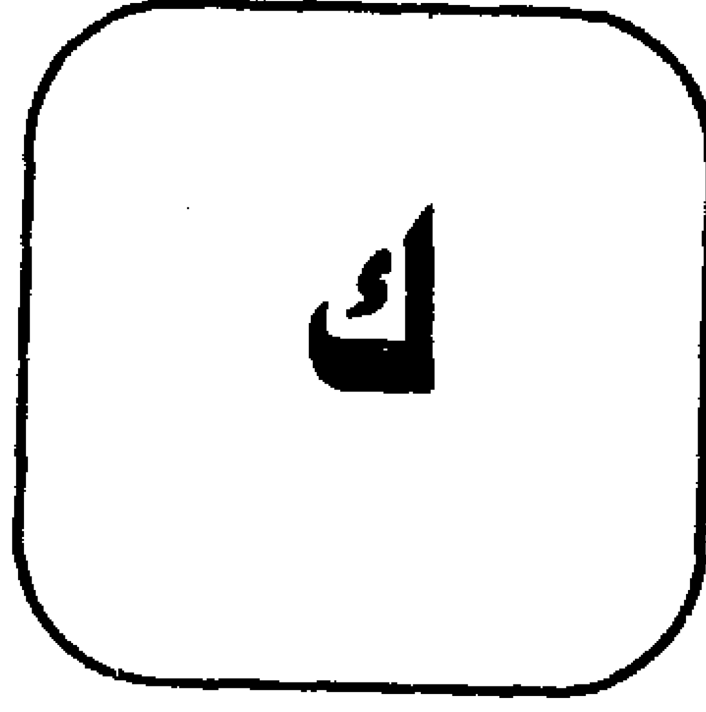
تَطَلَّبَ ذلك العمل مجهوداً جباراً : ويقول هيرودوت إن ١٢٠٠٠٠ مصرى ماتوا فى محاولة واحدة لشق القناة الفرعونية . وعلاوة على صعوبة العمل ، كان هناك الخوف من أن تغمر المياه المملكة كلها ، إذ اعتقد قدماء المصريين أن قاع البحر الأحمر أعلى من وادى النيل ومن قاع البحر المتوسط ، فأثار المناهضون لمشروع دلسبس هذا ، الاعتقاد القديم وأيدوا وجهة نظرهم بما يسمى « المساحة الدقيقة » ،

وتمسكوا بأن هذا الموضوع ضد قناة لمسير السفن

تقول الاساطير إن سيزوستريس (تحريف لاسم سنوسرت) وهو بطل شبه أسطورى ، شق قناة ، غير أن الحقيقة تشير إلى أن ذلك المشروع منسوب إلى نكاو (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق.م.) . وتبعاً لهيرودوت ، كانت الرحلة فى تلك القناة تستغرق أربعة أيام ، وتتسع لسفينتين تسيران فيها جنباً إلى جنب . ولما جاء الغزو الفارسى ، كانت القناة قد امتلأت بالرمال وغدت غير صالحة للملاحة . غير أن ملك الملوك (الشاهنشاه الفارس) كان أكثر حاجة من الفراعنة إلى هذا المجرى المائى لتحسين المواصلات بين عاصمته على الخليج الفارسى وبين تلك المستعمرة الأفريقية . وعلى ذلك أعاد داريوس الأول فتح القناة فى حوالى سنة ٥١٨ ق.م. ، كما يتضح من اللوحة التذكارية التى أقامها على جانب هذه القناة : « أنا ، عاهل الفرس ، فتحت مصر ، أصدرت الأوامر ببناء هذه القناة من نهر يسمى النيل يجرى وسط مصر ، حتى البحر الذى يجرى من فارس » . فلما تم ذلك العمل ، أبحر أسطول يتألف من ٢٤ سفينة (أو ٣٢) محملة بالجزية ، من النيل ثم عبر القناة حول بلاد العرب حتى وصل إلى فارس .

بعد أن استمرت الملاحة فى هذه القناة وقتاً ما ، انسدت ثانية ، ولم تحفر من جديد إلا فى عصر البطالمة . ثم جاء دلسبس واستعاض عنها بقناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط مباشرة ، ولكنه أعاد شق المجرى المائى القديم الواقع فى البرزخ كى تصل المياه العذبة إلى القرى التى هناك ، ولاتزال السفن الصغيرة تسير فى ذلك المجرى ناشرة أشرعتها .





كا Ka : هناك بعض أفكار مصرية غامضة لا يمكن تعريفها بالضبط ، مثل الـ « كا » . ولا شك فى أن هذا راجع إلى عدم وجود نظير لها فى معاجمنا أو فى الفكر الحديث . كانت الـ « كا » فى الحقيقة مظهراً من مظاهر الطاقة الحيوية كقوة خلاقة وكقوة تحفظ الحياة . وعلى هذا يمكن أن تكون كلمة « كا » بمعنى القوة الإلهية الخلاقة ، وقوى استمرار الحياة التى أسندت الحياة إلى ماعت ، أو النظام العالمى . استعمل هذا المصطلح عند الكلام عن الموتى بنوع خاص . فمعنى العبارة « يذهب إلى كـاه » « يموت » . ووصفت تماثيل الموتى التى دفنت فى قبورهم بأنها « تماثيل الكا » . وهناك صيغ جنائزية وُجِّهت إلى « كا فلان الميت » ، وبوسع الشخص الحى أن يرى « الملكَ يُعَظِّم « كاه » . وكذلك معنى الكا ، قابلة القوى الحيوية التى جاءت منها كل الحياة ، والتى عاشت الحياة كلها عن طريقها (بالغذاء : كاو Kau والكسب المادى وزيادة القوة ، وما إلى ذلك) . تشبه الكا ، فى طبيعتها ، « القوة الحيوية » التى تلعب دوراً هامًّا بين كثير من الشعوب الأفريقية مثل « مونتو Muntu » عند شعب البأنتو Bantu و «مينيبى Menebe » عند شعب الأوليه Oule .

الكاب El-Kab : تقع الكاب على مسافة ٨٣ كم جنوب الأقصر ، على الشاطىء الأيمن للنيل . ولا يذهب عادة السائحون إلى مدينة الكاب نفسها غير أن رؤيتها لا تفوتهم فـيرون من القطار أسوارها الضخمة الدالة على بقايا مدينة كبيرة ، كانت مركزا دينيا هاما وعاصمة الإقليم الثالث فى مصر العليا ، وبذا شهدت أيام مجد وعظمة منذ عصور ما قبل التاريخ إلى العصور البيزنطية وكاد انقضاء الزمن والبشر يدمر تلك المدينة تماماً ، ولم يُعرف تاريخها جيداً إلا بعد حفائر البعثة البلچيكية (منذ سنة ١٩٣٧) . ومما يدل على عظمة تلك المدينة القديمة : المخازن الضخمة (من العصر الثنى (الطينى) ، والنقوش التى على « صخرة النسور (ويرجع أهمها إلى عصر الدولة القديمة) ، ومقابر الدولة الوسطى وبقايا المبانى ، ومعابد الدولة الحديثة (المكرسة لنخبت ، « الرَخَمة » ربة مصر العليا وإلى تحوت) ، ومعبد بناه أمنحوتب الثالث فى الصحراء ، ومقابر أحمس ابن أبانا الصخرية ، الذى حارب الهكسوس ،

وباحرى Paheri ذلك النبيل الشهير فى عصر تحوتمس الثالث ، والأسوار التى بناها نختنبو Nectanebo ، ومعبد صخرى بناه بطلميوس السابع ، وكثير من التلال الأثرية الأخرى ، التى تشهد بمجد تالد لتلك المدينة النائمة الآن بين النيل والصحراء فى ظل أسوارها العالية .

الكاتب Scribe : كان الكاتب أولاً وقبل كل شىء كاتباً فى ديوان من دواوين الحكومة ، وفى دولة اعتمدت فيها الإدارة على السجلات ، مثل مصر القديمة ، كان الكاتب سيداً . وكان يعلم هذه الحقيقة ويكررها كثيراً فى أوراق البردى . « إن الكاتب هو الذى يفرض الضرائب على مصر العليا ومصر السفلى ، وهو الذى يجمعها . إنه هو الذى يمسك حساب كل شىء . وتعتمد عليه جميع الجيوش . إنه هو الذى يأتى بالحكام أمام الفرعون ويحدد خطوات كل رجل . إنه هو الذى يأمر جميع المملكة ؛ وكل شىء تحت إدارته » . كانت مهنته « الأولى بين جميع المهن » . والقيام بها شرف . وكان للأمراء فى عصر الأهرام الحق فى أن يصنعوا لأنفسهم تماثيل فى صورة كتبة . ويمثل « الكاتب المتربع » الموجود فى متحف اللوفر ، يمثل شخصية سامية فى الأسرة الخامسة . ولم يكن صغار الكُتّاب أقل زهواً من ذاك . ويمكن رؤية عدد لا يحصىٰ من الكُتّاب وهم يعملون فى المناظر التى تمثل الحياة اليومية التى تزين حوائط مقابر الدولة القديمة . ومن الجلى أن « الكاتب يوجه أعمال كل فرد » .

يحظى الكاتب بعدة امتيازات كان يلذ له أن يعددها : « لما كان الكاتب يعمل فى المستندات المكتوبة ، فهو لا يدفع ضرائب » . كانت مهنته « مربحة أكثر من أية مهنة أخرى ، فهى تعفيك من العمل ، وتحميك من كل عمل ، وتنقذك من حمل فأس ومعزقة ، لا يتحتم عليك أن تحمل سلة ، ولا تحتاج إلى أن تمسك مجدافاً . وتتحاشى المتاعب . لا تكون تحت إمرة كثير من السادة ، أو جمع من الرؤساء ، لأن الكاتب رئيس كل ذى مهنة » . « كن كاتباً كى تصير أعضاؤك ناعمة ، وتصير يداك رخصتين ، وتسير فى ثياب بيضاء فيعجب بك الناس ، ويحييك رجال البلاط » . « تنادى شخصاً فيلبى نداءك الألوف ، وتسير حُرًّا فى الطريق » .

ما كان المرء ليطيق مثل ذلك الشخص ، بل كان عرضه أحيانا للسخرية والتندر ، مثل الكاتب روى Roy « لم يتحرك قط ، ولم يجر منذ ولادته ، تخاف فزعاً من الأعمال اليدوية فلا يعرف عنها شيئاً » . ونقرأ فى مكان آخر : « لقد صرتَ مدرباً على الأسرار العظمى . . . . . أنت أكثر اجتهاداً من زملائك ، وثقافة الكتب منقوشة على قلبك . لسانك فصيح وعباراتك عريضة . عبارة من شفتيك أثقل وزناً من ثلاثة أرطال . أصغى إليك عندما تقول : بفضل كونى كاتباً ، فأنا أكثر عمقاً من السماء والأرض والعالم الآخر » .

السبب الحقيقى فى غرور الكاتب ، هو أنه يعرف القراءة والكتابة فى دولة أُميّة ؛ وأنه كان متعلماً . لُقّن العلوم المحددة واحتفظ بمحبة الكتب بقية حياته . ويمكننا أن نستشف الأديب وراء محرك القلم ، فلقد

ترك موظف الخزانة الملكية أنينا Ennena كثيراً من المخطوطات الأدبية مكتوبة بخطه الجميل ومهداة إلى رئيس مصلحته . ونقل المحاسب خعمواس Khaemwas حكمة قديمة على ظهر سجل ، من أجل متعة نفسه وبهجة أخيه وزميله . ولا تدهشنا هذه المتعة لأن مؤلف الحكمة لم يكن سوى كاتب موهوب ، وكان عضواً في الإدارة المدنية أو الدينية .

والكلمة المصرية التي نترجمها بمعنى « كاتب » معناها « ذلك الذي يكتب » . كان كل من استعمل القلم من العلمانيين أو الكهنة ، سواء لتدوين سجلات عمل ما ، أو لتسجيل « كلمات الرب » ، أو لإنتاج كتب الحكمة ، أو لقيد الحسابات والمساحات ، عضواً في هيئة أخوية ، وحاميهم جميعاً هو تحوت ، الكاتب الإلهي . كانت هيئة الكُتّاب أساس الدولة وعماد المجتمع ، وهم الذين شكّلوا الفكر المصري واحتفظوا بمستوياته خلال ثلاثة آلاف عام .

الكبش : انظر الخروف .

كتاب الموتى : Book of The Dead جرت العادة منذ بداية الدولة الحديثة أن يوضع كتاب مكتوب على ورق البردي أو على الجلد ، في قبر كل ثري يموت . فيوضع هذا الكتاب داخل صندوق مزخرف بتمثال صغير لأوزيريس سوكر ، ويودع الصندوق في التابوت أو يلف بين طيات أربطة المومياء . وقد عُثر على مئات من هذه المخطوطات مكتوبة بالخط الهيروغليفي والهيراطيقي والديموطيقي . وكجميع النصوص الجنائزية المصرية ، تتضمن هذه الكتب تلميحات عن جميع نصوص الديانة التي استخلصها الكهنة السحرة من العالم ، وانعكست في معتقداتهم الجنائزية الكثيرة . ومع ذلك ، فلا يتكون منها كتاب مقدس مصري ، كما تخيل البعض أحياناً — أي أنه لم يكن مؤلفاً يتضمن مبدأ فلسفياً ، ولا حتى دليلاً يتناول مصير ما بعد الموت . وإنما كان مجموعة من الرُّقَى مكملة برسوم تدعم قوتها الفعالة — وإن قراءة هذه الرقى ، أو حتى مجرد وجودها مكتوبة بالأسود على الورق الأبيض ، يمنح الشخص حياة سعيدة مظفرة إلى الأبد ، إلهية وبشرية في نفس الوقت . وعنوان هذه النصوص « صيغ للخروج نهاراً »

كان الكاهن يقرأ هذه الصيغ عند الاحتفال بجنازة الميت ، وتشمل تمنيات ، مثل : « لتبعث من جديد ، وتؤله » ، ثم « حرية الحركة » للشخص الميت ، وتضمن « ما يفيد » في العالم السفلي . ويختلف عدد وترتيب واختيار هذه الفقرات ، المأخوذة من مجموعة قديمة من التعاويذ السحرية ، الخاصة بالموتى وبالأحياء ، المدونة في شتى الكتب . ويجب أن نعترف بأن بعض الصيغ المستعملة قد جُمع بصفة تقليدية في نوع من الكتب الكهنوتية يضم ١٩٠ فقرة منظمة بعناية . ولم يظهر هذا الكتاب إلا في سنة ١٨٤٢ ، وقد عني بجمله وترتيبه لبسيوس .

ماذا يوجد في هذه المخطوطات الدقيقة

المزخرفة بصور داخل إطارات صغيرة ملونة (فى عهد الدولة الحديثة) ، أو برسوم خطية فى العصور المتأخرة ؟ تتضمن سطورها الهيروغليفية المبسطة ، وتضم صفحاتها المكتوبة بالهيراطيقية ، شتى الطرق والمعلومات اللازمة لضمان السلامة فى العالم السفلى . ويشمل كتاب الموتى مجموعة من التراتيل للترحيب بالشمس ووسيلة تشبه الشخص الميت بأوزيريس ، والقوة على قهر أعدائه الشخصيين ، وقتل التمساح والأفعى ، والتقرب إلى حراس أبواب العالم السفلى بمناداتهم بأسمائهم ، والقدرة على الإفلات من شبكة الصيد ، والانتصار على أرواح الأماكن المقدسة فى مصر بمعرفة ما حدث لها فى الأيام الماضية ، والانتصار على الأخطار ، وأن يحوّل الشخص نفسه إلى إله بالتعويذة التى تمكّن هذا الميت من أن يحوّل نفسه إلى أية صورة يريدها . (انظر تناسخ الأرواح) . كما تضم هذه الكتب تعاويذ للسفر فى سفينة رع ، ولوقاية الميت من « أكل البراز وشرب البول » وتعاويذ لجعل التمائم الحافظة فعالة الأثر ، ولتساعد « الشوابتى » أى التماثيل المجيبة على القيام بواجبهم ولتعطى قلبه وعياً صافياً لكى ينتصر عندما يوزن قلبه (انظر الجعران) ، ولتمنع الميت من أن يسير مطأطىء الرأس ، ولتمنع روح الميت من هجرانه وهو فى قبره ، ولتجعل روحه تسكن جسمه ، ولتجعله يستنشق الهواء ويشرب الماء ، ويبقى وسط الآلهة العظام ، وأن تكون له القدرة على أن يعود ليرى بيته على الأرض ، وينفذ إلى السماء ، ويصد غارات الجراد ، ويدفع الحزن عن قلب أى إله ، وألا يموت مرة ثانية . كانت كل هذه الاحتياطات ضرورية للعالم الآخر .

الكتان Linen : كان استعمال الجلد والألياف المنسوجة نادراً فى الملابس . أما صوف الأغنام فكان محرّماً . كان التيل هو المادة الوحيدة المستعملة فى مصر القديمة لصنع الملابس بوجه عام ، وكانت صناعته ثانى صناعة هامة فى الدولة ، ترك قدماء المصريين على مقابرهم صوراً تبين جمع الكتان إلى جانب زراعة الحبوب وخصادها . وكان المزارع الأوروبى ، قبل الانقلاب الصناعى ، يستخدم طرقاً للمراحل الأولى لصناعة المنسوجات من خيوط الكتان ، لا تدل إلا على تقدم طفيف على الطرق المصرية فى الألف سنة الثانية . وللحصول على أفضل نوع من الألياف ، يجب نزع أعواد الكتان من الأرض قبل أن تذبل أزهارها الزرقاء . ويُحْصَلُ من الكتان الناضج على كل من الألياف والبذور (التى فضلا عن استعمالها تقاوى محصول جديد ، استعملت فى الطعام وفى الطب) . تطلّبت هذه العمليات الأولية قوة يدوية عظيمة حتى أن اللغة المصرية الكلاسيكية ، التى تستعمل المجازات الريفية ، قد اتخذت من جمع الكتان كناية لوصف قوة الملك وهو يقبض على أعدائه ويقيدهم ثم يقطع رءوسهم بالمئات . كانوا يجمعون الكتان بأيديهم العادية ويحزمونه حُزَماً ، ثم تنزع قمم الأعواد فتسقط الحبوب كما تتساقط الرءوس المقطوعة ، وذلك بوضع مشط على الأرض وتثبيته بالقدم وإمرار الحُزَم فوقه بكلتا اليدين بين أسنان المشط . ومن طرق

« التعطين » الكثيرة ، أن تترك أعواد الكتان على الأرض أو تنقع فى حوض ملىء بالماء أو تعالج بالبخار . بعد ذلك تضرب الأعواد بمطارق خشبية ، وتفصل الألياف بمشط . ولم تكن عصا الغزل معروفة فى ذلك الوقت ، فكانوا يكومون ألياف الكتان فى سلة موضوعة على الأرض ، وتمسك الغزّالة الألياف بيدها اليسرى مرفوعة إلى أعلى ، ويتدلى ويُلَفُّ حول مغزل طويل باليد اليمنى بمهارة مدهشة كما يُرى من المصورات التى فى بنى حسن . فهناك فتاة ترتدى ثوباً قصيراً ، جالسة فوق مقعد وتعمل بسرعة الآلة ، فتغزل بمهارة عظيمة خيطين معاً ليتكون منهما خيط واحد . وبحركات سريعة من أصابعها ودفعات من ركبتيها ، يستمر المغزلان الدائران منفصلين ، بينما الفتاة تسيطر على الخيوط الأربعة الآتية من السلال الأربع المليئة بالألياف .

كانت أقدم أنوال النسج فى غاية البساطة . فتثبت عصوان بالأرض بواسطة أوتاد ، بينما توضع عصوان أخريان تُمَدُّ بينهما السداة . فيجلس النساج على الأرض وبيده عصا مقوسة يستعملها بدل « المكوك » ، وفى الوقت نفسه يشد بها اللُّحمة . ثم ظهر نوع جديد من الأنوال فى الدولة الحديثة ، عبارة عن إطار رأسى ذى مشط لشد الخيوط .

برع قدماء المصريين فى استعمال الصبغات النباتية لكل من الخيوط والقماش (كالفوة والنيلة وغيرهما) ، واستعملوا الشب المأخوذ من الواحات فى تثبيت الألوان .

صنع المصريون منسوجات عجيبة بتلك الأدوات البدائية . ويرجع تاريخ تلك الصناعة إلى عصر موغل فى القدم ، منذ العصر الحجرى الحديث (وُجدت مغازل وقطع من المنسوج من ذلك العصر) .

استعمل قدماء المصريين الكتان فى اغراض شتى ، منها الثياب والأكفان وأربطة الموتى والأشرعة والأربطة الطبية والمفروشات وقد نعى فى بنى اسرائيل فينيقيا المخربة : « كانت أشرعتكِ من التيل الجميل الموشّى ، من صنع مصر » . صُدِّرت المنسوجات المصرية بكميات ضخمة ، وحُقَّ لهم تصديرها . كان هناك عدة أنواع من المنسوجات ، ما بين الأقمشة السميكة الخشنة إلى النسيج الرفيع الذى أطلق عليه الإغريق اسم Byssus (الدمور) ، الذى استعمله المصريون فى لف المومياء وأثواب الآلهة . تضم قوائم المنسوجات التيلة المصنوعة فى الدولة القديمة مجموعة من الأقمشة وأنواعاً من المنسوجات البيضاء (يجب أن تضاف إليها الأقمشة الملونة — أقمشة التنجيد — والأحزمة المنسوجة والأثواب المزركشة ، مثل ثوب توت عنخ امون الشهير) .

فى حوالى سنة ٥٥٠ ق.م. قدَّم الملك أمازيس (أحمس الثانى) إلى المعابد الإغريقية أثواباً مزركشة ، وكانت موشاة بـ « صوف من شجرة » . إذن ، فلدينا هنا تسجيل من أقدم التسجيلات الدالة على استعمال القطن — ولا شك أنه كان مستورداً — على ضفاف النيل . غير أن مادة المستقبل هذه لم تظهر إلا فى بداية العصر

المسيحى ، فى بلاد النوبة حيث كانت تنمو تلك الشجيرات نصف البرية ، ولم تكن زراعة القطن ذات أهمية فى مصر إلا فى العصور القبطية ، حيث صناعة القطن ومنسوجاته ، هى الصناعة الأولى فى الوقت الحاضر .

الكرنك Karnak : قال شامبوليون « كل ما رأيته فى طيبة ، وكل ما أعجبت به بحماس على الشاطىء الأيسر للنيل ، بدا لى شيئاً تافهاً بالقياس إلى ذلك الإعجاب العملاق الذى استولى علىّ . فما من شعب قديم أو حديث قد فكّر فى الفن أو فى المعمار على مثل ذلك النطاق السامى والنطاق الواسع وبتلك العظمة التى فكّر بها قدماء المصريين . لقد فكروا بمعايير أناس طول الواحد منهم مائة قدم (حوالى ٣٠ متراً) » .

الكرنك دنيا يتوه فيها المرء تماماً . فلكى يرى النظام العام لكل تلك المبانى التى تذهل العقل ، يجب عليه أن يصعد إلى قمة أول صرح بُنى هناك (والحقيقة أنه آخر صرح بُنى بها) . ففى المقدمة الفناء العظيم للأثيوبيين ، وبوابة شاشانق Sheshanq ووراءه القاعة المسقوفه العظمى ، ذات الأعمدة ، التى بناها رمسيس ، ووراءها مسلة حتشبسوت ، والمعبد الجرانيتى ، وقاعة الأعياد لتحتمس الثالث ، وفى الأفق البعيد ، الباب الشرقى . وإلى اليمين (فى الجنوب) تقع البحيرة المقدسة وبقايا مقبرة أوزيريس ، وسلسلة الصروح الجنوبية ، ومعبد الإله الطفل خونسو Khons ، وأمامه صرح يورجيتيس Euergetes ومعبد أوبت

حياتهم فى الدولة القديمة ، بيد أنه لا يوجد لدينا أى دليل على أنها قُرِبت على حراسة القطعان . ولما كانت الكلاب ، كالفهود ، من الحيوانات آكلة اللحوم ، فقد استعملت فى الصيد وفى الحرب ولمساعدة الشرطة . وقد استخدم نوعان من الـ « تشسم » فى هذا الدور الأخير . وفى عصر الاضطراب الأول صُوِّر الجنود ومن بينهم أنتف Antef الثانى نفسه ، على لوحات مقابرهم ، تحيط بهم الكلاب كرفقاء أثناء الحرب . واشتهرت كلاب أنتف ذات الأسماء البربرية ، لأسباب لغوية غريبة ، فاسم أحدها « أبيقور » الذى يعنى فى اللغة البربرية « كلب صيد رمادى » هو أقدم دليل نعرفه على وجود اللغة البربرية آنذاك .

الكنوز : انظر : توت عنخ أمون . ويسوسينيس ، والذهب والفضة .

الكوم Kom : اسم أطلقه الفلاحون على المرتفعات المحتوية على بقايا المدن القديمة . وهو مأخوذ عن اللفظ الاغريقى Kome بمعنى « قرية » واستعمل فى العصور الهيلينيستية للمدن المصرية القومية . كما أنه لفظ آخر لـ « تل » ، وهى كلمة عربية أصيلة .

كوم امبو Kom Ombo : تقع كوم امبو على مسافة ٥٠ كم شمالى أسوان (على الضفة اليمنى لنهر النيل) ، وتضم جميع بقايا مدينة نوبت القديمة . ويعتبر معبدها اليونانى الرومانىّ من أجمل المعابد فى مصر . إنها خرائب جميلة على نفس حافة

الشاطىء ، وتلعين ببقالها إلى الرمال التى غطت أحجارها اللامعة الجميلة ، لزمن طويل . وهناك ظاهرة غريبة للمعبد ، وهى أنه بناء مزدوج ومكرس لعبادة إلهين ، وهما سوبك ، التمساح وحِرْوِر (حورس الكبير) Haroeris ذو رأس الصقر . تضمنت هذه العبادة المزدوجة فى داخل المعبد (الشبيهة بنظام العبادات المعاصرة فى الآثار المعاصرة الأخرى) ، ازدواج المعبد نفسه وازدواج جميع الأبواب والممرات المؤدية إليه من الخارج . وفى بعض الأحيان يمكن رؤية مبان أخرى بجوار ذلك المعبد ، منها بيت الولادة الذى هدّ النيل نصفه ، ومعبد صغير للربة حتحور ، ونظام مائى بديع يتكون من آبار وسلالم وحوض للماء الزائد ، وكثير من المبانى المتهدمة الأخرى .

الكهنة Priests : كما أن المعبد المصرى لا يشترك فى شىء مع ما كان يسميه الاغريق أو اناس هذا العصر معبداً ، كذلك المصطلح «كاهن» الذى ننسبه إلى شتى الألقاب المصرية الدالة على الموظفين القائمين على خدمة المعبد ، لا يتفق واللقب الحالى فى شىء أيضاً . لم تتألف من كهنة قدماء المصريين طائفة قائمة بمفردها ، ولم يكونوا وُعّاظاً ، ولم تكن لهم «أبروشيات» يرشدون أهلها ، بل كانوا «خدم الإله» ، وليسوا مرشدين روحيين للشعب .

كان الإله موجوداً فى معبده إبان النهار ، يسكن فى تمثاله . كان كائناً ماديًّا حيًّا ، يمكن أن يمسه الأذى كالبشر ، ويشترك مع الإنسان فى نفس رغباته . فكان واجب الكاهن المحافظة على ذلك التمثال وعلى ساكنه الكلىّ القدرة ، على أتم وجه من العناية ، كما كان من واجبه أن يُلبس التمثال ثيابه ، والمحافظة عليه من جميع الأضرار الخارجية التى قد تُنقص من صلاحيته للعمل على الأرض .

كانت المعابد فى جميع المجتمعات المدنية والريفية المصرية ، مبان ضمنتْ ، بإقامة الطقوس الدينية وبوجودها ، استمرار المحافظة على الخليقة وذلك التوازن العالمى الذى حُصل عليه فى اليوم الأول من خلق العالم ، والذى بفضله تحتفظ كل حياة بكيانها ، وبغيره يعود كل شىء إلى فوضى . فكان الكهنة ، فى الحقيقة ، «موظفين» فى هذه المنظمات التى لم يمكن الاستغناء عنها فى الحياة الأرضية .

كانت المحافظة على الكون ، فى الأصل ؟ من واجبات رئيس القبيلة ، الذى كان ساحراً وقائداً فى الحرب . بقيت هذه المهمة فى مصر المتحدة ، ميزة ملكية ، من الوجهة النظرية . فقام الكهنة بواجباتهم فى مختلف المعابد بجميع أنحاء مصر كنواب موفدين من قبل الملك ، وكان الملك نفسه ، وليس مبعوثوه الكهنة ، هو المصور على جدران المعبد يقوم بالاحتفال بالطقوس الدينية أمام الآلهة (انظر فرعون) .

كان المعبد المحرَّم على الجماهير «كبيت الإله» مكان الطهارة . ولم يكن لدى الكهنة أى التزام هام أكثر من المحافظة على تلك الطهارة . فماذا كان معناها ؟ أولاً ، كان على الكاهن «أن يغتسل مرتين فى كل يوم ، ومرتين أثناء الليل» (هيرودوت) . هذا هو الشرط الأساسى لقبول أى مصرى

فى المعبد . وزيادة على ذلك ، كان على الكاهن أن يحلق شعره تماماً ، ويجب أن يُختتن ، الأمر الذى لم يلتزم به العوام . كذلك كان لزاماً عليه الكف عن الاتصال الجنسى أثناء مدة خدمته فى المعبد ؛ وينبغى له ألاّ يُحلِّل أى تحريم دينى لإله مدينته (تحريم بعض الأطعمة أو الأفعال) ، ويجب ألا يلبس غير الثياب المصنوعة من التيل الرفيع ، وألاّ يرتدى أى صوف أو جلد أُخذ من حيوان حىّ . كُررت قواعد الطهارة هذه ، باستمرار ، فى النصوص الدينية ؛ ويبدو أنها كانت الشروط الوحيدة التى يتحتم أن يتبعها أى رجل (نظريا على الأقل) يرغب فى ممارسة الخدمة الكهنوتية بالمعبد . كذلك كان لزاماً عليه أن يتعلم العلوم اللاهوتية للقيام بواجباته ؛ بيد أن النصوص لم تذكر هذا الأمر .

رسمت مثل تلك الزخارف على الصخور ، بيد ساكنى ضفاف نهر النيل ، أو بيد سكان الجبال . ومع ذلك ، فبمرور الزمن ، قلّ رسم الفيل والخرتيت والزرافة فى فن الصخور هذا . فقد قلّ هطول الأمطار فى هذا الموضع أو ذاك ، وحلّت السهول غير المزروعة محل السافانا ، فظلت على حالها فى بعض الأماكن ، وتحولت إلى صحارى فى جهات أخرى . استمر الجفاف غير المنتظم فى المناطق الصحراوية والمناطق السوريه العربية ، يسير ببطء خلال العصر الحجرى الحديث . وبلغت هذه العملية ذروتها إبان الألف سنة الرابعة ، ونتج عنها حصر مجرى النيل المنخفض بين المرتفعات المقفرة والتلال العارية . وظلت المجتمعات غير المتنقلة ، مدة طويلة ، فى رغد من العيش بعيداً عن النهر ، على حافة الأودية . ومع ذلك ، فبما أنهم لم يهاجروا فى الوقت المناسب إلى الواحات الليبية أو إلى وادى النيل ، تحتم عليهم أن يعيشوا هم وحيواناتهم الهزيلة على الأرض الآخذة فى الجفاف المتزايد شيئاً فشيئاً . أولئك هم الليبيون ، والعرب البدو ، والقبائل المقيمة فى الأجزاء الصخرية من بلاد النوبة . وكانوا جميعاً من نفس أصل وثقافة المصريين البدائيين ، ولكنهم صاروا « برابرة » متأخرين . أما سكان النهر فعلى نقيض هؤلاء ، كانوا بالغى القوة وتنفث عليهم الكثير من الشعوب المجاورة أرضهم الخصبة . تلك الأرض السوداء التى خلقت مجتمعاً له مقوماته وكانت له حضارة وضعته ، كحضارة السومريين ، فى مقدمة التقدم الفنى والثقافى لذلك العصر . وفى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. ، يبدو أن حضارة المصريين نضجت فجأة فى هيكل تلك الدولة الفرعونية النامية ، وتقدمت بسرعة (فى العصر المسمى عصر « فجر التاريخ ») . فنشأت المبانى المصنوعة من الآجر . ونقشت على لوحات من الحجر المعرّق ، وقطع العاج ، مناظر المعارك والصيد ، نقشاً بارزاً جيلاً . نشأ الطراز المصرى وتهذّب ، واخيراً تبلور . ومن الأمثلة الشهيره لهذا الفن مقمعة الملك العقرب ، ولوحة نعرمر Narmer . خُلِّد على هذه الآثار ، التى تحمل أول نقوش هيروغليفية عُرفت ، غزو سكان الجنوب للدلتا ، وإعادة اتحاد الوجهين التى تحدد بداية العصر الثنى (انظر كذلك مينا والأصول) .

وكان من أعز أمنياتهم أن يروا « الابن يمتهن مهنة أبيه » . وكانت الخدمة الكهنوتية وراثية غالباً بين أفراد تلك الطائفة . وتذكر النصوص عدة أمثلة « لأسرات » حقيقية من الكهنة . غير أنه كان بوسع المرء أن يصير كاهناً بالتزكية دون أن يكون من أسرة الكهنة ، إما بشراء ذلك المنصب أو بالتعيين فيه من قبل الملك . وبهذه الطريقة الأخيرة يستطيع الملك أن يحدّ من سطوة الكهنة الخطرة فى بعض الأحيان .

أى رجال عُيِّنوا فى خدمة الآلهة ؟ يمكن تقسيمهم إلى عدة أقسام . أولاً ، الإداريون الذين كانوا كثيرين فى المعابد الهامة ، وباشروا جميع الأمور الاقتصادية للمعابد : إدارة أراضى الإله ، مراقبة جمع الدخل ، والتوريدات اللازمة للمذابح وللكهنة (الذين كانوا يعيشون من التقدمات الموضوعة فوق المذابح) ، والمفاوضات مع المعابد الأخرى ومع الإدارة الملكية . بعد ذلك ، تأتى طبقة الكهنة الراقية ، « خدم الإله » ، الذين أطلق عليهم الإغريق لقب « أنبياء » ، وكانوا يقَسَّمون أحياناً إلى أربعة أقسام متعاقبة :

« الكاهن الأول » ، وكان أهم عضو فى طائفة الكهنة ، وكثيراً ما قام بدور فعال فى السياسة . وفى بعض الأحيان كان « الكاهن الأول » لأمون ينتحل لنفسه مركز الملك وهيبته (انظر الملوك الكهنة) .

وتتكون الطبقة الأقل من السابقة من الكهنة « الصغار » ، الذين أطلق عليهم فى النصوص المصطلح العام « المطهَّرون » . ويمكن استدعاء هؤلاء فى المعابد الفقيرة ذات العدد المحدود من الموظفين ، للقيام بالطقوس الدينية . اما فى المعابد العظمى فيقومون بأعمال أقل من هذه ، وغالباً ما كانوا مجرد خدم بالمعبد .

ومن طائفة الكهنة القريبى الاتصال بالمعابد ، الأخصائيون ، وكانوا عادة كتبة يعيشون فى بيت الحياة . فكانوا ينسخون الأدب المقدس ، وكانوا يتلونه أحياناً بصوت عالٍ فى الاحتفالات الهامة بنوع خاص . وكان بوسعهم ، إذا ما دعاهم الملك ، أن يمثلوا الكهنة فى المعبد الذى يحدده لهم . ويجب أن نذكر من بين أولئك الإخصائيين « كتبة بيت الحياة » ، و « الحكماء » ، و « الكهنة المرتلين » ، و « مراقبى الساعة » (أى الكهنة الفلكيون الذين يقررون مواعيد القيام بالاحتفالات) ، والكهنة المنجمين الماهرين فى علم التقاويم ، والذين كانوا يعرفون أيام السعد وأيام النحس من السنة (انظر التنجيم) .

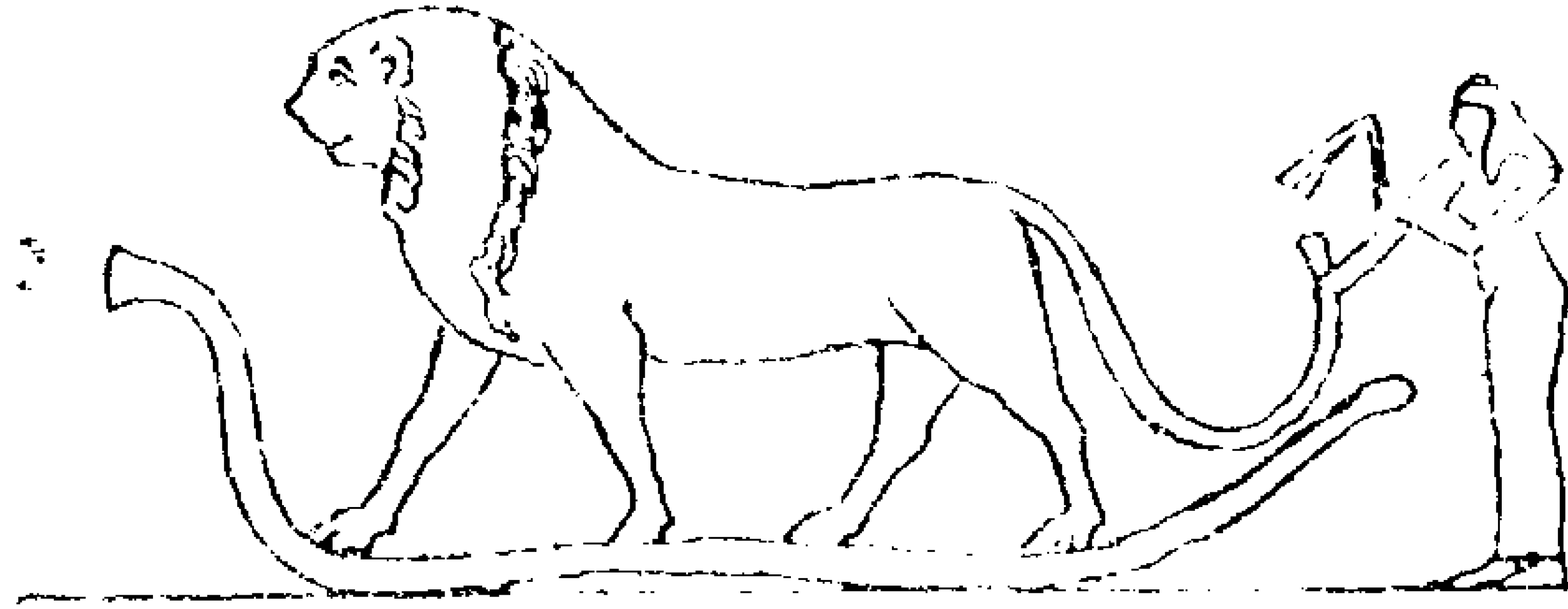
كان أولئك الإخصائيون أقل اتصالا بالمعبد من بقية طائفة الكهنة . فكانوا يستطيعون القيام بوظائف أخرى كالقيام بالطقوس الجنائزية فى المقابر . كما كان بوسعهم العمل كسحرة ومشعوذين للتعزيم على العفاريت فى القرى ، وفى أحوال نادرة كانوا يقومون بالتطبيب .

ومن بين موظفى المعابد ، الموسيقيون وعازفو القيثارة والناى ونافخو البوق ، إذ يحتاج إليهم فى بعض الاحتفالات المقدسة . ولكن ، رغم دخولهم فى هيئة

« موظفى المعبد » ، فمن الجلى أنهم كانو، مساعدين ليست لهم وظائف دينية .

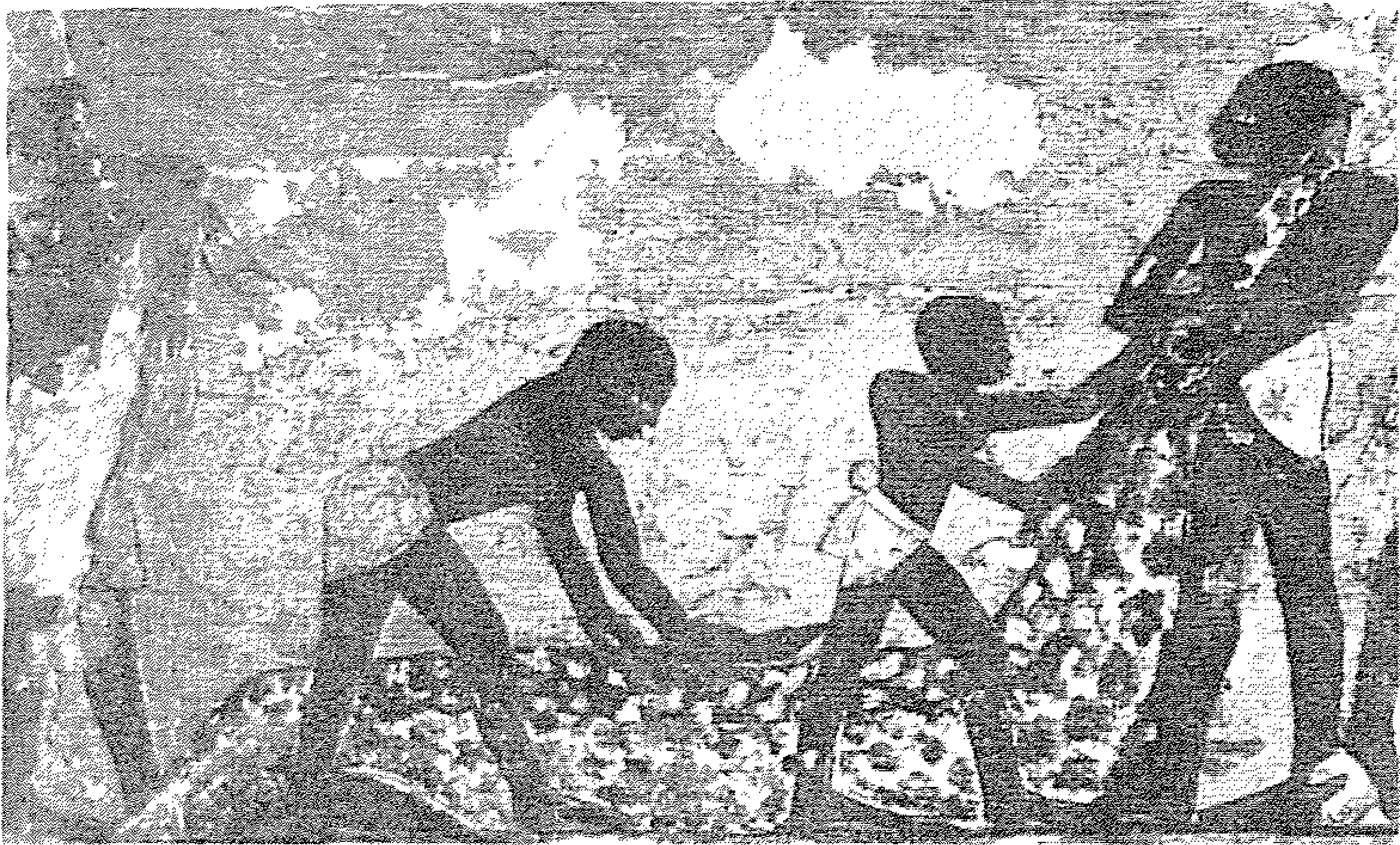
لا يقوم نفس الأشخاص بالطقوس الدينية طوال السنة . فكل طائفة من الكهنة كانت مقسمة إلى أربعة أقسام ، كل قسم مكون من أشخاص مماثلين لغيرهم فى الأقسام الثلاثة الأخرى ، يتناوبون العمل فى المعبد وإدارة ممتلكاته . يقوم كل قسم بذلك مدة شهر ، ويتركه مدة ثلاثة أشهر ، وعندئذ يعود أفراده إلى قراهم فيزاولون -بياتهم كأفراد عاديين

هل يؤثر عدم وجود فارق كبير بين الموظفين الدينيين والدنيويين على الحياة الخلقيه لـ « خدم الإله » ؟ . تحتوى النصوص على عدة فقرات تؤكد الأخلاق البالغة السمو التى يجب أن يتخلق بها هؤلاء الذين ساعدهم الحظ فى خدمة الإله فى هيكله . ولو وجد ، فى بعض الحالات النادرة ، ما يشين بين هيئة الكهنة ، فإن هناك كثيراً من الكهنة المدركين لقيمة واجباتهم ، فاهتموا بالسلوك تبعاً للمثل الخلقية السامية التى تتطلبها تلك الثقة .



معجم الحضارة المصرية القديمة

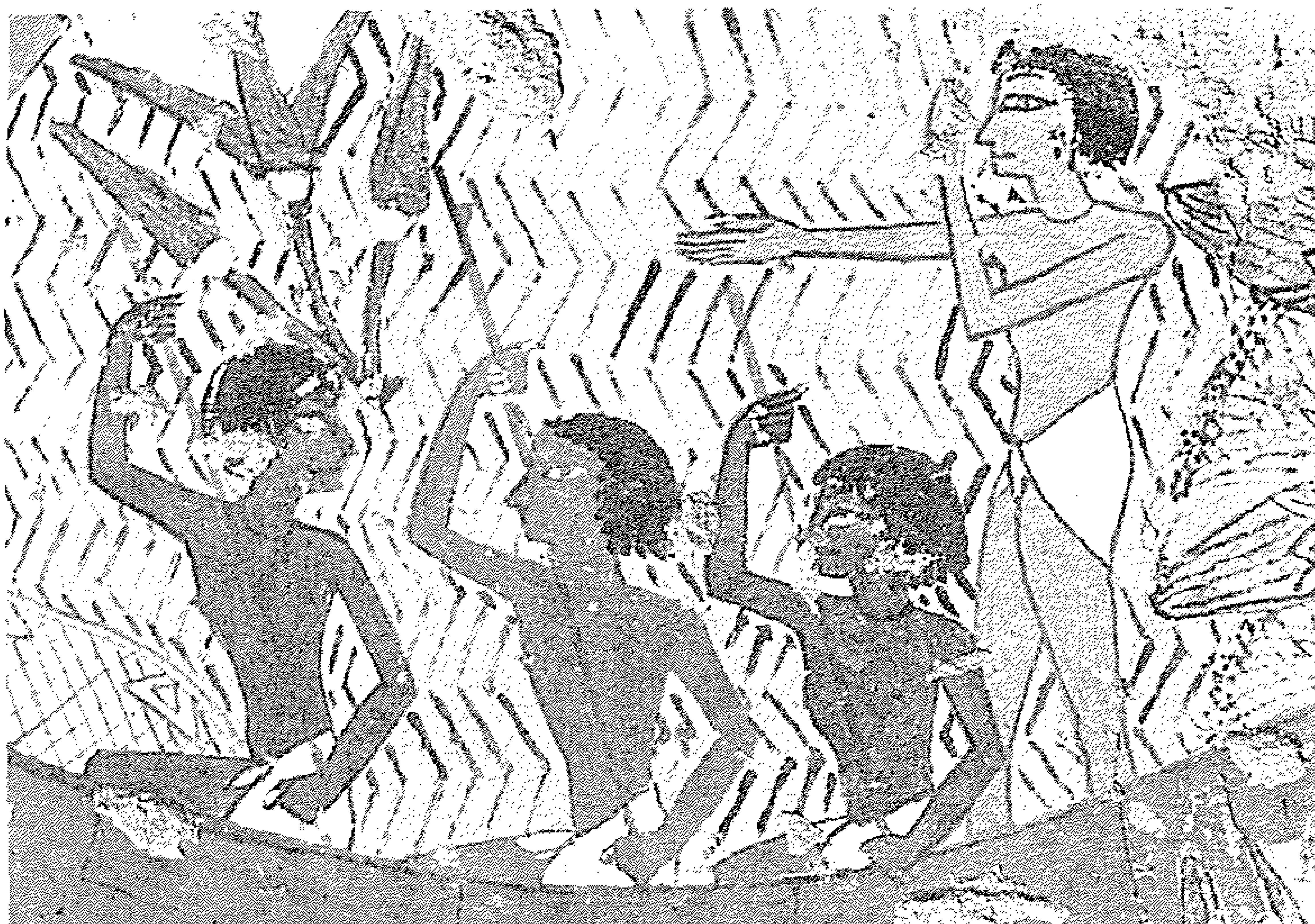


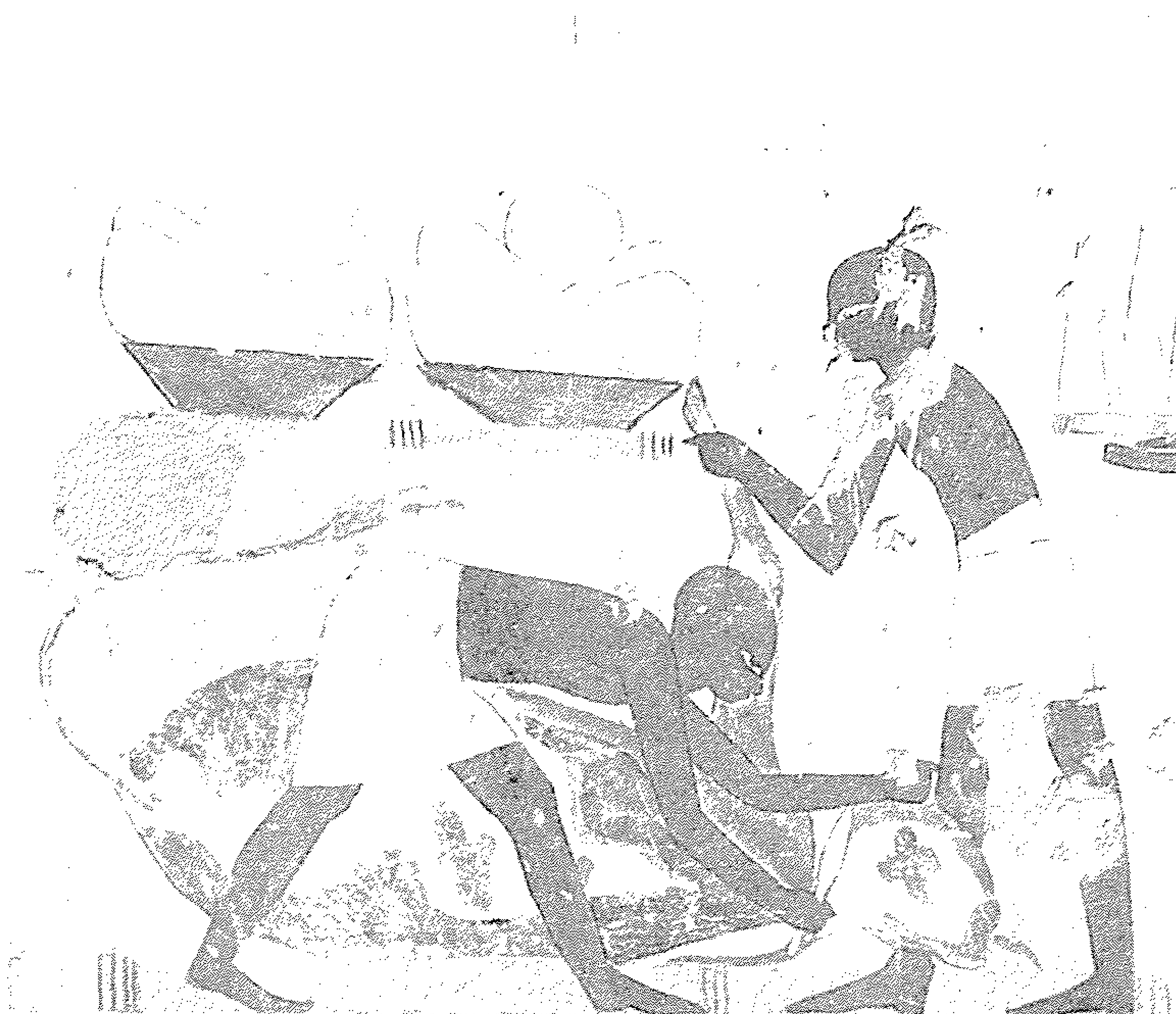


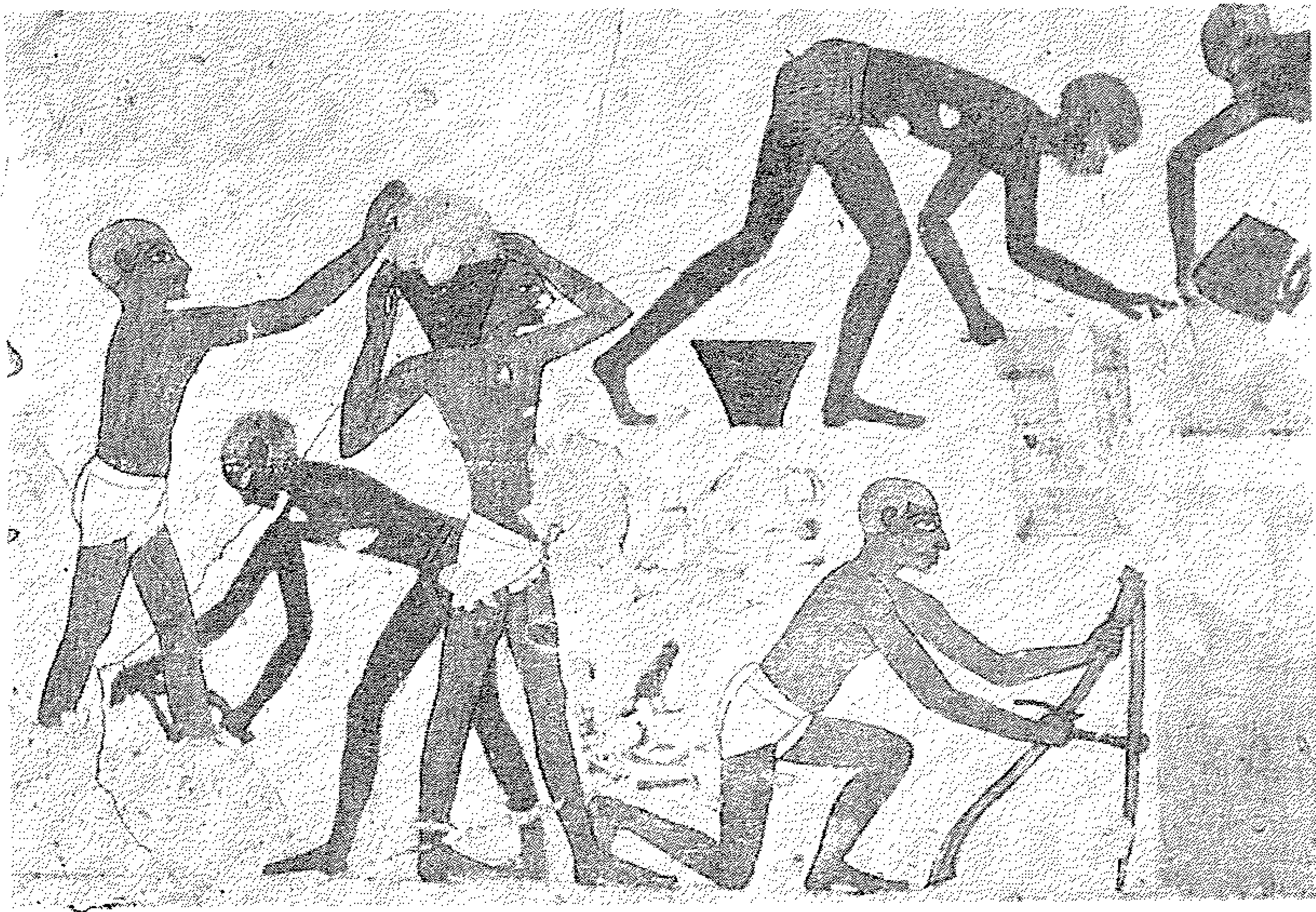


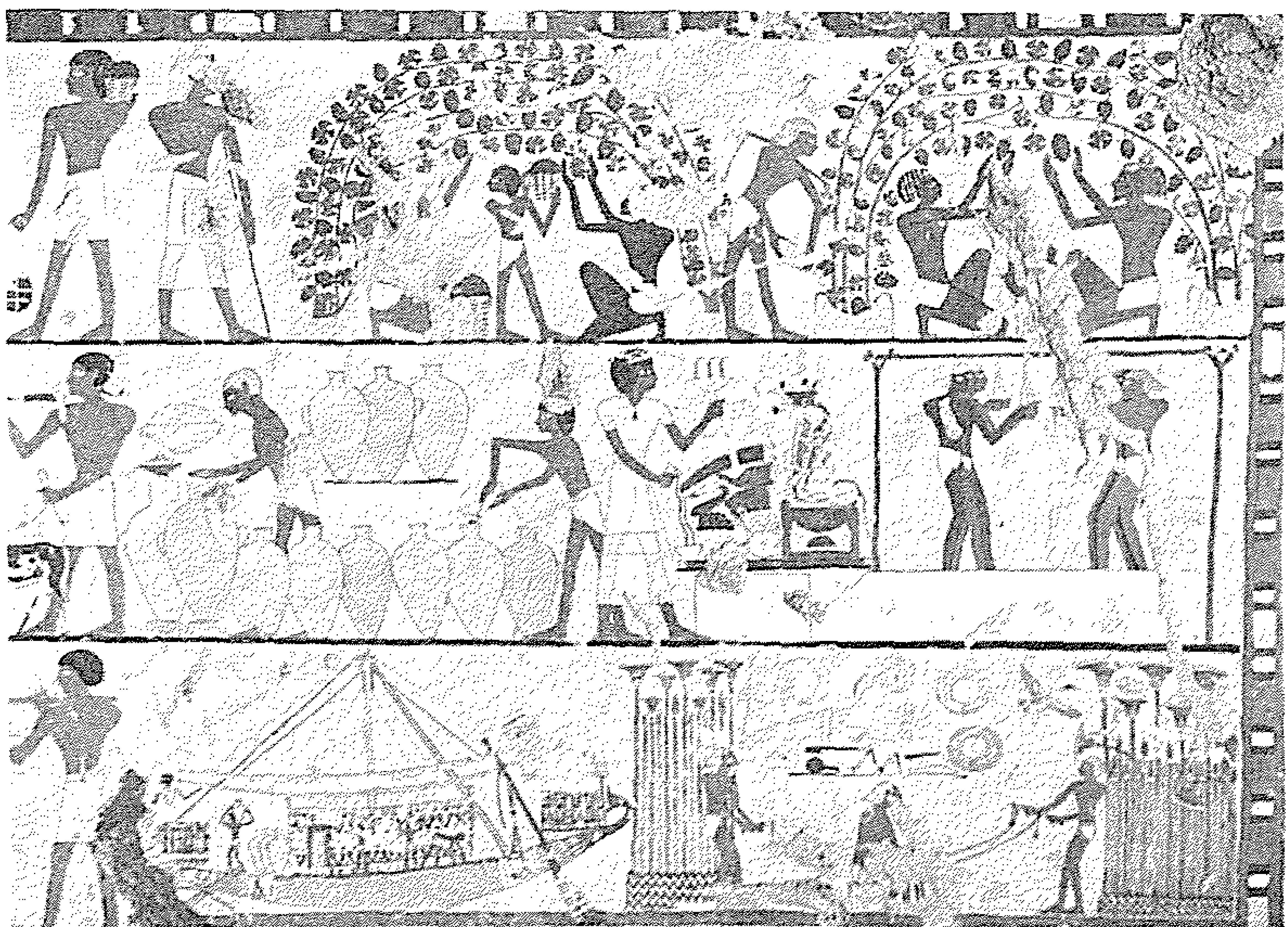


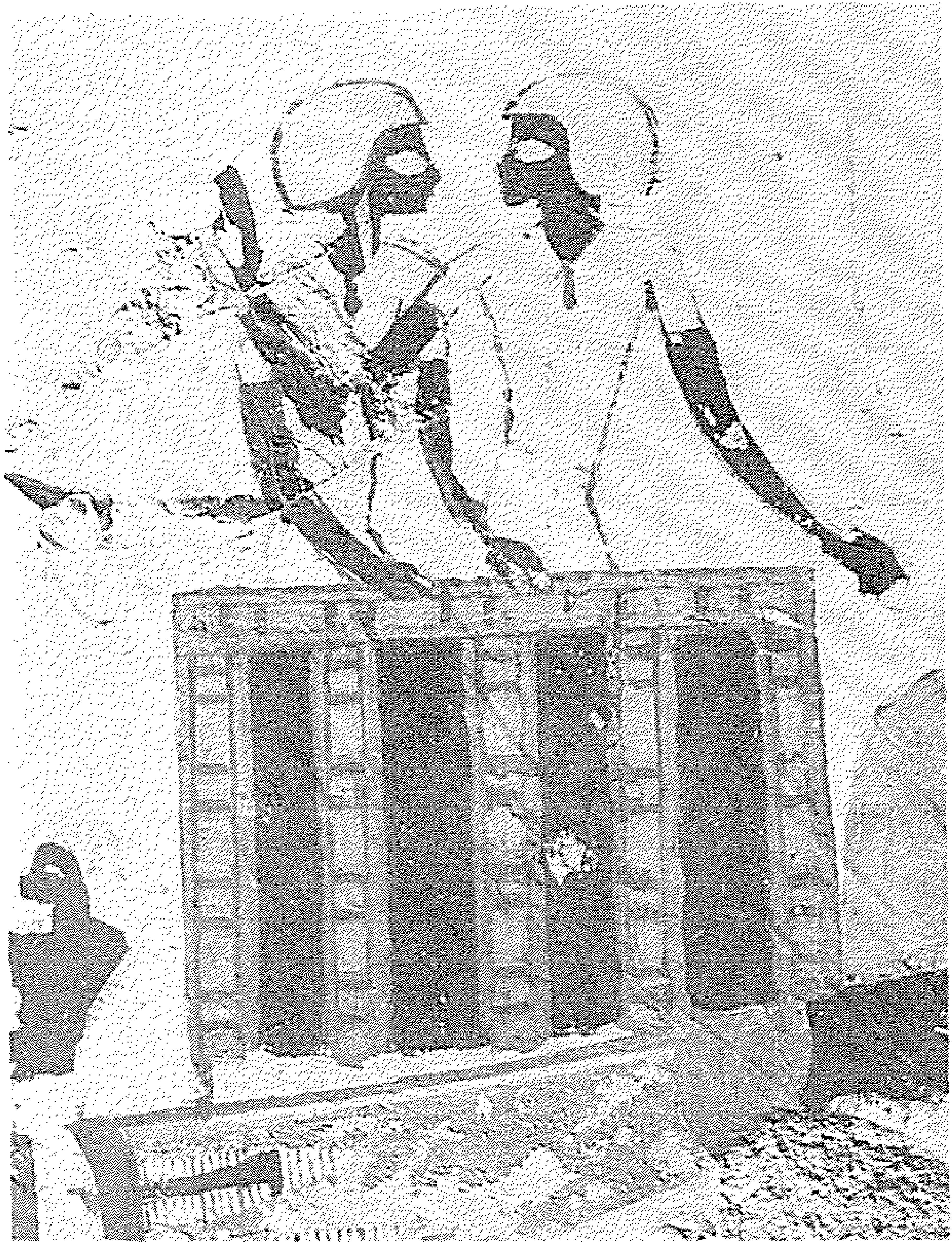






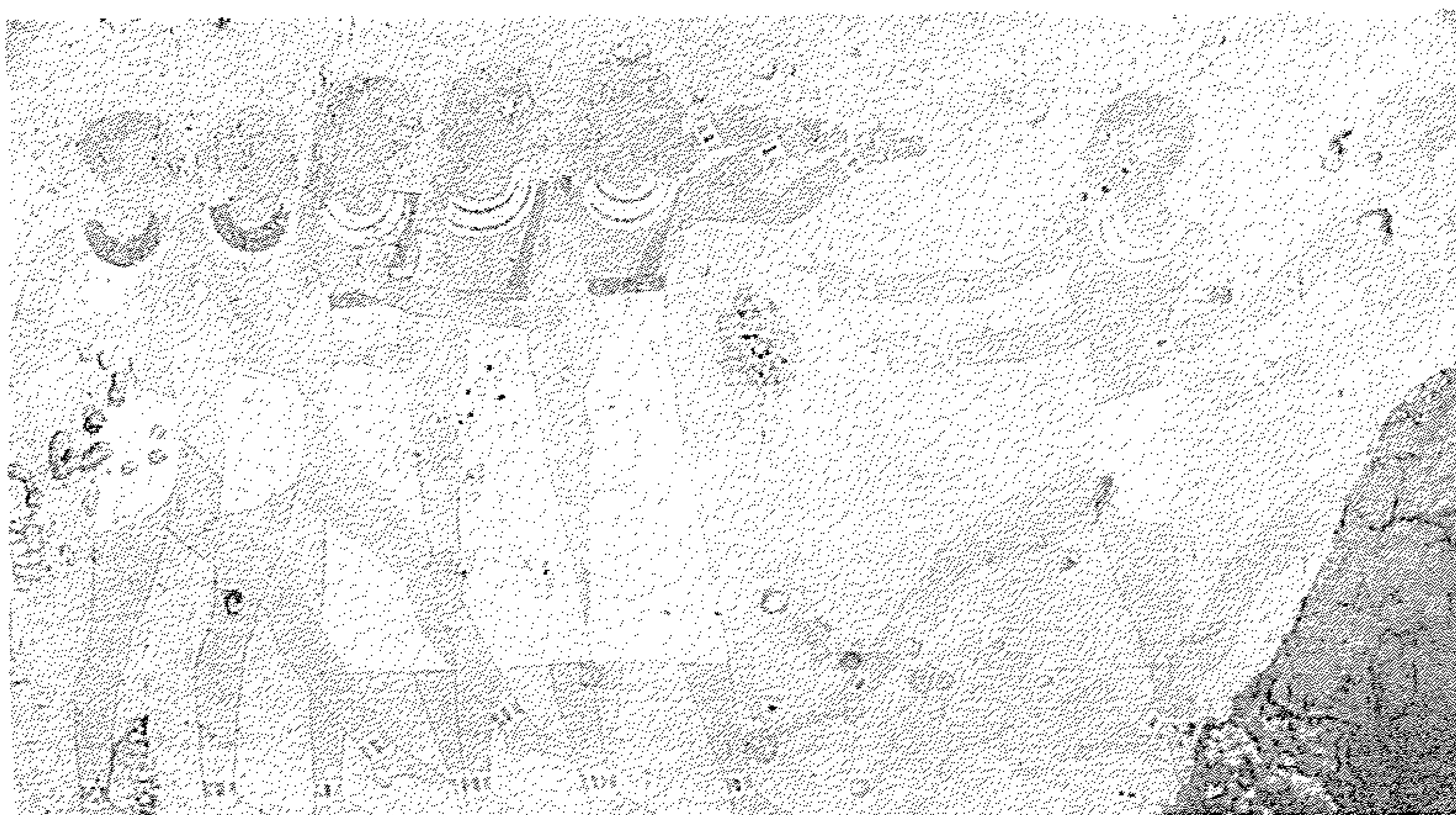


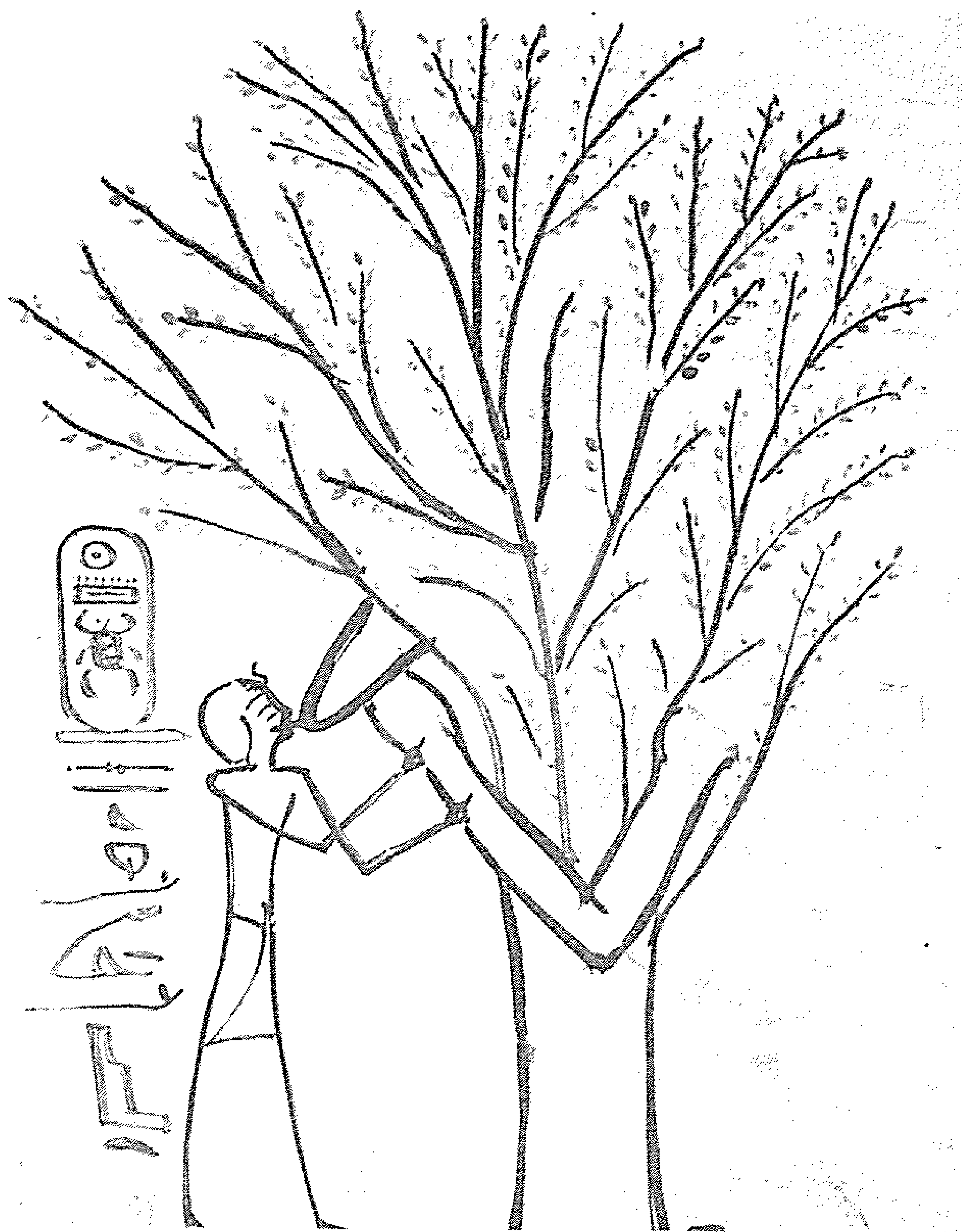


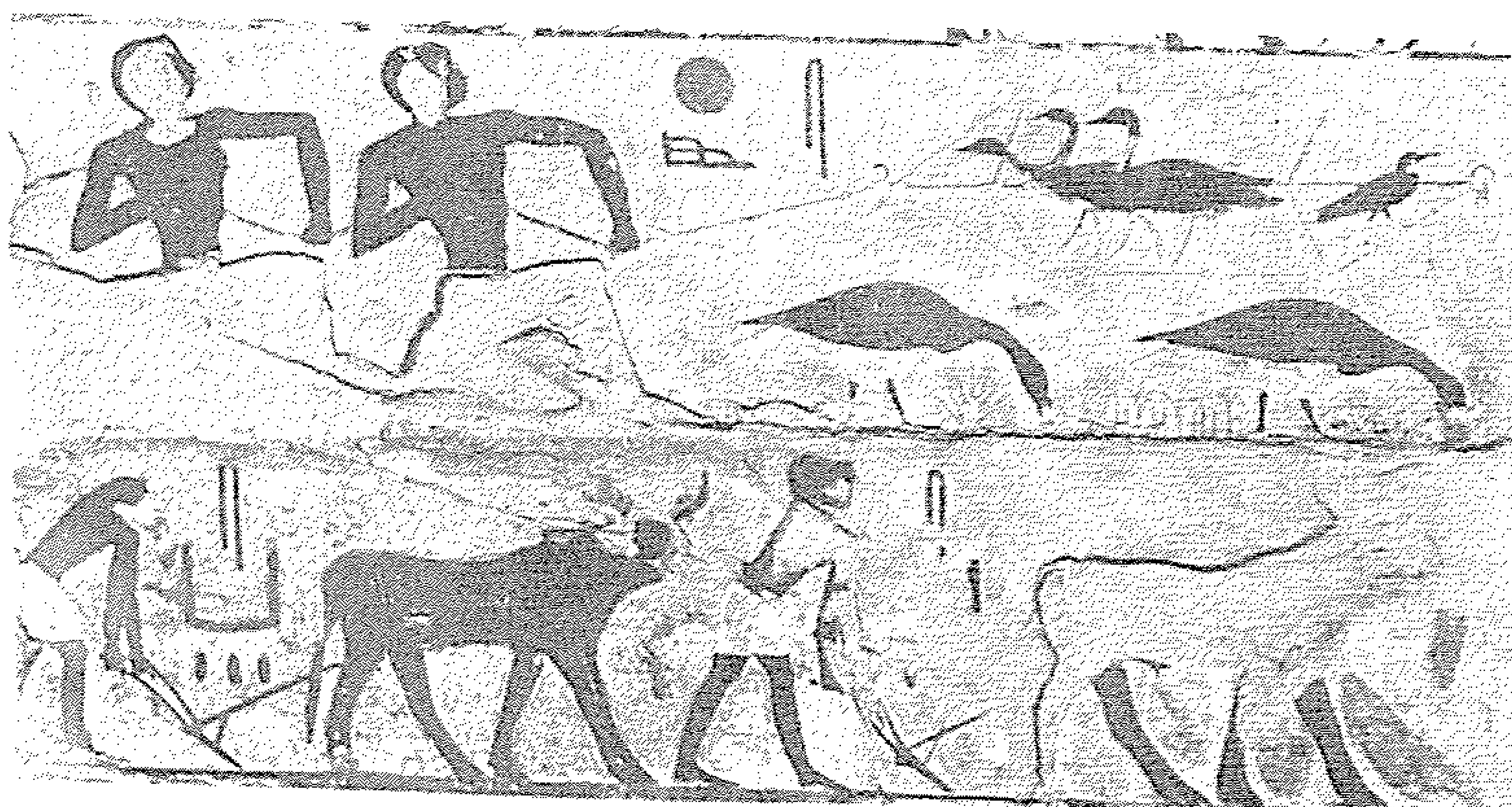


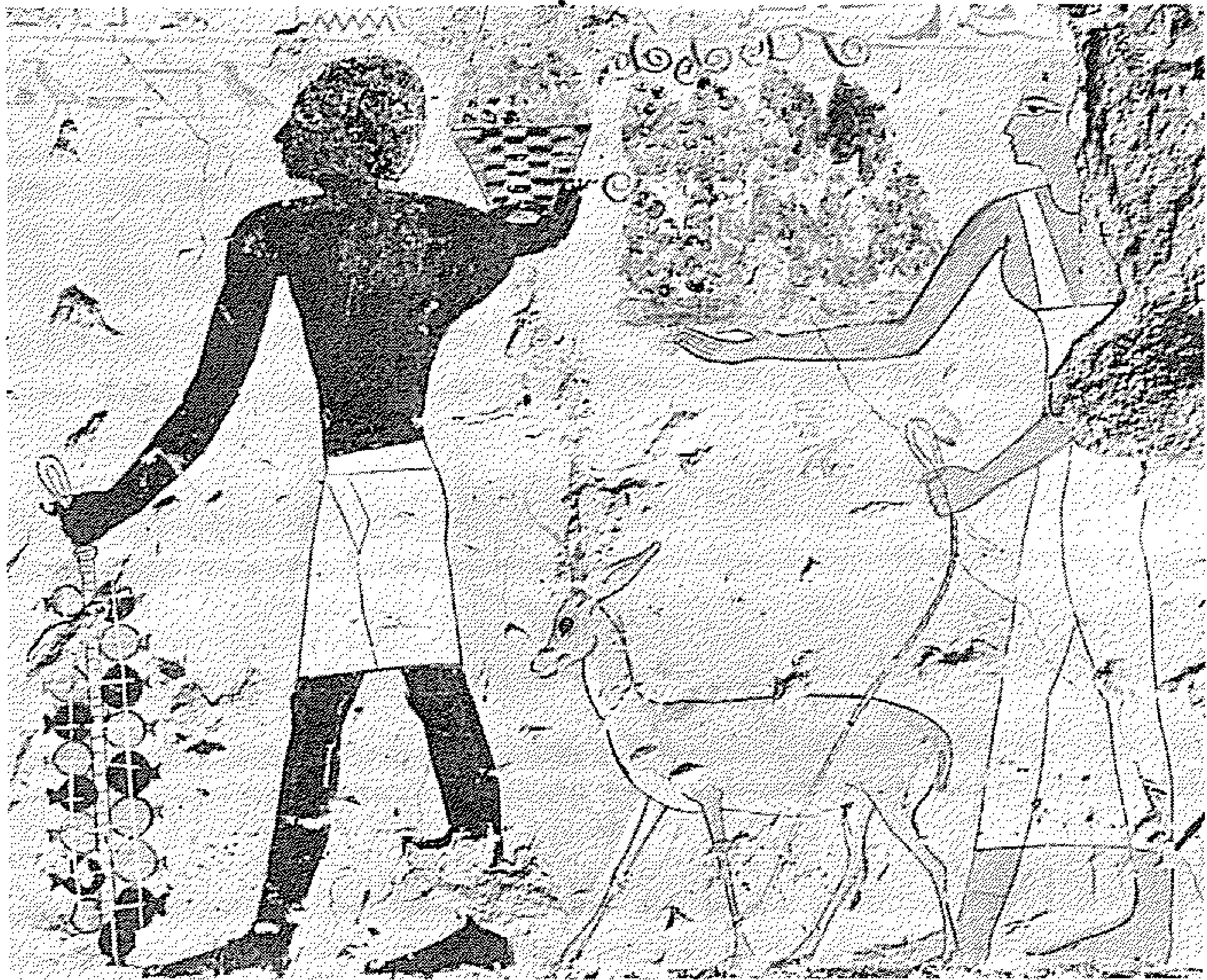






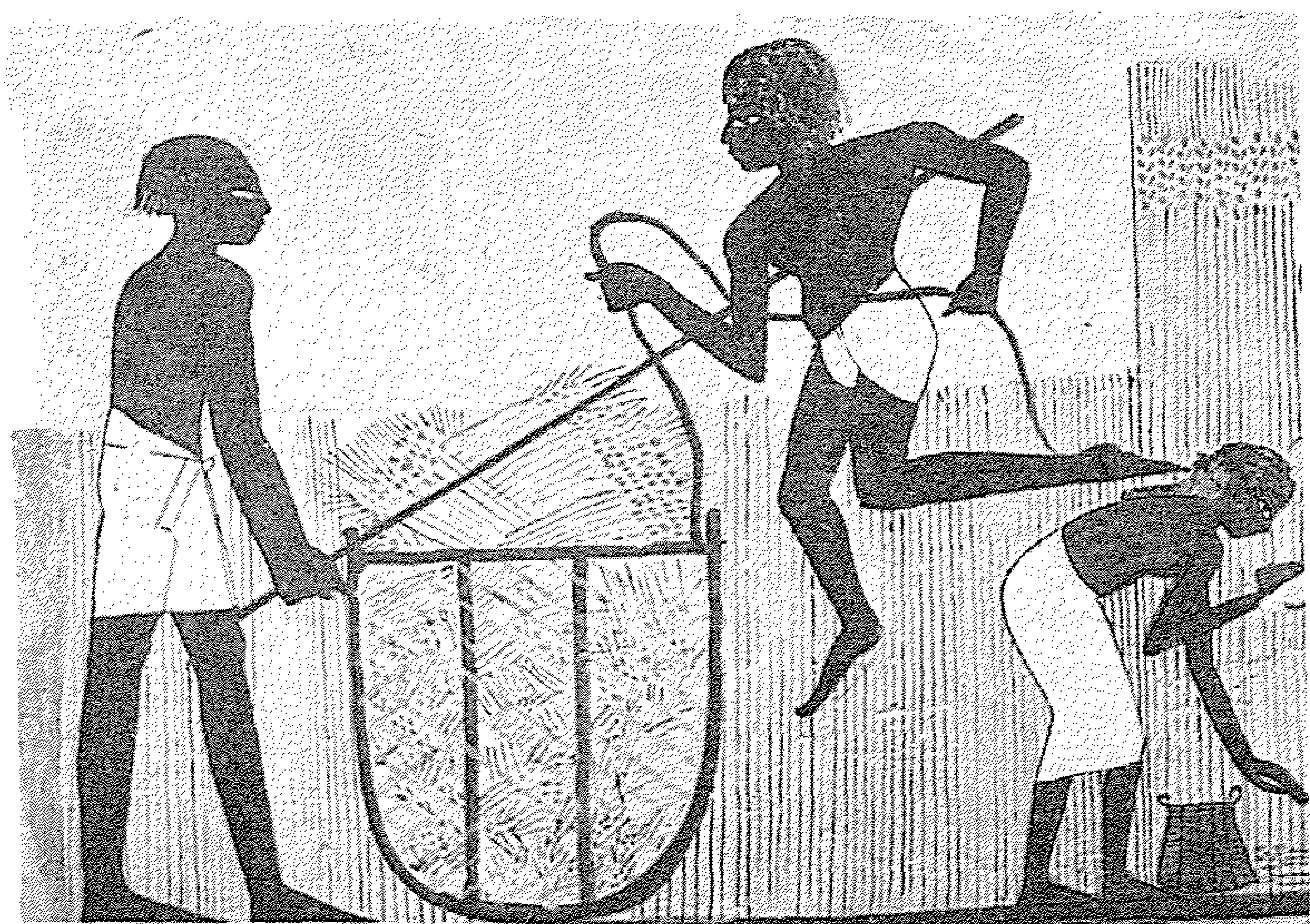






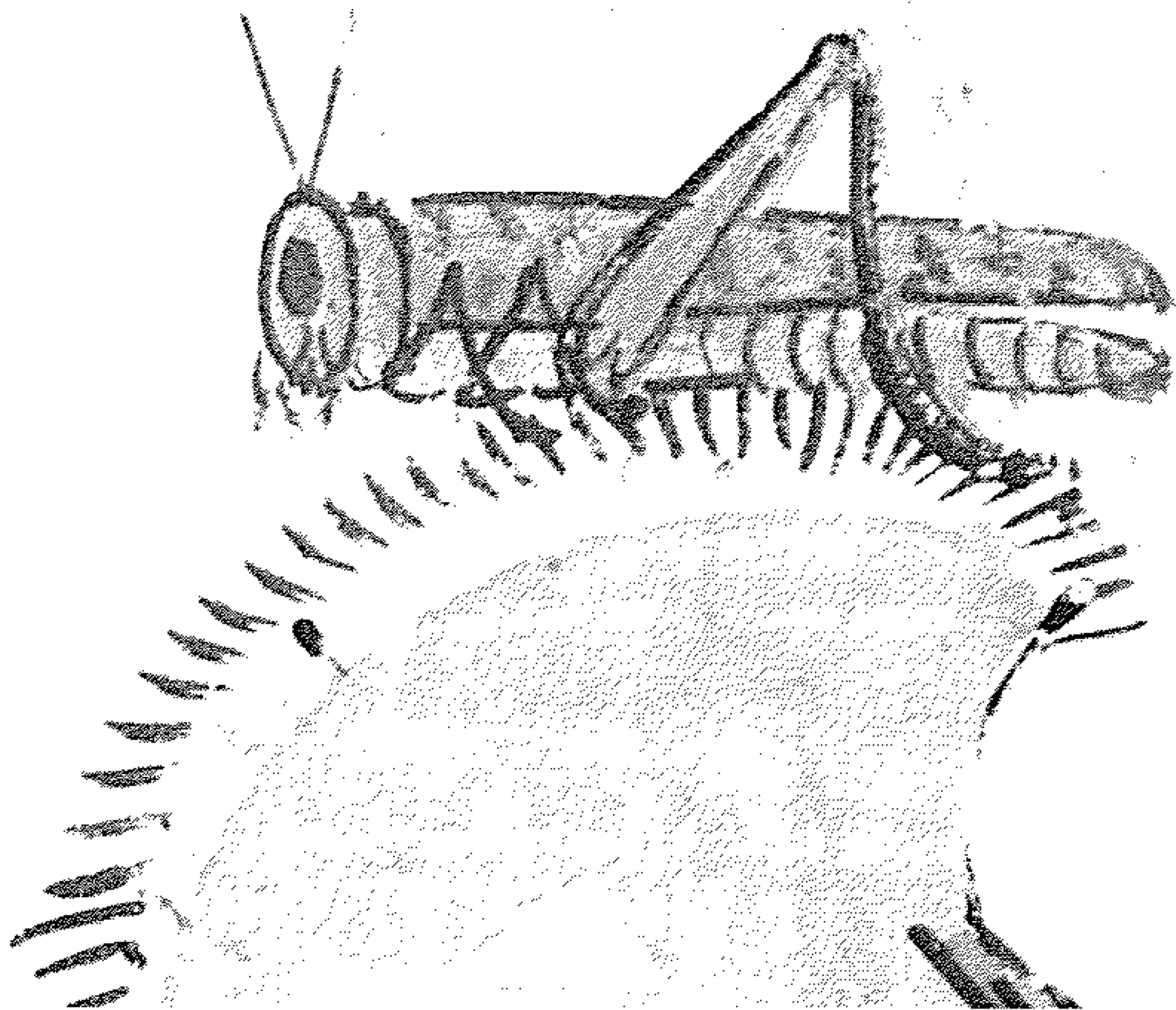


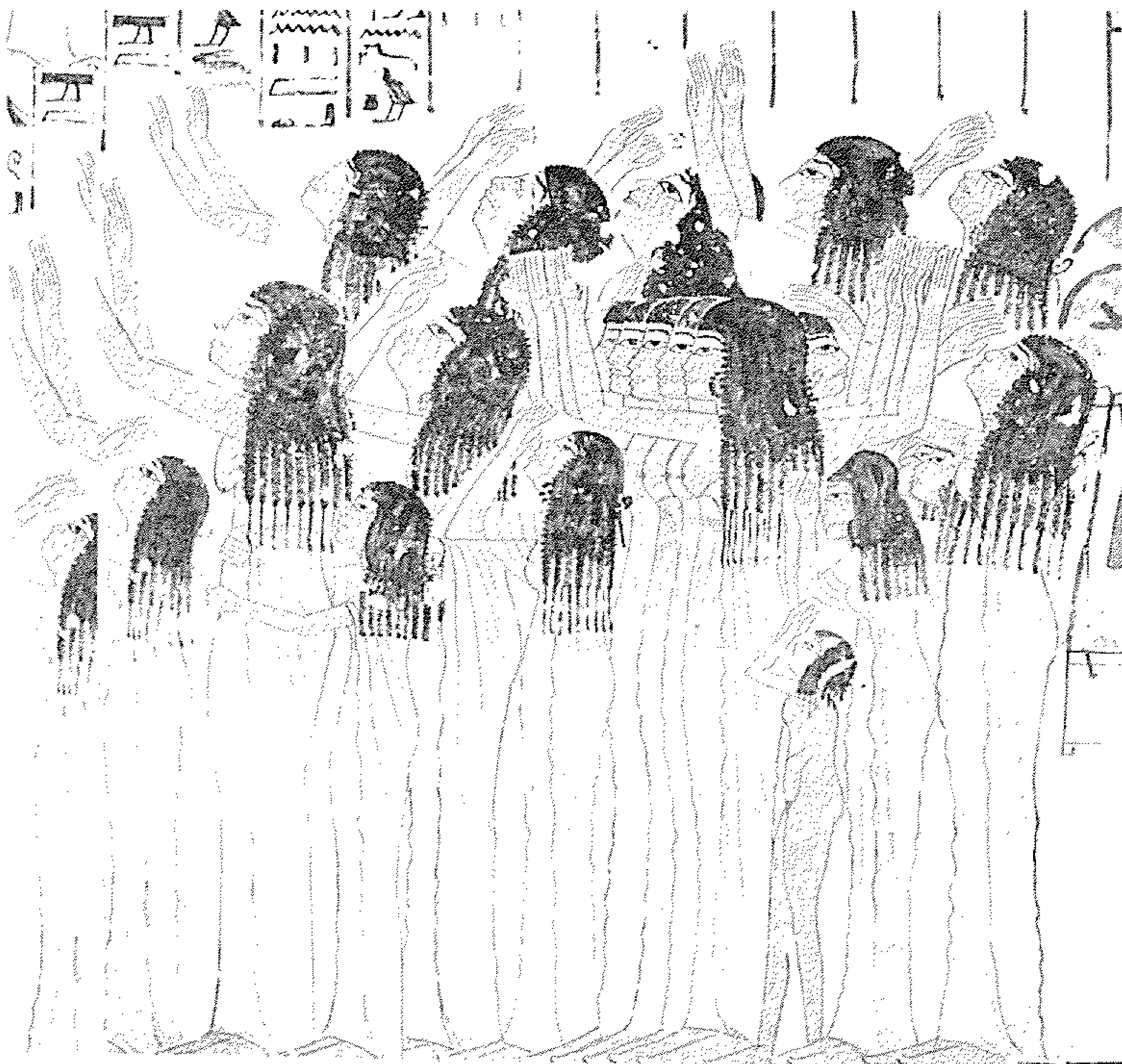


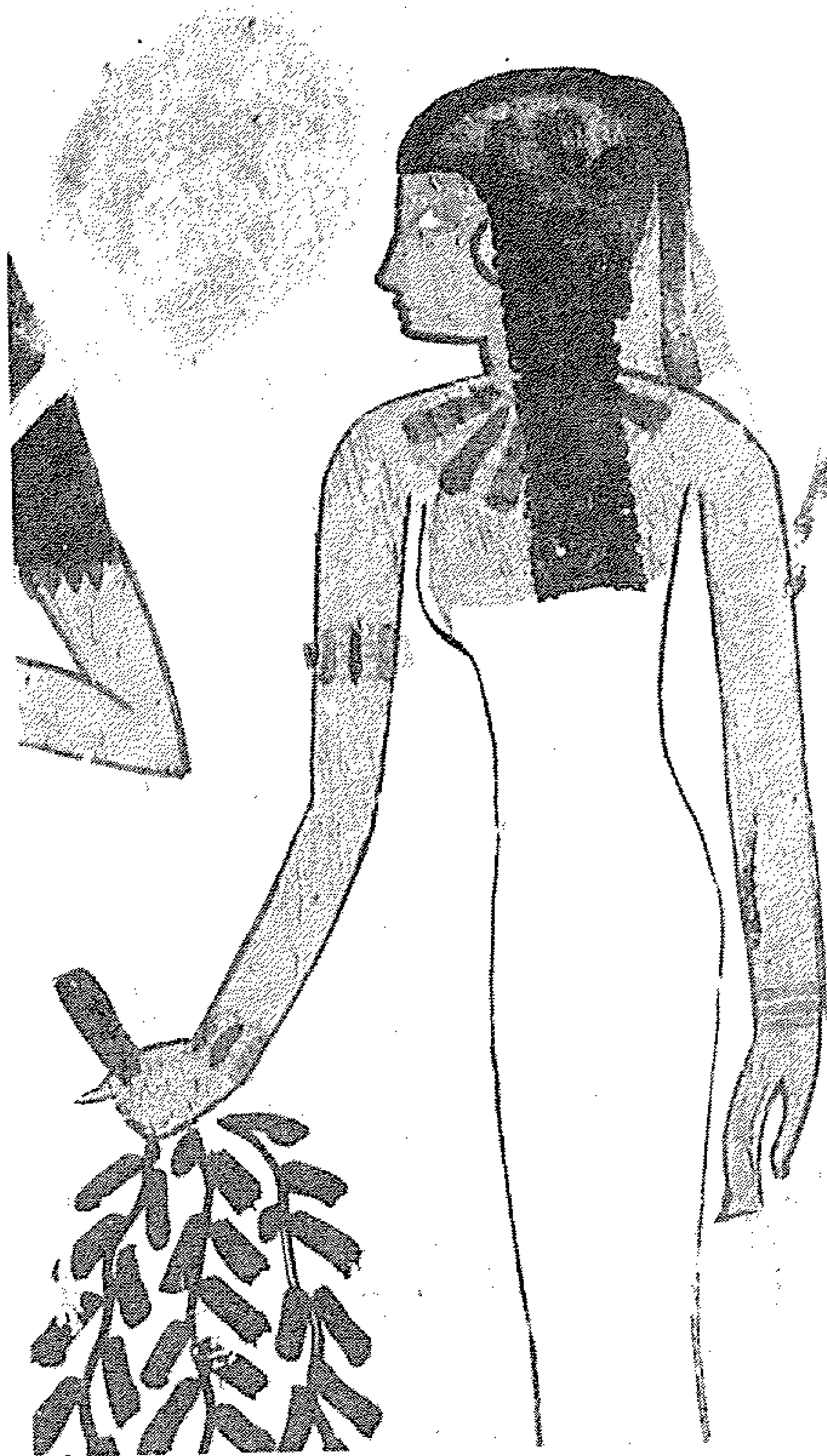


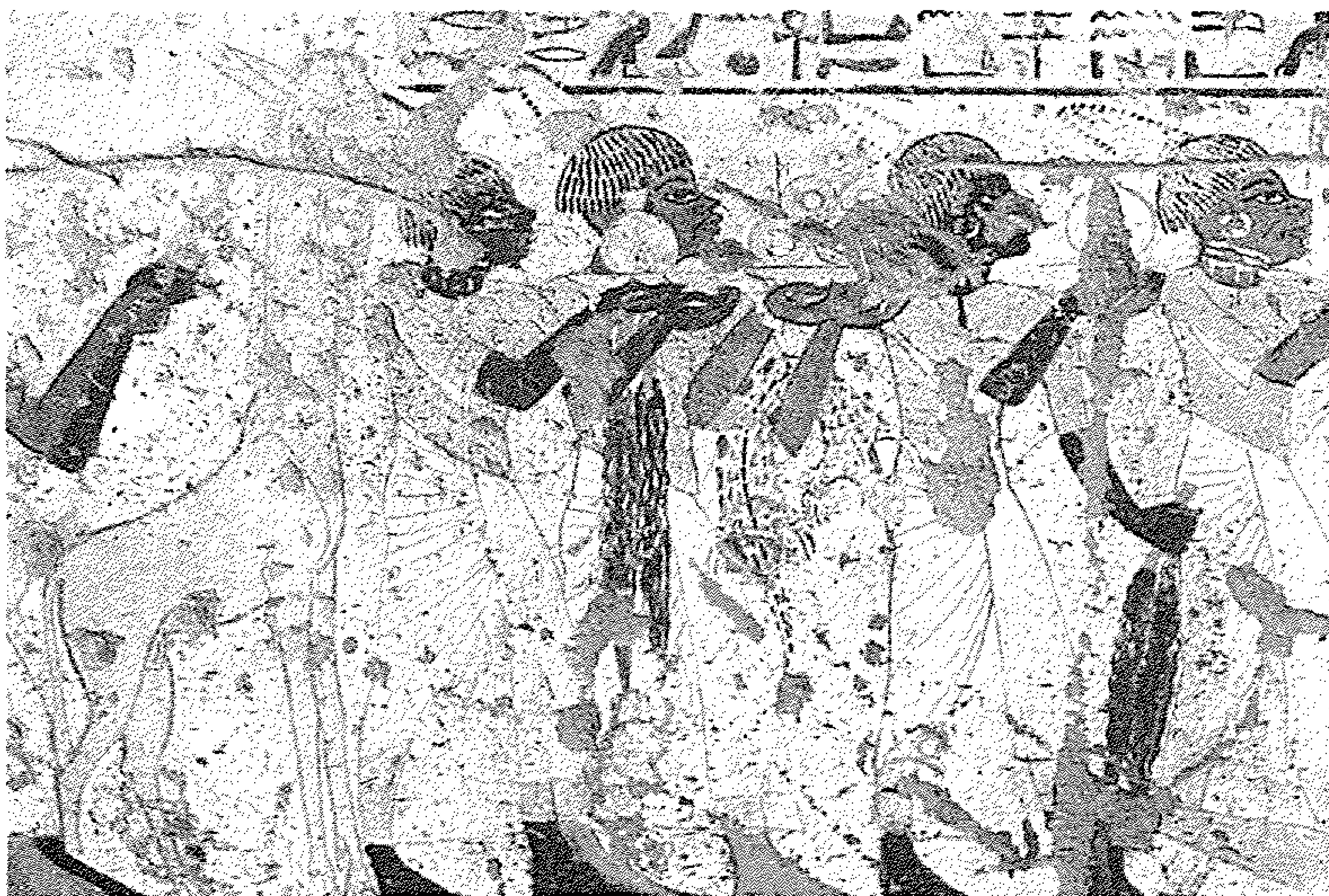




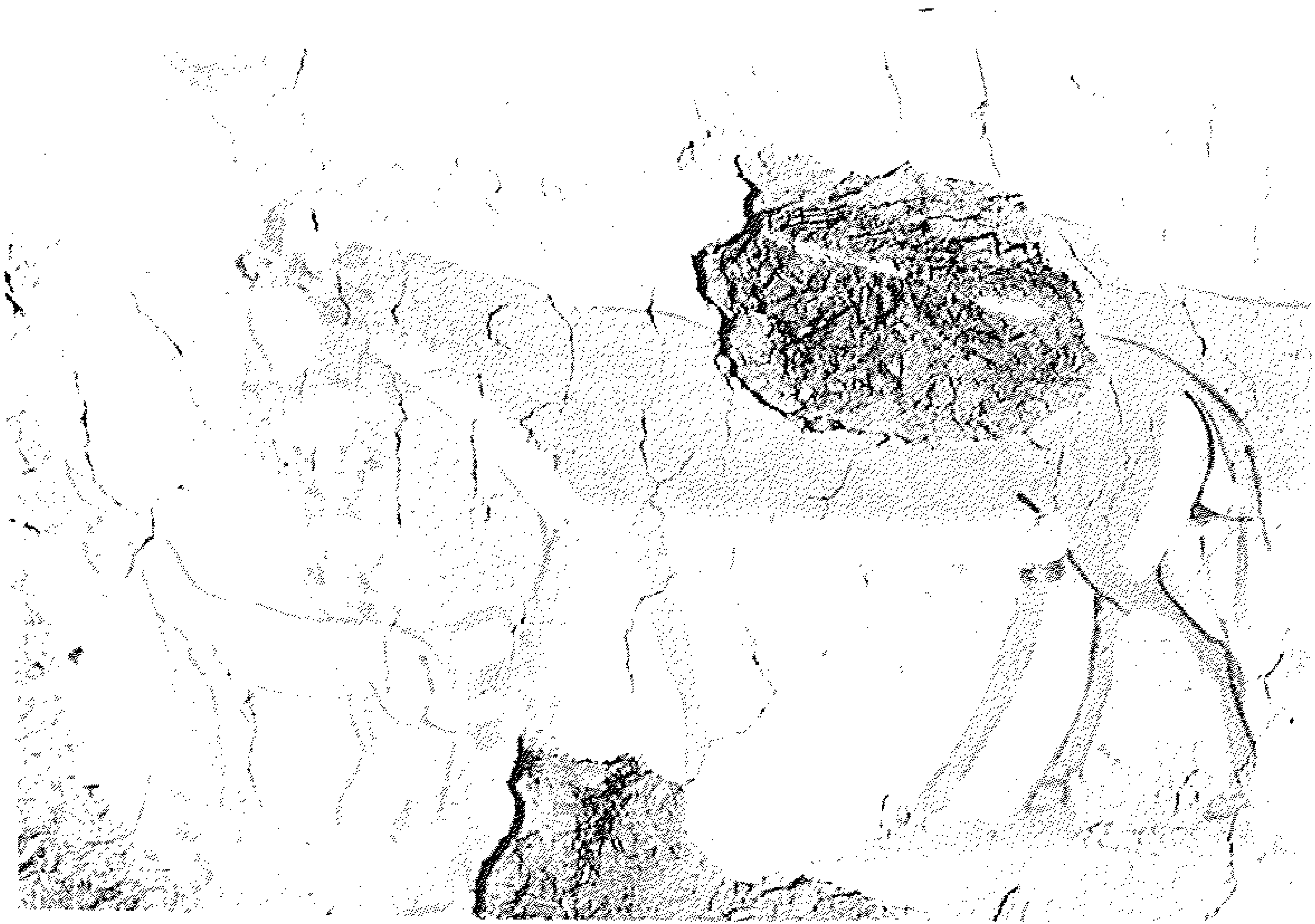






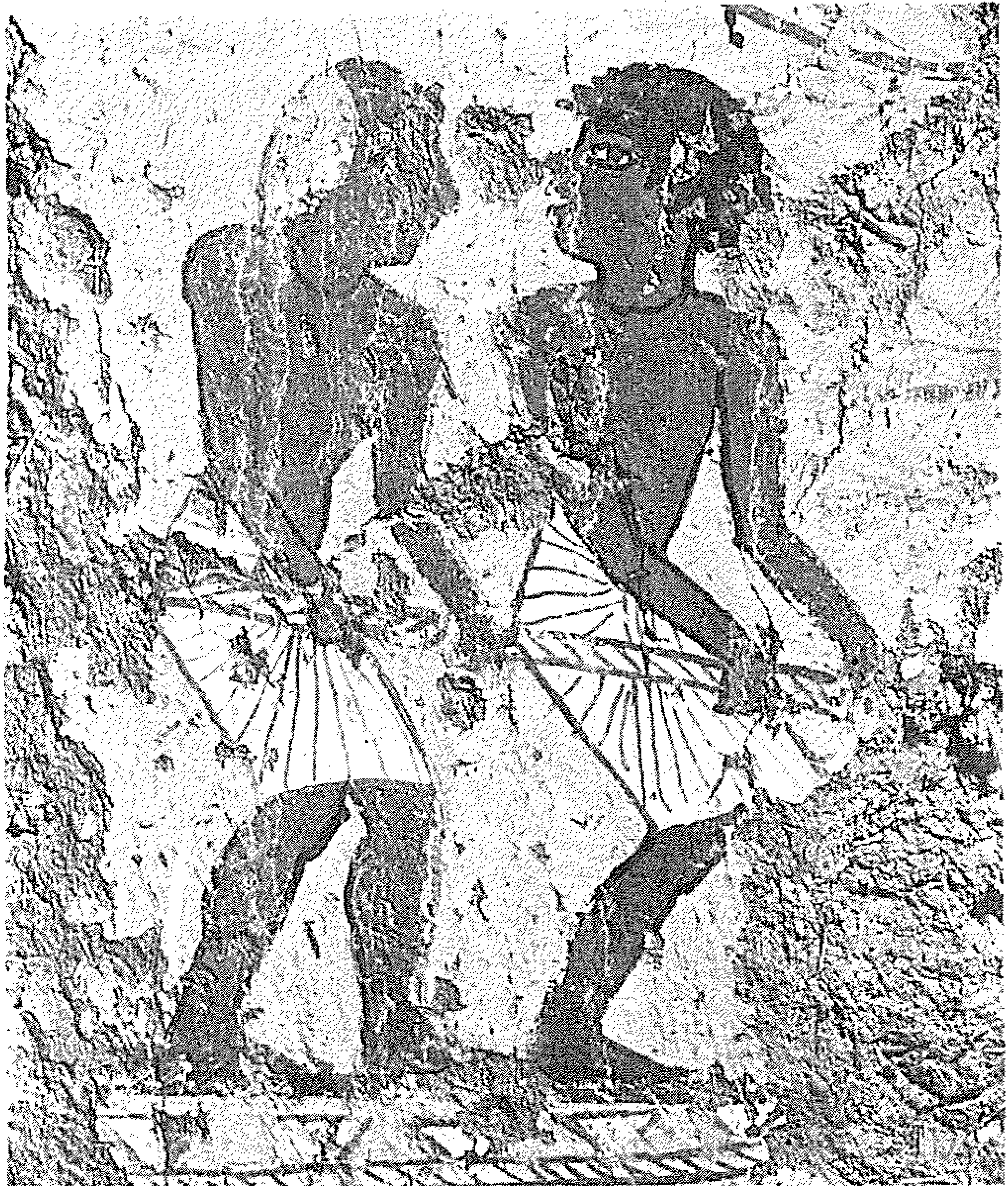


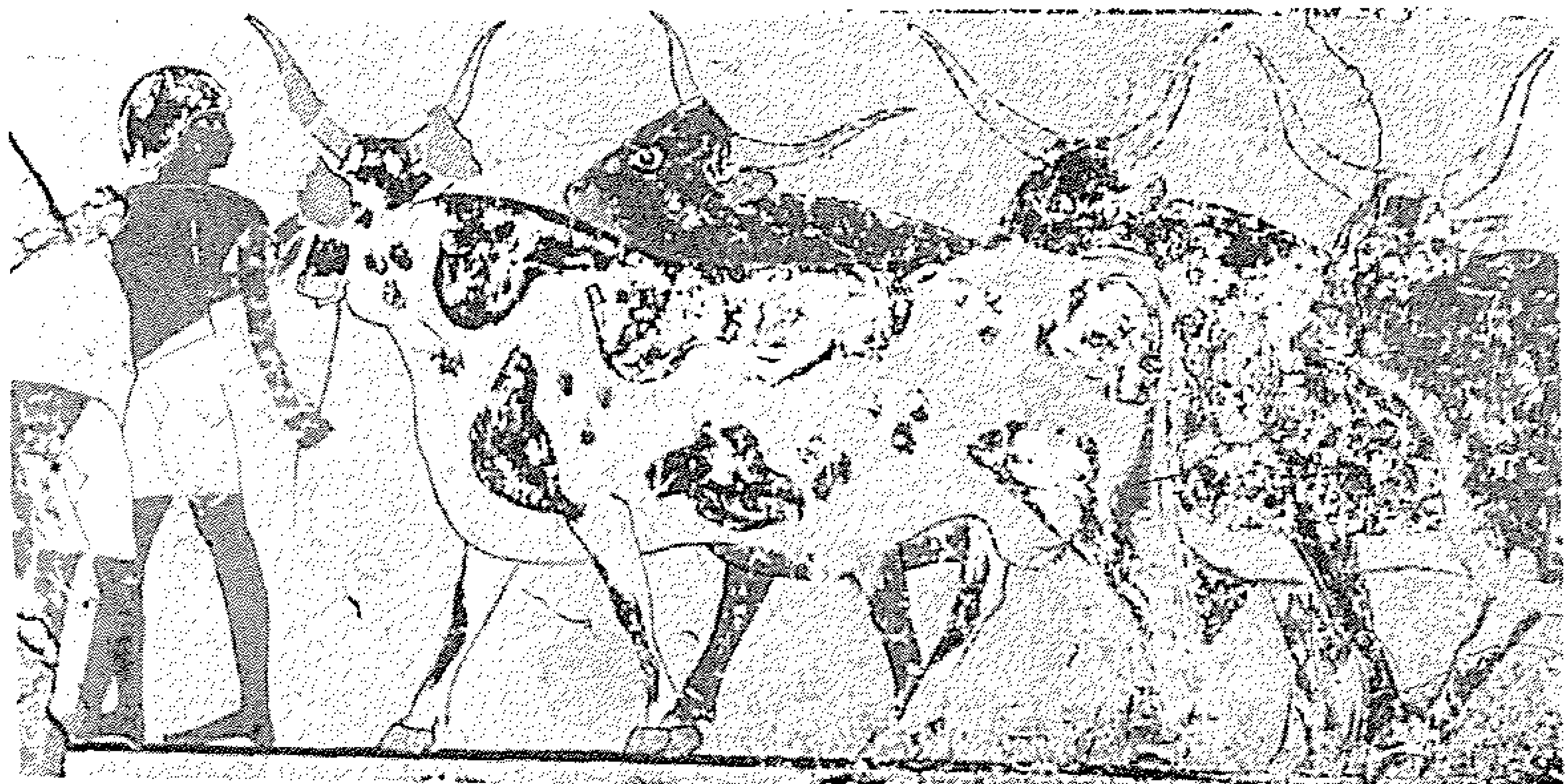


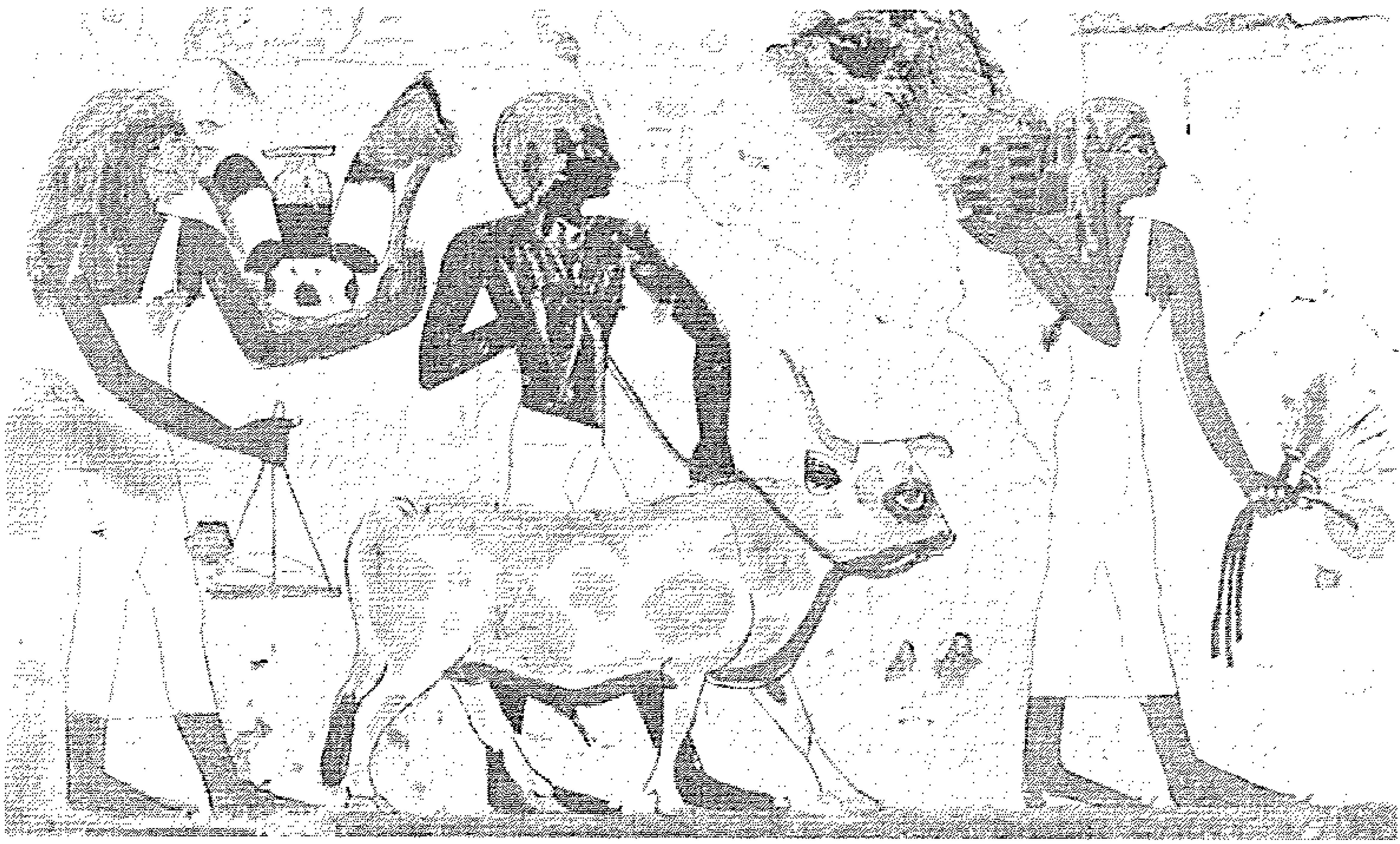


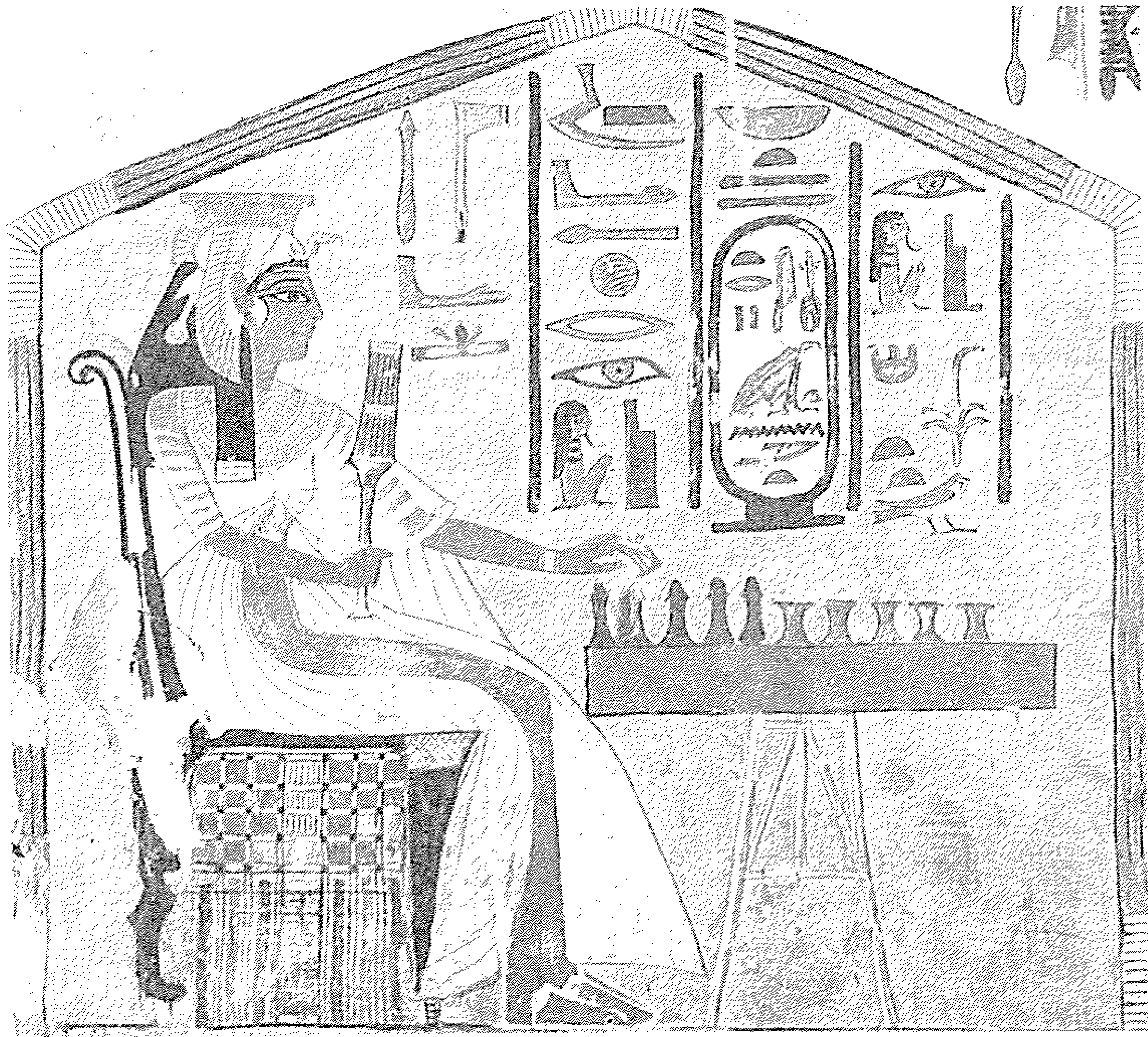


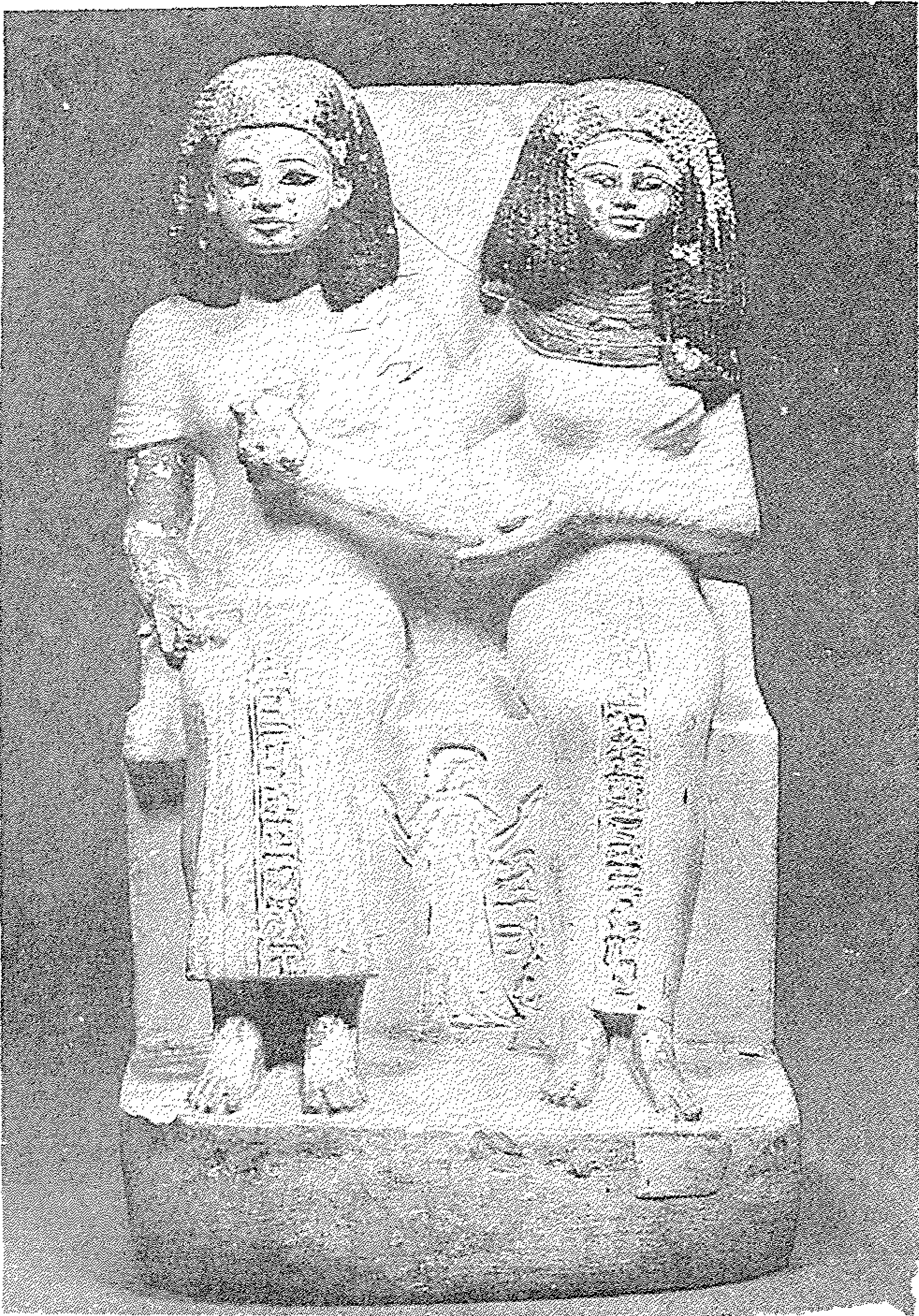


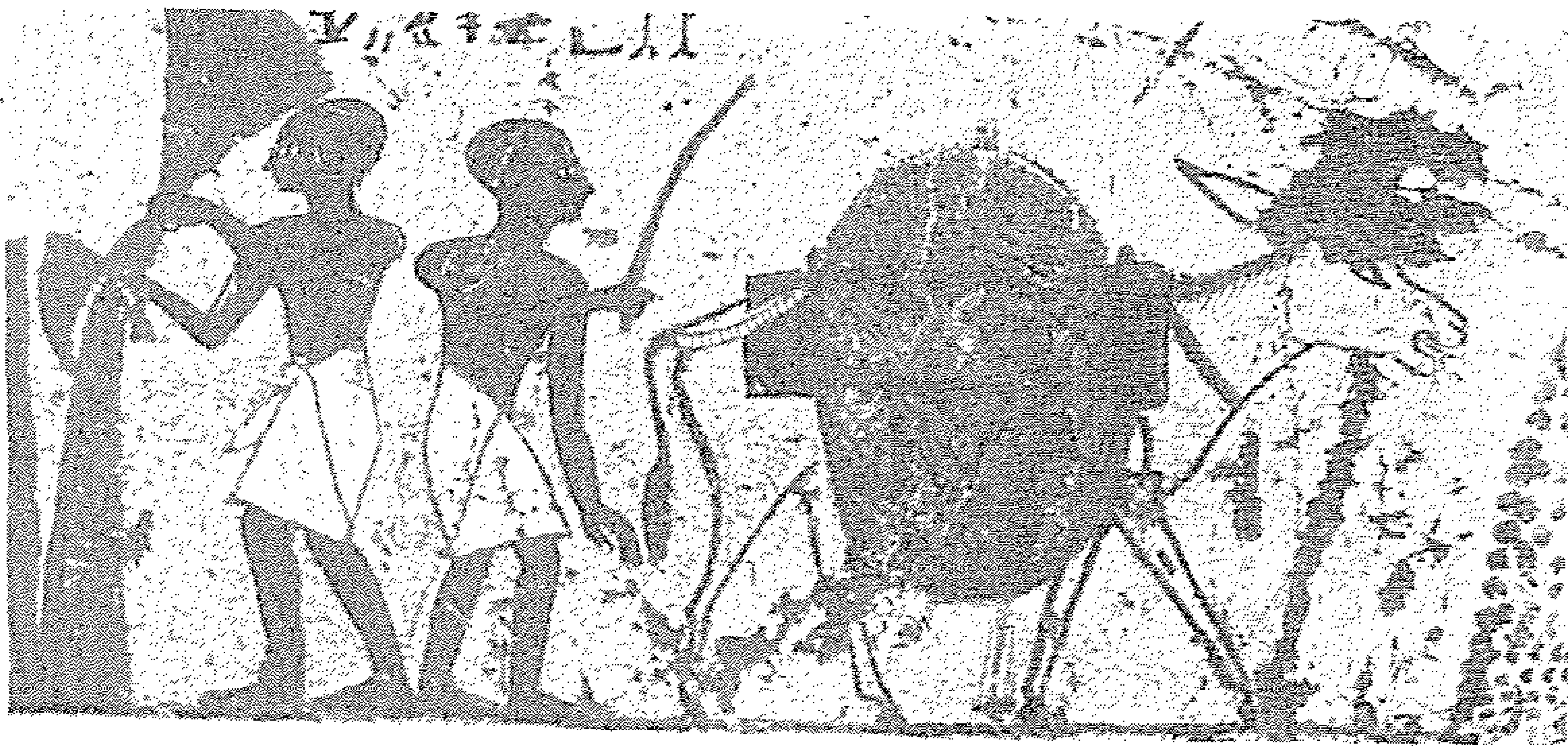


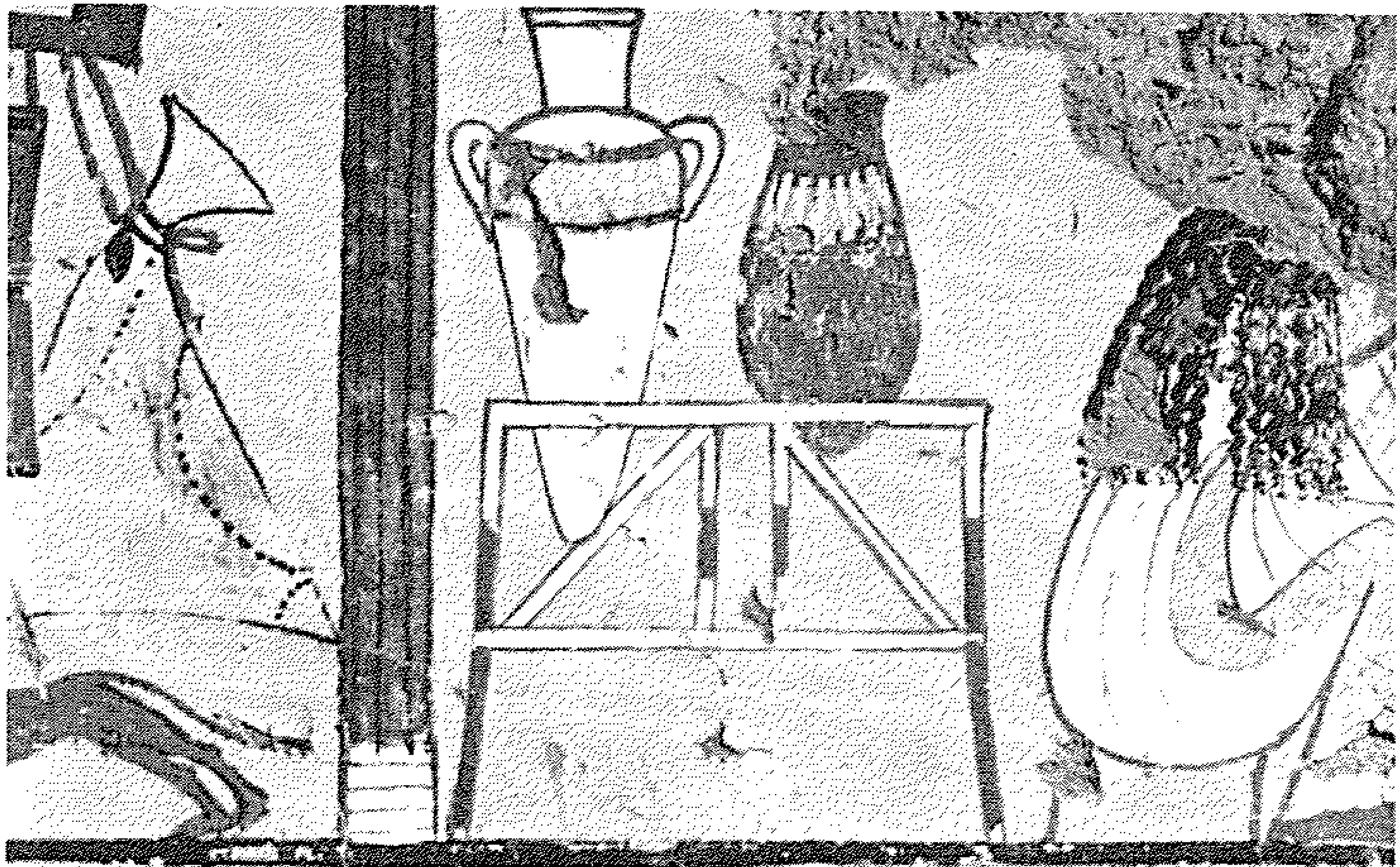




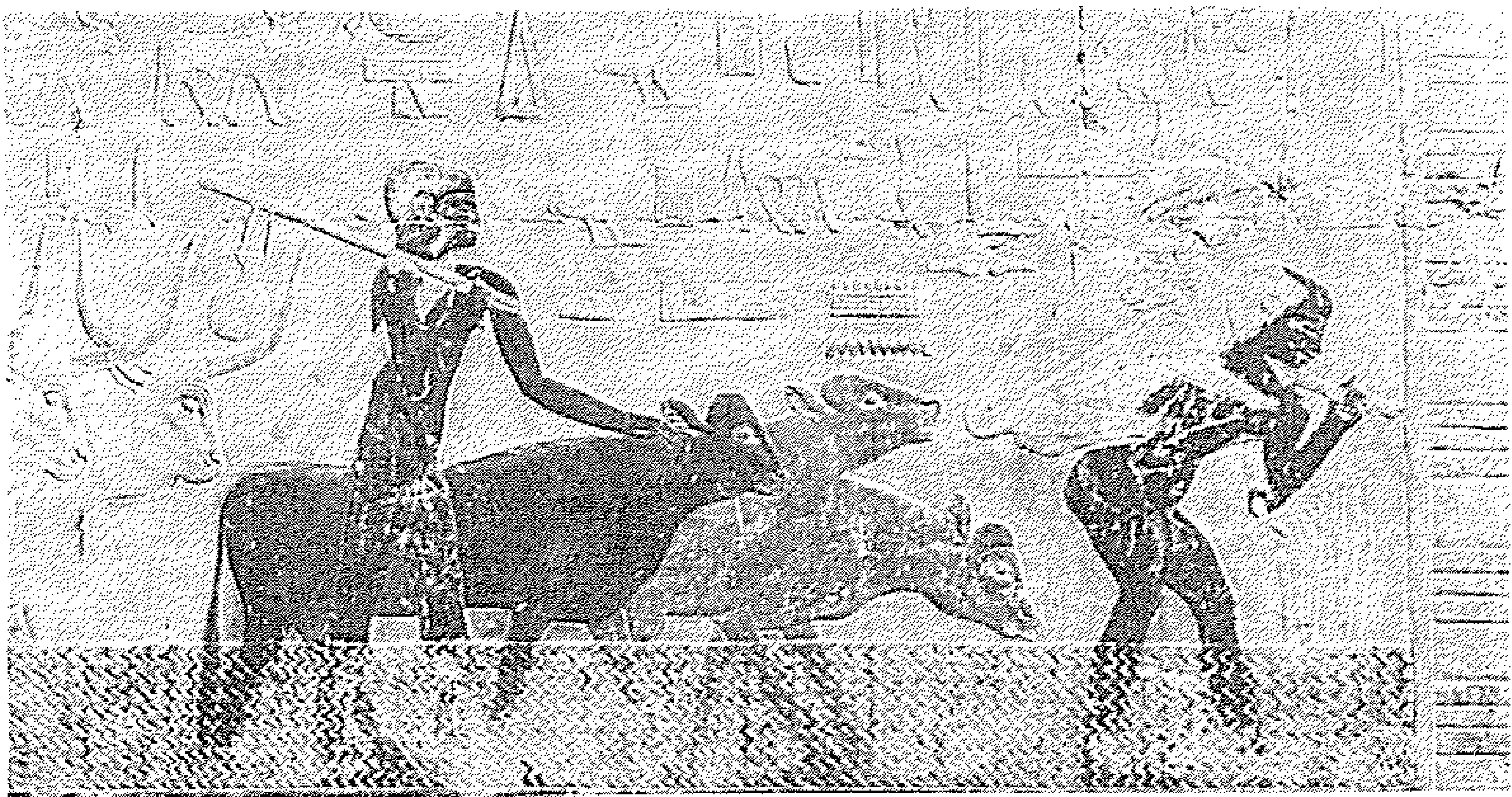


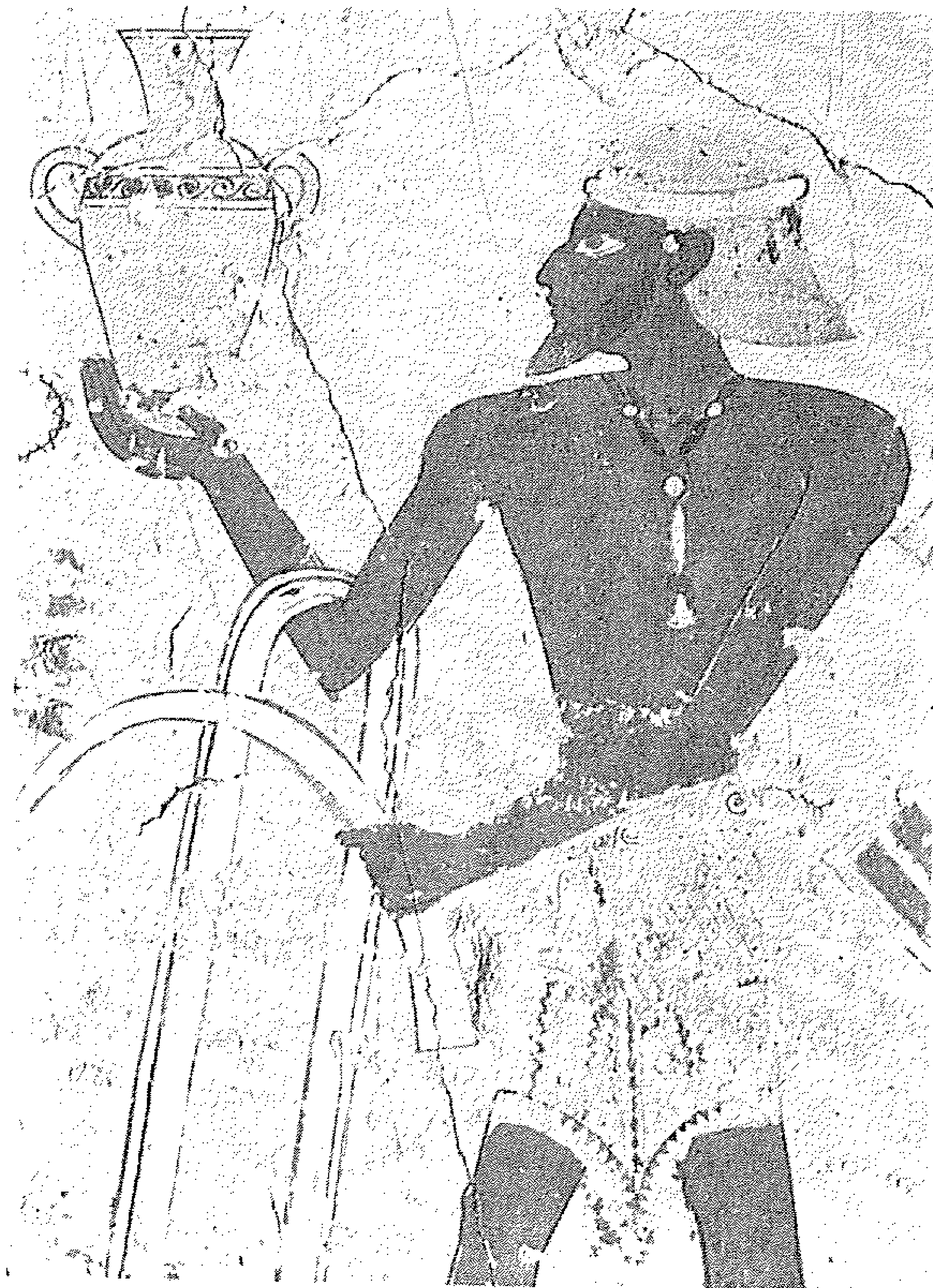






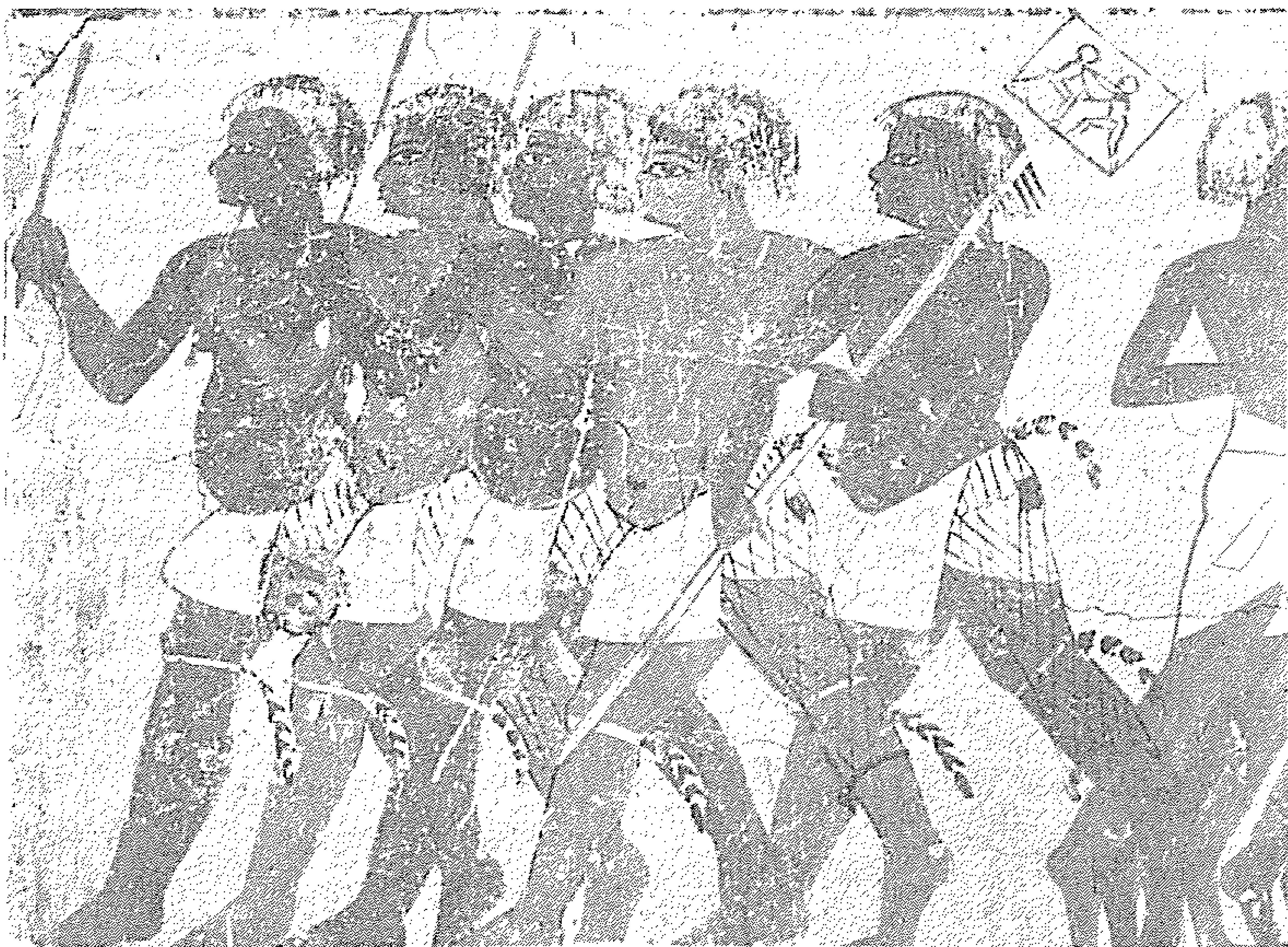








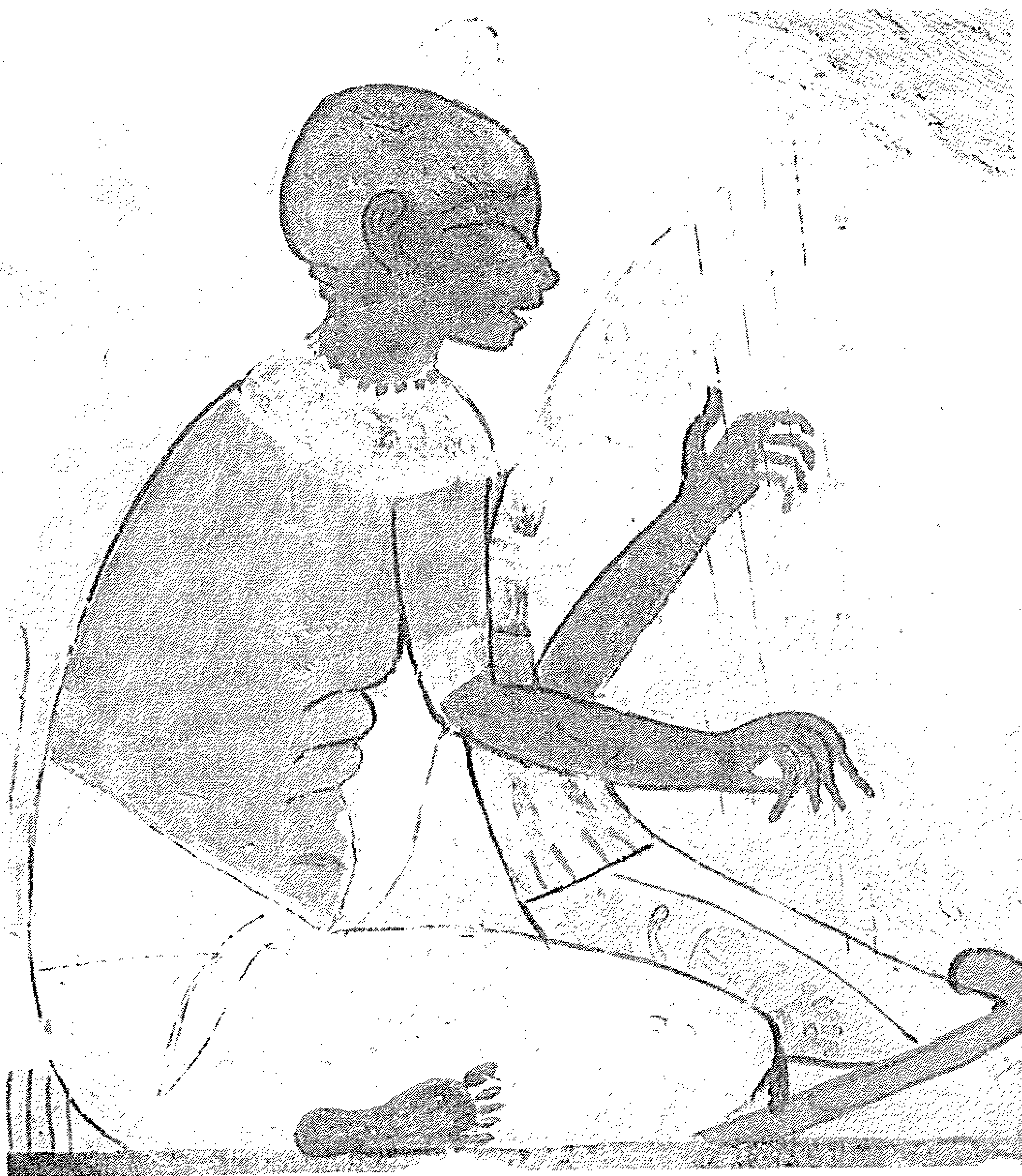


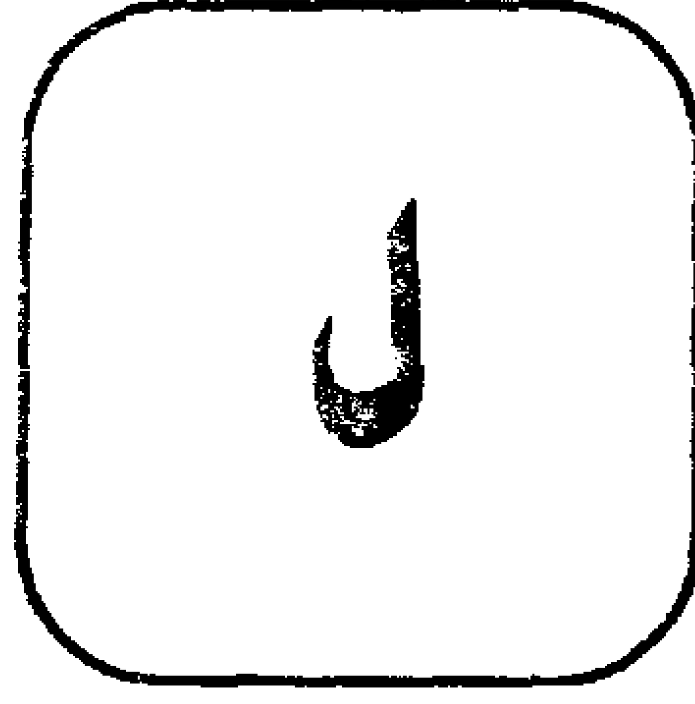












اللبن : تشتمل النقوش والمصورات على مناظر حلب اللبن ، ومن المؤكد أن اللبن كان جزءاً هاماً من غذاء الأحياء والموتى والآلهة . فكانت المعابد تقدم باستمرار وعاءين من اللبن ، للآلهة . ولسنا نعلم على وجه التحقيق أى منتجات الألبان استعملها قدماء المصريين ، هل هى الزبد أو الجبن . لعب اللبن دوراً هاماً فى المعتقدات الدينية . نعلم أنهم كانوا يصبون اللبن على الـ ٣٦٥ مائدة تقدمات المحيطة بقبر أوزيريس . وتدل النصوص والمصورات على أن إرضاع ربة للملك كان رمزاً لدخول الملك فى العالم الإلهى . فكما أن الطفل يرضع لبن أمه فيحفظ عليه حياته فى الشهور الأولى من عمره ، كذلك الملك عندما ترضعه ربة ، ينال بذلك الطقس حياة جديدة إلهية تعطيه القوة على القيام برسالته الملكية على الأرض .

اللحية : فى أيام خوفو ، كان بعض المصريين من أفراد العائلات الراقية يفتلون شواربهم ويصقلونها بالشمع ، غير أنه عندما رسم الفنان على المصاطب فى العصور التالية عثنوناً على ذقن صياد أو راعى ماشية ، لفتَ الأنظار إلى المركز الاجتماعى الوضيع للشخص ذى العثنون ، إذ يجب أن يكون ذقن الشخص الكريم المحتد ناعماً . كان للحلاقين الملكيين مركز بارز فى بلاط منف . وقد وصف أحد النقاد يوما شاقاً فى حياة حلاق القرية . فلم يستغن المصريون عن خدمات الموسى النحاسية الضخمة إلا فى الأحوال النادرة ، مثل حالات الحداد (لدينا الدليل على ذلك فى صور بعض الفراعنة ذوى الذقون المنقطة بالأسود) ، أو فى حالة السفر إلى بلد أجنبى . ولكن ليس معنى هذا أن اللحية لم تكن علامة على أهمية الشخص ، وإنما العكس . فقد امتدح الآلهة من أجل « لحاهم الشبيهة بالفيروز الأزرق » ، ويتضح من صورهم أن تلك اللحى كانت طويلة ورفيعة ومضفورة ضفراً ضيقاً . أما لحى الملوك فكانت معينة الشكل ومتموجة بعض الشىء . أما النبلاء الموتى فيُعمل لهم عثنون قصير . كانت هذه الزوائد الصلبة تلصق على الذقون المحلوقة الناعمة ، رمزاً طقسياً للقوى فوق البشرية .

اللغة Language : من الأمور الخارقة فى تاريخ اللغات ، أن تحيا اللغة وتزدهر لمدة تقرب من الخمسة آلاف سنة .

ومع ذلك ، فقد حقق قدماء المصريين هذه المعجزة اللغوية . وقد ظهرت أوائل النصوص فى حوالى سنة ٣١٠٠ ق.م. ، ولم تتنازل اللغة القبطية ، وهى آخر تطور للغة المصرية القديمة ، عن مكانتها إلى اللغة العربية إلا فى القرن السابع عشر للميلاد ، ولاتزال مستعملة فى الشعائر الدينية بالكنائس القبطية .

أين مكان اللغة المصرية القديمة فى أسرة اللغات ؟ قلما تنعزل لغة عن بقية اللغات ، وعادة ما يكون لها شبه بلغات أخرى تُكَوِّن معها مجموعة . وتتكون الأسرة اللغوية من عدة مجموعات . فهناك الأسرة الهندو أوروبية وتشمل لغات قديمة قدم السانسكريتية والحتّية ولغات جديدة كالروسية والإنجليزية الأمريكية . واللغة المصرية تابعة للأسرة الحاميّة الساميّة . ولكن لا يكفى أنْ نَصِفَها هكذا .

تعانى قواعد اللغات الحاميّة السامية من تباين طبيعة مصادرها . فبينما نرى أوائل النصوص الساميّة معاصرة ، بغير شك ، لأقدم الكتابات المصرية ، لا تُعرف أسرة اللغات الحاميّة التى يتكلمها سكان شمال شرق أفريقيا (المجموعة الليبية البربرية ، والمجموعة الكوشية لأعالى النيل وإثيوبيا) إلا من اللهجات الحديثة التى ليس لها غالباً ، أدب مكتوب . إن موقف العالم اللغوى الذى يريد أن يحدد اللغة المصرية القديمة موضعاً ، هو نفس موقف المتعالم الذى يحاول تعريف اللغة الحتّية من واقع النصوص الهوميرية Homeric وحدها ، بمساعدة قوائم السلع المكتوبة بالفرنسية الكريولية التى يتكلمها سكان جزر المارتينيك . وإذ نعترف بهذه المشكلة الصعبة ، فقد حصلنا على نتائج أساسية ذات فائدة . فقد وجد علماء أصول اللغات ، مواضع شبه واضحة ، بينها وبين كل من اللغات الآسيوية والأفريقية : فتهتم كل هذه اللغات بالحروف الصحيحة وليس فيها لحروف العلة أو الحروف المتحركة سوى دور ثانوى مساعد ، وتتشابه فيها نهايات المؤنث والجمع ، وتزدوج بها أصول الأفعال ، كما تُستعمل فيها البداءات الطارئة (Casual Prefix) . . وكذلك اكتشف أولئك العلماء ألفاظاً مشتركة بين بعض هذه اللغات ، بعضها ضمائر وبعضها الآخر كلمات عامة . وتحتوى اللغة المصرية على ثلثمائة أصل مشترك بينها وبين اللغات الساميّة ، وأكثر من مائة أصل مشترك مع لهجات شمال أفريقيا . وعلى ذلك ، فإن الماضى اللغوى يؤكد الدليل الجغرافى . ولما كانت مصر تقع فى مفترق الطريق الواصل بين آسيا وأفريقيا ، احتوت لغة قدماء المصريين على ألفاظ يتجلى فيها الأثر الأفريقى والسامىّ . ومع ذلك ، فمن الضرورى أن نقرر طرافة تركيب هذه اللغة وفرديته .

ما أهم خصائص اللغة المصرية القديمة ؟ يستخدم نظام الأفعال فيها تركيبين مختلفين . فبها أولاً نظام من الصيغ شبه الفعلية ، ويوجد له نظائر فى اللغات السامية ، ثم نظام أصلى للتصريف بإضافة عَجز للفعل الذى لا تتغير صورته (ربما كان الفعل فى الأصل اسماً للمفعول) وهذا

العجز عبارة عن ضمير يضاف إلى كثير من الصور الفعلية ، أشبه بالمضاف إليه فى الأسماء ، مثال ذلك : « سجم . ف » = « يسمع » ، ومعناها الأصل « مَسْمُوعُه » ؛ بنفس طريقة « پر . ف » أى « بيته » .

دُلَّ على نوع الفعل بتغيير النطق ، وفى بعض الأفعال بتضعيف الحرف الأخير . وكان لدي المصريين فكرتان لزمن الفعل ، هما : الفعل التام ، والفعل المستمر .

وعبروا عن فكرة الفعل التام وغير التام بوضع أدوات بين الفعل والفاعل مثل (سِـجـم . ن . ف) ، (سِـجـم خر . ف) . إذن فلم يكن لدى قدماء المصريين فهم حقيقى لزمن الفعل . جاء مثل هذا التنقيح بالتدريج أثناء تطور اللغة . وعلى ذلك فقد استخدم قدماء المصريين الأفعال المساعدة ، بوفرة متزايدة باطراد ، لتحديد المعنى الحقيقى الدقيق للفعل . وزيادة على ذلك ، فإن صور الأفعال المساعدة قد حلت محل تراكيب الأفعال ، مثل : « إنه يسمع » = « إو . ف حر سجم) . و « إنه يقوم بالسمع » ، يمكن تمييزها عن « إنه سيسمع » — « إو . ف ر سجم) « إنه فى طريق السمع » = « إنه سيسمع » . فنتج عن هذا التطور أخيراً ، معنى حقيقى للزمن ، فى آخر النصوص المكتوبة باللغة العامية ، وفى اللغة القبطية .

باللغة المصرية كم كبير من الضمائر : تضاف إلى عجز الكلمات (كالفاعل فى حالة الفعل أو صفات المِلْكية) ، والضمائر المتصلة والضمائر المنفصلة (كالمفعول به لفعل) . وبها ما يميز بين المذكر والمؤنث ، فيُدَلّ على المؤنث بإضافة « ت » إلى آخر المذكر (سا = ابن ، وسات = ابنة ، وكذلك ور = عظيم ، ورت = عظيمة) . واستخدموا المثنى فى النصوص البالغة القدم ، ولكن سرعان ما بطل استعماله . ودلوا على الجمع بالحرف « و » للمذكر ، وبالحرفين « وت » للمؤنث . ولم يكن باللغة المصرية القديمة تصريف للأسماء .

كانت اللغة المصرية دائمة التطور ، تقريباً . وغدا علم الصرف أكثر مرونة باستمرار ، ودخل الإطناب اللغة ، وتغير نطق كثير من الألفاظ والمقاطع ، وضُم إليها ألفاظ جديدة ، واستعيرت ألفاظ أخرى من غيرها . بيد أن الكتابة لم تتمش فى تقدمها وتطورها مع هذه التطورات . وعلى هذا يتكون تاريخ هذه اللغة من عدة خطوات ومراحل : كانت لغة الكلام تسير جنباً إلى جنب مع لغة الكتابة فى وقت ما ، ثم تتخلف لغة الكتابة ويمضى وقت حتى تسد الفراغ وتتمشى مع لغة الكلام من جديد ، ثم تتخلف عنها ثانية ، وهكذا . وعصور اللغة المصرية القديمة هى مصرى قديم : (من حوالى سنة ٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ ق.م.) ويعرف من النصوص الدينية أساساً ، (نصوص الأهرام) ومن المناظر والنصوص المنقوشة على المصاطب .

مصرى متوسط : وهى لغة ذات قواعد دقيقة متوازنة ، وفى وقت ما ، أصبحت مطابقة للغة الكلام ، ثم صارت اللغة الرسمية للنصوص التاريخية والدينية ، حتى نهاية التاريخ المصرى . ثم عاد استعمال اللغة المصرية الكلاسيكية للدولة

الوسطى ، فى المعابد اليونانية الرومانية ، بكتابات مختلطة . ومنذ القرن السادس عشر ق.م. تغير الكلام العامى كثيراً واختلف عن لغة الكتابة . وباستثناء المخطوطات الرسمية ، وجدت اللغة العامية طريقها إلى المستندات والخطابات والقصص والأمثال . وأطلق على لغة الدولة الحديثة هذه اسم « المصرية الحديثة أو المتأخرة » . كانت المرحلة التالية هى نشأة الديموطيقية التى بدأ استعمالها فى القرن السابع ق.م. ، وبقيت لمدة ألف سنة تقريباً ، الوسيلة الرسمية للكتبة . وفى تلك الأثناء ظلت لغة الكلام تتغير ، وتختلف من اقليم إلى آخر . أما القبطية فقد تركت استخدام الرموز الهيروغليفية وشتى أشكالها وصورها ، واستعاضت عنها بحروف الهجاء الإغريقية ، مع إضافة بعض العلامات ، فاحتفظت باللغة الفرعونية القديمة فى مختلف لهجاتها فى فترة ازدهارها بين القرنين الثالث والحادى عشر الميلاديين .

كانت اللغة المصرية القديمة غنية بالألفاظ (نعرف منها اليوم أكثر من ٢٠,٠٠٠ كلمة ، ويزيد هذا العدد كلما نشرت نصوص جديدة) . وأهم ما تتكون منه الأسماء الجامدة : أسماء الحيوانات ، وشتى أنواع النبات والأحجار وأجزاء الجسم ، وأنواع الطعام والخبز والأوانى والأشياء التى كانوا يستعملونها فى حياتهم اليومية . وكانت الأفكار التجريدية غير محببه لدى المصريين . فكانت طريقتهم فى التعبير عن الأفكار والعمليات الذهنية والقضايا الغامضة محدودة وكثيراً ما كانت غير مضبوطة . وألفاظهم مرآة لحياة الريف . واستعيرت الألفاظ الأجنبية ، إما مع المستوردات الأجنبية (مثل ، الحصان والعربة والطرز الفنية للمبانى) ، أو نتيجة للاتصال القريب مع دولة أجنبية مثل سوريا أو بلاد النوبة (إبان عصر الاستعمار فى الدولة الحديثة) ، وليبيا (زمن الأسرات ٢٢ — ٢٤) ، والسودان (الأسرة ٢٥) ، ومع العالم الأسيوى (أشور وفارس) .

لم تكن القرون الأخيرة من تاريخ مصر ، التى تعاقبت فيها الكوارث وتتابعت فترات الاحتلال الأجنبى ، بدون انقطاع تقريباً ، ملائمة لتقدم الثقافة الدنيوية ، أو لتطور الفكر ووسائل التعبير . أما المرحلة الأخيرة من اللغة المصرية ، وهى القبطية فكانت مجموعة ألفاظها صغيرة نسبياً . فكلما أريد التعبير عن صورة خيالية للأفكار ، أو للحقائق الدينية الإلهية ، استخدموا الألفاظ المستعارة من الإغريقية .

دخلت اللغة الإنجليزية بعض الألفاظ المصرية القديمة ، إما عن طريق التوراة والنصوص العربية ، أو عن طريق الإغريقية واللاتينية . ومن أمثلتها : Egypt وفرعون Pharaoh وواحة Oasis ، وأبنوس Ebony (انظر الأخشاب) والنطرون Natron والبازالت Basalt واليورايوس Uraeus (أفعى فرعونية توضع على الرأس) ، والعنقاء Phoenixs والورق Paper ، وأبو قردان Ibis والكيمياء Chemistry .

اللوتس **Lotus** : « انبثقت زهرة لوتس عظيمة من المياه الأولى » . هكذا كان

مهد الشمس فى أول صباح ، تبعاً لاحدى الأساطير الشمسية العديدة عن خلق الكون بواسطة الجسم السماوى الأول . والخالق نفسه « طفل جميل بزغ من قلب زهرة لوتس » ، ألم يأتِ من الأمواج مثل هذا النبات ؟ ينمو اللوتس فى البرك الساكنة المياه فى سفح التلال الصحراوية بالمستنقعات الواسعة فى الفيوم والدلتا ، وعلى سطح القنوات الهادئة المياه حيث توجد المياه كما لو كانت فى حالتها عند بدء الخليقة ، وكان الاغريق والرومان يطلقون عليه اسم « زنبق الماء » . وتمتد جذوره فى الأعماق الطينية وينشر أوراقه العريضة المسطحة وأزهاره التى تتفتح فى الصباح وتُقفل ليلاً عند المساء . إذن ، فبمثل هذه الكيفية تصّور قدماء المصريين خلق العالم من الماء (انظر أساطير الخليقة) .

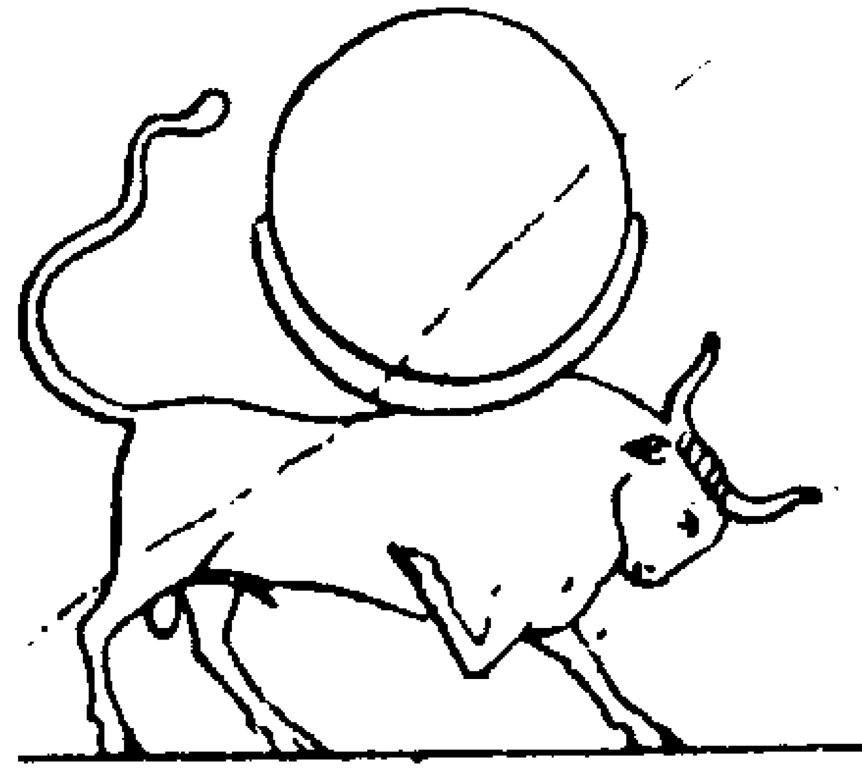
يمكننا أن نرى ، فى الصور المرسومة على مقابر طيبة ، صاحب المقبرة يشق طريقه خلال المياه المتلألئة فى قارب ، بينما تمد ابنته يدها لتقطف برعم لوتس . وتُقَدَّمُ أعواد اللوتس ملفوفة حول باقات مشكلة من البردى والنباتات الأخرى ، فى القرابين الطقسية للموتى . ونرى أعمدة المعابد مزخرفة فى طراز لوتسىّ يحاكى باقات براعم زنبق الماء . ولما كان اللوتس كثير الوجود فى مصر الفرعونية وشائع الاستعمالات الرمزية ، اعتُبر الرمز الزهرى لمصر فى أيام الفراعنة ، ولم ينافسه البردى نفسه فى تلك المكانة .

هناك نوعان مختلفان من زنابق الماء ، الأبيض والأزرق ، نراهما يزينان البرك والبحيرات . وللنوع الأول المسمى « لوتس الحوريات » (Nymphaea Lotus) أوراق مسننة وبراعم مستديرة ووريقات تويجية عريضة . وللنوع الثانى المعروف باسم « زهر الحوريات الأزرق » (Nymphaea Cerulea) ، أوراق مستطيلة مستقيمة ، وبراعم رفيعة مدببة الطرف ، ووريقات تويجية ضيقة مدببة . وهناك نوع ثالث دخل مصر من الهند ، واسمه العلمى Nym-phaea nelumbo ، وصفه هيرودوت ، ونراه كثيراً على الآثار الهيلينستية . وكانوا يطحنون ريزومات جميع هذه الأنواع ويستعملون دقيقها طعاماً .

لا شك فى أن النوع الأزرق القديم من زنابق الماء المصرية هو المقدس أكثر من غيره . ولأزهار اللوتس البيضاء رائحة قوية مقبولة نوعاً ما ، أما رائحة أزهار النوع الأزرق فرقيقة عطرة ، وتمثل عبق الحياة الإلهية . وقد صُوِّر الأحياء والأموات من الأسرة ، على مقابر طيبة ، يشمون الأزهار الزرقاء فى خشوع يرجع بعضه إلى الفرحة ، ويوحى ببعضه سحر المولد من جديد .

كذلك كان اللوتس الأزرق رمز إله منف الصغير نفرتوم Nefertum ، سيد العطور . ولما كان اللوتس الأزرق أفخم وأزهى من النوع الأبيض ، فقد اختير عادة ليمثل الزهرة الشمسيه الأولى . ومكانة اللوتس لدى قدماء المصريين كمكانة الورد (الذى لم تعرفه أفريقيا حتى العصور الإغريقية) فى إنجلترا ، أعظم الأزهار كمالاً . ولهذا السبب أُطلق عليه فى لغة الشعر إبان الدولة الحديثة « الجميل » ، « نانفر » .

ليبيا Libya : كان يعيش فى غرب الدلتا ، على شاطىء البحر فى منطقة الصحراء ، فى العصور القديمة ، قوم كانوا رعاة ماشية وغازسى أشجار ، يشبهون فى مميزاتهم البدنية وعاداتهم بعض أقوام العصر الحجرى الحديث فى مصر . أولئك هم التحنو Tehenu ، ويترك رجالهم شعرهم طويلاً ولا يلبسون غير حزام قراب للعورة مستطيل الشكل (كثيراً ما يخطىء المؤلفون المحدثون ويسمونه « قرناطة » Karnata) . وفى العصور السابقة ، سكن التمحو Temehu السهول المعشوشبة . كان أولئك البدو الرحل يتميزون عن سائر الشعوب الأفريقية بعيونهم الزرقاء وشعرهم الأشقر ، وكانوا بسطاء ولذلك كثيراً ما أغير عليهم وجُندوا ، ولم يُقلقوا المصريين كثيراً إلا بعد سنة ١٤٠٠ ق.م. تقريباً ، عندما رغبت جماعتان عظيمتان من المحاربين ذوى الوشم والبشرة البيضاء ، الذين يلبسون جلابيب طويلة من الجلد ، فى أن تتركا مراعيها البسيطة وأن تستقرا فى مصر السفلى . فصدَّ سيتى الأول ورمسيس الثانى هؤلاء المشوش والليبو Meshwesh & Libu (وسميت ليبيا باسمهم) . وأفلح مرنبتاح ابن رمسيس فى صد الليبو بعد أن خاض معهم معركة طاحنة ساعدهم فيها قراصنة البحر المتوسط . وكان على رمسيس الثالث أن يطرد كلا الشعبين من غرب الدلتا ، ويصد موجتين جديدتين من الغزاة . ولكن المهاجرين والمرتزقة الليبيين ثبتوا أقدامهم فى مصر ، وبذا بدأ العصر المسمى بالعصر الليبى .



م

الماشيه : كان بعض ماشيه قدماء المصريين وحشياً ، مثل الثور الوحشى الموجود بكثرة فى أفريقيا ، كما هى فى أوروبا ، فى عصور ما قبل التاريخ . وكانت بعض القطعان لاتزال تتجول على حافة الوادى ، وفى مراعى الدلتا ، إبان الدولة الحديثة . وكان الملك وحاشيته يتمتعون بصيدها . ويبدو أن الثور العظيم هو قائد هذه القطعان القوية ـ وكان دائماً رمز الملك المحارب : وكان بالغ القوة لدرجة أنه يتعذر استئناسه ، وله قرون مدببة ، وهو إله القوة الذى يهجم فى وحشية . ومع ذلك ، فقد استأنس قدماء المصريين ، منذ عصور ما قبل التاريخ ، أنواعاً أخرى من الماشية ، أساس قياداً من هذه . فربى الأهالى قطعاناً ضخمة من الماشية الأفريقية ، وكوّنوا عدة سلالات من أنواع كثيرة ـ منها قصير القرون وذو القرون الطويلة المتفرعة فى صورة القيثارة ، وما ليس له قرون إطلاقاً . وقد صنّفوا الماشية بحسب ما إذا كانت للتسمين ، مثل : السمينة والثقيلة iwa أو النحيفة البرية nag التى تعيش فى قطعان عيشة نصف وحشية

تستعمل كلمة nag فى هذه الأيام للثور فى السنغال ، ويسمى الثور فى غينيا nigé ، وعند قبائل موسى Mossi بالسنغال niga ، وعند قبائل فولبى Foulbé بنيجيريا الشمالية nagge . وكانوا يتبعون طرقاً فنية خاصة وعادات طريفة فى تربية الماشية على نطاق واسع ، وشاعت هذه الطرق والعادات بين قدماء المصريين والزنوج المحدثين القاطنين

فى حوض النيل ، والاثيوبيين (ولاسيما الأهمية السحرية التى أسندوها إلى الماشية ذات القرون المشوهة ، سواء أكان ذلك التشويه طبيعياً أو صناعياً . إن الزراعة المصرية فى عهد الفراعنة ، التى هى وارثة « حضارة قديمة للثور الأفريقى » ، والتى نشأت أصلاً فى مناطق حوض النيل (والتى وصلت إلى غرب أفريقيا بعد أن تناولتها عدة تغييرات) ، بقيت وفية لتقاليدها الرعوية المبكرة ، رغم كون المناخ أقل ملاءمة للماشية من المناخ السائد فى السودان وقتذاك ، أى فى عصور ما قبل التاريخ .

وكان جيش ضخم من الوطنيين والأسرى البرابرة ، يقوم ، تحت إشراف بيروقراطية خاصة ، بالعناية بماشية قطيع وطنى ضخم يضم عشرات الآلاف من الرءوس . وزاد الملوك الأقوياء فى عدد رءوس هذا القطيع ، بجمع كميات هائلة من الماشية النوبية

السمينة ، والليبية النحيلة ، بصفة غنائم أو جزية .

رُبيت قطعان ضخمة من الماشية فى المراعى المجاورة لضفاف النيل ، وفى مستنقعات البردى ، حيث كانت الأبقار ترتع حرة فى كثير من الأحيان (انظر الحيوان والنبات) . وكانوا ينقلون الماشية أحياناً من الأرض الطينية الجيدة فى الجنوب حيث تلفحها حرارة الصيف ، إلى الدلتا الخصبة الخضراء . كانت معيشة الراعى المصرى المعرضة لتقلبات الجو والظروف خشنة بقدر ما كانت عنايته بأبقاره رقيقة . وهناك نقش بارز فى مقبرة ، يصور قطيعاً من الماشية يعبر ترعة : هناك تمساح يزمجر ، « احذر أيها الصغير الغشى » ! انقل الحيوانات . غير أن الراعى يَطمئن الأبقار بقوله : إننى ساهر على حراسة صغيركِ ، أيتها الأم ! وقد أقيمت مباريات بين حيوانات التربية لاختيار أقواها . كانوا يضعون أسمن أفراد القطيع فى حظائر ضخمة ، وإذا لزم الأمر سُمّنت بالأيدى .

كانت الماشية تؤدى عدة خدمات : فتجر الأبقار المحراث ، ويجر الثور النعوش إلى المقابر ، أو الزحافات المليئة بالأحجار . وأحياناً كان القطيع بأكمله يسير فوق حزم الغلال لفصل الحبوب عن القشور . ويقوم الملك فى موسم الحصاد باحتفال سحرىّ ، فيقود أربعة عجول إلى جرن الدراس ؛ أحدها أحمر ، وآخر أبيض ، وثالث أسود ، ورابع أرقط — لوقاية الماشية من الأفاعى . عندما تخرج الماشية الثقيلة من حظائرها تكون ضعيفة جداً لدرجة أنها قلما تستطيع الحركة . أما الثيران فيُقبض عليها بأنشوطة من الحبل ، من الحظائر الملكية وتساق إلى الذبح بعد أن يفحصها بيطرى . ويقطع لحمها بسكين إلى قطع ، لاتزال قوائمها محفوظة . ويستعمل لحمها لطعام طبقة الأريستوقراطيين ، والضيوف فى الولائم ، وكذلك مذابح الآلهة . وكانوا يعتقدون أن ذبح الحيوان من الطقوس المغذية للإله ورمزاً إلى إبادة خصومه وعملاً سحرياً من الإله ضد أعداء الدولة . واستعملوا دهنه وجلده فى كثير من الصناعات ، غير أنهم لم يذبحوا إطلاقاً أية ضحية من البقر الحلوب .

بجّل جميع قدماء المصريين البقرة لأنها معطية اللبن ولأنها الأم السماوية للشمس و « البقرة الصغيرة ذات الفم الطاهر » ، وزوجة الشمس الذى كان « ثور أمه » . وأطلقوا على البقرة اسم « حتحور » ، أو « هذه البقرة التى هى السماء حارسة عالم الرق ، ومعطية فرعون اللبن » ؛ وكثيراً ما كانوا يبنون لها المعابد ، ويكرسون لها قطعاناً كاملة من أخواتها . وكذلك للآلهة التى تتخذ صورة الثور (مثل مونتو ، ومين ، وأمون) وللثيران التى تتجسد فيها الآلهة [أبس ، ومنيفيس هليوبوليس ، وبوخيس هيرمونتيس (أرمنت)] بقارها أيضاً ، تلك التى تتمثل فيها قوتها كأسلاف للكون . وهذا يوضح مقدار أهمية « الثور الأفريقى » فى الأساطير وفى الطقوس الدينية ، بالإضافة إلى أهميته فى حياة المصريين .

جُلبت ، إبان الدولة الحديثة ، بعض الثيران الهندية المحدبة الظهور Zébus ،

من آسيا ، غير أن الجاموس الهندي الحقير ، كاد ، في العصور الوسطى ، أن يطرد الأبقار والثيران من ضفاف النيل ، تلك الماشية التي كان الشعب يعنى بها غاية العناية .

ماعت **Maat** : صورت ماعت في هيئة امرأة رشيقة صغيرة ، جالسة ، وتضع ريشة نعامة فوق رأسها ، فاستعمل هذا الرمز في كتابة اسمها . كانت كذلك صنجة الحق ، توضع في الميزان لوزن قلب الميت عند المحاكمة ، لمعرفة ما إذا كان « ماعتيا » ، أو بمعنى آخر « يطابق ماعت » أي انسان خير أم لا . وتصفها النصوص على أنها ابنة رع . وكانت هي التي يقدمها الملوك قربانا للآلهة ، يحملونها في أيديهم ، كأنها دمية صغيرة ، وترى كثيراً في النقوش البارزة في الأجزاء الداخلية البعيدة ، للمحاريب . كانت ماعت هي التقدمة المفضلة التي تقوم عادة مقام جميع التقدمات الأخرى لأنها تتضمن تلك التقدمات . ولهذه الأسباب اعتبرت ماعت تجسيداً للحقيقة والعدالة . يُبنى هذا الرأي على عدة براهين : يقارن قلب الشخص الميت ، عند المحاكمة ، بالحقيقة ؛ وكان الوزير ، الذي هو رئيس كافة المحاكم في مصر ، « كاهن ماعت » ؛ وكان « يتكلم بناء على وحيها ، فلا يكذب » . . . .

وفضلاً عن استعمال كلمة ماعت للتعبير عن صورٍ كثيرة للحقيقة واستعمالاتها القضائية ، فإنها تصف شيئاً آخر أيضاً ، أعظم من ذلك بكثير ، ويبدو حقاً أن كلمتي الحقيقة والعدالة لا تنطبقان إلا على اثنين من هذه المظاهر . فعندما خلق الخالق الكون ، شكّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها . ومن الضروري حقاً أن يتكرر عمل الخليقة ، إذ استمر جشع قُوى الفضاء يهدد وجود العالم المخلوق ، غير أن كل شيء بداخل ذلك العالم كان على أتمّ وجه ومطابقاً للخطة الإلهية الموضوعة . ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية . وقد أطلق المصريون القدماء كلمة « ماعت » على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة . كان هذا التفاعل بين القُوى هو الذي ضمن نظام الكون ، بدءا من مكوناته الأساسية (كالحركات السماوية ، وانتظام الظواهر الموسمية ، وتعاقب الزمن ، وشروق شمس جديدة في كل صباح) ، إلى أقل هذه الظواهر ، والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشتقت منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخُلُقية . وهكذا ، كانت ماعت هي كُلّاً من النظام الكوني والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون .

مانيتون **Manetho** : يدهشنا أن نجد ، عند حدود مدينة سمنود ، بالوجه البحري ، بقرب المستشفى الحديث ، حقلا تناثرت فيه كتل من الجرانيت الأحمر والكوارتزيت ، جميلة

النحت . هذه كلها بقايا معبد سبينيتوس Sebennytos القديم . ويحتمل أن يكون مانيتون ، ذلك الكاهن العالم الشهير أحد أعاظم المتعلمين فى الكليات الكهنوتية ، قد عاش فى ذلك المعبد ، فى بداية القرن الثالث ق.م. ولسوء الحظ ، نكاد لا نعرف عنه شيئاً ، وحتى محل ميلاده موضع جدل . فتقول بعض الأساطير إن له علاقة بمنديس Mendes ، وتجعلنا أساطير أخرى نعتقد أن له علاقةً ما بمعبد هليوبوليس . واسمه ، رغم هذا ، مصرى . كان يقرأ الهيروغليفية وتعلَّمَ الديانة المصرية ، ولكنه كان يعرف الإغريقية أيضاً ، وقد ألَّفَ الكتب التى شهرته بهذه اللغة . كما تجعله الأخبار المتوارثة مؤلف ثمانية كتب تتضمن مؤلفات متنوعة فى الدين والمذاهب الدينية والطقوس والأعياد الدينية ، ورسالة فى صناعة البخور . ونُسبت إليه بهتاناً ، أيضاً ، رسالة تاريخية بعنوان « كتاب سوتس Sothis » أما أشهر مؤلَّف له « تاريخ مصر Aegyptiaca » ، فموجز لنتائج جميع أبحاثه ، ولا شك فى أنه كان سيصبح خير مصدر لمعلوماتنا عن مصر القديمة ، لو بقى محفوظاً . ولكن ، لسوء الحظ ، ليس لدينا منه إلا بعض كسر نقلها المؤرخون اليهود (مثل يوسيفوس ، فى القرن الأول الميلادى) ، والمسيحيون (مثل يوليوس أفريكانوس ، فى حوالى سنة ٢٢٠ م . ، ويوسيبيوس Eusebius ، فى حوالى سنة ٣٢٠ م .) . ويوجد آخر أثر لكتابه هذا فى كتاب « تاريخ العالم منذ الخليقة حتى ديوكليتيان Diocletian » الذى وضعه جورج المعروف باسم سينكلوس Syncellus ، فى حوالى سنة ٨٠٠ م .

نأخذ فكرة عن مؤلف مانيتون الأصلى من هذه التراجم الموجزة . ويتألف معظمه من قوائم بأسماء الملوك مرتبة بحسب الأسرات مع تقدير بمدة حكم كل ملك (غالباً ما يكون غير صحيح) ، وتتخلله بين آونة وأخرى قصص وروايات يكتنف صحتها الشك . ويلتزم المؤرخون المحدثون ، الذين اعتملوا تقسيم مانيتون لتاريخ مصر إلى أسرات ، الحذر فى تناول الروايات التاريخية التى وصلتهم عن أولئك الذين نقلوها عنه فى إيجاز .

المجتمع المصرى : ربما كانت الحضارة الفرعونية فريدة فى نوعها ولئن كان مجتمعها ينتمى إلى عقلية بائدة ، ولكنه فى تكوين بالغ التعقيد وعظيم التطور . وفى ذلك ، فقبل أن نصف شتى المجموعات المكونة لذلك العالم ، دون الخوض فى نظريات لا يمكن البرهنة عليها ، وقبل أن نصف تداخلها وظروف تطورها ، يجب أن يكتب علماء التاريخ المصرى دراسات خاصة كثيرة . يجب أن يُبوِّبوا ويحللوا بالإحصاءات جميع الطبقات الاجتماعية العديدة ، المبينة فى النصوص ، ويدرسوا المقابر ، ويستنتجوا من أثاث القبور الخاص بكل ميت ؛ مستوى معيشته على الأرض ، ثم يفحصوا طبياً كل مومياء من شتى الطبقات الاجتماعية ، ليعرفوا ما إذا كان ذلك الشخص جيد التغذية أو سيئها وهو حى . ومن واقع الوقت الحاضر ، يمكننا أن نستشف لمحة عن الجانب الإنسانى لهذا

المجتمع . لم يكن عصراً حديدياً مبنياً على الرق ، كما رأى البعض ، ناسين أن قدماء المصريين لم يروا فى « ماعت » النظام المستقر فحسب ، بل « والخبز والبيرة » أيضاً ، كحق لكل فرد ، « عظيماً وصغيراً » ورجالاً ونساء على حد سواء ؛ كما لم يكن عصراً ذهبياً ، كما يقول البعض ممن بهرتهم الحياة الممتعة المصورة فى المقابر ، كما لو أنهم لم يشعروا قط بالظلم القاسى هناك . وإنه لمن الجلى وجود الطبقات والنزاعات الأجتماعية (انظر الإضراب) فى العصور الفرعونية . فلم تكن الويلات المصورة فى النقد التهكمى من نسج الخيال ؛ وباللغة المصرية مجموعة كاملة من الألفاظ لوصف الفرق بين « ابن الرجل الثرى » و « ابن من لا يملك شيئاً » .

كان الفرعون تجسيداً للسرمدية الإلهية ، وقائماً بالشعائر التى تكفل استمرارها . وهو القوة الكلية للدولة ، ولكنه لم يستطع ، هو نفسه ، أن يكون البيروقراطية ولا الكهنة . وعلى ذلك تألفت هيئة حاكمة من حكام الأقاليم ورؤساء إدارة الجيش ومن الكهنة (الجمع بين المناصب أمراً شائعاً) . ولما كان هؤلاء الرجال نشيطين وماهرين ومخلصين فى تأدية واجباتهم ، كوفئوا بمرتبات سخية ، وبضياع وبهدايا ملكية . وفى عصور لاحقة مُنحوا « أسهماً » فى دخل المعابد والمقابر الجميلة ، « بأمر من الملك » (انظر الاقتصاد) . ومحاكاة لهذه الرتب السامية ، كان كل شخص مدرَّباً ، مهما كانت رتبته ، سواء كان موظفاً — أو كاتباً أو من الكهنة أو العمال الماهرين أو الفنانين . كانت أجور هذه الطبقة المتوسطة ، نوعية ، ومكافآتهم هبات ، وهم دعامة الطبقات العليا ، وكانوا يحظون بقدر نسبى من يسر المعيشة ولين الحياة . ويبدو أن الفلاحين المصريين كانوا أقل حظًّا من هؤلاء بكثير . فكانوا فى عصر الأهرام عمالاً فى الأراضى يشتغلون جماعات ، وكانوا فى الدولة الوسطى صغار مُلَّاكٍ أو عبيداً مستوردين ، وفى الدولة الحديثة مُلَّاكاً أحراراً ، أو عبيداً ، أو أسرى حرب . (انظر الرق) . وكانوا فى جميع الأوقات عرضة للخدمة بالسخرة ، وكانوا موضع المراقبة الشديدة من المصالح المنتمين إليها (الإدارة الملكية أو ممتلكات أمير أو معبد) . ومع ذلك فربما كانوا يتناولون غذاء أفضل من خلفهم فى الوقت الحاضر (لا يوجد دليل على كثرة السكان ، وكانت زراعة الحبوب هى الزراعة السائدة ، وكانت الدولة تقوم بدور الأب) . وفى أيام القحط ، كانت الخزانة تفتح أبواب مخازن الحبوب لهؤلاء الناس . ولقد بجلت ذكرى الملك بكوريس Bocchoris (سنة ٧٢٠ ق.م.) لأنه حاول إبطال استرقاق المدين الذى يعجز عن الوفاء بدينه وهو مصاب كثيراً ما ألم بالعمال البسطاء . ولا توجد لوحات حجرية كثيرة تحمل اسم فلاح عادى ؛ ومقابر القرى بدون أسماء . ومما يؤسف له عدم وجود أدلة بالنقش ، فى بلاد الكتابة الهيروغليفية .

لم يتغير التكوين الاجتماعى تغيراً يُذكر خلال ٣٠٠٠ سنة . ومع ذلك فقد حدثت الثورة العظمى ثم الصراعات التى وضعت الملك ، إبان الدولة الحديثة ، فى موقف لعارض لجماعات الكهنة وأمون . كما قامت الحروب الأهلية التى ميزت الحقبة المتوسطة

الأولى ، والحقبة الليبية ، إذ تنازع كبار الموظفين والنبلاء على السلطة المركزية . وأخيراً ، حدثت تغيرات غامضة جعلت اللفظين « نجس » = صغير ، و « نمب = فقير ، يصيران بمعنى « الطبقة المتوسطة » ، و « عامل حُر » . حقيقة ، إن الفرعون وحده هو القادر على توزيع السلع وإسناد المسئوليات كيفما شاء ، بيد أنه يلوح أن رعاياه كانوا سواء أمام القانون . وجرت العادة بأن يترك كبار الموظفين وصغارهم وظائفهم لأبنائهم ، ويجمعوا الثروة ، ويتزوجوا فى نطاق طبقتهم ، وبالاختصار ، يحددوا التكوين الاجتماعى فى « الطبقات » ، (إلى درجة جعلت الإغريق يصفون مصر بأنها عالم مقسم إلى طوائف مهنية ووراثية مقفلة) . ومع ذلك ، فإن المجتمع المصرى ، عند نشأته ، لم يُكَوِّن ، قط ، طبقة وسطى حقيقية ، ولا طبقة من الفلاحين ، الذين كانوا مواطنين أحراراً

المحاجر Quarries : يمكن تقدير أهمية قطع الأحجار من المحاجر فى الاقتصاد المصرى من لمحة إلى الأهرامات أو إلى أى معبد من بضعة المعابد الباقية . كانت هذه المهنة من أهم مسئوليات الملك ، لأنها تؤثر فى حياة الدولة كلها . ويتوقف أسلوب القطع على نوع الحجر . ففى حالة أحجار طرة الجيدة النوع ، استخدموا طريقة حفر النفق . أما الجرانيت الموجود فى العراء قرب أسوان ، فكانوا يشقونه بأوتاد خشبية يصبون عليها الماء فتتضخم . وفى وادى الحمامات كان الشست ينشق من تلقاء نفسه بواسطة الطبيعة ، فما كان على المصريين إلا أن يجمعوه . ولم يكن العمل فى المناجم مستمراً (كان بعض المحاجر فى أماكن فى الصحراء المكشوفة على بُعد عدة كيلو مترات من النيل) . فإذا ما رغب الملك فى أن يبنى معبداً أو يزينه ، أمر بإرسال حملة : فيزودها الجيش بالإداريين ، وتزودها الحكومة بالفنيين ، وتأمر بالسخرة وتنظم إمداها بالمئونة والمواصلات . وقد يترك رائد الحملة تقريراً بعمله فى الحال . فمثلاً ، إبان عصر أمنمحات الثالث ــ « أرسلنى جلالته لأحضر له كتلاً من الشست من وادى الحمامات ، لتستعمل فى بناء معبده بمدينة التمساح للأبد . حصلت فى هذه السنة على عشرة تماثيل جالسة ارتفاع كل منها خمسة أذرع » .

المحرمات Taboo : أضفت الديانة المصرية حرمانية أو تحريماً على بعض الناس والحيوانات والأشياء والأفعال ، وكانت هذه التحريمات كثيرة ، عبارة عن بقايا عادات من عصور ما قبل التاريخ ، تنوعت من مدينة إلى أخرى ، ولكن كل عادة منها لم تتغير فى حد ذاتها . لا شىء أكثر رسوخاً من التحريم حتى ولو انعدمت أهميته الأصلية . والتحريم ذو وجهين متناقضين : أولاً ، فى صالح شخص ما أو شىء ما ، كأن يكون لحماية نوع من الحيوانات المقدسة ــ « من المحرم أن تضرب بقرة » ، أو « أكل سمك » . . . . ففى أرض الإله الكبش خنوم ، بُجِّل ذلك الحيوان ، ولم يُلبس أى جلد أو صوف للأغنام أو الكباش فى حضرة هذا الإله . ما كان لأى فرد أن يظهر أمام ذلك الإله وهو مرتدٍ شيئاً مأخوذاً من أى مثل أرضى لهذا الإله . لا تطيق الآلهة رؤية مثل ذلك المنظر ، حتى إن السحرة انتفعوا

به ليجعلوا تعاويذهم قوية لا تمكن مقاومتها ، فيقول الساحر : « إذا لم تسمع كلامى فسأقطع رأس فرس نهر فى فناء ست ؛ سأجعل سوبك (الإله التمساح) يلتف بجلد تمساح ، وسأجعل أنوبيس (الإله الكلب) يجلس ملتفاً بجلد كلب » . وبطبيعة الحال ، اختلفت التحريمات من منطقة إلى أخرى ، وأدت إلى التشاحن ، فمثلاً كان اليهود ، الذين أسسوا لهم مستعمرة فى جزيرة فيلة ، يذبحون الكباش ضحية ليهوذا فى نفس أرض الإله خنوم ، الأمر الذى يسبب امتعاض الكهنة المصريين !

إن تحريم الاتصال بشخص ما أو حيوان أو شىء أو فعلٍ بعينه ؛ لم يكن لحماية شىء ، بل لاجتناب شىء تمقته طقوس العبادة ، ولم يكن لهذا صلة بالأخلاق آنذاك . فحُرِّم طعام بعينه ، أو سلوك معين (مثل الشذوذ الجنسى) ، أو فعل معين (كإشعال نار فى وقت معين أو فى مكان بعينه) ، أو حالة بدنية خاصة (النساء عند الطمث) ، أو أنواع معينة من الأمراض ، أو ضحايا السحر ، وغير ذلك .

كانت الأساطير المحلية تفسر ، فى بعض الأحيان ، « أسباب التحريم . وأحياناً كانت تنسج أسطورة لتبرير تحريم موجود من قبل . ومع ذلك ، ففى معظم الحالات ، كان التحريم يظل بغير تفسير ، ولم يكن فى هذا ما يُدهش . وحتى فى القرن العشرين ، يتحاشى الناس المرور أسفل سلم ، ولا يرسمون صليباً عندما يتصافح أربعة أشخاص ، فهل يفطن الناس عند ذلك إلى أنهم يُحْيُون تحريماً غابراً أُخذت عنه هذه الاحتياطات الصبيانية ؟ لم يفهم متبعو هذه التحريمات فى العصور القديمة أسباب ما عملوا ، كما أنها لا تُعار أية أهمية دينية فى هذه الأيام .

المدن والقرى : دهش الإغريق عندما رأوا فى مصر آلافاً من المدن والقرى . صارت مستوطنات عصور ما قبل التاريخ حواضر الاقاليم ، وبنيت قرى جديدة وقصوراً جديدة للملوك والنبلاء ، كما بنيت المعابد ، وكان هناك أيضاً مستعمرات عسكرية . وتروى الأماكن الكثيرة ، المذكورة أسماؤها على الأحجار وأوراق البردى ، تاريخ مصر بأكمله ، بطريقتها الخاصة ، وتمدنا أسماء الأماكن الواقعة على ضفاف النيل بمجال رائع للبحث . وحتى الآن ، تظهر فى خريطة مصر أسماء « بيت أوزيريس » (أبو صير) و « مدينة حورس » (دمنهور) و « جزر أمون » (البلمون) . ولاتزال مدن شهيرة تحتفظ بأسمائها الفرعونية ، مثل : أسوان وإسنا وأسيوط وسمنود .

وعلاوة على المدن الرئيسية الثلاث — منف وهليوپوليس وطيبة ، كان هناك حتى الحقبة المتأخرة ، حوالى مائة من المدن ، والمراكز الإدارية ، والأماكن المقدسة ذات الأهمية القومية . وقد حُصِّنَ بعضها على الأقل . ويدين بعضها بشهرته الخاصة إلى النشاط الاقتصادى لمعبده ، أو إلى مركزه الجغرافى . فمثلاً ، كانت سايس مركزاً قديماً لصناعة المنسوجات ، واشتهرت إماو بإنتاج الخمر ، وكانت سيلة Sile مركزاً عسكرياً . كانت المدن المصرية متلاصقة

جداً ، ليس لتوفير الأرض (فلم يكن هناك نقص فى الأراضى الزراعية إطلاقاً) ، وإنما بسبب الفيضان . فبُنيت المدن والقرى فى الدلتا على المرتفعات (الجُزُر) وعلى تلال تكونت من رواسب الطمى ، وعلى السدود ، وعلى الأكوام الصناعية . وكانوا يجددون بناءها باستمرار . فكانت البيوت الجديدة تُبنى ، بدون انقطاع بالآجر فقط على أنقاض البيوت السابقة المهدومة والمسواة بسطح الأرض . وهذه العلامة التى ترسم دائماً بعد اسم المدينة ، تدل على تخطيط مستوطنة من مستوطنات عصور ما قبل التاريخ . والحقيقة أن المدن والقرى الريفية ما كانت لتحفظ تخطيطها المنتظم إلى أبد الدهر وكان الزائر لمنف العتيقة يجد شيئا من فوضى القاهرة القديمة . فتتراكم فيها أكوام فوق أكوام من القمامة ، وتتكون بين أحياء المدينة ، التى أحالها الآجر المحروق وقطع الفخار المتكسرة إلى أكوام حمراء ، شبكة معقدة من الممرات الضيقة المتعرجة المفروشة « بالشقافة » . وكان هناك مَثَل يقول « إن الحوائط لم تتهدم » فى العصر الذهبى ؛ ومع ذلك فسواء أكانت البيوت عالية أم منخفضة ، فإن تلك « المبانى المتداعية » تتلاصق وتستند بجسمها إلى المعبد ، الذى يحفظ سوره الضخم ، المبانى الجديدة إلى جانب الهياكل الخربة والمخازن المهدمة .

وبعد أزمنة القلاقل ، يضطر الملك إلى التدخل واتخاذ ما يلزم من إجراءات حيال المساكن الأهلية المبنية داخل سور المعبد ؛ والتى تزاحمت حتى صارت قمة السور المقدس طريقاً للتنزه ، وغدا سقف المعبد مكاناً للرقص .

ما من أحد يرى التلال الأثرية القاحلة فى وادى النيل ويستطيع القول بأن قدماء المصريين سكنوا المدن . ولكن هناك مدن على حدود الصحراء بنيت كلها فى عصر واحد ، ولاتزال سليمة لتشهد ببراعة قدماء المصريين فى تصميم المدن . فهناك ، مثلاً ، مدن عمال مقابر اللاهون وطيبة (دير المدينة) والعمارنة . فنرى فيها أسواراً ضيقة تحيط بآبار الماء ، والأزقة مرتبة فى شبكة من صفوف متوازية من البيوت الصغيرة . لم تكن خطة المدن خيالية ، بل كانت حسب نظام موضوع . ونرى شتى مظاهر التصميم المصرى للمدن ، فى مدينة العمارنة القديمة . فأقيمت المساكن الحقيرة والمتوسطة الحجم بين البيوت الرئيسية المرتبة خير ترتيب . بيد أننا نستطيع أن نميز ، على الأقل ، ثلاثة شوارع رئيسية ، تكاد تكون متوازية ، تصل بين الأحياء الثلاثة الواضحة كل الوضوح ، وهى ؛ الحى السكنىّ ، والقصر ومبانى المعبد ، والقسم الإدارى .

مدينة هابو : Medinet Habu :
يطلق هذا الاسم الآن على الكوم الأكبر الواقع فى الجزء الجنوبى من طيبة الغربية عند الحدود بين الصحراء والأرض الزراعية . كانت هذه هى الموضع المسمى چيمه Djeme حيث ظهر أمون لأول مرة . ولايزال هناك المعبد المكرس لإله الشمس ، الذى بناه الملوك الأربعة المسمون باسم تحوتمس وزخرفه من جاء بعدهم من

الملوك ، وهو محفوظ بحالة جيدة . أقام الكثيرون من ملوك طيبة معابدهم الجنائزية حول هذه المدينة ، وقد تهدم كثير منها ، بيد ان المعبد العظيم الذى بناه رمسيس الثالث ويسمى بـ « بيت ملايين السنين » — وبجواره خرائب القصر الملكى — لايزال محتفظاً ببوابته المحصنة وصرحه ومجموعة أبهائه وأبهاء أعمدته وحجراته وكذلك سوره المرتفع المبنى بالآجرّ ، والبالغ الطول على المعبد الأصلى الصغير . وكانت الحياة ، فى نهاية الدولة القديمة مركّزة على الضفة اليسرى عند طيبة داخل هذا السور . وقد توطدت هناك عبادة أوزيريس . كما دُفن بها الملك الكاهن حورسايسة Harsiesis ومحظيات أمون . وأقامت زوجات أمون المقدسات هيكلاً جنائزيا جيلاً فى تلك البقعة . وإن المدينة القبطية التى قامت هناك على خرائب المبانى الوثنية ، قد صارت عظيمة الاتساع ، حتى إن ذلك الموضع — الذى كان يسكنه قبل ذلك حفنة من الفلاحين البسطاء أصبح جديراً باسم « مدينة » .

مذبح : وجدت أدلة فى القبور منذ أقدم العصور على استعمال موائد تقديم القرابين . المأكولة والمشروبة التى تفرض الطقوس الجنائزية تقديمها للشخص الميت . وتحسبا لعدم القيام بذلك الفرض ، كانت تنحت صور الطعام وتعاويذ القرابين على سطح المائدة لضمان تغذية الميت بكل طريقة ممكنة .

وجدت مذابح بالمعابد ، أحياناً على هيئة كتل ضخمة قائمة فى أفنية مكشوفة — مذبح هليوبوليس الرباعى والمذابح ذات الدرج فى تل العمارنة — وأحياناً أخرى على صورة أصغر كثيراً فى الحجم من هذه ، فى الغرفة التى أمام المعبد . كما كانت هناك مذابح مركبة تتكون من قاعدة أسطوانية ، فوقها لوحة من الحجر أو طاسة أو موقد صغير لحرق البخور . فكانوا يضعون الطعام فوق المذبح ، وبعد أن يفعل به الإله ما يريد فعله ، يأخذه الكهنة ويأكلونه .

كذلك استعملوا مذابح النار فى بعض الطقوس الخاصة بطرد الأرواح الشريرة (حرق تماثيل صغيرة ونحوها) غير أن عادة التقدمات المحروقة لم تظهر فى التاريخ المصرى إلاّ فى زمن متأخر . ويدل اسمها الساميّ على صفتها الأجنبية .

المرأة المصرية : كتب رجل محزون . فى هامش نقش على جدار معبد قديم : « سخيف ككلام المرأة » . ومن الجلى أن هذا الرجل أراد أن يجعل كلامه عاماً عن نفسية الأنثى . وفضلاً عن هذا ، قال أحد الوزراء إن الملاحظة الحكيمة — وهى نفسها نادرة — « يمكن فهمها ، حتى بواسطة المرأة المنكبة على الرحى » . وقد اتفق العرف الفنى المصرى على أن النساء والخدم يجب أن يصوَّروا دائماً بأجسام شابة ، طويلة ورشيقة فى أوضاع محتشمة ولكن يجب إظهار تفاصيل الجسم من خلال ثيابهم . وعلى العموم ، لا يمكننا الجزم بما إذا كانت أولئك النسوة المصورات هكذا فى رقة ، يتناسبن مع « أرض خصبة » أو مع « دوامة لا يمكن التنبؤ بأمواجها » . وقد أخذ أدب الحكمة يكيل السباب ضد شراك الجسد

الجميل الشبيه بالغيانس التي تتنافى مع القيم الاجتماعية والنموذج الأصلي لزوجة يتخذ [redacted] الكثيرة الهروب والخداع هي بطلة قصة مصرية . ولحسن الحظ خلفت سير الحياة التقليدية التى حاكت حكم الملكية في أقوالها ذكرى الزوجة المحبة والجليلة التي يحبها كل فرد . ومن السهل أن نذكر أمثلة ، من الكتابات والأساطير المصرية ، لنماذج أنثوية خالدة : إيزيس الأم المثالية ، وحتحور الباسمة ، وسخمت المريعة . وعلى نقيض كثير من الشعوب الأخرى اهتم المصريون الوثنيون بالنساء ، واعتبروهن مساويات لهم في الحقوق الشرعية ، ولهن نفس وعود الحياة الأبدية التي للرجال .

وفي الجلسات العائلية المصورة على جدران مقابر الدولة القديمة ، كثيراً ما نرى النبلاء مع أمهاتهم أكثر منهم مع آبائهم . وفي الدولة الوسطى كان بوسع الرجل أن ينسب نفسه إلى اسم أمه ، وكان هناك اقليم ينص على أن يكون الميراث عن طريق النساء . وقد ذكر أحد المصادر التاريخية هذا الدليل وأدلة غيره مشكوكاً فيها أكثر من هذا ، وتكلم عن وجود نظام أموى في بعض العصور . وعلى الرغم من إمكان إثبات نفوذ « أمهات الملك » في أمور الأسرة الملكية ، ونفوذ الأميرات النوبيات ببلاد النوبة ، في الحقبة المتأخرة ، فإن من الأكثر صواباً ، نسبيًّا ، أن نذكر أمثلة متفرقة عن قانون جعل النسب عن طريق الأم ، في مصر الكلاسيكية . وكقاعدة عامة كان المركز المدني يتبع النسب عن طريق الأب (فلان ابن أبيه) . وكان الرجال هم الذين يسلمون مناصبهم وصناعاتهم لأولادهم . وليس من الشهامة أن نعدد في هذه المقالة الحقائق المثبتة للميزات المرموقة للذكور ، في المجتمع المصري . إنها سيادة وليس طغياناً ـ لم يكن هناك أجنحة في البيوت خاصة بالسيدات ، على الطريقة الإغريقية (انظر الحريم) ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك خِمار أو نقاب . كان مركز السيدات في مصر القديمة شبيهاً جداً بمركز سيدات الطبقة المتوسطة في أوروبا ، إبان القرن التاسع عشر . وبالفعل صارت أربع أميرات ملكات حاكمات (منهن حتشبسوت) ، ولكن جرت العادة على تفضيل الحاربين للجلوس على العرش . أما المشتغلون بالأمور الذهنية وأصحاب الحِرَف وكهنة الآلهة فكانوا من الرجال . ورغم هذا ، فقد كانت هناك كاهنات من النساء وبعض المغنيات والموسيقيات (انظر الكهنة) . واستخدمت النساء في صناعات الأغذية والمنسوجات . وكان بعض النسوة يعرفن القراءة والكتابة . وفي النهاية كان الزواج هو الذي يخول للمرأة بأن تقوم بدورها في المجتمع ، يحبها زوجها وأولادها ، وتشرف على صالح الأسرة « كسيدة البيت » .

المرايا : كثيراً ما نرى في المتاحف بعض المرايا الجميلة ، جاءت من مصر . وشكلها عادة واحد . فهي عبارة عن قرص معدني من النحاس أو البرونز أو الفضة أو من سبيكةٍ ما ، مسطح قليلاً ، وصُقل من قبل بعناية . وقد ثُبِّت القرص في يد على هيئة

عمود صغير ، أو فى صورة امرأة جميلة التقاطيع أو على صورة « الاله بس » المقطب . لم يكن لدى قدماء المصريين مرايا زجاجية مفضضة قبل العصر المسيحى . ومن طقوس عبادة الربتين حتحور وموت ، أن تقدَّم لهما مرآتان ولا شك فى أن المرآة كانت شيئاً نفيساً . وتصف إحدى الوثائق الثورة الاجتماعية التى قامت فى نهاية الدولة القديمة والترف المرذول « لمحدثى النعمة » ، فتقول : « فالمرأة التى كانت ترى نفسها من قبل فى بركة ، تملك الأن مرآة من البرونز » .

المسكرات : أراد الرب رع أن ينقذ البشرية من غضب ابنته حتحور ، فجعلها تشرب مشروباً قويًّا ، بلون الدم ، أثّر عليها فى الحال ، فراحتْ فى سبات عميق . وبسبب هذه الخدعة ، دبَّر البشر أمر حياتهم ، وظلت حفلات الأعياد والرقص والموسيقى والشراب ، تحت رعاية تلك الربة العظيمة . كانت الخمر تراق كالأنهار إبان الأعياد السنوية ، التى كانت تجذب الزائرين من جميع أرجاء مصر إلى أى معبد . ويقول هيرودوت : « فى عيد بوبا ستيس Bubastis ، كان ما يشربه الناس من الخمر أكثر مما يشربونه طوال بقية السنة » . نعرف قصة عابد هذه الربة القديمة ، الذى بعد أن انتهى من حفل ليلىّ لاحتساء الخمر ، توجس من أن يذهب إلى بيته ، وجاءه الوحى أن يستمر فى السهر عند قبر أوزيريس ، المكرّس للسكون الشامل .

كان للمدن الكبرى عربيدوها من الشبان ، الذين لا ينتظرون حتى تأتى الأعياد لكى يحتسوا الخمر حتى النشوة ، بل كانوا يشربون النبيذ أو البيرة فى جميع الأوقات . وإذ يأس شيوخ الكتبة وذعروا من سلوك تلاميذهم ، كانوا يشكون منهم قائلين : « سمعتُ أنك تهمل استذكار دروسك ، وتكرس نفسك تماماً للملذات ، فتنتقل من شارع إلى شارع تفوح منك رائحة الجعة .... تسلبك الجعة جميع الوقار الإنسانى ، وتؤثر على عقلك ، وهأنتذا أشبه ما تكون بالدفة المكسورة ، لا تصلح لشىء ..... وجدوك تقوم بالألعاب البهلوانية فوق حائط ، ويهرب الناس من صفعاتك .... .. اه ! لو عرفت أن الخمر ممقوتة ، ولو أقلعتَ عن الشراب وفكّرتَ فى شىء آخر غير أقداح الجعة ! ..... ولكن ، هأنتذا تتعلم العزف على الناى ، ولمس أوتار القيثارة ... . هأنتذا تعيش فى بيت ، وتلهو مع جماعة سيئة من الفتيات .... انظر إلى نفسك بجانب فتاة ، مفعماً بالعطور ، وحول رقبتك إكليل من الأزهار ، تطبل فوق معدتك ، وتتدحرج على الأرض مكسوا بالقاذورات ! » .

كان الولع بالحفلات والحياة المرحة شائعاً بين المصريين ساكنى المدن وكانوا أكثر انغماساً فى الملذات من تلاميذ أستاذ المدرسة العجوز الذين كانوا يغشون الحانات والمراقص . ومع ذلك كانت الحفلات من المظاهر التى يقضى فيها الشبان أوقات فراغهم دون اعتبارها من مظاهر الخلاعة فى هذا العالم . وهناك قصة متوارثة ذكرها هيرودوت تبين حنق الموظفين على الملك

أحمس الثانى (أمازيس) لاحتسائه الخمر ، وغضبهم عندما يرون عجزه عن تصريف أمور الدولة بعد سهرة حمراء .

المسلات Obelisks : يرجع تاريخ تقديس المسلات إلى عصور ما قبل الأسرات . والمسلة قائم من الحجر ترسل الشمس المشرقة أشعتها عليه ، ثم انتشر استعمال المسلات معمارياً فى جميع أنحاء مصر ، أخذاً عن هليوبوليس . ورغم ندرة استعمال المسلات فى العصور المبكرة ، فقد صارت المسلات كثيرة العدد فى الدول الحديثة . فأقيمت أزواجاً واحدة عند كل جانب من مدخل صرح المعبد . وفى بعض الأحوال ، عندما عادت عبادة الشمس ، أقيمت مسلات مفردة على محور المعبد ، ومن أمثلة ذلك الحجر المقدس الموجود فى هليوبوليس . كانت هذه المسلات ذات الجوانب الرأسية والقمم الهرمية المُذَهَّبة ، تذكاراً لعبادة الشمس التى أوجدتها . نُحتت المسلات من حجر الجرانيت الأحمر الأسوانى . وكان قطعها ونقلها وإقامتها مسألة ليس لدينا المعلومات الكافية عنها .

ويبلغ وزن المسلة عدة مئات من الأطنان ، وأضخم المسلات (لاتزال غير كاملة الصنع فى محجرها بأسوان) ، تزن أكثر من ألف طن .

نقلت المسلات من مصر فى جميع العصور . فقد نقل أشوربانيبال Ashurbanipal اثنتين منها إلى نينوى . ونقل الأباطرة الرومان كثيراً منها إلى روما وإلى القسطنطينية ، وحذت الدول الحديثة حذو هؤلاء فى القرن التاسع عشر . ولا يوجد قائماً فى مصر الآن سوى أربع أو خمس مسلات ، ولكن يوجد بالميادين العامة لعواصم الدول الأوروبية والأمريكية أكثر من خمسين مسلة .

مسند الرأس Head - rest أو الوسادة : استعمل المصريون وسادة يسندون إليها رءوسهم عند النوم ، كشأن كثير من الشعوب الأفريقية . ويختلف الشكل العام لهذه الوسادة ، بعض الشىء ، وتتألف من قاعدة ثابتة ذات قطعة عمودية مثبتة فيها ، ثم قطعة مستعرضة هلالية الشكل توضع فوقها وسادة صغيرة للرأس . وقد يزين هذا المسند بصور الحراس الإلهيين الذين اعتقد المصريون أنهم يمنعون الأرواح الشريرة عن الشخص النائم . ويمكن صنع مساند الرأس من الخشب أو من الحجر ــ مثال ذلك ، مسند رأس توت عنخ أمون المصنوع من المرمر .

مصر : لقد ضاع الأصل الذى أخذ عنه تركيب هذه الكلمة (إيچپت Egypt) التى انتقلت إلينا من اللغة الإغريقية عن طريق اللاتينية . كان الوطنيون يعرفون منف باسم حت ــ كا ــ بتاح (أى معبد روح بتاح) . وتبعاً لنظرية معقولة أخذ الأغارقة كلمة أيچيپتوس Aegyptos من هذه الكلمة مستخدمين اسم أهم ميناء على النيل ، ليدل على المملكة كلها حتى الشلال الأول (أى النوبة وجميع المساحة المعروفة باسم اثيوبيا) .

أطلق سكان آسيا على مصر الاسم السامىّ « مصر » الذى لايزال مستعملاً فى

اللغة العربية . وأهم وصف لمصر يوجد فى لغة قدماء المصريين أنفسهم . فقد أطلقوا على بلدهم اسم « الأحمر والأسود » . عبّروا باللون الأحمر عن المساحات الصحراوية ذات المناخ الشبيه بمناخ الصحراء الكبرى . إنه مناخ يسود تلك المساحات الشاسعة من الأرض عديمة الماء ، الممتدة إلى الشرق وإلى الغرب حيث لا يوجد أى نبات إلا فى الواحات الليبية ، كما يصف الأحجار التى مكّنت الحضارة الفرعونية من البقاء فى تلك العظمة . أما اللون الأسود فعبروا به عن ذلك الوادى الغريب « المساوى لمساحة بلجيكا ، والذى يبلغ طوله ضعف طول فرنسا » . كوّنَ هذا الوادى نهرٌ واحد ، هو النيل ، الذى يفيض فى كل عام ليروى الأرض ويزودها بطمى جديد تتكون منه أراض جديدة . وتعيش على ضفتيه الجانبين الحيوانات والنباتات الوطنية النموذجية لأفريقيا . وكانت تزدهر وتتكاثر فى المستنقعات بينما زرعت بعض الأراضى التى تُروى بطريقة رى منظمة ، فأنتجت محصولات زراعية أشبه بمحصولات المنطقة المعتدلة ليعيش عليها عدد قليل نسبياً من السكان . عاش هؤلاء السكان المصريون بعيداً عن تلك الأرض السوداء التى عبر لونها عن بلادهم : كمة . ومع ذلك ، فقد كانت هناك أسماء أخرى أكثر دقة كُتب أهمها ببراع (بوص) مزهر ، رمز مصر الجنوبية ، وباقة من البردى رمز مصر السفلى. وكان فرعون ، سيد القطرين ، يحكم ، جغرافيا وسياسيا دولة مزدوجة ، إذ كانت مصر الجنوبية شريطاً ضيقاً من الأرض (هى طيبة القديمة والصعيد الحالى) ، يتسع قليلا عند أسيوط ليصير المنطقة المعروفة باسم مصر الوسطى (حيث يدور فرع النيل نحو الغرب ، ثم يتسع عند الفيوم) . أما عرض هذا الشريط الذى يبلغ طوله ١٠٠٠ كم ، فلا يتعدى ٣٠ كم . وتوجد الصحارى على كلا جانبى النيل بطول الصعيد كله من أسوان إلى القاهرة . وكما ان المناطق الجنوبية (الاقاليم) كانت تمتد بطول الوادى ، الذى قطعته (جيولوجيا) فيضانات نيلية بالغة الارتفاع ، فإن أقاليم الشمال ، أعلى منف ، وزعت فى الدلتا التى تكونت من رواسب طينية ملأت الخلجان القديمة للبحر المتوسط . كانت الدلتا سهلاً فسيحاً طوله حوالى ١٨٠ كم وعرضه حوالى ٢٧٠ كم ، وفى كل من جانبيه بحيرات ، هى بحيرة مريوط والبرلس والمنزلة ، وغيرها وكانت الدلتا فى العصور القديمة تنقسم بواسطة أفرع النيل الثلاثة العظمى التى يتقاطع معها كثير من القنوات الصغيرة الطبيعية والصناعية .

مصر مفترق طرق مفتوح ، كما هى واحة معزولة . ومنذ عصور ما قبل التاريخ جاءها السكان والنباتات والحيوانات والخبرات الفنية والمعتقدات ، من العوالم الأربعة التى تتقابل عندها . فكانت تحيط بها الصحراء الكبرى وأفريقيا السوداء والشرق الأدنى والبحر المتوسط . بيد أن موقعها الجغرافى الفذ ، عزلها وميّزها ، حتى استطاع المصريون منذ ٥٠٠٠ سنة خلت ، أن يخلقوا ويحتفظوا بما عملوه حتى العصر المسيحى ، وهى مدنية خاصة امتزجت بالتقاليد البائدة والآراء التقدمية ، وبذا جعلوا علم الآثار المصرية موضوعاً يجتمع الدراسة لعلماء

الدراسات الانسانية . إن هذا النضوج المبكر هو الذى جعل المصريين الشعب المتماسك الوحيد فى العصور القديمة .

المصطبة **Mastaba** : المصاطب قبور خاصة من عهد الدولة القديمة ، بنيت حول هرم ملكى ، ورتبت تبعاً لخطة منظمة ، فى الجيزة وسقارة وبعض جهات أخرى . وهناك عدة أنواع مختلفة تتميز تبعاً لما إذا كانت مصنوعة من الأجر أو من الحجر ، وتبعاً للنسبة بين أبعادها ، وتبعاً لطريقة بناء « الدماميك » ، وتبعاً لنظام بناء الحجرات بداخلها .

وكقاعدة عامة ، تتكون المصطبة من جزءين مستقلين : حجرة الدفن ، ومقصورة . وتقع حجرة الدفن عند قاع بئر ، رأسى عادة ، وتحتوى على تابوت من الحجر ، منحوت كهبة خاصة من الملك ، وبعض الأثاث الجنائزى مما لا يستغنى عنه الميت فى حياته المستقبلة فى العالم السفلى . وتبنى حوائط هذه الحجرة بعد أن يُدفن فيها (انظر العادات الجنائزية) ، ويملأ البئر بالحجارة والتراب . ويتكون الجزء المبنى من المصطبة ، وهو الظاهر فوق سطح الأرض ، من كوم من مواد البناء يُجعل له شكل بحوائط من الحجارة . وكانت المصطبة ، عادة ، على هيئة متوازى مستطيلات ذى حوائط مائلة قليلاً (ومن هنا اتخذت الاسم العربى « مصطبة » بمعنى أريكة أو مقعد طويل) . يضاف إلى هذه الكتلة الهندسية ، من الخارج ، مقصورة صغيرة عند الجهة الشرقية ، حيث تقام الطقوس الجنائزية . وسرعان ما باتت هذه المقصورة جزءاً من المصطبة نفسها ، وبنيت فيه حجرات وممرات . وكان بوسع الأحياء دخول هذه المقصورة فى أيام معينة ليحضروا الطعام والشراب ويحرقوا البخور تكريماً للميت .

كان بوسع ذلك الميت أن يتصل بالمقصورة بواسطة « باب وهمى » ، وتوضع تماثيله فى ممر مقفل تماماً بحوائط (السرداب) ، ويستطيع استنشاق البخور واستلام التقدمات من فتحات ضيقة .

اهتم قدماء المصريين بالإفراط فى زخرفة هذه المقاصير ، إما بالنقوش البارزة أو المناظر التى تمثل حياتهم على الأرض ، كشتى أوجه نشاط المتوفى فى الحقول والمصانع ، وحياته فى بيته ، وما كان يتسلى به من ألعاب ورقص ، وغير ذلك . فتنتقل كل هذه الأعمال ، بقوة السحر ، إلى حياته الثانية ، وبذا تعيد إليه حياة مشابهة فى العالم الآخر . وقد كرسوا جزءاً هامًّا من هذه النقوش إلى الأطعمة . فتتضمن مناظر الولائم ومواكب أملاكه الزراعية عند إحضار المحصول ، و « قائمة بالتقدمات » (قائمة أطعمة تضم حوالى مائة « طبق ») ، وصيغة جنائزية ملكية تضمن للميت أن يجد مائدته مزودة ، إلى الأبد ، بالأطعمة (انظر المذبح) ، بواسطة الموظف الملكى وقوة هذه الصيغة نفسها .

ورغم هذا ، فإن « النداء إلى الأحياء » ، يطلب من المارين أن يتلوا بضع كلمات تجعل هذه التعويذة البالغة الأهمية ، نافذة المفعول .

المعابد **Temples** : منذ أن انحسرت مياه النيل فسمحت للشعوب البدوية بالنزول من الهضاب الليبية والعربية، والاستقرار على ضفافه وبناء القرى، أقام المصريون لأربابهم دوراً مثل دورهم، وكانت أكواخا مسقوفة من الغاب مخروطية الشكل أشبه بقمع السكر، مزخرفة برءوس الثيران. ولم يبق أى بيت من هذه البيوت الهشة (انظر الأصول)، وإنما خلدت ذكرها الصور الأثرية للعصور اللاحقة. كما أنه لم يبق من معبد الميداموت المنقور فى باطن الأرض، ومبانى الدولة القديمة المبنية بالآجر، والمبانى الدينية للدولة الوسطى، سوى بقايا بسيطة لا يمكن أن يدركها ويفسرها غير الخبراء. ولن يجد السائح فرصة ليرى أكثر من المقصورة الصغيرة الخاصة بسنوسرت فى الكرنك التى تعطيه فكرة بسيطة عن منظر معابد لعصور القديمة، كما أن المجموعات الكبيرة من المبانى العظيمة للدولة الحديثة بطيبة (انظر كذلك الكرنك والأقصر) وفى أبيدوس، ومبانى العصور اللاحقة (انظر ادفو ودندرة وفيلة)، تجعل بالإمكان اكتشاف العناصر لدائمة (رغم تعقيد التفاصيل) التى كونت التركيب الأساسى للمعابد المصرية.

وأهم عناصر المعبد قدس الأقداس الذى يتألف من هيكل صغير مربع الشكل أو مستطيله، ذى سقف خاص منفصل عن بقية المعبد الأصلى، يبدو كاحد الاكواخ البدائية المصنوعة من الغاب، ويضم ناووسا من الجرانيت أو من أى حجر صلب آخر، كانوا يحفظون فيه تمثال الإله.

ويوجد القارب المتنقل فى هذا الهيكل أو فى حجرة مجاورة، ذلك القارب الذى كانوا ينقلون فيه التمثال، من المعبد، فى المواكب والأعياد. ويحيط بهذا المعبد الفرعى الصغير حجرات صغيرة مخصصة لعبادة آلهة ثانويين محليين من الأرباب الذين يبجلهم كهنوت المعبد. كذلك استعملت حجرات جانبية أخرى كغرف تجهيز، لحفظ الثياب والمجوهرات وأدوات الطقوس الدينية اللازمة للحفلات وأمام هذه المبانى عدد من الحجرات التى يزداد اتساعها كلما بعدت عن المعبد الفرعى، وهى تؤلف أبهاء الأعمدة المسقوفة. وأحياناً يفصل فناء، به المذابح والتماثيل، القاعة العظمى ذات الأعمدة عن الصرح الخارجى الذى يشكل المدخل الرئيسى للمعبد. هذا هو المبنى الرئيسى — الهيكل الأصلى للمعبد. وتكمل بعض الأبنية الفرعية مجموعة المبانى المعقدة، وتشمل بحيرة مقدسة وبئراً وبيتاً للحياة، ومساكن لموظفى المعبد، ومخازن للحبوب، ومخازن أخرى، كما كانت تضم فى العصور اللاحقة بيتاً للولادة. ويحيط بهذه المساحة كلها سور عظيم من الآجر به فتحات من الحجر الرملى موضوعة على محور السور. وأمام صرح المدخل، إفريز صغير يمكن ربط قارب الإله فيه. ويوصل إلى المعبد طريق طويل على جانبيه تماثيل لأبى الهول.

ولكل معبد عدد كبير من الكهنة ينفق عليهم ريزودون بالطعام، بنفس الطريقة التى يزوّد بها الآلهة بتقدمات الأطعمة، أى من ريع الأراضى التى يملكها المعبد. وقد

زُوِّد كل مبنى دينى بمساحة معينة من الأرض الزراعية ، تنتج أطعمة كافية للطقوس اليومية وغذاء الكهنة ، تضاف إليها إيرادات أخرى يمكن تحصيلها ثم تكونت بالتدريج ممتلكات المعابد العظمى . وهكذا كان يتسلم معبد أمون بطيبة ، فى كل عام ، كميات هائلة من الذهب والفضة والنحاس والأقمشة والخيوط المغزولة والبخور والعسل والزيت والنبيذ والحبوب والخضروات والنيل والطيور والماشية ، ومن سفن البضائع أيضاً . ولكل معبد طائفة كبيرة من الكتبة والمشرفين والمديرين المكلفين بإدارته والإشراف على الممتلكات الواسعة التى يملكها الإله فى عدة أجزاء من المملكة . وكثيراً ما كانت المعابد تتسلم مجموعات من أسرى الحروب للعمل فى الحقول ، حتى إن قرى كاملة من الليبيين أو الأسيويين ، كانت تعمل فى أراضى بتاح أو أراضى أمون . وأخيراً كانت تصل إلى المعابد الهدايا والهبات فى مختلف الأوقات ، لتزيد فى ممتلكات الإله أو قد تعمل ، على أية حال ، على إنقاص الالتزامات الضرائبية وإنقاص مخصصات العمال .

ما مقدار الدور الذى يلعبه المعبد فى الحياة المصرية ؟ أولاً ، لا يمكن عمل مقارنة بين المعبد وأية كنيسة مسيحية أو معبد إغريقى . كان المعبد المصرى مبنى وظيفياً مكرساً لأهم الأعمال الأرضية الأساسية ، وهى المحافظة على الخليقة . كانت هناك قوى غامضة من قوى الفضاء قبل أن تُخلق الدنيا ، ورغم أنها قُذفت إلى الحافة الخارجية للعالم ، فإنها ظلت تهددها ، وكان التوازن ، المحافظ على العالم المرئى ومختلف صور الحياة ، نتيجة عملية الخلق التى تتجدد فى كل يوم . وأثناء الظلام فى كل ليلة ، يحلق بالدنيا من جديد خطر أن تستغرق فى نوم لا استيقاظ منه ؛ فما أن تشرق الشمس فى اليوم التالى حتى يُزول ذلك الخطر . ولا يستطيع المحافظة على وجود هذا الكون المزعزع سوى الآلهة بمجهودها المتواصل . تظهر هذه الآلهة . التى هى القوى العامة ، فى كل مكان ، بشتى الصور ، ونعيش على الأرض فى « بيوتها » — أى فى المعابد . ووظيفة هذا المبنى وموظفيه هى حماية الآلهة من هجمات القوى المعادية ، وتغذيتها ، والمحافظة عليها فى حالة جيدة لتسهيل عملها الكونىّ ومنع أى تدخُّل قد يعوق عملها . وعلى هذا لم يكن المعبد المصرى بيت صلاة يأتى إليه الناس سعياً وراء الراحة للروح أو الإحساس بالقدسية أو سماع مواعظ حياة روحية أفضل . لم يُسمح للشعب بدخول المعبد ، وكان الضوء الخافت والأبهاء الشبيهة بالمتاهة ، ونظام الأبواب السرية والكثير من الأسوار ، تعمل جميعاً على حفظ المعبد من الفضول غير المستحب . وإنما كان المعبد نوعاً من المصانع ، أُجيد اختيار موظفيه ، وكان مغلقاً فى وجه العالم الخارجى ، وتكتنف المحافظة عليه أخطار ، كما لو كان محطة التجارب النووية .

كان المعبد وظيفياً ورمزياً بكل معانى الكلمة . والسبب فى بناء حوائط المعبد من الحجر بينما قنع السكان بالآجر ، هو أن المعبد نموذج مصغر للدنيا ، يبنى من أصلب ما تحتويه الأرض من مواد تتكون منها

أساسات العالم . وكان سقف المعبد أشبه بقبة السماء ، تزينه النجوم ، وتجتازه الطيور المقدسة العظيمة ، كما أنه كان مزخرفا بخرائط النجوم (مناطق البروج) وجداول معرفة الوقت ليلاً بمواقع النجوم . وقد رسم كل منظر من مناظر الطقوس ، على الحوائط ، بين خط أفقى يمثل الأرض ، وقبة مليئة بالنجوم . وحتى أرض المعبد ، التى تخرج منها نباتات المستنقعات التى تزين قواعد الحوائط ، وتقوم فيها غابات من الأعمدة تحاكى أشكال النباتات ، فتخالها أرضاً خصبة ، بينما تعيد زخارف المعبد إلى الأذهان بعض الأساطير الضرورية للمحافظة على العالم . فتبين الخليقة ، وتجدُّد حياة النبات ، والانتصار على قوى الظلام ، والمحافظة على السماء فوق عمودها الهوائى . لم يكن ترتيب الأحجار فى البناء هو الذى يعيد إلى الأذهان استمرار ذبائح الحيوان والقرابين البشرية ، التى بواسطتها تستطيع القوة الإلهية الدائمة الثبات ، أن تحافظ ، وسط الفضاء المعادى ، على تلك الواحة من النظام والحياة والضوء ، التى هى فى الحقيقة دنيانا الأرضية .

المعابد الجنائزية Funerary Temples : يبنى معبد فوق قبر الرجل الغنى ، فتقام فيه الطقوس اللازمة لضمان الحياة . كان بجوار الأهرام معبد ، يتفق حجمه وشعائره وأوقافه التى تنفق على صيانته وعلى كهنته ؛ مع طبيعة الملك المقدسة . فى هذا المعبد كان الكاهن المكلف بالخدمة يرتل الترنيمة الطقسية ويقوم بالتقدمات اللازمة لبقاء الملك حياً

وفى الأسرة الخامسة ، أضيف « معبد شمسى » إلى المعبد الجنائزى . هناك معبد شاهق ، عبارة عن صورة طبق الأصل من المعبد الذى وُلد فيه أول إله ، خصص لاتحاد الملك النجم والملك الشمس . وعلى حافة الصحراء الغربية عند طيبة ، بنى كل فرعون من فراعنة الدولة الحديثة ، معبداً جديداً بجانبه مساكن ومخازن ، وزوده بالأدوات الثمينة . وغالباً ما يقال إن معبد ممنون ، والراميسيوم ، والدير البحرى ، ومدينة هابو ، مبان جنائزية تابعة للقبور البعيدة فى وادى الملوك . ولئن كانت هذه المعابد تتضمن مقاصير لإقامة شعائر الملوك الجنائزية ولخدمة الآلهة الجنائزية ، إلا أنها كانت فى الواقع أكثر غموضاً وأعظم فخامة من المقاصير الجنائزية العادية الموجودة فى الجبانات . سميت هذه المبانى « قلاع ملايين السنين » ، وضاعف الملك عددها فى جميع أنحاء الوادى ، حتى يربط بين مصيره فوق البشرىّ ، ومصير الآلهة العظام . هنا وصل فرعون شخصيته بشخصية أمون ، تجسيد الشمس الماجد . سيرى الزائر أن المبانى المسماة « معابد جنائزية طيبية » لا تختلف فى تصميمها وزخرفتها عن المعابد العادية المخصصة للآلهة .

المعتقدات الجنائزية Funerary Beliefs : ليس من المنتظر أن نجد مذهباً عاماً عن مصير البشر بعد الموت فى دولة اختلفت فيها مظاهر المعتقدات الدينية من مدينة إلى أخرى . والحقيقة أن فكرة الحياة بعد الموت التى نراها فى النصوص وفى أعمال الفن فى الدولة الحديثة مثلاً ، تبدو لأول

وهلة معقدة . فهناك عدة طبقات من المعتقدات ، ليس بينها أى ارتباط ، ولكنها مكدسة ، واحداً فوق الآخر ، ليتكون منها مذهب مختلط يتضمن شيئاً من كل معتقد ، ولا يحتوى على كل عناصرها الأساسية . والطريقة الوحيدة التى يمكننا أن نفهم بها هذه المجموعة المعقدة من المعتقدات ، هى أن نتتبع تاريخ كل منها .

كانت أقدم فكرة عن الحياة بعد الموت ، ومصير الشخص الميت أبسط هذه المعتقدات ، وأكثرها شيوعاً بين قدماء المصريين . عندما يدفن الميت ، يوضع فى قبره ، فى رمال الصحراء أو فى صخور الجبل ــ خارج وادى النيل ذى الحقول الخضراء ، الخاص بالأحياء . وتسمى هذه المناطق ، فى النصوص « ما تحت الإله » . هناك ، قدروا أن يستعيد الجسم الميت الحياة . يزاول الميت داخل قبره حياة جديدة بنفس الاحتياجات التى كانت تلزمه وهو على الأرض ، ومن الجلى أن يستعيد قدراته ومواهبه السابقة . لذلك يجب أن ينال الجسم الطعام ، الذى يجب أن يوضع بعناية فى قدور ضخمة قريبة من متناول يده . وتتضمن طقوس الموتى تجديد هذه المئونة . هذه هى أقدم المعتقدات الجنائزية التى وجدنا الأدلة عليها فى قبور أزمنة ما قبل الأسرات التى عُثر عليها فى رمال الصحراء حيث وجدنا جثة الميت موضوعة فيما يسمى بوضع « الجنين » . هذا من عصر سابق بكثير للعصور التاريخية . ولا شك أنه كانت هناك ، فى ذلك الوقت ، معتقدات أخرى لما بعد الموت ، لا نعرف كنهها ، ولكنها تتضح من عادة وضع الجثث فى القبور فى اتجاه بعينه . ظهرت بعد ذلك آراء أخرى شاعت لفترة قصيرة ، غير أن المعتقد القديم القائل بالحياة فى القبر بعد الموت ، لم يبرح أذهان قدماء المصريين .

تمكن رؤية ذلك فى الأهمية المعطاة للأطعمة الموضوعة فى القبور ولزخرفة القبور إذ يوجد كل شىء فى نقوشها : مناظر الحياة اليومية ، وصور الجنازات ، وشتى أنواع النشاط فى الحقل والبيت ، ومناظر العائلات ، وتسجيل الأحداث التاريخية ، أو الاحتفالات الدينية . ويختلف اختيار المنظر بين قبر وآخر كما يختلف من عصر لآخر . بيد أن هناك شيئاً واحداً لا يتغير ، هو وجبة الميت ومائدته التى تنوء بما عليها من التقدمات . ففى الدولة القديمة ، كان الميت يأخذ معه قائمة بأنواع الطعام يطرب لها فؤاد أشد الناس نهما وحبا للطعام ثم حرص على تصوير أطعمة من كل نوع ، يأمل فى أن تسد جوعه ؛ وزيادة على ذلك ، فإن السحر الكائن فى النقوش والصور كان يجدد أطعمته متى أراد ، ويبعث الحياة فى مناظر الحصاد وجمع العنب وحلقات صيد الحيوان والأسماك المصورة على جدران المقبرة . وعلى ذلك كانت فكرة الحياة فى القبر لاتزال باقية ولم تندثر ، بل على العكس ، نُظِّمَ كل شىء بحيث يتمتع الميت إبان الحياة الثانية بمقدار وفير مما يحتاج إليه .

أما الروح التى هربت فى لحظة الموت ، فتعود بالقوة إلى الجسم الخاوى بواسطة طقس « فتح الفم » ، وبذا يستعيد الميت تركيبه فى عناصره الحيوية ، ويزوَّد بكل ضروريات الحياة ، فيجد أمامه خلوداً

يقضيه فى قبره بطريقة تشبه الطريقة التى كان يحيا بها على الأرض .

تفترض فى هذا المعتقد الأول ، الذى لن يختفى تماماً على الإطلاق ، دورتـان متتابعتان من الأفكار الجديدة : دورة أوزيريس ، ودورة رع ، أو الشمس . وقد اندمجت هاتان الدورتان فى عهد الأسرة السادسة .

يتناول مذهب أوزيريس عن الحياة بعد الموت عدة أفكار . فأولاً ، لما صار أوزيريس رب الموتى بعد الانتشار التاريخى لعبادته ، أخذ لنفسه كل شىء واختص بالعالم السفلى . كان تحنيط أنوبيس ، فى الدور الذى قام به « كراع » للموتى وإمام لأهل الجبانة الغربية ، هما كل خصائص النمط الأوزيرى ، الذى يرى أنه إذا حُفظ الجسم من الفناء ، بواسطة التحنيط ، فبوسعه أن يرحل فى مناطق واسعة فى العالم الآخر . نجد فى كتب الموتى الخاصة بالدولة الحديثة ، شتى مراحل رحلته فى العالم السفلى ، والمخاطر التى يجب عليه أن يتخطاها ، والصيغة التى يستعملها لتُفتح المزاليج أمامه . أما الهدف النهائى للبعث الأوزيرى ، الذى ينتظره عند نهاية رحلته بعد محاكمته وإطلاق سراحه (انظر وزن القلب) ، فهو العمل فى إحدى ضياع أوزيريس ، حيث يستطيع ، كفلاح طيب من فلاحى وادى النيل ، أن يبدأ نشاطه الأرضى من جديد . يقع هذا الفردوس فى « حقـل التقدمـات والغاب » (حقـل ايارو) . وتبين صور كتاب الموتى ، الرجل الميت وهو يقوم بعمله ، يحرث الأرض ، ويبذر الحب ، ويجمع المحصول ، ويجدف فى قاربه فى مستنقعات العالم السفلى . وهكذا ، كان بمقدور الميت الأوزيرى أن ينتظر حياة ثانية مليئة بالنشاط الذى قضى فيه وقته على الأرض كان هذا مشروعاً مُطَمْئناً ، ولكنه لم يكن مطَمْئناً لأولئك الذين لم تكن لديهم قابلية للعمل الكثير ! بيد أن استعمال التماثيل الصغيرة البديلة الأوشابتى كان يكفيهم مئونة إجهاد نفوسهم فى هذه الأعمال المستقبلة ، إذ ستقوم هذه التماثيل الصغيرة بالعمل عوضاً عنهم ، فتريحهم من أدائه .

أما معتقدات الشمس ، التى آمن بها ملوك الأسرة الخامسة قبل أن ينشروها بين أفراد حاشيتهم ، فقد أدمجت فى الهيكل العام للمعتقدات الجنائزية ، فى نهاية الدولة القديمة . وتتألف فى أساسها من طقسين ، هما : « خيمة التطهر » عنـد حافة الصحراء ، و « التطهير الشمسى » داخل جرة ثم ينتقل المتوفى بفضلهما إلى فردوس الشمس حيث يحكم القاضى الأعظم (كان هذا رع أولاً) ثم يبلغ الراحل الشمسى ؛ فى حراسة سفينة ذلك الإله ، وينال الخلود حيث يرافق رع إلى الأبد ، فى رحلته حول السماء .

هناك بضعة أمور مشتركة بين مختلف المذاهب ، كما أن هناك عقائد أخرى تضاف إليها ، مثل الحياة النجمية فى مجموعة أوريون ، واختلطت كل هذه المعتقدات حتى يستحيل إعطاء صورة منطقية للحياة المصرية بعد الموت ، دون الالتجاء إلى تحليل تاريخىّ لمختلف العناصر . فإن المتوفى

يكون ، فى وقت واحد ، وفى نفس الوقت ، فى السماء ، وفى سفينة الإله وتحت الأرض يفلح الحقول الفردوسية ، وفى قبره يتمتع بطعامه . ومن آن إلى آخر ، يعود إلى الأرض ، ليرى ثانيةً الأماكن التى كان يحبها فى الزمن الغابر ، أو ليحدث بعض الأضرار بالأحياء . وهى أمور يصعب على متوفى واحد أداؤها معاً . وأخيراً رأى المصريون دمج مختلف مظاهر الحياة وراء القبر هذه معاً . فخصصوا وقت النهار للبقاء فى القبر فى هدوء ، مع رحلات على الأرض بين الفينه والفينه . وفى الليل يصاحب الميتُ الشمسَ فى رحلة تحت الأرض إلى العالم الآخر ، فيرسى سفنته ، ويقف فى الطريق فى حقول أوزيريس . وعندما تعيد أشعةُ الفجر الشمسَ إلى عالمنا ، تطير الروح الجائلة ، مسرعةً إلى قبرها لتجد فيه الظل والبرودة .

هكذا كانت الأراء الأساسية لقدماء المصريين عن الحياة الثانية . ومن آن إلى آخر ، كان كاتبو النصوص الجنائزية يستخدمون ذكاءهم فى تصميم خرائط لهذا العالم الذى يُفتح أمام الموتى . ولا يدهشنا أن نرى هذه النصوص ، يختلف بعضها عن البعض الآخر ، فإن كُلاً من كتاب الطريقين ، والخطة المذكورة فى الباب ١١٠ من كتاب الموتى ، والصور التى فى الكتاب الذى عنوانه «ذلك الذى فى العالم الأسفل» ، وكتب الأبواب وكتب الكهوف ، وكتاب الليل ، يحتوى كل منها على تخطيطه الخاص الملائم لمعتقدات مؤلفه . وقد رأينا أن قدماء المصريين قد اقتبسوا من كل بستان زهرة ، فحافظوا على شتى الأفكار . ولا شك أن المرء يستطيع أن يفهم كيف تَعَلَّقَ الميت ، فى مواجهة هذه الفوضى من البرامج المقترحة لروحه الحية ، بالمستقبل الوحيد الذى بدا له إيجابيًّا وسهَّلَ المدخل مباشرة ، وهو حفظ جسمه بالتحنيط ، والبقاء فى القبر ، والتمتع بموائد التقدمات المحتوية على كل ما لذَّ وطاب .

وربما لم تكن وعود الديانتين الأوزيرية والشمسية ، وعودا جوفاء ، بل وفرتا امكانيات لمحاورة القدر ومداورته . ولكن ظل المتوفى متعلقاً بحياته الأرضية ، فما كان شىء يعدل فى نظره قبراً جيد البناء ومزوَّداً تماماً بالمئونة ، والرحلات التى تستطيع روحه (با) أن تقوم بها من وقت إلى آخر ، إلى مساكن الأحياء المألوفة .

المكتبة **Library** : احتفظ قدماء المصريين بكتبهم داخل جرار وصناديق ، شأن غيرهم من شعوب العصور الموغلة فى القدم . كانوا يلفونها بعناية ، ويضعون لها ، أحياناً ، بطاقة كبطاقة أمنحوتب الثالث التى تميز «كتاب الجميزة الحلوة» .

استخدم رجال الإدارة والمحامون والقضاة ، الذين استعملوا قدراً كبيراً من أوراق البردى ، سجلات عثرنا على بعضها بين آونة وأخرى . غير أن المقابر ، حتى الآن ، هى المصدر الرئيسى الذى أمدنا بمعلومات عن المكتبات القديمة . لقد كتبت ، على جدران المحراب الصغير لمعبد إدفو ، أسماء جميع المؤلفات التى سُلمت للكهنة لتكون عهدة مستديمة لديهم . ووجد فى مدينة تبتينيس Tebtynis الصغيرة

بمنطقة الفيوم ، مجموعة أوراق البردى المكوّنة لمكتبة كهنوتية ، وتشمل : نصوصاً أدبية ورسالات دينية وعلمية . وأخيراً ، وُجد على الشاطىء الأيسر لمدينة طيبة أجزاء من علة مكتبات خاصة ، وتتكون من : مجموعة الكاهن المرتل ، وُجدت أسفل الراميسيوم Ramessium ، وهى من الدولة الوسطى ؛ ووُجد فى دير المدينة مجموعة من مخطوطات البردى (موجودة الآن فى مجموعة تشستربيتى ChesterBeatty) ويرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، وتضم نصوصاً سحرية وقصصاً شعبية وحكايات أسطورية وتراتيل للنيل ، وترانيم « توحيدية » ومؤلفاً لتفسير الأحلام ، ونسخاً من النصوص الأدبية القديمة والجديدة ، ومؤلفات طبية أو طبية سحرية (انظر الطب ، والسحر) .

توضح « تذييلات » بعض المؤلفات الأدبية على أوراق البردى أو على الأوستراكا أنه كان من الممكن إعطاء أى نسخ من تلك النصوص لمن يرغب فى اقتناء بعض المؤلفات الكلاسيكية . بل إننا عثرنا على نسخة من قصة ساتنى Satni الديموطيقية فى مقبرة راهب قبطى ؛ يبدو أنه لم يستطع فراقها ، حتى فى عالم الآخرة .

الملاحة Navigation : تتكون مصر من شريط ضيق من الأرض على جانبى نهر عظيم . ولذا كانت السفن جزءاً أساسياً من حياتها . ومنذ عصور ما قبل التاريخ ، صُورت السفن كزخارف على الصخور والفخار . وكان الآلهة يعبرون السماء فى العلا ، فى السفن (سفن الشمس) ، بينما كانت تماثيل معبوداتهم ، على الأرض تسافر فى محفات بهيئة السفن . وقد شُغلت الترسانات ببناء السفن من شتى الأنواع . ونُظِّم النقل بالسفن ، بعناية (يوجد مخطوط بردى ، هو أقدم مخطوط لسجل سفينة) .

وقد نُقلت الغلال والجيوش والماشية والأخشاب والأحجار والحجاج ومواكب الجنازات ، بالسفن فى النيل وفى الترع المتفرعة منه . وتحتوى اللغة على كثير من مصطلحات الملاحة ، مثل : يذهب نحو الجنوب ، أى « يتجه نحو المنبع » .

كان تيار النهر قوياً بيد أن تيار الريح الشمالية كان أشد . فكان السير مع التيار نحو المصب بالمجاديف وحدها سهلاً ، فيطوى الشراع . أما السير ضد اتجاه التيار فيستلزم استخدام المجاديف والشراع . كان المجدفون يغنون أثناء التجديف ، و « الريس » يصيح بأعلى صوته : « قفوا بجانب الأشرعة ! الريح التالية تتضاعف ! » ويقف بحار فى مقدم السفينة يسبر غور النهر . بعصاه ، فيقول : « نحو الجانب الأيمن ! أفسح الطريق ! سر فى الوسط ! سر بعيداً جداً ! المياه الهادئة أمامنا ! » ، فيطيع الواقف عند الدفة .

اكتسب البحار خبرة طويلة بنهره . كان يعرف مميزات وخبايا المياه الصاخبة . كان يتحدى تيار المياه السريعة للشلال ويكتشف الشواطىء الرملية . كان يسير أحياناً فى خط متعرج « يصفع ويصلح » ، وينزل إلى البر أحياناً أخرى ليرسى السفينة . وكان يتحاشى الإبحار ليلاً ، ويخشى مواجهة تيار ريح مدمرة تستطيع دفع السفينة إلى الأرض أو قلبها وتقذف بالبحارة إلى التماسيح .

ورغم أننا نذكر كل هذه الأخطار، فالنيل، عموماً، ليس بالنهر المخيف. وهل خاف قدماء المصريين البحر؟ كانوا أبعد ما يكون عن هذا! فمنذ العصور المبكرة، قبل الفينيقيين بزمن طويل، كانت السفن المصرية تواجه «الاخضر العظيم» في جرأة، متجهة نحو سوريا أو هابطة نحو الصومال. إبان الدولة القديمة، أبحر المحاربون من أسوان، وسافر الرحالة المحترفون حتى البرزخ وشواطىء البحر الأحمر حيث كانوا يستقلون «سفن بيبلوس» لتنقلهم للتجارة إما في بيبلوس أو في بونت وفي الدولة الحديثة، فتح الغازى تحتمس الثالث طريقاً رئيسياً بين القاعدة البحرية في منف والموانىء الآسيوية. ويجوز لنا أن نقول إن قدماء المصريين هم الذين شجعوا اللبنانيين على ممارسة مهنتهم التاريخية كتجار بحريين.

كان لدى مصر بحارة حقيقيون. فقد وصف كاتب قصة البحار الذى تحطمت سفينته، في بداية الألف سنة الثانية، مفاخر ومتاعب ذلك الشعب البحرى، فقال: «خرجتُ للإبحار في «الاخضر العظيم» على ظهر سفينة طولها ١٢٠ ذراعاً (حوالى ٦٠ متراً)، وعرضها حوالى ٤٠ ذراعاً. ويتألف طاقمها من ١٢٠ رجلاً من خيرة البحارة في مصر. وسواء أكانوا لا يرون غير السماء، أو يبصرون اليابسة، فإن قلوبهم لأشد جرأة من قلوب الأُسُود. كانوا يتنبئون بهبوب الريح قبل مجيئها، وبالعاطفة قبل أول قعقعة للرعد. كان كل واحد منهم ينافس الآخر في الشجاعة والقوة ....».

الملكة المصرية: فضلا عن الفرعونات (مثل حتشبسوت)، وزوجات أمون المقدسات، يمكن تمييز ثلاثة أنواع من الملكات:

١ — «أم الملك»، التى بجلوها أسمى تبجيل، ولكنها كانت تحتل مكانة ثانوية (مما يدل على عدم وجود حكومة الملكة الأم في مصر).

٢ — «زوجة الملك»، كان مسموحاً للملك أن يتزوج عدة زوجات.

٣ — «الزوجة العظمى»، ولها الأهمية الأولى بعد الملك، وكان لأولادها وحدهم الحق في وراثة العرش.

وعلى نقيض ما قيل، لم يكن من الضرورى أن تكون زوجة الفرعون «شقيقته». فكبقية الزوجات يمكن أن تكون أختاً غير شقيقة، أو حتى ابنة الملك نفسه، أو أميرة أجنبية، أو سليلة أسرة سابقة. وكان الملك المؤله يتزوج امرأة من البشر. ومن تصويرهم للرَخَمَة، التى هى رمز الأمومة، والتى تغطى به رأسها، بوسع المرء أن يتصور أن الزوجة العظمى من سلالة أسرة ملكية. كان يشار لها بلقب «الأم الإلهية» ويحتفى بها بلقب «المحبوبة»، أو «السيدة الفاتنة»، أو المتحلية بالريشتين، أو تلك التى يسرُّ صوتُها سامعيها، أو الوافرة الرشاقة، أو البهيجة التكوين، أو الوفية التى تملأ القصر بموجاتها العطرة».

تدل المناظر الجميلة المصورة في وادى الملكات (في قبر نفرتارى بنوع خاص) على

أن المصريين كانوا ينتظرون من الملكة أن تكون سيدة مقدسة .

الملوك الكهنة Priest - Kings : في عهد رمسيس الحادى عشر عند نهاية الدولة الحديثة صار القائد حريحور « الكاهن الأول لأمون » ومراقب ممتلكات ذلك الإله الكلّ القوة ، إله طيبة . وفي حوالى سنة ١٠٨٠ ق.م. انتهت أسرة الرعامسة ، وأسس سمندس ، حاكم تانيس ، الأسرة الحادية والعشرين ، في الدلتا (وكانت تشمل يسوسينيس الشهير) . حوَّل أسلاف حريحور منطقة طيبة إلى إمارة مستقلة عملياً ، رغم تعرضها للشقاقات الداخلية (نُفي البعض إلى الواحات) والاضطرابات الدينية (كان من الضرورى إخفاء المومياوات الملكية) . كتَبَ ثلاثة من الملوك الكهنة أسماءهم داخل خراطيش ، كما فعل الفراعنة . والحقيقة أنهم كانوا ملوكاً كملوك تانيس . أسس أولئك الكهنة الحربيون دكتاتورية ثيوقراطية (أى حكومة إلهية يديرها الكهنة) . فكانوا يصدرون كل قرار خاص بالأحياء أو بالأموات في صورة قرار لوحى أمون ، وتتضمن هذه القرارات القرار الشهير الذى وُعدت به نسخونسو زوجة پينوجيم الثانى أن تصير ربة بعد موتها ، والذى حرَّمَ ، في الوقت ذاته ، على روجها « أن تفعل أى شرٍّ أو تختصر أيام » زوجها وأقاربها الباقين على الأرض .

منّا Menna : تشبه مقصورة منا الجنائزية مقصورة نخت ، وهى من أروع المقابر الموجودة في « القرنة » (انظر طيبة) ، مزينة بصور مرسومة على الجبس وتتألف من صور الطقوس الدينية مرتبة في الجهات الأربع الأصلية ، وهي كلاسيكية في نوعها . كان منّا موظفاً عظيماً في الخزانة في عهد تحوتمس الرابع (سنة ١٤٢٥ - ١٤٠٨ ق.م.) . ولاتزال صوره الواسعة الرقعة والغزيرة التفاصيل باقية عامرة بالحياة زاهية بالألوان ؛ ومن أمثلتها فتاتان صغيرتان تجمعان ما بقى وراء الحصادين ، وتشد كل منهما شعر الأخرى .

المناخ : بعد ظهور الإنسان بوقت ما ، وقبل قيام الحضارة الفرعونية بوقت طويل ، تعاقبت على شمال شرق أفريقيا وبقية الصحراء الكبرى أحوال مناخية متغيرة . خلال آلاف من السنين ، عاشت أجيال عديدة في العصر الحجرى القديم (الپاليوليثى) ، في أجواء باردة رطبة . ومرت بهم عصور مناخية مطيرة ، مناظرة في أزمنتها للعصور الجليدية بأوروبا وآسيا ، تفصل بينها فترات من الجفاف . وتتفق آخر مرحلة مطيرة ، وكانت حرارتها لنمو النبات ، مع زمن أولى حضارات العصر الحجرى الحديث ويجب ألا نحط من أهمية المراحل المتعاقبة لهذه الأحوال المناخية القديمة في مصر والسودان ، فقد كانت تتحكم في حياة وعمل أقدم الرعاة والمزارعين في أفريقيا . ومع ذلك ، فمن الخطأ أن نحاول إيجاد صلة بين مناخ مصر نفسه وبين كل مظهر مادىّ وسيكولوجىّ للعالم الفرعونى . ومن الصواب أيضاً أن نقول إن اختلاط طبقات الطمى العتيقة بالأحوال المناخية الجديدة أنشأ الحضارة الفرعونية في حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م .

فصنع لهم الأرض والسماء ، وطرد عنهم المياه المهدِّدة ، وصنع الرياح لتعطيهم هواء تتنفسه أنوفهم ، لأنهم على صورته ، ومصنوعون من لحمه، وهو يضيء فى السماء من أجلهم ، وبنفس هذه الطريقة صنع لهم النباتات والحيوانات والأسماك ، لتكون طعامهم » .

الأسد : اختفى الأسد تماماً الآن من مصر ، وكان أكثر عدداً فى عصور ما قبل التاريخ مما كان بها فى عصور الفراعنة . وكانت الأسود هى الحيوانات الملكية . ظهرت الأسود فى عالم الأساطير بعدة أشكال ، واشتقت منها صورة أبى الهول . ويبدو أحياناً أن المصريين نجحوا فى استئناس هذه الحيوانات المتوحشة .

فاستخدمها الملوك الرعامسة كرفقاء فى الحرب . غير أن الأسد يظهر عادة فى موطنه الطبيعى ، عند حدود الصحارى والأراضى الزراعية . وتهوى الأسود سكنى فتحات الوادى حيث تخرج لتشرب وتصيد أية فريسة من قطعان الماشية التى ترعى فى المستنقعات المنخفضة عند سفح الهضبة الجافة . كانت أقدم المعابد عند « أفواه الوادى » هذه ، فى كل من الشمال والجنوب ، وكُرست إلى الربة اللبؤة التى عبدوها بأسماء شتى : « باستت » فى تل بسطة ، و «أباخت» فى بنى حسن ، و « حتحور » فى الجبلين ، و « سخمت » فى منف وفى معظم المعابد المكرسة للربة اللبؤة .

لا شك أن رحلات الصيد العظيمة ، بقيادة الملك ، ضد أقوى الوحوش جميعاً ، من بقايا الأعمال التقليدية للرئيس الأفريقى ، أكثر منها رياضة قاسية . وقد شابهت النصوص بين الفرعون المحارب والأسد الذى كان يقاتله وجهاً لوجه .

« رمسيس الثانى أسد قوى ، مخالب ممتدة وزئير مخيف ، يرعد فى الوادى حيث يوجد وحش الصحراء » . وفضلاً عن الصيغ الكلامية الجوفاء هذه ، يدل الدور والأهمية اللذان ينسبهما علماء اللاهوت إلى الأسد ، على الإلمام منذ مدة طويلة بطبائع هذا الحيوان ، واستُعملت هذه المعرفة فى العوالم الكونية ، فى أساطير معقدة منمقة .

تدرك الأسود ، فى لمحة ، نوايا الصياد ، « تلك الأسود المخيفة المنظر » ، ويُعتقد أنها كانت تستطيع أن تبصر فى الليل كما تبصر بالنهار . وكانت تجول إلى حدود الصحراء الواسعة حيث تولد الشمس وتموت . وقد صُوِّر أسدان كحارسين ضاريين للأفقين .

وشُبِّه هذان الأسدان بالجبلين اللذين يحددان الحدود الشرقية والغربية ويرمزان إلى الأمس والغد . وبما أن رحلة الشمس أسفل الأرض تنقلها من فكى أسد الغرب إلى فكى أسد الشرق حيث تولد فى الصباح من جديد ، صار الأسد ذا أهمية أساسية فى تجديد شباب الشمس . ولكى ينتفع الناس أنفسهم من ذلك الموت المؤقت ، وهو النوم ، ويستيقظوا مثل الشمس ، زينوا فراشهم ومساند رءوسهم بصور الأسود .

يكاد العنصر الأسدى أن يكون قديماً قدم الدنيا نفسها . وتبعاً لأسطورة الخليقة

تحت نفس الشمس المحرقة وتحت السماء الصافية ذاتها ، اللتين نراهما اليوم . ولما كان وادي النيل يتجه نحو الشرق ، وقريباً من المناطق الاستوائية وخاليا من التلال المرتفعة والأشجار الظليلة الضخمة (انظر الحيوان والنبات) ، فإنه معرض لأشعة الشمس كأي موضع منخفض في الصحراء الكبرى . وبفضل الرياح الموسمية ومياه النيل ، تنخفض درجة الحرارة عما في الصحراء المكشوفة بنسبة قليلة . وليس الفرق كبيراً جداً بين درجات الحرارة في الصيف وفي الشتاء (٣٨ م ، ١٨ م) .

ومن جهة أخرى فهناك فرق عظيم بين درجتي الحرارة ليلاً ونهاراً . فليالي الشتاء قارسة البرودة غالباً . فإذا ما غربت الشمس اضطر المسافر إلى الالتفاف بالأغطية اتقاء الإصابة بالبرد . وقد وصف قدامى الأطباء البرد بقولهم : « أنت يا من تكسر العظام وتسحق الرأس وتبلبل المخ وتسبب ألم فتحات الرأس السبع » . وقد اضطر المصريون ، في أرضهم المعرضة للشمس ، إلى بناء بيوت سميكة الجدران ، أولاً من أعواد الغاب ، ثم من اللبن . ولم تستعمل الثياب لوقاية الجسم من البرد قبل العصور المتأخرة . وجرت عادة المصريين على أن يرتاحوا من العمل ظهراً ويلبسوا الثياب الخفيفة . وكان النبلاء يلبسون باروكات الشعر المستعار ويستعملون الزيت في دهان أجسامهم ، وفي زمن متأخر لبسوا الثياب الفضفاضة البيضاء ، فأمدهم كل هذا بوقاية من أشعة الشمس القاسية التي تسبب الإصابة بضربة الشمس . (انظر الثياب) ، ولكن الاغريق كانوا يعتبرون المصريين ، في معظم النواحي ، « شعباً لفحته الشمس » ، ويبدو أن ذلك قوى أجسامهم من الناحية الحيوية . ولم يلجأ المصريون إلى حماية أجسامهم من وهج الشمس باستعمال الملابس مثلنا . وكانوا يطلبون الظل دائماً كوقاية أساسية (أطلق على الفرعون اسم « ظل شعبه ») ، ويبنون الشرفات حول البيوت ، ويحبون البساتين . ومع ذلك فلم يدرك الأقدمون إمكان الضرر الذي قد يكون كامناً في نعيمهم الإلهي ، على عيونهم ، فلم يفعلوا شيئاً لوقايتها . ولذا انتشرت أمراض العيون في ذلك الوقت كما هي منتشرة اليوم . وأحياناً تكون الحرارة ، وخصوصاً أثناء هبوب رياح الخماسين التي تهب من الصحراء في الربيع محملة بالرمال الصفراء ، بغيضة حتى لأبناء البلاد أنفسهم . ومع ذلك ، فإن درجات الهواء القصوى العظمى التي يحتملها الأتون الأفريقي من الجو في منتصف الصيف ، تأتي بانتعاش عجيب . وغالباً ما تتحدث نصب القبور ، التي هي الحلقة المتبادلة بين الأحياء والأموات ، عن « شرب الماء من الترعة واستنشاق نسمات الشمال الحارة » .

تمتاز مصر بظاهرة مناخية خاصة ، وهي هواؤها الجاف وسماؤها الصافية في جميع أرجائها . ولولا النيل لكان ذلك ضاراً بجميع النباتات . وقبل أن تشبع الأرض (التي تروى الآن رياً دائماً) بكفايتها من الماء ، كانت الشمس تلفحها خلال فترة التحاريق التي تنخفض فيها مياه النيل إلى أقصى حد . فتتكمش التربة وتتشقق شقوقاً عميقة تجعل تهويتها ذاتية . أما الغبار الذي

ينزل على الزروع ويحجب خضرتها الناضرة ، ويتراكم باستمرار على طرقات المزارع ، فكان يعفر وجوه المسافرين التعساء . ينبع النيل من مكان بعيد ، ويزيد ماؤه بالتدريج أثناء مجيئه ، وكان ولايزال مصدر المياه الوحيد الفعال . إن النضال السجال بين الشمس وذلك النهر في كل مكان تقريباً ، يعمل على بقاء الجو نقيا وصحيا وممتعاً في كل وقت ، إلا في نهاية الصيف عندما تكون الحرارة قاسية . وينتشر الوباء السنوى بسبب البرك التى يخلفها الفيضان ، فيكون رسول الموت .

والمطر ، ذلك الغيث الذى أودعه الله في السماء لكى يعيش « الأجانب » ، نادر جداً في وادى النيل . فمستوى المطر السنوى في الوادى كله لا يتعدى ٣٣ مم . وغالباً ما تكون السماء غائمة في مصر السفلى ، ولكن المطر ينزل بأية كمية بين نوفمبر ومارس ، ولا ينزل إطلاقاً في أشهر الصيف الثلاثة . وأما في مصر العليا ، فنزول المطر في وادى النيل نفسه أمر شاذ جداً ، واعتبره البعض نذير شؤم . وعندما غزا الفرس الأشرار مصر في سنة ٥٢٥ ق . م . « حدثت أعجوبة في تلك السنة ، أعجوبة عظمى في عيون المصريين ، إذ نزل المطر في طيبة بمصر ، حيث لم يسبق أن أمطرت السماء إطلاقاً » . وعادة كان المطر ينزل على الجبال البعيدة ، ولم يظهر في الوادى إلا في صورة « سيل » عنيف مؤقت كان ينهمر فوق الأودية (وكانوا يطلقون على اللبؤة باخت Pakht ، ربة « فم الوادى » في بنى حسن ، « هى التى تفتح طرق الأمطار العاصفة ») .

دائماً ما كانت المدن والجبانات تبنى على جانب المنطقة التى ينتشر فوقها السيل . ولو أن قدامى علماء اللاهوت كانوا يرون أن السيول من الظواهر العادية لإله الهواء شو ؛ فإن السيول الفجائية والسحب والرعد كانت تعتبر من عمل ست إله الزوابع المتوحش الذى تقول الأساطير القديمة إنه كان يفتح الطريق للشمس ، ثم صار عدُوّا لذلك النجم في التقاليد اللاحقة . وأخيراً ، كان المصريون في العصور التالية ، من بين مزارعى العالم الذين لم يتذمروا قط من أجل عدم نزول المطر ، إذ حباهم الله بنعمة النيل ، وبميزات كثيرة أخرى .

منتوحتب Mentuhotep : تضمنت الأسرة الحادية عشرة ملوكاً باسم منتوحوتب جاءوا بعد من تسمّوا باسم انتف في طيبة ، في السنين الأخيرة من القرن الحادى والعشرين والقرن العشرين ق.م. وقد وجد العلماء مشقة في ترتيب هؤلاء الملوك المنتوحوتبيين أكثر مما وجدوه أولئك أنفسهم في إعادة النظام إلى مصر . حَكَمَ منتوحوتب الأول ، الذى ظُنَّ حتى وقت قريب أنه ثلاثة ملوك ، مدة طويلة تبلغ خمسين عاماً ، فأنهى مملكة اهناسيا المدينة وأعاد وحدة المملكة تحت سلطانه . واتخذ طيبة عاصمة لُملكه ، وكانت حتى ذلك الوقت مدينة إقليمية . وظلت الشعائر تقام باسم البطل الوطنى منتوحوتب الأول لمدة تقرب من ألف سنة بعد موته . وتوجد خرائب قبره ومعبده الجنائزى بالدير البحرى . غير أن منتوحوتب الثانى والثالث ، اللذين جاءا

بعده ، لم يعرفا كيف يسيران على خطاه وبتها ما بدأه من إعادة النظام الذى أعاده ، بعد فترة ، ملوك الأسرة الثانية عشرة .

المنسوجات Textiles : (انظر الكتان) .

منف Memphis : يجرى النيل فى الشرق بجوار التلال ، وفى الغرب ، يمد فرع منه الهضبة . ويقع بين الاثنين سهل متسع حيث تلتقى مصر العليا بمصر السفلى .

فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م . بنى مينا حصن « الحائط الأبيض » قرب مدينة كانت مقر عبادة « بتاح » ، وبذلك سيطر مينا على القطرين . ومنذ ذلك التاريخ ، أقام الملوك فى تلك المنطقة المسيطرة على البلاد ، وبنى كثير منهم أهراماتهم بقرب « الحائط الأبيض » . وبهذه الطريقة ظهر حى جديد ليخدم هرم ببى Pepi الأول ، وفى النهاية أطلق اسم هرمه « من نفر » على مجموعة المساكن التى بنيت حول معبد بتاح ، وغدت « من نفر » باللغة الإغريقية ، ممفيس . (وبالعربية منف) .

ظلت منف المدينة الأولى فى مصر إبان الدولة الحديثة وفى الحقبة المتأخرة حتى بنيت مدينة الإسكندرية . كانت العاصمة الإدارية والمقر المفضل لقصور الملوك . واحتفظ الفراعنة بحريمهم فيها وبنوا فيها كثيراً من القصور . واتسعت رقعة معبد بتاح ، ببناء كثير من هياكل آلهة عديدة . وكان المتدينون يذهبون إلى هناك لإظهار حزنهم على رحيل الثور المقدس أبيس ، فى السيرابيوم . وكانت منف الحصن القوىّ الذى كان على الغزاة من الإثيوبيين والفرس والأشوريين أن يستولوا عليه قبل السيطرة الحقيقية على مصر . وكانت تصنع بها أسلحة القتال ، وتبنى فيها سفن الأسطول . وكانت البضائع الواردة من جميع فروع النيل ، تأتى إلى مينائها بكميات ضخمة حتى وجدت خزانة أمون فى طيبة أنه من الضرورى وجود توكيل لها هناك . ومنذ عصر الملوك المسمين باسم تحوتمس ، عُبد بها بعل Baal وعشتارت Astarte وهما من أرباب سوريا . والتقى هيرودوت بكثير من تجار طرابلس Tyre والجنود الكاريين Carian ، وكثير من الأجانب الآخرين ، بتلك المدينة . وإذا لم تعكس جبانة سقارة صورة العظمة التى أوضحتها النصوص العديدة ، لتلك المدينة ، صار من العسير علينا أن نبرهن على الصورة التى رسمناها لها . أما الآن ، فلم تعد منف ، التى تقع على مسافة ٢٨ كم جنوب القاهرة ، سوى منخفض منبسط يظلله النخيل . وفى الجزء الشمالى منها بعض خرائب تناثرت فيها قطع الآجر والأحجار فتبين موضع « الحائط الأبيض » . ويقرب قرية ميت رهينه بعض أحجار من خرائب معبد بتاح ، كما يوجد هناك تمثال ضخم سقط على جنبه وتراكمت فوقه طبقة ترابية تحميه ، يذهب السائحون إلى هناك ليروه .

منكاورع Mycerinus ، أو **Mykerinos** : (حوالى سنة ٢٦٠٠ ق.م.) . هو ابن خوفو أو ابن خفرع وهو من آخر ملوك الأسرة الرابعة . ويقص

هيرودوت حكايته المحزنة : انتحرت ابنته لسوء أفعاله ، ومات هو نفسه فى سن مبكرة . ولكى يكذب نبوءة بوتو Buto. (وهى التى قررت له أن يعيش ٦ سنوات فحسب) كان يلهو ويمرح كل ليلة فى ضوء الشموع ، وبذا تمتع باثنتى عشرة سنة . وإذ كان منكاورع ملكاً تقيًّا ، فقد ترفع عن أعمال من سبقوه : « فترك أفراد الشعب يستمرون فى أعمالهم ويقدمون قرابينهم ، وكان يصدر أعدل الأحكام » . وقد يكون هيرودوت قد خلط بين فرعونين ، فى شخصية ملك يتسم بالدماثة واللين وفى ذات الوقت تدعو للابتسام ، وهما مشرع القوانين بكوريس Bocchoris (الذى كان يحكم فى صا الحجر « سايس » فى العصر النوبى ، فى حوالى سنة ٧١٥ ق.م.) ، وملك منف القديم هذا وقبر هذا الأخير هو هرم الجيزة الثالث (ويبلغ طوله ١٠٨ من الأمتار ، وارتفاعه ٦٦,٤٠ م) ، وهو على أية حال أكثر تواضعاً من هرمى خوفو وخفرع . بيد أن الأعمال المنحوتة المأخوذة من معبده الجنائزى ، مثل تماثيل الملك المهيبة ، والتماثيل الثلاثية المكونة من منكاورع وحتحور وأحد أقاليم مصر ، لجديرة بأولئك الطغاة لعظمتها البالغة .

موائد التقدمات (أو القرابين) Offering Tables : انظر المذبح ، والمعتقدات الجنائزية .

المواصلات : (انظر الطرق) .

الموت : ما من شعب من شعوب العالم اهتم بالموت كما اهتم به قدماء المصريين ، وبالأمل فى البعث إلى الحياة بعد الموت . ويجب ألا نتصورهم قوما مولعين بالموت فقد كتبوا عنه : « الموت أمر بغيض يجلب الدموع والأحزان . يخطف الرجل من بيته ويُلقى به على كثيب رملى فى الصحراء . لن تعود إلى الأرض أو ترى الشمس . . . . » وإذا كانت أعظم أمنية لكل مصرى هى أن يحظى بدفن طيب (انظر العادات الجنائزية) فإنه يود أن يأتيه الموت بعد عمر طويل . كان كل مصرى يطمع فى أن يعيش حتى يبلغ ١١٠ سنوات من العمر .

كانت حالات الموت كثيرة ، وكلها طبيعية تقريباً ، وهى عبارة عن الموت بسبب الشيخوخة أو بحادث أو بالقتل . ويأتى المرض إلى الشخص نتيجة لعداء ساحرٍ أو عداء شخص ميت . وكذلك كان بوسع المرء أن يتقى المرض بواسطة السحر : « اختفِ ، يا من تأتى فى الظلام ، يا من تأتى سرًّا . . . . هل أتيتَ لتُلقى تعويذة الموت على هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بذلك . هل أتيت لتخطفه ؟ لن أسمح لك بأن تخطفه » . كذلك قسمت الآلهة الحياة والموت حسبما أرادت . وأخوف من كان يخافه المصريون رسل سخمت أو باستت ، الذين كانوا رسل الموت . لم يكن لدى قدماء المصريين إله يمثل الموت ، ومع ذلك فقد كانوا يخاطبونه دائماً على أنه لص بغيض . « كنتُ طفلاً صغيراً عندما خُطفتُ بالعنف . اختُصرتْ سنوات حياتى وأنا وسط زملائى فى اللعب . انتُزعتُ فجأة فى شبابى كرجل يروح فى سبات عميق . كنتُ شاباً عندما جرفنى الموت إلى المدينة الأبدية ، وذهبتُ أمام سيد الآلهة دون أن أحظى بوقتى على الأرض . لى كثير من

الأصدقاء ولكن لم يستطع أى واحد منهم أن يدافع عنى . أقام كل شخص فى المدينة مأتماً وعويلاً عندما رأى ما حدث لى . بكى كل أصحابى . تضرع أبى وأمى للموت ، وأغشى على اخوتى . . . . » ولكن كل هذا دون جدوى . وإذ كانت صورة الموت المحتوم أمام كل مصرى باستمرار ، فإنه لم يهمل الاحتياطات الممكنة ، وأعطى قبراً ليطمئنه على حياته بعد الموت . وفى الوقت ذاته ، كان يتمتع دائماً بملذاته على الأرض . « اتبع قلبك والملذات التى ترغب فيها . اصنع ما شئت على الأرض ، ولا تخالف قلبك . سيأتيك يوم الحداد ، ولن يُرجع البكاء أى إنسان من العالم الآخر . اقضِ يوماً بهيجاً فى غير ملل . واعلم أن المرء لَن يستطيع أن يأخذ معه ممتلكاته ، ولم يسبق قط أن رجع أى إنسان بعد أن ذهب إلى هناك » .

الموسيقى المصرية : كتب ديودور فى تاريخه : « اعتبر المصريون تعلّم الموسيقى مسألة مزرية » . بيد أن صورة الوزير ميرا Mera وهو يصغى مع زوجته إلى موسيقى تناقض هنا التعليق . يجب أن نعلم أن العروض الموسيقية ــ مهما كانت أهمية مكانتها فى الحياة المصرية ــ كان يقوم بها محترفون تمتعوا بالشهرة والشرف . كانت الموسيقى فناً مقدساً فى المعابد ؛ فكان المصريون ينشدون التراتيل للآلهة بمصاحبة القيثارات . وفى أيام الأعياد العظمى . كانت تنتقل من هناك فرقة موسيقية كاملة من الكهنة . وتُقدَّم العروض الموسيقية الدينية بقيادة عازف قيثارة أعمى يَطرب سامعيه النبلاء بالأغانى أو بواسطة جماعة من الفتيات تقدمن لهم بعض الرقصات .

علاوة على مختلف أنواع « الهارب » Harp ــ وهو أقدم آلة موسيقية شهيرة ــ هناك آلتان موسيقيتان وتريتان عرفتا فى مصر ، وهما العود Lute (أقدم الآلات) والقيثارة الصغيرة Lyre (جاءت من آسيا فى عصر الدولة الحديثة) . فضلاً عن البوق الذى استعملوه فى طقوس دينية معينة ، وفوق كل شىء فى الإشارات الحربية ، فالآلة الموسيقية الهوائية الرئيسية هى الناى (المصنوع من الغاب أو من الخشب) والأرغول (المزمار المزدوج) والكلارينيت المزدوج . واستعملت « الطبلة » فى الحفلات الموسيقية وحفلات الرقص والمواكب الدينية للمحافظة على « الإيقاع » وكذلك « الرق » المستدير والمستطيل الشكل (محاكاة للنوع الأسيوى) ، والنقر بالأصابع والتصفيق بالأيدى ، وقرع المصفقات « السحرية » المصنوعة من الخشب أو العاج ، وهز أطواق كبيرة من الخرز فى حركات عنيفة ، والصلصلة بالصلصلة المرتبطة بحتحور ذات الرأس المصنوع من المعدن أو من الخزف . أبهج الطرْق والتصفيق والصلصلة بهذه الآلات ، الآلهة وأطرب قلوب الناس وخفف على النساء ألم « الطلق » عند المخاض ، وطرد الشر بعيداً عنهم .

استطاع هانز هيكمان Hans Hickmann ، مؤسس الجمعية الموسيقية بالقاهرة ، أن يحاكى طريقة تركيب الأوتار على القيثارة الصغيرة والعزف عليها ، وكذلك الهارب والقيثارة ، واكتشف السلم

الموسيقى للناى والمزمار القديمين بدراسة نماذجها والآلات الباقية منها . ورغم هذا ، فإننا لا نعلم سوى النزر اليسير عن الموسيقى المصرية ، ولو أن الكنيسة القبطية ، على ما يبدو ، قد حافظت على بعض ذلك التراث . ويلوح أن الموسيقى المصرية القديمة ، من حيث الإيقاع والطرُق والأنغام ، قد احتلت مكانة بين الموسيقى الشرقية وموسيقى زنوج أفريقيا .

المؤلف : ولو أن الفن الفرعونى لا يدل على أسماء الفنانين الذين قاموا به ، فليست الحال كذلك فى الأدب الذى يتناول موضوعات هامة . فإن كتب الحكمة عرفت بمؤلفيها الذين كتبوا أسماءهم فى بداياتها حتى يعرف القارىء من الذى يتحدث إليه . وقد عرف الجمهور عظماء كُتّاب الأخلاق (انظر الأخلاق) وأعجبوا بهم على أنهم : « هؤلاء الكتـاب العلماء خلفاء الآلهة . . . . . تبقى أسماؤهم إلى الأبد حتى بعد أن يرحلوا هم أنفسهم . عاشوا حياتهم ، ونُسى أقاربهم . لم يخلّد ذكرهم بأهرامات من البرونز ، ولا بلوحات من الحديد فوق قبورهم ؛ ولم يتركوا خلفاء ولا ورثه يشهرون أسماءهم ولكنهم حظوا بورثة من كتب الحكمة التى ألفوها . قُوّضت الأبواب والأبهاء التى بنيت لهم ودُمرت ، ورحل كهنتهم ، وغطى التراب نصُب مقابرهم ، ونُسيت أضرحتهم . بيد أن أسماءهم لاتزال فى الذاكرة لأن المؤلفات التى كتبوها كانت كاملة ، وذاكرة أولئك الذين خلقوها خالدة . . . . . » .

كاد الإعجاب بهؤلاء المؤلفين أن يكون تأليهاً . وكم صب الكتبة قطرات من الماء قرباناً لقدامى المؤلفين ، وهؤلاء تلاميذ الحكيم جدف . حور ، مجدوا أستاذهم وأضفوا عليه سمات الآلهة . وعُبد إمحوتب الذى وضع أول كتاب فى الحكمة فى بداية عهد الدولة القديمة ، كإله فى العصر اليونانى الرومانى .

المومياء Mummies : تحنيط الموتى من « الأسرار الغامضة » المحيِّرة ، التى اشتهرت بها مصر القديمة . لماذا بُذل مثل هذا المجهود لحفظ الأجسام ، التى خرجت منها الروح ، لآلاف السنين ؟ السبب هو أنهم لم يعتبروا الموت هو النهاية ، وإنما هو رحلة خطرة تتناثر خلالها شتى العناصر المكونة للشخص الحىّ ، بينما يحتفظ كل منها بتكامله الفردى . فإذا أمكن إعادة اتحادها ووضعها فى الجسم ثانيةً ، أمكنه أن يحيا حياة جديدة مشابهة جداً للحياة التى قضاها على الأرض . ومع ذلك ، فلتحقيق هذه النتيجة ، يجب حفظ الجسم الذى هو أضعف كل هذه العناصر وأكثرها عطباً . فإذا تُرك الجسم ليتعفن ، ضاع كل أمل فى اتحاد القوى الحيوية وهيكلها الجسدىّ ، فى العالم الآخر ، فيُحكم على الروح بأن تظل تبحث عبثاً إلى الأبد ، عن جسم لم يعد له وجود .

وإذ جمع هيرودوت معلومات طيبة عن هذا الموضوع ، يصف طريقة التحنيط هكذا : « أولاً ، يُنزع المخ ، عن طريق الأنف ، بخطاف معدنى . ورغم هذا ، فلا يُنزع بهذه الطريقة سوى جزء من المخ ، أما الجزء الباقى فيذاب بعقاقير معينة . بعد ذلك يُشَقّ الجانب بواسطة حجر قاطع إثيوبى .

وتنزع الأحشاء من الجسم (استئصال الأحشاء) . ثم يوضع زيت النخيل وبعض المساحيق العطرية فى البطن الفارغ . وبعد ذلك تملأ المعدة بالمرّ النقى المطحون وبهارات أخرى ، ولكن لا يوضع بها أى بخور (لُبان) ، وتخاط » .

والغرض من كل هذه العمليات هو أن يُنزع من الجسم كل شىء يمكن أن يؤدى إلى سرعة تعفنه : الأحشاء التى حُفظت فى الجرار « الكانوبية » ، والأنسجة الدهنية ، وشق الأعضاء الأخرى . لا يبقى من الجسم فى هذه المرحلة من العمل سوى جزء قليل علاوة على الجلد والعظام والغضاريف . بعد ذلك ، كان من الضرورى نزع الماء من هذه العناصر الأخيرة ، فاستعملوا لهذا الغرض ملح النطرون . « فتُشَبَّع الجثة بالملح ، وتنقع فى النطرون لمدة سبعين يوماً .

أثبت الكيميائيون أن أسلوب المعالجة بالنطرون الجاف ، كان يزيل جميع الرطوبة الباقية فى المومياء « بعد سبعين يوماً ، يُغسل الجسم ويُلف بأربطة من الشاش مدهونة بالصمغ الذى كان المصريون يستعملونه بدل الغراء » (التجفيف فالغسيل فاللف) . الحقيقة أن سبعين يوماً كانت تشمل جميع مراحل التحنيط . وكانت المدة بين يوم الوفاة ويوم الدفن . ولماذا حددت هذه المدة بسبعين يوماً ؟ ربما كان ذلك لأسباب دينية مبنية على الأرصاد الجوية . فإن نجم الشِعرى اليمانية Sirius (= Sothis) ، تبعاً لجداول معرفة الوقت ليلاً بمواقع النجوم ، كان يختفى من السماء بعد أن يضىء فى ليل مصر ، فيحتجب تحت الأفق مدة سبعين يوماً . فكانت فترة السبعين يوماً هذه تفصل بين موتهم وبعثهم . وربما حاكى المصريون دورة الزمن هذه ليستخدموها مع موتاهم فيضمنوا بعثهم .

قد تكون الأربطة الملفوفة حول الجثة بالغة الطول . وقد لُفّت المومياوات المعدة أفضل إعداد ، فى عدة مئات الأمتار من القماش الدقيق النسج ، فى عناية بالغة . لُفّت الأصابع والأيدى والأرجل أولاً بأربطة رفيعة جداً ، ثم لُفّ الجسم نفسه . وأخيراً لُفّت المومياء فى شبكة من الأربطة الأكبر حجماً فتكونت منها اللفة الخارجية . وقد غمست الأربطة عند لفها فى محلول يجعلها تلتصق بعضها ببعض ويعطى الجثة رائحة المراهم . ووضعت التمائم بين اللفات ، مصنوعة من الأحجار أنصاف الكريمة لتأكيد المحافظة على الميت وحمايته ، فى مواضع معينة ، وتشمل هذه التمائم عيوناً حجرية (على الجفون) ، وعين وجات (على شق البطن) وأعمدة الجد ، وأغطية من الذهب للأصابع ، ولوحات صدرية ، وأحزمة إيزيس ، وغير ذلك .

كان مثل هذا النوع من التحنيط يستغرق وقتا طويلا وباهظ النفقات ، ولذا كانت هناك عدة درجات من التحنيط : « إذا ما جىء بالجثة إلى المحنطين ، قدموا إلى أهل الميت نماذج خشبية مطلية ، عبارة عن محاكاة دقيقة للمومياوات . ويشرحون لهم النوع الأول من التحنيط وهو أغلاها ويُعرف بتحنيط « أوزيريس » ، ثم يقدمون لهم النوع التالى له ، وهو أقل تأنقاً من السابق وأقل نفقة ، ثم

النموذج الثالث لأرخص الجميع . فيعرف المحنطون رغبة أقارب الميت الذين يتصرفون بعد الاتفاق على أجر التحنيط » . وقد كوّنَ المحنطون من أنفسهم هيئة أخصائيين بأسماء شتى : فأولاً ، محنطو أوت وكثيراً ما ذُكروا أكثر من غيرهم ، و « حُجاب الآلهة » ، و « محنطو أنوبيس » ، و « رؤساء أسرار فن التحنيط » و « الكهنة المرتلون » ، الذين كانوا يتلون النصوص الملائمة لشتى المراحل فى الطقوس التحنيطية . كان عمل التحنيط أكثر من عملية فنية بسيطة ، فهى تحاكى ، فى جميع تفاصيلها ، طريقة بعث أوزيريس . وهكذا كانت كل مرحلة من مراحل ذلك العمل الطويل ، مليئة بالتشبيهات الرمزية ، وتتضمن تلاوة الصيغ الدينية .

ما فائدة ، أو قيمة هذه العادات القديمة ؟ ليس لدى المصريين أى شك فيما يختص بالجواب : « ستعيش ثانيةً وإلى الأبد ! اعلم أنك ستعيش ثانيةً إلى الأبد ! » تنهى هذه الألفاظ احدى طقوس التحنيط . وبسبب جفاف الصحراء التام ، كثيراً ما نجد مومياوات جيدة الحفظ . وكان الغرض من كل هذه العملية هو أن يتركوا على العظام شيئاً أكثر من الجلد . ولاتمت المومياء إلى لونها الطبيعى بصلة ما ، إذ يسْوَدُّ لونها من تأثير زيوت التحنيط .

كانت المومياوات موضوع خيال ودعابات كثير من مشاهير الكُتّاب . فهذه قصص إدجار ألان پو Edgar Alan Poe الخيالية ، التى تجعل المومياوات القديمة تعود ثانية إلى الحياة ، وحكايات تيوفيل جوتييه Theophile Gauthier المثيرة ، عن المومياء الجميلة لتاهوسر Tahoser الحسناء ، والأميرة الفاتنة إيتا Ita ، التى ستتجرد من معناها وروح الإثارة عندما تعرف كم يفقد الجسم عند حفظه طيلة كل تلك القرون . غير أن تقاطيع الوجه وملامحه لاتزال محتفظة بطابعها الأصلى . ومهما يبدو من عدم جدوى تلك الجهود التى بُذلت لحفظ أجسام معينة إلى الأبد ، فإنه من الممتع أن نلقى نظرة على وجوه ملوك الدولة الحديثة العظام ــ تحتمس الثالث ، ورمسيس العظيم ، ومرنبتاح ــ فيتعرف عليهم بعد فترة نوم لمدة ثلاثين قرناً وبعد أن نقرأ عن تاريخهم وأعمالهم العظيمة .

المومياء الملكية - Royal Mummies : حدثت فى عصر رمسيس التاسع (حوالى سنة ١١٠٠ ق.م.) سلسلة من التحقيقات والمحاكمات أثارت كثيراً من الهياج فى مدينة طيبة ، وشملت أفراد عصابات من أجلاّء القوم الموقرين الذين كانت لهم صلة بهيئة كهنة الضفة الغربية ، أولئك الذين نظموا سرقة مقابر ملوك عصر الاضطراب الثانى . وتعقدت المسألة بتنافس اثنين من عظماء الموظفين المشرفين على الضفة الغربية والضفة الشرقية ، فاعترف بعض المتهمين بجرائمهم وقرر المحققون الذين أُرسلوا لفحص حالة المقابر ، على الفور ، أن كل شىء كان على ما هو عليه ، على عكس جميع الاحتمالات . ورغم هذا فقد بدأ النهب من جديد فى المقابر الخاصة ، بوادى الملوك .

فُحصت الجبانة فى عهد الملوك الكهنة ، وأعيدت المومياوات المشوهة والمسروقة ثم

نقلت من مخبأ إلى مخبأ ، حتى وُضعت أخيراً في مقبرة أمنحوتب الثاني الصخرية ، وجُمعت مومياوات أخرى بسرعة ووضعت في مقبرة كبيرة نُحتت من قبل في الصخرة الغربية على مسافة قريبة من الدير البحرى . فوضعت مومياوات الملوك العظام تحوتمس الثالث وسيتى الأول وأمنحوتب الأول ، جنباً إلى جنب في كهف سرى تحت الأرض ، فاشتركوا معاً في مصيرهم التعس مدة ثلاثة آلاف سنة .

ولو أن هذه المومياوات الملكية وما وُضع معها من كنوز قد نجت من عبث اللصوص إبان الأسرة العشرين ، فلا شك في أن عبثاً بالغ القدم قد أقلق بال خلفائهم بعد أزمنة طويلة (دون أن يفطنوا إليه) . وهكذا حدث أن انتقم أحد مواطنى القرنة المسمى أحمد عبد الرسول لشرف مهنة المنقبين الأشرار . ففيما بين سنتى ١٨٧٦ ، ١٨٧٩ ظهر في سوق الآثار عدد من الأشياء دلت على أن بعض المنقبين السريين قد اكتشفوا مقبرة من مقابر الأسرة الحادية والعشرين .

فبدأ ماسبيرو Maspero ومصلحة الآثار ، التحقيق مبتدئين بالتجار حتى من باعهم تلك الكنوز ، وقُبض على عبد الرسول . بيد أنه لم تُجْدِ التحقيقات ولا الاستجوابات ولا التعذيب الذى استخدمه مدير قنا ، نفعاً أو تأت بأية نتيجة . ومع ذلك ، فبعد عدة شهور ، وعلى الرغم من أن التحققات الرسمية لم تأت بفائدة ، حدث نزاع بين شركاء عبد الرسول (اخوته) فاعترف أحدهم بكل شيء . وفى الفترة من الخامس من يوليو سنة ١٨٨١ إلى الحادى عشر منه ، زار موظفو مصلحة الآثار المخبأ وأخرجوا الآثار منه ونقلوها إلى الأقصر حيث أسرعت سفينة المتحف بالمجيء لحملها . « وبمجرد أن شُحنت السفينة اتجهت إلى بولاق بشحنة الملوك . ثم حدث شيء غريب بين الأقصر وقفط على ضفتى النيل كلتيهما ، إذ تبعت النساء الفلاحات السفينة ، وقد « شعثن » شعورهن وأطلقن صيحات الحزن ، وأطلق الرجال البنادق ، كما لو كانت جنازة » . هكذا كتب ماسبيرو . غير أن هناك مغامرة أخرى كانت في انتظار المومياوات الملكية عند أبواب القاهرة . فإن موظف الجمرك كان عنيداً كأسلافه متمسكاً بالقواعد الرسمية ، فأخذ يبحث في سجلاته ، عبثاً ، عن نوع الضريبة الصحيحة التى يمكن تطبيقها على هذه الواردات غير المنتظرة . ولما لم يستطع العثور على ما كان ينشده ، طبّق على الملوك أسلافه ، الضريبة التى تراءت له مناسبة ، وهى ضريبة الأسماك المجففة ! وهذه إهانة أخيرة من الإنسان كثير النسيان .

مونتو Mont : يبدو أن مونتو ، ذلك الإله الصقر الحامى لمنطقة طيبة وحامى عدد كبير من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، كان إلهاً محارباً . وسرعان ما خبا نجمه في طيبة نفسها أمام أمون ، ثم عاد فيما بعد إلى الظهور والازدهار مع اضمحلال قوة كهنة طيبة . شيدت له عدة معابد في طيبة ، وفى ميدامود وطود وأرمنت . أما حيوانه المقدس فهو الثور بوخيس Buchis - Bull ، المدفون في سراديب البوخيوم Bucheum تحت الأرضية ، بأرمنت .

ميرا **Mera** : كان النبيل ميريروكا Mereruka ، الملقب بميرا ، وزيراً فى عهد تيتى (الأسرة السادسة ، حوالى سنة ٢٤٠٠ ق.م.) . وقبره من أروع المصاطب الموجودة بسقارة . فله هو وأسرته مقصورة واسعة نصفها غير مزخرف ، وبقيتها مزينة بصور تخطيطية وصور متنوعة لمناظر نموذجية من الحياة اليومية ، كمناظر : صيد السمك وصيد الحيوان والرقص والعمل فى الحقول . ويضم المدخل صورة غير عادية ، تبين ثلاثة من الجن يمثلون فصول السنة الثلاثة . ويوجد تمثال ميرا الملون ، فى نهاية قاعة جيلة ذات أعمدة ، داخل كوة ويبدو مكوِّناً علاقة ودية بين هذا العالم وعالم الأخرة .

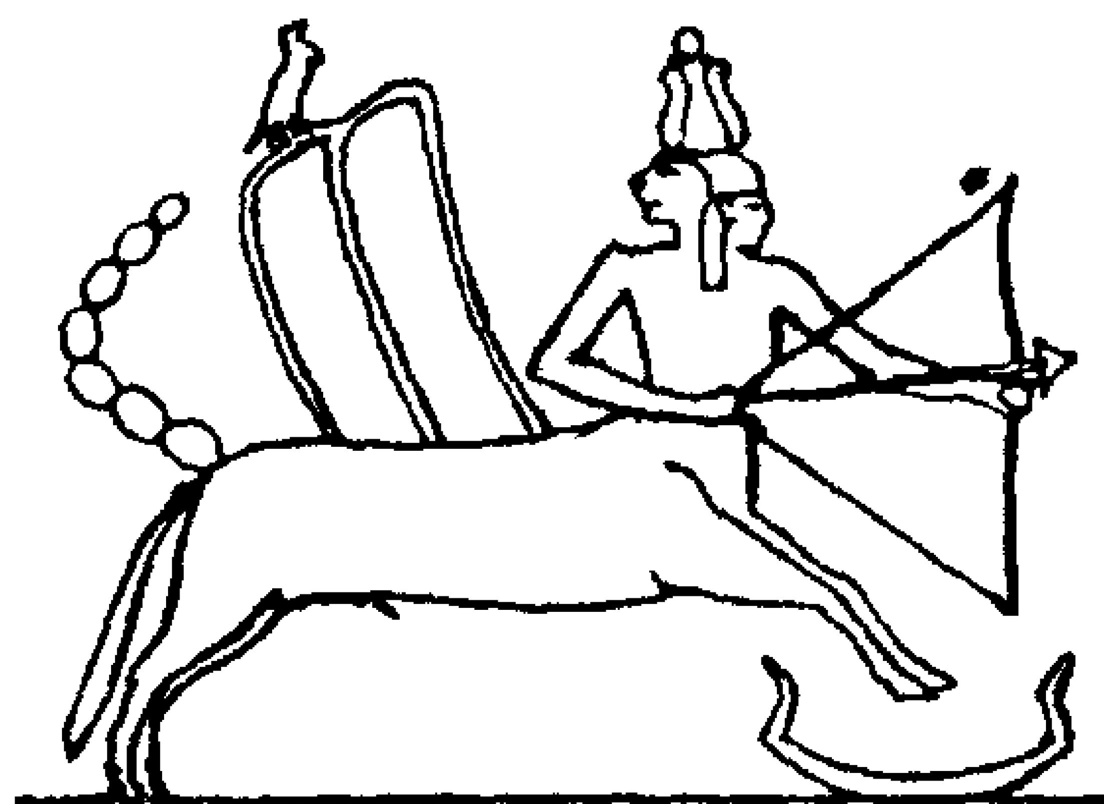
مين **Min** : فاقت عظمة ذلك الإله ، الصورة الخارجة التى مثل بها والتى جعلت الإغريق يُشبهونه بالإله العظيم پان Pan ، وجعلت حامى إخميم وقفط هذا ، وحامى الطريق إلى بلاد العرب ، يتمتع بشهرة لا يستحقها بين السائحين فى العصر الحاضر الذين يتوقون لزيارة (أماكن اللهو) فى حى پيجال Pigalle (فى باريس) . يجذب ذلك الجسم النحيل الانتباه بوقفته المتصلبة المخجلة ، ويبدو طويلاً جداً بالريشتين اللتين يضعهما على رأسه . والجزء الظاهر من جسمه خارج ثوبه المحكم حول جسده ، وبونه أسود إذ تقتضى الطقوس أن تدهن تماثيل مين بصبغه ترمز للخصب تتكون من النفط ومواد محروقة وقد ثنى دراعه اليمنى عند المرفق ورفع السوط الملكى الذى يوحى بالهيبة الملكية فطار بطريقة غامضة فوق يده المفتوحة . أما ذراعه الأخرى فوضعها تحت ثوبه ، وأمسك بيده الذكر الإلهى المتصب . هذه صفات الصورة الهادئة التى تجسدت فيها الألوهية المذهلة « للثور الذى يخدم الأبقار » ، ذلك السيد واهب الحياة ، الذى تفتتح مواكبه موسم الحصاد ، والذى تقدم له رءوس الخس فى احتفال ؛ إذ كانوا يعتقدون أن لذلك النبات ذى العصير الأبيض خواص مقوية جنسياً . .

مينا **Menes** : مينيس هو النطق اليونانى لاسم مينى Meni أو مينا الذى نُسب إلى أول ملك فى الأسرة الطينية الأولى .

ورغم أن قوائم الملوك الوطنية تبدأ بمينا ، فإن المؤلفين الإغريق هم وحدهم الذين احتفظوا بالأساطير الخاصة به ، وهو أول مُشرِّع للقوانين ومبتكر لوسائل للرفاهية المادية . ويقول هيرودوت إنه جفف سهل منف لكى يبنى « الحائط الأبيض » ومعبد بتاح ، مركز عاصمته . ومن الخطأ چيولوچيا أن نقول إن الوادى شمال الفيوم كان لايزال مستنقعاً قُبيل الأسرة الأولى مباشرة . وتبعاً لهيرودوت الذى خلط التاريخ بالأساطير ، قام مينا بدور الإله الخالق ، الذى بنى أول مدينة . واعتقد قدماء المصريين أن مينا أول بَشر صار ملكاً بعد حكم أنصاف الآلهة . ويستخدم المؤرخون المحدثون اسم مينا كرمز سهل للملك الذى ضم مصر العليا ومصر السفلى فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. ولسنا نعرف بالضبط مَن من الملوك البائدين هو مينا الأسطورى الأصلى . إنه إما أن يكون حورس نعرمر Horus Narmer ، الذى

يلبس ، تاج الشمال والجنوب ، أو هو
حورس عحا Horus Aha ، الذى قبره (أو

ضريحه) أقدم أثر ملكى فى سقارة ، جبانة
منف .



ن

النبات **Flora** : (انظر الحيوان والنبات) .

النبيذ وصناعته : يبدو أن الكلمة المصرية لمزارع العنب مشتقة من الأصل السامىّ «كَرْم» ولذلك استنتج علماء النبات أن الكروم وردت إلى مصر من آسيا . لابد أن هذا النبات وصل إلى ضفاف النيل منذ عصر مبكر جداً لأنه ازدهر هناك منذ حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. فيمكننا أن نقرأ كلمة «إرب» الدالة على النبيذ ، على جوانب القدور والسدادات التى يرجع تاريخها إلى أقدم الأسرات ــ ثم استعملها الأجانب ، فيما بعد بأزمنة كثيرة ، فى الشعر الاغريقى على لسان هيبوناكس Hipponax وسافو Sappho . كان من الممكن رؤية عروش الكروم (التكعيبة) ومعها أشجار التين ونخيل البلح ، فى جميع أنحاء مصر من عصر مينا إلى عصور القياصرة ، فى كل بساتين المعابد وحدائق النبلاء . وقد حوفظ على الثمار لكيلا تأكلها الصُفَيْرات وغيرها من الطيور بواسطة المصائد أو بالنواطير المخيفة للطيور ، وهكذا كان من الجلىّ أنهم اعتنوا بها . وعلى أية حال كانت عناقيد العنب الأسود أو المائل إلى الحمرة كبيرة غزيرة ، وحباتها مستديرة لامعة كعينى الإله حورس ، اللتين تقول الأسطورة إن العنب جاء منهما . لا تحتوى الصور والنقوش التى على جدران المعابد إلا على قليل من المعلومات عن المراحل المبكرة لزراعة الكروم ، ولكنها تقصر كل معلوماتها على الكروم نفسها . كانوا يقطفون العنب بعناية بالأيدى . ولما كان نمو الكروم يستمر طول السنة كان من الممكن دائماً أن يؤكل العنب على المائدة ويُشرب عصير العنب (انظر فرعون فى سفر التكوين ٤٠) . بيد أن موسم قطف العنب كان مقدمة لسهرات عظيمة لاحتساء الخمر كان يتمتع بها الملك ونبلاؤه ، وكذلك فى الأعياد . وقد نصّت الطقوس على وجوب تسلُّم الكاهنات والآلهة محصول الكروم الأربعة المعينة الموجودة فى أركان المملكة الأربعة .

سجل الكتبة ان السلال الكبيرة كانت تُفرغ فى أوعية من الحجر فيأتى الرجال ويمسكون بحبال مدلاة من عارضة خشبية كى يحفظوا توازنهم ، ويدوسون العنب بأرجلهم على وقع الأناشيد وتصفيق الأيدى . كانوا يتركون النبيذ ، فى العصور المبكرة ، حتى يختمر فى وعاء كبير ، ثم

يثقبون الوعاء ويُصب العصير فى قوارير من الفخار . ويعصرون الثفل فى كيس مستطيل الشكل معلق على قائمين ويُلوى الكيس بشدة كبديل للمكبس .

كانوا يتركون الأنبذة لتُعتّق (لمدة قد تصل إلى قرنين ، تبعاً لأحد المؤلفين) فى قدور طويلة ذات قيعان مدببة ، ويُحكم إقفالها بكتلة من الجبس أو من الطين ، تختم بخاتم الموظف المسئول ، ولو عرفنا المزيد من المعلومات عن أنواع الأنبذة المصرية ، لكان لدينا معلومات أفضل عن مختلف العمليات التى استخدمها المصريون القدماء فى صنع نبيذهم . وتشمل هذه العمليات تحسين النبيذ ، وتحضير مختلف الأمزجة (جمع مزيج) بواسطة أقماع ملتوية ، وإضافة العسل أو البهارات . احتسى قدماء المصريين النبيذ إلى درجة النشوة ، واستوردوا بعض أنواعه من فلسطين وسوريا ، ثم بعد ذلك من بلاد الإغريق . ومع ذلك ، فقد كان محصول العنب المصرى وفيراً (فى حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م. ، قدّم ٢١ من زراع الكروم ١٢٠٠ قِدْرٍ من النبيذ الجيد ، ٥٠ قدراً من الكحول ، ٥٠ قدراً من النبيذ المتوسط النوع) . وفى العادة ، لا تحتفظ القبور الخاصة إلا بسجل للكروم التى يملكها الأفراد ، غير أن مقبرة رخميرع تضم صورة لجماعة من سكان الواحات يُحضرون الضريبة المفروضة عليهم من النبيذ . أما مقبرة سن ــ نفر Sennefer بطيبة (مقبرة الكروم) فقد زيَّنَ المصورون داخلها ببراعة ، بشبكة من الكروم الجميلة المتفرعة من شجرة واحدة جذورها خلف صورة لأوزيريس . ولا يجب أن يغيب عن بالنا حقول الكروم الواسعة التابعة للملك وللمعابد فى عصور الدولة الحديثة . كان يشرف عليها موظفون ، ويفلحها أسرى آسيويون ، وكانوا يملئون من محصولها أوعية ضخمة . وقد جُمعت أكوام من « شقافة » أوعية مخازن الراميسيوم ومخازن أبيدوس ، وتل العمارنة ، تحمل أسماء كبار الموظفين وصغارهم . كُتبت هذه البطاقات على تلك الشقافة بخط مختصر ، بالمداد : « فى سنة كذا من حكم الملك فلان نبيذ من النوع الراقى ، ثلاثة أضعاف (أو ثمانية) الجودة من الأشجار السورية ، من حقل الكروم العظيم « طعام مصر » الواقع على الذراع الغربية للنيل ، والتابع لمعبد كذا ، لرمسيس الثانى فى طيبة ــ أشرف على صنعه المشرف الأول للكروم ، فلان » . اهتم المصريون بمعرفة السنة والنوع والنبيذ والكرمة وصاحبها والشخص المسئول . إذن ، فقد خرجت « الماركة المسجلة » هنك إلى عالم الوجود .

نستطيع بنفس هذه البطاقات ، وبغيرها من الوثائق المتناثرة ، أن نرسم خريطة لأماكن زراعة الكروم الجيدة . وقد اشتهرت أماكن معينة قريبة من فروع النيل بوسط وشرق الدلتا بأنبذتها . كما كانت منحدرات الحجر الجيرى المواجهة للغرب بمقاطعة سينوپوليس ، تنتج نوعاً ممتازاً من النبيذ . وكان الكهنة يعتبرون ست وحتحور الهى إيماو للنبيذ لأنهما كانا الحاميين للمنطقتين اللتين لاتزالان أشهر الأماكن بإنتاج أجود أنواع النبيذ ، وأغزرها إنتاجاً . هاتان المنطقتان هما : الواحات ،

وبساتين زراعة الأشجار ، ومنطقة مريوط ذات التربة الخصوبة بغرب الدلتا ، وتمتد من الحدود الليبية إلى بحيرة مريوط . يرتبط التاريخ الطويل لهاتين المنطقتين بتاريخ النبيذ والكروم فى مصر . ويستدل على زراعة الكروم فى هاتين المنطقتين من السدادات المختومة ، ويرجع تاريخها إلى العصور الثينية ، وتحتوى النصوص المكتوبة فى عصور الملوك الذين عرفوا باسم أمنحوتب والرعامسة ، على إشارات إلى « نبيذ الفرع الغربى » . ومع أن الإغريق والرومان كانوا يفضلون النبيذ الساحلى المسمى « تينيوتى Teniotic » ، فإنهم أثنوا على خفة النبيذ المريوطى الأبيض ، وتزخر الأداب الكلاسيكية بالحديث عن وفرته . واليوم تنتشر فى أبى المطامير كروم واسعة لمشروع ضخم قام به أحد رجال الصناعة اليونانين (چاناكليس) وأحد خبراء الزراعة السويسريين ، من ڤاود Vaud ، فتمد الموائد بأنبذة رقراقة لذيذة مزروعة فى نفس الأراضى التى زرعت فيها الكروم أيام الفراعنة .

النحاس والبرونز : جاء استعمال النحاس فى مصر تدريجياً ، فى نهاية الألف الخامسة ق . م . ويبدو أن كل شىء يشير إلى مجىء هذه الصناعة من آسيا . فلم يستعمل المصريون النحاس فى عصور ما قبل التاريخ ، إلا قليلاً جداً ، قانعين بأن يصنعوا منه الدبابيس والخرز وغير ذلك من الأدوات البسيطة . وفى العصر الثنى ، استعمل النحاس فجأة فى صنع الأدوات الطقسية. ومنذ الأسرات الأولى ، صُنعت التماثيل الملكية وتماثيل الآلهة ، من النحاس المطروق . وشاعت عادة تزيين القبور بزخارف نحاسية . وحمل جنود الدولتين ، القديمة والوسطى ، أسلحة مصنوعة من النحاس ، بيد أن الحجر نافس النحاس بمصر ، فى جميع العصور ، فى صنع الآلات والأدوات المنزلية ، ولم تكن مصر غنية بخام النحاس . فكانت الطبقات الصخرية فى الصحراء الشرقية فقيرة فى الخامات ، وأهم ما كانت تنتجه هو سليكات النحاس والدهنج malachite لتزيين العيون وحمايتها من وهج الشمس . واستغلت الحكومة المصرية مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء منذ الأسرة الثالثة ، وكانت كمية النحاس بها أكثر مما فى الصحراء الشرقية . وفى سنة ١٨٤٠ ق . م . أرسل امنمحات الثالث ٧٣٤ رجلاً إلى هذه المناجم لإحضار الفيروز والنحاس . غير أنه سرعان ما نفد النحاس من تلك المناجم . وقد اضطر المصريون خلال عصور تاريخهم إلى استيراد المزيد والمزيد من هذا المعدن لكى يحصلوا على « النحاس الأسيوى » . فحصلوا عليه بالتبادل التجارى مباشرة مع قبرص ، كما حصلوا عليه بطريقة غير مباشرة من الجبال الواقعة على الحدود السورية .

عرفت مصر البرونز من الدول الأسيوية ، منذ حوالى الألف سنة الثانية . فشرع المصريون يستوردون قضبان البرونز بطريق المقايضة على قضبان النحاس . ولا نستطيع البرهنة بصفة أكيدة على أن المصريين صنعوا البرونز بخلط النحاس

بالقصدير . ويفوق البرونز النحاس صلابة ويقل عنه لمعاناً . وتستعمل النقوش الرسمية ، للبرونز ، نفس الكلمة التى كانت مستعملة فى الأزمنة الماضية للنحاس النقى . وأخيراً حل البرونز محل النحاس فى كافة الاستعمالات الصناعية . واستعمل فنانو الدولة الحديثة طريقة الشمع المفقود "Cire perdue" لصب التماثيل النحاسية الجميلة ، لكل من الآلهة وعابديها . واستمرت مصر تصنع الأسلحة من البرونز لمدة طويلة بعد بداية عصر الحديد .

النحت (النقش) البارز **Relief** : بدلاً من أن يضع المصريون المناظر المنحوتة فى أجزاء خاصة من مبانيهم فحسب ، كما فعل الأشوريون فى قصورهم ، والإغريق

فى معابدهم ، فقد أسرفوا فى استخدام زخارف الحوائط الشاملة . فنرى فى المعابد الحوائط والسقوف والأعمدة مغطاة تماماً برسوم منقوشة فى الحجر . وقبل تلوين الصور ، فى المقاصير الجنائزية ، كانت تحفر بارزة ، فى أغلب الأحوال . وتكاد جميع اللوحات الحجرية أن تكون مزخرفة بنقش بارز ، وكذلك قواعد التماثيل والمذابح . وكانوا يلونون المناظر المنقوشة بارزاً ، وهذه طريقة فنية اختُرعت فى نهاية عصر ما قبل التاريخ (لوحات صحن الكحل (الصلايات) المصنوعة من الأردواز فى عصور ما قبل الأسرات) وصارت الطريقة العادية للزخرفة ، وهى طريقة قُدِّر لها أن تحيا إلى الأبد . وهى تدين للرسم بأكثر مما تدين للنحت ، وكان النقش فى المنحنيات هو نفس النقش على المسطحات .

ما إن تُصقل الحوائط ذات الواجهات الصخرية أو الحجرية ، وتُسَدّ الثقوب التى يتصادف وجودها ، بالجص ، حتى يبدأ كبير الرسامين فى نقل الرسم الذى أعده على ورق البردى ، على الحائط بالقلم والمداد ، ثم يكمله مساعدوه إلى آخر تفاصيله . ويتبع جميع خطواتهم « مستخدمو الأزاميل » أى الحفارون ، ويعيدون نفس ذلك العمل الفنى ، كما يعيدون تشكيل نفس

الأشكال ، جزءا جزءا ، إما بالنقش البارز الحقيقى ، وإما بالنقش الغائر . فيحفر الحفار خلفية المنظر حتى تصير الأشكال بارزة فوق تلك الخلفية ، ويشكل المناظر بالحفر إلى أعماق متفاوتة حتى يصير الشكل كالطبيعى تماماً فى كل تفاصيله . ويختلف طراز النقش الغائر فى العمق تبعاً لكل عصر ، ولكنه كان دقيقاً فى كل وقت .

ولقد كان تنفيذ النقش وجماله وطرافته فى الفن الفرعونى فى غاية الدقة التى تتطلب براعة فائقة ، حتى إن أمهر المزيفين قلما ينجح فى محاكاته ، وتكون النسخ التى ينتجها إما فاترة وإما نسخاً كروكية بالنسبة إلى العمل الدقيق الجدير بالإعجاب ؛ كالنقوش الموجودة فى مقابر تى ، أو رع — موسى بالأقصر أو فى أبيدوس وكثيرا ما تتزاحم فيها الألوان التى تمجها العين أكثر مما تمج النقوش السذاجة التى تغطى جدران معابد البطالمة . وعند تنفيذ النقش الغائر ، يحفر الفنان أشكالا تختلف فى العمق تبعاً للعصر وللنسب بين أبعاد الموضوع ، ثم يملؤها ويحفر التفاصيل على الشكل الموضح

من قبل . ولم يكن اختيار هذا النقش الغائر أو النقش البارز مسألة ذوق أو درجة فى الإخراج . فالقاعدة العامة ، فى المنشآت الدينية . أن تزخرف حوائط المبنى الخارجية برسوم غائرة ، والزخارف الداخلية بالنقش

البارز . ومن شواذ هذه القاعدة : فى بعض حجرات ببعض المقابر ، نحتت صور الحياة الدنيوية المخصصة لخدمة الشخص الميت نحتاً غائراً ، بينما نحتت لوحة القبر وبابه السحرى بالزخارف البارزة !

نخبيت **Nekhbet** : هى ربة تمثلها الرَّخَمه رمز مدينة « الكاب » بمصر العليا . وسرعان ما غدت نخبيتُ الربةَ حارسة الجنوب ، مثلما كانت الكوبرا واجيت **Wadjyt** التى من بوتو **Buto** رمز مستنقعات الدلتا . وتوجد بهذه الصفة فى كثير من الصور والنقوش كحامية للملك ، بينما تُستعمل الرَّخَمَة رمزاً فى تكوين التاج الملكىّ . كانت سيدة أودية الصحراء التى تشرف الكاب على مخارجها . ولما نشأت الأساطير عادل المصريون نخبيت بالربات الأخريات ، مثل حتحور ، ومُنحت مكاناً فى الدورة الشمسية . ويعتقد الشعب أنها ربة الوِلادات ، ولهذا شبَّهها الإغريق بالربة إيليثيا **Eileithya** .

نخت **Nakht** : صُوِّرت المناظر التى تزين قبر نخت ، كاتب معبد أمون ، بالقُرْنة ، فى حوالى أواسط الأسرة الثامنة عشرة (حوالى سنة ١٤٢٥ ق.م.) وقد طُبعت ونشرت فى جميع المطبوعات الحديثة

عن الفن المصرى . ليست مناظر التقدمات والصلوات هى التى شهرت اسم نخت بهذه الدرجة ، وإنما هى مناظر الحياة اليومية ، مثل إعداد الأرض للزراعة وجمع محصول الغلال ، وقطف الكروم وصيد الحيوانات والأسماك فى المستنقعات الموحلة الخضراء ، والصور الأكثر رزانةً ، للموسيقيات فى الأوركسترا والفتيات الراقصات فى الوليمة الجنائزية .

نختنبو **Nectanebo** : كان نختنبو الأول (٣٧٨ — ٣٦٠ ق.م.) ونختنبو الثانى (٣٥٩ — ٣٤١ ق.م.) من أواخر الفراعنة . فتكونت منهما ومن تيوس **Teos** (٣٦٠ — ٣٥٩ ق.م.) الأسرة الثلاثون . شُغل عهدهما كله ، من الناحية السياسية ، باعتداءات الفرس الغازين . فخرجا أولاً لصد هجوم فارناباسوس ، ثم لمقاومة أرتاكسيركسيس الثالث ، وفى الوقت نفسه سعيا إلى عقد تحالف مع الإغريق (إسبرطة ، بعد سقوط أثينا) . قام هذان الملكان بكثير من أعمال البناء فى مصر . فهما اللذان تعهدا بترميم معظم المعابد المصرية وحفظها داخل أسوار أثرية ذات أبواب زخرفية . وفى كثير من الأحوال كان المعماريون من البطالمة ، الذين بنوا المعابد العظيمة التى يزورها السياح اليوم ، يكملون الأعمال الضخمة التى بدأها هذان

الملكان . فقد بدأا الإيسيوم **Iseum** العظيم فى بهبيت الحجر ، بالوجه البحرى ، كما بدأا أوائل المبانى الدينية بجزيرة فيلة فى الطرف البعيد من المملكة .

النـدابات Mourners : (انـظر العادات الجنائزية) .

النصب الحجرية Stelae : بالمتاحف كثير من « النصب الحجرية المصرية » تعد بالمئات ، وبوسع أى عاشق آثار ثرى أن يجمع عدداً منها . إنها من خصائص مصر القديمة . وهى جذابة أحياناً وقد تكون جميلة ، وعادة ما تكون لوحة عادية ، ولكن الطلب عليها مستمر ، حتى ولو كان لمجرد عمرها الطويل ومتعة اقتنائها . وهى إما مقامة بجانب الحائط أو مبنية فيه . إنها لوحات من قطعة واحدة من الحجر (غالباً من الحجر الجيرى) ، ومزخرفة بصورة ونقش كتابىّ محفور غائراً عادة . وهى مستطيلة الشكل وجانبها العلوى مستدير على شكل نصف دائرة أو مزخرف بأفاريز وتعددت الأغراض من هذه النصب . أما النصب الملكية الضخمة فأكثر ندرة وأعظم قيمة للمؤرخ من تلك . إنها نوع من الإعلان الرسمى وُضع فى الأماكن العامة (كـأبواب المعـابد وأفنيتهـا والحصون والمحاجر) . ونرى عليها صورة شمس مجنحة فوق ملك ، يواجه أحد المعبودات ، ويقوم بطقس تقديم القرابين ؛ وبأسفلها نص هيروغليفى يعلن عن أمجاد الملك ويعيد إلى الأذهان مناسبة عظيمة (كانتصار أو حملة تجارية أو تدشين مكان مقدس) ؛ ويعلن للجمهور قراراً من جلالته . وهناك نوع آخر من النصب الحجرية ، هو « اللوحات الجنائزية » التى سميت هكذا لوضعها فى مقاصير المقابر . ونشأة هذه الآثار وتطور أشكالها وفوائدها بالغة التعقيد . وعلى أية حال ، يجب ألا ننسى أنها كانت نقطة التقاء هذا العالم بالعالم السفـلى . فمثلاً ، « البـاب الوهمى » الموضوع فى الحوائط الداخلية لمقابر الدولة القديمة ، كان بمثابة باب سحرى يتسلم خلاله الساكن فى العالم الاخر الغذاء ، الذى لا غنى له عنه ، فى صورة مادية أو طقسية . وبوسع الشخص الميت أن يرى ضوء النهار خلال العيون المنحوتة على كثير من النصب . كذلك هناك اللوحات التذكارية ، وهى نُصُب حقيقة مصغرة ، تدخل تحت هذا النوع من اللوحات الجنائزية . وقد أقام بعض الناس ، فى الـدولة الـوسطى ، كثيـراً من هـذه اللوحات ، فى أبيدوس ، ليظهروا أنفسهم مع أقاربهم . وكثيراً ما يسأم الناس ، فى هذه الأيام ، ترجمة النقوش الهيروغليفية التى على لوحة خاصة نموذجية . فهى تتألف عادة ، من نعوت وأسماء وبعض ألقاب التفخيم الخاصة بالشخص الميت ، ولكنها قلما تذكر تاريخ حياته . ومن بين اللوحات الباقية ، توجد قلة قليلة لا تحتوى على « صيغة قرابين » (غالباً ما يطلَق عليها خطأ اسم Proscyneme) . يوضح هذا النص أن إله ذلك المكان ، بعد أن تَسَلَّمَ تقدمة الطعام من الملك ، يمكنه ، بنفس ذلك العمل ، أن يُزَوِّد فلاناً ، ابن فلان ، « بكل ما يعيش عليه الإله » . وهو إجراء مرهق دون شك . ورغم هذا ، فهو أداة غامضة لاستمرار الحياة بعد الموت .

النصوص الجنائزية : كان سحرة قدماء المصريين ينمقون تعاويذهم السحرية الشفوية ويزيدون فيها باستمرار ، حتى أن الموتى ، سواء كانوا فى صحبة رع فى العلا أم أوزيريس فى عالمه السفلى ، يتمتعون بحياة أكثر تألقا من حياتهم السابقة ، ويسدون حاجاتهم البشرية دون خوف من موت ثان نهائى . فوُضع نوع خاص من الأدب ، يعتمد فى تأثيره على سحر الكلام (كانوا يقرءون بعض فقرات منه بصوت مرتفع فى الجنازات وفى أثناء القيام بالطقوس الجنائزية) ، وعلى سحر اللفظ المكتوب (ملئت جدران الحجرات ، والأثاث الجنائزى وأوراق البردى الموضوعة فى القبور بتلك الألفاظ السحرية) وكانت هذه النصوص موضوعة أساساً لضمان حياة الملك ، ثم امتدّ أثرها بالتدريج إلى رعاياه . وتلك النصوص التى تحمل الاسم الكئيب « جنائزية » والتى قصد بها « إعطاء الحياة » ، من عدة أنواع :

١ — مجموعة من الصيغ المستقلة ، تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً ، لأن بعضها عبارة عن ألفاظ سحرية تنفع الأحياء أيضاً ، كما تنفع الذين « مُجِّدوا » (توفوا) . ومن هذا النوع ، تلك النصوص التى نقرؤها فى الأهرامات ، والتى يرجع تاريخها إلى نهاية الدولة القديمة ، وكذلك النصوص التى كُتبت على توابيت بعض الأفراد فى الحقبة المتوسطة الأولى والدولة الوسطى .

ـد أخيراً « فقرات » كتاب الموتى ، التى أخذ بعضها من مجموعة صيغ التوابيت .

— كانت كتب « نظام الكون » التى يمكننا أن نراها فى مقابر وادى الملوك ، مؤلفات ضخمة ، متشابهة النوع ، من عهد الدولة الحديثة ومنها نسختان مختلفتان من كتاب عنوانه « إمى دوات Imy Duat » (أو « ما فى القاعة المخفية ») ، وكتاب الأبواب ، وكتاب الكهوف ، وكتاب النهار ، وكتاب الليل ، وكتب أخرى ذات صور تعويذية ، وعدة رسوم مربكة صممت من أساطير الأسلاف وحُوِّرت إلى معان خيالية مع تعليقات تفسر ، بشتى الصور ، إعادة بعث رع فى كل يوم ، الذى يشبَّه به الرجل الميت فى خلال جولاته فى العالم السفلى .

٣ — طقوس الموتى الدينية ، وتشمل : طقوس « فتح الفم » ، وطقوس « التحنيط » ، وقد نقشت على القبور حتى تبقى الطقوس التى تقام على الجثة دائمة المفعول إلى الأبد .

٤ — كتيبات الفترة المتأخرة ، وهى : « كتاب الأنفاس » و « كتاب الأنفاس الثانى » (وسمى خطأ « عسى أن يزدهر اسمى ») ، و « كتاب السفر خلال الخلود » ، وغير ذلك من الكتب ـ عُملت هذه الكتب وقرئت كى تحيا الروح فى السماء والجسد فى العالم السفلى .

٥ — طقوس عبادة رع (تعاويذ ضد أبوبيس) أو طقوس الآلهة الأموات (نحيب إيزيس ونفتيس ، وكتاب ساعات سوكر ، ومؤلفات أخرى للاحتفالات) ، والغرض منها أن تعطى الحياة للإله فى معبده ، وكذلك يمتد أثرها لتحفظ الرجل الميت آمناً فى قبره .

قام كثير من الكتبة ، من شتى درجات العلم والمعرفة ، بنسخ هذه النصوص وإعادة نسخها مرات لا تحصى ، وحذفوا منها بعض الفقرات والعبارات . وفيما بعد ، راجع العلماء هذه النصوص وأعادوا صياغتها ، وهكذا صارت هذه النصوص عسيرة التحقيق وكثيراً ما تكون صعبة الترجمة (لا توجد ترجمة معتمدة نهائياً لكتاب الموتى) ، وغالباً ما تُحيِّر الرجل العادى فى عصرنا هذا . ولو أن العناوين التى ذكرناها هنا ، تعطى القارىء فكرة ما ، فإنها لا توضح له شتى محتويات هذا الأدب المكدس . بيد أننا نقول إن كل ما ذكرناه فى هذا المعجم مطابق تقريبا للواقع . لم يكن قدماء المصريين ، فى عصور الفراعنة ، مُحضِّرى أرواح ولا عبدة موتى . ولكنهم كانوا يرغبون فى الحياة إلى الأبد .

نـظريـة نـشـأة الـعـالم Cosmogonies : (انـظر أسـاطـير الخليقة) .

النعـال Sandals : كان قـدماء المصريين يسيرون حفاة الأقدام ، وكانت النعال إما نوعاً من الترف أو دليلاً على أن لابسها من الطبقات المتوسطة . ويتكون ما وُجد منها من نعل مثبتة به سيور تُربط حول الساق .

استُعملت النعال البيضاء أثناء الخدمة الدينية . أما الملوك فكانوا يلبسون نعلاً غريبة الشكل يستدير مقدمها إلى الخلف ، وأحياناً كانت صور الأسرى الأجانب تحفر على النعل .

نفتيس Nephthys : عُرفت الربة نفتيس بسبب الدور الذى تقوم به فى أسطورة أوزيريس . كانت شقيقة إيزيس ، واشتركت فى طقوس وقاية وبعث الإله الميت . وتقول بعض الأساطير إنها زوجة ست ، أو والدة أنوبيس . وقلما يبدو أنها كانت تُعبد وحدها ، ولا تظهر إلا فى أساطير هليوبوليس . وتُقرن أحياناً بالربات الأخريات ، مثل عنقت Anukis . وعُبدت بهذه الصفة ، فى الحقبة المتأخرة ، فى كوم مير بمصر العليا .

نفرتيتى Nefertiti : هى زوجة الملك أخناتون . وقد أضفت عليها عبادة الشمس التى نادى بها زوجها ، هالة من المجد . غير أن جمال تماثيلها هى التى شهرتها ، وخصوصاً بين الشعوب فى هذا العصر الحديث . فقد نقشت صورتها على لوحات فى معابد أتون وعلى كثير من أعمال النحت التجريبية ــ التى حاكاها الأجانب محاكاة رديئة ــ وفوق كل شىء تماثيل رأسها التى اكتشفت فى العمارنة (فى سنة ١٩١٤) ، واشتهر منها اثنان بصفة خاصة ، وهما : نموذج الرأس المنحوت من الكوارتزيت الأحمر والمزين بلمسات من المداد (بالمتحف المصرى بالقاهرة) ، وهو بلا شك قطعة فنية تعبيرية دقيقة الصنع ، ولكنه مع ذلك

يقل شهرة عن رأس نفرتيتى الموجود فى برلين . فإن ذلك الرأس الملون المصنوع من الحجر الجيرى ، قطعة فنية رائعة ، حتى ولو كان فقط من أجل الطريقة المدهشة التى يتزن بها غطاء الرأس الضخم فوق عنق تلك الملكة الرقيق . والعين اليمنى مرصعة بفص زجاجى بينما تُركت اليسرى بيضاء ، إما لتبين عيباً حقيقياً أو لسبب آخر . لذا فمن الأفضل أن ننظر إليه نظرة جانبية . وقد انتقل هذا الرأس الثمين إلى ألمانيا بخطأ أو سهو كان من سوء حظ مصر ، ورغم أنه كان موضوع نزاع دبلوماسى ، فإنه لم يُرجَع قط إلى مصر .

نشأت شهرة هذه الملكة بفضل ثورة العمارنة ، وكانت متشبعة تماماً بالدين الجديد ، وفى غاية الفتنة ، فذاع صيتها حتى بات من الممتع أن نعرف المزيد عن الشخصية الحقيقية لهذا « الكوكب » الذى لايزال له معجبون كثيرون فى جميع أرجاء الدنيا . وتبدى بعض النقوش البارزة نفرتيتى جالسة ، فى سعادة ، فوق ركبة أخناتون أو وهى تطبع على وجهه قبلة أثناء موكب للعربات أو تلعب مع احدى بناتها الست . وتنبع الأصالة فى فن العمارنة حسبما نرى من عرض مشاهد من الحياة الخاصة للأسرة المالكة على أعين الرعية وتصوير العائلة المالكة فى مقابر موظفيها ودورهم ، وليس المحبة الطبيعية التى توحد بين الأسرة الملكية وهى أصالة تتفق مع النموذج الذى اختطه أهل العمارنة لحياتهم . ومن المؤكد أن نفرتيتى كانت متمسكة تماماً بمذهب أتون ، وأنها ساعدت زوجها فى القيام بطقوس عبادة ذلك الإله . ومن المحتمل أيضاً أنها تعلقت بالعقيدة الجديدة عندما فتر تعصب أخناتون ؛ غير أن هذا الظن مجرد تخمين مبنىّ على أساس دليل أثرىّ ليست ترجمته مفهومة على وجه التأكيد .

ماذا نقول أكثر من ذلك عن هذه الملكة التى يعنى اسمها « المرأة الجميلة قد أتت » ؟ ظل الناس زمناً طويلاً يحسبونها أميرة ميتانية (آرية) ، غير أنه لا يوجد قط ما يثبت ذلك . ربما انحدرت نفرتيتى من أسرة مصرية نبيلة ، ولما كان اسمها مصريا صميماً ، فهو كناية عن « الربة الحسناء » حتحور . من ذلك نرى ضآلة المعلومات التاريخية عن نفرتيتى . ولنسمح لكُتّاب القصص الخيالية ، وقد خذلنا المؤرخون ، أن يصوروا نفرتيتى الأسطورية ما شاءوا أن يصورروها ، فربما صوّروها على حقيقتها .

النقد التهكمى Satire : ظن أساتذة الكُتّاب أنهم إذا ما نددوا بالضائقات التى يعانيها أصحاب المهن الأخرى ، جذبوا إليهم طلبات البيروقراطيين وحفزوا تلاميذهم . وهكذا خلقوا النقد التهكمى على المهن ، الذى ظل شائعاً فى مصر . وأول مؤلف من هذا النوع هو « تعاليم خيتى Khety » ، ويرجع تاريخه إلى الدولة الوسطى ، وبعد ذلك بألف سنة ، ظل تلاميذ المدارس يحفظون منه فقرات تتندر بسوء حظ البناء والفخارى والصياد وصائد السمك والحلاق والرسول . وقد استخدم كتاب الدولة الحديثة سلاح السخرية ضد

الفلاح والجندى ، بل والكاهن والبحار والخباز والغسال .

ورغم افتقار هذه النصوص للبلاغة ، فإنها لا تفتقر إلى الزخرف . وهى ، قبل كل شيء ، تلقى ضوءاً على حياة الشعب المصرى وأخلاقه وطرق عمله وحالة مهنه ، ومنها :

« صانع الجلود ملوث بمواد الدباغة ، ورائحته فظيعة بصورة غير عادية ؛ ويداه حمراوان من الصبغة كيدى رجل مضرجتين بالدماء » .

(توجد بعض فقرات من التهكم فى المقالات على الجيش والخبز والفلاح . كما يجب أن نلاحظ أيضاً أن سِفر الجامعة (بالتوراة) ٣٨ / ٢٥ — ٣٩ يتضمن تهكما على المهن أوحت به النماذج المصرية) .

النقل **Transport** : ولو أنه لا يمكن مقارنة وسائل النقل المصرية القديمة بوسائلنا ، فإن العالم الفرعونى لم يحصل منها على فائدة تقل عما نحصل عليه نحن من وسائلنا ، فمنذ أقدم العصور ، كان الحمار دابة الحمل لجميع الأغراض ، ولكنه لم يكن عادة حيواناً للركوب . فكان الرجل العادى يمشى دائماً على قدميه . أما الآلهة والملوك والنبلاء ، فكانوا يُحملون ، فى عصر الأهرام على مقاعد حَمْل ضيقة توضع على ساقين أفقيتين يحملهما صفان طويلان من الخدم . كان الصفان طويلين فعلاً لدرجة أنهما شبها بحشرة (أم أربعة وأربعين) . ثم اختُرعت العجلة المصمتة فى الدولة القديمة من الاسطوانات الخشبية التى كانت تستخدم فى دحرجة الزحافات . ولكنها كانت ثقيلة فلم تكن سهلة الاستعمال فى الطرق المتربة ، فقصر استعمالها على عربات الطقوس ذات الأربع عجلات التى كانوا يحملون فوقها السفن الإلهيه والتوابيت .

وفى حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م. جاء الحصان إلى مصر من آسيا ، ومعه العجلة ذات « البرامك » ، غير أنه لم يحدث انقلاب فى وسائل النقل . وبقيت المركبة ذات العجلتين الخفيفتين من المعدات الحربية . واستخدمت هذه العربية خارج الحرب فى نقل البريد ، ونقل الملك والملكة والنبلاء . وتحولت « المحفة القديمة » ، فى الدولة الحديثة إلى هودج حقيقى يحمل عرشاً ، ولم تستعمل إلا فى المواكب الملكية الرسمية . وجرت التقاليد على نقل تماثيل الآلهة على أكتاف الرجال ، وكانت مركباتها على هيئة السفن .

كان النيل والترع المتفرعة منه طرقاً مائية عظيمة الفائدة ، والحقيقة أنها كانت أفضل طرق المواصلات جميعاً . وتعددت أنواع السفن التى تسير فى النيل وقنواته ، واستعمل ذلك النهر فى نقل الأشياء الضخمة وفى الرحلات الطويلة . ولا يوجد دليل على تنظيم الحكومة للمواصلات العامة ، غير أن حرية التنقل كانت محدودة . فعند الضرورة تعمل الإدارة الترتيبات اللازمة لنقل الناس والبضائع .

والمدهش أن نقل المسلات العملاقة والتماثيل الضخمة ، وكتل الجرانيت الكبيرة الحجم والمتوسطة ، كان يتم بوسائل بدائية

نسبياً . كانوا يضعون تلك الكتل الثقيلة على ظهور « صنادل » خاصة فوق اليابسة على الضفاف المنخفضة للنيل ، حتى إذا ما أتى الفيضان رفعت تلك الصنادل فتطفو على سطح الماء ، وعندئذ تجرها سفن قاطرة إلى حيث يراد تفريغ حمولتها وتنقل تلك الأحجار ذات القطعة الواحدة والأحجار المنحوتة فوق زحافات خشبية تُجرُّ فوق أرض مكسوة بالطين أو فوق اسطوانات من الخشب . وأحياناً كانوا يستعملون الثيران في جرّ تلك الزحافات ، وفي أغلب الأحوال يجرها الرجال (أسرى الحرب أو رجال يقومون بالعمل بالسخرة) . كانوا يستخدمون العدد اللازم من الرجال . ففي حوالى سنة ١٩٥٠ ق.م. نقل ٦٠ تمثالاً لأبي الهول و ١٥٠ تمثالاً متوسطة الحجم من وادي الحمامات إلى قفط (مسافة تبلغ حوالى ٨٠ كم) ، فاحتاج نقلها إلى ١٧٠٠٠ عامل في فرق يتألف بعضها من ٢٠٠٠ رجل وبعض آخر من ١٠٠٠ رجل ، وبعض ثالث من ٥٠٠ رجل .

نكاو الثاني Necho II : ولو أننا لا نعرف سوى القليل نسبياً عن نكاو الثاني ، من الآثار المصرية ، فقد احتل مكان الشرف في التاريخ الدولي للعصور القديمة . تولى الحكم سنة ٦١٠ — ٥٩٥ ق.م. ، وكانت سياسة ملك صا الحجر هذا في الأسرة السادسة والعشرين ، أن يقوم بدورٍ فعال في العالم الخارجي . فبمجرد أن تبوأ العرش ، تدخلَ في آسيا . فحارب يوشيا ملك يهوذا ، الذي أراد إقفال الطريق أمامه بعد أسوار مجدو . فقتل يوشيا في المعركة ، وعينَ نكاو ملكاً من اختياره لعرش أورشليم . فظل فرعون سيد فلسطين وسوريا مدة أربع سنين . غير أن نبختنصر أباد جيشه في قرقميش سنة ٦٠٥ ق.م. ، فتحطمت امبراطوريته الأسيوية .

ويروى هيرودوت كيف اضطلع الملك ، الذي أراد مدّ نشاطه البحريّ والتجاري ، بحفر قناة كقناة السويس ، وأعطى مصر أسطولاً من السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف . وقام بحارته الفينيقيون برحلة استغرقت ثلاث سنوات ، من البحر الأحمر إلى الرأس (أي رأس الرجاء الصالح) ، وعادوا عن طريق جبل طارق . ولم يستطع العالم القديم أن يصدق أن الشمس التي تشرق دائماً من على اليسار ، أشرقت يوماً ما من على يمين البحارة . ومع أن هذه الرحلة تبدو لنا بالغة الأهمية ، فإنها لم تُتبع بأخرى ، ولم يتبعها أحد بعد ذلك .

النماذج Models : لما كان الصناع والفلاحون لا يستغنون ، في الحياة الآخرة ، عن الأعمال التي زاولوها في الحياة على الأرض ، نرى في المصاطب صورهم ونقوشهم العامرة بالبهجة والحياة . وقد اعتقد القوم ، في الدولة القديمة ، أن بوسع التماثيل أن تقوم بنفس الخدمات التي تقوم بها الصور . فتوجد في بعض مقابر منف تماثيل خدم ؛ صُنع كل منها من الحجر الجيري وتبين شخصاً أو شخصين يعملان . وتمثل صانعي البيرة والطحانين وصناع الفطائر والجزارين والفخاريين والحمالين

والموسيقيين ، من الجنسين . وطرازها دائماً غير دقيق . زاد عدد النماذج فى عصر الاضطراب الأول وفى الدولة الوسطى . وكانت تصنع من الخشب ، لأكثر من شخص وتمثل فى كثير من الأحيان مناظر كاملة . كانت نماذج صغيرة معقدة ، مصنوعة من قطع تُرتب معاً فى مجموعات . وقد وُجدت نماذج تمثل مناظر البيوت الصغيرة والحدائق وحوانيت القصابين وصناعة البيرة والغزل ومخازن الحبوب وحظائر الماشية ، ومختلف أنواع القوارب وصفوف من الجنود أو الخدم . ويوجد على ظهر كل قارب كثير من الخدم فى أوضاع مختلفة ، كل منهم منهمك فى عمل وبجانبهم كثير من التفاصيل ، وبأيديهم أدوات العمل ، والأسماك فى شباك الصيد واللحوم معلقة فى حبل . وقد طُليت بيوت الدمى هذه بألوان زاهية .

قد يضحك بعض الناس من هذه التماثيل الصغيرة الساذجة ، التى يبدو كل منها كئيباً ، ولكنها إذا اجتمعت فى صورة كاملة دبت فيها الحياة . ورغم أن روح هذه النماذج تبدو فى غاية السذاجة ، فإنها تتحرك نحو شخص عديم التعصب ، يسعى وراء لمسة فنية . وربما لم يحدث أن فنا مخصصا للنبلاء ، قد صوَّر عامة الشعب فى مصر يعملون بمرح فى الشمس وتدب فيهم الحياة بمثل تلك الصورة الحيوية .

النوبة **Nubia** : أقام فى الأراضى الواقعة جنوبى مصر قوم أقل حضارة ، ولكنهم كانوا جنوداً عظماء . كانوا أغنياء بالذهب والأنواع الجيدة من الأحجار والخشب الصلب الثقيل والقطعان الكبيرة من الماشية . وكانت النوبة هى الممر الموصل إلى أواسط أفريقيا التى كان يأتى منها العاج والأبنوس والحيوانات الغريبة والأقزام .

ظل الفراعنة مدة طويلة يعتبرون بلاد النوبة بلاداً يجب استغلالها واستعمارها واتخاذها مصدراً للخيرات اللازمة لرفاهية بلادهم .

ضمَّ الفراعنة اقليم الفنتين **Elphantine** إلى مصر العليا فى العصور البائدة وجُعلت حدود مصر عند الشلال الأول (أسوان) . وقد وصل جيش الملك جر **Djer** (من ملوك الأسرة الأولى) إلى الشلال الثانى ، واجتازه المصريون فى الدولة القديمة عندما اتسعت المشروعات التجارية التى تساندها القوة أحياناً . ثم غزا حكام الدولة الوسطى جنوب النوبة حتى سمنة الواقعة جنوبى الشلال الثانى ونظموا وسائل استغلال تلك المقاطعة (سنوسرت الثالث) . وكان هناك مصنع مصرى يعمل فى كرمة **Kerma** وراء الشلال الثالث . وقد مدَّ المصريون ممتلكاتهم إلى جنوبى الشلال الرابع (تحوتمس الثالث) واتصلوا بالشعوب الزنجية الأصلية . ومُنحت النوبة إدارة ذاتية بإشراف « الابن الملكى لكوش **Kush** » . بلغت سطوة مصر ذروتها فى ذلك العصر بيد أنه سرعان ما دار الزمن دورته . فقد ظلت بلاد النوبة مدة طويلة تستعد . ومنذ الدولة القديمة كان الفراعنة يجندون النوبيين فى جيشهم ، وقد جاء هذا الإجراء من استخدامهم لهم فى الشرطة (مجاى **Medjai**) . وإذ تعلَّمَ النوبيون الحضارة من

مستعمرى بلادهم ، اتخذوا لأنفسهم معتقدات دينية وعادات وكتابة ، وأدركوا فى النهاية أنهم ذوو قوة يجب أن يتمتعوا بها . وفى نهاية عصر الهكسوس ، تحالفت مملكة نوبية عظمى مع هؤلاء الأسيويين وحاربوا قوات الدولة الحديثة الثائرة (فى حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م.) . واستعاد النوبيون استقلالهم عند تدهور قوة الفراعنة . ثم غادر الملوك المتمصرون فى نباتا Napata بلادهم لغزو وادى النيل ، وظلوا مدة قرن (من ٧٥٠ — ٦٥٠ ق.م.) يفرضون حكمهم على مصر (العصر الإثيوبى) . وإذ طاردهم الأشوريون ، وهزمهم بسمتك الثانى ، كفوا عن التدخل فى مصر وأداروا ظهورهم لها ، وانفصلوا عن ثقافتها ، واتخذوا طريقة خاصة لحياتهم ، فى مملكتهم النوبية مروى Meroe .

نوت Nut : تقول أسطورة هليوبوليس : كانت نوت ، ابنة شو وتفنوت ، زوجة جب ، إله الأرض . وكانت تمثل قبة السماء . وكثيراً ما تصورها النقوش البارزة على هيئة امرأة تمس قدماها الأفق الشرقى ، بينما ينحنى جسمها فوق الأرض ، وتتدلى ذراعاها إلى مستوى الشمس الغاربة . وتمثلها أساطير أخرى فى صورة بقرة ضخمة تقف فوق العالم ، وترسل النجوم أشعتها أمام جسمها . صارت نوت ربة الشمس « رع » ، وفُرض أنها تبتلع قرص الشمس عند غروبها فى كل مساء ، ثم تعيده إلى الأرض فى كل صباح ، كما كانوا يعتبرونها فى هليوبوليس ، أمّ أوزيريس وإيزيس ونفتيس وست . ويروى بلوطارخ قصة تصف كيف لعنها أبوها الغاضب فدعا عليها بالعقم ، وكيف أنها ، فى لعبة بزهر النرد ، ربحت خمسة أيام من خصمها تحوت Thoth ، إله الزمن ، فاستخدمت هذه الخمسة الأيام الزائدة (التى تضاف إلى السنة العادية ٣٦٠ يوماً) ، فى أن تلد سراً خمسة أطفال للعالم .

نوقراطيس Naucratis : بنيت نوقراطيس ، وتسمى الآن « كوم القعاف » ، على الفرع الكانوبى للنيل قرب صا الحجر . كانت مقراً تجارياً أسسه الميليزيون فى عهد بسمتك (القرن السابع ق.م.) . جعل امازيس هذه المدينة المكان الوحيد فى مصر الذى يستطيع الإغريق أن يتاجروا فيه بحُرِّيَّة . وكان الدخل الناتج من رسوم الجمارك ، يرسل إلى معبد نيت فى صا الحجر . اشتركت عدة مدن إغريقية فى تطوير هذا المقر التجارى . وكان للاغريق بها مؤسسة طائفية تسمى « الهيلينيون Hellenion » ، ومعابد مكرسة لآلهتهم الخاصة . وقد فقدت هذه المدينة أهميتها عندما أُسست الإسكندرية ، إذ انها لم تعد ثغراً تجارياً . وسُكّت بها العملة المصرية الوحيدة المعروفة ، من البرونز ومن الفضة .

نيت Neith : هى ربة قديمة جداً ، من مدينة صا الحجر (سايس) ، ولها أشكال ووظائف عديدة متنوعة . فكانت

أحياناً ربة خالقة عديمة الجنس والمياه الأولى التى جاءت إلى الوجود أولاً والتى نشأ منها كل كائن و أم الشمس . وكان يُلتبس بينها وبين نوت أحياناً ، ونوت هذه قبة السماء . وقد جعلت بعض الأساطير نيت ربة قوّاسة تهاجم بسهامها جميع الشياطين الشريرة ، حامية النوم ، ومخترعة النسج ، وربة زيوت الدهان وواحدة من الحراس الأربعة الذين يسهرون على حراسة التوابيت والجرار الكانوبية . وكانت طقوس عبادتها تختلف بين مكان وآخر ، وكانوا يقرنونها أحياناً بالتمساح سوبك وأحياناً بأوزيريس . وقد ذاعت شهرتها بنوع خاص منذ الأسرة السادسة والعشرين ، وشبّهها الاغريق بأثينا .

النيل Nile : ليس من السهل أن نتتبع أصل هذه الكلمة التى ورثناها عن الاسم الإغريقى Neilos . ولكى نصف النيل ، يجب علينا أن نروى قصة بطولة تكرر نفسها فى كل من الزمان والمكان . ينبع هذا النهر ، الذى هو أطول أنهار الدنيا (يبلغ طوله ٦٥٠٠ كم) ، فيما وراء خط الاستواء ، من سلسلة من البحيرات الكبيره الضخمة (ڤيكتوريا وألبرت وغيرهما) ، ويعترض مسيره عدد من الشلالات العالية ، ثم يمر فى شبكة من مجارى المياه المليئة بالحشائش والأعشاب فى السودان ، كما تغذيه سيول الحبشة . ويمر خلال سهول واسعة حيث ازدهرت فيما مضى مملكة النوبة الفرعونية ، ثم يسير خلال الصحارى . وتحف به أحياناً أرض صخرية جرداء بين حائطين مقفرين شديدى الحرارة . وتجرى مياهه أحياناً بين ضفتى أرضه الضيقتين المظلمتين . ويتدفق النهر فى بعض المواضع فوق الجنادل ويجرى بسهولة خلال حواجز صخرية شقها مسيره إلى جُزُر . ومن أمثلة ذلك الشلالات الستة التى تذكرنا بهيئه المجارى الجبلية فى اسكتلندة ، ولا تشبه بحالٍ ما ، الشلالات العظمى لنيل خط الاستواء . وبعد شلال أسوان الذى أطلق عليه سكان منطقة البحر المتوسط اسم « الأول » ، يُكَوِّن وادى النيل أرض مصر نفسها . حقاً ، إن الرحلة الأفريقية مغامرة فى الفضاء . وفى أكثر من نصف مجراه وحتى البحر ، يتحدى هذا النهر الفريد الواسع الضخم ، الصحراء ويجلب إليها الحياة . بيد أن العمل الجدير بالثناء العظيم ، هو العمل المتبادل بين النيل والإنسان على مَرّ العصور .

وبينما تعاقبت أجيال كثيرة من رجال العصر الحجرى ، وتلا بعضها البعض الآخر على ضفاف النيل ، غيَّر هذا النهر ، ونهيراته التى جفت الآن ، أرض مصر المستقبلة ، عدة مرات ، تبعاً لإملاء الدورات المناخية وتغيرات شبكة مجاريه . وقبيل نهاية العصر الحجرى القديم ، بدأ مجىء كميات من الغرين الرملى الشهير من الحبشة ، كَوَّنت « التربة السوداء » الخصبة . وفى العصر الحجرى الحديث ، صارت المناطق التى على حدود مصر « أرضاً حمراء » أو صحراء ، وغدا خط المياه الوحيد هو الملجأ الكريم للبشر الكادحين . بيد أن هذه المنطقة لم تكن من الناحية الجغرافية

مثلما كانت عليه فى العصور التاريخية . فقد مورست الزراعة من قبل وكانت الحضارة الفرعونية فى طور التكوين فى حوالى سنة ٥٠٠٠ ق.م. عندما كوّن النهر ووديانه الجزء الشمالى من مصر ، الذى كان رقعة من التربة الخصبة مترامية الأطراف شبيهة بما هى عليه الآن ، مع فارق بسيط وهو أن مستواها كان أعلى من المستوى الحالى ببضع أقدام ! لم يعمل النيل على إزالة جزء من التربة وإنما غمر الوادى بمياهه وساعده الإنسانُ فى هذا العمل بالرى الذى وزع الغرين الحبشى . وهكذا صار النيل السُّفلِى ، فى أجواء عصور ما قبل التاريخ المتباينة ، هو القوة الأصلية الحامية لأمة عظمى .

كان قدماء المصريين يعتقدون ان النيل مركز العالم ، وأن منبعه هو « بداية العالم » ، وبذا كانت قبلتهم نحو الجنوب . ومهما كان الاتجاه الواقعى للنيل ، فهو الحد الفاصل بين الشرق والغرب . كان أهم

طريق ؛ وعمل على ازدهار الزروع فى المستنقعات الزاخرة بحيوانات وطيور الصيد ، وعلى تغذية بِرَك الأسماك . وكان يحافظ على امتلاء خزان المياه الجوفية الذى كان يمد آبار المعابد المبطنة بالأحجار بالمياه ، ويسبب الندى الليلى الغزير ، الذى اعتقد قدماء المصريين أنه عرق الآلهة المفيد

للمحاصيل . كان النيل يفيض سنوياً ليُروى الحقول ويزيد فى خصب التربة بما يجلبه من الغرين ، يساعده فى ذلك جهد السكان فى المحافظة على حسن توزيعه . كان قدماء المصريين على حق فى قولهم إن

بلدهم « هبة النيل » . وتبعاً لآرائهم عن الخليقة ، كان أول عمل للإله الخالق أن

يظهر جزيرة طينية من المحيط الأَوَّلىّ ؛ ويتجدد هذا العمل سنوياً بواسطة الفيضان . وقد قال الفيلسوف سنيكا : « إنه لمنظر بهيج أن نرى النيل يمر فوق الحقول ، وتختفى الأرض المنخفضة ، وتقع الأودية الصغيرة تحت سطح الماء وتبرز المدن كالجُزُر . ما من مواصلات ممكنة عبر هذا البحر الداخلى إلا بالقوارب » ، يصف منظر النيل فى إيجاز ، غير أنه يجب تأليف ديوان علمى وشعرى عن شتى الأوصاف التى ذكرها قدماء العرب والكُتّاب المحدثون عن النيل وإطراء عجائبه . لا تمكن رؤية العظمة الكاملة للفيضان إلا فى الجنوب حيث يحد نظام الرى فى الشمال من قوة ذلك الفيضان الإلهىّ .

يبدأ فيضان النيل فى حوالى منتصف شهر يونية وهو التاريخ المحدد رسمياً لبداية الفيضان فى كل عام . فيجلب النيل أولاً رواسب خضراء ، ثم غرينا يميل لونه إلى الحمرة . ويزيد الفيضان فى أغسطس ، ويبلغ ذروته فى سبتمبر . وتنخفض المياه بسرعة فى الخريف ويصل انخفاضها إلى أقصاه فى شهر مايو . وقد لاحظ الاغريق صواباً ، أن فيضان النيل لفلاحى مصر أشبه ما يكون بـ « مطر (الاله) زيوس » للفلاحين الأوروبيين (وقد اعتبر المصريون أنفسُهم أن هطول المطر « فيض سماوى ») . كانت زيادة الفيضان وشدة انخفاض المياه كلتاهما كارثة للفلاح . فانخفاض المياه الشديد كان يعنى زراعة

رقعة أقل من الأرض ، وزيادة الفيضان تسبب هدم وسائل الرى وتقويض الجسور . وكان « الفيضان البالغ الارتفاع ، إذا لم تصحبه آثار ضارة » معجزة ؛ « فالسنون ذات الضفاف الرملية » فترات مجاعة ، ويبدو أن الارتفاع المثالى للفيضان هو ستة عشر ذرعاً . واهتم قدماء المصريين بتسجيل ارتفاع مياه النيل خلال القرون بواسطة مقاييس النيل الموضوعة فى عدة مواضع على طول واديه . ولحسن الحظ كفتِ المصريين شرٌ كارثة كما

يتبين من قصة البقرات السبع السمان والبقرات السبع العجاف .

ألمَّ المصريون تمام الإلمام بنهر النيل ، دون حاجة إلى معرفة التفسير الصحيح للُغز منبعه فيما وراء الأفق . وقد عرف المصريون ، منذ عصر الأسرة الكوشية أن هناك علاقة بين الأمطار السودانية والفيضان ؛ غير أن الاعتقاد الرسمى القائل بأن منبع النيل مقدس ، حظى بالأفضلية على التفسيرات المعقولة لذلك المنبع . ويذكر كثير من الكتب الموثوق بها أن النيل إله يدعى حعبى Hapy . غير أنه يجب تعديل ذلك الرأى ، فللنيل الجغرافى اسم آخر « النهر » « اترو » ، ولو راعينا دقة أكثر فإن « النهر العظيم » (« اترو ــ عا » ومنها كلمة ترعة) هو الاسم الذى أُطلق على المجرى الجنوبى العظيم ، كما أُطلق اسم « الأنهار » على فروعه فى الدلتا . لم يكن « حعبى مجرى مياه مؤلَّه ، وإنما كان روح النيل ، وجوهره الحراكىّ . كان هو فيضان المياه النابعة من « نون Nun ، أى رقعة المياه

البدائية المترامية الأطراف ، التى أقصيت عند الخليقة ، إلى حافة العالم ، والتى كان

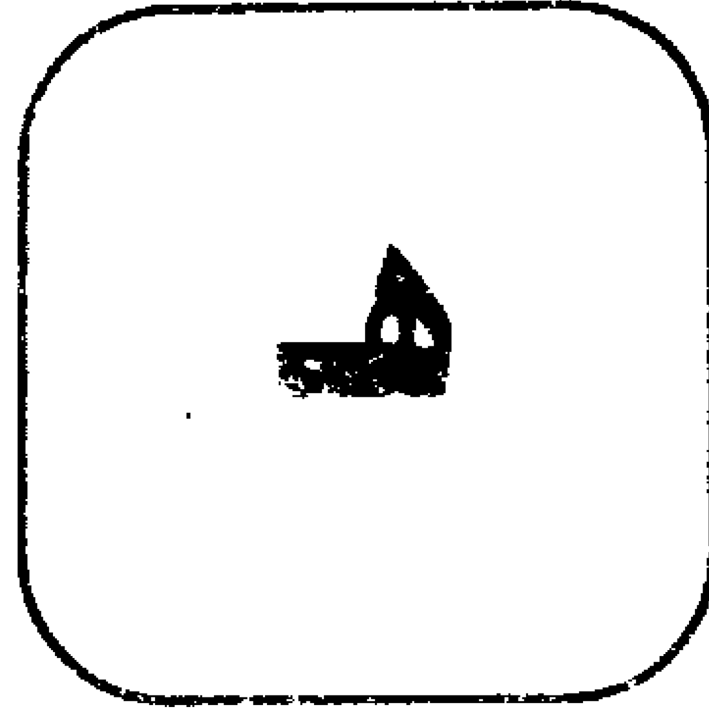
نهرها هو المجرى الدائم واهب الحياة . وكان الفيضان هو مجىء حعبى . ويُعتبر حعبى فى بعض الأساطير الإلهَ التالى لأحد الآلهة العظام (خنوم أو أمون) أو نجد فيها التباساً بينه وبين أوزيريس (الجسم الكونى ، الذى تسبب رطوبة جسمه ارتفاع المياه) . ومع ذلك ، فقد كان حعبى جزءاً من « نون » ، أصل الرطوبة . وكانوا يصورونه على هيئة شخص بدين منبعج البطن ذى ثديين متدليين . ولوّنوه بلون أخضر وأزرق ، أى بلون مياه الفيضان ، وكان عارى الجسم طويل الشعر أشبه بصياد السمك فى المستنقعات . وقد استعار جميع الآلهة الممثلون لخصوبة أرض مصر هذا الزى من حعبى . وكان الإلهُ المائى للفيضان المرتفع هو ضامن الحياة كلها ، كما تقول التراتيل والصلوات : « حعبى ، أبو الآلهة .... الذى يغذى ويطعم ويجلب المئونة لمصر كلها ، الذى يهب كل فرد الحياة فى اسم قرينه (الكا) ، ويأتى الخير فى طريقه والغذاء عند بنانه ، ويجلب مجيئه البهجة لكل انسان . إنك فريد ، أنت الذى خلقتَ نفسك من نفسك ، دون أن يعرف أى فرد جوهرك .

غير أن كل إنسان يبتهج فى اليوم الذى تخرج فيه من كهفك . إنك سيد الأسماك ، وإنك غنى بحقول القمح »

قيل إن المصريين اعتقدوا ، منذ عصر هيرودوت أن النيل ينبُع عند الشلال الأول . وراء هذا التناقض سوء فهم ناتج

عن الإخفاق فى تقدير طبيعة حعبى الحقيقية . وتتحدث الأساطير عن « كهف حعبى » ، فى مضيق قرب أسوان حيث يطلق ذلك الإله الغامض المياه التى تغمر حقول مصر العليا . وعلى مقربة من القاهرة ، كان هناك مجرى يعرف باسم « بيت حعبى » وهو مجرى آخر ينظم الفيضان لصالح مصر السفلى . كانت الطقوس الدينية تقام كل عام عند هذين الموضعين وقرب مقاييس النيل الأخرى وخصوصاً عند سد جبل السلسلة ، فيقذفون فى النيل الكعك وحيوانات الضحية والفاكهة والتمائم لتثير قوة الفيضان وتحافظ عليها ، وكذلك تماثيل الإناث لتثير إخصاب النيل العظيم فيفيض فى أمواج عاتية وينثر نفسه خلال المملكة معطياً الحياة للأرض .





هرموبوليس Hermopolis : كانت هرموبوليس القديمة مدينة فى مصر الوسطى ، على بُعد حوالى ٣٠٠ كم إلى جنوب القاهرة ، وعلى مسافة قصيرة من الضفة اليسرى للنيل . وتسمى هذه المدينة اليوم ، الأشمونين .

لم يبق من هذه المدينة سوى خرائب متناثرة بين النخيل والبرك حيث يمكن تمييز معابد تحوت والآلهة الثمانية الأصلية المكوِّنة للثامون ، بصعوبة . وعلى مسافة قصيرة منها أجورا Agora هيلينيستية جميلة .

على بُعد ثمانية أميال شرقاً وراء بحر يوسف ، تبدأ الصحراء وجبانة تونا الجبل . وفى سنة ١٩١٩ ، عثر العالم الفرنسى جـ . ليفافر G. Lefebvre على مقبرة بيتو-سيريس Petosiris . وكان بيتوسيريس هذا شخصية عظيمة الأهمية فى هرموبوليس ، قبيل مجىء الاسكندر الأكبر . وكما كان هذا مديراً للإدارة بالغ الحيطة ، كان حكيماً ومتصوفاً . عُثر فى قبره على نصوص مشبعة بروح فلسفية ، تتكون من عدة فقرات من كتب الحكمة .

تبين النقوش الغائرة المدهشة ، التى على ذلك القبر ، كيف نفذت محاولة لإدماج الطراز المصرى ببعض الأفكار الفنية الجديدة التى أحضرها الإغريق . وتحتوى الجبانة المجاورة على مقابر غريبة للإغريق من الطراز المتمصر أو المتاغرق . كما تحتوى على بئر كبيرة لتروى منها حديقة خصصت لطيور الأيبس (أبى منجل) والقردة ، وعدد من الحجرات والممرات تحت الأرض مملوءة بالبقايا المحنطة لهذه الحيوانات المقدسة للإله تحوت .

الهكسوس Hyksos : « لماذا أنزل الله بنا نقمته . . . » بهذه الكلمات بدأ مانيتون روايته عن الغزاة الأسيويين الذين حكموا مصر من نهاية القرن الثامن عشر ، إلى بداية القرن السادس عشر ق . م . أى فى المدة التى بين الدولتين ، الوسطى والحديثة كانت هناك أسرتان من الهكسوس وهما : الخامسة عشرة والسادسة عشرة . وقد سماهما مانيتون « الرعاة » أو « ملوك الرعاة » ، إذ أساء فهم الاسم « هكسوس » الذى معناه باللغة المصرية القديمة ، « أمراء الأراضى الأجنبية » . بدأ هذا الغزو بتسلل البدو إلى شرق الدلتا ، كما كان يحدث باستمرار عندما تضعف الدولة فتعجز عن الدفاع عن حدودها . وزادت الهجرات التى شقت غرب آسيا فى الضغط من الخارج . وأقام الهكسوس

سيادتهم على الحدود الشرقية للدلتا واتخذوا مدينة أفاريس (حوت وعرة) عاصمة لهم. وبالتدريج بسطوا نفوذهم على الدلتا، وأخيراً، سيطروا على المملكة كلها. ويبدو أن مصر السفلى ومصر الوسطى قد تهادنتا معهم. جاء رد الفعل القوميّ فى النهاية من أمراء طيبة، فى الأسرة السابعة عشرة، الذين طردوا الأسيويين، وحاربوا بمهارة فى الجنوب، ضد حلفائهم النوبيين، واستولوا على أفاريس، وطردوا الغزاة، على يد أحمس Amasis، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

ولقد صورت التقاليد المصرية الوطنية الهكسوس كبرابرة قساة لا يعرفون الدين، ويحرقون المدن ويهدمون المعابد. ويعبدون إلههم فقط ست، والأخبار والأدلة المعاصرة قليلة وتؤكد رواية طيبة عن الأحداث. ويجب على المؤرخ أن يتشكك فى هذه الصورة، ويلتمس الأدلة العلمية التى قد لا تصور هؤلاء الغزاة الأسيويين وحوشاً مفرطين فى القسوة.

هليوپوليس Heliopolis: تقع هليوپوليس أو أون On إلى الشمال الشرقى من القاهرة، قرب الصحراء. ولا تتميز الآن إلا بمسلة لسنوسرت الأول، و «كوم» مهدم، وبعض قبور مدفونة تحت ضاحية المطرية. كانت مبانيها متناثرة هنا وهناك فى العصر الهلينيستى، وفى زمن لاحق أخذت بعض الكتل من معابدها واستعملت فى مدن العرب.

عُبدت الشمس فى تلك المدينة بعدة أسماء مختلفة (أتوم وخپرى Khepri ورع حور آختى) وتجلت فى العنقاء والثور منيڤيس Mnevis، وكانت حتحور وايو-سعاس Iusas زوجتى ربها. وكان هناك، فيما مضى، صورة طبق الأصل من الهيريم الحجرى (بِنّ بِنْ) الذى أضاءت عليه الشمس أول ما أضاءت، وكذلك كثير من المسلات.

لم يعد الناس يعتقدون أن هليوپوليس كانت فى سابق العصور عاصمة دولة من دول ما قبل التاريخ. غير أنه من المؤكد، أن مدينة الشمس هذه، التى زاد الملوك فى ثرائها، من زوسر إلى بطلميوس الثانى، اشتهرت منذ القدم كمركز روحىّ لمصر، وكمهد أسطورى للبيت الملكى. وأساطيرها بارزة فى نصوص الأهرام. والآلهة الحامية للملك (مونتو وسوبك وأمون) تَشَبَّهُوا برع. وتاسوعها إنما هو نموذج حاكاه الآخرون فى تشكيل تاسوعاتهم، وأخذ أخناتون عقيدته عن مذاهب هليوپوليس. وظلت الأهمية الإلهية لهليوپوليس عظيمة فى عصر الرعامسة، ولو أن دخل أراضيها لم يبلغ سدس ممتلكات معبد أمون. وفى عصر لاحق، أثنى الإغريق على حكمة كهنتها وعلومهم، فقالوا عنهم: «إنهم بالغو العلم فى أمور الفلك».

الهيراطيقية Hieratic، أو الهيروغليفية المبسطة: لم تكن الهيروغليفية ملائمة للكتابة السريعة. وعلى ذلك نشأت طريقة مختصرة للكتابة،

للأغراض العملية ، وتعرف الآن بالهيراطيقية . وهذه الكتابة عبارة عن رموز مبسطة للرموز الهيروغليفية الأصلية ، فيحل كل رمز فيها محل رمز من الهيروغليفية . ويرجع تاريخ أولى الوثائق المكتوبة بها إلى الأسرات الأولى . وقد ظلت مستعملة حتى نهاية الدولة الحديثة ، أى لزهاء ٢٠٠٠ سنة . وكانت مناسبة للكتابة على أوراق البردى ، بنوع خاص ، واستخدمت فى الأغراض الإدارية والمستندات الرسمية (الحسابات والتقارير ومحاضر جلسات المحاكم والوصايا وتقارير العمل وقوائم الجرد وما إلى ذلك) . كما كتبت بها الكتب الأدبية والثقافية والعلمية ؛ وكذلك النصوص الدينية والسحرية والرسائل الشخصية (انظر الخطابات) . ويبدو أن الكتبة كانوا يستعملون الهيراطيقية أكثر من الهيروغليفية . ونشأت عن هذه الكتابة المختصرة المستعملة على الورق البردى ، كتابة مختصرة أخرى تنقش على الأحجار ، وتوجد عدة أمثلة منها على الجدران الموجودة بالصحراء ، وعلى اللوحات الحجرية التذكارية التى تركها بالمحاجر ، السياح والفنانون الذين ذهبوا إلى هناك للعمل . وحوالى نهاية الدولة الحديثة ، وفى عهد الملوك الليبيين ، شاع استعمال هذه الكتابة على الأحجار .

العلامات الهيراطيقية المستعملة فى الكتابة على أوراق البردى — وهى مادة الكتابة العادية — ذات شكل خاص . وتُكتب بفرجون (عود رفيع من الغاب مفرىّ الطرف) ، ومداد أسود . واستعملوا الحبر الأحمر لبداية الفقرات الجديدة ، أو فى الحسابات حتى يكون المجموع ظاهراً ، أو لبعض الحبوب ، أو لعلامات الترقيم فى النصوص الأدبية أو لكتابة أسماء المخلوقات الشريرة ، إذ كان اللون الأحمر لون القوى المعادية .

كانت الهيراطيقية تُكتب فى سطور عمودية ، حتى الدولة الوسطى ، ثم أخذت بالتدريج تُكتب فى سطور أفقية من اليمين إلى اليسار .

ولو أن الهيراطيقية اشتقت من الهيروغليفية ، إلا أنها تطورت فى طريقها الخاص ، وتغيرت طرق كتابة العلامات ، واستُخدمت رموز لتدل على مجموعة من الرموز . وهكذا صار من السهل تمييز مستند من الدولة الوسطى عن آخر من عصر الرعامسة ، وفى بعض الأحيان يُظهر الفحصُ الدقيقُ العصرَ أو القرن الذى كُتب فيه النص .

يبدو أن الهيراطيقية فقدت قوتها فى حوالى سنة ٨٠٠ ق . م . وسرعان ما ظهرت طريقة كتابة أخرى عُرفت باسم « الهيراطيقية الشاذة » ، فى مصر العليا ، ثم ظهرت الديموطيقية التى حلت بالتدريج محل الهيراطيقية فى جميع الأغراض العادية . أما الهيراطيقية القديمة ، التى توجد فى نصوص الدولة الحديثة فأخذت ، منذ ذلك الوقت ، صورة لم تتغير إلا فى شىء من تفاصيلها ، وصارت الكتابة الخاصة بالنصوص الدينية على أوراق البردى ، ولذا أطلق عليها السياح الإغريق اسم « الهيراطيقية » ، أى « الكتابة المقدسة » ، وذلك لاستعمالها فى النصوص المقدسة .

استعيض عن الفرجون فى الكتابة بقلم من الغاب يبرى طرفه حتى تصير سنه مدببة (استعمل فى مصر منذ القرن الثالث ق . م .) . وهكذا تغير منظر الكتابة تغيراً كبيراً ، ولاسيما فى العصر الرومانى إذ صارت النصوص فى سطور رفيعة ، فَفَقَدَت كل بهجتها القديمة .

هيرودوت Herodotus : فى حوالى سنة ٤٥٠ ق . م . زار مصرَ هذا المؤرخ ، أبو التاريخ ، وأحد أهالى هاليكارناسوس .

ألَّف هيرودوت كتاباً عن مصر (الجزء الثانى من أبحاثه) هو كنز لا ينضب معينه من المعلومات لعلماء الآثار المصرية (رغم تهافت بعض أجزائه) . ويبدو أنه تنقَّل فى مصر حتى فيلة ، ويصف الريف بطريقة تدل على علمه التام بأحوال تلك الجهات .

وجَّه هيرودوت اهتمامه أولاً إلى التركيب الجيولوجى ، لمصر ، وإلى المظاهر الجغرافية للمملكة التى خُلقت مما يحمله النيل من غرين . ويصف نهر النيل ومنابعه وفيضانه وأطواله وأنواع الريف الذى يمر خلاله ومميزات الدلتا وحياة سكان المستنقعات . وكرس أبواباً طويلة لحيوانات هذه الدولة ووصف التمساح وصفاته الغريبة ، وكذلك فرس النهر وأبا قردان والعنقاء . وقد استثارت اهتمامه المعتقدات الدينية حول هذه الحيوانات ، وتكلم عن أفعى مجنحة كما لو كانت موجودة فعلاً . ويبدو أن هيرودت كان مشغولاً بمسائل أخرى فضلاً عن هذه الملاحظات الدقيقة . فوصف العادات المصرية فى مهارة شىء على نقيض مثيلاتها تماماً لدى الأمم الأخرى » . فتذهب النساء إلى السوق ويبقى الرجال فى البيوت يقومون بنسج الأقمشة . ويقص الكهنة شعر رءوسهم بينما يترك الكهنة ، فى سائر بقاع العالم شعرهم يسترسل طويلاً (انظر الكهنة) . ويكتب الناس العاديون من اليسار إلى اليمين بينما يكتب كتبة النيل من اليمين إلى اليسار ، و « يدّعون بأنهم يكتبون بالطريقة الصحيحة » .

يروى هيرودوت تاريخ مصر كما سمعه من الكهنة . ويعدد الملوك الذين تبوءوا عرش مصر مبتدئاً من مينا . ولا يفوته أن يذكر الأساطير أو أية قصة يخبره بها أحد المكارين . ومن بين تلك القصص ، قصة اللص البارع والملك رامپسينيتوس Rhampsinitus ، وخوفو الذى وضع ابنته فى ماخورة للبغاء ، وقصة الغانية رودوبيس .

يزخرف هيرودوت تاريخه بوصف الآثار التى زارها ، فيتكلم بإعجاب عن اللابرنت ، وعن بحيرة موريس (انظر الفيوم) والمعابد العظمى فى سايس وبوباستيس والتماثيل وأبهاء الأعمدة بمدينة منف . ومن الجلى أنه اهتم كثيراً بالمسائل الدينية . فحاول أن يجد بين آلهة مصر ما يطابق آلهة الإغريق . ويصف الأعياد بالتفصيل ، فى المدن الكبرى ، ووحى كل إله ، والعادات الجنائزية ، ويتكلم باحترام عن أوزيريس محاذراً دائماً ألا يذكر أية معلومات تتضمن أىَّ كفر بديانات أولئك القوم .

كتاب هيرودوت أكثر من كتاب تاريخى أو

جغرافىّ ؛ إنه مجموعة من التقارير الدقيقة جمعها رجل محب لمعرفة كل شىء ، ومرهف الحس وعلى استعداد دائماً للإعجاب بكل ما يراه ولا يدهش لأن « يكون بوسع كل فرد أن يصير مصرياً » .

الهيروغليفية Hieroglyphs : يخامر كل من رأى الآثار المصرية أو سمع عنها شعور واحد هو مزيج من الغرابة والإعجاب ، عندما يرى الصور العديدة ، للرجال والحيوانات والأشياء ، من كل صنف ونوع ، والجموع المنظمة من الناس ، إما جالسين أو متكئين على عصى طويلة ، والبط يطير من البركة ، وتلك العيون الملونة التى تحدق النظر فينا .

هل يمثل كل رمز حرفاً ؟ الجواب ، « كلا » ! هناك عدد من الرموز الهيروغليفية المختلفة (أكثر من ٧٠٠) . فإن كان الأمر هكذا ، فهل يمثل كل رمز كلمة واحدة — الجواب « ليس دائماً » ، إذ عندئذ لا يكون عدد الرموز كافياً . وإذا كان الرمز الهيروغليفى لا يمثل حرفاً ولا كلمة ، فماذا يمثل إذن ؟ .

إذا أردنا أن نفهم الطريقة الهيروغليفية ، وجب علينا أن ندرك الطبيعة المتقدمة لكتابتنا الهجائية . فاختصار جميع الأصوات والمجموعات الممكنة إلى طريقة كتابة تتألف من عشرين حرفاً أو نحو ذلك ، قد استغرق من البشرية بضعة آلاف من السنين . يبدو لنا تقسيم الكلمة إلى مكوناتها من الحروف الصحيحة وحروف العلة ، مسألة أولية ، لأننا تعلمنا كيف نكتب ، منذ نعومة أظفارنا . بيد أن الرجل البدائى ، الذى لا يعرف شيئاً عن الكتابة ، يدرك من عدة أشياء ، فكرة واحدة ، أو صورة شىء له صلة بهذه الأصوات . لم تطرأ فكرة الحروف الهجائية (أو تقسيم اللفظ إلى عدة أصوات) فى تاريخ الكتابة ، إلا فى زمن متأخر جداً . فاتجه الانسان فى البداية إلى تمثيل الأشياء فى صورها الحقيقية إن لم تكن لها رموز . وترى هذه الطريقة فى رسوم الكهوف التى من عصور ما قبل التاريخ ، حيث لم تعد الطقوس السحرية تؤدى على الحيوانات نفسها ، بل على صورها . هذا أساس الكتابة المبكرة ، فنشأ عنها فى حالة الرموز الهيروغليفية ، فن كتابة الأفكار والتصورات ، وأول استعمال الرموز فى التعبير عنها .

وهكذا ، فلكى يكتب قدماء المصريين كلمة « سمكة » أو « سفينة » أو « بيت » رسموا صورها مصغرة هكذا : (مسقط لمنزل) . ولكى يعبروا عن شىء غير ملموس ، كالأعمال البدنية مثلاً ، رسموا رموزاً تبين احدى مراحل هذا العمل ، فمثلاً = يسقط ؛ = يحمل على رأسه (بالطريقة الشرقية) ؛ = يشرب ؛ .... (شكل جانبى لفم مع تيار من اللعاب) = يبصق .

وعلى هذا تكون هذه الطريقة بسيطة جداً . غير أنه تقابلنا صعوبات ما ، عند التعبير عن الماديات التى تحتاج إلى رموز

أخرى من هذه الطريقة . فمثلاً ، كيف يعبرون عن الجعة أو عن الريح ؟ ليس للسائل شكل خاص ، وأقصى ما يدل عليه هو اللون ، إن وُجد . ولا يمكن أن نرى الريح وإنما ندرك أثرها . ففي الحالة الأولى ، استعمل الكتبة صورة القدر التي توضع فيها الجعة . فإذا لم يوجد ما يناسبها ، استعملت العبوة لتمثل ما بداخلها . ولتمثيل الريح ، رسم قدماء المصريين صورة شراع كامل ، فاستعملوا الأثر للدلالة على السبب .

من هذا نرى أنه كان لدى قدماء المصريين عدد كبير من الرموز يعبر عن الأشياء المادية والأفعال التي تدل عليها صورها بسهولة . هذه طريقة ممتعة ، ولكنها في الوقت ذاته محدودة جداً . كيف يمكن التعبير عن كلمات مثل : سيد أو خادم أو زوجة أو أخ ؟ كيف يمكن التعبير عن أزمنة الفعل أو عن الضمائر أو أسماء الإشارة أو المصادر مثل : السعادة أو الصحة أو المرض أو التفكير أو الكلام ؛ أو عن الأفعال ، مثل : يفعل ويحب ؟

حُلّت هذه المسألة باختراع الكتابة ؛ فكانت انتقالاً من التعبير بالصور عن الأشياء الواقعية ، إلى التمثيل الصناعي للأصوات في اللغة . فالرموز تبين صوراً ولا تبين كلمات . وهي طريقة دولية من العلامات . فكل فرد يستطيع أن يفهم أن يعني سمكة ، وأن يعني بقرة مهما كان صوت الكلمة في أية لغة . أما الأفكار المعنوية فلا يمكن التعبير عنها بالصور ، ولابد من استخدام الأصوات لتدل على الكلمة في لغة بعينها . لم يعد كافياً أن نرى الصورة لنفهم معنى الحرف المكتوب أو الكلمة المكتوبة . يلزم النطق بما هو مكتوب . ولذا يعرف المعنى من الصوت وليس من الصورة .

لذا كان لدينا قسم ثان من الرموز الهيروغليفية — وهو الرموز الصوتية (علامات لها قيمة صوتية) . ليست هذه العلامات صوراً مختلفة ، إنها تشبه رموز الصور في منظرها ، ولكنها لا تستعمل مباشرة لما تمثله ، (= فم ، = وجه ، = عين ملونة) ، بل لقيمتها الصوتية . لم تعد العلامات صوراً واقعية ، وصارت أدوات كتابية تبعاً لطريقتنا في قراءة الصور بأسمائها . فيُقرأ الفم « ر R » ، وهكذا يدل زيادة على قيمته التصويرية الأصلية ، على الحرف الصحيح « الراء » ومعناه « نحو » . وبنفس الطريقة كان جر Hr أي وجه بمعنى حرف الجر « على » ، والعين الملونة « عَن » بمعنى « سارّ » . وتبعاً لنفس هذه القواعد ، استُعملت الفأس « مر Mer » للفعل « مر » أي يحب ، والإوزة « سا Sa » بمعنى « ابن » وهكذا . لذا نرى ، أن الرمز الذي يمثل شيئاً مادياً ، قد لا يستعمل للتعبير عن ذلك الشيء ، بل ليدل على الصوت فقط ، أو بمعنى آخر صار أداة للكتابة .

كان قدماء المصريين كشعوب كثيرة أخرى ، تابعين لمجموعات اللغات السامية الحامية ، واعتبروا حروف الحركة ذات أهمية ثانوية . فلم يمثلوا في كتابتهم غير الحروف

الصحيحة . وتتألف الكلمات فى لغتهم من علامات ذات حرف واحد ، أو حرفين ، أو ثلاثة أحرف . وظلت الرموز تدل على الحروف الصحيحة ، إما من حرف أو من حرفين أو من ثلاثة أحرف صحيحة متتالية ، هكذا :

r فم = الحرف الصحيح راء r .

p مقعد = الحرف الصحيح پ p .

d يد = الحرف الصحيح دال d .

من men بمعنى لوحة الضامة = الحرفين الصحيحين م ن .

ون wen أرنب = الحرفين الصحيحين و ن .

حتب hetep مائدة التقدمات = الحروف الصحيحة الثلاثة ح ت ب h t p .

بهذه الطريقة كان لدى قدماء المصريين ٢٤ علامة يمثل كل منها حرفاً صحيحاً واحداً . فأمكن بهذه الحروف الهجائية اجتناب استعمال مئات الرموز . لم تنمُ علامات الهجاء تلك ولم تُستعمل إلا (باستثناء الرموز الأخرى) فى النصوص القديمة التى كُتبت فيها الكلمات بحسب الصوت (نصب نوكراتيس Naucratis Stela) ، أو فى كتابة الأسماء الملكية (بطلميوس وكليوباترة وأوتوقراطور وقيصر وغير هؤلاء) .

ابتكر المصريون كتابة قادرة على تمثيل جميع الكلمات الموجودة فى لغتهم ، بواسطة الرموز الممثلة للأشياء الواقعية ، وأكثر من ١٥٠ رمزاً صوتياً تُكتب فرادى أو فى مجموعات ، وتسمح بالتعبير عن جميع التراكيب الصوتية . ورغم هذا فقد تناول هذه الكتابة التنقيح والتحسين .

(ا) استُعملت القيمة الصوتية للرموز لتساعد على قراءة رموز الصور (التى قد تكون لها عدة قراءات) ولتدل ، بطريقةٍ ما ، على القراءة الحقيقية للرمز التصويرى . وهكذا تكتب المسلة (وتُنطق تخن) :

أى ت + خ + ن +

الصورة . وقد استعملوا الطريقتين لتكمل كل منهما الأخرى : العلامات التصويرية والعلامات الصوتية .

وفى أحيان كثيرة كانت الصور المعبرة عن كل الأصوات تضاف إلى بعض الحروف الصوتية ، مثل ح + ق + ت + صورة (حقت وإن كانت تنطق فى الواقع حنقت) أى جعة ولم يكن لهذا الاختصار فائدة ، لأن الصورة نفسها كانت تدل على الأحرف الصحيحة الأربعة للكلمة ، ووُضع هذا لتدل على النطق ولتمنع التفسيرات الأخرى .

(ب) استُعملت المكملات الصوتية . أى إضافة علامة صوتية أو أكثر إلى رمز ثنائى أو ثلاثى الحروف لتسهيل القراءة . فتسهُل قراءة الرمز حتب بإضافة الرمزين (ت + پ) إلى الرمز الثلاثى الحروف ، غير أن المجموعة تبقى حتب . إذن فليست للعلامتين الأخيرتين قيمة صوتية ، ولكنهما ساعدتا على قراءة الرمز . ويُقرأ الرمز (مِن) غير أننا نجده فى كافة النصوص المشتملة عليه ، مصحوباً بصوت واحد

(ن) ، ومع ذلك نقرأه (مِن) ، فإضافة الرمز الصوتي الأخير (ن) يؤكد النطق بالرمز الثنائي الحروف .

(جـ) كان من الضروري أيضاً اجتناب أي التباس فيما إذا كان الرمز تصويرياً أو صوتياً . فالرمز حر بمعنى وجه ، قد تكون له القيمة الصوتية حر أيضاً ، ومعناها « على » . وعلى ذلك إذا وضع أسفله خط عمودي ، دل على الرمز التصويري، = وجه ، ولكن = حرف الجر « على » . وبنفس هذه الطريقة

= فم ولكن تعني حرف الجر « إلى أو نحو »

(د) وكما في جميع اللغات ، توجد كلمات متجانسة الأصوات ، أو على الأقل ، كلمات تشترك في نفس الحروف الصحيحة . وبما أنه لا توجد حروف علة ، فإن كثيراً من الكلمات المختلفة النطق ، تُكتب على نفس الصورة . فابتكرت « المخصصات » للتمييز بينها . والمخصص رمز يضاف إلى الرموز الصوتية كي يدل على نوع الكلمة التي يمثلها . ولا يُنطق المخصص ، وإنما تكون له قيمة بصرية فحسب . إذن فلابد من استعمال عدد كبير من المخصصات ، وقد عرفنا ١٠٠ مخصص على الأقل . وهاك بعضها والأفكار التي تمثلها :

(رجل ، أي فرد ، أسماء) .

(فكرة العنف ، مجهود) .

(شمس ، أي شيء يتعلق بالشمس ، ضوء ، مقياس زمني) .

(السماء ونجم = ليل ، الظلام) .

فمثلاً ، استعملت كلمة ثلاثية الحروف الصحيحة نفر (رمز ثلاثي الحروف ن + ف + ر) لعدة كلمات مختلفة ، فتتميز كل منها عن الأخرى بمخصص لتُسهِّل معرفة الكلمة المقصودة :

(بغير مخصص ـ أكثر كلمات اللغة المصرية القديمة شيوعاً) = جميل .

(مخصص ، امرأة جالسة) = فتاة صغيرة .

(مخصص ، قطع من القماش) = قماش .

(مخصص ، غرارة تسقط منه الحبوب ، تتبعه ثلاث شُرَط) = حبوب .

(مخصص ، آنية تحتها ثلاث شُرَط) = نبيذ ، بيرة .

(مخصص ، جلد حيوان وثلاث شُرَط) = خيول .

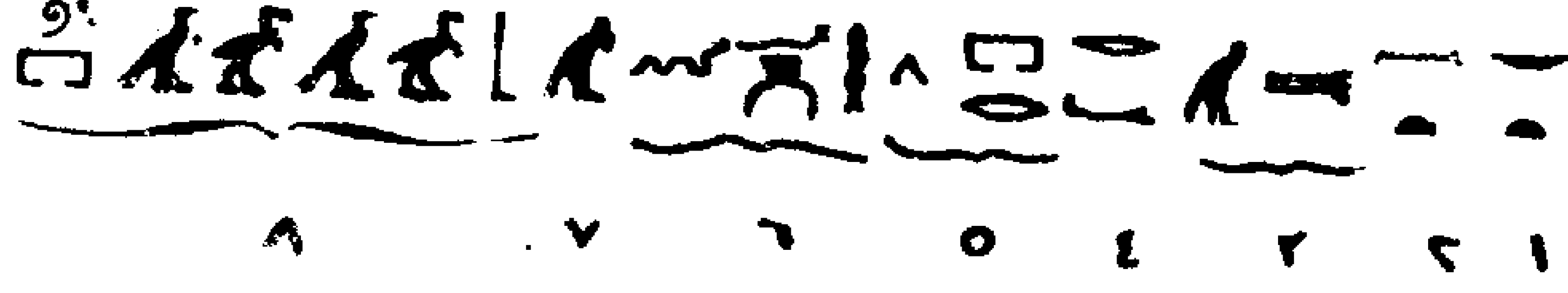
(مخصص ، مصباح يتصاعد منه لهب) = نار .

(مخصص ، شمس وأشعتها) = الشمس الساطعة .



(مخصص ، التاج الأبيض) = تاج مصر العليا .

وهاك جملة كاملة تبين الرموز السابقة مستعملة فى بعض النصوص



(تنطق الحروف الساكنة مكسورة) .

(النطق الحرفى) كت نت تم ردى پر حفاو م باباو .

(النطق النظرى) كيت نيت تيم ريدى پير حفاو إم باباو .

(الترجمة) : [تعويذة] أخرى لمنع الثعبان من الخروج من جحره .

تحليل العناصر :

١ — ك + ت (رمزان ، كل منهما من حرف واحد) = كت بمعنى أخرى .

٢ — ن + ت (رمزان ، كل منهما من حرف واحد) = نت « من » (= لأجل) .

٣ — تم (علامة صوتية ثنائية) + م (تكملة صوتية) = تم

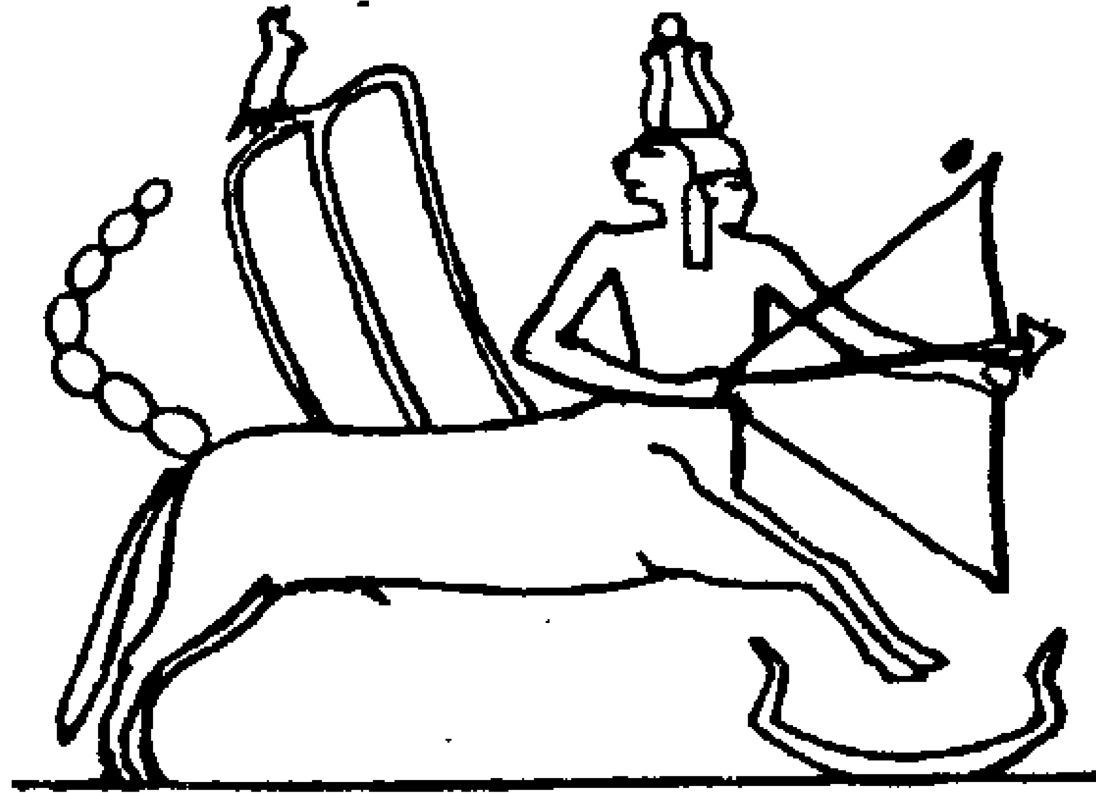
٤ — ر (رمز من حرف واحد) + دى (علامة صوتية ثنائية) = ردى والكلمتان تم + ردى بمعنى يمنع .

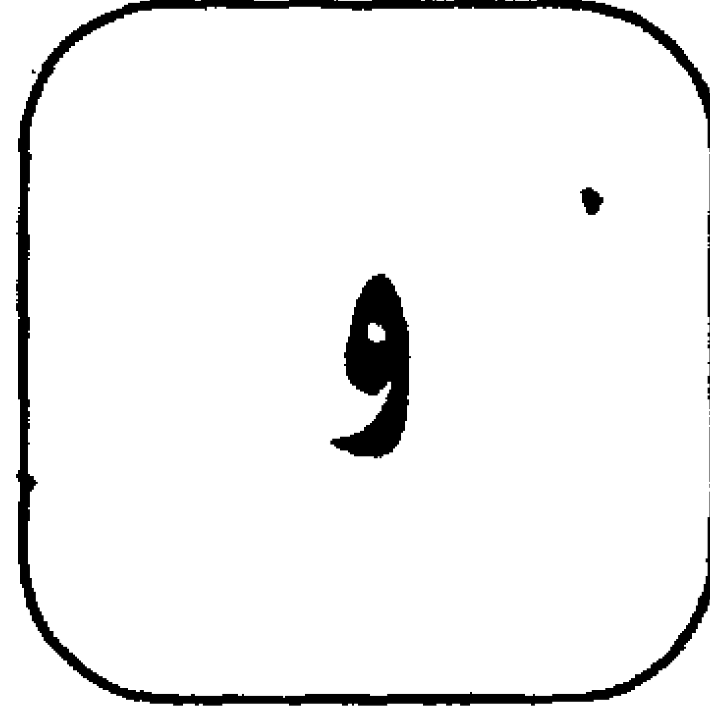
٥ — پر (علامة صوتية ثنائية) + ر (تكملة صوتية) + مخصص يدل على الحركة (الساقان) = پر « يخرج » .

٦ — حـ (رمز من حرف واحد) + ف (رمز من حرف واحد) + أو (رمز ثنائى الحروف) + (مخصص بشكل ثعبان) = حفاو « ثعبان » .

٧ — م (رمز من حرف واحد) « من » .

٨ — ب (تكملة صوتية) + با (رمز ثنائى الحروف) + ا (تكملة صوتية) + با (علامة ثنائية) + ا (تكملة صوتية) + و (رمز ابجدى) + بيت كمخصص = مكان للسكن = باباو (جحر) .





الواحة Oasisi : مازالت هناك بضع بقع صالحة للسكنى منخفضة وسط الصحراء الليبية فى خط يوازى مجرى النيل العتيق فى العصور القديمة . وقد جمعها علماء الجغرافيا المحدثون فى ثلاث واحات عظمى : الخارجة والداخلة ، والفرافرة ، والبحرية ، وهذه يجب أن نضيف إليها وادى النطرون وسيوة البعيدة (انظر الخريطة الموجودة بهذا الكتاب) .

ويُفضّل المصريون أنفسهم أن يذكروا سبع واحات . واللفظ الإنجليزى Oasis الدال على أى منخفض من الأرض الصالحة للزراعة فى منطقة صحراوية ـ من التركستان إلى مراكش (بلاد المغرب) ـ مشتق من الكلمة المصرية القديمة « أوحات » ، ومعناها « مرجل » . واستُخدم هذا اللفظ الدال على شيء أجوف يحتفظ بالسوائل ، للواحة . وهناك كلمة أخرى تصلح تماماً للتعبير عن الواحة ، وهى : « حقول أشجار الإيما » ، والتعرف على هذه الأشجار المتوسطة الارتفاع يمثل مشكلة لعلماء النبات . وهناك سبب قوّى للاعتقاد أن نخيل البلح كان منتشراً بالواحات منذ أقدم العصور .

اكتُشفت آثار لإنسان ما قبل التاريخ فى الواحات وفى الصحارى المحيطة بها . لا شك فى أن ساكنى الواحات ـ وتميزهم النصوص عن البدو الرُّحّل الليبيين ـ قد صاروا مزارعين منذ زمن موغل فى القدم . ومع ذلك ، فلا نعرف عنهم سوى القليل الذى لا يُمكّننا من تصوير علاقاتهم القديمة بمصر . وتتحدث النصوص الجنائزية ، فى الدولة القديمة عن إله أولئك السكان ، وهو رمز غامض فى هيئة صولجان ، كما تتحدث عن مادة النطرون الموجودة فى وادى النطرون ، والتى استعملوها فى التحنيط وفى بعض الطقوس الدينية . وعندما قام الرحالة حرخوف بمغامرته نحو الجنوب ، سار فى « طريق الواحات » وفى عصر الأهرام ، عُيّن حاكم لواحة الفرافرة . كان من السهل على المصريين أن يلحقوا الواحات بمملكتهم . وقد فعلوا ذلك فى عصر الدولة الوسطى .

ولما كانت لهذه المساحات المتطرفة صفات خاصة ، صار لها مكان خاص فى اقتصاد المملكة . ولما كان ساكن الواحة ، تبعاً لقصة مشهورة ، يلقى دائماً بعض المنازعات القانونية ، ولما كان فصيح اللسان فى الخطابة بدرجة لا يتصورها العقل ، كان يرحل من وادى النطرون إلى أهناسيا المدينة محملاً بكل نوع من المنتجات الغريبة ، ومنها « أعواد الفرافرة » . ومع ذلك ، فقد

كانت الصناعة الرئيسية بالواحات هي ـ بلا شك ـ زراعة الكروم ، التي اختفت في عصرنا الحاضر . فكانت تصل إلى ضفاف النيل كثير من أنواع الأنبذة المشهورة التي كان الملوك يحبونها كثيراً ، من الواحات بانتظام ، إما محمولة على ظهور الحمير ، أو يحملها السكان أنفسهم (انظر النبيذ) . فلما يتصور المرء ، إذا ما ألقى نظرة على هذه البرية اليوم ، أن كروما كثيرة كانت تنمو

بوفرة من الواحة البحرية في المنطقة الممتدة إلى الجنوب حتى الواحة الخارجة ، حيث لم يبق في كثير من الأماكن سوى المعابد التي تكتوى بلظى الشمس الأفريقية . ومن خصائص الواحات أيضاً ، تربية قطعان كثيرة من الحمير الصغيرة الجسم . ولكى تحافظ الحكومة على رخاء هذه الأراضي ، نظمت وسائل حفر الآبار الضرورية لها . ولما اضمحلت الحالة الاقتصادية في الواحات المصرية بسبب قطع الأشجار دون تمييز ، وبسبب تهديد البدو لها ، فَقَدَتْ معظم مجدها السابق ، ولم تأت العصور الوسطى حتى صارت شيئاً لا يُذكر . ومع ذلك ، فرغم أن ازدهار الزراعة فيها ، فيما مضى ، كان أكثر منه اليوم ، ورغم أن سكانها كانوا أكثر كثافة منهم الآن ، فقد استعمل الفراعنة هذه الأماكن القصية كمنفى للمسجونين السياسيين ، وتكرر هذا العمل في العصور الحديثة .

لما صارت الواحات جزءاً من مصر ، أخذ سكانها عن المصريين ، آلهتهم ومعابدهم . وعلى الأقل ، منذ الدولة الحديثة ، كان للإله ست ، الذى عُبد ، بنوع خاص في المناطق المجاورة للطريق الرئيسي إلى الواحات ، معابد هامة في كل من الواحات ، وامتدت لعنة قاتل أوزيريس ، منذ الحقبة المتأخرة ، إلى الملحقات الليبية : « تبكى الواحتان : الخارجة والبحرية ، لأن شر هذه اللعنة يشملها » .

يمكننا رؤية جبانات مصرية النموذج وبعضا من المعابد ، في الواحة البحرية ، ولاسيما في هيبيس عاصمة الواحة الخارجة حيث يوجد كثير من المعابد المحفوظة في حالة جيدة . عُبد أوزيريس في هذه المعابد رغم عبادة ست ، غير أن أمون أصبح السيد الأعلى . نشأت عبادته في الحقبة الأخيرة ، وبلغت سيوة التي كانت « واحة أمون » ، حيث ذهب الإسكندر الأكبر ليُتَوَّجه ذلك الإله بطريقة أشبه بالمعجزة .

وادى الملكات Valley of the Queens : أطلق عليه الأقدمون اسم « مكان الجمال » ـ وسمى بالعربية « بيبان الحريم » . إنه الموضع النسائي المتواضع من وادى الملوك ، ويقع في أقصى جنوب جبانات طيبة . فهناك الأماكن التي دُفنت فيها « زوجات » و « بنات الملك » ، في عصر الرعامسة . فأولئك الملكات الفاتنات الحسان يرتدين الكتان اللامع شبه الشفاف ويعبدن آلهة العالم السفلى في خشوع . وقام بالحفر الذى كشف عن معظم هذه القبور إرنست سكيا پاريلّ (أحد أفراد أسرة شهيرة مولعة بالثقافة العالية ولعها بإعادة

الملكات إلى الحياة بعد موتهن) . ويجب على الزائرين أن يذهبوا لرؤية المناظر الجميلة فى قبر سات ــ رع Satre غير الكامل البنيان (سات ــ رع هى والدة سيتى الأول) ، وصور إيسة Iset وتيتى Titi (من الأسرة العشرين) ، ولو أمكن ، قبر نفرتارى (زوجة رمسيس الثانى) العظيم ، حيث أتلفت الرطوبة الصور الجميلة التصوير ، وخلقت مشكلة كبرى لمصلحة الآثار المصرية

« بفضل الملك » ، أعدت بعض قبور مشابهة ، لأبناء رمسيس الثالث . منها قبران جديران بالزيارة لحدّة تصاويرهما وجمال الثياب الملكية ونبل وجه أمون ــ حر ــ خبشف ، قائد العربات ووجه خع ــ ام ــ واس ، الكاهن الأعظم للإله بتاح .

وادى الملوك Valley of the Kings : إلى الشمال من قمة الجبل الغربى لمدينة طيبة ، يبدأ واديان (يلتقيان بعد ذلك بمسافة طويلة) ممتدان فى حوضين شديدى الانحدار ، ثم يتعرجان فى طريقهما خلال الهضبة المكونة من الحجر الجيرى . هناك قلب الجبانة ، الذى أُطلق عليه صواباً اسم « مكان الحقيقة » ، وبسبب انحدار صخورهما التى لفحتها الشمس بحرارتها ، ومنحدراتها الصخرية ، يمكن اعتبارهما رمزاً للفكرة المصرية عن التناسق العالمى ، الذى يتذبذب دون أن يتحرك . وإذ يغمر الضوء الصخر الجيرىّ ، يبدو وردىّ اللون ، ويبهر عيون كل من يتسلق ذلك الممر السحيق ، الذى كان يطرقه العمال الذين بنوا المقابر الملكية ، والذين أتوا من دير المدينة ، فقد أمرت ثلاث أُسر من الفراعنة ، بأن تُنحت قبورها فى الصخر أسفل القمة المكوّنة لهرم طبيعى ، كما سمحوا لبعض أقاربهم بمحاكاتهم فى ذلك .

ثم اختار أمنحوتب الثالث وآى ، مواضع فى الوادى الغربى ، المسمى الآن « وادى القرود » . والوادى الغربى هو وادى الملوك الحقيقى ــ يسمى بالعربيّة « بيبان الملوك » ، حيث دفن غيرهما من فراعنة الدولة الحديثة ، من تحوتمس الأول إلى رمسيس الحادى عشر .

نعرف هناك واحداً وستين قبراً ، وهذه أكثر عدداً من قبور طيبة نفسها ، وتشير إلى الزائرين الرومان . وقد أمكن العثور بسهولة على القبور المقفلة بالأحجار ؛ بينما كان هناك غيرها تحت أكوام ضخمة من الصخور فلم يمكن الوصول إليها إلا بمشقة وجهد بالغين (بواسطة بلزونى فى سنة ١٨١٨ ، ولوريه فى سنة ١٨٩٨ ، والأستاذ الأمريكى تيودور داڤيز فى سنة ١٩٠٣ ــ ١٩١٣ ، وكارنارڤون وكارتر فى سنة ١٩١٣ ــ ١٩٢٣) وقد وضع هؤلاء الملوك الأموات فى توابيت واحداً داخل الآخر ، ثم وضعت هذه التوابيت داخل توابيت ضخمة من الحجر الصلب ، وغطيت بأقنعة وصديريات وتمائم مصنوعة من الذهب السحرى .

دُفن مع كل أمير ما يحتاجه فى حياته

اليومية ، ويشمل الأسلحة والعربات والأوانى والثياب الموشاة والصناديق وغيرها

من الأثاث . فقد كانت معدات الميت الممجّد كثيرة دائماً ــ الأوانى الكانوبية والتماثيل المجيبة والمصنوعة من شتى المواد ، وتماثيل الألهة التى يجب أن يضاف إليها المقاصير المتنقلة والتماثيل الخشبية المطلية بالأسود ، التى استعملت فى الطقوس الجنائزية . كان كل شىء مع الملك ثميناً ولائقاً له . وإن حجرات قبر توت عنخ أمون الثلاث ، التى بقيت محفوظة بمعجزة فلم تعبث بها يد اللصوص ، هى التى أظهرت لنا كل هذه الأشياء . وإذا كانت كل هذه الكنوز العظيمة قد وُجدت بمقبرة توت عنخ أمون ، وليس هو من الفراعنة العظيمى القوة ، فما بالك بالكنوز التى دفنت مع رمسيس الثانى أو أمنحوتب الثالث ! لابد أنها كانت بالغة الروعة يضطرب لوصفها الخيال .

لما كانت تحرس وادى الملوك قلاع صغيرة ، فلابد أنه كان ممنوعاً على عامة الشعب . ولقد أعدت القبور الملكية « ولا أحد يرى ، ولا أحد يسمع » . وأقفلت مداخلها بالحوائط ، وسُدَّت بالحجارة غير المنتظمة ، ومع ذلك ، فلم تكن فى الواقع سرية . فبدأت السرقات إبان الأزمة التى حدثت فى نهاية الدولة الحديثة (انظر المومياوات الملكية) . والمقبرتان الوحيدتان اللتان يُطلب من السياح أن يراعوا فيهما حرمة الموتى ، هما مقبرتا توت عنخ أمون وأمنحوتب الثانى . فقد وُجد هذان الملكان فى تابوتيهما ، وسُمح لهما بالبقاء فيهما بكل وقار . وإذ نُقلت المومياوات الملكية الأخرى عدة مرات فى العصور القديمة ، فهى موجودة الآن فى متحف القاهرة . وتُعتبر كنوز توت عنخ أمون ، التى لم تمتد إليها يد العابثين ، وكذلك كنوز الأمير ماحريرع ، وأثاث حمى أمنحوتب الثالث وحماته الذى لم يأخذ اللصوص منه إلا المعدن الثمين الصالح للبيع ، وكل شىء خاص بتحوتمس الرابع وأمنحوتب الثانى فقد نجا من عبث اللصوص والمخربين ، ويعتبر اليوم من أثمن كنوز متحف القاهرة . وبوسعك اليوم أن تسير كيفما تشاء خلال القبور المنقورة فى الصخر التى وصفها سترابو فى سنة ٢٧ ق.م . بأنها أعمال ممتازة و تستحق الزيارة . إنها سلسلة من الحجرات مختلفة الأطوال محفورة تحت منحدر الجبل .

وقد زُخرفت الأعمدة والممرات بالمناظر الضخمة التى توضح مقابلة الملك للآلهة العظام ، أما السقوف والحوائط فمزينة بأشكال غريبة . وسواء أكانت هذه المناظر رسوماً خطية بسيطة (كما فى مقبرتى تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى) ، أم نقوشاً بارزة قليلة الارتفاع وملونة (كما فى قبور حور محب ورمسيس الأول وسيتى الأول) ، أو نقوشاً غائرة ملونة بالألوان الزاهية (كما فى مقبرتى رمسيس الثالث ورمسيس الرابع) فإنها تعيد إلى الأذهان أبهى أعمال النحت والتصوير .

يتحرك أسطول إله الشمس ، من حجرة إلى حجرة ، وسط ضفتين غاصتين بصفوف من الشياطين المرعبة . و « حجرة الذهب » فى مقبرة رمسيس السادس مغطاة جدرانها بحشود بطيئة مائجة من الكائنات والأشكال والظواهر الشمسية . ومن بين السائحين

الإغريق ، سائح كتب على حوائط المقابر فاقسم على أنه كان ينظر إلى أعمال خالية من المعنى . واعتقد آخر أنه حظى بفهمها ورأى نفسه يجتاز عتبة الحياة الأخرة . وسواء أكانت هذه الأشكال تسير على وتيرة واحدة أم تتوقف ، فإنها تفعل أكثر من كونها تصف رحلة خلال العالم السفلى . فعن طريقها شُبِّه القبر بالمنطقة تحت الأرضية الغربية حيث تغوص الشمس عند الشفق . إنها من أغنى النصوص بالمعلومات والرموز الجنائزية وتمدنا بذلك الوصف التصويرى الذى يفسر العملية العويصة التى تستعيد بها الشمس — التى يُشَبَّه بها كل ملك يموت — قوتها الحيوية فى كل ليلة .

الوحى Oracle : كان الآلهة يفهمون حق المدعى وعدالة المظلمة ، وفائدة تقديم الطلب فى موعده ، خيراً مما تفهمها أية هيئة بشرية . وكانوا يعرفون كيف يعثرون على اللص ويواجهونه بجريمته خيراً مما يفعل رجال الشرطة . وكانت تلك الآلهة تجيب بواسطة الوحى على معظم الأسئلة المختلفة الخاصة بالماضى والحاضر والمستقبل . وقد وصلتنا سجلات كثير من الاستشارات ، وتتضمن أسئلة من أشخاص متواضعين عن أمور تافهة تبلبل أفكارهم ، ومن أمثلتها : « كيف يعالَج هذا الشيء ؟ » وهل من الضرورى أن أسافر ؟ وهل الوقت ملائم للزواج ؟ وهاك بعض أمثلة حقيقية لبعض من تلك الأسئلة : هل أنا مذنب أو غير مذنب ؟ هل كنتُ مخطئاً فى زجْر هذا الخادم ؟ أين أجد الشيء أو الحيوان الذى سُرق منى ؟ .

كان الملوك أنفسهم يصغون بانتباه لوحى « الإله الذى يأتى ليتحدث إليهم كما يتحدث الأب إلى ابنه » ، إذ كانت تشغل بالهم المسائل العويصة ، كالغزو العسكرى ، وإرسال حملة إلى بلاد بعيدة ، وأعمال البناء ، والسياسات الداخلية . وكان البعض يسألون الوحى عن التَرقيات (مثل « هل سيجعلوننى رئيساً ؟ ») ، وعن اختيار كبار الموظفين (كالكاهن الأعظم لأمون) ، وعن اختيار الملوك فى الأحوال التى لا يكون فيها حقهم فى الملك واضحاً بجلاء .

لاستشارة الوحى عدة طرق ، بيد أن الطريقة العادية جداً ، هى سؤال تمثال الإله عندما يخرج فى سفينته أيام الأعياد ، فيجيب الوحى الإلهى بنعم أو بلا ، بواسطة حركة حامليه . فإن ساروا إلى الأمام كان ذلك دليلاً على موافقة الإله ، وإن ساروا إلى الخلف كان الجواب بالنفى . ويمكن كتابة الأسئلة المعقدة فى ألواح (فيختار الإله منها ما يشاء) أو على قطع من الفخار (شقافة) ، فيعطَى الجواب على قطعة من الفخار خاصة بالإجابة . كذلك كانوا يعرفون مشيئة الإله بالاقتراع على أجوبة معدَّة على سيقان أعواد الحبوب . وأخيراً ، كان بوسع المرء أن يلجأ إلى أصوات التنبؤ فى سكون المعابد ، وأكثرها غير معروف أو غامض . فإذا لم يسره الجواب ، ذهب إلى وحى إله آخر . ولا نعرف متى بدأت هذه العادة ، ولكن يُحتمل أنها كانت منذ عهد قديم جداً ، فى أكثر صورها الشائعة ، على الأقل . ويرجع تاريخ أول أمثلة استخدام الوحى إلى عصر الدولة الحديثة ففى عصر الملوك الكهنة ،

ذاع صيت الوحى فى اعتماد جميع أعمال الحكومة . وانتشرت هذه العادة فى كافة أنحاء مصر . كان هناك وحى لكل من إيزيس بمدينة قفط ، والثور بوخيس Buchis بمدينة ميدا موت ، وبس Bes بمدينة ابيدوس ، وآپيس بمدينة منف ، ولآلهة بوتو ، ولكثير من الآلهة الآخرين . بيد أن أشهر وحى هو وحى أمون بطيبة . وأمون ، كما نعرف ، رب الفراعنة . ولم يأنف الإسكندر الأكبر من أن يذهب إلى وحى أمون بواحة سيوة ويستشيره فى بعض أموره .

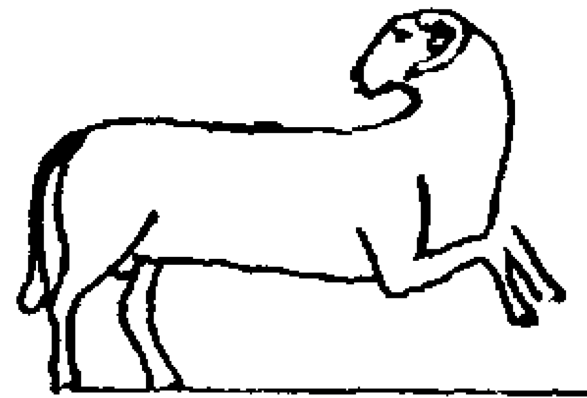
ودائـــع الأســاس Foundation Deposits : جرت عادة قدماء المصريين على أن يصحب إقامة أى بناء دينى ، كمعبد لإله أو معبد جنائزى ، أو مسلة ، بعض الطقوس المعقدة ؛ أهمها تحديد اتجاه البناء بضبط اتجاه وتدين على نجم (احتفال ليلى) ، وذبح حيـوان (إوزة بقطع رقبتها) ، ووضع بقايا الحيوان فى خندق الأساس . غير أنهم كانوا يضيفون إلى هذه الطقوس أموراً فى غاية التعقيد — وهى أن يضعوا فى ركن الأساس أو فى كوة بحائط الأساس ، مجموعة من الأشياء الصغيرة . وكانت تتألف عادة من لوحة أو أكثر من الذهب أو الخزف ، تحمل اسم الملك الذى بنى المعبد ، وكذلك نماذج مصغرة من المواد التى استخدمت فى البناء ، عبارة عن : كتل صغيرة من الحجر الرملى ، وألواح من المرمر والفـيروز والعقيق والفخـار والـطين والصمغ ، وألواح من الفضة والبرونز ، وكذلك بعض الأقداح والأوانى . وكثيراً ما تتضمن هذه الودائع أنواعاً منتقاة من الأدوات والآلات ، مصنوعة فى صورة مصغرة كى تعطينا فكرة عن الأجهزة التى استعملت فى تشييد ذلك البناء . فنجد معاول خشبية وقواديم وسكاكين من البرونز وسلالاً ، وتلك الآلة العجيبة ذات الشكل نصف الدائرى ، التى كـانت تسمى « المزاز » .

وزن الـقـلـب Weighing the Heart : وزن القلب اسم أطلق على احتفال مصور فى منظر ، نرى منه عدة صور فى كثير من مخطوطات البردى لكتاب الموتى ، والمنظر يبين وزن قلب الشخص الميت . يجلس القاضى الإلهى على عرش يراقب المنظر ؛ وغالباً ما يكون هو الإله أوزيريس تصحبه إيزيس ونفتيس ، وأحياناً يكون رع ، القاضى الأعظم . ويجلس أمامه الاثنان والأربعون مستشاراً . يُقَدِّم أنوبيس الشخص الميت ، فيدخل فى مواجهة قضاته ، ويوضع قلبه فى احدى كفتى الميزان بينما تحتل الكفة الأخرى الربة ماعت أو الريشة الممثلة لاسمها ، ويشرف على الاحتفال تحوت الذى يقوم بتدوين النتيجة فى لوح . وفى أثناء هذه العملية ، التى تقرر مصير هذا الشخص ، يظل الميت يتلو « الاعتراف الانكارى » المزدوج — ويكون عاماً أولاً : « لم أقترف ظلماً ضد البشر ، ولم أسىء معاملة الحيوان . . . . . ولم اجدف على الإله . . . . . ولم أجعل احداً يبكى ، وهكذا » . ثم يتلو الاعتراف الثانى المكون من ٤٢ مادة ، ويخاطب به الاثنين والأربعين مستشاراً ، كل واحد منهم

بدوره : « أيها القاضى فلان ، لم أقترف ظلماً ، أيها القاضى فلان ، لم أقتل أحداً ..... لم أصم أذنى عن سماع ألفاظ الحقيقة » ، وغير ذلك . ويقبع عند قاعدة الميزان وحش مخيف ، هو « الملتهمة » ، ينتظر نتيجة وزن القلب وهو متأهب لينقض على الميت إذا صدر الحكم ضده . وإذا لم يصدر الحكم ضده أُطلق سراحه ليدخل فردوس العالم الآخر . كثيراً ما نرى هذا المنظر فى الدولة الحديثة وما بعدها ، غير أن فكرة حكم ينتظر الشخص الميت عند عتبة الحياة الثانية ، موجودة منذ الدولة القديمة ، ولا شك فى أنها من أقدم عناصر الفكر الدينى المصرى .

الوزير **Vizir** : بدأ منصب الوزير (تاتى taty باللغة المصرية القديمة) منذ عصر سنفرو حتى القرن الرابع ق . م . (وفى أزمنة معينة كان هناك وزير للشمال وآخر للجنوب) . وقد جرت العادة أن يُختار الوزير من بين الكتبة المدربين على أعمال المحاكم . فكان هو الرئيس الأعلى للهيئة التنفيذية . ويتلقى الوزير الأوامر والتعليمات من الملك ، ويُعلم الملك بسير جميع الأمور أولاً بأول . ولما كان الوزير « إرادة السيد وعينى الملك وأذنيه » كان من الضرورى له أن يكون « أحكم الحكماء » لكى يضع الملك ثقته فيه . فكان أولاً وقبل كل شىء ، « وزير العدل » ، وله الإشراف كذلك والرقابة على جميع الهيئة الإدارية . كان هو المسئول عن المصالح الحكومية العديدة الآتية : الخزانة ، والأشغال العامة ، والهيئة الاستشارية القضائية ، ومحاكم الاستئناف والنقل النهرى . كذلك كان عليه أن يحضر مجالس الحرب ، ونحوها . كان عمله اليومى متعدد النواحى . فكان يذهب إلى حضرة الملك فى كل صباح لتقرير السياسة ، كما كان عليه أن يحضر المؤتمرات ، ويفحص التقارير ، ويرسل المراسلات ويعقد الجلسات ويشرف على الرحلات الرسمية . بيد أن ألقابه كانت طويلة طنانة ومقبرته فخمة . وكان شخصية بارزة فى مواكب الاحتفالات المخصصة لإظهار عظمته الشبيهة بعظمة الباشا ، فيعلق على صدره تمثالاً صغيراً للربة ماعت ، ربة نظام الكون والعدل والإدارة الحسنة وضامنة النظام الأخلاقى ومن الوزراء المشهورين بتاح حوتب (انظر أدب الحكمة) وميرا ورخميرع ورع موسى وياسر (فى عصرى سيتى الأول ورمسيس الثانى) .

الوسادة **Pillow** : انظر مسند الرأس .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب١٣٠٧/١٩٩٦

I.S.B.N- 977 - 01 - 4850 - 4



مكتبة الأسرة

عدد ممتاز

بسعر رمزى ثلاثة جنيهات

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦ 1996